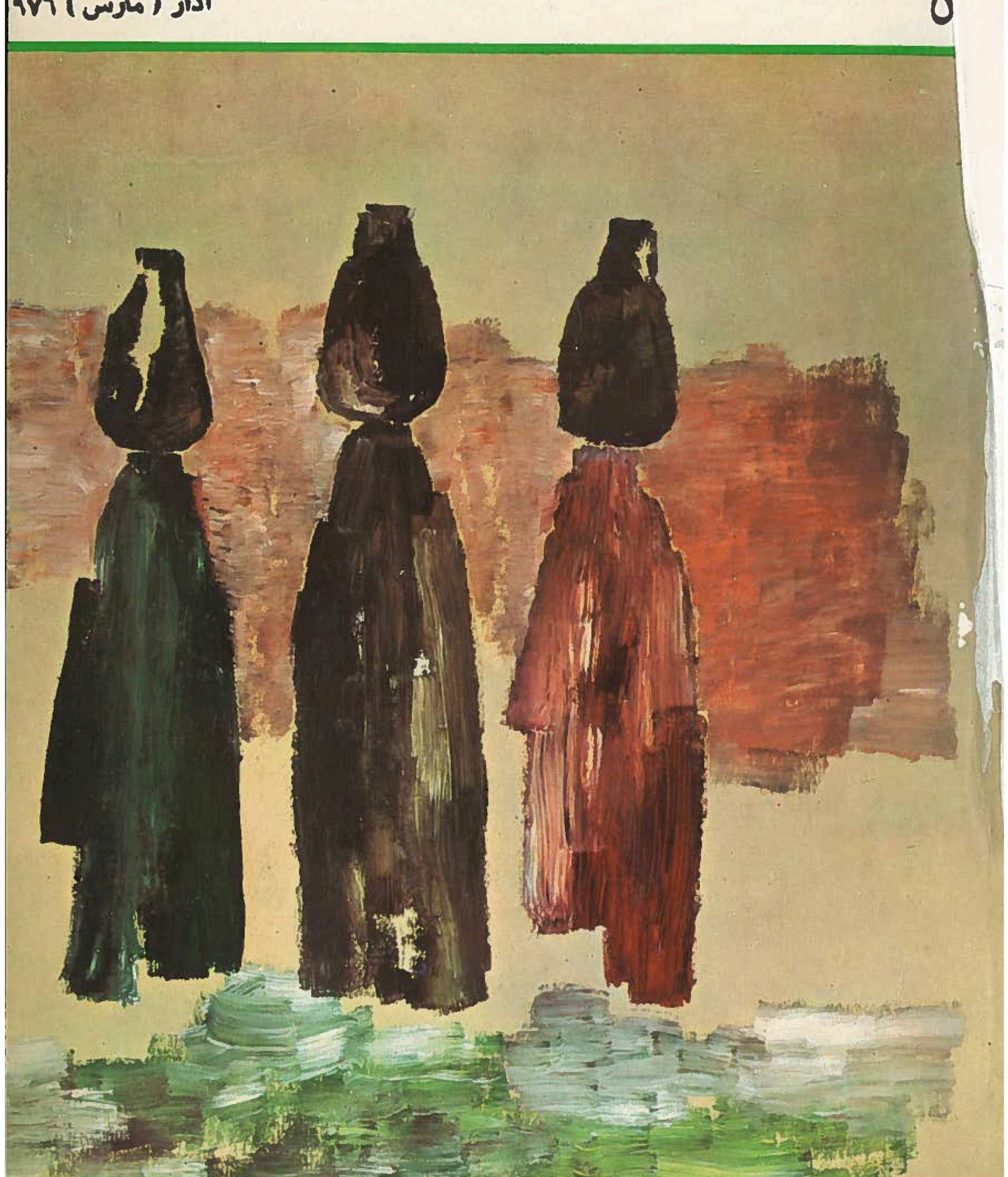
شؤون فلسطينية

٥
آذار (مارس) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٥ — اذار (مارس) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ــ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

صفحة ٤ **شؤون فلسطينية** .

٦ **المفجر الرئيسي للصراع في لبنان وطبيعة الطبقة الكومبرادورية الحاكمة** ، طلال شاهين .

٣١ **مستقبل النزاع العربي ــ الاسرائيلي** ، محمد سيد احمد

٤٦ **التسوية السياسية : خلفيات ونتائج** ، الدكتور سعيد حمود .

٥٢ **فقاعة الادارة الذاتية** ، الدكتور الياس شوفاني .

٦١ **الاتجاهات السياسية في الارض المحتلة والمواقف المختلفة من مؤامرة العدو الصهيوني لانشاء ادارة مدنية في الضفة والقطاع** ، علي الخطيب .

٦٩ **دروس مستفادة من تجربة المقاومة في الاردن** ، غازي الخليلي .

٧٨ **الاستقطاب الدولي والصراع العربي ــ الاسرائيلي** ، سلمى حداد .

٨٥ **الوكالة اليهودية والادارة الذاتية : من سابير الى الموجي** ، يوسف حمدان .

٩٥ **تجارب من الارض المحتلة : بيت دقو ذات القمح الاصفر** ، عبد الجواد صالح .

١٠٥ **السابقون** ، للصحفي السوفياتي تسزار سولودار ترجمة الدكتور شوقي العمري .

١٢٣ **الجبل الصغير : « مقاطع من قصة لم تتم »** ، الياس خوري .

١٣٢ **جامعة عربية في فلسطين : دراسة اولية** ، الدكتور حنا ناصر .

١٤٦ **التربية والمعركة** ، الدكتور الياس زين .

١٧٢ **الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة في اسرائيل** ، السيد عليوه .

١٨٤ **سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة في فلسطين ايام الانتداب** ، عادل حامد الجادر .

٢٠٦ **مراجعات** : حياة جولدا : رئيسة الحكومة الاسرائيلية ، نعمان كنفاني . اقتصاد المناطق المحتلة : التخلف يعمق الالحاق ، محمود شقير . حركة القوميين العرب : من القومية الى الماركسية ، فارس المنصوري . كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ ، (١) هـاني الزعبي ، و (٢) احمد صادق سعد .

٢٢٩ **اسرائيليات** : مشروع شمعون بيرس ، أو محاولة صهيونية لعزل المناطق عن الثورة ، صبحي النجار . المساعدات الاميركية لا توقف تدهور الاقتصاد الاسرائيلي ، حنه شاهين . نجاح المبادرة السورية في لبنان يقلق اسرائيل ، توفيق فياض . وثيقة ساوندرز تثير القلق داخل اسرائيل ، حمدان بدر .

٢٥١ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . (٢) القضية الفلسطينية دوليا . (٣) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٤) القضية الفلسطينية عسكريا ، الرائد الطيار حسين عويضة . (٥) جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ، غازي خورشيد .

شؤون فلسطينية

مع انخفاض حدة الازمة اللبنانية ، ودخول الصراع السياسي فيه مرحلة الهدوء النسبي ، تعود شؤون فلسطينية الى الصدور المنتظم مع مطلع كل شهر ، فماذا حملت الينا شهور الازمة الصاخبة ، التي كادت تكمل دورة السنة ؟

لقد اجتازت المقاومة الفلسطينية للمرة الثانية في تاريخها ، الامتحان العسكري لاثبات الوجود على الارض العربية . وها ان انقشاع العاصفة قد كشف عن ان عود المقاومة في امتحان ١٩٧٥ كان اشد صلابة منه في امتحان ١٩٧٠ ، وان حكمة التجارب السياسية التي اختزنتها قيادة المقاومة اكثر نضجا .

ومع ذلك فمن المؤلم حقا ، ان نرى المقاومة نفسها وهي تدخل ادق المراحل الانتقالية في تاريخ القضية ، وهي مرحلة اعادة ترتيب الاوضاع الجغرافية والسياسية في اعقاب حرب اكتوبر ، وهي مضطرة في الوقت نفسه ، وبعد مرور عقد كامل على ولادتها ، الى خوض معارك عسكرية لاثبات الوجود ، معارك طالما تجنبتها ، وطالما حاولت الاستغناء عن دخولها ، حتى وهي تتلقى اشد الضغوط التي تدفعها في طريقها .

كذلك فانه من المؤلم ان يحاول البعض فتح ملف الصراع السياسي على احقية المنظمة في تمثيل الشعب العربي الفلسطيني ، وهو الملف الذي كان مؤتمر الرباط قد اغلقه نهائيا ، معلنا التكريس العربي لنضال منظمة التحرير .

ولم يكن من باب الصدفة ان يكون الوجه الاخر لمعركة اثبات الوجود الفلسطيني المناضل على ارض لبنان ، معركة يخوضها لبنان مع نفسه لانتزاع لبنان الجديد من براثن رواسب الطائفية والانعزالية والتخلف . ذلك ان وجهي المعركة يعبران عن

جوهر الصراع المفروض على كل العرب بقصد ايقاعهم رهائن المحبسين : محبس التجزئة ، ومحبس التخلف ، وما البشاعات التي تقفزت الى السطح طوال ايام وشهور الازمة اللبنانية سوى تعبير عن رواسب التجزئة والتخلف .

كذلك لم يكن صدفة ان يكون الوجه الاخر للانجاز الذي حققته المقاومة الفلسطينية ، بالخروج قوية متماسكة من الازمة ، تثبيت وحدة التراب اللبناني ، عن طريق سقوط كل مشاريع التقسيم ، ووقوف لبنان امام عتبة تطوير نظامه ومؤسساته .

طبعا كان من الافضل للبنان وللمقاومة الفلسطينية تحقيق هذه الانجازات وتثبيت هذه الحقائق السياسية عن غير طريق هذا السيل العارم من التضحيات الجسيمة ، ولكن التاريخ لا يمنح الامم صكوك التقدم ، قبل ان يقبض الثمن .

على كل حال ، فان المرحلة الحساسة التي سيدخلها الصراع العربي ـ الاسرائيلي كما يشير كثير من التحركات والدلائل في هذه السنة ، ستضع المقاومة ، الاشد حكمة والاشد صلابة الان ، امام امتحان جديد ، في وقت ما تزال فيه جراح الازمة اللبنانية طريــة .

وهكذا ، وكأنه كتب على المقاومة الفلسطينية ان تصل الى مواقع فرض وجودها الكامل في واجهة المسؤولية المباشرة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، الا وقد خاضت التجارب المريرة التي تجعل قدرتها على اتخاذ القرارات المناسبة في اللحظات الحاسمة ، اكثر نضجا واشد مراسا .

هذا لا ينفي طبعا امكانية تعرض المقاومة مرة اخرى لمعارك جانبية من اجل اثبات الوجود العسكري او السياسي ، ولكن هذا الوجود لم يعد بعد كل هذه التجارب ، لقمة سائغة امام اي مخطط من مخططات التصفيــة او الاحتواء ، فكلما كبــرت مسؤوليات المقاومة ، يكون عودها قد تصلب بما فيه الكفاية لتحمل هذه المسؤوليات .

المفجر الرئيسي للصراع في لبنان

وطبيعة الطبقة الكومبرادورية الحاكمة

طلال شاهين

(القسم الاول)

ان التساؤل المطروح ، بعد الهدنة الاخيرة في لبنان ، هو هل الصراع المسلح قد انتهى بها ؟ وهل كافة المشاكل الناجمة عن هذا الصراع سيتم حلها من خلال « الحوار » الهادىء ؟ ام ان الامر لا يعدو كونه مجرد هدنة مؤقتة ، ستطول نسبيا بعد الضربات التي وجهت للقوى الفاشية للنظام ، ثم سيشتعل بعدها الصراع المسلح من جديد ؟

فما هي طبيعة الصراع اذن ؟ ولماذا تفجر على هذا النحو ؟ وهل سيجري حله على الصعيد المرحلي الاستراتيجي ضمن نطاق سلمي ام مسلح ؟ وما هي الخيارات الفعلية التي تواجهها القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وبصرف النظر عن النوايا الحسنة ؟ وما هو الحل الثوري الوحيد والشعار الثوري الوحيد الملائم في هذه المرحلة ؟

الواقع ان تطور اشكال المواجهة والصراع وتبلور الاستقطاب السياسي طوال الفترة الممتدة من نيسان ١٩٧٥ والى اليوم ، بات يملي على القوى الثورية والوطنية، في المرحلة المقبلة ، التخلي نهائيا عن مسألة انهاء الصراع في نطاق سلمي . اذ ان مثل هذا الحل سيكون على حساب ضرب القوى الوطنية وتحجيم وتصفية المقاومة الفلسطينية . فالعدو الرجعي عندما يشهر السلاح والعنف الدموي الرجعي لا يمكن مواجهته واحباط مخططه والقضاء عليه الا بالسلاح والعنف الثوري .

لقد اصرت قوى النظام الكومبرادوري الفاشية ذات الطابع الوحشي على المضي في المخطط الامبريالي الى النهاية . هذا المخطط الذي يستهدف ضرب المقاومة وتصفية القوى الوطنية والحركة الشعبية اللبنانية . وذلك بالرغم من كل محاولات واوهام التهدئة « والحوار » والبحث عن انصاف الحلول التي يمكن فقط ان تؤجل ،في افضل الاحوال ، الصدامات المحتومة ، او تمييع الصراع لصالح القوى المعادية . وهذا مما يستدعي من مختلف القوى الثورية والوطنية مراجعة مواقفها الاصلاحية السياسية وفحص برامجها في مواجهة الازمة السياسية والهجمة الرجعية . خاصة ان هذه الهجمة الفاشية الطائفية بمقدار الاستقطاب السياسي الوطني الجماهيري الواسع الذي استثارته ، فانها عملت ، ايضا ، على قتل وذبح الآلاف وجرح عشرات الآلاف الاخرى وتهديد الناس بحياتهم وامنهم ومعيشتهم والسعي لتقويض وحدة الشعب والوطن .

لقد مارست هذه الهجمة الفاشية ذات الطابع الوحشي استنزافا هائلا للجماهير المؤيدة للحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية من شأنه أن يؤدي الى انفضاض الجماهير من حولهما ، في حال استمرار الاستنزاف على اكثر من مستوى ، **بدون حسم الصراع على اساس ثوري في المرحلة القادمة** . فالجماهير لن تبقى صامدة الى الابد ازاء استمرار طابع الروح الدفاعية والاكتفاء بالردع المحدود القائم على ردود الفعل (وليس انطلاقا من سياسة محددة) لدى الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية .

صحيح ، **ان اتخاذ القرار السياسي القاضي باستبدال الروح الدفاعية بروح هجومية محددة الاهداف السياسية انما يرتبط اساسا بالتحضير الثوري لهذه العملية** الثورية عن طريق تنظيم الجماهير اللبنانية واقامة جبهة وطنية متحدة والتحالف الثوري الوطيد مع المقاومة الفلسطينية .

فالانتفاضة المسلحة الشعبية الشاملة من اجل الاطاحة بالقوى العسكرية الفاشية الطائفية ، تتطلب التهيئة السياسية والعسكرية الكافية . فهي علم يخضع لقواعد سياسية وعملية محددة . ويقوم على تعيين دقيق للمرحلة وميزان القوى السياسي على شتى المستويات .

لقد وصل الصراع في لبنان الى انعطافة تاريخية وسياسية حادة ، حيث سيتقرر في اثرها مصير الصراع بالنسبة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لسنوات طويلة مقبلة ، كما سيكون له تأثيره الجدلي الايجابي او السلبي على مجمل النضال الثوري المناهض للامبريالية والصهيونية والرجعية في المنطقة العربية .

ومن هنا ، فان ابراز الموقف الثوري العلمي المنسجم من طبيعة الصراع والازمة الراهنة في مواجهة المواقف الاصلاحية المختلفة وتعيين الشعارات الثورية الملائمة ، في هذه اللحظات التاريخية الحاسمة ، من شأنه أن يلعب دورا اساسيا في توجيه الصراع الوطني على ارض الكفاح والممارسة الثورية الديمقراطية الحازمة والوصول به الى تحقيق أهدافه . سيما ان الجماهير ، ابان الازمات والمنعطفات التاريخية المتميزة بالاستقطاب السياسي الحاد ، باستطاعتها ان تتعلم في عدد من الايام والشهور ما تعجز عن تعلمه في عشرات السنوات من التطور البطيء .

العامل الرئيسي المفجر للصراع

لا يمكن اختزال الصراع الدائر في لبنان الى اثر عامل واحد او مجموعة من العوامل المتجاورة حسب التسلسل الحسابي او المنطقي الشكلي . فعناصر اية ازمة سياسية ، او صراع ، انما تشكل في تفاعلها الجدلي عملية واحدة . الا ان هنالك دائما عنصرا رئيسيا محددا يدفع بهذه العملية ، في لحظة سياسية معينة ، الى حيز البروز ويجعلها تكسب هذا الشكل والطابع او ذاك ، ، والسير ، بالتالي ،في اتجاه الحل ضمن نطاق سلمي او مسلح في نهاية الامر .

والازمة اللبنانية الراهنة مركبة وحافلة بعناصر التعقيد المختلفة . والتحليل العلمي لها لا يكون بتعداد مختلف العوامل التي تتالف منها بحيث يأخذ كل عامل وزنا متساويا مع غيره من العوامل الاخرى . فالصراع المسلح الدامي الراهن لا يمكن تفسيره بالحديث عن الاوضاع الطائفية في لبنان وتشابكها مع الصراع الطبقي والوطني ، وكذلك بأثر ازمة النظام الرأسمالي العالمي ، في تفاقم ازمة النظام

الكمبرادوري اللبناني . كما لا يمكن تفسير ما يدور بالاوضاع السياسية الناجمة من تعاظم التواجد الثوري للمقاومة الفلسطينية علـى الارض اللبنانية ، وعلاقة ذلـك بالتسوية الاستسلامية التي يجري ترسيخ شروطها المادية لصالح الامبريالية الامريكية والعالمية على امتداد المنطقة العربية ، سيما في المشرق العربي .. الى آخر العوامل العديدة التي تشكل نسيج الازمة الراهنة .

ان الباحثين الاكاديميين البرجوازيين (وبعض ادعياء التحليل الماركسي) هم الذين ينظرون الى مجموع العوامل او الاسباب التي تتشكل منها الظاهرة او العملية بشكل متساو . وهم لا يعنيهم مطلقا التأثير في حركة الواقع من اجل تغييره تغييرا ثوريا . ولذلك يفتقد تحليلهم ، في النهاية ، الى الرؤيا العلمية الشاملة ، ويقع فـي اسار النظرة التجزيئية الميكانيكية والعد الحسابي للعوامـل والاسبـاب المختلفة . وتقتصر فائدة عملهم (اذا صح ان نسمي ذلك فائدة اصلا !) ، في نهاية المطاف ، على المادة الخام المنضوية في سياق التحليل . **ان مجموع العناصر والاسباب التي تشكـل الازمة الراهنة كانت لا بد ان تؤدي الى تفاقمها وانفجارها . لكن السبب الرئيسـي الذي يجعلها تنفجر الآن وليس في مرحلـة لاحقة ، وعلى هـذا الشكل القائم مـن الصراع السياسي العسكري الدامي ، ويوجه بالتالي الاحداث في لبنان انمـا هـو محاولات الامبريالية الامريكية احكام قبضتها على المنطقة العربية من خلال حلقـات التسوية التي تجري لصالح تدعيم نفوذها وسيطرتها .**

ضمن هذه الزاوية بالتحديد تأتي المحاولات الشرسة الاخيرة لتصفية المقاومـة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان حيث يشكل الوضع اللبناني القائم ثغرة اساسية يمكن ان تشكل خطرا على استقرار الاوضاع لصالح الامبريالية والصهيونية والحلف الرجعي العربي . **ان الهجمة الفاشية الطائفية الكمبرادورية على المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لا تستمد قوتها اساسا من موازين القوى الداخليـة في لبنان ، بل من توطد المصالح والنفوذ الامبريالي في المنطقة العربية .** وهذه الهجمـة تأخذ هذا الشكل الدامي العنيف ضد المقاومة والحركة الوطنية من شراسة المخطط الامبريالي العام في المنطقة والذي تلاقى مع تفاقم الازمة الداخلية للنظام الكمبرادوري التابع وبلوغها مرحلة من التناقض العدائي الحاد مع مصالح الجماهير والقوى الوطنية في كافة المجـالات . فالصراع بين الجماهير اللبنانية وقواها الوطنية والمقاومـة الفلسطينية وبين النظام الكمبرادوري كان لا بد ان ينفجر بصورة سافرة ، ولكـن الذي يجعله ينفجر في هذه الفترة بالذات ويأخذ هذا الشكـل والاتجاه القائم هـو التسوية التي تجري لصالح الامبريالية في المنطقة . سيما ان ميزان القوى الداخلـي وحده لا يتيح لقوى النظام قدرة واضحة لحسم الصراع لصالحه اذا نظرنا الى الصراع في لبنان بشكل معزول عما يدور في المنطقة .

لقد سبق ان واجـه النظام وباشكال مختلفة من العنف المقاومة الفلسطينيـة والحركة الوطنية اللبنانية ، **وليست المواجهة الراهنة مجرد تتويج اكثر حدة من حيث الدرجة بالنسبة للمواجهات السابقة فحسب ، بل هي مواجهة نوعية مختلفة ، تأتي في سياق ظروف سياسية مختلفة ، وتطرح قضايا سياسية مختلفة ايضا على جميع القوى الوطنية ، اي انها تطرح ليس مجرد الاكتفاء بالدفاع عن المقاومة الفلسطينية وتحقيق بعض المطالب الوطنية والاصلاحية ، بل ضرورة التحضير الثوري للاطاحـة الشعبية المسلحة بمختلف القوى العسكرية الفاشية الطائفية وبالتالي اسقاط النظام الكمبرادوري الى الابد واقامة نظام وطني تقدمي ثوري كمرحلة انتقالية في سيـاق انجاز الثورة الاشتراكية والوحدة العربية على اسس ثورية .**

لقد تمت هذه المواجهة الاخيرة ضمن اطـار المناخ السياسي لمحاولات ابـرام تسوية سيناء الاخيرة . وذلك ابتداء من حوادث صيدا ومجزرة عين الرمانة والمعارك التي تلتها ، وانتهاءا بالمعارك المتتالية التي لم تنقطع بعد ابرام صفقة سيناء التي قام بها النظام المصري مع اسرائيل من خلال الامبريالية الامريكية ولصالحها اساسا .

وتسوية سيناء تأتي لتوطد المصالح الامبريالية وبخاصة الامبريالية الامريكيـة في المنطقة العربية بما في ذلك تدعيم وتكريس دور اسرائيل كعصا غليظة للامبريالية ، وتقوية نفوذ الرجعية العربية .

وما يمس نضال الشعب الفلسطيني ونضال الشعوب العربية بصفة عامة هو غياب اي اشارة لحقوق الشعب الفلسطيني ، بالرغـم من كافة الاوهام المتعلقـة بالتسوية لدى عدد من القوى الوطنية الفلسطينية .. فما جاء في المادة الاولى مـن هذه الاتفاقية كما نصت ، مباشرة ، ان حل « النزاع » بين مصر واسرائيل « وفـي الشرق الاوسط لا يتم بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية » . كما تنص المادتان الثانية والثالثة عن تعهد الطرفين « بعدم استخدام القوة او التهديد بها » « والامتناع عن اي اعمال عسكرية او شبه عسكرية » . فالنظام المصري هنا يتعهد رسميا امام الاستعمار الامريكي بأن الصراع (او « النزاع » كما تطلق عليه الاتفاقية) في الشرق الاوسط عامة ، وليس بين مصر واسرائيل فقط ، لا يتم حله الا بوسائل سلمية . اي ان هناك استبعادا للصراع المسلح . **والصراع المسلح ، هنا ، ليس مجرد وسيلة مـن وسائل حل الصراع مع الصهيونية والامبريالية ، بل هو الوسيلة الرئيسية منظـورا اليها على اساس سياسي ، فالوسائل المستخدمـة في اي صراع انما يحتمها حـدة الصراع نفسه وطبيعة القـوى المعادية الداخلة فيه . والصراع مـع هذه القوى المعادية ليس مجرد « نزاع » على اراض محتلة ومتنازع عليها فحسب ، بـل هـو صراع يرتبط جدليا بتحرر المنطقة العربية واستقلالها السياسي والاقتصادي الحقيقي من كل اشكال السيطرة والاستغلال والقهر الامبريالـي الصهيوني وسائر القـوى الرجعية العربية المرتبطة بالامبريالية ومصالحها السياسية والاقتصادية .**

والدور الخاص المنـاط بالكيان الصهيوني العنصري الاستيطاني العسكـري العدواني دائما لكي يلعبه اساسا لصالح الامبريالية العالمية والامبريالية الامريكيـة خاصة في المنطقة العربية يتجلى من خـلال تصديه لاي نهوض وطني عربـي معاد للامبريالية ، ويستهدف استكمال شروط التحرر والاستقلال (سيما في مصر وسوريا وفلسطين) **هذا الدور الخاص لا يمكن القضاء عليه بشكل رئيسي الا عبر التصـدي الثوري المسلح والوثيق الارتباط بمحاربة كل اشكال السيطرة الامبريالية .**

ولقد عاني الشعب الفلسطيني اكثر من سواه من الشعوب العربية من القهر الوطني والاجتماعي الحاد من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الامبريالي الذي رسخ وجوده ودوره على حساب الحقوق تاريخية والوطنية لهذا الشعب المناضل العظيم. **وقد ادرك هـذا الشعب ايضا بخبرته النضالية العريقة طوال عشرات السنوات ، وخاصة بعد عام ١٩٤٨ ، ان هزيمة العدو الذي يواجهه لا يتم اساسا الا عبر الكفاح المسلح بتوجيه الضربات المتتالية « بالمشاركة الفعالة للشعوب العربية الاخرى » لهذا العدو/من الخارج حتى تصفيته النهائية وتحطيم دوره في المنطقة .** فاسرائيل ليسـت مجتمعا عاديا يمكن ان يتغير نظامها بفعل التناقضات الطبقية الداخلية التي تعمـل فيه . بل ان هذه التناقضات لا يمكن أن تلعـب دورا مؤثرا وفاعلا الا بعد توجيـه الضربات الى اسرائيل من الخارج .

فالنضال المسلـح الفلسطيني والعربي ، ايضا ، ضد اسرائيل ليس مجـرد اسلوب من اساليب النضالات الاخرى ضد اسرائيل تم اختياره بصورة اعتباطية ، بل هو تجسيد لخلاصة التجربة النضالية السياسية لهذا الشعب ولمجموع الشعـوب العربية المحيطة باسرائيل في مواجهة العدو الصهيوني الامبريالي . وهو بذلك يعتبر الاسلوب الرئيسي من اساليب النضال الفلسطيني ، وذلك مهمـا كانت ملاحظاتنـا السياسية على النضـال الوطني الفلسطيني الراهن ، لان المعضلة الاستراتيجيـة بالنسبة للنضال الفلسطيني المسلح الراهن هي كيفية الملاءمة بين طرح اعلى اشكال الكفاح « الكفاح المسلح » وبين الاطر السياسية والتنظيمية والايديولوجية التي يجب ان تصونه وتقوده الى الامام نحو اهدافه على اسس برنامج وطني ثوري وبتحالـف نضالي وثيق مع نضال الشعوب العربية .

فعندما تقرر اتفاقية سيناء السياسية ان الصراع « النزاع » في الشرق الاوسط عامة (وليـس بين النظام المصري واسرائيل فقـط) لا يتم بالقوة المسلحة وانمـا بالوسائل السلمية ، فـان البندقية والنضال المسلح الفلسطيني هما في طليعـة المستهدفين للتصفية . ان تسوية سيناء الاخيرة لا تأتي في سياق معزول ، كما ينحو لذلك البعض ، بل هي **حلقة خطيرة ذات دلالة نوعية خاصة تستبعد احتمالات الحرب من مسلسل حلقات التسوية** التـي تسعى الانظمة العربيـة لعقدها مع اسرائيـل والامبريالية الامريكية بعـد عام ٦٧ . لقد واجهت الامبريالية العالمية والامبرياليـة الامريكية بوجه خاص ، وهي في سعيها لتوطيد مصالحها ونفوذها في المنطقة العربية ابان الخمسينات وفي اواخر الستينات ، برجوازيات قومية صاعدة سياسيا تعمل من اجل السيطرة على السلطة السياسية والسوق القومي في بلادها من خلال اشكـال سياسية جديدة من السيطرة البرجوازية (حيث تمت السيطرة اساسا على السلطة بواسطة الانقلابات العسكرية) ، وليس على اساس التمثيل السياسي التاريخـي التقليدي للبرجوازية القومية . وقـد حتمت هذه الاشكال الجديدة من السيطـرة البرجوازية المعضلات التي واجهت الطريق الراسمالي التقليدي ، وتفاوتت هـذه الاشكال تبعا لخصوصية التكوين الاقتصادي والسياسي واحتدام الصراع الطبقـي والوطني في كل بلد عربي .

المهم ان **الامبريالية العالمية واجهت في مرحلة الصعود السياسي للانظمـة البرجوازية مقاومة نسبية قوية في سعيها لتدعيم نفوذها ومصالحها في المنطقة . وقد تمكنت البرجوازيات القومية المشار اليها اعلاه من تحقيق الحد الادنى من الاستقلال السياسي والاقتصادي في مواجهة الامبريالية . ولقد كان الوجه الرئيسي لهذه الانظمة في تلك الاونة ذا طابع وطني معاد للامبريالية .**

اما في مرحلة الهبوط السياسي لهذه البرجوازيات وخاصة بعد ٦٧ ، فقد تحول الوجه الرئيسي بفعل الطبيعة الطبقية الداخلية وتحت ضغط الاحتلال الاسرائيلـي للارض ، وطفا على السطح الوجه الجديد المتهادن مع الامبريالية واسرائيل ، والذي اخذ يلعب دورا رجعيا سافرا ، كما هو الحال بصفة خاصة مع البرجوازية المصرية في السنوات الاخيرة .

وقد سرع الاحتلال الاسرائيلي للارض والمقايضة باجزاء منها من معدل تراجع الانظمة البرجوازية لصالح الامبريالية. ولكن الجديد في الامر هنا هو التقاء هذا الاحتلال بتفاقم الميل الموضوعي المتهادن للاستعمار لدى هذه الانظمة ، وذلك مما اتاح خلـق الظروف الملائمة للامبريالية لكي تسعى لاحكام قبضتها على المنطقة . وبالطبع يتفاوت

موقف كل برجوازية قومية من الامبريالية والصهيونية ومختلف القضايا الوطنية والاقتصادية والسياسية الدولية ، وذلك تبعا لمستوى التطور السياسي والاقتصادي في هذا البلد او ذاك ، ووضع الحركة الشعبية والمعضلات النوعية الخاصة التي تواجهها هذه البرجوازية في بلدها .

الا ان الذي يمكن الامبريالية في هذه المرحلة من تشديد قبضتها السياسية والاقتصادية هو السياسة المتهادنة او الرجعية السافرة (النظام المصري) التي تتبعها هذه البرجوازيات تجاه الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية . هذه السياسة المرتبطة بالطبيعة الطبقية للبرجوازية في مرحلة تفسخها وانتهاء دورها الوطني من الزاوية الرئيسية . وليست التسوية السياسية بعد ٦٧ سوى الاطار السياسي العام الذي تتم فيه حلقات الاستسلام بمعدلات ووتائر معقدة ومتباينة وبالشروط التي تضعها الامبريالية الامريكية والصهيونية والرجعية العربية اساسا . وقد قطع النظام المصري في عقده لتسوية سيناء شوطا بعيدا في توطيد مصالح ونفوذ الامبريالية الامريكية في المنطقة . **ولم تغير حرب اكتوبر ، بالرغم من التضحيات الوطنية الباسلة التي قام بها الجنود والضباط العرب وهزها لعدد من ادعاءات العدو الصهيوني ونظرياته ، لم تغير هذه الحرب من السياسة التي تنتهجها هذه الانظمة ،** فقد كانت هذه الحرب حرب « تحريك » لمفاوضات التسوية السياسية ، **وقد تحدد طابعها الطبقي السياسي الاساسي في خدمة مجرى السياسة الطبقية التي تسير عليها الانظمة البرجوازية قبل ٧٣ وبعدها .**

فهذه الحرب لم تتحول الى حرب وطنية منسجمة تستهدف تحرير الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة ، والتصدي الحازم لاسرائيل والامبريالية . فقد تحدد نطاق هذه الحرب بالطبيعة الطبقية السياسية للبرجوازية في مرحلة محددة من تطورها : مرحلة هبوطها السياسي . **وقد غذت هذه الحرب عددا من الاوهام والانحرافات السياسية داخل العديد من الاحزاب اليسارية والقوى الوطنية البرجوازية الصغيرة ، بما في ذلك عدد من التنظيمات الوطنية الفلسطينية ...** وفي مقدمة هذه الاوهام التصور ، غير القائم على فهم علمي لطبيعة القوى الطبقية والمرحلة السياسية ، ان نتائج هذه الحرب « الوطنية المحدودة » قد غيرت من موازين القوى القائمة في المنطقة وهي تتيح امكانية اجراء تسوية سياسية يتم من خلالها انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة عام ٦٧ واقامة سلطة وطنية فلسطينية. **هذا بينما السياسة الفعلية التي تدور من قبل البرجوازية هي التفريط بأسس الاستقلال السياسي والاقتصادي والتهادن مع الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية والتخلي عن دعم النضال الوطني الفلسطيني .**

وما ينبغي ابرازه هنا بشكل واضح **ان توطد النفوذ الامبريالي في المنطقة يفترض بالفعل تقوية وتدعيم دور اسرائيل كأداة امبريالية والاقرار في المنطقة حتى بدورها هذا .** بينما يتصور البعض ، من خلال بعض الظواهر الجزئية والسطحية ، ان ما يجري لصالح الامبريالية الامريكية ، انما هو على حساب اسرائيل وتقليص دورها .

ان اي سلطة وطنية ثورية فلسطينية على اي جزء من ارض فلسطين انما تتم في مواجهة التسوية السياسية القائمة (التي تستهدف فيما تستهدف اليوم تصفية النضال الوطني الفلسطيني) وانطلاقا من اسس برنامج ثوري كفاحي فلسطيني وثيق التحالف مع نضال الشعوب العربية الاخرى وحركاتها واحزابها الثورية .

الامبريالية والمنطقة العربية

اذا كانت الامبريالية العالمية وعلى راسها الامبريالية الامريكية **قد تمكنت من تعزيز نفوذها وتوطيد مصالحها في المنطقة العربية بعد ١٩٦٧ بشكل خاص من خلال** الدور الخاص الذي لعبته اسرائيل باحتلال الاراضي العربية للضغط من اجل التسريع في معدل تهادن البرجوازية مع الامبريالية ، واذا كان هذا الدور الاسرائيلي قد تلاقى مع الميل الموضوعي لدى البرجوازية في مرحلة محددة من تطورها (مرحلة الهبوط) للتهادن مع الامبريالية ، فان **المنطقة العربية تزداد اهميتها السياسية والاستراتيجية والنفطية للامبريالية في هذه الاونة بصورة استثنائية** مما يجعلها تعمل اكثر فاكثر وبمختلف السبل الى محاولة تشديد قبضتها والمحافظة على مصالحها ونفوذها في هذه المنطقة ، سيما بعد الهزيمة السياسية العسكرية الساحقة التي واجهتها امريكا في فيتنام وكمبوديا . فالمنطقة العربية اليوم هي اهم واخطر موقع للمصالح الامبريالية .

فعلى صعيد النفط تزداد يوما بعد يوم حاجة امريكا الى استيراده من اجل استهلاكها الخاص ، واحكام السيطرة على مصادر النفط في المنطقة العربية تعني بالنسبة لامريكا تحسين شروط ميزان التبادل التجاري بينها وبين اوروبا واليابان والتحكم اكثر في سياستهما نظرا لاحتياجهما الهائل للنفط .

ومن جهة ثانية فان تأثير هذه المنطقة السياسي يمتد ليشمل تركيا وأيران واجزاء من افريقيا واسيا وجنوب اوروبا ، في ظروف باتت تعصف فيه الازمة الرأسمالية العالمية باستقرار عدد من البلدان الرأسمالية الغربية . ونظرا لتفاقم الازمة الرأسمالية العالمية للامبريالية في هذه المرحلة (ليس هنا المجال لتعداد اسبابها) فان الآفاق المطروحة امام الامبريالية تسير في اتجاهين لكل منهما مشاكله النوعية الخاصة :

١ ـ السعي المحموم بمختلف الوسائل لاحكام السيطرة على الشعوب واخضاعها . والحد قدر الامكان من محاولات (او الادق ازعاجات) بعض البلدان التابعة لتحسين شروط تبعيتها للامبريالية في ظروف تتميز بضعفها النسبي ولكن هذا السعي يصطدم بشكل رئيسي بنضال الشعوب ومقاومتها (الشعب الفلسطيني ، انغولا . . . الخ) وليس « بنضال » النظم الرجعية في البلدان التابعة لتحسين شروط تبعيتها (ايران وبدرجة اقل السعودية وسواهما) . اذ ان **الاساس بين الامبريالية والبلدان التابعة لها هو التنسيق والتكامل الوظيفي في نهاية الامر** (رغم كل التعارضات الثانوية القائمة على ارض ضعف الامبريالية نتيجة نضال الشعوب اساسا وطبيعة الازمة الامبريالية نفسها) **لمقاومة نضال الشعوب واخضاعها** . واية اوهام اخرى في هذا المجال ستؤدي الى انحراف خطير ومضر بقضية الثورة كما هو الحال بالنسبة للانحراف الصيني الحالي .

٢ ـ الاتجاه لاقناع الناس في الغرب بمختلف السبل بتخفيض مستوى معيشتهم (سياسة شد الاحزمة) . ولكن هذا السعي لا بد ان يؤدي الى ردود فعل شعبية والى انضاج الشروط الموضوعية للثورة في هذه البلدان ، وهذا ما تخشاه الامبريالية الى حد كبير ويجعلها تركز اساسا بكل ما تملك من وسائل وقوى حليفة لمحاولة القضاء على المقاومة الثورية للشعوب بوجه عام وفي هذه المنطقة العربية بوجه خاص . وذلك بعد ان تحولت هذه المنطقة الى الموقع الاساسي والاستراتيجي الاخير

للامبريالية العالمية ، فأي تغيير حقيقي ثوري في هذه المنطقة سيؤدي الى زعزعة ركائز السيطرة الامبريالية القائمة والى تفاقم الازمة الامبريالية العالمية بشكل لا مثيل له .

ان اهم العقبات التي تحول دون احكام السيطرة الامبريالية واستمرارها في هذه المنطقة هو النضال الثوري للشعوب العربية . وفي هذه المرحلة بالذات يقف الشعب الفلسطيني ومقاومته المسلحة والحركة الوطنية اللبنانية المتلاحمة معهما (بالرغم من قصورهما في عديد من المجالات السياسية والتنظيمية والايديولوجية) في طليعة النضال الوطني الثوري في وجه الحلف الرجعي : الامبريالية الامريكية واسرائيل والفاشية الكومبرادورية الطائفية والرجعية العربية .

ان الامبريالية العالمية وهي تلاقي الهزائم من الشعوب والحركات الثورية وتتفاقم ازماتها العامة بصورة خطيرة ، لا تتخلى عن سياساتها العدوانية تجاه الشعوب من اجل استمرار وتدعيم مصالحها ، بل انها تزيد حدة وشراسة . وبالرغم من الافكار الميكانيكية الخاطئة التي يحملها البعض في هذا الصدد ، وذلك بحكم طبيعتها الامبريالية العدوانية . وهي بذلك في النهاية انما تحفر قبرها بيدها وتهدد مصالحها نفسها على ايدي حركات التحرر الوطني والقوى الثورية المنسجمة .

ان الامبريالية العالمية وخاصة الامريكية ، ازاء الازمات الحادة التي تواجهها اليوم على اكثر من صعيد ، تفتقد الى المرونة النسبية الكافية للتعامل مع اوضاع لا ترضى عنها تماما .

وقد لعب النظام المصري بتوقيعه على تسوية سيناء السياسية دورا خطيراً في تسهيل المخطط الامبريالي ووضع كافة الاطراف المعترضة عليه بصورة او بأخرى في وضع لا يحسد عليه . ان النظام المصري قد انتقل بعد توقيع هذه الاتفاقية الى خدمة المخطط الامبريالي الصهيوني الرجعي الرامي من خلال التسوية الى احكام قبضته على المنطقة وتصفية نضال الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية ونضال الشعوب العربية الاخرى .

ولكن مشكلة المخطط الامبريالي بشكل عام انه يلجأ احيانا للاعتماد على اوضاع وانظمة منخورة وضعيفه كما هو الحال بالنسبة للنظام العسكري اليوناني في قبرص ، وبصفة خاصة نظام الكومبرادور الطائفي اللبناني وقواه الفاشية للعب دور الاداة التنفيذية في لبنان . وهذا مما ادى الى خلق اوضاع جديدة سنعمل على تبيانها في سياق التحليل . والرجعية اللبنانية انما تستمد قوتها وشراستها وتصعيدها الذي يبدو للناظر الساذج مفاجئا ، بل وحتى « غبيا » ، من قوة النفوذ الامبريالي الصهيوني الرجعي في المنطقة الذي توطد اكثر بعد تسوية سيناء . وقد التقى هذا مع تفاقم تناقضات النظام الكومبرادوري الطائفي مع الجماهير الشعبية حيث باتت سيطرة « وسيادة » هذه الطبقة مهدده بالخطر مما جعلها تبادر الى ممارسة العنف الرجعي ضد الجماهير والحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية .

لقد اصبح لبنان بعد ضرب المقاومة الفلسطينية في الاردن عام ٧٠ — ٧١ مركز الثقل الاساسي الذي تنطلق منه المقاومة . وقد شكلت المقاومة وابناء الشعب الفلسطيني المتواجد في لبنان بتلاحمهما النضالي مع الحركة الوطنية التقدمية والجماهير اللبنانية **وضعا ثوريا جديدا** بات يهدد استقرار النظام الكومبرادوري واستمراره، كما اخذ هذا الوضع يشكل خطرا يهدد الانسجام والاستقرار المطلوب لصالح المخطط

الامبريالي للسيطرة على المنطقة ، ويضع الصعاب والعراقيل القوية امام محاولات تصفية النضال الفلسطيني والقضية الفلسطينية . ومن هنا كان من الطبيعي ان تتجه انظار الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية بعد خطوات التسوية التي انجزتها الانظمة العربية ، وبخاصة خطوة النظام المصري الاخيرة في سيناء ، الى العمل والسعي لتصفية هذا الوضع الخطر في لبنان . ويجدر التنويه ان هذه الهجمة الرجعية تستهدف ، ايضا ، الضغط على النظام السوري من خلال محاولة تصفية المقاومة في لبنان ووضعه في اسوأ الشروط السياسية والامنية للتفاوض من موقع اضعف ودفعه للقبول بالحد الادنى الشكلي من الارض السورية المحتلة مقابل الاقرار العملي بكل شروط الهيمنةالا مبريالية الصهيونية الرجعية في مختلف المجالات ، ومن ضمنها التعهد بعدم استخدام الاشتباك المسلح لحل الصراع مع اسرائيل والتخلي عن المقاومة والقضية الفلسطينية « والانفتاح » السياسي والاقتصادي على الغرب ، وبالتالي ، فض عرى علاقاته الدولية بالمعسكر الاشتراكي .

لم تكن الاوضاع « الليبرالية » في لبنان تشكل ، في المرحلة السابقة ، خطرا على النظام الطبقي الكومبرادوري (نظام وكلاء وسماسرة الامبريالية) القائم . اذ انها كانت تقوم بدور نوعي مميز باعتبارها محطة توازن لمختلف الفئات والقوى الاجتماعية الداخلية تستهدف الحفاظ على النظام الكومبرادوري الطائفي في علاقته بالصراعات والتوازنات القائمة في المنطقة العربية بين البرجوازيات العربية الصاعدة في الخمسينات والستينات وبين الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية . وكان كل طرف من هذه الاطراف يجد له متنفسا في اطار هذه الاوضاع « الليبرالية » ، ويجد ، ايضا، انصاره وحلفائه . وهذا ، بالطبع ، كان يلتقي مع اتجاهات سياسية يقررها الواقع اللبناني اساسا . ولم تكن الاحزاب السياسية الاكثر راديكالية في الواقع اللبناني تسعى للتحضير الثوري والعمل من اجل الاطاحة بسلطة النظام الكومبرادوري ، بل كانت برامجها تقتصر على طرح المطالب الاقتصادية لتحسين الاوضاع المعيشية للجماهير ضمن اطار النظام الكومبرادوري التابع ، بالاضافة الى طرح « بعض » المطالب السياسية والوطنية في مناسبات وظروف تمتاز بالاستقطاب السياسي الشديد حول قضايا سياسية ووطنية محددة .

وقد تمثل في الاحزاب والقوى الوطنية اللبنانية اتجاهان اساسيان :

١ ـــ اتجاه يساري وهو ذو طابع اصلاحي ، وضع نفسه في ذيل الصراع السياسي الطبقي والوطني . فلم يطرح سوى شعارات اقتصادية واصلاحية .

٢ ـــ الاتجاه الثاني تمثل في الاحزاب والقوى القومية البرجوازية الصغيرة التي لم توجه انظارها ، تبعا لايديولوجيتها القومية وفهمها النخبوي للعمل السياسي وتكوينها الطبقي البرجوازي الصغير ، نحو العمل التغييري داخل لبنان ، بل كانت انظارها متجهة بانتظار ما سوف تنجزه حركات وقوى واحزاب النضال القومي البرجوازي والانقلابات العسكرية من انتصارات مفاجئة وساحقة ضد الامبريالية . وذلك في الدول العربية الكبرى . ومن ثم كان النضال التغييري في لبنان عملا مؤجلا بانتظار النتائج السحرية التي ستنجزها القوى والاحزاب البرجوازية القومية في الدول العربية الكبيرة .

ولكن ، بعد هزيمة ١٩٦٧ وضرب المقاومة الفلسطينية عام ٧٠ ـــ ٧١ في الاردن تحولت الساحة اللبنانية الى المركز الاساسي للمقاومة الفلسطينية .

وقد ادى تواجدها الثوري ، الذي تلاحمت معه الجماهير والاحزاب والقوى الوطنية ، الى الاسهام في تصاعد المد الشعبي المناهض للنظام في مختلف المجالات . وذلك نظرا لتفاقم ازمة النظام الكومبرادوري التابع وتناقضه مع مصالح الجماهير وطموحاتها الوطنية . **وقد نجم عن كل هذا وضع ثوري جماهيري جديد بات يطرح ، موضوعيا ، على كافة الاحزاب والقوى الوطنية ضرورة المبادأة والفعل ، وبالتالي تغيير سياساتها الاصلاحية الاقتصادية ومواقفها الانتظارية العقيمة من مسألة السلطة السياسية** . ولكن بدلا من ان تأخذ هذه الاحزاب والقوى الوطنية زمام المبادرة لمعاينة ومواجهة السمات السياسية للوضع اللبناني الجديد والسعي لتجنيد الجماهير في جبهة وطنية متراصة وطرح الشعارات الثورية الملائمة قبل استفحال خطر الهجمة الرجعية ومواجهتها بالعنف الجماهيري المنظم وبسياسة ثورية محددة وليس بردود الفعل ، فان السلطة نفسها هي التي بادرت بشن الهجوم من خلال اجهزتها القمعية في البداية ثم باحتياطها من القوى الفاشية الطائفية ! واتخذ العنف الرجعي الذي مارسته صوراً واشكالا دموية وحشية .

هكذا وجدت الحركة الشعبية والوطنية (ومعها المقاومة الفلسطينية) نفسها في موقف دفاعي ، مما عرضها الى الوقوع في بعض ردود الفعل القائمة على اساس طائفي . اذ ان منع ردود الفعل الطائفية ليس مسألة اخلاقية ومبدئية مجردة بقدر ما هو مسألة سياسية تتعلق اولا واخيرا بنوع الخطة السياسية لمواجهة العدو ، وحتى سياسة الردع العسكري المحدود وسواها من السياسات العسكرية الاخيرة اذا لم تكن مبنية وموظفة في سياق خطة سياسية واستراتيجية واضحة فانها لا يمكن ان تتجاوز نطاق سياسة رد الفعل غير السياسية ..

ان تطور الوضع السياسي والجماهيري قبل الاحداث وفي اثنائها وبعدها بات يطرح **مهام ثورية جديدة ليس هناك اي خيار ارادي لتجنبها** والا ادى ذلك الى انتكاس مسيرة النضال الوطني الفلسطيني واللبناني .

والآن ، ما هي صلة الطبيعة الطبقية للنظام بالازمة الراهنة وكيف واجه النظام وبالتالي القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية الصراع القائم ، وما هي الحلول والخيارات الفعلية المطروحة على عاتق الثوريين والوطنيين ؟

نشأة وطبيعة النظام الكومبرادوري اللبناني

نشأ نظام الكومبرادور اللبناني في ظل ظروف تاريخية وسياسية تتميز بعدد من التعقيدات النوعية الخاصة بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية التي تكوّن منها . فقد تبلور ونشأ في منطقة عربية لم يتمكن الاقطاع فيها ، بفعل ظروف اقتصادية وسياسية متعددة الجوانب، من تشكيل طبقة اقطاعية قومية موحدة المصالح وتحكم من خلال سلطة مركزية اقطاعية واحدة ، بغض النظر عن الانتماءات والاصول الطائفية ،كما هو الحال بالنسبة لمصر وعدد من البلدان الاخرى في مرحلة تاريخية محددة . فالسلطة المركزية الاقطاعية توفر الشروط الموضوعية التي يمكن ان تتيحها العلاقات الاقطاعية ما قبل الرأسمالية من تطور وتقدم من شأنه ان يساهم في انصهار الشعب على اسس وطنية وطبقية اكثر وضوحا . فالتفتت الاقطاعي والعشائري والعائلي كان يرتبط ، من خلال عدد من الاشكال الاجتماعية والسياسية ، بالسلطة العثمانية على اساس من جباية الريع والضرائب المختلفة والخضوع السياسي لها في الظروف العادية . اما في الظروف التي كانت تضعف فيها السلطة العثمانية فقد كان الخضوع السياسي

بصفة عامة يتم (بصورة غير مباشرة احيانا ، ومتعارضة في بعض الاحيان ، وبرضى السلطنة العثمانية في احيان اخرى) من خلال سيطرة الامارات الاقطاعية القوية . وكثيرا ما كان يتداخل الشكل السياسي لهيمنة الاقطاع القوي ، القادر على بسط نفوذه وحمايته على الاقطاع الضعيف ، مع العلاقات الطائفية .

ولقد شكل الوضع الاستثنائي لمسألة الاقليات الطائفية والقومية تحت حكم السلطة العثمانية ، والتي كرسها واقع التفتت الاقطاعي وفرض هيمنة الاقطاع القوي على أساس من التداخل بين العلاقات الاقطاعية والطائفية ، شكل هذا الوضع أرضا خصبة لاستغلال التنافس الاستعماري الاجنبي له بهدف مد وتغلغل نفوذه ابتداء من انحسار سلطة محمد علي عن بلاد الشام ولبنان في أوائل الاربعينات من القرن التاسع عشر .

فمنذ ذلك الحين أخذت كل دولة من الدول الاجنبية الكبيرة القوية وقتذاك (فرنسا ، بريطانيا ، روسيا القيصرية الخ ..) تدعي انها تقوم بحماية الكتل الاجتماعية والطوائف المختلفة تحت ستار الرعاية والحماية . وذلك بغية فرض نفوذها وسيطرتها تمهيدا لاقتسام تركة الرجل المريض — تركيا — في المنطقة .

وقد كان للتدخل الاستعماري الاجنبي دوره الكبير في احداث ومذابح ١٨٦٠ وهو المستفيد الاساسي منها من أجل بسط نفوذه السياسي في لبنان والمنطقة .

ولم يكن التقسيم الاستعماري لسوريا العربية (بلاد الشام) الى دول وكيانات سياسية مختلفة (لبنان الكبير ، فلسطين ، الاردن) في أوائل هذا القرن يعتمد على الفراغ ، بل على التكوين التاريخي السياسي للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية باقطاعياتها المفتتة التي يطغى عليها العلاقات القبلية العشائرية والطائفية والعائلية . حيث ارتبط فيها الولاء السياسي بالقوى الخارجية القوية التي تستطيع أن تمارس نفوذها وتأثيرها على هذا الوضع .

ففي نطاق السيطرة الامبريالية المباشرة (من خلال الانتداب) تمكن الاستعمار الفرنسي من توطيد دعائم سيطرته في لبنان . واعتمد في فرض سيطرته على تعيين وترسيخ أقدام القشرة الاجتماعية العليا من الطائفة المارونية ، التي ادعى انه يقوم بحمايتها ، في قمة المراكز الاساسية الحساسة في الدولة اللبنانية الناشئة تحت وصاية الانتداب الفرنسي .

وكانت دعائم السيطرة الامبريالية قد وصلت مرحلة متقدمة ، قبل الانتداب . وذلك من خلال العلاقات التجارية (سيما تجارة تصدير الحرير الطبيعي الى فرنسا في القرن التاسع عشر) والثقافية وانتشار الارساليات ومؤسسات التعليم الاجنبية بين ابناء الطائفة المسيحية بشكل خاص . هذه العلاقات التي وفرت ظرفا ملائما مجسدا في الولاء السياسي لسلطة الانتداب الفرنسي وتقديم الكوادر المختلفة التي يحتاجها لتوطيد نفوذه وتسيير ادارة البلاد .

ومما فاقم ، اساسا ، فيما بعد واقع الانقسام والتفتت في المجتمع واستمرار التكتلات والفئات الاجتماعية المتنافسة أو المتحالفة على اساس طائفي ضمن أشكال واطر مختلفة ، **هو طبيعة تشكل البرجوازية اللبنانية ، من خلال علاقات التبعية بالامبريالية الفرنسية والامبريالية العالمية ، كبرجوازية كومبرادورية** تقوم بدور الوكيل أو الوسيط بين السوق الامبريالية العالمية والسوق اللبنانية والعربية وحيث **يهيمن** قطاع الخدمات على سائر القطاعات المنتجة الاخرى (الزراعة والصناعة) **ويعين**

اتجاه نموها ويحد من امكانية استقلالها وتناقضها معه • اذ انه يطبعها بطابعه ويجعل آفاق نموها خاضعة لسيطرة قوانينها ومتطلباتها .

وهذا الواقع هو جوهر مسألة استمرار العلاقات ما قبل الرأسمالية في المجتمع اللبناني ، ولا سيما العلاقات الطائفية • فالطبقة البرجوازية الكومبرادورية المهيمنة ، التي نشأت من قلب الطبقة الاقطاعية المفتتة ، قد نمت نموا مشوها وغير متوازن ويقوم على أساس طائفي ومن خلال الصلة الوثيقة بالشرائح الاجتماعية المسيطرة على المراكز الاساسية في قمم السلطة ، حيث يحتل البرجوازيون الموارنة الوزن الاكبر في هذه الطبقة الكومبرادورية . **فالكومبرادوريون الموارنة يستخدمون ، هنا ، التمثيل الطائفي والعلاقات الطائفية** (باسم المحافظة على الامتيازات السياسية للطائفة المارونية والاقلية المسيحية أمام محيط بشري اسلامي أكثري !) ، وذلك **من أجل استمرار هذه الامتيازات الطبقية والسياسية والاقتصادية التي لا تعني سوى مصالح الكومبرادوريين الموارنة أنفسهم** • هذا بينما الاغلبية الساحقة من أبناء الطائفة المارونية والمسيحيين عموما تعاني ما تعانيه سائر الجماهير في لبنان . صحيح ان نسبة الموظفين والمستفيدين ، من خلال تقاضي الاجور والرواتب العالية أو الحصول على بعض التسهيلات ، من فئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة في الطائفة المسيحية هي أعلى **درجيا** مما هي عليه الطوائف الاسلامية الاخرى ، ولكن هناك فرقا شاسعا ونوعيا بين الطبقة المسيطرة وبين المستفيدين من فئاتها بصفة عامة .

الا ان الكومبرادوريين المنتمين الى الطائفة الاسلامية يحاولون ، بالمقابل ، استخدام قوة العلاقات الطائفية والتمثيل الطائفي للحصول على قسم أكبر من المشاركة في مراكز السلطة السياسية من أجل توطيد ونمو مصالحهم ، سيما أن السيطرة على مراكز القمم الاساسية في السلطة السياسية للكومبرادور اللبناني يتيح مجالا أوسع للازدهار الاقتصادي وتدعيم النفوذ السياسي للفئات الكومبرادورية التي تسيطر على هذه المراكز . ونحن نتعمد هنا ، للتمييز بين التطور والنمو لدى البرجوازية المحلية القائمة على الانتاج وبينه عند الكومبرادور ، اطلاق اصطلاح « الازدهار » على النمو الاقتصادي للكومبرادور .

ان القسم الاساسي من الكومبرادور اللبناني انما تشكل على أساس تاريخي بالصلة مع الغرب الامبريالي ، من خلال علاقة ذلك بالسيطرة على المراكز الاساسية في السلطة ، وهو يتكون من الكومبرادور الذي ينتمي الى الطائفة المارونية ، وهذا مما اتاح للكومبرادور ذي الانتماء المسيحي ، انطلاقا من توفر نسبة أعلى من الكفاءة العلمية بحدها الادنى كالالمام باللغات وبعض المعارف الاولية اللازمة في قطاع الخدمات لدى المسيحيين عموما ، من لف فئات واسعة من البرجوازية الصغيرة المسيحية من خلال التوظيف أساسا .

وبالطبع لا يعني هذا كما تؤلب الفئات الكومبرادورية الاسلامية البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والجماهير ذات الانتماء الطائفي الاسلامي (لكي تقف الى جانبها وهي تحاول تحسين شروط مشاركتها في السلطة والاقتصاد ، واعدة اياها ببعض الفتات من خلال التوظيف وسواه) ، بأن عموم المسيحيين في لبنان يسيطرون على « كل شيء » وهم كلهم اغنياء واصحاب امتيازات . **فالتقسيم الطبقي لا يتطابق مع التقسيم الطائفي اذ أن هناك بونا شاسعا بين المستفيد بالتوظيف من نظام طبقي معين وبين الطبقة المسيطرة نفسها** • ثم ان نسبة التوظيف والاستفادة بوجه عام من فتات الكومبرادور التابع هي بصورة تقديرية لدى فئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة

المسيحية لا تتجاوز نسبة ٣٠ — ٣٥٪ من مجموع الجماهير التي تنتمي الى الطائفة المسيحية . وذلك مقابل ١٥ — ٢٠٪ من مجموع الجماهير التي تنتمي الى الطائفة الاسلامية من نفس الفئات الاجتماعية المذكورة . والفئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة هذه على اختلاف أوضاعها وانتماءاتها الطائفية ، في الوضع الراهن ، تتعرض ، رغم دخلها المرتفع نسبيا مقارنة مع دخول العمال ، لمعظم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تتعرض لها الطبقات العمالية والكادحة . فالقسم الغالب اذا من الجماهير التي تنتمي الى الطائفة المسيحية تعاني ما تعانيه سائر الجماهير الاخرى . ولكن يدخل ، هنا ، دور ما يسمى بمسألة الاقليات ومخاوفها في ظل غياب طرح ديمقراطي ثوري منسجم ، هذا بالاضافة الى التضليل الايديولوجي الذي تمارسه على هذه الجماهير الفئة الكومبرادورية الطائفية المارونية وعدم جدية العمل اليساري والتقدمي في شن نضال سياسي وايديولوجي لفك عرى التفاف القسم الغالب من الجماهير المسيحية حول هذا الكومبرادور . فقد اكتفى العمل اليساري القائم « بالنضال » الاقتصادي والاجتماعي الاصلاحي دون أن « يزعج » الجماهير بربط هذا النضال بالسياسة من خلال السعي لتغيير وعيها السياسي والايديولوجي وتثويرها في الاتجاه الذي يخدم مصالحها الحقيقية .

الطبيعة الطبقية للنظام الكومبرادوري

ليس التشديد على تعيين الطبيعة الطبقية الكومبرادورية الطائفية للنظام في لبنان بسماتها واشكال تجسدها الخاصة ، مسألة بحث شكلية او ثانوية . والاختلاف في هذه المسألة مع اي طرح آخر ، يحاول ان يذكر رفعا للعتب مجرد اطلاق هذه التسمية بدون رؤية الاشكال والمعضلات النوعية المميزة لهذا الكومبرادور بعلاقتها بالظروف السياسية الراهنة ، انما هو اختلاف يحدد أساسا مسار كافة المسائل السياسية الاخرى المطروحة .

فبعض الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية في لبنان يطلق في تحليله « التصويري » التصنيفي والميكانيكي على الطبيعة الطبقية للنظام ، بأنه نظام كومبرادوري تابع يقوم بدور الوسيط بين السوق الامبريالية وبين السوق العربية. **وكأن الاكتفاء بوصف الدور التاريخي السياسي العام للنظام يغنينا عن تحليل سماته السياسية والاجتماعية المميزة في تطورها ومعضلاتها النوعية في كل مرحلة سياسية** واثرها على تكوين الطبيعة الطبقية المميزة له ، وبالتالي عن طرح الشعارات السياسية الملائمة في مواجهة هذا النظام على أساس من النضال في اتجاه الاطاحة به كهدف استراتيجي . والبعض الآخر من هذه القوى والاحزاب التقدمية يمضي قدما من خلال « افتراض » تحليل شكلي غير مستمد من الفهم التاريخي والطبقي العيني للطبيعة الطبقية للنظام الكومبرادوري اللبناني ، فيصل الى « تعميمات » و« نتائج » عامة يتداخل فيها الفهم اللاتاريخي واللاطبقي مع الامنيات الطيبة (لكن الخاطئة !) ، ومع النظرة الميكانيكية والتحريفية من خلال تضخيم بعض المظاهر التي تعبر عنها الطبيعة الطبقية للوضع المحدد . فنجد عددا من هذه التنظيمات يتحدث عن بعض جوانب وظواهر الوضع الطبقي الاقتصادي والسياسي (مع تضخيمها او تقليص وزنها لا فرق في النهاية .. ما دام الامر لا يخضع لرؤية علمية طبقية ملموسة ومحددة) لهذه الطبقة باعتبارها جوهرها الاساسي .

فالبعض يتحدث عن « الطغمة المالية » بشكل معزول عن طبيعة الطبقة الكومبرادورية ، وتارة أخرى يجري الحديث عن الطبيعة البرجوازية بشكل عام للطبقة

الحاكمة في لبنان دون تعيين أي فئة من البرجوازيـــة هي المهيمنة على السلطـــة والاقتصاد ، وما دلالة هذه الهيمنة ؟.. « ويرى » و« الاصح يخمن » التيار الاساسي السائد اليوم في معظم هذه الاحزاب والقوى الوطنية بأن البرجوازية اللبنانية (هكذا بشكل عام) لها مصلحة أساسية في احلال العلاقات الرأسمالية بدل العلاقات ما قبل الرأسمالية بدون تقديم أي دليل سواء بافتراض تباين أو تناقض بين مصالح البرجوازية بوجه عام وبين استمرار هيمنة العلاقات السياسية الطائفية ، أو بافتراض وجود تناقض بين الرأسمالية « الصناعية » في لبنان وبين الكومبرادور وممثليه السياسيين ومؤسساته السياسية .

« ويرى » البعض ان هناك علاقات انتاج اقتصادية رأسمالية في البلد كل ما ينقصها هو ان تعكس نفسها على صعيد التمثيل السياسي بدل العلاقات الطائفية و « الاقطاع السياسي » . وتنحصر المسألة ، في النهاية ، برؤية الحل السياسي الوحيد لأزمة النظام القائم عن طريق اجراء الاصلاحات السياسية واحلال العلاقات الرأسمالية والديمقراطية بدل العلاقات الطائفية على أساس مـــن التصور ان هناك احتياجا موضوعيـــا « للرأسمالية اللبنانية » (بدون تعيين أي قسم هو المهيمن منها والمحدد لنمو الاقسام الاخرى) لضرورة تبديـــل العلاقات السابقـــة للرأسمالية بعلاقات رأسماليـــة حديثة ومتطورة .. **ولكن هذه الاحتياجات الموضوعيـــة لم تعبر عنها البرجوازيـــة الكومبرادورية ، لا سيما جناحها الماروني المهيمن ، بل انها تستشرس في رفض ومحاربة أي تعديل للنظام في هذا الاتجاه .**

هكذا نجد ان المراجعة والاصلاحية ، بتلاقيهما مع الفكر القومي البرجوازي الصغير الضيق الافق ، تعبران عن نفسهما دائما بافتقاد التحليل العلمي لطبيعـــة الطبقات القائمة والصراع الطبقي بأشكاله المميزة في مرحلة سياسية معينة ، ففي النهاية ، لا يتم طرح المسألة الجوهرية وهي ضرورة التحضير الثوري لتغيير البنية الطبقية للنظام والقضاء على الكومبرادور التابع للامبريالية واقامة نظام حكم وطني ديمقراطي يؤدي الى تغيير الاساس المادي للتبعية ويعتمد أساسا على تطوير القطاعات المنتجة بصورة مستقلة جذريا عن الامبريالية . وذلك كمسألة راهنة ومستقبلية تمس المصلحة الوطنية والاجتماعية للجماهير الساحقة في لبنان .

والآن ما هي **دلالة تحديدنا لجوهر الطبيعة الطبقية للبرجوازية اللبنانية بانهـــا برجوازية كومبرادورية** تابعة سواء على صعيد الآفاق المفتوحة أمام تطور البرجوازية الصناعية والزراعية أو **علاقة نظام الكومبرادور بالتمثيل السياسي الطائفي** . وما هو الموقف النظري والسياسي الصحيح من هذه الطبقة الكومبرادورية بوجه عـــام وفي اللحظة السياسية الراهنة بوجه خاص ؟ **وهل هناك حقا علاقات انتـــاج اقتصادية رأسمالية صناعية وزراعية سائدة كما يدعي البعض ؟**

من المعروف ان معظم الدخل القومي في لبنان يتأتى أساسا من قطاع الخدمات (الذي يشكل صلب البرجوازية الكومبرادورية) أي بنسبة تصل الى ما يزيد عـــن ٧٠٪ . سيما ان اتجاه التطور العام كان يميل الى ازدياد وزن قطاع الخدمات . ففي بداية الخمسينات لم يكن يشكل هذا القطاع سوى حوالي ٥٠ ٪ بالنسبة لمجمل الدخل القومي . **فحين يكون هذا القسم الطفيلي من البرجوازية الكومبرادورية هو المهيمن ،** والوثيق الارتباط العضوي بالعلاقات الاقتصادية والسياسية للامبريالية ، **فان سائر قطاعات الانتاج « الاخرى » تدور في فلك هذه العلاقات والاحتياجات التي يحددها هذا القطاع الكومبرادوري التابع . فالصناعات والزراعات التي تتوسع (ولن نقول تتطور) في**

لبنان هي المرتبطة بالسوق التجاري المحلي والعربي للكومبرادور التابع للامبريالية وليس في مواجهته . هذا بينما الصناعات والزراعات المرتبطة بالتطور الاقتصادي المستقل غير المرتبط برأس المال الاجنبي ، فان الكومبرادور التابع يحد من نموها ويضعفها . نذكر على سبيل المثال زراعة التبغ والشمندر بعلاقتها بالصناعة وعدم نمو الصناعات الهيكلية التأسيسية اللازمة لاضطراد التطور الصناعي كصناعة الحديد والصلب على سبيل المثال .

وبوجه عام نلاحظ انخفاض معدل الدخل المتأتي من الزراعة بالنسبة لمجموع الدخل القومي العام ، حيث هبط مؤخرا الى حوالي ١٠٪ بينما كان قبل حوالي العشر سنوات ما يقارب ١٥٪ . ففي الوقت الذي نجد فيه انخفاض نسبة الزراعات الغذائية التي تحتاجها الجماهير الشعبية (الحبوب أساسا وبعض الخضار) ، نرى توسعا في الزراعات التجارية التصديرية كالحمضيات مثلا بدون أي موازنة بينها وبين الزراعات الغذائية الضرورية الاخرى . وكذلك الحال تقريبا بالنسبة للصناعات ، فالصناعات التحويلية القائمة كالبلاستيك ، الملبوسات والاقمشة ، الصناعات التجميعية (ثلاجات ، بوتوغازات الخ ..) والاغذية (كالشوكولاته والبسكويت) الخ.. انما تخضع لاحتياجات التجارة التصديرية المحلية والعربية .

ثم ان حوالي ٤٠٪ من مستلزمات الانتاج الصناعي يتكون من سلع رأسمالية وسيطة (نصف مصنعة) مستوردة . كما ان المتطلبات والمواد الاساسية الضرورية لتطور الزراعة والصناعة ، (مشاريع الري ، البذور والآلات الزراعية والادوية الكيماوية والاسمدة بالنسبة للزراعة .. والمواد الاولية والخبرة التقنية والآلات الصناعية والسلع الوسيطة بالنسبة للصناعة ونوع رأس المال الداخل فيها) ، خاضعة لتحكم الكومبرادور التابع والمرتبط بالسوق الامبريالي العالمي وهو يحد من امكانية نموها المستقلة ، بل يجعل أي نمو هو نوع من « التوسع » الاقتصادي ضمن اطار الاحتياجات والعلاقات الكومبرادورية نفسها ، وهو توسع اقتصادي كومبرادوري في جوهره أي توسع للسوق الامبريالي ، والتوسع في الصناعة في السنوات الاخيرة في لبنان (ازدادت حصة الصناعة في السنوات الاخيرة بالنسبة للدخل القومي العام زيادة درجية طفيفة من ١٢٪ الى حوالي ١٥٪) ، انما يرجع الى عوامل سياسية واقتصادية على صلة وثيقة بالمصالح المختلفة للامبريالية في المنطقة . الى جانب ان **هذا التوسع الصناعي** (ولن نقول هنا أيضا التطور) **يتم ضمن اطار العلاقات الكومبرادورية ومتطلباتها وليس في مواجهتها** .

فمعظم الصناعيين اللبنانيين هم **تجار اصلا** ، وجدوا انه من المفيد على صعيد تحقيق ربح افضل واختصار بعض العمليات المكلفة (مصروفات النقل وارتفاع كلفة اليد العاملة في الغرب) لبعض البضائع التي يستوردونها والتي من الممكن القيام ببعض العمليات غير الاساسية الداخلة من صناعتها في لبنان نفسه وذلك كبعض الصناعات التجميعية وسواها . ثم ان رأس المال الاجنبي في مثل هذه الصناعات الخفيفة له ثقل بارز (شركة الترابة والريجي والالومونيوم وصناعة الادوية .. الخ) كما ان معظم الصناعيين يعملون برأسمال اجنبي . ونوع هذه الصناعات ايضا لا يتعدى نطاق الصناعات الخفيفة اساسا والتي تتم في نطاق العلاقات الكومبرادوية وليس في مواجهتها ، كما هو شأن البرجوازية الوطنية المحلية . سيما ان عددا كبيرا من الصناعات المحلية التحويلية هو مجرد فروع محلية للشركات الصناعية الغربية . ورأس المال المصرفي في لبنان معد اساسا للتوظيف في الخارج فلبنان ليس اكثر من انبوب لمرور بعض الأموال النفطية العربية « والمحلية » الى الغرب الامبريالي .

وراس المال المصرفي في لبنان يحجم ايضا عن تمويل المشاريع المتوسطة والطويلة الامد خاصة الصناعية منها ، اذ انه ينصرف الى العقارات والمشاريع القصيرة الاجل ولا سيما في قطاع الخدمات . والتسليفات المصرفية التي تقدم الى الصناعة والزراعة نسبتها متدنية جدا . بالاضافة الى ان معظم البنوك في لبنان يسيطر عليها راس المال الاجنبي (بنسبة تتجاوز ٨٠٪) فالصناعة القائمة في لبنان اذا هي جزء من الكومبرادور ومكملة له ، اذ انها تتم في اطار العلاقات الكومبرادورية المهيمنة .

ان نمو الصناعة الفعلي والاقتصاد الوطني المستقل في لبنان مشروط سياسيا بتطور النضال الوطني في اتجاه التحضير للاطاحة بالكومبرادور وسلطته ، اذ ليس هناك اي آفاق لنمو برجوازية صناعية وطنية في ظل النظام القائم ، فبدون توفر هذا الشرط السياسي يصعب الحديث عن تطور تلقائي للجناح « الصناعي » الرأسمالي « الوطني » الضعيف النمو ، من شأنه ان يؤدي الى تكوين البرجوازية المحلية في لبنان المتناقضة المصالح مع الكومبرادور والامبريالية .

والتطور الاقتصادي طوال عشرات السنوات الماضية يتجه لصالح توسع الهيمنة الاقتصادية للكومبرادور وراس المال الاجنبي . ففي السنوات الاخيرة زادت سيطرة البنوك الاجنبية على القطاع المصرفي وارتفعت حصة قطاع الخدمات من الدخل القومي العام على حساب القطاعات المنتجة . (من حوالي ٥٠٪ من مجمل الدخل القومي العام سنة ١٩٥٠ الى حوالي ٧٠٪ عام ١٩٧٥) .

ثم ان مستوى التناقض بين الرأسمالية « المحلية » او « الوطنية » الصناعية والزراعية وبين الكومبرادور هو تناقض ثانوي وهامشي ولا يعبر عن نفسه بحدة وبوضوح سواء على المستوى السياسي او الاقتصادي . **فالعلاقة بين القطاع الكومبرادوري المهيمن وبين البرجوازية « الصناعية » مثلا ، هي علاقة تكامل وظيفي تسير في اتجاه تبعي لصالح توسيع وتوطيد ركائز الكومبرادور المهيمن وضمن اطار علاقاته وعلى ارض الشروط والاحتياجات التي يحددها .**

وهذه العلاقات والشروط التي يحددها الكومبرادور ترتبط اوثق الارتباط بالتبعية شبه المطلقة للامبريالية . **ان بعض التعارضات القائمة بين الكومبرادور والقطاع « الصناعي » هي تعارضات ضمن اطار العلاقات الكومبرادورية المهيمنة ، حيث يتم حلها لصالح توسع واضطراد سيطرة هذه العلاقات الاخيرة وليس ضربها .**
ثم اين هم ممثلو « البرجوازية » التي يتكلم عنها بعض الاحزاب اليسارية ، هكذا بشكل عام ، بدون تحديد نوع الشريحة الطبقية المسيطرة . هل هي البرجوازية الكومبرادورية أم البرجوازية المحلية الصناعية والزراعية ، ام كلاهما معا ؟ او على الاقل أين هم ممثلو البرجوازية « الصناعية » او « المستنيرة » او « الوطنية » كما يطلق البعض احيانا عليها ، هل هو « اليمين الذكي » ممثلا في اشخاص امثال تويني واده وكرامي وفرعون الخ ..؟

اين الحزب او التجمع السياسي الذي يعبر عنه هذا الاتجاه وما هي وجهة نظره السياسية والاقتصادية ؟

الواقع ان « مرونة » او « ليبرالية » و « اصلاحية » بعض ممثلي اجنحة البرجوازية الكومبرادورية تجاه عدد من القضايا ، (عدا كونها لا تجد ارضا خصبة للاستجابة السياسية والاقتصادية داخل النظام ولا تعبر عن اتجاهاته العميقة ، كما لا تدل على وجود برجوازية « وطنية » لها وجهة نظرها المستقلة) ، انما هي

تعبيرات سياسية مبعثرة ــ غير ذات وزن في مجرى السياسة التي ينهجها النظام ، وتنبع كل اهميتها السياسية من كونها تعبيرا عن حــدة التناقضات التي يواجهها النظام ، ولا سيما لجهة عدم قدرته على حسم التناقض لصالحه في مواجهة الحركة الوطنية والشعبية والمقاومة الفلسطينية . وتفسير مواقف هذهالعناصر و «الاتجاهات» « المستنيرة » انما يعود الى النمو الاقتصادي والسياسي المشوه وغــير المتــوازن للفئات التي يتشكل منها الكومبرادور . فهي تعظ وتحاول جاهدة لتوحيد الفئات المختلفة للكومبرادور ذات الانتماء الطائفي والسياسي غير المتجانس من اجل وضعها امام اتباع سياسة موحدة وقوية لمواجهة المخاطر الفعلية التي تهدد النظام ككل ، عن طريق القيام « بثورة » « دستورية » « من فوق » ومشاركة فئــات الكومبرادور المختلفة في السلطة والاقتصار بصورة اكثر توازنا وتجانسا . واجراء بعض الاصلاحات السياسية والادارية اللازمة لهذه العملية بهدف مواجهة الحركة الشعبية والقــوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية **اساسا** بفعالية اكبر . وفي اللحظات او المواجهــات الحاسمة التي يخوضها النظام الكومبرادوري تقف هذه العناصر و « الاتجاهات » بأشكال مختلفة ، الى جانب النظام وتوظف « مرونتها » و « ليبراليتها » الزائفــة لتمييع طبيعة الصراع الفعلية ولتجميل وجه النظام وتبرير مواقفه وطبيعته المعادية للمصالح الفعلية للجماهير في شتى المجالات .

ان **جذر الاوهام التي تخترع اسسا اقتصادية طبقية للاتجاهات السياسية المختلفة « للرأسمالية »** اللبنانية ، وفي تفسيرها بطبيعة الازمة الراهنة لكي تناسب التصورات غير العلمية التي تحملها في ذهنها معظم الاحزاب والقوى اليسارية اللبنانية ، **انما** تنبــع من مسألة « افتراضية » غير واقعية ، وهي **التصور بأن هناك تطورا برجوازيا محليا وطنيا ادى الى احلال اسلوب الانتاج الرأسمالي (اي علاقات الانتاج الرأسمالية) بدل العلاقات ما قبل الرأسمالية ،** العلاقات الاقطاعية والحرفية الخ . وهذا مما يستدعي ضرورة احلال هذه العلاقات على صعيد البناء الفوقي والتمثيل السياسي للبرجوازية بدل العلاقات ما قبل الرأسمالية في الحكم : « الاقطــاع السياسي » والعلاقات الطائفية والعائليــة في المؤسسات السياسية والادارية للنظــام ، هذه العلاقات التي ما زالت مسيطرة بحكم قوة ودور القوى « الانعزالية » و « الوراثة » و « الجمود الفكري » و « التخلف السياسي » الخ ..

ان طرح المسألة على هذا المنوال غير صحيح من الوجهتين الواقعية والعلمية ويؤدي بالتالي الى اخطاء استراتيجية وتكتيكية فادحة الاضرار بمسيرة النضــال الثوري في لبنان .

ان جوهر المسألة ، ان هناك توسعا للكومبرادور منذ الخمسينات ادى الى سيطرته مؤخرا على مجمل السوق الداخلي في لبنان وهذا التوسع لم ينتج علاقات رأسمالية جديدة ، بل تم من خلال العلاقات الاقطاعية الطائفية والعشائرية والعائلية القائمة . فهذا التوسع غير مرتبط بتطور اسلوب الانتاج الرأسمالي (الصناعي والزراعي) ، بل بارتهان السوق والاقتصاد اللبناني برمتــه بالسوق الامبريالي ، وذلك بالضبــط على حساب تطور اسلوب الانتاج الرأسمالي نفسه من خــلال تحطيم والحــاق القطاعات المنتجة والقضاء على اي امكانية للنمو المستقل لها بمعزل عن العلاقات التي يحددها الكومبرادور المهيمن من خلال الارتباط العضوي الوثيق بآلية الســوق الامبريالي نفسه .

فرأس المال الكومبرادوري التجاري الوسيط لا يعمل لاقامة قاعدة انتاج رأسمالية

محلية مستقلة . بل انه يعمل وهو المهيمن الرئيسي على الاقتصاد والسلطة على استمرار غياب قاعدة مادية حقيقية لراسمالية محلية منتجة ، وبالتالي يجعل اسلوب الانتاج الرأسمالي اي علاقات الانتاج الراسمالية محدودة التأثير والوزن ضمن اطار العلاقات البرجوازية الكومبرادورية المهيمنة .

السمات الطبقية المميزة للكومبرادور اللبناني

لا حاجة بنا الى تكرار ما اوردناه سابقا عن الطبيعة العامة للكومبرادور اللبناني باعتبارها حلقة وسيطة عميلة (وكيل) لتسهل استمرار علاقات التبعية للامبريالية بالمنطقة العربية ولبنان ، دون ان تكون هي نفسها جزءاً منتجا يتمتع بسوقه الخاص (ضمن اطار التبعية الامبريالية مع ذلك ولكنها تكون في هذه الحالة مختلفة كيفيا عن نموذج التبعيـــة الكمبرادوري) ، أنها بمثابة الوكيل الذي يقوم بتصريف مصالـح وسلع غيره اساسا دون ان يشترك هو نفسه فيانتاج هذه المصالح او السلع .

لكن من الاهمية السياسية والعلمية بمكان ابراز السمات الطبقية السياسية المميزة لهذا الكومبرادور لكونها تساهم في تفسير عدد من القضايا والمواقـف المرتبطة بالنظام في الازمة الراهنة .

النمو المشوه وعدم تجانس فئات الكومبرادور وصلته بالطائفية

لقد نمت طبقة الكومبرادور اللبناني بوجه عام على أساس من علاقات التبعية بالغرب الامبريالي ، ولكن ما يميز الكومبرادور اللبناني ، هنا ، ان الشكـل والتطور التاريخي لفئات الكومبرادور قد نما ، بوتائر مختلفة انطلاقا من خصوصية التكوين السياسي والطائفي للبنان الصغير في البداية ، ثم لبنان الكبير ، فيما بعد ، بعلاقته الوطيدة بتغلغل النفوذ الاستعماري وتنافسه في المنطقة . فقد اتاح الانتداب الفرنسي توطيد الدعائم السياسية والاقتصادية للكومبرادوريين الموارنة الذين تشكلوا من خلال العلاقة بفرنسا خاصة والغرب الامبريالي عامة . فسيطرت هـذه الشريحة مـن الكومبرادور ، كما ذكرنا سابقا ، على المواقع الرئيسية في السلطة والاقتصاد التابع ابان الانتداب وبعده . ثم بدأ الكومبرادريون الدروز والسنة يتشكلون ابان مرحلة الانتداب الفرنسي وبعده ، ولكن وزنهم الاقتصادي والسياسي ظل ما دون الوزن الذي يحتله الكومبرادوريون الموارنة . وفي مرحلة الستينات بدأ صعود الكومبرادوريين الشيعـة ، بعد تزايد ارتباط مناطـق الجنوب والبقـاع ببيروت وتوسع السوق الكومبرادوري وتوطده في هذه المناطق ، وعودة عدد كبير من المهاجرين الشيعة الذين انصرفوا الى توظيف اموالهم بشكل اساسي في قطاع الخدمات المهيمن في لبنان اي في العقارات والمصارف والاعمال التجارية وزراعة الحمضيات المرتبطة ، من الزاوية الرئيسية ، بالكومبرادور وليس بالصناعة ، وقد اخذ يبحث لنفسه عن تمثيل سياسي جديد يوحد الكومبرادوريين الشيعـة بشكل مستقل نسبيا خارج علاقات التبعيـة التي كان ينسجها معظم الزعماء الشيعة تحت زعامة الكومبرادور الماروني . وقد كان لا بد لهذا التمثيل الجديد المستقل نسبيا ، من خلال زعامة الصدر ، ان يتخذ طابع العلاقات الطائفية السائدة ويعتمد عليها ليحسن من مواقع فئـة الكومبرادور الشيعي الاقتصادية والسياسية .

والواقع ان مختلف شرائح الكومبرادور اللبناني تجتهد آما للاحتفاظ بمواقعهـا السياسية والاقتصادية او لتحسينهذه المواقع اعتماداً على العلاقات الطائفية القائمة. **والسبب اساسا في ذلك لا يعود ، كما يحاول ان يروج بعض ادعياء الفهم التاريخـي**

الشكلي الى جذور الحوادث الطائفية قبل ما يزيد عن مئة عام (رغم اهمية هذا الجانب) ، بل الى الطبيعة الطبقية العامة للكومبرادور . هذه الطبيعة التي تتناقض وتحد من نمو قوى وعلاقات الانتاج الرأسمالي في حال هيمنتها على الاقتصاد والسلطة . فعدم نمو علاقات الانتاج الرأسمالية وسيادتها ادى الى استمرار العلاقات القديمة ما قبل الرأسمالية (خاصة العلاقات الطائفية في الوضع اللبناني) والى تقويتها ايضا في سياق الحفاظ على النظام القائم .

فلم يكن قدرا لا فكاك منه ان تستمر قوة العلاقات ما قبل الراسمالية (لا سيما الطائفية منها) لو ان مسار التطور الرأسمالي قد اتخذ طابعا مستقلا نسبيا عن الامبريالية مكن من نمو الرأسمالية المحلية ، كما هو الحال بالنسبة لعدد من البلدان العربية الاخرى (مصر سوريا .. الخ) .

ان تقدم اسلوب الانتاج الرأسمالي وسيادته من شأنه أن يهيء الشروط الموضوعية لازاحة العلاقات الاقطاعية والعائلية والطائفية والعشائرية ويضعها في حيز ضيق هامشي التأثير على مجمل العلاقات الاجتماعية السائدة ، بصرف النظر عن الاصول الطائفية للبرجوازية المحلية القائمة .

فلا ينبغي ، اذا ، الكلام بشكل مطلق عن الطائفية كظاهرة تاريخية ، لا تتزحزح او تتغير ، بل ينبغي ربط مسألة استمرارها او زوالها بالطبيعة الطبقية للنظام الاقتصادي الاجتماعي والسياسي القائم . اي هل هو نظام يعمل على تطوير القوى المنتجة وبالتالي علاقات الانتاج ، ام انه يعمل على اعاقة ذلك او وضعه في اضيق الحدود الممكنة . **فالشكل الاجتماعي السياسي لاي نظام طبقي ينبغي ان يتطابق ويتفق ومستوى تطور القوى المنتجة القائمة في مرحلة تاريخية معينة .**

واذا كان التشكل التاريخي للكومبرادور في لبنان بعلاقته بتغلغل السيطرة والنفوذ الامبريالي في لبنان والمناطق العربية قد ادى الى استئثار وسيطرة الكومبرادوريين الموارنة على المراكز الحساسة في السلطة السياسية للكومبرادور ، فان هذه السلطة قد تحولت الى موقع لتقوية نفوذ وسيطرة الكومبرادوريين الموارنة على السلطة والاقتصاد ايضا . وهذه السيطرة قد اكتسبت في الشكل وليس في المضمون (المضمون هنا هو عدم سيادة اسلوب الانتاج الرأسمالي ، اي علاقات الانتاج الرأسمالية التي تشكل الاساس المادي لتصفية العلاقات ما قبل الرأسمالية) طابعا معينا بادعاء ممثلي الكومبرادور الماروني بأنهم يمثلون الطائفة الاكثر عددا ، ولكونهم ارتضوا حسب ميثاق ١٩٤٣ استبدال الحماية الاجنبية بالاستقلال الوطني ، وهذا مما يملي الاقرار بالضمانات والامتيازات السياسية القائمة للمسيحيين (!) والقضاء على مخاوفهم كأقلية مميزة تخشى الاندماج والوحدة وسط محيط عربي اسلامي .. وكل ذلك من اجل استمرار هيمنتهم على المواقع الحساسة في السلطة والاقتصاد .

أن هذا الادعاء التمثيلي للكومبرادور الماروني لعموم المسيحيين قد شجع ادعاء تمثيليا اخر بالمقابل لدى فئات الكومبرادور الاخرى ذات الانتماء الاسلامي التي أخذت تستخدم العلاقات الطائفية القائمة ، على أساس من عدم تطور اسلوب الانتاج الرأسمالي ، كقوة ضغط سياسية للحصول على حصه او « مشاركة » اكبر في السلطة السياسية والمواقع الاقتصادية .

وهكذا تعمل فئات الكومبرادور اللبناني حسب انتمائها الطائفي على كسب تأييد « الرأي العام » لديها لدعمنفوذها في مواجهة الفئات الاخرى .ويتشكل « الرأي العام»

اساسا من الفئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة (الطامحة للصعود الى مواقع الكومبرادور) ومن الجماهير الكادحة المسيحية والاسلامية . التي يتفاوت وعيها تجاه القضايا المختلفة تبعا للتربية السياسية والتاثير الايديولوجي . فالجماهير الغفيرة من المسيحيين يتم تأليبها ايديولوجيا حول الكومبرادور الماروني والمسيحي بوجه عام ، من خلال ادعاء المحافظة على « الطابع المسيحي » للدولة اللبنانية واثارة مشاعر الخوف لدى هذه الاقليات .

اما ممثلو الكومبرادور المسلم فانهم يعملون على تأليب الفئات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وجمهور واسع من المسلمين حولهم من خلال الحديث عن « الغبن » و « الظلم » الواقع على المسلمين عموما (!) مقابل الامتيازات التي يتمتع بها المسيحيون عامة (!) .وبعض هؤلاء الممثلين يذهب الى حد **القول بوجود طوائف محرومة** برمتها !

الا ان انتشار الحركة الوطنية والتقدمية الديمقراطية ، بصورة اوسع ، وسط الجماهير ذات الانتماء الاسلامي وارتباطها الوثيق بقضايا الصراع الوطني والطبقي في المنطقة العربية ، قد وضع عائقا كبيرا امام قدرة الكومبرادور المسلم على لجم واحتواء الحركة الشعبية والوطنية .

وسنبين فيما بعد اثر هذا الوضع على المواقف السياسية للكومبرادور المسلم وكذلك لجهة عدم وجود مناخ ملائم لنمو الاتجاهات الفاشية العسكرية السافرة وسط هذا الكومبرادور بالذات في هذه المرحلة .

والسمة التي اردنا ابرازها ، هنا ، ان الطائفية هي ايديولوجية فئات الكومبرادور اللبناني المختلفة ، لكنها ايديولوجية تتفاعل على ارض عدم تجانس هذا الكومبرادور نفسه ، وذلك تبعا لتباين نشأته التاريخية ووزن فئاته داخل النظام ووضع القاعدة الاجتماعية والسياسية التي يسعى لتمثيلها . وهي ايديولوجية يتقرر استمرارها نتيجة عدم سيادة علاقات الانتاج الراسمالية بفعل ضعف البرجوازية المحلية القومية.

النمو المشوه للكومبرادور

ان الكومبرادور اللبناني كطبقة اجتماعية مشوهة النمو هو طبقة غير متجانسة او مترابطة بصورة عضوية على صعيد العلاقات الاقتصادية اليومية ، وبفعل تنوع القاعدة الاجتماعية والثقافية التي تقوم عليها .

ولكن هذا لا يعني ان هذه الطبقة هي غير مترابطة المصالح من الناحية الاساسية. فكل فئات الكومبرادور المختلفة تجمعها المصلحة العامة للطبقة من اجل المحافظة على النظام . الا ان الوضع السابق ذكره يؤدي الى ان التناقضات بين فئات الطبقة الكمبرادورية نفسها ، تأخذ شكل الصراع الطائفي .

ان كل طبقة هي مترابطة المصالح من الزاوية الاساسية ، في نهاية المطاف ؛ ولكن شتان بين ترابط المصالح من طبقة الى اخرى .

ان البرجوازية الصناعية ، مثلا ، بقاعدتها المادية العريضة ومؤسساتها الكبيرة تمكن من وضع الشروط المادية لتوحيد شرائح البرجوازية في طبقة برجوازية قومية موحدة ، مندمجة ومترابطة فيما بين فروعها المختلفة ترابطا عضويا ومن ثم ينعكس ذلك على مختلف الطبقات الاخرى ، حيث يختفي الطابع المحلي والفئوي القائم على

اساس ديني او اي اساس آخر . هذا بينما الكمبرادور كطبقة طفيلية مفككة الاوصال ، ومعتمدة على المشروع الفردي والعائلي اساسا لا تمكن من حدوث تداخل واندماج كافة فروع الاقتصاد في نظام مترابط . وهذا مما يضع الاساس الموضوعي لاستمرار الانقسام الطائفي الذي تعمق في عهود الاقطاع ، حيث اخذ في لبنان سمة التفتت الشديد كغيره من اجزاء سوريا . ولكن التطور الرأسمالي والقاعدة الرأسمالية الانتاجية المتطورة نسبيا في سوريا الحالية قد نسفت ، الى حد كبير ، الاسس الموضوعية لاستمرار الانقسام الطائفي .

ان الطابع الكمبرادوري الطائفي للبرجوازية اللبنانية لا يقتصر على هذا فحسب بل يمتد تأثيره الى جهاز الدولة ، جاعلا منه جهازا متعدد الولاءات ، ولا يتمتع بهذا القدر من الاستقلال النسبي الذي نجده في نظام راسمالي متطور ومنتج . فنحن نجد ان كثيرا من عناصر الطبقة تمثل نفسها بشكل مباشر في قمم جهاز الدولة والسلطة السياسية ، بل ان الحصول على هذا الموقع او ذاك ، او هذا المركز او ذاك يكون سببا في تعاظم الثروات بالاستفادة من التسهيلات التي يتم الحصول عليها للقيام بأعمال الوكالة والسمسرة . وبينما من المفروض ان يعمل جهاز الدولة في مجتمع قائم على الحد الادنى من قاعدة راسمالية انتاجية ، كجهاز بيروقراطي موحد وممركز ، على دمج وصهر وتوحيد مختلف فئات الطبقة سواء في داخل آلته المركزية الضخمة كمؤسسة كبرى ، او سواء بتأثيره على مختلف نواحي الحياة الاقتصادية الاجتماعية .

ولكن ، هناك من لا يزال يحلم ويتوقع من طبقة كمبرادورية غير متجانسة ومفتتة من انشاء دولة برجوازية « عصرية » مركزية !!

جهاز الدولة الكمبرادوري

يمتاز دور الدولة « السلطة » في المجتمع البرجوازي عموما حيث تسود علاقات الانتاج البرجوازية باستقلال نسبي اكبر عن الطبقة الحاكمة نفسها ، كما هو عليه حال الدولة في المجتمعات السابقة عليه . فتطور تقسيم العمل في ظل المجتمع البرجوازي يعكس نفسه على الطبقة الحاكمة ومؤسسات الدولة . فيصبح دور الدولة اكثر مركزية وتدخلا في الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية هذا بينما جهاز الدولة في المجتمعات السابقة على الراسمالية هو اقل استقلالا ومركزية .

وفي لبنان حيث تهيمن طبقة الكومبرادور وتسود علاقات السوق ، التي تختلف تماما عن سيادة اسلوب الانتاج الراسمالي الذي يتطلب في الاساس قيام قاعدة رأسمالية انتاجية ، فان هذا يعكس نفسه ايضا على بنية الطبقة وجهاز الدولة وطبقات المجتمع الاخرى . فنجد ان مؤسسات واجهزة الدولة غير منفصلة بصورة عقلانية ومستقلة نسبيا عن العلاقات الطائفية المسيطرة . **فالدولة هنا هي دولة ذات سمات طائفية حيث يحتل الكومبرادور الماروني عددا من المراكز الحساسة في قمة السلطة والسلك الاداري ، هذا في الوقت الذي تسعى فئات الكومبرادور الاخرى لتحسين مواقعها السياسية والادارية ذات السمة الطائفية في جهاز الدولة ،ايضا ، مما يفقد جهاز الدولة في اكثر من مجال القدرة على التجانس والتصرف باستقلال نسبي عن الطبقة الكومبرادورية الحاكمة** بوجه عام ، والفئة الكومبرادورية المارونية المهيمنة بشكل خاص .

ويشكل هذا الوضع الارض الموضوعية للحديث عن « انحياز » الدولة اللبنانية لهذه الفئة الطائفية او تلك ، بينما الانحياز الفعلي لا الشكلي هو لمصالح هذه الفئة من

الكومبرادور او تلك . علما بأن الدولة من اي مجتمع طبقي هي منحازة في الاساس الى الطبقة المسيطرة .

الا ان **الانحياز هنا هو انحياز عام وخاص** ، انحياز عام للمصالح الاقتصادية والسياسية لمجموع فئات وشرائح الطبقة **عند اي تهديد جدي من الحركة الشعبية** وانحياز خاص لهذه الفئة من الكومبرادور الماروني **في مخططها لمواجهة الطبقات** الشعبية والقوى الوطنية من جهة . وللحد قدر الامكان من محاولات الفئات والشرائح الاخرى من الكومبرادور من اجل تحسين مواقعها في السلطة والاقتصاد .

التمثيل السياسي لفئات الكومبرادور وصلته بالتعايش مع العلاقات ما قبل الرأسمالية

ثمة فصل تعسفي يضعه عدد من الاحزاب والقوى اليسارية اللبنانية بين ما تطلق عليه سيطرة وسيادة العلاقات الرأسمالية اقتصاديا وبين التمثيل السياسي « للبرجوازية » من خلال « الاقطاع السياسي » . وذلك الى حد القول ان هناك تناقضا قائما لا بد من حسمه ، في هذا المجال ، لصالح ان تتمكن « البرجوازية الكبيرة» من الحكم سياسيا من خلال ممثليها « الفعليين » . « فالاقطاع السياسي » الذي يحكم اليوم هو بمثابة « وكيل » « البرجوازية » في السلطة ويقوم « بالانتفاع » على حسابها .. هذا بينما « البرجوازية » المخدوعة الساذجة غافلة عن هذا الامر بانتظار من يقوم بارشادها لكي ترعى تمثيل مصالحها بنفسها ، بصورة افضل ، بعيدا عن تحكم « وتسلط » الاقطاع السياسي !

ولا تقدم هذه الاحزاب ، بالطبع اي تفسير لاسباب استمرار هيمنة « الاقطاع السياسي » ، رغم « النمو الرأسمالي » المزعوم ، سوى « بالتحكم » الذي يمارسه « الاقطاع السياسي » من خلال « التركيبات الموروثة عن مرحلة ما قبل الرأسمالية »! فقوة الاشكال الاجتماعية القديمة « الموروثة » هي وحدها التي تفسر ، هنا ، استمرار تسلط زعماء « الاقطاع السياسي » على السلطة السياسية ..

والواقع ان افتراض وجود «نمو رأسمالي » ادى الى « سيادة العلاقات الراسمالية اقتصاديا داخل المجتمع اللبناني » ، هو سبب الانحراف هنا من خلال « تصور » وجود علاقة عدم تطابق بين البناء التحتي والبناء الفوقي « للبرجوازية » . علما ان **هكذا نمط من البنية الاقتصادية الاجتماعية التحتية المشوهة ينبغي ان يتطابق معها هذا النوع من التمثيل السياسي القائم** .

ان الطابع السياسي الاساسي المميز للكومبرادور اللبناني ، انه يحكم من خلال العلاقات الاقطاعية الابوية القديمة الما قبل رأسمالية . فالكومبرادور بطبيعته الطبقية غير معاد للعلاقات ما قبل الراسمالية ، بل انه يتعايش معها ويوطد دعائمها في احيان كثيرة . فهو يدعم في لبنان العلاقات الطائفية ويعتمد عليها من اجل استمرار نظامه السياسي .

ولقد تمثلت البرجوازية الكومبرادورية اللبنانية المشوهة النمو والمفتتة ، وذات النشأة التاريخية والاصول الاجتماعية والطائفية المتباينة في منطقة (١) لم يتبلور فيها الاقطاع القومي ويوحد نفسه من خلال دوله مركزية موحدة (٢) ارتبط فيها تغلغل النفوذ الاستعماري بالاعتماد على التكتلات الاجتماعية العشائرية والطائفية والاقليات القومية والدينية محاولا توظيفها لخدمة سياسته، تمثلت هذه البرجوازية الكومبرادورية

من خلال ما يسمى « بالاقطاع السياسي » اي بأفراد الزعامات الاقطاعية والعشائرية والوجهاء واصحاب النفوذ السياسي ضمن تشكيلة اجتماعية سابقة على مرحلة التطور الرأسمالية .

ومنذ اللحظة التي اصبح فيها اولئك الزعماء والوجهاء في واجهة التمثيل السياسي للنظام فانهم لم يعودوا اساسا ، من الناحية الموضوعية ، يمثلون الاقطاع بل طبيعة النظام السياسي الجديد للكومبرادور .

وليس هناك اي تناقض على الاطلاق بين هذا التمثيل السياسي النوعي وبين مصالح البرجوازية الكومبرادورية . فزعماء الاقطاع السابقين لا يمثلون ، الان ، العلاقات ما قبل الرأسمالية ، بل انهم يمثلون نظرا لغياب أسلوب الانتاج الرأسمالي المختلف جذريا عن توسع السوق الامبريالية في لبنان (من خلال هيمنة الكومبرادور) ، البرجوازية الكومبرادورية نفسها من الزاوية الاساسية . وهذه الطبقة ليس كما يقول بعض التحليلات « اليسارية » ممثلة سياسيا ما دون نفوذها الاقتصادي !

ويبدو ان الفهم السطحي اللفظي للطبيعة الطبقية الكومبرادورية للنظام هي التي تسمح باطلاق مثل هذه التصورات المثالية بدل التحليل العلمي للواقع . هذا التحليل الذي يبين عدم هيمنة اسلوب الانتاج الرأسمالي بفعل ضعف نمو البرجوازية القومية المحلية .

اما التناقضات الثانوية التي تنشأ بين التمثيل السياسي القائم للكومبرادور وبين بنيته التحتية فانها تملي ضرورة تكييف وتطوير اجهزة الحكم والادارة تكييفا يساهم في التخلص من بعض الاجراءات والتعقيدات الروتينية الادارية وتحسين مستوى المرافق الحيوية (الميناء والمطار والطرق العامة الخ) . كما أن الاتجاه العام الذي تصب فيه هو المزيد من احكام قبضة الكومبرادور سياسيا واقتصاديا .

والجدير بالاشارة ، هنا ، أن معظم تحليلات الاحزاب والقوى الوطنية اللبنانية تخلط بين **تطور** ونمو الرأسمالية المحلية وبين **توسع** السوق الرأسمالية التجارية وذلك في مرحلة الازدهار الذهبي للكومبرادور اللبناني في الخمسينات والستينات . فالبعض يجد في **الشهابية** تعبيرا « موضوعيا » عن وجود ميل لدى « البرجوازية الكبيرة » لتمثيل نفسها سياسيا بشكل مستقل بعيدا عن وصاية « وتسلط » « الاقطاع السياسي » . فهم يفسرون الاجراءات الشهابية من محاولات « تحديث » الادارة وشق الطرقات الجديدة وتحسين شبكة المرافق الحيوية العامة الى توسيع التعليم وتعميم بعض مؤسسات الخدمة الاجتماعية والصحية والقيام بعدد من « المشروعات » الاقتصادية المرتبطة أساسا بالكومبرادور ، بأنها تعبير عن هذا الاتجاه . وهم لا يعنيهم ، بالطبع ، البحث في تاريخ النشأة السياسية والاجتماعية للظاهرة الشهابية واسباب « فشلها » .

فالشهابية جاءت في ظروف مميزة اثر حوادث عام ١٩٥٨ حيث وقف الكومبرادور اللبناني بجناحه الماروني المهيمن مع مشروع ايزنهاور ومعاداة حركة التحرر الوطني العربية المناهضة للامبريالية تحت قيادة البرجوازيات العربية القومية .

وقد اكسب الموقف « الحيادي » للشهابية من الصراع الداخلي في لبنان وفي المنطقة وزنا سياسيا مقبولا من الاطراف المتصارعة . مما اعطاها زخما وقدرة على الاستقلال السياسي النسبي بمعزل عن التأثير المباشر للزعماء السياسيين من جهة ، والى

انتهاج سياسة « متوازنة » « عاقلة » بين البرجوازيات العربية القومية وبين الرجعية العربية والامبريالية الامريكية ، من جهة ثانية . ولقد اعتمدت الشهابية في سيطرتها على الاجهزة العسكرية والولاء السياسي لها من قبل عدد كبير من الزعماء السياسيين . وذلك في مرحلة كانت البرجوازية الكومبرادورية فيها في اوج واهم أطوار ازدهارها الاقتصادي واحتياجها الى الموظفين والكوادر الفنية وتوسيع سوقها الداخلي .

الا ان نجم هذه المحاولة ، كلحظة مؤقتة ، ما لبث ان ذوى بفعل انتهاء الظروف السياسية الداخلية والخارجية التي جاءت بها وجمود مرحلة الازدهار الاقتصادي . كما ان نمو الحركة الوطنية والشعبية ودخول المقاومة الفلسطينية ساهم في انتهائها ، حيث اتخذت الشهابية موقفا معاديا ينسجم مع المصالح الطبقية الكومبرادورية التي مثلتها في مرحلة معينة . **فقد حاولت الشهابية خلق مركز مستقل في السلطة والدولة يلعب دور المخفف من احتدام التناقضات بين فئات الكومبرادور المختلفة . وذلك في ظل ظروف سياسية ونوعية محددة .**

اما **التناقض الاساسي** الناشيء ، **اليوم** ، بين الطبقة الكومبرادورية بصفة عامة وبين اوسع الجماهير الشعبية فانه **لا يمكن خلطه او وضع نقاط تطابق بينه وبين اي مستوى آخر من مستويات التناقض الاخرى في الواقع اللبناني .**

طبيعي نحن لا ننكر ان الشكل الحالي للسلطة السياسية للنظام تحت سيطرة الجناح الماروني انما يشكل عائقا سياسيا امام قدرة الطبقة الكومبرادورية الحاكمة على اتخاذ المواقف والقرارات الحازمة في مواجهة الحركة الشعبية . وازاء تفاقم الازمة التي يعاني منها هذا النظام ، في اللحظة الراهنة ، فاننا لا نستبعد ادخال بعض « التعديلات » على نسبة التمثيل السياسي لشرائح الكومبرادور في مؤسسات السلطة . اي تحسين شروط « المشاركة » في السلطة السياسية لفئات الكومبرادور ذات الانتماء الطائفي الاسلامي . اذ ان هذا الامر قد يساهم سياسيا في تحسين شروط مواجهة النظام للحركة الشعبية والقوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية ، في مرحلة لاحقة ، بصورة اكثر انسجاما مما هو عليه واقع الحال اليوم ، وفي ظل ظروف عربية اكثر مواءمة .

ولكن هذا الوضع لن يرقى الى مستوى تغيير شكل الحكم .

ان مثل هذا التغيير الذي يحلم به الاصلاحيون في ساحة لبنان الساخنة ، ليس على الاطلاق من قبيل الاحتياجات الموضوعية لتطور الطبقة البرجوازية الصناعية المزعومة !

اما حين تأخذ الجماهير على عاتقها التغيير فهي ستسير في طريق آخر تماما .

ان ما سوف يتم من تعديلات سياسية ضمن نطاق سلطة الكومبرادور لن يتعدى اطار ومضمون العلاقات الطائفية في مرحلة وصلت فيها هذه الطبقة في ظل الازمة الراهنة ، بقيادة جناحها الماروني المهيمن ، الى مأزق خطر في مواجهة الحركة الشعبية والوطنية بات يهدد وجود نظامها نفسه . وبالطبع فان اي تعديل او « اصلاح » في نسبة التمثيل السياسي لفئات الكومبرادور في مؤسسات السلطة ، سيأخذ بعين الاعتبار محاولة اطفاء بعض نيران النقمة الشعبية والوطنية .

ان الاصلاحات الاقتصادية والسياسية الممكنة التي قد يلجأ اليها النظام ، وتحت الضغط الشعبي ، لن تمس جوهر السيطرة السياسية الكومبرادور . فاذاً لم تبادر القوى والاحزاب الوطنية والثورية الى اخذ زمام المبادرة السياسية والاستعداد للمواجهة على ضوء مختلف الشروط والمعطيات الجديدة التي يمكن للنظام ان يضعها امام الحركة الشعبية . سيما انه بعد الحوادث الدامية الاخيرة والاستقطاب السياسي الحاد الذي تولد عنها وبروز الاتجاه الفاشي الطائفي لدى الكومبرادور الماروني المهيمن ، سيضعف مجال المناورة السياسية امام النظام على مختلف الصعد . ولكن ذلك مرهون ، بالفعل ، بطرح الشعارات الملائمة ، للمرحلة القادمة ، والتحضير الثوري لها .

عمق الازمة الراهنة

هناك اختلاف رئيسي بين الازمة الراهنة التي يمر بها هذا النظام الكومبرادوري وبين ازمة عام ١٩٥٨ . ففي تلك المرحلة لم يكن صعود حركة التحرر الوطني بقيادة البرجوازيات القومية العربية ليسمح باعطاء الاتجاه الفاشي الكومبرادوري الطائفي اي مجال للتنفس والتعبير السياسي بنفس الحده والشراسة الدموية الحالية . خاصة ان النظام الكومبرادوري في تلك الاونة كان في اوج ازدهاره وتوسعه . فلم يكن قطاع الخدمات قد وصل الى مرحلة الاشباع التي وصل اليها اليوم، بحيث اصبحت قدرته على استيعاب اعداد كبيرة من الموظفين والمستخدمين والعاملين ضعيفة للغاية . ثم ان هكذا نظام كومبرادوري تابع تؤثر فيه الازمة الراسمالية العالمية بشكل حاد وتنعكس اثارها المباشرة (تضخم وغلاء الخ) على اوضاع ومستوى معيشة الجماهير اللبنانية الكادحة والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة . كما ان نمو وصعود الحركة الوطنية الديمقراطية بدأ يأخذ وزنا جديدا في الحياة السياسية في لبنان ، وذلك في ظل التواجد الثوري المسلح للمقاومة الفلسطينية .

وقد بدأت تنفضح اكثر فأكثر الطبيعة الطبقية للنظام الكومبرادوري التابع المعادية للوطنية ازاء استحالة قيامه بالتصدي للاعتداءات الاسرائيلية المتكررة .

وقد ادى تعاظم قوى المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية الى وصول التناقض مع النظام الى حالة من التفجر والاحتدام الحاد ، مما شكل عاملا موضوعيا لبعث القوى الفاشية للنظام للدفاع عن الخطر الذي يتهدده ككل . **وقد بادرت القوى الفاشية المرتبطة اساسا بالكومبرادور الماروني المهيمن الى شهر العنف الرجعي المسلح في وجه المقاومة والقوى الوطنية والجماهير . وقد تلاقى كل ذلك مع تزايد قوة النفوذ الامبريالي الامريكي في المنطقة ، وتراجع البرجوازيات القومية مما اتاح للاتجاه الفاشي في لبنان ان ينمو وتزداد شراسته ، ليس انطلاقا من قواه الداخلية او ((انعزاليته)) ، بل على العكس من ((انفتاحه)) الشديد على مخططات الامبريالية الامريكية وتزايد نفوذها في المنطقة** . وان علاقة الكومبرادور التابع لوثيق الارتباط بالسياسة **التفصيلية** للمخططات الامبريالي ، اذ ليس للكومبرادور الطفيلي اي وجود مستقل سواء على الصعيد السياسي او الاقتصادي او العسكري بدون الدعم الامبريالي المباشر .

(التتمة صفحة ٢٧٥)

مستقبل النزاع العربي الاسرائيلي

محمد سيد احمد

التسوية غير ممكنة ، الا في مواجهة المخطط الاميركي

تقصي مستقبل « النزاع العربي الاسرائيلي » ، لو طرح على اطلاقه ، ما هو الا رجم بالغيب . الشيء المؤكد هو انه « نزاع » . وسوف يحتفظ بصفة « النزاع » — جوهريا — في كل الاحوال ، حتى لو انجزت « تسوية » . فان اي « تسوية » يمكن تصورها لا يمكن الا ان تسفر عن « شكل من اشكال » استمرار « النزاع » بصور جديدة مختلفة . اي ان « التسوية » اذا ما تمت ، ما هي الا حلقة في حلقات « النزاع » المتتابعة . ذلك ان « التضاد » بين اهداف وتطلعات المشروع الصهيوني الذي تجسمه اسرائيل من جانب ، واهداف وتطلعات حركة القومية العربية من الجانب الآخر ، وثورة شعب فلسطين بالذات ، تضاد مطلق . كل منهما يلغي الآخر .

ولكن حتمية احتفاظ النزاع العربي الاسرائيلي بطابع « النزاع » لا تستتبعها حتمية احتفاظ هذا النزاع بطابع واحد محدد ، وبنمط مقرر لا خروج عليه لخريطة المواجهة . ولا تعني ان الشكل الذي طالما ساد النزاع ، والخواص التي ميزته ، هي وحدها الخواص المتصورة له ، ذلك ان هذا « النزاع » لا تجري مباشرته في فراغ ، وليس هو بمنأى عن مؤثرات متعددة .

لقد نشأ النزاع اصلا في اطار بيئة دولية معينة ، بعوامل لا تمت الى الواقع العربي بصلة ، منها على سبيل المثال « المشكلة اليهودية » التي استفحلت في كثير من مجتمعات شرق وغرب اوروبا ابتداء من نهاية القرن الماضي ، وقت ان تبلورت الصهيونية كعقيدة سياسية . والآن تجري ممارسة هذا النزاع في بيئة دولية مغايرة، بسمات وخواص مختلفة نوعيا . ولا بد ان تتأثر اشكال النزاع وصوره ومظاهره بالبيئة الدولية المحيطة ، بمؤثراتها على المنطقة ومؤثرات المنطقة عليها .

والنزاع العربي الاسرائيلي رغم انه اكثر صور الصراع احتداما في المنطقة ، ليس هو صورة الصراع الوحيدة ، ولا بد ان ينطبع بصور الصراع الاخرى . على سبيل المثال ، نؤمن كعرب — ولنا في ذلك كل الحق — بأن جانبا بارزا من النزاع العربي الاسرائيلي هو المواجهة بين حركات التحرير العربية وبين الاستعمار الغربي. فكان للاستعمار العالمي مصلحة في زرع كيان استيطاني دخيل في قلب الوطن العربي، وعند ملتقى حافة افريقيا الشرقية مع آسيا ، ليقاوم حتمية تصاعد حركات التحرر

على اتســـــاع القارتين ، اسوة بمخططاته في غرب القارة الافريقية « الاستيطـــان الفرنسي في الجزائر » وفي جنوبها « روديسيا وجنوب افريقيا » . وكان هذا التوطين لمستعمرين اوروبيين مسلحين بأدوات الغرب المتقدم في مواقع استراتيجية من عالم المستعمرات ، ركنا بارزا من اركان المشروع الاستعماري . ولكن لم يكن ركنـــــه الوحيد .

حرم الاستعمار الاستيطاني قاطنـــي الارض الاصليين من حق الحياة فـــوق ارضهم ، ولكن لم يكن ذلك اثره الوحيد ، او اثره الاهم . كان فوق ذلك اسلوبا من اساليب الاستعمار لتعزيــــز قبضته السياسية وهيمنته الاقتصادية على عالـــــم المستعمرات ككل . كان الاستعمار الاستيطاني ــ بهـــــذا المعنى ــ احد وجـــوه الاستعمار ، احدى ادواته لتيسير وتأمين عملية استغلال شعوب المستعمرات عموما ونهب ثرواتها . وهذا هو الاصل .

وقد مر نضال الشعوب العربية لاسترداد سيطرتها على مقدراتها باطوار مختلفة . واللافت للنظر ان كل طور من هذه الاطوار توافق مع حادث بارز ، او اطلقه حادث بارز في النزاع العربي الاسرائيلي .

كانت حرب ١٩٥٦ مثلا ، وهي ثاني صدام عسكري بارز نجم عن هذا النزاع ، ايذانا بأن الاستعمار لم يعـــــد قادراً بأساليبه التقليدية ، اي بأسلوب الاحتـــلال العسكري ، او الغزو العسكري لاسترداد ما فقده ، على صد تصاعد التيار التحرري ، ومنع هذا الاخير من بلوغ المستوى الكفيل بتأمين حق الدول الوطنية في استقلالهـــــا السياسي ، واستكمال ادوات سيادتها الوطنية .

لقد فشل الاستعمار فيإجبار مصر على التراجع عن قرارها بتأميم قناة السويس ، بعد ان نجح ــ قبل ذلك بسنوات معدودة فقط ــ في اجبار ايران على التراجع عن قرار حكومة مصدق بتأميم شركة النفط الانجلو ايرانية .

وبعد رد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ بسنوات معدودة فقط ، كان معظم القارة الافريقية قد ازاح عن كاهلها السيطرة الاستعمارية المباشرة ، ونال اغلـــب بلدانها استقلاله السياسي . وعرف عام ١٩٦٠ بأنه « عام استقلال افريقيا » .

ولكن انحسار السيطرة الاستعمارية في صورتها التقليدية ــ صورة حرمان معظم شعوب العالم من حقها في اقامة دول وطنية مستقلة ــ لم يكن يعني نهاية الاستعمار كظاهرة .

لقد واصل الاستعمار استغلاله لغالبية شعوب العالم ، واستنزفه لمواردها ، وتحكمه في مقدراتها بصور مستحدثة ، صور اكثر ملاءمة لمقتضيات العصر وموازين القوى الجديدة . وفي غيبة التحكم السياسي المستند الى الاحتلال العسكري المباشر ، حافظ الاستعمار على مصادر قوته بالتحكم الاقتصادي المبني على عدم تكافؤ القـــوة الاقتصادية ، والقدرة الانتاجية والصناعية ، وعلى التباين الشاسع في المستـــوى التكنولوجي بين مجموعة الدول الرأسمالية المتطورة من جانب ، ومجموعة الـــدول النامية الحديثة الاستقلال من جانب آخر ، بل زيادة الهوة عمقا بين المجموعة الاولى والثانيـــة .

وكانت الشروط غير المتكافئة للتجارة الدولية ،والتباعد المتزايد فيإسعار المنتجات

المصنعة التي تحتكر الدول المتطورة صناعتها ، عن اسعار المواد الخام التي يعتمد دخل الدول النامية على تسويقها ، مظهرا بارزا من هذا الشكل المستحدث للظاهرة الاستعمارية . وكل محاولة من قبل الدول النامية لتأمين اقتصادياتها ضد تحكم السوق الرأسمالية العالمية وتقلباتها ، واستعانة الدول النامية بهياكل لاقتصادها القومي تتوخى وجهة الاشتراكية ، كانت تلقى من قبل الاستعمار مقاومة شرسة تصل الى حد معاودة التدخل العسكري السافر كلما امكن ذلك ، ولو بصور مقنعة تستتر وراء اطراف ودوافع خليقة بخداع الراي العام الدولي ، وحجب الفاعل الاستعماري الاصلي عنه . وليس من شك في ان الحرب الثالثة في النزاع العربي الاسرائيلي — حرب ١٩٦٧ — لم تكن بعيدة عن مخططات الاستعمار الرامية الى اجهاض التجارب الثورية في البلدان العربية التي سعت الى تأمين اقتصادها القومي ومنطلقاتها السياسية ضد السيطرة الاستعمارية .

ولكن حتى لو نجح الاستعمار في التضييق على الاتجاه نحو الاشتراكية في العالم العربي ، والحد من فعالية انماط التنمية الاقتصادية التي تسترشد بخطوط اشتراكية لتتحلل من التبعية للسوق الراسمالية العالمية ، فقد تجددت المواجهات في صور اخرى ، حتى داخل اطار هذه السوق ، وكان ابرزها وقت نشوب الحرب الرابعة في النزاع العربي الاسرائيلي ، تصحيح اسعار النفط ، ابرز سلعة يملك العرب تسويقها دوليا .

كان تصحيح اسعار النفط ايذانا بمعركة خطيرة الدلالة ، بعيدة المدى ، لا تقتصر على النفط وحده ، بل تمتد الى تصحيح اسعار المواد الخام الاستراتيجية — عموما — التي تعتمد اقتصاديات الدول النامية على تصديرها . كان طلقة اولى في وضع حد للهوة التي تزداد عمقا بين اسعار هذه المواد الخام الاستراتيجية — النحاس ، البوكسيت ، الخ . . — واسعار المنتجات المصنعة التي يحتكر صنعها الدول المتطورة. وقد مس تصحيح اسعار النفط اقتصاديات العالم الرأسمالي والاستعماري في الصميم . اظهر مدى اعتماد العالم الغربي على النفط العربي ، باعتبار ان النفط هو وحده مصدر الطاقة المتاحة ، الكفيلة بتشغيل صناعة العالم المتقدم ، على الاقل الى حين اكتشاف مصادر بديلة للطاقة ، وليس هذا احتمالا واردا في اي مستقبل قريب . لولا خوض العرب حرب اكتوبر ، لولا انجازاتهم في ساحات القتال ، لما اكتسبت معركة النفط شكلها المكثف البارز ، لما احدثت زلزالا نال من استقرار العالم الغربي برمته ، واكسبت ازمته النقدية ، واتجاهاته التضخمية ، ابعادا عارمة .

لقد عجلت الحرب الرابعة في النزاع العربي الاسرائيلي بالمواجهة حول قضية النفط ، وفجرت ازمة الطاقة ، بينما فشلت محاولة لتصحيح اسعار النحاس قبل نشوب الحرب باسابيع معدودة فقط ، ذلك بعد نجاح المخابرات الامريكية ، في اسقاط نظام الليندي في شيلي . ومنذ نشوب الحرب ، اصبح البحث عن قواعد جديدة تحكم التعامل دوليا بين دول الغرب الصناعية المتطورة ودول العالم النامي قضية مطروحة وواردة ، وصورة بارزة من صور الصراع التي اصبحت تشمل كوكبنا بأسره .

هكذا يتضح ان النزاع العربي الاسرائيلي لم يكن ابدا بمعزل عن صراعات ومواجهات اوسع نطاقا ، ترجع في النهاية الى المواجهة العربية مع الاستعمار العالمي في كل صوره ، لا في صورة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وحدها ، ولما اتخذت هذه المواجهة مع الاستعمار اشكالا مختلفة ، ومرت بأطوار مختلفة ، فلا بد

— منطقيا — ان يكون النزاع العربي الاسرائيلي قد انطبع هو الآخر بهذه الاطوار ، ولا يجوز افتراضه ثابت الملامح ، دائم الخواص . لم يكن هكذا في ماضيه ، ولا ينبغي توقعه هكذا في مستقبله . وبالفعل ، تؤكد الشواهد الماضية ان النزاع اتجه نحو المزيد من التأزم والاستحكام . زاد عمقا وزاد اتساعا منذ انشاء اسرائيل عام١٩٤٨ . وابتداء من عام ١٩٦٧ ، لم يعد النزاع مقصورا على قضية ارض تقع داخل نطاق حدود فلسطين التاريخية ، بل تعداها الى ارض تتبع سيادة الدول العربية المجاورة. وأصبح النزاع يتسم بصفة الازمة المزمنة . واكتسب تسمية « ازمة الشرق الاوسط » واذا ترتب على زيادة احتدام النزاع المستعر حاليا في لبنان ان تم تقسيم لبنان ، واحتلت اسرائيل جنوب لبنان ، وهذا لم يعد فرضا يجوز استبعاده ، فان التوسع الاسرائيلي سيكون قد شمل دولة عربية اخرى . وهذا يطرح للاهتزاز كل مقومات التسوية كما حددتها قرارات مجلس الامن والامم المتحدة ، ويكسب النزاع بعدا جديدا في تفاقمه .

لقد تأثر النزاع العربي الاسرائيلي بشتى الصراعات والمواجهات التي اجتاحت المنطقة . ولكن كان من شأن النزاع ان اثر في الكثير منها ايضا ، بل كان في أحوال عديدة عنصر تفجير لها اصلا . فجرت حرب١٩٥٦ المواجهة الحاسمة لنضال الشعوب العربية والافريقية من اجل استقلالها السياسي وانهاء سيطرة الاستعمار في صورته التقليدية القديمة . وفجرت حرب ١٩٧٣ معركة بالغة الاهمية مع الاستعمار الجديد كان محورها تصحيح اسعار النفط ، وخوض شعوب العالم الثالث معركة فاصلة بهدف تصحيح اسعار المواد الخام الاستراتيجية ، وبناء مقومات استقلالها الاقتصادي . واذا صح ذلك بوجه عام في الماضي ، فهناك ما ينبىء بأنه سوف يصح وبوجه اوضح في المستقبل ، ذلك ان حرب اكتوبر قد ادخلت تغييرات جسيمة على قوام النزاع ، وعظمت من شأنه دوليا كما لم يحدث من قبل .

ولا شك في ان مجريات النزاع بعد حرب اكتوبر سوف تصادفها منعرجات ومنعطفات شتى ، وسوف تعتريها عوارض كثيرة يتعذر التنبؤ بها مقدما . ولكن مهما تعددت وتضاربت الاحتمالات ، فهناك اساسيات نابعة من صميم قوام تطور النزاع ، ذات الجذور الضاربة في الحاضر والماضي ،والتي تقبل ان يجري استكشاف ملامحها وتطوراتها مستقبلا .

وربما كان ابرز ما يستحق الاستطلاع ، وسوف نركز عليه بحثنا ، ابعادا ثلاثة لتطور النزاع تنبىء باكتساب اهمية بالغة في المرحلة القادمة :

— بعد ناجم عن اتجاه النزاع نحو « التصعيد » ، وسوف نستكشفه تحت عنوان « النزاع يفتتح عصر دبلوماسية الذرة اقليميا » .

— بعد ناجم عن اتجاه النزاع نحو « التخصيص » ، بمعنى نضج الظروف المحيطة بجوهر النزاع ولبه ، وبروز القضية الفلسطينية في المقدمة ، وتعليق مستقبل النزاع كله على مصيرها .

— بعد ناجم عن اتجاه « لتدويل » النزاع ، بمعنى اتخاذه تكأة لمواجهات دولية بسبيلها ان تحتل مقدمة المسرح العالمي .

واستنادا الى هذه الابعاد الثلاثة ، سوف نستشرف ضوابط لا بد ان تحكم النزاع ، وقسمات ينتظر ان تميزه في المرحلة القادمة ، ويجدر بنا ان نلتفت اليها .

افتتاح عصر « دبلوماسية الذرة » اقليميا

ان ابرز ما اسفرت عنه حرب اكتوبر ، هو انجازات القوات المسلحة العربية في ساحات القتال ، وبالذات ما انجزته القوات المسلحة المصرية على جبهة القناة . لاول مرة في تاريخ النزاع ، ثبت لاسرائيل انها لا تملك التفوق العسكري المطلق . كانت اسرائيل قد ابرزت تفوقا عسكريا في كل الحروب السابقة ، وكان الخط البياني يشير الى ان هذا التفوق يزداد بروزا ، حربا بعد اخرى . كان التفوق العسكري المطلق هو « عنصر الردع الحاسم » الذي كانت تملكه اسرائيل ، في غيبة تحقيق تطلعها الى « حدود آمنة ومعترف بها » ، وازاء عالم عربي يحيط بها ويناصبها العداء المستحكم . وهو وحده العنصر الكفيل بتعويض أوجه ضعفها ، في وجه الكثرة العربية ، مساحة وتعدادا وقدرة على حشد امكانيات لا تحصى .

وقد نجحت اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ في اشاعة الانطباع بأن تفوقها العسكري هو وحده المقرر لمجريات النزاع ، وان العنصر العسكري هو وحده المعيار الذي يتعين قياس قوة الاطراف المتصارعة بمقتضاه .

وهذا بطبيعة الحال يخالف القاعدة البديهية ان موازين القوى بين اطراف متنازعة هي دائما محصلة عوامل عديدة ، منها العامل السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي والديموجرافي والايديولوجي ، والقدرة على تزويد القوة الذاتية بدعم خارجي ، الخ .. فضلا عن العامل العسكري . ولكن الحروب الحديثة التي تتخذ في العادة شكل الحروب المباغتة ، السريعة والمفاجئة ، تبدو وكأنما في قدرتها مخالفة هذه القاعدة ، وذلك بأن تكسب العامل العسكري المحض ، اهمية بالغة على حساب العوامل الاخرى ، خاصة لو اتسم احد الاطراف المتحاربة بتفوق ملحوظ على خصومه في القدرة على استخدام الاسلحة الحديثة المعقدة الاستعمال .

استغلت اسرائيل هذه الخاصية لتشيع في اعقاب حرب ١٩٦٧ الاعتقاد بأن « القوة العربية » مردودة الى حجم هزيمة العرب عسكريا ، مع اهمال كل عامل آخر ، وان « القوة الاسرائيلية » هي في المقابل بضخامة حجم انتصارها العسكري ، ايضا مع اهمال كل عامل آخر . وكان ذلك قمة ما يلبي مقتضيات الامن الاسرائيلي ، فضلا عن تكريس المشروع الصهيوني ، وتحقيق اهدافه في التوسع .

الا أن القوات المسلحة العربية قد أجادت هي الاخرى في حرب اكتوبر استخدام عنصر المفاجأة والمباغتة . وبفضل ذلك استطاعت القوات المسلحة المصرية ان تحقق بنجاح خارق عبور القناة واقتحام خط بارليف . وكان ذلك في حد ذاته ضربة قاضية لا تعوض للتفوق العسكري الاسرائيلي المطلق ، ايا كانت انجازات اسرائيل التالية في الحرب ، او في اية حرب قادمة .

لقد فقدت اسرائيل الى غير رجعة ميزة عدم التكافؤ المطلق في القوة العسكرية للاطراف المتحاربة . وفقد « العامل العسكري » صفته كعنصر حاسم في تقرير مجريات المواجهة . وبرز عامل آخر ليقوم بدور مؤثر في تطور الاحداث بعد ذلك ، هو « العامل الاقتصادي » ، اي قضية النفط التي جذبت اهتمام العالم الغربي واميركا بوجه خاص ، وكانت عنصرا بارزا في حفز كيسنجر على التصدي للازمة بدبلوماسيته النشطة . وضغط « ازمة الطقة » ، اي قدرة العرب على الحد من ضخ النفط وحظر تصديره ، ليس بالعامل الذي تملك اسرائيل السيطرة عليه .

واسرائيل بوجه عام لا تملـــك ولم تألف ان تترك مصائرها لاطراف اخرى غيرها ، او لعوامل لا تملك السيطرة عليها . ولا بد لها ان تبتدع لنفسها « عنصر ردع مطلق » كفيل بتعويض ما فقدته بعد زوال تفوقها العسكري السابق . ولــم يعد من الممكن ان تضمن هذا التفوق داخل اطار الاسلحة التقليديـــة ، ذلــك ان الاطراف المتحاربة جميعها في حرب اكتوبر قد اثبتت انها تجيد استخدام ارقى اسلحة تقليدية تنتجها اكثر دول العالم الصانعة للسلاح تقدما . ومن هنا لا بد أن تتجــه اسرائيل الى حماية وجودهــا بالاعتماد على السلاح النووي ، والتصعيد بمعادلــة السلاح في المنطقة الى المستوى النووي ، سواء كحقيقة قائمة ، او كحقيقة كامنه . وهناك شواهد تدل منذ وقت غير قصير على ان اسرائيل لم تكف عن محاولة صنــع قنبلتها الذرية الخاصة . والامر الذي لم يعد من الممكن اغفاله على اي حال ، هــو ان السلاح الذري ، لو ظل حتى الآن في نظرية الامن الاسرائيلية ، سلاحا احتياطيا، من شأنه ان يصبح في غيبة تفوقها المطلق السابق بالاسلحة التقليدية ، سلاحــا اساسيا ، ومن هنا ، يصح القول بأن النزاع العربي الاسرائيلي بسبيله ان يدخل عصر الذرة ، بكل ما ينطوي عليه هذا التحول من معان في مجال الحرب ، وفــي مجال السياسة والدبلوماسية على حد سواء .

والواقع ان « دبلوماسية الذرة » قد هيمنت على مقدرات النزاع العربـــي الاسرائيلي منذ عدد من السنوات ، وخاصة اثناء حرب اكتوبر . ولكن لم تكـــن « دبلوماسية الذرة » عنصرا مؤثرا في النزاع وقتذاك نتيجة امتلاك الاطراف المتحاربة اسلحة نووية ، بقدر ما القت بظلالها بمقتضى توافر الاسلحة النووية لدى اطــراف القمة المعنية بالنزاع والمورده للسلاح .

لقد انتجت « دبلوماسية الذرة » ــ دوليـــا ــ ما اصطلحنا على تسميتــه ــ عربيا ــ « بالوفاق الدولي » ، وان كان المصطلح تعوزه الدقة . ان بلوغ سباق التسلح بين اقوى دول العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي المستوى النووي قــد فرض على الطرفين معا ابرام اتفاقات تجمد اشكالا محددة من الصراع بينهما . ذلك انه لاول مرة في التاريخ ، اصبح في طاقة الطرفين معا انتاج اسلحة تصل قدرتهــا التدميرية الى حد افناء البشرية بأسرها ، لا مجرد هزيمة القوة العسكرية للخصم . انطلاقا من هذه الخاصية الجديدة للصراع العالمي ، نشأت دبلوماسية من نوع جديد، ما اصطلح على تسميته في الغرب « بدبلوماسية الذرة » ، اي علــم ادارة النزاعات وضبطها حتى لا تتصاعد فوق حد معين .

ان الوفاق الدولي او « دبلوماسية الذرة » لا تلغى الصراعات الدولية ، وانما تجمد اشكالا محددة من هذا الصراع ، وبالدقة ، اشكال الصراع التي تعود ممارستها على كافة الاطراف المعنية باضرار تفوق الفائدة التي يجنيها منها اي طرف . ان الحرب الذرية نموذج بارز لشكــل من اشكال الصراع التي ينطبق عليها الوصــف السابق . ولكن الصراعات الدولية بوجه عام لا تقبل التجميد . واشكال الصراع القابلة للتجميد مقصورة على دائرة محدودة تماما . وبوجه عام ، فليس التناقض هو الذي يزول ، بل بعض اشكال ممارسته ، لتجري هذه الممارسة بأشكال اخرى تحل محلها .

من هنا يمكن القول بأن « دبلوماسية الذرة » لا تفضي الى الغاء التناقضات، ولكن الى « اعادة ترتيبها » ، بمعنى ان التناقضات تبرز مرة اخرى في صور مخالفة لصورها السابقة . و « دبلوماسية الذرة » على الصعيد الدولي تجري ممارستهــا

على مستــوى القمة ، مستوى اقوى دول العالم المالكة لاسلحة الدمار الشامل ، وبالذات الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . والتدخل من قبل القمة لا يجدي في الغاء الصراعات ، ولكن يسعى الى احلال اشكال لممارستها محل اشكال اخرى ، تجنب الاطراف المعنية التصعيد بنزاعاتها الى حد المحظور ، اي الحد الادنى الــذي يؤذن بخطر مواجهة نووية تعم اضرارها الجميع .

بهذا المعنى خضعت حرب اكتوبر لعملية « ضبط » من قبل الدولتين الكبريين الموردتين للسلاح . كان مــن شأن تدخلهما تكثيف العمليات الحربية وتخفيفها فــي آن واحد . كان التكثيف بمقدار تزويد الجيوش المتحاربة باكثر اسلحة العصر تفوقا في مجال الاسلحة التقليدية غير الاستراتيجية . وكان التخفيف بمقدار تدخل الدولتين للحد من حجم العمليات العسكرية ، والمدة التي تستغرقها ، لتجنب التصعيد بالحرب الى حد يتعدى حدود المنطقة ويعرض الوفاق الدولي للانهيار .

وكان للتدخل الاميركي فضل كبير في انقاذ اسرائيل من عواقب العبور . ولكن اميركا كانت حريصة ايضا على الا تهدر قيمة الانجاز العسكري العربي ، حتى يكون هذا الانجاز عامل تشجيع لمبادرات عربية « اكثر جسارة » على الصعيد الدبلوماسي ، وحتى تحفظ للعرب شعورهم باستعادة شرفهم العسكري ، بأمل ان ييسر ذلــــك فرص التوصل الــــى تسوية . وكذلك لم تشجــــع اميركا نصرا عسكريا يتــــاح للاسرائيليين احرازه ، مثلما قاومت تعرضهم لهزيمة ، بدعوى ان المضاعفــات في الحالتين على السواء ، حالة النصر الساحق او حالة الهزيمة المؤكدة ، هي عرقلــة استعداد اسرائيل لتقبل التسوية . والواقع ان هذه الاستراتيجية التي قنعت بهــا الدبلوماسية الامريكية بعد اندلاع الحرب ، ان لم تكن قد رسمت لها عدة اشهر قبل نشوبها ، هي دبلوماسية لم يقابلها السوفيات بالرفض . كان الوفاق الدولي قد وفر هذا القدر من التلاقــــي الموضوعي بين الدولتين الكبريين على تعارض اهدافهمــا ومراميهما .

هكذا اثرت « دبلوماسية الذرة » عند القمة على مجريات حرب اكتوبر . ولكن المطروح الآن ليس « دبلوماسية الذرة » عند القمة ، ولكن على المستوى الاقليمي ، بأهداف ومرام للاطراف الاقليمية المتنازعة تختلف عن ارضية التلاقي على مستــوى القمــــة .

وتجدر الاشارة الى ان اثرا بارزا من آثار الوفاق الدولي ، ودبلوماسية الذرة عند القمة ، هو اختلاف نوعية الصراعات التي قفزت الى مقدمة المسرح السياســي العالمي . فبقدر تجميد اشكال الصراع الضارة للطرفين معا على مستوى القمــة ، واحلال اشكال اخرى للصراع بينهما ، اشكال للصراع قد يرجع على الطرفين معــا بالنفع بدلا من الضرر ، « كالمنافسة الاقتصادية في ظل التعايش السلمي ، بدلا مــن سباق التسلح في ظل الحرب الباردة » ، بنفس القدر سوف تنتعش اشكال اخرى من الصراع ، منبثقة من قاعدة المجتمع الدولي ، كانت « مجمدة » في الفترة السابقــة ــ فترة الحرب الباردة ــ بسبب الاستقطاب الدولي الحاد ، وتجد الآن فرصـــة للانطلاق . بعبارة اخرى ، ترتب على « الدبلوماسية الذرية » عند القمة ، تبديل في نوعية الصراعات التي يجري « تجميدها » وتلك التي اصبح من المتاح لها ان تنطلق . فقد كانت الصراعات الخاضعة « للاحتواء » او « التجميد » في الماضي هي الصراعات المنطلقة من قواعد المجتمع الدولي ، وذات طبيعة تتعارض مع ما كانت تقتضيه حدة التناقض وضراوة المواجهات « عند القمة » . اما الان ، فان نوعية الصراعات التي

يجري « تجميدها » ، هي تلك التي يتقرر تجميدها بقرار واع ، متفق عليه ، عند القمة . وفي المقابل ، ومع انزواء الاستقطاب الدولي الحاد ، لا بد من ان تزداد الصراعات المنبثقة من قاع المجتمعات اندفاعا وتنوعا .

ولكن ما التغيير الذي سوف يدخله اقتناء اطراف اقليمية الاسلحة النووية ، على هذا النمط للصراعات الذي برز مع الوفاق الدولي ؟

بوجه عام ، يمكن القول بأن الاسلحة النووية لم تعد حكرا الآن للدول الكبرى وحدها . فقد استطاعت الصين بمجهودها الخاص ان تصنع قنابل ذرية ، بل قنابل هيدروجينية . ثم نجحت الهند ، وهي دولة تنتمي الى صميم العالم النامي ، في تفجير قنبلتها الذرية . وافتتحت بذلك عصر دخول دبلوماسية الذرة حلبة الصراعات الاقليمية . ولكن دخول السلاح النووي الشرق الاوسط ينبىء بدخولها اكثر النزاعات الاقليمية احتداما والتهابا ، وسوف يكون عنصر تشجيع لانتشار الاسلحة النووية الى مجموعة اوسع من الدول التي لا تنتمي الى العالم المتقدم .

وقد يقال ان اسرائيل ربما تملك القدرة التكنولوجية على صنع القنابل الذرية ، وليس هذا متاحا للدول العربية . ولكن هذا الفرض يدحضه النجاح الذي احرزته دول اخرى تنتمي الى العالم النامي في صنع هذه القنابل . وتفنده حقيقة ان الدول العربية لا تملك ان تقف مكتوفة الايدي امام اقتناء اسرائيل هذ السلاح وتلويحها باستخدامه . ولم تعد اسرار صنع القنبلة طلاسم تكنولوجية يتعذر الوصول اليها . وللعرب المال والمعرفة الفنية اذا حشدوا جهودهم لهذا الهدف .ثم للعرب حافز اضافي لاستحواذهم على السلاح النووي — في اطار انتشاره دوليا — لا يمت الى النزاع العربي الاسرائيلي بصلة مباشرة . فبفضل التهديد النووي ، فرض الوفاق ، وتدعمت سيادة الدول النامية . واستطاعت اتخاذ قرارات سيادية ، كقرارات تصحيح اسعار النفط، لم يكن من المتصور اتخاذها من قبل دون التعرض لتدخل عسكري من قبل دول الغرب الاستعماري . الا يتسق مع هذا المنطق ان تستكمل هذه الدول ادوات سيادتها ، بأن تدعمها « بالسلاح المطلق » الكفيل بتأمينها نهائيا ضد كل تدخل خارجي ؟ ان العديد من الدول العربية يبتاع الآن كميات هائلة من الاسلحة المتطورة ، وما القفز الى المستوى النووي بالخطوة المستحيلة التحقيق . بل تنسجم مع الانتشار المتوقع للاسلحة النووية خلال الفترة القادمة لعدد اوسع من الدول يصعب ضبط التزامها جميعا بالحجر الراهن المفروض على انتشار هذه الاسلحة .

قد يقال ايضا ان اسرائيل لن تلجأ الى استخدام السلاح النووي الا اذا هددت في صميم وجودها . ولكن الابعاد التي تكتسبها قضية فلسطين بدلالتها في نقض صميم اسس المشروع الصهيوني ، كفيلة بجعل تهديد اسرائيل باستخدام هذا السلاح تهديدا جادا ، تهديدا لم يعد من الممكن اغفاله .وليس صدفة حرصها على اقتناء نوعية جديدة من الاسلحة من امريكا تمكنها من القفز الى مستوى الحرب النووية .

قضية فلسطين

هناك من اعتقد في اعقاب حرب اكتوبر ان القضية الفلسطينية سوف تفقد من بريقها السابق . وان القضية الفلسطينية قد برزت للمقدمة فقط وقت ان انتكست رايات الدول العربية في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ . فكانت في ذاك الوقت اكثر من اي طرف عربي آخر رمزا للصمود والمقاومة . ولكن بمجرد أن استعادت الدول العربية

شرفها العسكري في معارك اوكتوبر ، وكان خوض الحرب من صنع مصر وسوريا قبل أي طرف آخر ، فان قضية فلسطين سوف يتقرر لها المكان الذي تحدده دول المواجهة العربية لابعاد النزاع واحتمالاته .

وهذا الغرض جرى تأسيسه على التسلسل التالي : كان موقف العرب بوجه عام من اسرائيل قبل حرب ١٩٦٧ هو رفض وجودها مع ارجاء حسم هذا الرفض عمليا لحين ان تتوافر الظروف المواتية . ولكن برز بعد هزيمة ١٩٦٧ واحتلال اسرائيل جزءا من ارض مصر ، ومن ارض سوريا ، فضلا عن كل ارض فلسطين ، منطقان متمايزان لمواجهة اسرائيل . وظل المنطقان واردين ، لان اختبار « الواقع » لم يكن قد فصل ايهما هو الاكثر سدادا والاكثر قابلية للانجاز :

— المنطق الاول هو الذي قال بأن الاساس في حل ازمة الشرق الاوسط يتعين ان يكون « ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ » ، ومعنى ذلك تعليق التسوية على استرداد العرب للاراضي التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ . وهذا الحل هو الذي يجد تجسيده في قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وهو بوجه عام منطق دول المواجهة العربية التي فقدت اجزاء من اراضيها . ومع بروز قضية فلسطين ، اضيف الى المطلب الاصلي للدول العربية مطلب عربي آخر متميز عنه ، هو تحقيق الاماني المشروعة لشعب فلسطين في تقرير مصيره واقامة كيانه الوطني .

— اما المنطق الثاني ، فهو الذي تمسك بأن الاساس في حل الازمة ، هو «ازالة آثار عدوان ١٩٤٨ » ، اي اجتثاث كل وجود للكيان الصهيوني اصلا . وكل تسوية عدا ذلك ما هي الا ترسيخ لهذا الكيان ، وتسليم من قبل العرب بشرعية وجوده . وكان هذا المنطق هو منطق المقاومة الفلسطينية الذي استقر التعبير عنه في شعار فتح باقامة دولة ديمقراطية علمانية في فلسطين تتسع لليهود والمسيحيين والمسلمين معا ، بديلا عن كيان اسرائيل العنصري .

وما لم يجد اي من المنطقين طريقه الى التنفيذ ، اي في الوقت الذي ظلت فيه اسرائيل مغتصبة ارض فلسطين كلها ، فضلا عن احتلالها قطاعات واسعة من اراضي الدول العربية المجاورة ، فلم يكن هناك ما يشير الى التطورات اللاحقة للازمة ، وهل ستتقرر الامور بمقتضى المنطق الاول او المنطق الثاني .

ولكن الامور تغيرت بعد حرب اكتوبر . ذلك ان مصر وسوريا بخوضهما الحرب فعلا ، حولتا « ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ » من « امنية » لا تتحقق الى « امكانية » بدت ممكنة التحقيق . واستردت الدولتان بالفعل ، بفضل اتفاقات فك الاشتباك في اعقاب الحرب ، جزءا من اراضيهما التي تعرضت للاحتلال . وتقرر عقد مؤتمر للتوصل الى تسوية شاملة . وهذه التسوية الشاملة لا بد أن تشمل — ضمن ما تشمل — اراضي فلسطين التي تحتلها اسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ . ومعنى ذلك ان منظمة التحرير ووجهت بمشكلة عملية : هل تقيم سلطتها الوطنية على كل بوصة من ارض فلسطين يتم استردادها ، ام تتركها للاردن ليستعيد ممارسة سيادته عليها ؟ لو هي قررت رفض تسلم اية ارض فلسطينية لا تتم استعادتها الا في اطار منطلق اقتلاع جذور الاغتصاب الصهيوني لارض فلسطين كلها ، وتسلمها الاردن بالتالي ، تكون المنظمة قد نفت عن نفسها صفتها كالممثل الشرعي الوحيد لشعب فلسطين ، لتسليمها بأن ارضا فلسطينية يجوز لغيرها ادارتها وممارسة سيادته عليها . ولو هي قررت تسلم كل قطعة من ارض فلسطين يتم استردادها ، واقامت

سلطتها الوطنية عليها ، فتكون بذلك قد سلمت ضمنيا بتواجد كيانين في فلسطين ، الكيان الفلسطيني العربي وكيان اسرائيل ، لاجل غير مسمى . ويبدو ذلك متعارضا مع شعار منظمة التحرير باقامة الدولة الديموقراطية العلمانية في كل ارض فلسطين .

وبدا هذا المأزق وكأنما منطق دول المواجهة ، لا منطق المنظمة ، هو الذي رجحته مجريات النزاع . وعلى هذا الاساس طرح الغرض ان قضية فلسطين من شأنها ان تفقد بريقها بعد حرب اكتوبر .

ولكن الاحداث اثبتت عكس ذلك . فقد اعتلى ياسر عرفات منصة الامم المتحدة بعد حرب اكتوبر وليس قبلها . وتعاظم الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير . وتلاحقت قرارات الامم المتحدة المؤيدة لقضية فلسطين . وقرار الجمعية العامة بادانة الصهيونية قرار بالغ الدلالة ، ذلك انه يحمل ادانة دولية للاساس العقائدي الذي تقيم عليه اسرائيل مبررات وجودها .

ويجدر بنا ان نتساءل : ما الذي يفسر تعاظم شأن القضية الفلسطينية على هذا النحو في المحافل الدولية ، بينما تتعرض لملاحقات ومطاردات متعاظمة الشأن داخل الساحات العربية ، والكثير من أعمال المقاومة ومظاهر نشاطها لم تعد موضع استنكار اسرائيل والولايات المتحدة وحدهما ؟

الملاحظ بوجه عام انه كلما بادرت امريكا بمبادرات منفردة من جانبها لتمسك بخيوط التوصل الى تسوية للازمة ، لازمت هذه المبادرات الامريكية عملية انقضاض على المقاومة الفلسطينية لتبرز وبشكل ملموس ان منطلقات امريكا للحل ، ومنطلقات الثورة الفلسطينية على طرفي النقيض . لقد صاحبت مبادرة روجرز عام ١٩٧٠ مذبحة الفلسطينيين في الاردن ، وطرد المقاومة من قواعدها في الضفة الشرقية . وصاحب فك الاشتباك الثاني على جبهة سيناء بمقتضى اتفاق كان لامريكا الدور الفاصل في انجازه، تفجر الموقف في لبنان ، وتعرض الفلسطينيين مرة اخرى ، وفي جبهة اخرى تواجه اسرائيل ، لمحاصرة وتضييق يزداد احكاما .

لا تفسير لهذه المفارقة — مفارقة تعاظم شأن قضية فلسطين دوليا ، رغم زيادة تعرضها للملاحقة والمحاصرة داخل ساحات المواجهة — الا ان قضية فلسطين اصبحت ترمز لما هو اكبر من لب النزاع العربي الاسرائيلي وحده ، وان المجتمع الدولي قد تعاظم وعيه بهذه الحقيقة .

لم ترمز قضية فلسطين ؟ ترمز للمواجهة العصرية بين مجتمعات الرفاهية ، صنع الاستعمار العالمي الحديث ، والمشاكل المتفاقمة التي تتعرض لها مجتمعات الندرة والحرمان والجوع في العالم الثالث ، وذلك في صورة من اكثر صور هذه المواجهة احتداما والتهابا . ولا ينطبق ذلك على وضعية الثورة الفلسطينية ومعطياتها واهدافها فحسب، بل ايضا على اساليب المقاومة التي ابتدعتها او مارستها ووجدت صدى لدى قوى مختلفة انبثقت في ساحات شتى من قاع المجتمعات الدولية ، واخذت تقتبسها للتعبير عن رفضها ولتستنكر تعرضها لقضايا « مستحكمة التعثر » برزت للمقدمة مع تعدد مظاهر « وفاق » دبلوماسية الذرة عند القمة ، وزيادة الصراعات المنطلقة من قاع المجتمعات اندفاعا وتنوعا .

وليس مصادفة هذا التوافق في الاساليب ، رغم تنوع القضايا وتباين المواقع ،

بل تبادل الخبرة وتنسيق العمليات بين منظمات فدائية اختلفت في كل شيء الا في موقفها الرافض المشترك ، من فصائل في المقاومة الفلسطينية الى الجيش الاحمر الياباني ، الى الجيش الجمهوري الايرلندي ، الى منظمة بادر ماينهوف في المانيا . والقائمة تطول ، بل تتسع ولا تضيق .

والواقع ان استشراء هذه العمليات التي يدفعها المجتمع الغربي ــ واسرائيل على رأسها ــ بصفة « الارهاب » مؤشر عن انها لم تعد « على هامش العصر » ، بل أصبحت جزءا لا يتجزأ من نسيجه ومن صميم مكوناته . ورغم اصرار المجتمع الغربي على التمسك بادانته لهذه العمليات ادانة قاطعة ، ووصفها « باللاأخلاقية » ، فقد اشهر الى الان عجزه التام عن « احتوائها » ، او حتى الحد من استشرائها ، ذلك أنه قد أصبح من الممكن وبيسر ، متى توافر القدر المطلوب من التصميم ، ومن الايمان ، ومن التدبير والمال ، وبفضل خواص التكنولوجيا العصرية ، توجيه ضربات محكمة بالغة الفعالية الى مواقع شديدة الحساسية ، مع حد ادنى من المخاطرة في المقابل . بل يجوز القول بأن المجتمع الغربي لم يعد قادرا على ان يلتزم موقفا متسقا في ادانته لهذه العمليات عمليا . فقد استنكرت اطراف غربية عديدة ، منها من يدين «الارهاب» ادانة قاطعة ، قرار فرانكو باعدام خمسة من المعادين لنظامه قبل وفاته بفترة قصيرة . وكان الاتهام الموجه الى هؤلاء الشبان الخمسة هو «ارتكابهم اعمالا ارهابية وفوضوية» قوامها قتل رجال من الشرطة بمواد ناسفة . ولكن عداء هذه الاطراف المستنكرة لنظام فرانكو طغى على التزامها موقفا متسقا في ادانة « عمليات الارهاب » ، وسلمت بذلك ــ ضمنا ــ بأن هذه العمليات بوسعها أن تكون « مشروعة » اذا ما توافرت ظروف معينة .

ومع سقوط الدعوى ــ لعدم اتساقها ــ في ادانة هذه العمليات على اطلاقها بحجة انها « غير شرعية » ، هل يجوز التمسك بدعوى انها « لا اخلاقية » نتيجة ما ينجم عنها من سفك دم الابرياء ؟ وهل هي في هذا الصدد اكثر « لا اخلاقية » من زيادة انتشار اسلحة الدمار الشامل التي تقتل الابرياء بالجملة ، وسند « الشرعية » في انتشارها يرجع الى ان القرار هو قرار صادر من قمة المجتمعات ، لا من قاعها ، من المسؤولين في دول « مشروعة » ذات سيادة ؟

ومع اهتزاز المبررات التي يمكن بمقتضاها شجب العمليات الفدائية وادانتها اطلاقا ، يثور السؤال : الى اي حد يجوز التسليم « بشرعيتها » واحقيتها نسبيا ؟ المسألة تقديرية . وتختلف هنا زاوية الرؤية مع اختلاف مواقع الاطراف ، وطبيعة القضية المفجرة لهذا النوع من النشاط ، على مسرح الصراعات العصرية . وقد نفذ اختلاف الرؤية حتى الى صفوف فصائل المقاومة الفلسطينية ذاتها . فهناك ازاء « المأزق » الذي سبق ان اشرنا اليه ، من لا يرفض بتاتا « الحلول المرحلية » ، ويقبل مبدأ اقامة السلطة الوطنية على اي قدر من ارض فلسطين يتم استرجاعها . وهناك من يتمسك بموقف الرفض على اطلاقه ما لم يقتلع الجسم الصهيوني اقتلاعا من جذوره . بل بالقدر الذي بدت فيه الخطوات نحو تسوية ازمة الشرق الاوسط في اعقاب حرب اكتوبر وكأنما هي تجرى متوافقة مع مخطط امريكا تجاه المنطقة ، واحتوائها مصادر القوة التي استعادها العرب ، لصالحها ، لم يترتب على ذلك اي قدر من الاستقرار ، بل استشرت ظاهرة الاضطراب ، وتعددت اسباب الرفض ، واتسعت نطاقا . ولم تعد مقصورة على الدافع الفلسطيني او باسم شعب فلسطين فقط . وبلغ الاضطراب حد التفجر في لبنان الذي يكثف فوق ارضه تعبيرات شتى عن

اسباب التناقض في المنطقة . وعملية « الاوبك » الاخيرة التي تم بمقتضاها اختطاف وزراء النفط في فيينا عملية ذات مغزى خاص ، ذلك ان البيان الذي اصدره فاعلوها وجه الاتهام الى الاطراف العربية التي « انصاعت » او « بسبيلها ان تنصاع » لمنطلق التسوية ، وركز ادانته على « عامل النفط » بحجة ان سلاح النفط لم يعد سلاحا عربيا ضد الاستعمار والصهيونية ، بل سلاح في يد الاستعمار ضد الشعوب العربية .

النفط وتصدي امريكا للنزاع

والواقــع ان سلاح النفط هو سلاح مزدوج الطبيعة . يحمل المعنى ونقيضه . قد ينبيء ببدء منعطــف خطير نحو التحرر العربي الشامل من السيطرة الاستعمارية . وقد يكون مجرد عملية تتم بفضلها « اعادة ترتيب » هذه السيطرة الاستعمارية ، على على ان يكون الاستعمار الامريكي الاقوى هو المستفيد الاساسي منها . ولذلك يؤذن سلاح النفــط بمعركة لم تحســم اتجاهها بعد .

سلاح النفط سلاح تحرري لو قام بدور مؤثر في الضغط على العالم الغربي ككل — لا اوروبا الغربية واليابان وحدهما — لاجباره على التخلي عن انحيازه لاسرائيل ؛ ولتجريد اسرائيل من مصادر دعمها ، عسكريا وماليا وبشريا ، في الغرب .

وسلاح النفط — اي تصحيح اسعاره — سلاح تحرري بمقدار ما يترتب عليــه تجريد شركات النفط المتعددة الجنسيات ، والامريكية بالذات ، من ارباحها الطائــلة الناجمة عن استغلال مكثف للشعوب العربية ، واستخراج النفــط من الارض العربية باسعار بخسة بالمقارنة الى اسعار تصريفه للمستهلك في الغرب .

وتصحيح أسعار النفط اجراء تحرري بقدر ما ينم عن قرار حر يصدر عن دول ذات سيادة تنتمي الى العالم الثالث ، دون أن تكون للاحتكارات الاستعمارية القدرة على افساده أو تعطيل تنفيذه .

وتصحيح أسعار النفط اجراء تحرري لو خصصت عوائد النفط لتنميــة الارض العربية ، وبناء التكامل الاقتصادي العربي ، وتوسيع نطاق السوق العربية ، وأن يجري توظيف رؤوس الاموال العربية لبناء صناعة عربية تستثمر النفط ، لا كمجرد « مادة خام » معرضة للنفاد بعد مدة طالت أو قصرت ، ولكن أساسا في صورة منتجات مصنعة ، ولا يعني ذلك فقط اقامــة معامل للتكرير ، بــل أيضا تنمية صناعــات للبتروكيماويات ، وللصلب والالومنيوم وغيرها من مجالات التصنيع الكثيف . وتنمية الارض العربية ، بالاموال التي أصبحت الآن متاحة ، تقتضي فوق ذلك توسيع رقعتها الزراعية ، وتنمية طاقتها الغذائية . ويقتضي ذلك بدوره مشروعات لتحلية ماء البحر ، وتنمية شبكة مواصلات ، الى غير ذلك من المشروعات الانمائية .

ولكن تصحيح أسعار النفط قد يحمل معاني هي نقيض هذه المعــاني على خط مستقيم . فللعالم الصناعي الغربي مصلحة في « تصحيح ما » لأسعار النفط ، ذلك ان رفع اسعاره الى حد يقارب أسعار مصادر الطاقة البديلة هو افضل الوسائل الكفيلة بتشجيع البحث عن هذه المصادر البديلة ، والحث على تخصيص رؤوس الاموال المطلوبة لاكتشافها وتنميتها . وقد أصبح ذلك أمرا حيويا للعالم الصناعي برمته ، خوفا من أن يتعرض في مستقبل منظور لنضوب مستودعات النفط ، مع تعاظم معدل الاستهلاك سنة بعد أخرى .

ثم للولايات المتحدة بالذات مصلحة في عملية تصحيح الاسعار ، ذلك أن المستهلك

الرئيسي للنفط العربي هو دول غرب أوروبا واليابان . وكل ارتفاع في سعره يعني ارتفاعا في أسعار منتجات هذه الدول ، مما يوفر للمنتجات الامريكية مركزا تنافسيا أفضل . وبفضل تصحيح الاسعار ، حققت شركات النفط الامريكية ، فضلا عن ذلك ، قفزة هائلة في أرباحها .

ثم أصبحت الارصدة العربية المودعة في البنوك الغربية ، والتي لا تستوعبها الدول العربية لضيق أسواقها الداخلية ، مصدرا أساسيا لتحكم العالمَ الغربي في اتجاهاته التضخمية ، ولمواجهة خطر الكساد . فضلا عن ان انتقال هذه الارصدة الى الدول المنتجة للنفط ــ التابعة للعالم الثالث ــ دون أن تخرج هذه الارصدة من نطاق تحكم دوائر المال العالمية ، هو وسيلة لضرب تضامن العالم الثالث ، وتنويع طبيعة مشاكله في وجه العالم الصناعي . وللعالم الغربي على أي الاحوال مصلحة في ايجاد دول خارجه تملك قوة شرائية قادرة على استيراد بعض صناعاته ، بدلا من أن تكون وظيفتها مقصورة على تصدير المواد الخام اليه فقط ، للحد من خطر التلوث الذي يتهدده نتيجة تكثيف هيكله الصناعي الى حد يقترب من نقطة الخطر ، وكذلك في مجالات التصنيع التي تحتاج الى أيد عاملة وفيرة ، غير مدربة ورخيصة . وليس هذا على وجه القطع بشكل التصنيع أو باستيراد التكنولوجيا ، الكفيل بتنمية الدول العربية ، بل يزيدها تبعية للعالم الغربي .

وتتم دبلوماسية كيسنجر النشيطة تجاه النزاع العربي الاسرائيلي وقضايا الشرق الاوسط منذ حرب اكتوبر عن ادراك أمريكا للأهمية الحيوية التي تمثلها هذه المنطقة في استراتيجيتها الشاملة . لقد تعرضت الدبلوماسية الامريكية لانتكاسة خطيرة في الشرق الاقصى بعد ان أسفرت اتفاقات باريس حول قضية فيتنام عن خروج أمريكا تماما من شبه القارة الهند صينية . وتفاقم المشاكل الاقتصادية في غرب أوروبا بدأ ينذر بتحولات سياسية تعرض استقرار التحالف الغربي وهيكله للاهتزاز . وتحاول أمريكا تعويض هذه الخسائر بتعزيز مركزها في الشرق الاوسط ، وتستخدم تكأة لمعاودة وجودها في المنطقة ما تشهره من جهود للتوصل الى تسوية حول النزاع العربي الاسرائيلي .

ولكن محك التقدم حقا نحو تسوية هو أن تتعدد الشواهد الدالة على حدوث تقدم نحو الاستقرار . والذي نشهده الآن هو على عكس ذلك ، استشراء خطير لمظاهر الاضطراب .

ان أمريكا لا تملك ان تكون طرفا منزها من الغرض وهي تتصدى للنزاع . لها من الدوافع الخاصة في ارساء أقدامها في المنطقة ما يتعارض مع دورها « كحكم قادر على الحياد » . يهمها ــ لصالح العالم الغربي ككل ــ أن تظل الارصدة العربية « في حوزة » الغرب . ويهمها في وجه منافسة حلفائها في أوروبا واليابان ، أن تحكم قبضتها على أسعار ومقدار تدفق النفط العربي الى الاسواق العالمية . ويهمها بمقتضى قواعد الوفاق مع الاتحاد السوفيتي ان تعوض عن الحد من سباق التسلح بأن تجعل من الدول المنتجة للنفط ساحات لامتصاص فائض السلاح . ويهمها تحويل هذه الدول ــ المنتمية الى العالم الثالث ــ الى « درع » يتلقى بديلا عنها غضبة الدول الفقيرة ، وحرف الانظار عن الاسباب الحقيقية لزيادة أحوالهاترديا . واشراك الدول المنتجة للنفط كطرف مستقل في المواجهة بين دول الغرب الغنية ودول العالم الثالث الفقيرة ليس هو تشريفا لها بقدر ما ينم عن رغبة في تحميلها أعباء هذه المواجهة .

ثم ان تزويد أمريكا الدول المنتجة للنفط بالمنطقة بأكثر أسلحتها تطويرا ، مع تطلعات

متزاحمة لأبرزها حول منطقة الخليج . وكذلك اصرار أمريكا على عدم الاعتراف بممثلي شعب فلسطين ، وعدم تلبية حقه في كيانه الوطني المستقل ، وبقائه مشتتا في مخيمات اللاجئين ، مع انتشاره في الوقت ذاته في المناطق الغنية بالنفط ، كلها عوامل لا تنبيء بارساء أسس للاستقرار .

ان الاستراتيجية الامريكية ـــ بدعوى البحث عن تسوية لأكثر قضايا المنطقة التهابا ـــ لا تفضي في النهاية الى زيادة اشعال ما يجري فيها من صراعات قائمة أو كامنة فقط ، بل هي تتخذ المنطقة مسرحا لتصطدم داخلها المواجهات المنتظر لها أن تحتل تقريبا صدارة الصراع العالمي .

النزاع في وجه « المحظورين »

هكذا اشتركت العوامل الثلاثة التي انتقيناها ـــ استكشافا لاتجاهات النزاع العربي الاسرائيلي بعد حرب اكتوبر ـــ في الاشارة الى أن النزاع لم تخفت ضراوته ، بل وصلت حدته على العكس الى مستوى أعلى . بفعل اسرائيل ، تتجه معادلته العسكرية الى التصاعد لتلامس « المحظور من أعلى » : مستوى المواجهة النووية . وبزوال العوارض التي طالما حجبت جوهر النزاع ، برز النضال الفلسطيني ضد الاغتصاب الصهيوني ليلامس « المحظور من أدنى » ، وليرمز لصور شتى من الرفض بسبيلها ان تنبثق من قاع المجتمعات ، وتعددت تعبيراتها منذ زوال الاستقطاب الدولي الحاد ، نتيجة سيطرة موازين الرعب النووي على مستوى القمة . وبفعل التدخل الامريكي ، أصبح النزاع تكأة لترشيح المنطقة كي تصبح مسرحا محوريا لمواجهات دولية عديدة تجتاح العالم بأسره .

في ضوء ملامسة النزاع «المحظور من اعلى» و «المحظور من ادنى» على حد سواء، اصبح البحث عن تسوية واردا . ولكن لا مجال للوصول الى تسوية فعلا الا اذا لبيت المطالب الجوهرية لحركة التحرير العربية ، وخلقت ظروفا اكثر مواتاة لانطلاقتها ، لا ان تكون حجرا عليها وتجميدا لها . والتسوية على اي الاحوال غير ممكنة المنال اذا جرى البحث عنها في توافق مع المخطط الاميركي ، لا في مواجهته .

والاطار الدولي للبحث عن تسوية هو ما زال الى اليوم قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . ولكن هذا القرار الذي صدر عقب هزيمة ١٩٦٧ ، وقبل ان تصل القضية الفلسطينية الى ابعادها الراهنة ، هو كفيل بعلاج أعراض النزاع لا جوهره . بل قد يصبح القرار في ضوء واقع ابعاد النزاع بعد اكتوبر ١٩٧٣ عنصرا معوقا للنفاذ الى جوهره .

وليس البديل عن قرار ٢٤٢ ، تصديا لجوهر النزاع ، هو التمسك بالقرارات السابقة للامم المتحدة حول النزاع ، بما في ذلك قرار التقسيم . بل تشير الاخطار المتفاقمة التي ينبيء بها تطور النزاع مستقبلا الى ضرورة ان تشمل مباحثات التسوية ممثلي شعب فلسطين ، والا تصادر حقهم في عدم الاعتراف بأسرائيل .

ان اشراك ممثلي شعب فلسطين في مباحثات التسوية دون اشتراط اعترافهم بأسرائيل ليس بالمعادلة المستحيلة ، ولا هي بالبدعة ، بل هي تطبيق متسق لقاعدة استقرت منذ حلول الوفاق الدولي ، وجرى بمقتضاها نزع فتيل الاشتعال عن اكثر الازمات الدولية تهديدا باشعال مواجهة نووية . وهذا وحده هو سبيل طرح التسوية في اطار يتوافق مع مقتضيات حركة التحرير العربية ، ولا يصادر اهدافها الاساسية .

لا اريد ان استشهد بالعلاقة التي نشأت بمقتضى معادلة الوفاق بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، على ما تنطوي عليه من دلالات . فأن الاتحاد السوفيتي لم يتنازل عن هدفه في ان تسود الشيوعية العالم . ولم تتنازل الولايات المتحدة عن هدفها في القضاء على الشيوعية . ومع ذلك وصل الطرفان الى اتفاقات يتبارى بمقتضاها النظامان ، على ان يكون التاريخ هو الفاصل في تقرير ايهما الاجدر على تحقيق هدفه ، بغير طريق « الحرب الباردة » ، وتهديد ان تتردى لتشعل « حربا ساخنة » تقضى في ظل معادلة الرعب النووي على النظامين معا .

لا استشهد بهذا المثل ، تأكيدا لمعنى ان « التعايش السلمي » غير وارد في المواجهة بين حركات التحرير واي كيان يجسم الاستعمار في أية صورة من صوره . وكذلك لأن « خطوط الامن » كانت قد تقررت ورسخت بين المعسكرين الشرقي والغربي ، وليس هذا حال اسرائيل التي ما زالت تحتل قطاعات واسعة من الارض العربية تفوق حدود فلسطين التاريخية .

ولكني سوف استشهد بمباحثات باريس الخاصة بقضية فيتنا م. فقد شملت أربعة أطراف : الولايات المتحدة ، وحكومة شمال فيتنام ، وحكومة جنوب فيتنام (نظام ثيو) ، والحكومة الثورية المؤقتة لحركة تحرير جنوب فيتنام . لم تكن الحكومة الثورية المؤقتة ولا حكومة هانوي تعترف بنظام ثيو في سايجون ، وكان العكس أيضا صحيحا . ولم يكن هناك اعتراف متبادل بين حكومة هانوي ، ومن باب أولى الحكومة الثورية المؤقتة ، وبين أمريكا . ولكن عدم الاعتراف المتبادل لم يقف حائلا دون اجراء مباحثات دامت عددا من السنوات والمعارك الضارية مستعرة فوق ارض فيتنام . وانتهت هذه المباحثات الى اتفاقات باريس الشهيرة . وبعد ابرام هذه الاتفاقات بفترة وجيزة ، انتصرت الثورة الفيتنامية انتصارا ساحقا .

ان الاتفاقات التي أبرمت بين الاطراف تضمنت الاتفاق على عدم الاتفاق على صلب الخلاف . ولم يكن مضمون ولا اختصاص الاتفاقات هو التصدي لحل النزاع في جوهره ، بل تضمنت اتفاقا ضمنيا على أرجاء حسمه ، على ان تختص الاتفاقات بالقواعد والضوابط التي يجري بمقتضاها هذا الحسم . قواعد لا تصادر حق التمسك بالاهداف النهائية .

وليس قصدي بما أوردته رسم مقابلة كاملة بين حالة فيتنام وحالة فلسطين ، ذلك أن الطرف المعادي الرئيسي في حالة فيتنام كان عدوا خارجيا (الولايات المتحدة) ، والطرف المعادي الرئيسي في حالة فلسطين هو عدو مستوطن (اسرائيل) . ولكن أسترشد بمثل فيتنام لاستشف منه منهجا لأبعاد وحدود التسوية ، على نحو لا يفرط في جوهر المطالب العربية . انه وحده المنهج الكفيل بمواجهة مقتضيات التسوية دون تنازل عن الاسباب الجوهرية في النزاع العربي الاسرائيلي . وكل محاولة لاقامة تسوية تطرح لنفسها ما يتعدى هذه الحدود ، وتنطوي على تفريط في حق الشعب الفلسطيني ، لن تفضي الى تسوية ، بل الى دفع النزاع — المحتدم أصلا — الى المزيد من الاحتدام .

التسوية السياسية :
خلفيات ونتائج

الدكتور سعيد حمود

عندما حاول بعض رجال الاعلام والصحافة في مصر الرد على منتقدي ومهاجمي اتفاقية سيناء الاخيرة المعقودة بين الحكومة المصرية واسرائيل برعاية الولايات المتحدة الاميركية ، وذلك في كتاباتهم وندواتهم الاذاعية ، لم يجدوا أقوى من حجة القول ان منتقدي الاتفاقية لم يقرأوا بنودها جيدا وانهم تسرعوا في الحكم قبل رؤية النتائج التي ستسفر عنها الاتفاقية . كما ان الرئيس السادات ، في خطابه المطول أمام مجلس الشعب (يوم ١٩٧٥/٩/٤) ، وفي معرض دفاعه عن الاتفاقية ورده الهجوم على كل من سوريا والعراق والاتحاد السوفييتي والمقاومة الفلسطينية ، بهجوم مضاد ، وان كان قد اسهب في ابراز الجوانب التي اعتبرها ايجابية مشيرا الى ان الجوانب محل الانتقاد لا تمثل ولا تعبر عن الاتفاقية ، فانه لم يخرج بكثير عن الحجة التبريرية التي اعتمدها الاعلام المصري .

في رأينا ان الرئيس السادات والاعلام المصري كانا في غنى عن مثل هذه الحجج الواهية غير المرتكزة على اسس المنطق المتين ، في معرض الدفاع عن اتفاقية سيناء . لقد فاتتهم الحجة الوحيدة الممكنة والقائمة على أساس ، وذلك بالقول ان اتفاقية سيناء لم تكن نتاج الصدفة ولا الاجتهاد الطارىء ، وانما هي من نتاج نهج التسوية السياسية : فمن كان مع التسوية فلا حق له بالهجوم على الاتفاقية ، لأنه عندها يكون في أشد التناقض مع نفسه ، ومن كان ضد التسوية فلا بد أن يرفض أية اتفاقيات تعقد في اطارها ، والا يكون متناقضا مع نفسه هو الآخر .

بهذا المنطق يمكن ان « تستقيم » الامور وتتوضح الخيوط ، ولا تعود البلبلة غطاء لخلط المواقف وتركيبها كما يشاء أصحابها بين مرحلة وأخرى وظرف وآخر .

حتى تكون بساطة هذه النظرة مصدرا لقوتها ومتانتها ، وعاملا على تصويب نتائجها ، وحتى لا يراها البعض نوعا من قراءة الامور من سطحها ، لا بد من طرح السؤال حول ماهية التسوية ، جوهرها وخلفياتها ، ثم لا بد من الاجابة عليه ، قبل القيام باستعراض شامل لتطوراتها ومحطاتها وصولا الى تحديد نتائجها .

أولا : خلفيات التسوية السياسية

تعود جذور نهج التسوية السياسية ، تاريخيا وموضوعيا ، الى جملة من أنماط

الفهم والنظرة الى طبيعة الصراع العربي ـ الصهيوني ، راحت تتفاعل وتتراكم وتتركب منذ أمد طويل في نفسية بعض العرب ، قادة مسؤولين وعاديين ، حتى جرّت نفسها الى مواقف معينة ومحددة على الصعيد الراهن في صراعنا مع العدو الصهيوني ـ الامبريالي . دون معرفة طبيعة واسباب هذه الانماط تظل هناك ثغرة في تفسير العديد من المواقف الراهنة المتعلقة بالحلول المطروحة .

لذلك فاننا سنتعرض هنا بايجاز لأربعة أنماط ، الثلاثة الاولى منها يمكن فهمها لمجرد ايجازها ، أما النمط الاخير فيحتاج الى بحث مطول كموضوع قائم بذاته ، لسنا الآن بصدده مباشرة :

١ ـ يتميز النمط الاول بتسليمه المسبق ، نظريا وعمليا ، بأن دولة اسرائيل انما انشئت لتبقى ، ولا جدوى على الاطلاق من محاولات تغيير هذه الحقيقة . اما الاسباب الكامنة وراء هذا المنحى من التفكير فهي عديدة ، تتراوح بين السبب السيكولوجي المتميز بالعقدة تجاه الامبريالية وقدرتها على فرض ارادتها وحقائقها ، مرورا بالسبب الطبقي المادي المتميز بالتعلق الدائب بالمصلحة الاقتصادية والموقع الطبقي ومرورا أيضا بالابتعاد الكامل عن معترك النضال والانغماس الكلي في صيغ الحياة المريحة السلسة التي لا ترتكز الا على الهدوء وفض المشاكل بالتي هي أحسن ، وصولا بالطبع الى الرعب من البعبع الاسرائيلي ، والقوة التي لا تهزم . من الواضح ، أنه بالنسبة لهذا النمط من التفكير ومن المواقف ، فان جسر حل معضلة أزمة الصراع مع العدو الصهيوني لا يمكن أن يقوم الا بايجاد تسوية سياسية ، تلغي العامل العسكري جملة وتفصيلا وتفتح طريق الجسور الاقتصادية والاجتماعية والحياتية عامة على مصراعيه مع الوجود الاسرائيلي على أرض فلسطين . لا شك أن هذا النمط يفسر نفسه بنفسه ، غير اننا في صدده نجد لزاما ابداء ملاحظتين : الاولى ، أن منطق هذا النمط من المواقف لا يشمل عددا كبيرا من العرب عامة والفلسطينيين خاصة ، انه محدود الاثر برغم تبنيه من قبل بعض من يتسلمون المسؤوليات هنا وهناك . والثانية ، ان اصحاب هذه النظرة لا يجرأون على الجهر بقناعاتهم علنا ، بل يعبرون عنها بأساليب عديدة مغلفة ، اذ ان هؤلاء ، وان كان بعضهم يقدر المناضلين ، ظلوا ينظرون الى النضال وكأنه مضيعة للوقت أو مجال للكسب الشخصي وللزعامة الى آخره .

٢ ـ تمثل النمط الثاني ، الذي تعود اليه جذور نهج التسوية السياسية لقضية الصراع العربي ـ الصهيوني ، مجموعة من « الحكماء » و« الاذكياء جدا » ، الذين أدركوا مبكرا أن لا جدوى من التعامل العسكري أو الثوري مع المسألة ، وانه لا بد من ايجاد قاسم معين يعيد الحقوق لشعب فلسطين ، ربما بالتعويض أو بالتوطين والاندماج الاقتصادي أو حتى بالتقسيـم ، مع الافتراض المسبق بوجـود حقين في فلسطين ، الاول للفلسطينيين وهو شرعي ، والثاني لليهود وهو مكتسب بفعل الامر الواقع ومرور الزمن . اذن فان المنحى الوحيد لتحقيق القاسم المشترك لا يمكن أن يقوم الا على أساس تسوية سياسية .

٣ ـ أما النمط الثالث فتمثله فئة اصحاب التجارب والخبرات والعارفين ببواطن الامور ، الذين « خبروا » هذا الصراع الدائر في منطقتنا ، و« فهموا » أقطابه والقوى التي تساندهم ، والشروط التي تتحكم به ، والحدود التي يمكن أن يبلغها والتي لا يمكنه بلوغ ابعد منها في أي حال من الاحوال . هؤلاء اقتنعوا أن حصيلة هذا كله تبين أن في التسوية السياسية يكمن الحل الوحيد الاوحد ، وما العمل العسكري والضغوطات التي يولدها الا عوامل للحصول على تسوية أفضل ، من هنا فان أية اطالة لأمد

التضحيات ، ما هي الا عملية هدر لا جدوى من ورائها ولا طائل .

[يمكننا تسمية هذه الانماط وما يتفرع عنها « بأنماط الاستسلام النفسي » أمام العدو الصهيوني والامبريالي ، واليها تعود جذور نهج التسوية السياسية السائد الآن ، وعليها ترتكز دائما كافة مخططات وبرامج الامبريالية والصهيونية ، وفيها تجد اسرائيل ملاذها في عملية فرض القهر والاغتصاب ضد شعبنا وأرضنا .]

٤ ــ كما أشرنا سابقا فان النمط الرابع يتميز عن الانماط السابقة بتعقيده وتركيبه وربما بخطورته ، لهذا فانه بحاجة الى بحث مطول وتحليل شامل يبين أبعاده ويكشف عن مسبباته ، وتراكماته ، حتى يصبح واضحا في متناول فهمنا وادراكنا . وبما ان بحثنا الراهن لا يتناوله بشكل خاص ، فاننا سنحاول تلمس عناصره قدر الامكان . تكمن المشكلة هنا في أن بعض من يمثلون هذا النمط يعتبر من القوى التي أجابت برفع البندقية في وجه موجة الاستسلام النفسي ، وموجة الضياع التي سادت أمتنا ، خاصة اثر هزيمة حزيران في العام ١٩٦٧ . ولم يكن رفع البندقية واعتماد الكفاح المسلح طريقا وحيدا لتحرير فلسطين ولحسم الصراع على الارض العربية ، بالنسبة لهؤلاء ، مجرد ردة فعل عاطفية أو آنية أو مرحلية ، بل كانت قناعة عميقة ، نابعة من ايمان صادق وتحليل ثوري متقدم ، تعمد بالدم والشهادة والتضحيات . كما يكمن الوجه الآخر للمشكلة القائمة في فهم طبيعة التوجه في نهج التسوية السياسية لدى هـــذا البعض في صفوف القوى الثورية ، في انهم لا يعتبـــرون توجههم على طريق الحلول السياسية ، استسلاما أو تخليا عن منطلقات النضال الفلسطيني المتمثلة في الكفاح المسلح طريقا لحرب تحرير شعبية شاملة قادرة في منتهاها على حسم الصراع لصالح جماهير الشعب العربي والفلسطيني . مع ان التوجه في نهج التسويات ، في ظل موازين القوى السائد ، وفي اطار الصيغ والمشاريع القائمة ، صاحبة الفعل والتوجيه في كل تسوية في الظرف الراهن وفي أي ظرف قبل حدوث الانقلاب التاريخي الكبير في موازين القوى لصالح قوى الجماهير ، مع ان هذا التوجه لا يمكن أن يؤدي الا الى الاستسلام ودحر منطلقات النضال ، كما نرى ، فان هذا النمط لا يرتكز على مؤشرات الاستسلام المسبق ولا الاستسلام النفسي ، بل تسببه حالة معقدة مركبة ، تختلط فيها الاوهام ، مع الاجتهادات السياسية الخاطئة ، مع ضروب معينة من الوهن أو اليأس في فهم طبيعة الصراع وطول مداه وحجم التضحيات المبذولة على طريقه . ولا شك في أن بهتان الصورة النضالية على الصعيد العربي ، رسميا وجماهيريا ، ساهم بشكل أو بآخر ، في تسبب هذه الحالة التي نشير اليها .

أما خطورة هذا النمط فمردها الى أن اثر العقلية والمسلك الذي يفرضه آخذ في تطويق مواقع القوى الفاعلة على الصعيد الفلسطيني وبالتالي آخذ بالتأثير على صنع القرار ، مما يؤدي تدريجيا الى الابتعاد بالقرار الفلسطيني عن منهجه الثوري الصحيح الى مناحي خاطئة عديدة وخطيرة .

[لا بد ، في رأينا ، من فهم هذه الخلفيات جميعها والتنبه لها ولآثارها عند أي بحث في موضوعة التسويات والحلول السياسية ، لأنه بهذا الفهم تمكن مجابهة دعاوى « الموضوعية » و« الواقعية » وغيرها التي تطلق في تبرير نهج التسوية ، وما هي ، في الواقع ، الا تغليف وتغطية لآثار هذه الخلفيات .]

ثانيا : ماهية التسوية السياسية ونتائجها حتى الآن

يمكن وصف التسوية السياسية الدائرة الآن لحل ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ،

بأنها محاولة لانهاء حالة الصراع بين العرب والصهيونيين ، بين الوجود الفلسطيني والوجود الاسرائيلي ، قبل أوان انتهائها . في الوقت نفسه تهدف هذه المحاولة الى أن يفيد من انهاء حالة الصراع ، المصالح الامبريالية والوجود الاسرائيلي على أرض فلسطين . والا لا يمكننا تفسير هذا الحماس الامريكي من أجل انهائها ، ولا هذه الجولات والمخططات والضغوط .

وحتى تمكن المراهنة على امكانية الوصول الى نتائج من وراء المحاولة ، فهناك جملة مسلمات لا بد منها : اعداد العرب والفلسطينيين خاصة للقبول بالوجود الاسرائيلي ، الامر الذي كان مستحيلا حتى في أشد ظروف العرب انهياراً وقسوة ، ثم اقناع العرب والفلسطينيين بعدم جدوى اعتماد الحرب والقتال في مواجهة اسرائيل ، اقناعهم « بالدبلوماسية » اذا أمكن والا بالقمع وبتصفية القوى المقاتلة بين صفوفهم ، أو بالاثنين معا ، ومن ثم افهام الاسرائيليين بضرورة التخلي عن اطماع التوسع ، ما دامت القيود الموضوعة في الصف العربي تحقق لهم ضمان حدود دولتهم ، اذا كانوا يعتقدون أن في عمليات التوسع الضمان الوحيد لحدودهم (ودائما كنا نقول باحتمال وجود بعض التعارضات الجزئية في صفوف المعسكر المعادي) . وأخيرا ، ومن أجل تثبيت الضمان الكافي للمصالح الامبريالية الواسعة والهامة جدا ، فلا بد من ترسيخ حالة انهاء الحرب ، وذلك بدفن كافة احتمالاتها وسد جميع المنافذ في وجه هبوب رياحها .

كما يمكن القول أن أية تسوية تعني مباشرة وتلقائيا تقديم تنازلات من قبل الاطراف التي تعقدها ، والا تكون هذه أي شيء آخر غير تسوية . وبما أن الاوان الوحيد الذي اعتمده النضال العربي والفلسطيني ، لانهاء حالة الصراع ، هو حين تحقيق التحرير الكامل والناجز لأرض فلسطين ، فان التسوية تعني التخلي ، على الاقل ، عن جزء من هذا الهدف ، أي بكلام آخر التخلي عن الهدف الذي انطلق منه النضال الطويل المرير ، المليء بالتضحيات والعطاء ، وبكلام آخر أيضا يصح القول أن التسوية تعني التخلي عن منطلقات النضال الفلسطيني ، وتبقي بالتالي حالة القهر والاغتصاب القائمة على الشعب الفلسطيني خاصة والعربي عامة . من هنا ، فانه من السذاجة البالغة القبول بالقول ان التسوية السياسية تعني اقامة حل دائم وعادل لما يسمى بأزمة الشرق الاوسط . وغني عن البيان أن مقولة وجود تسويتين ، واحدة أمريكية — صهيونية لا تحقق العدل ، وأخرى عادلة ، قد سقطت ، عبر مسيرة التطورات ، شر سقوط وبلا هوادة .

واذا شئنا أن نخرج ، بالفعل ، من دوامة التشنجات والمزايدات والمكابرة المكلفة جدا ، فلا بد أن نقرر الآن جميعا (اذ ان نفرا له وزنه بيننا قد قرر منذ البداية) أن السير على طريق التسوية ، ليس الا وقوعا في نتائجها المحتومة ولا شأن له بالمراهنة على الحصول على مكتسبات لتعزيز منطلقات الثورة ، ثم التملص من أية نتائج عكسية ، اذ ان هذه التسوية بالذات ، الدائرة الآن ، موضوعة بشكل لا مجال فيه للقفزات الهوائية ، فكرية كانت أو مسلكية . ان طعم الانتصارات السياسية يجب أن لا ينسينا مرارة اللقمة الاخيرة . مذاق المرارة قادم لا ريب ، لأن رؤية التسوية وفهمها يدلنا يوما وراء يوم الى هذه النتيجة ، ومن الواضح ان هذه ليست مسألة تشاؤم وتفاؤل ، ولا قضية ثقة أو عدم ثقة ، ولا هي ، بالفعل ، عملية تقليل من قيمة ما تم انجازه على الصعيد السياسي أو عدم تقليل ، بل هي قراءة موضوعية مسؤولة تدلنا عليها النتائج التي لا تحتاج الى كثير من التأويلات والاجتهادات . فما هي هذه النتائج ؟ :

١ — لا يخفى على أحد أن الساحة الفلسطينية تعيش حالة تمزق وضياع منذ أن وضعت حرب تشرين في العام ١٩٧٣ أوزارها ، بالشكل الذي انتهت اليه . كما ان

الحالة النفسية والتعبوية للجماهير الفلسطينية لـم ترتح من عمليات التنفيس والاستنزاف . وكذلك فان حالة التلاحم بين الفصائل المقاتلة على هذه الساحة ، التي عاشت في بعض الفترات مراحل متقدمة وحتى متفائلة ، قد هبطت الى درجة مخيفة في السنتين الاخيرتين ، ويكفي أن نسأل هنا عن قضية الوحدة الوطنية ، عن الجبهة الوطنية المتحدة ، الاداة الأساسية لانجاز أهداف هذه المرحلة بالذات ، لنجد في الرد ما يصفع توقعات حتى اشد المتفائلين . ومع اننا لا نريد ان ندخل في تفاصيل وطبيعة ما شهدته المقاومة الفلسطينية على الساحة اللبنانية وخاصة طيلة العام ١٩٧٥ ، دون أن نقلل بالطبع من دقة وقيمة الجهد الذي بذل للوصول الى ما وصلنا اليه من نتائج ، ولكن هل يمكن لاحدنا ان يقبل بعد التصديق بأن خروجها عن نهج التسوية سيجنب الثورة الفلسطينية حدة المؤامرات وتوالي الملاحقات ومحاولات التصفية والقمع ؟ واكثر من ذلك فهل غير القتال والتصدي للمؤامرة والتلاحم مع الحركة الوطنية اللبنانية ، والتضحيات والبذل الصادق المشرّف ، هل غير هذه العوامل جنبتنا محاولة الجر ثم التصفية أو على الاقل تقليم الاظافر على الساحة اللبنانية ؟

هذه الصورة بكل ملامحها ، مضافا اليها التخبط المخيف خلال العامين المنصرمين ، بين اطروحات الاستسلام التي أطلقها خفافيش الظلام التي أتاح لها الجو السائد الخروج من جحورها . وبين الاطروحات التبريرية التي خلفت بلبلة فكرية متشابكة ، اليست كلها من نتاج نهج التسوية السياسية على الساحة الفلسطينية !

٢ ـــ عند أية اجالة للنظر على الساحة العربية ، سريعة أيضا ودون التوغل بالتفاصيل ، نجد ان حالتها اشد تمزقا وضياعا من اي وقت مضى ، وتبرز امامنا اتفاقية سيناء ومرور البضائع الاسرائيلية عبر قناة السويس ، وصورة التجاذب المزيف في الحوار السياسي مع العدو الصهيوني من قبل بعض الجهـات الرسمية العربية ، كما يظهر تحسن أسهم الامبريالية وزعيمتها الولايات المتحدة الامريكية في بعض الدول العربية ، سياسيا واقتصاديا . بالاضافة الى هذا كله ، ففي الوقت الذي يبرز فيه تماسك البرنامج الرجعي ، محليا في بعض الدول العربية وعامة على الصعيد العربي ، يعتري العلاقات بين الدول التقدمية التفكك والتسيب ، وتزداد صعوبة عملية ولادة الحركة العربية التقدمية جماهيريا من جديد . ونسأل هنا أيضا ، اليست هذه الصورة من نتاج نهج التسوية السياسية على الصعيد العربي ؟

٣ ـــ لقد حققت القضية الفلسطينية انتصارات غير مشكوك بها على السـاحة الدولية ، وانتزعت مجموعة قرارات من المنظمة الدولية لا لبس في ايجابياتها على النضال الفلسطيني ، وستبقى هذه الانتصارات رصيدا غنيا جدا على طريق نضالنا الطويل . الا أن هذا كله يغلف افتراضا عالميا غير مشكوك فيه ايضا ، بأن ما حصل عليه الفلسطينيون من هذا التحول في المواقف الدولية ، يعزز « توجههم » لانهاء حالة النزاع مع اسرائيل بمعنى أن يحصلوا على « حقوقهم » وأن يقبلوا باسرائيل ، حقيقة قائمة بينهم ، ذات حدود آمنة ومعترف بها ، وذات علاقات مرشحة للتطور والتقدم لتصل الى علاقات حسن الجوار بكل ما تعنيه هذه من أبعاد . وكذلك فان اسهام بعض الدول الغربية في تسهيل المهمة الفلسطينية على الصعيد الدولي بانتزاع المزيد من القرارات التي تدين الصهيونية وترفع العزل عن الفلسطينيين الذي كان مفروضا عليهم في مختلف المحافل والى أمد طويل ، ان هذا الاسهام ينتظر أن يكون الثمن المرتجى منه ، أن يريح الفلسطينيون والعرب العالم ، من حالات الحرب والتوتر التي تقلق حياته واقتصاده وأمنه ، وتعرضه باستمرار لاحتمالات الحروب الاوسع والاكبر ، التي عانى منها مرتين بشكل حاد ، وعدة مرات جزئيا ، وكانت تعود دائما بالدمار عليه .

ولقد حدثت على الصعيد الدولي عملية استبدال غير مرئية في صدد القضية الفلسطينية . لقد استبدلنا التأييد المحدود وفي دوائر صغيرة الحجم على الصعيد العالمي لكامل حقوقنا فلسطين ، بتأييد واسع وفي دوائر كبيرة لجزء من حقوقنا على أرض فلسطين . أوليست هذه وغيرها الكثير من نتاج نهج التسوية السياسية على الصعيد الدولي ؟

٤ ــ لم تحلم اسرائيل بأفضل من المنحى الذي سارت عليه التطورات السياسية منذ حرب تشرين وحتى الآن ، من أجل كسب الوقت لاعادة بناء أوضاعها على كل صعيد ، التي هزتها بعنف بالغ ، لأول مرة منذ نشوئها ، حرب تشرين بالذات . واذا كانت حركة السياسة الامريكية في المنطقة وخاصة جولات كيسنجر ، قد أثبتت احتمال وجود تعارضات جزئية في معسكر أعداء أمتنا ، وقد شهدت بعض التعثرات أحيانا ، فيكفيها براعة أنها أسهمت جديا في عملية كسب الوقت لاسرائيل . ولا نظن أن أحدا يختلف في أن الوضع العسكري والاقتصادي والاجتماعي والنفسي داخل اسرائيل قد عاد الآن الى التماسك ، بعد ان كان في أشد حالات تعرضه فقط قبل ما يزيد عن سنتين بقليل عن الآن . أليس هذا باختصار من نتاج نهج التسوية السياسية على الصعيد الاسرائيلي ؟

* * *

لم تنته مسيرة التسوية السياسية بعد ، ولم تنته الجولات التي ستتعرض فيها المقاومة الفلسطينية لمحاولات القمع والتصفية . ولم تتوقف المؤامرات ضد شعبنا وضد أمتنا ، ولا توجد أية دلائل على أن معسكر الاعداء ، الامبريالي ــ الصهيوني ــ الرجعي سيتخلى عن برنامجه الرامي ، باختصار ، الى انزال مزيد من القهر بشعبنا وبحقوقه وبمصيره . في مقابل ذلك فان عناصر النضال العربي الفلسطيني لا زالت متوفرة وبكثرة وعلى مختلف الاصعدة ، للخروج من المازق ومجابهة البرنامج المعادي . وعلى رغم الصورة القاتمة التي نشهدها على الساحتين العربية والفلسطينية فان عوامل النصر ، وحتمية النصر لا زالت مرشحة للانطلاق من أجل تحقيقه . ولا شك أن الشرط المركزي لعملية الانطلاق هذه يكمن بالخروج من نهج التسوية جملة وتفصيلا .

ان الظرف مناسب جدا أمام قيادة العمل الفلسطيني لتأخذ مبادرة الخروج من شباك التسوية السياسية ، والعودة الى مسار برنامجها الثوري ، الذي به تتمكن من تصليب الساحة الفلسطينية من جديد ، ووضع الساحة العربية أمام مسؤولياتها الجديدة ، لأن قيادة العمل الفلسطيني ، في قناعتنا الراسخة ، لم تتورط بعد بالشكل الذي ذهبت اليه بعض القيادات العربية ، ولم تكن مسيرتها حتى الآن خاضعة لطوق الاستسلام وانما ، ونقولها باخلاص ، كانت مرتكزة على اجتهاد خاطىء . انها الفرصة التاريخية السانحة ، وقيادة العمل الفلسطيني ما زالت قادرة على انتهازها ، لما تتمتع به من خبرات ومن قدرات تفوق ما نراه يعتمل ويسرح ويمرح على الساحة العربية .

عندها لن تعود الساحة الفلسطينية عرضة لما شهدته طيلة الفترة الماضية من شد وجذب ، من قبول ورفض وسوف تسقط مقولات الاستسلام ، وتنتهي محرقة الاستنزاف لدحضها . عندها تتوقف تساؤلاتنا السلبية ، عن ماذا يرفض الرافضون (وهم انما يرفضون هذه الصورة التي أسلفنا ذكر عناصرها) ، وماذا يقبل القابلون ، وعن التصنيفات والاتهامات والتجريح ، وعندها تنطلق أسئلتنا الايجابية وردودنا الثورية عليها ، ببرنامج حقيقي للوحدة الوطنية ، وللقتال الثوري ، ولتثوير الساحة العربية ، ولاعادة ترتيب أمور النضال ، بما يضع الامبريالية والصهيونية والرجعية من جديد في خانة المازق . ان مفتاح الحل ، مفتاح المخرج من المازق ، ما زالت الثورة الفلسطينية تمسك به ، فهل تتردد عن استعماله ؟ هل تفوت الفرصة التاريخية علينا ؟

فقاعة الادارة الذاتية

الدكتور الياس شوفاني

خرج علينا مؤخرا بعض قادة العدو بتصريحات تحكي عن منح العرب الفلسطينيين تحت الاحتلال الاسرائيلي حق اقامة اداره مدنية ذاتية . وقد اثار ذلك العديد من التساؤلات والتكهنات عما تنوي سلطات الاحتلال عمله في المناطق المحتلة . واضفى بعض تحركات العدو من جهة ، خاصة الاعلان عن اجراء انتخابات للمجالس البلدية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومناورات الحكم الاردني من الجهة الاخرى ، خاصة الكلام عن اجراء انتخابات موازية في الضفة الشرقية ودعوة مجلس النواب الاردني الى الانعقاد ، طابعا من الجدية والخطورة على تلك التصريحات . وزاد من مصداقية حكومة العدو في هذا الشأن ، كون المفاوضات على تسوية مرحلية اضافية في الجولان ، بموازاة اتفاقية سيناء ، قد وصلت كما يبدو الى طريق مسدود . وقد أوحى ذلك بأمكان ان يصار الى تحويل المساعي المبذولة للابقاء على مسيرة عجلة التسوية ، برعاية الولايات المتحدة ، وتوجيهها نحو الاردن بدلا من سوريا ، وبهذا تتناول القضية الفلسطينية وتصطدم طبعا بمنظمة التحرير الفلسطينية . ومما دعم هذا التفكير كون الخيار المصري غير قائم ، نظرا لانه لم يتم الى الان تنفيذ اتفاقية سيناء ، وكون الادارة الاميركية مهتمة جدا بالحفاظ على وتيرة الحركة الدبلوماسية في مسألة التسوية السياسية . وهكذا بدا معقولا ان يجري تحرك ما على الساحة الفلسطينية ، حتى ولو كانت حركة دون بركة ، ما دام الجمود يلف الخيار السوري ، ولا مكان لجولة جديدة من المفاوضات مع مصر . ونحن هنا لسنا بصدد تقدير احتمالات المستقبل بالنسبة الى تلك المناطق ، فهذا أمر يتوقف . اولا وقبل كل شيء ، على منظمة التحرير ذاتها ، وعلى نجاحها في انتزاع حقوقها المعترف بها . وانما همنا هو محاولة استقصاء الغايات التي يرمي اليها العدو من تحركاته هذه .

ما هو المطروح ، ولماذا ؟

ليست هذه المرة الاولى التي يطيّر فيها بعض قادة العدو مثل هذه البالونات ، فقد سبق لهم ان عمدوا الى ذلك اكثر من مرة منذ احتلال الضفة والقطاع ، عام ١٩٦٧ . ولكن ، لاسباب مختلفة ، لم تحظ المناورات السابقة بنفس الدرجة من الاهتمام ، مع انها قد لا تكون تختلف عن بعضها كثيرا من حيث الجدية وامكانات انجاح . وعلى اي حال فأن الكلام عن الادارة هذه المرة ، اثار ردود فعل قوية لدى الاطراف المعنية ، كما اولته الصحف الاسرائيلية عناية كبيرة في تعليقاتها وتحليلاتها ، وهناك شبه

اجماع فيها على امرين : اولا ، ان الفكرة جاءت متأخرة ، وانها ربما كانت ستلقى نجاحا لو انها طرحت بعد الاحتلال مباشرة . وثانيا ، انها تلاقي معارضة شديدة من قبل سكان المناطق ، وحتى من قبل الزعامة التي تراهن عليها سلطات الاحتلال لتجسيد الفكرة . واوحى العديد من تلك الصحف أن الهدف من مشروع الادارة الذاتية هو تشجيع قيام زعامة محلية في المناطق المحتلة ، تصبح مع الوقت ممثلا شرعيا للفلسطينيين هناك بدلا من منظمة التحرير ، ويمكن من خلالها انجاز تسوية ما مع تلك الزعامة ، تمكن من استمرار نمط العلاقة القائمة حاليا بين سلطات الاحتلال وسكان المناطق .

ولعل ابرز من تحدث في الموضوع من قادة العدو في هذه المرحلة ، هو وزير الدفاع شمعون بيرس ، مع ان بعض الصحف هناك قد نقل أخبارا تفيد بأن وزير الخارجية ، يغئال الون ، قد طرح أيضا مثل هذه الافكار في اطر محدودة . وكان بيرس قد انتهز فرصة وجوده في قرية بيت جالا ، بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٢ ، فأدلى بتصريح في الاحتفال الرسمي الذي اقامته بلدية القرية لهذه المناسبة ، جاء فيه قوله « ان الظروف قد نضجت لمنح سكان الضفة الغربية حكما ذاتيا » . وأضاف بيرس قائلا « ان وضعا جديدا قد أخذ بالظهور هنا ، وان اطارا من الحكم الذاتي ، في مجالات كثيرة تمس حياة السكان ، آخذ بالتطور » . وخلص بيرس الى القول : « أن الفراغ الذي طرأ في الضفة الغربية ، عقب قرار مؤتمر الرباط الخاص بالاردن وبمنظمة التحرير الفلسطينية ينبغي أن تملأه ادارة ذاتية ، وحكم ذاتي » . (نشرة م. د. ف. (١٩٧٥) ص ٥٣١) . وقد أثار تصريح بيرس هذا ردا عنيفا من حليفه السابق ، موشه ديان ، مما اضطر بيرس ، كما يبدو ، الى خفض صوته في هذا الشأن ، مع ان هناك من يقول بأنه لا يزال يستهوي الفكرة . والمعروف ان بيرس لا يؤيد الحل الاردني للضفة ، وانه قد طرح سابقا ضم المناطق المحتلة الى اسرائيل تحت يافطة الاتحاد الفدرالي . والجديد في تصريحه الحالي هو توقيته .

ونقلت صحيفة هآرتس (٢١ / ١٠ / ١٩٧٥) ، ان الون « يعتزم ان يطرح ، في احدى جلسات الحكومة ، مشروعا لنقل الادارة الذاتية في يهودا والسامرة وقطاع غزة ، الى أيد فلسطينية ، من سكان هذه المناطق ، في الوقت الملائم . والقصد هو نقل الادارة المدنية في تلك المناطق التي تبدي اسرائيل استعدادها للتوصل الى حل وسط بشأنها . ويبدو ان المقصود هو اجراء تقسيم وفقا لمشروع الون » . ومضت الصحيفة مفصلة انه بمقتضى الخطة « ستنتقل الادارة الى فلسطينيين من سكان المناطق ، يحوزون على مكانة توازي مكانة مدير عام في وزارة حكومية ، وسيتمتع هؤلاء بالصلاحيات المطلقة في المجالات التي يعينون فيها ، كالزراعة ، والثقافة ، وادارة الشؤون البلدية ، وسائر القضايا الداخلية ، بأستثناء الجيش والشرطة » . وأشارت الصحيفة الى ان احد الاسباب الرئيسية التي دفعت الون في هذا الاتجاه هو ان امكان التفاوض مع الملك حسين بشأن الضفة الغربية ، لم يعد متوقعا في المستقبل القريب . وبما ان اسرائيل ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، فأن الوزير « يعتقد ان الحل الوحيد هو منح سكان الضفة حكما مدنيا ذاتيا ، وبلورة زعامة من بين صفوفهم ، يكون بالامكان التفاوض معها بشأن التسوية ، عندما يحين الوقت » . (نشرة م. د. ف. (١٩٧٥) ، ص ٥٣٢) .

وعلقت صحيفة دافار (٢٤ / ١٠ / ٧٥) على مشروع الادارة الذاتية ، فرأت ان « النقطة الايجابية المركزية فيه هي تشجيع العناصر الاكثر اعتدالا » ، وقالت : « ان

الادارة الذاتية تخلق زعامة محلية ، ولو قدر لها ان تترعرع قبل فوات الاوان ، لاستطاعت ان تشكل ثقلا مضادا لمنظمات التخريب ، كناطق وحيد باسم الفلسطينيين . والمؤسف انه لم يؤخذ بالامر حين كان تنفيذ هذه الفكرة سهلا ، عقب حرب الايام الستة ، او في خريف عام ١٩٧٠ . اما الان فان الظروف صعبة ، وتثقل اكثر على التنفيذ ، بيد ان الامر لا يبدو مستحيلا » . (نشرة م . د . ف (١٩٧٥) ، ص ٥٣٢) .

وربط يهوشوع تدمور ، (دافار ٢٤ / ١٠ / ١٩٧٥) ، بين انتخابات المجالس المحلية وبين الادارة الذاتية ، فقال : (باديء ذي بدء ، هنالك قيمة لكل عمل سياسي ، يراد به ملء الفراغ الذي نجم عن ابعاد الحكم الاردني . واليوم لا يمكن ان يكون هناك شك ، في ان الخطأ الاكبر الذي ارتكبته اسرائيل في المجال السياسي ، منذ حرب الايام الستة ، هو التجاهل العنيد والاعمى ، للموضوع الفلسطيني ، الذي يعتبر في نهاية الامر ، لب الصراع بيننا وبين العرب . وقد خلق هذا التجاهل فراغا سياسيا خطرا ، ساعد في بروز منظمات التخريب ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . وهكذا تعقدت الامور حتى تعززت قوة المتطرفين ، وبلغت ذروتها في مؤتمر الرباط ، حيث حظي ياسر عرفات وصحبه بتمثيل الفلسطينيين بشكل كامل ومطلق . ان هذا الحدث ، وكذلك ظهور عرفات في الامم المتحدة قد رفعا من مكانة المتطرفين . ومرة اخرى لم يعد هناك في الضفة من نتفاهم معه ، وأصبح كل اسرائيلي قريب من الموضوع يحس بالاحباط والغصة ، بسبب تفويت الفرصة التي كانت سانحة لنا . وهكذا وجدنا انفسنا امام طريق مسدودة وخطرة ، في الوقت الذي ارتفعت فيه مكانة المتطرفين ، وتم تحييد حسين تماما » . (المصدر السابق) .

امامنا اذن في هذه المقتطفات كلام منسوب الى اثنين من الثلاثي الحاكم في اسرائيل — رابين ، بيرس ، والون — يدور حول اعطاء سكان الضفة الغربية ، بشكل واضح ، وقطاع غزة ، بشكل غامض ، ادارة ذاتية مدنية ، في ظل الاحتلال العسكري . ويرى صاحب هذا الكلام ، على اختلاف وجهات النظر بينهما حول طبيعة هذه الادارة ومرماها ، ان من شأنها ملء « الفراغ » الحاصل في القيادة السياسية لعرب المناطق المحتلة من الفلسطينيين نتيجة لقرارات الرباط ، وكف يد الحكم الاردني عن تولي الحل والعقد في الشؤون الفلسطينية ، ومن ثم تسلم منظمة التحرير هذا الامر شرعيا . وهما يتطلعان الى قيام زعامة محلية ، تكون « معتدلة » ، وتتولى هي امر ترتيب اوضاع المناطق المحتلة ، بالتفاوض والتعاون مع سلطات الاحتلال ، بحيث تضمن هذه الاخيرة تنفيذ مخططاتها ازاء تلك المناطق وسكانها . ويتضح من اقوال الصحفيين الاسرائيليين انهم لا يعلقون آمالا كبيرة على نجاح مثل هذه المشاريع ، حيث انها قد جاءت متأخرة ، ولم تعد تصلح اساسا للتسوية في الظروف الراهنة . والانطباع الحاصل من اقوال الصحف الاسرائيلية ان هناك اغفالا متعمدا وتجاهلا واضحا لقطاع غزة ، في حين يدور الكلام اساسا عن الضفة الغربية . وكذلك يسترعي الانتباه غياب اي التزام علني لرئيس حكومة العدو في هذا الشأن ، وهكذا يبقى موقفه من الادارة المطروحة مبهما . وهذا يتسق مع التزام رابين بالموقف الرسمي لحكومته ، والقائم على ما ورد في البرنامج الانتخابي لحزب العمل ، عام ١٩٧٤ ، اي على الحل الاردني . ويلاحظ ان ما يطرحه بيرس لا يقلق رابين ،بينما يقلقه جدا ما يدعو اليه الون . وعلى اي حال ، فأن الخلاف بين هذا الثلاثي الحاكم ، يتمحور أساسا حول الخط الانجح والاسلم لقطع الطريق على منظمة التحرير الفلسطينية ، وعزلها عن جماهيرها في الضفة والقطاع ، وارباكها في صراعات جانبية

مع اطراف عربية ، بغية اغراقها وضعضعة مواقعها ، وبالتالي تحطيمها ان امكن . فالثلاثة يتفقون على وجوب استبعاد المنظمة من اية مفاوضات بشأن القضية الفلسطينية وهم يجمعون قطعا على رفض الاعتراف بها او التعامل معها ، بأية صورة ، كما جرى في مناقشات مجلس الامن .

ماذا بين رابين والون

تناقلت الصحف الاسرائيلية مؤخرا اخبارا عن اشتداد الخلاف بين رابين والون حول سياسة اسرائيل في الموضوع الفلسطيني . فبالاضافة الى العوامل الشخصية ، التي لا شك تلعب دورا هاما في العلاقات بين هذين ، يبدو ان الون اميل الى قبول الخط الاميركي في معالجة هذا الموضوع من رابين . وتقول تلك الصحف بوجود خلاف في وجهات النظر بين حكومة رابين وادارة فورد حول تقدير الموقف السياسي في المنطقة ، وفي نظرة كل منهما الى منظمة التحرير وتسوية المشكلة الفلسطينية .

وموقف رابين المعلن هو الالتزام الكامل بما ورد في برنامج حزب العمل الانتخابي ، من وجوب التفاوض مع الاردن في المسائل الفلسطينية ، وحلها من خلاله . ومع انه في حينه ، اي بعد انجاز فصل القوات في الجولان ، سعى بكل جهده لعرقلة اية مفاوضات مع الاردن ، وبالتالي جلب لنفسه لوم الادارة الاميركية ، التي اتهمته بمساعدة منظمة التحرير على انتزاع قرارات الرباط بأضعاف مكانة الملك حسين عربيا ، فقد عاد رابين مؤخرا يدعي ان الحكم الاردني قد استعاد مكانته عربيا ، وانه اصبح مهيأ ، بعد تضاؤل اهمية منظمة التحرير ، لاجراء حوار مع اسرائيل بشأن الضفة الغربية . ويبدوان صيغة رابين الاردنية ليست خطأ سياسيا واقعيا بالنسبة اليه ، وانما هي بمثابة عذر لتجاهل منظمة التحرير ، « فهو لا يؤمن اكثر من اي شخص اخر بأمكان تسوية مع الملك حسين في الظروف الحالية ، ولكنه يواصل التلويح بهذه الفكرة كي لا يبدو كمن يقول « لا » لمنظمة التحرير الفلسطينية ، دون ان يقدم بديلا » . (ماتي غولان ، هآرتس ٩ / ١٢ / ٧٥) . والظاهر ان رابين لا يزال يسعى لكسب الوقت ، وهو يتحاشى ، لاسباب داخلية وسياسية ، التورط في مفاوضات على المشاكل الاكثر تعقيدا ، خاصة ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية ، والتي لا بد لها ان تمس الضفة الغربية والقدس .

ويعزو البعض مواقف رابين هذه الى اعتبارين اساسيين : اولهما ، قناعة رابين الراسخة بأن قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية يشكل تهديدا حقيقيا جدا لوجود دولة اسرائيل . والثاني ، خوف رابين من الهزة التي قد تتعرض لها حكومته الائتلافية نتيجة للخوض في مناقشات حول مستقبل الضفة ، واثر ذلك على حياته السياسية بالذات . ويرى هؤلاء ان رابين « لا يبدي اية دلالة على انه يفهم ان تغيير الاسلوب والصيغة لا يقود بالضرورة الى النتيجة التي يخشاها » (نشرة م . د . ف (١٩٧٦) ص ٤) . والقصد من ذلك انه اذا اعلنت اسرائيل اعترافها بمنظمة التحرير ، شريطة ان تعترف هذه بها ايضا ، فأن ذلك لا يعني بالضرورة قيام دولة فلسطينية ، وهو ما يخشاه رابين ويرفضه . ويرى بعض الدبلوماسيين الاسرائيليين ان العكس هو الاصح . فتبني صيغة اهارون ياريف ــ التفاوض مع كل طرف فلسطيني يعترف بدولة اسرائيل ــ سيحدث ارباكا في العالم العربي ، يخرج اسرائيل من الموقف الدفاعي الذي تورطت فيه ، ويضع مكانها كلا من الحكم الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فيحشر الاول عربيا ودوليا ، بينما الاخرى فلسطينيا . واصحاب مثل هذا الطرح واثقون من ان الملك حسين يخشى قيام دولة فلسطينية بجواره اكثر مما ينبغي

لاسرائيل ان تتلق من ذلك . فاذا صير الى تبني هذه الصيغة اسرائيليا ، انقلب وزر الصراع مع منظمة التحرير الفلسطينية على الحكم الاردني ، مما يضعضع الصف العربي ، وقد تنعكس الاثار السلبية لذلك على العلاقات بين كل من سوريا والاردن ومنظمة التحرير .

ويرفض رابين صيغة ياريف ، والتي اخذ هاركابي ينادي بها علنا في الفترة الاخيرة ، خشية ان يقبل بها عدد من القادة الفلسطينيين ، ولو ظاهريا ، وبالتالي تقع اسرائيل في مأزق يصعب عليها الخروج منه . وهو يصر على ضرورة ان تبقى الحكومة موحدة في موقفها من المسألة الفلسطينية ، ومن رفض مبدأ قيام دولة ثالثة بين اسرائيل والاردن ، وهو مستعد لاسقاط الحكومة اذا جرى اعتراض قوي على مفهومه هذا . ويبرر رابين موقفه هذا بأدعائه ان الخلاف مع ادارة فورد في هذا الشأن ، لا يسمح لحكومته الدخول في جدل حوله ، خشية ان تستغل ذلك اوساط سياسية اميركية مناوئة لاسرائيل . وهو يدعي كذلك ان جو الكآبة الذي يسود الجمهور الاسرائيلي ، خاصة بعد قرارات الامم المتحدة بادانة الصهيونية ، وبروز منظمة التحرير على الصعيد الدولي ، لا يسمح بالخوض في نقاش حول هذه القضية المتعلقة بحياة اسرائيل . وعلى العموم ، فان رابين لا ينوي ، على الاقل في عام انتخابات الرئاسة الاميركية ، الالتزام امام ادارة فورد بشيء جدي ، قبل ان يتأكد ممن سيكون الرئيس المقبل للولايات المتحدة . وهكذا فأنه يناور ويطرح الصيغة الاردنية ، بهدف كسب الوقت ، انطلاقا من قناعته بأنه لا مجال لتسوية سلام في المنطقة في المستقبل القريب ، والمهم ان تنقضي السنوات العجاف .

وبالمقابل يرى الون ضرورة الاسراع في معالجة القضية الفلسطينية قبل ان « يستفحل » امر منظمة التحرير وتجد اسرائيل نفسها في مأزق لا يسعها فيه الا الاعتراف بها ، والتعامل معها على شروطها ، كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني . وهو يخشى ان تكون حكومة رابين ، نظرا للتطورات الاخيرة في القضية الفلسطينية وتنامي قوة منظمة التحرير ، في حين تزداد عزلة اسرائيل ، قد دفعت بنفسها نحو تبني سياسة عقيمة ، يصعب بعد حين العدول عنها ، مما قد يدهور الاوضاع في المنطقة الى حرب خامسة — وهذا ما لا تريده الولايات المتحدة حاليا . وبدا الون مؤخرا يبدي ضيقا بالتمسك في الصيغة الاردنية — الفلسطينية ، رغم انه هو الذي بادر اليها وتبناها وحمل الحكومة على قبولها . فهو يدعو الى اعادة النظر في هذه السياسة . ويعتقد انه لا يجوز بعد « منح حسين امتيازا على مفاوضات التسوية ، خاصة وان الملك الاردني يرفض المرونة والحل الوسط ، ويتوقع ان تقوم اسرائيل عنه بالعمل ، الذي لا اجر له ، برفض كل محاولة لاشراك منظمة التحرير الفلسطينية » . (نشرة م . د . ف (١٩٧٦) ، ص ٦) . ولذلك يرى الون ، خاصة ازاء اتساع الاعتراف بمنظمة التحرير وشيوع الدعوة الى اقامة دولة فلسطينية بقيادتها ، ان على اسرائيل توسيع هامش مناورتها وتقديم مقترحات جديدة ، اذا ارادت قطع الطريق على المنظمة . والون يصر على التمييز بين منظمة التحرير ، التي يرفض الاعتراف بها قطعا ، وبين المسألة الفلسطينية ، التي يرى ضرورة ايجاد حل لها . وقد نقل عنه مشروع من ثلاثة خيارات لمثل هذا الحل ، هي كالتالي :

١) اتفاق اردني اسرائيلي ، يرافقه حل وسط اقليمي على اساس مشروع الون المقلص ، يمنح الفلسطينيين حكما ذاتيا معينا . وهو يعتقد ان الفلسطينيين سيرفضون هذا الحل لرغبتهم في التعبير عن هويتهم السياسية .

٢) خيار يعتبره أكثر واقعية يقول باقامة وحدة فيدرالية اردنية ـ فلسطينية ، يتطابق مع مشروع الملك حسين ، ولكن مع تعديلات ملموسة في الحدود .

٣) في حالة رفض الفلسطينيين هذين الخيارين فعندها « لا يجوز التهرب من امكان ان توافق اسرائيل على شكل من الدولة الفلسطينية » . والون لا يرى ذلك خيارا واقعيا في المستقبل القريب ، كما انه يرفض ان يكون بقيادة منظمة التحرير ، الا انه لا يقول بضرورة الرفض القاطع لمثل هذه الفكرة ، ولا يرى سببا للمبالغة في تجسيم الاخطار التي ستلحق باسرائيل من جراء ذلك ، « شريطة ـ طبعا ـ ان يتم تحييد هذه الدولة وتجريدها مسبقا ، ويبقى نهر الاردن حد اسرائيل الامني » . واذا كانت ثمة ضرورة لاجراء انتخابات عامة للحصول على تفويض سياسي شعبي ، يؤهل الحكومة انجاز مثل هذا الاتفاق ، فأن الون لا يرى داعيا للاحجام عن ذلك ، كما يتصرف رابين .

السياق السياسي

اطلقت فقاعة الادارة الذاتية ، والثورة الفلسطينية تخوض معركة مصيرية في لبنان ، في مواجهة مؤامرة تستهدف ، اولا وقبل كل شيء ، كسر شوكة هذه الثورة ، ومن ثم تطويع منظمة التحرير وقولبتها بشكل يتلاءم مع مسار التسوية السياسية برعاية الولايات المتحدة في المنطقة . وقد جاء ذلك بعد انجاز اتفاقية سيناء ، وتعثر المفاوضات على تسوية مرحلية موازية في الجولان ، واشتداد الخلاف بين منظمة التحرير وسوريا من جهة والحكومة المصرية من الاخرى . وفي هذه الاثناء ازداد التقارب بين الاردن وسوريا ، رغم التناقض القائم بين الحكم الاردني ومنظمة التحرير . ومع ذلك فقد استمر بروز المنظمة على الصعيد السياسي ، واتسع الاعتراف الدولي بها ، مما انعكس في ترسيخ شرعية تمثيلها للشعب الفلسطيني ، والتفاف هذا الشعب حولها ، وفي المناطق المحتلة بالذات .

وبينما الولايات المتحدة ضالعة في المؤامرة على الثورة الفلسطينية في لبنان ، صدر عن وزارة خارجيتها تصريح ، عرف فيما بعد بوثيقة سوندرز ، نسبة الى احد موظفي الوزارة ، اشرف على اعداد الوثيقة ، وطرح فيما بعد في الكونغرس الاميركي ، في منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ . واعقب ذلك نشر وثيقة أخرى اعدها معهد بروكنغز ، المعروف بقربه من الخارجية الاميركية . وأثارت وثيقة سوندرز بالذات غضب حكومة رابين ، واعتبرتها وسيلة ضغط عليها لتغيير موقفها من المسألة الفلسطينية ، كما رأت بها خرقا لاتفاقات التفاهم بينها وبين ادارة فورد ، والتي تمت اثناء المفاوضات على اتفاقية سيناء . وكان اكثر ما اقلق الحكومة الاسرائيلية في الوثيقة ، تأكيدها على ان جوهر الصراع في الشرق الاوسط هو القضية الفلسطينية ، مما يناقض مفهوم رابين ، القائل بان عدم اعتراف الدول العربية باسرائيل هو لب ذلك الصراع . واستنتجت حكومة رابين من الصياغات الواردة في الوثيقة ، انها كانت بمثابة خطوة على طريق الاعتراف بمنظمة التحرير ، وتأهيلها للمشاركة في مفاوضات التسوية . واعتبرت اشارة سوندرز ، اثناء عرضه الوثيقة على الكونغرس ، الى فشل محاولات ترتيب لقاء بين الرئيسين ، الاسد وفورد ، مع الحاح واشنطن على ضرورة الاستمرار في التحرك الدبلوماسي والحؤول دون تجميد مسار التسوية ، مؤشرا الى ان الحكومة الاميركية تفكر في الاقلاع عن مفهوم ضرورة الانتظار في اشراك الفلسطينيين في المفاوضات حتى المراحل النهائية من اتفاق السلام . وهذا

في نظرها تحول في سياسة الولايات المتحدة ، يناقض اتفاق التفاهم بينهما ، القاضي بضرورة التشاور المسبق وتنسيق التحركات السياسية بين الحكومتين . وبدأت اوساط سياسية اسرائيلية تميل الى القناعة بأن ادارة فورد تجنح نحو الاعتراف بمنظمة التحرير ، شريطة ان تتقدم هذه تنازلات ، على راسها الاعتراف بقيام دولة اسرائيل ، اي ان واشنطن لا تتفق مع اسرائيل ، كما كان اعتقاد الاخيرة ، على مبدأ رفض الاعتراف بالمنظمة بشكل مطلق . وعلى هذه النقطة ، اضافة الى مسائل اخرى برزت اثناء مفاوضات التسوية ، يدور الخلاف بين حكومة رابين وادارة فورد .

وهذا الخلاف يقلق حكومة رابين ويزيد من شكوكها في تصرفات ادارة فورد ومن عدم ثقتها بالتعهدات التي يقدمها لها كيسنجر . وقد كان ذلك واضحا في ردود الفعل المرتبكة والعصبية لحكومة رابين ازاء التحركات الاميركية بعد اتفاقية سيناء . فقد أبدت عدم ارتياحها الى كلام ادارة فورد عن ضرورة الوصول الى اتفاق في الجولان ، بعدما كانت تعتقد ان اتفاقية سيناء ستقيها شر الخوض في مشاكل معقدة لسنتين او ثلاث على الاقل . ثم كان امتعاض اسرائيل من زيارة السادات الى الولايات المتحدة ، وسكوت واشنطن عن تصريحاته هناك ضد الصهيونية ، وتأييده لمنظمة التحرير . ثم جاءت مناقشات الجمعية العمومية في القضية الفلسطينية ، وخرجت الامم المتحدة بقرار ادانة الصهيونية ودمغها بالعنصرية ، فأتهمت اسرائيل اميركا بالتقصير في تجنيد الدعم لاسرائيل في الجمعية العمومية . ثم كانت مناقشات مجلس الامن حول تمديد انتداب قوات الطوارىء الدولية في الجولان ، واقرار ذلك وربطه بعقد جلسة خاصة للمجلس تبحث فيها قضية الشرق الاوسط ، وتدعى الى المناقشات منظمة التحرير الفلسطينية ، فاستشاطت حكومة رابين غضبا لموافقة الولايات المتحدة على القرار ، واعتبرته تراجعا كبيرا من حكومة واشنطن ، ورضوخا « للابتزاز » العربي . فما كان من حكومة رابين الا ان اعلنت رفضها للقرار ، وعزمها على مقاطعة المناقشة وتصميمها على اقامة عدد من المستوطنات الجديدة في الجولان ، كما عمدت الى الاغارة على المخيمات الفلسطينية في لبنان . فبعث فورد ببرقية الى رابين يحثه فيها على الامتناع عن اتخاذ خطوات من شأنها تعقيد محادثات التسوية . اما رابين فقد اعاد البرقية الى مرسلها ، واتبع ذلك بتسريب معلومات عن مضمونها ومصيرها . وهنا اندلعت حملة متبادلة من الاتهامات بين الطرفين ، حاولت فيها حكومة رابين استغلال وضع فورد الصعب في انتخابات الرئاسة ، للضغط عليه . وانتهت هذه الحملة بزيارة الون الاخيرة الى واشنطن ، عشية مناقشات مجلس الامن لتنسيق مواقف الدولتين ، مما اسفر عن الفيتو الاميركي على مشروع القرار الذي تقدمت به دول عدم الانحياز . كما مهد ذلك لزيارة رابين ، والتي اتفق فيها الطرفان على محاولة اجراء حوار مجدد مع الاردن . وهذا اكيدا سيكون احد البنود الاساسية في المحادثات التي سيجريها الملك حسين في واشنطن ، لدى زيارته اياها في الشهر القادم .

وفشل المؤامرة على الثورة الفلسطينية في لبنان ، واستمرار هذه بانجاز المزيد من المكتسبات السياسية ، وكذلك عدم جدوى محاولات الالتفاف حول قرارات الرباط ، والشعور بأن الولايات المتحدة أخذت تغير من مواقفها ازاء منظمة التحرير ، وتتنصل مما تعتبره اسرائيل أمرا متفقا عليه ، بالاضافة الى قرارات الامم المتحدة بادانة الصهيونية ودعوة منظمة التحرير للمشاركة في مناقشات مجلس الامن ، كل هذه العوامل قد اربكت حكومة رابين الضعيفة ، وزعزعت تماسكها الداخلي . فعمدت الى القاء اللوم على الادارة الاميركية ، وعلى رأسها فورد ، الذي هو نفسه في موقف لا يحسد عليه في معركة انتخابات الرئاسة هناك . وعلى هذه الخلفية جاء بالون

الادارة الذاتية ، اي انه آطلق من موقع الضعف والارتباك ، وليس من موقع القـوة والثقة بالنفس .

الادارة الذاتية الى أين ؟

عندما اطلقنا كنية « فقاعة » على مشروع الادارة الذاتية الذي طرح دون ان تتبناه حكومة رابين كسياسة رسمية ، لم يكن ذلك استخفافا منا لمخططات العدو ، وانما قصدنا ذلك ، ونحن نعي اهمية الدقة والجدية في التعامل مع تحركاته . والواقع ان بيرس قد اطلق تصريحه ثم انكفأ على نفسه ، اثر الهجوم العنيف الذي شنه عليـه دبان . فلم نسمع عن مشروع بيرس شيئا جديدا ، لفظا او عملا ، منذ ذلك الحين . واما الون ، فقد اكتفى بقرقعة السيوف ولم يطرح مشروعه في الحكومة ، ولا هو تجرأ على مجابهة رئيس الحكومة ، كما كان متوقعا . والذي حدث هو ان رابين عاد مـن واشنطن وطيَّر بالون الحوار مع الاردن مجددا . وبهذا طويت صفحة مشروع الادارة الذاتية ، على الاقل مرحليا . واما انتخابات البلديات المقبلة ، في الضفة والقطـاع ، فأنها لا تغير ولا تبدل في الامر شيئا . فلا هي تعني تحقيق المشروع ، ولا هي تحـول دون ذلك ، على الاقل من الناحية النظرية . والواقع ان الصراع في المعركة الانتخابية يدور اساسا بين الاردن ومنظمة التحرير ، اكثر مما هو بين المنظمـة وسلطـات الاحتلال .

ولكن هذا المشروع قد يطرح مجددا ، ولو بصيغ مختلفة ، تتلاءم مع مقتضيـات الظروف السياسية المواكبة ، وهو بالاساس لا يتناقض مع خط اي من الثلاثي الحاكم بالنسبة الى مستقبل الضفة . فرابين قد يرى فيه « التعبير عن الهوية الفلسطينية في اطار اردني » ، كما هو وارد في البرنامج الذي يلتزم به . والون قد يعتبره ممهـدا لتحقيق أي من الخيارات الثلاثة التي يطرحها . كما أن بيرس قد يرى به تجسيدا لما يطرحه من ضم المناطق تحت شعار الاتحاد الفدرالي مع اسرائيل . واذا قيض لهذا المشروع ان يطرح مجددا ، فأن صيغته عندئذ ستعتمد اصلا على موازين القوى بين هذا الثلاثي الحاكم داخل الحكومة ، اذا بقيت هذه متماسكـة . امـا الان فيبدو ان التحرك سيكون باتجاه الاردن في محاولة لاجراء حوار معه ، بعد ان وعد فورد رابين بجس نبض الملك حسين في هذا الشأن . ومن هنا فأنه يستبعد ان تقوم الحكومـة الاسرائيلية في المستقبل القريب بأي تحرك من شانـه ان يثقل على الملك في محاولتـه الالتفاف حول قرارات الرباط . ويتوقع ان يبقى المشروع مجمداً الى ان تنجلي امكانات مثل هذا الحوار .

وعند محاولة تقييم مشروع الادارة الذاتية ، لا بد من الاخذ بالاعتبار ما يدور على الساحة الفلسطينية ككل ، وخاصة ما يتعلق من ذلك بمنظمة التحرير . وكذلك فلا بد من وعي ان لتحركات حكومة رابين في هذا المجال سقفا لا يمكنهـا ان تتجـاوزه . فبالاضافة الى الاهداف الصهيونية البعيـدة المدى ، هنـاك الالتزام الاستراتيجي بالوقوف في وجه قيام دولة فلسطينية مستقلة ، بين اسرائيل والاردن ، تملك القدرة السياسية على تقرير العلاقة بين السكان والارض هناك . وكذلك فلحكومة رابـين سياسة واضحة ازاء منظمة التحرير ، تقوم على رفض الاعتـراف بها أو التعـامل معها . هذا الى جانب ان هذه الحكومة ملتزمة باجراء استفتاء شعبي ، اي انتخابات عامة ، للحصول على تفويض سياسي لامضاء الاتفاقات التي قد تتوصل اليها حـول مستقبل الضفة . ولا بد هنا من الاشارة الى ان حكومة رابين ، ككـل حكومـة اسرائيلية اخرى ، في هذه المرحلة من تاريخ الدولة الصهيونية ، تواجه مأزقا حرجـا

في قيام اي كيان فلسطيني مستقل . فبالاضافة الى التناقض المطلق بين مثل هذا الكيان واسرائيل ، هناك مشكلة اكثر الحاحا وارباكا . فهي ان عمدت الى اقامة كيان هزيل ، فأنه لن يستطيع ان يصمد امام ضغط منظمة التحرير وحركة الجماهير الفلسطينية . وان قبلت بقيام دولة قوية ومسلحة فذلك يعرضها نفسها للخطر . ومن هنا الاصرار على تصفية الثورة الفلسطينية والقضاء على منظمة التحرير والتوجه الى حل القضية الفلسطينية من خلال الاردن .

ومنذ مؤتمر الرباط وحكومة رابين تسعى لاحياء الدور الاردني في مفاوضات التسوية على الضفة الغربية . وهي ما انفكت تبشر باقتراب اليوم الذي تدفع فيه منظمة التحرير الى هامش الاحداث السياسية في المنطقة ، بينما كانت تعمل على تنفيذ المؤامرة في لبنان. ولم يكن توقيت طرح مشروع الادارة الذاتية بمعزل عن تلك المؤامرة. فبينما كانت حكومة العدو تتوقع ان تسحق الثورة في لبنان عسكريا ، ارادت ان تجهز عليها سياسيا ، بعزل جماهيرها في الضفة الغربية وقطاع غزة عنها من خلال ما اسمته بالادارة الذاتية . اما وقد أحبطت الثورة المؤامرة في لبنان ، فلم يبق هناك كبير فائدة من تلك الادارة ، اذ كان المبرر الرئيسي لاقامتها هو خلق البديل لمنظمة التحرير ، ولكن هذه خرجت من المعركة في لبنان وهي اصلب عودا واصعب منالا .

والسؤال الان هو ماذا بعد ؟ فأزاء ما تمخضت عنه احداث لبنان ، واثر ذلك في الساحة العربية عامة ، وعلى الثورة الفلسطينية خاصة ، وانعكاس كل ذلك على الساحة الدولية ، وبالتالي على مسار التسوية ، لم تعد الادارة الذاتية مسألة ذات شأن . وفي ضوء البيان المشترك الصادر بعد زيارة رابين الى واشنطن ، والذي تحدث عن محاولات لاجراء حوار بين الاردن واسرائيل ، يبدو ان الصراع السياسي في المرحلة المقبلة سيدور حول مستقبل المناطق المحتلة ككل . واكيداً انه في المعطيات الراهنة ، سيكون لهذا الصراع اثر كبير على التركيبة السياسية القائمة في اسرائيل ، كما انه لن يمر على الساحة العربية مرور الكرام . ولا يستثنى ابدا ان ينقلب هذا الصراع الى صدام مسلح .

الاتجاهات السياسية في الارض المحتلة

والمواقف المختلفة من مؤامرة العدو الصهيوني لانشاء ادارة مدنية في الضفة والقطاع

علي الخطيب

حرص العدو الصهيوني منذ الاحتلال على تنمية علاقات مختلفة مع الزعامات التقليدية وبعض الشخصيات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومما لا شك فيه ان العدو يعمل من اجل بلورة ارضية سياسية واجتماعية واقتصادية توفر له عوامل تنفيذ اي مشروع صهيوني يلجأ اليه الاحتلال لتحديد مستقبل الضفة والقطاع وفقا لتصوراته السياسية .

من هنا فان تاريخ مؤامرة الحكم الذاتي يرجع الى بداية سنوات الاحتلال الصهيوني في حزيران ١٩٦٧ ، فقد مر مخطط العدو بمراحل عديدة توجت اخيرا بطرح مشروع قيام ادارة مدنية تشكل نواة لاقامة حكم ذاتي في الضفة والقطاع ، واذا كانت ثمة عوامل عديدة (داخلية وخارجية) حالت دون وضع هذا المشروع على حيز التنفيذ ، فان الظروف الحالية اعطت دلائل ومؤشرات تؤكد على خطورة ما يجري حاليا من مؤامرات تستهدف تطبيق المشروع الصهيوني . وعلى ذلك فان من المنطقي والمعقول ان نشير الى خطورة الانتخابات البلدية التي ستجري في شهر آذار القادم ، الامر الذي يتطلب منا القيام بجهود مكثفة وبمهام عاجلة تكون على مستوى التصدي للمؤامرة وافشالها .

قبل تحديد المخطط الصهيوني ، لا بد لنا من استعراض المراحل التي مر بها المشروع منذ بداية الاحتلال ، ليتسنى لنا الفهم العلمي والدقيق للمؤامرة ، وعلى ذلك فاننا سنعرض بشكل موجز لكل مرحلة من المراحل على النحو الاتي :

١) **المرحلة الاولى — المورفين :** فمنذ الاسبوع الاول من الاحتلال قام الحاكم العسكري الصهيوني آنذاك حاييم هرتسوغ وعوزي نركيس القائد العام للاراضي المحتلة وداوود فرحي باللقاء مع بعض الشخصيات الفلسطينية الغاية منه كسب ولاءهم في اطار سياسة العدو التي استهدفت دغدغة العواطف الفلسطينية في مرحلة الضياع النفسي والذهول الفكري الذي اعقب الهزيمة ، من اجل ترغيب شعبنا في الاحتلال الصهيوني من خلال استغلال الهزيمة التي منيت بها الدول العربية لتيئيس شعبنا في الداخل . الا ان هذه المرحلة لم تسمح بتقديم اي مقترحات ملموسة او مشاريع محددة بالنسبة للضفة والقطاع .

٢) **المرحلة الثانية — وزير المستعمرات :** بعد اشهر من الاحتلال عينت وزارة العدو فرانسيس ساسون مسؤولا عن الاتصالات السياسية مع زعامات الضفة الغربية والقدس ، حيث كلف بالاتصال يوميا بالوجهات التقليدية وفق مهمة الغاية منها

استطلاعية للوقوف على راي هذه الشخصيات في مستقبل الضفة والعلاقات بين سلطات الاحتلال والسكان العرب ، من اجل بلورة موقف مشترك يمكن السير على خطاه ، وفي هذه المرحلة تبلورت عدة اتجاهات سياسية في الضفة الغربية يمكن تلخيصها بما يلي :

أ) فريق ينادي بعودة الامور الى ما كانت عليه قبل الاحتلال ١٩٦٧ اي العودة الى الاردن على اعتبار ان الضفة الغربية والقدس جزء من المملكة الاردنية ، وان اي حل لا بد وان يأتي من خلال التفاوض مع النظام الاردني .

ب) فريق يطالب بدولة فلسطينية في الضفة والقطاع تكون القدس عاصمتها ، وان اي حل يمكن ان يأتي عن طريق اجراء مفاوضات بين هذه الدولة والكيان الصهيوني لحل مشكلة الحدود وتعديلها ، على ان يكون جميع الفلسطينيين مشتركين في توقيع اي اتفاق مع العدو .

ج) فريق يأمل في « كيان فلسطيني مستقل » يرتبط مع الاحتلال باتفاقية سلام بحيث يقوم هذا الكيان في ظل الاحتلال ودون العودة الى الفلسطينيين في الخارج او الدول العربية لاقرار هذا .

هـ) فريق يطالب الاحتلال بترك الحكم للادارة الاردنية التي كانت موجودة قبل الاحتلال ، مع تعيين **حاكم عسكري عربي** عام من الفلسطينيين يدير شؤون الضفة الى ان تتبلور الامور داخليا وعربيا وفلسطينيا لاقرار اي حل ، وقد رشح لمنصب الحاكم العسكري آنذاك واحد من ثلاثة الشيخ الجعبري ، انور الخطيب ، حكمت المصري .

و) فريق ينادي بقيام مجلس وطني في الضفة الغربية من ١٢٠ — ١٥٠ عضواً يتالف منه هيئة عربية عليا يمكنها محادثة الصهاينة بشكل اوسع تمثيلا .

٣) **المرحلة الثالثة : الرسل والاعوان** : وقد اتخذت هذه المرحلة اشكالا عدة ، ففي الوقت الذي منعت به سلطات الاحتلال الشخصيات والقوى الوطنية والقادة الشيوعيون في حيفا والناصرة والمثلث من زيارة الاراضي المحتلة حديثا اوفدت مندوبين من عملائها الفلسطينيين في مناطق ١٩٤٨ للاتصال ببعض الشخصيات الفلسطينية للحديث عن « جمال محاسن الدولة » بهدف تيئيس الجماهير من الدول العربية وترغيبهم بالاحتلال .

وقد تميزت هذه المرحلة بنشاطات مكثفة لجمعيات ومؤسسات ونواد مشبوهة في الضفة الغربية والقدس ، وتنظيم لقاءات مختلفة اهمها : المحافل الماسونية ، نوادي الروتاري ، الليونز كارتياس ، كويكرز ، جماعة الصداقة العربية — الاسرائيلية .. الخ .

وقد رافق ذلك ايضا سلسلة اتصالات مكثفة قام بها ملحقون بالسفارات والقنصليات الاميركية والبريطانية والبلجيكية والفرنسية مع بعض الشخصيات الفلسطينية لبحث مستقبل المناطق المحتلة ومصير القدس .

٤) **المرحلة الرابعة : الدويلة المسخ** : وهذه تشكل اخطر المراحل فعلا ، حيث بدأ اول طرح عملي لفكرة قيام دويلة في الضفة الغربية شجعتها سلطات الاحتلال الى جانب بعض موظفي السفارة الاميركية ، وشارك فيها مجموعة من الفلسطينيين في

رام الله ونابلس والخليل ، كما جاء احد الفلسطينيين من تونس ويدعى محمد فياض لترويج هذه الفكرة .

ويلاحظ ان طرح هذا المشروع جاء بعد معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ وامتد حتى عام ١٩٧٠ ، ويتضمن هذا المشروع قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الصهيوني ، وترتبط معه بتحالف او اتحاد فيدرالي ، كما ترتبط مع اي دولة عربية في المستقبل (الاردن) باتحاد مماثل ، وتقوم الدولة المقترحة بالاتصال مع الفلسطينيين في الخارج وايضا بالدول العربية لتصبح اداة للتفاهم والمفاوضات بين العدو والانظمة العربية ، كما روجت ان بعض الدول وفي طليعتها اميركا ستعلن اعترافها بها حالا ثم تتم الاعترافات من قبل الدول الاخرى الصديقة للصهاينة .

وهنا لا بد لنا من ايراد الملاحظات التالية :

١ — ان الاحتلال لم يكن جادا في طرح الفكرة وانما استعمل الاشخاص الذين قاموا بها واستغلها استغلالا واستهلاكا كبيرين .

٢ — كان الهدف من ذلك القيام بحملة ضغط على الاردن ووضعه بين واحد من اختيارين : اما ضرب العمل الفدائي وتصفيته في الضفة الشرقية ، او قيام الكيان الهزيل البديل .

ونجح الاحتلال نجاحا كبيرا فيما وقع في ايلول ١٩٧٠ واحراش جرش ١٩٧١ ولم يصدق الصهاينة لا مع الاردن كبدء عودة للضفة ، ولا مع اصحاب مشروع الدولة الفلسطينية .

٣ — وفي نوع من كسب الثورة النفسية ضد الاردن في اعقاب مجزرة ايلول انعقد اجتماع ضم حوالي عشرين شخصية اكثرهم من رؤساء البلديات في القدس لتدارس الموقف بحث خلاله تشكيل هيئة محلية تمثل السكان في المناطق المحتلة .

٥ — **المرحلة الخامسة : تدويل المناطق المحتلة :** بعد مجازر ايلول وجرش وعجلون استغل العدو الصهيوني تلك الاحداث ، فاوعز لبعض الزعامات التقليدية ورؤساء البلديات وبعض الشخصيات الاخرى بوجوب المطالبة بتشكيل هيئة تمثيلية للسكان العرب تكون مهمتها ما يلي :

١ — الادعاء بتمثيل المناطق المحتلة في الضفة والقطاع .

٢ — الطلب من الامم المتحدة ومجلس الامن قبول وفد يعرض الراي على المجتمع الدولي بوجوب الاعتراف العربي بالكيان الصهيوني والصلح معه وفقا لحدود يتفق عليها مع العدو . وقد ارسلت خمس برقيات بهذا الصدد لسكرتير عام الامم المتحدة .

٣ — جلب قوات الامم المتحدة للمنطقة لمدة تتراوح بين ٣ — ٥ سنوات يتم خلالها تقرير مصير الضفة والقطاع .

والواقع ان فكرة تواجد قوات الامم المتحدة كان قد طرحها احد الاعيان الاردنيين في القدس في لقاءات له مع الصهاينة وبعض القناصل الاجانب عام ١٩٦٨ كما طرحها بعده الشيخ الجعبري .

وزيد عليها فيما بعد ما يلي :

أ) اثناء تواجد هذه القوات يجري استفتاء العرب في الضفة والقطاع لمعرفة رأيهم في احد الحلول التالية : اقامة دولة فلسطينية في بعض الضفة والقطاع ، مصير القدس — تدويل — تقسيم ، العودة للاردن على اسس جديدة غير تلك التي كانت قبل الاحتلال ، اتحاد فيدرالي اوكونفدرالي مع اكثر من جانب بما فيه الجانب الصهيوني .

ب) يشمل الاستفتاء اعتبار الهيئة العربية المؤسسة التي تقوم من رؤساء البلديات والغرف التجارية والمؤسسات والنقابات ، ممثلة لراي السكان في تبني نتائج الاستفتاء .

٦ — **المرحلة السادسة — المشاريع الصهيونية** : في وسط هذه الاجواء والتيارات خرج الصهاينة بعدة مشاريع رسمية واخرى شبه رسمية ويمكن اجمالها بما يلي :

١) مشروع ديان ، القاضي بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة الى أن تتم تسوية سياسية . ولا مانع من منح السكان في الضفة والقطاع حق حكم انفسهم داخل الحكم العسكري وسياسة الجسور المفتوحة .

٢) مشروع غاليلي : الذي يتضمن ثلاثة مبادىء بخصوص مستقبل الضفة و لقطاع وهي : أ) مساعدة (النشاط الذاتي) للسكان في مجالات التعليم والديانة والخدمات . ب) تنمية (أنماط ديمقراطية) في الحياة الاجتماعية والبلدية . ج) يتم قدر الامكان تعيين أشخاص محليين من العرب في مناصب مدنية عالية في جهاز الحكم العسكري .

٣) مشروع بنحاس سابير في اعادة المناطق الاهلة بالسكان العرب ، والاحتفاظ بالاماكن الخالية منهم أو القليلة العدد بهم .

٤) مشروع آلون : الذي يرى باعادة بعض اجزاء من الضفة الغربية للاردن وايجاد منفذ بحري اما من حيفا او اشدود وممر بري الى غزة على ان يظل نهر الاردن حدا امنيا بيد الصهاينة .

وبالرغم من عدم تبني العدو مشروعا محددا ، الا ان سلطات الاحتلال انتهجت سياسة تقوم على الاسس التالية :

أ) الاستمرار في سياسة الترهيب والترغيب مع السكان .

ب) سياسة الجسور المفتوحة التي تعتبر اول حل جزئي مع دولة عربية .

ج) احتواء اقتصاد الضفة والقطاع .

د) فتح المجال امام امكانية اقامة كنتونات من الحكم المحلي في ظل كنتونات الاتحاد الفيدرالي .

هـ) التوسع في مصادرة الاراضي واقامة المستوطنات .

و) قيام الادارة المدنية بشكل اوسع تمثيلا ضمن البلديات واطار فوق البلديات .

٧ — **المرحلة السابعة — المشروع الاردني والمشاريع العربية والفلسطينية بالخارج:** في اذار ١٩٧٢ أعلن الملك حسين مشروعه المسمى « بالملكة العربية المتحدة » وهو يقوم على اعادة بناء المملكة بتقسيمها الى قسمين قطر فلسطيني وقطر اردني تحكمهما دولة الاتحاد .

كما ان ثمة مشروعا اخر دعت اليه مصر والقاضي باقامة ما يسمى « بالحكومة الامنية » في الضفة والقطاع يرضى عنها كل الاطراف باتجاه نحو بلورة نواة لقيام دولة فلسطينية ترتبط مع الاردن وفق علاقات واسس جديدة .

كذلك فقد طرح مشروع سعودي ـ وهو قريب من المشروع المصري ـ ولكنه ينص صراحة على قيام دولة فلسطينية وفقا لسياسة السعودية التي تنادي بقيام دولة « عازلة » بينها وبين اسرائيل .

من جهة اخرى نقلت صحيفة القدس المعروفة بولائها لعمان ان الاردن والجامعة العربية يعدان مشروعا لاقامة حكم أردني ـ سعودي في الضفة الغربية بعد انسحاب العدو منها وان الرئيس المصري بارك هذا المشروع خلال زيارته لعمان .

كذلك فقد قدمت عدة اقتراحات حول مسألة القدس ، فالسادات نادى بتدويلها في حين ان بعض الانظمة العربية دعا الى تقسيم المدينة ، وبرزت اتجاهات تدعو الى قيام بلدية عربية واخرى صهيونية وبلدية ثالثة عليا يرأسها تركي او باكستاني او ايراني .. الخ .

٨ ـ المرحلة الثامنة ـ الزعامة التقليدية والوضع الجديد : جاءت حرب تشرين بجملة من المعطيات والتغييرات ، كان من أهم نتائجها :سكات مشاريع العدو الصهيوني وعملائه بالنسبة الى الضفة الغربية والقطاع ، كما ان مؤتمر الجزائر ومن ثم مؤتمر الرباط اديا الى وضع جديد بعد حسم مسألة التمثيل الفلسطيني بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني .

وقد برزت خلال تلك المرحلة ردود فعل مختلفة ابرزها ما يلي :

١) صعوبة تمرير المشاريع الصهيونية ، وعدم امكانية خلق ممثلين فلسطينيين في المناطق المحتلة على الاقل في تلك المرحلة .

٢) كما ان التخلي الشكلي من قبل النظام الهاشمي عن تمثيل الشعب الفلسطيني ادى الى فقدان العدو عوامل تمرير مخططه ، وضيق من مجالات مناوراته .

ويمكن تحديد الاتجاهات السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة كما يلي : بالنسبة للفئات التقليدية ، فقد قسمت بين فئات تنافق في مسألة ولائها لمنظمة التحرير ، ووجدت سوق المنظمة رائجا ومفتوحا ، فبدأت لاول مرة تطري منظمة التحرير الفلسطينية . وفئات اخرى تنادي بوجوب جلب قوات الامم المتحدة تحت تبريرات مختلفة اهمها ان العدو لا يريد الاعتراف بالمنظمة ، وان المنظمة والعرب لا يريدون الاردن ، وان الهم الاول هو الخلاص من الاحتلال باي ثمن .

وقد برز اتجاه سياسي من كبار المتمولين والبرجوازية الفلسطينية وبعض الموظفين الكبار والاداريين المرتبطين بالنظام الهاشمي والذين يطالبون باقامة حكم ذاتي **مفتوح مستقبلا** ، اي هو لعمان ان نجحت ولمنظمة التحرير الفلسطينية ان انتصرت .

ولا شك ان هذه المرحلة خلقت بلبلة في صفوف القوى السياسية التقليدية في الضفة الغربية . ففي حين يرى البعض في عودة الاردن خطرا عليه بسبب اعلان ولاءه للمنظمة يرى البعض الاخر في سيطرة المنظمة خطرا عليه اكثر من عمان والاحتلال وجهة ثالثة دعت الى وجوب الاتفاق بين المنظمة والنظام تحت شعارات وتنظيرات مختلفة .

٩ ــ **المرحلة التاسعة ــ الادارة المدنية او الحكم الذاتي :** كما مر معنا فان مشروع الادارة المدنية لم يكن مفاجئا فقد ظل الحديث عنه قائما منذ الاحتلال الصهيوني ، الا ان التطور الجديد الذي يجب ملاحظته ان المشروع تبلور بشكل اكثر وضوحا من اي وقت مضى ، كما حظي على تأييد من قبل الزعامات الصهيونية صاحبة القرار السياسي فلاول مرة منذ الاحتلال اتخذ مجلس وزراء العدو قرارا بتكليف ييجال آلون بصياغة مشروع تحت اسم « نقل الادارة الذاتية في يهودا والسامرة وقطاع غزة الى ابنــاء المناطق المدارة ، تمهيدا لاقراره بموجب اوامر عسكرية وليس بقانون من الكنيســت تجنبا لمناقشته من جهة وتلافيا لاية ردود فعل سياسية ودولية من اعتبار القانون ضما للاراضي المحتلة من جهة اخرى » .

والمشروع يرتبط ارتباطا وثيقا بمؤامرة الانتخابات البلدية التي تقرر أن تجري في ١٢ نيسان (ابريل) بالنسبة لأربع وعشرين مدينة ، فتكون سلطات الاحتلال بذلك قد عينت جميع رؤساء البلديات في الضفة الغربية .

وهناك اتجاهات واضحة تسير نحو تقليص وتخفيض صلاحيات ضباط الادارات بالحكم العسكري والاقلال من تعيينات يهودية جديدة في أيه مناصب شاغرة أو ستشغر في المستقبل .

وفي هذا المجال فقد تم تعيين مدراء عرب عامين لمختلف الدوائر بدرجة (مدير عــام او امين عام) ، مع منحهم صلاحيات واسعة ما عدا شؤون الامن العام مثل : الزراعة الشؤون الاجتماعية ، التربية والتعليم ، الصحة ، البيطرة ، الاشغال العامــة ، الاقتصاد (الاستيراد والتصدير) ، البريد والبرق والهاتف ، فضلا عن الشؤون البلدية والقضايا الادارية التي كان يمارسها المحافظون الاردنيون .

وقد جاءت تلك الاجراءات بعد سلسلة من الترتيبات الادارية التي ابتدأت في عــام ١٩٧٢ وتوسعت بشكل كبير في عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ فقد تم اجراء انتخابات واسعة لــ ٥٦ مجلسا بلديا وقرويا في الضفة الغربية . كما تتجه سلطات الاحتلال نحو توسيع صلاحيات رؤساء البلديات بحيث يتجاوز مجال اختصاصهم حدود البلدية الى القرى المجاورة لها ، كذلك الاشراف على بعض الشؤون الداخلية مثل المعارف والزراعــة والاديان .

وتعتزم سلطات الاحتلال حاليــا توسيع حق الانتخــاب والترشيح بحيث يتجاوز ذلك نصوص القانون الاردني سواء في سن الناخب او المرشح وبعض الاجــراءات الاخرى مثل حق المرأة في الانتخاب . ويدور حديث حول امكانية صدور قرار يقضي بان تشمل الانتخابات القادمة ــ لاول مرة ــ سكان المخيمات الواقعة حول المدن الكبيرة ، والتي تقتصر علاقاتها مع البلديات على شؤون المياه والكهرباء وبعض الخدمات .

ويستدل من تصريحات العدو عزمه على انشاء ادارة مدنية تشكل نواة لقيام حكم ذاتي في الضفة والقطاع ، فقد صرح شمعون بيرس في بيت جالا « ان الظروف قــد نضجت لمنح السكان حكما ذاتيا بسبب ما برز من وضع جديد في المنطقة يقتضي التطور في مجالات كثيرة تمس حياة السكان » ، كما اعلن العدو انه سيقيم ادارة مدنية فــي شمال سيناء ، ولا ندري ان كان هذا جزءا من البنود السرية لاتفاق سيناء التي لــم تكشف ام تكملة للصورة في الضفة والقطاع .

كما يتحدث العدو عن نظرية « ملء الفراغ » الذي جـاء في اعقاب مؤتمر الرباط بعد أن رفع الاردن يده عن الضفة الغربية وتولت منظمة التحرير تمثيل الشعب الفلسطيني وتحديد مستقبل الاراضي المحتلة ، ووضع مشروع الادارة المدنية كأحد الخيارات المطروحة لملء هذا الفراغ !

وقد كشفت الصحف الاسرائيلية بعض اهداف المشروع ، اهمها ما نقلته صحيفة (يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٤/١٠) من ان بيرس ينوي تقديم اقتراح لاقامة ادارة مستقلة في الضفة والقطاع الذي يهدف الى توسيع صلاحيات رؤساء البلديات وتقليص تدخل السلطات العسكرية في الحياة المدنية ، وفق خطة تقوم على اساس المراحل ، وان النية تتجه الى التشدد في تطبيق ذلك في قطاع غزة اولا حيث يبدي الوجهاء استعدادا كبيرا لتقبل الاقتراح كما تدعي الصحيفة . واذا كانت المهمة الانية لذلك هو تقليص التدخل العسكري في شؤون السكان المدنية . واقتصار ذلك على نقل الميزانيات المطلوبة للادارة المحلية الى رؤساء البلديات ، الا ان هناك اهدافا اخرى ترمي اليها سلطات الاحتلال وراء مسألة الادارة المدنية اهمها ما يلي :

١ ــ ايجاد تجمع فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة يضم قيادات شابة ومتعلمة جديدة قادره على تحقيق مطالب السكان وادارة شؤونهم الادارية والاقتصادية والتعليمية ، لما لذلك من اهمية في بلورة امكانية خلق قيادة محلية تصبح مع الوقت قادرة على رفع صوتها في تمثيل « شرعي منتخب » للفلسطينيين بدلا من منظمة التحرير الفلسطينية والتي يمكن بواسطتها الحوار والتفاهم مع سلطات الاحتلال في مختلف الشؤون التي تهم السكان .

٢ ــ تطوير العلاقات بين هذه القيادة والاحتلال واستمرارها على نهج يقارب بين طموحات السكان القومية والوطنية ومخططات الكيان في سبيل دعم السلام .

وبتوافق هذا المخطط مع الاهداف المعلنة للعدو الصهيوني ازاء مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة ، والذي يقوم على احد الحلول التالية :

١ ــ دمج المناطق المحتلة تدريجيا تمهيدا لاعلان ضمها نهائيا للكيان الصهيوني .

٢ ــ اقامة اتحاد فدرالي بين الكيان الصهيوني والكيان الفلسطيني في الضفة والقطاع .

٣ ــ اقامة اتحاد فيدرالي بين الكيان الصهيوني والكيان في الضفة والقطاع والنظام الاردني .

٤ ــ اقامة « فيدرالية صهيونية » باقامة كنتونات تتمتع كل أقلية منها باستقلال داخلي وتقسم الى ــ اقليم الجليل الاعلى والغربي (حيفا) ــ الجليل الاوسط (الناصرة والقرى العربية والمستعمرات) ــ الاقليم الاوسط (تل ابيب) ــ اقليم القدس ــ اقليم النقب والجنوب ــ اقليم الضفة الغربية (الخليل ، نابلس ، رام الله) ــ اقليم غزة .

٥ ــ عن طريق المفاوضات مع الفلسطينيين (الزعامات التقليدية) او الممثل البديل لمنظمة التحرير بالتشاور مع النظام الاردني يقوم بالاستفتاء على الاطار والشكل مستقبلا .

ملاحظات اساسية على مشروع الادارة المدنية

١ ــ ليس لهذه الادارة المدنية او الحكم الذاتي اي مساس بالتسوية السياسية لازمة المنطقة او بالحقوق السياسية ، وهي تقتصر على تلبية المصالح الحيوية للشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع . الى ان تنضج الظروف لتطوير هذه الادارة الى مستوى القيام بمهام سياسية في مراحل قادمة .

٢ ــ ان هذا المشروع يلتقي مع مشروع المملكة المتحدة ومشروع الون الاسرائيلي (الذي ينادي بارجاع اجزاء كبيرة من الضفة الغربية الى الاردن) وبالتالي فان مشروع الادارة المدنية سيجير في النهاية لحساب النظام الاردني بعد اخذ موافقة الفلسطينيين على ذلك من خلال وضعهم في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية صعبة تضعهم امام خيار قبول المشروع الاردني ، وفي هذا المجال نقلت صحيفة دافار (١٩٧٥/١١/٥) تعليقا تقول فيه « علينا تجسيد مشروع الادارة المحلية بشكل تدريجي ، ونريد حلا عادلا للفلسطينيين في اطار اتفاقية سلام مع الاردن الذي يشكل الجزء الاكبر من مساحة ارض اسرائيل التاريخية وبالامكان التقدم نحو هذا الهدف من خلال التنفيذ التدريجي لمبدأ الادارة المدنية .

٣ ــ ان توقيت طرح المشروع (اذ جاء بعد تجميد الجبهة المصرية الذي اسفر عنه اتفاق سيناء ، واستمرار الازمة اللبنانية وهدفها في تضييق الخناق على الثورة الفلسطينية واستنزافها عسكريا ، كذلك تصريحات القادة الصهيونيين حول عدم التفاوض مع منظمة التحرير .. الخ) يدل على الاهداف السياسية لمؤامرة الادارة المدنية ، فقد نقلت صحيفة دافار (١٩٧٥/١١/٧) على لسان مراسلها داني رونشتاين تلك الاهداف عندما قال « تبدو القرارات ، والبت في امور الخدمات للسكان من قبل الحكم المحلي لاول وهلة انها بعيدة عن السياسة ، لكن الواقع المؤكد هو في الحقيقة طابع سياسي وأساسي من الدرجة الاولى » كذلك فقد صرح بيرس في ١٩٧٥/١٢/١٥ « ان زعماء الضفة الغربية قالوا لي (بصراحة) انهم على استعداد لطرد جميع عناصر وانصار منظمة التحرير من فلسطين اذا قبلت الحكومة الاسرائيلية بانشاء دولة لهؤلاء الزعماء في الضفة » وزعم انه رفض طلبهم .

ومن جهة اخرى نقلت الصحافة الاسرائيلية نوايا العدو الصهيوني من مشاريع الادارة الذاتية . ففي حين اعتبر البرفيسور شمعون شبير (١٩٧٤/١١/٦) ان سياسة العدو في المناطق ناجحة الا ان المكاسب « لم تترجم الى رصيد سياسي ! فلم نسمع عن قيام حركة سياسية في المناطق ، وبعدم سماحنا لزعامة الضفة بالتعبير عن رايها ساعدنا منظمة التحرير في تمثيل الفلسطينيين وعلينا تحليل اخطائنا في الماضي لتفاداها في المستقبل » كما جاء على لسان تسفي رعنان (١٩٧٤/١٢/٥) « علينا القيام بمحاولات دائبة للحوار مع اية قيادة فلسطينية تعترف بنا ، وذلك هو الاسلوب الوحيد الذي سيجعل الشعب الفلسطيني يخلق زعامة أخرى يستحقها » .

دروس مستفادة من تجربة المقاومة في الاردن

غـازي الخليـلي

على الرغم من أن الكثير قيل وكتب عن تجربة المقاومة الفلسطينية في الاردن ، فان تجربة الثلاث سنوات ونيفا لوجود المقاومة العلني هناك ، تظل تجربة غنية بالدروس وموضوعا حيا قابلا للمزيد من النقاش والحوار على ضوء ما يستجد من تطورات على مسيرة الثورة الفلسطينية ، لا سيما ان الموضوعات التي طرحتها هذه التجربة ، لا زالت موضوعات تطرح للنقاش والحوار في أوساط المقاومة الفلسطينية وأوساط حركة التحرر الوطني العربية . كذلك فان ما أسفرت عنه هذه التجربة القصيرة من نتائج ، قياسا الى العمر الزمني لأي ثورة ، واجهت وتواجه ظروفا صعبة شبيهة بالظروف الصعبة التي واجهتها ولا زالت تواجهها الثورة الفلسطينية ، يجعل منهـا تجربة لا تكتسب أهميتها ومدلولاتها من العمر الزمني لها ، بل من النتائج والآثار التي تولدت عنها ، وهي نتائج وآثار لا زالت الثورة الفلسطينية تعاني منها حتـى الآن ، على الرغم من مضي خمس سنوات على نهاية هذه التجربة ، وعلى الرغم من النضالات العظيمة التي خاضتها جماهير المقاومة طيلة هذه السنوات الخمس ، حتى لا تستكمل الرجعية الاردنية اهدافها من هجمتها الشرسة على حركة المقاومة في أيلول ١٩٧٠ وبعده .

لقد كان من أبرز النتائج التي تولدت عن هجمة الرجعية الاردنية على حركة المقاومة في الاردن ، القضاء على الوجود العلني للمقاومة هناك ، وما استتبع ذلك من انحسار كبير للمد الوطني الذي تعاظم بشكل كبير ابـان سنوات النهوض الوطني ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ ، وما استتبع أيضا ، من عودة أجهزة القمع الاردنية للتحكم بجماهيرنا في الاردن وزج الآلاف منهم في السجون والمعتقلات . كذلك فقد كـان من النتائج البارزة لهذه الهجمة ، المحاولات المستمرة التي قامت بها الرجعية العربية والصهيونية والامبريالية الاميركية في استكمال اهداف الهجمة ، بتطويق حركة المقاومة وحصارها تمهيدا لتصفيتها سياسيا ، أو فرض تنازلات سياسية أساسية عليها ، تتناقض والاهداف السياسية التي قامت من أجل تحقيقها . فحاولت الرجعية الاردنية عبر ما يسمى بمشروع المملكة العربية المتحدة أن تستكمل هجمتها العسكرية الفاشية بالوصول الى نتائج سياسية سريعة تكرس سياساتها الالحاقية للأرض الفلسطينية . وقام العدو الصهيوني بالالتقاء مع المشروع الرجعي الاردني ، عندما فرض اجراء انتخابات جديدة للمجالس البلدية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أمل أن تشكل هذه المجالس الجديدة اطارا لبلورة قيادة بديلة عن منظمة التحرير الفلسطينية ، تكون بمثابة أرضية يلتقي عليها الموقفان

الصهيوني والرجعي الاردني في تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة . اضافة الى ذلك ، فانه في الوقت الذي عمدت فيه الامبريالية الاميركية الى توظيف النتائج التي تولدت عن هجمة الرجعية الاردنية في فرض المزيد من التنازلات على بعض الدول العربية التي كانت تلهث وراء تسوية سياسية لهزيمتها في حرب العام ١٩٦٧ ، فان هذا « البعض » من الدول العربية حاول من جهته ، أيضا ، توظيف هذه النتائج في العودة الى محاولات فرض الوصاية والهيمنة على حركة المقاومة الفلسطينية . واذا كانت سنوات ١٩٧١ — ١٩٧٣ ، هي سنوات الحصار والتطويق لحركة المقاومة الفلسطينية، فانها كانت من ناحية أخرى ، سنوات المحاولات المستمرة لبعض الانظمة العربية اعادة القيادة الفلسطينية الى « حظيرة » الوصاية العربية .

انقدرة حركة المقاومة الفلسطينية على الصمود في وجه كل هذه المحاولات طيلة سنوات ١٩٧١ — ١٩٧٣ ، لايعني ان هذه المحاولات توقفت ، كما لا يعني ايضا ، أن ما انتهت اليه حركة المقاومة في الأردن اثر معارك أيلول والاحراج ، لم يعد يؤثر على مسيرة الثورة الفلسطينية ، بل على العكس من ذلك ، فطالما أن مسألة السلطة الوطنية في الاردن لم تحل بعد ، فان الثورة الفلسطينية ستظل تواجه هذه المسألة وهي تناضل من أجل تقرير المستقبل الوطني للارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني . وهذا ما يجعلنا نؤكد أن تجربة المقاومة الفلسطينية في الاردن ، لو أسفرت عن نتائج مغايرة لتلك التي أسفرت عنها ، وأهمها حل مسألة السلطة الوطنية ، لكانت المقاومة في وضع اقوى مما هي عليه الآن ، ولكانت الارضية التي تقف عليها الآن أصلب بكثير من الارضية التي تقف عليها . والاسئلة التي تطرح نفسها هنا هي : لماذا انتهت حركة المقاومة الفلسطينية في الاردن الى ما انتهت عليه ؟ أين اخطأنا ؟ ثم ما هي الدروس المستفادة من هذه التجربة الغنية ؟ واخيرا ، هل استفدنا من هذه التجربة ، والى أي حد ؟

قضايا لا بد من تأكيدها

قبل الاجابة على مجموع هذه الاسئلة ، لا بد من التأكيد على جملة من القضايا الرئيسية ، التي قد يراها البعض بديهية ، ولكن لا بد من تأكيدها دائما وباستمرار ، حتى لا تغيب عن الذهن أمام ما يطرأ من تطورات على النضال الوطني الفلسطيني ومجمل المسائل التي ترتبط مباشرة بهذا النضال وقدرته على الاستمرار الفاعل .

اول هذه القضايا ، ان الساحة الاردنية شكلت — ولا زالت تشكل — إحدى أهم ساحات النضال الوطني الفلسطيني ، لاعتبارات عديدة ، منها ان الساحة الأردنية تضم اكبر تجمع للشعب الفلسطيني ، وان هذا التجمع الكبير تعرض أكثر من أي تجمع فلسطيني في أي قطر عربي آخر ، لمحاولات تبديد ومصادرة هويته الوطنية ، نتيجة سياسات الالحاق التي مارسها النظام الاردني ضد الشعب الفلسطيني هناك . اضافة الى ان موقع الاردن الجغرافي يجعله اكثر الساحات ملاءمة لرفد ودعم النضال الوطني الفلسطيني داخل الارض المحتلة . ولذلك لم يكن صدفة أن بدايات العمل الفدائي الفلسطيني اتخذت من الساحة الاردنية منطلقا أساسيا لها ، على الرغم من سياسات القمع الاردنية ضد العمل الفدائي قبل حرب العام ١٩٦٧ ، كما لم يكن صدفة ، أيضا ، أن تكون الساحة الاردنية هي الساحة التي تبلور على أرضها النهوض الوطني الفلسطيني بعد حرب العام ١٩٦٧ . ان اندفاع قيادات العمل الوطني الفلسطيني نحو الاردن وتمركزها هناك بعد حرب العام ١٩٦٧ ، لم يكن تعبيرا عن أن الاردن كان يشكل الحلقة الاضعف في سلسلة الانظمة العربية التي اصابها بعض الخلخلة اثر هزيمة العام ١٩٦٧ ، بل كان — الى حد كبير — تعبيرا عن أن الساحة الاردنية يجب ان تشكل

مركز الثقل الاساسي في انهاض الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني . **وثاني هـذه القضايا** ، ان المقاومة الفلسطينية وضعت ، وهي لا زالت في سنواتها الاولى ، في مواجهة معضلات اكبر من حجمها واكبر من قدرتهـا . فالنهوض الوطني المتسارع لجماهير الشعب الفلسطيني بعد الهزيمة ، والهالة الرومانسية التي احيط بها العمل الفدائي في بدايات نهوضه ، اضافة الى النفخ الاعلامي العربي للانجازات الوطنيـة المحدودة التي حققها النضال الفلسطيني وهو يخطو خطواته الاولى ، قد ولـدت تقديرات وحسابات خاطئة وغير صحيحة بالقوة الذاتية للمقاومة ، لدرجة ان حالة من الرومانسية الثورية طغت على الفكر السياسي للمقاومة ، ولدرجة ان مقولة من نوع « ان المقاومة هي البديل لكل حركات التحرر الوطني العربية » كانت من اكثـر المقولات رواجا في اوساط المقاومة والاوساط الوطنية القريبة منها . من ناحية اخرى ، فقد ولدت هذه الاوضاع استنفارا مبكرا لدى القوى المعادية عبرت عنه بمحاولاتهـا المستمرة في توجيه ضربات سريعة ومبكرة لحركة المقاومة وهي لا زالت وليدة . كما ولدت ، ايضا ، شعورا مبكرا بالخطر لدى بعض الانظمة العربية الوطنية من ظاهرة نهوض الكفاح الفلسطيني المسلح ، مما جعلها تبكر في العمل على لجم هذه الظاهرة ، ولو تطلب الامر الصمت على ما كانت تقوم به القوى المعادية ضد حركة المقاومة .

ان قولنا هذا لا يعني ـ بأي شكل مـن الاشكال ـ ان نهوض المقاومة لن يستتبع بالضرورة ، التحرك المضاد والسريع للقوى المعادية أو تلك القوى التي ستشعر بالخطر من تبلور هذا النهوض في مجرى النضال اللاحق . فكل ثورة تواجه في سنواتها الاولى محاولات ضربها وسحقها وهـي لا تزال وليدة وقبل ان تستكمل امكانات استمرارها الفاعل . ولذا فان أحد شروط النجاح لأي ثورة ، انها بقدر ما تكون واضحة على الصعيد الاستراتيجي ، فانها يجب أن تكون مرنة تكتيكيا في التعاطي مع المعضلات التي تواجهها خلال مسيرتها . ان الصلابة الاستراتيجية والمرونة التكتيكية صفتان اساسيتان لأي ثورة حتى تستكمل شروط نجاحها . ان كون النضال الوطني الفلسطيني يتسم بصفة النضال المعقد والصعب ـ بفعـل عوامل عديدة ـ يجعل مـن الضروري ان تتلازم الصلابة الاستراتيجية مع المرونة التكتيكيـة . واذا أخذنا تجربة المقاومة في الاردن كأساس في رؤية ، الى أي مدى كان مثل هذا التلازم متوفرا ، نخرج بنتيجة محصلتها أن هذا التلازم كان مفقوداً بشكل عام . ففي الوقت الذي كان فيه بعض فصائل المقاومة يغلب الصلابة الاستراتيجية على المرونة التكتيكية ، كانت فصائل أخرى تغلب المرونة التكتيكية على الصلابة الاستراتيجية ، مما أحدث خلـلا في امكانية رسم خط سياسي واضح ومتفق عليه لمواجهة المعضلات التي طرحها وجود المقاومة في الاردن ، ومما احدث ، ايضا ، ازمة ثقة في العلاقات بمنظمات المقاومة . ويناقش « ابو همام » هيثم الايوبي ، هذا التلازم بين الاستراتيجية والتكتيك من الزاوية العسكرية في مقال له حول معارك أيلول « الهدف بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٧ » ويصف خطأ المقاومة ـ آنذاك ـ بأنه عناد استراتيجي ويحدده بأنـه « تحديد هدف استراتيجي اكبر مـن القوة المتوفرة ، واكتشاف الاختلال في ميزان القوى خلال الصدام ، وعدم العمل على تعديل ميزان القوى أو تحديد أهداف مرحلية أصغر ، والتمسك على العكس بالهدف الاساسي ومتابعته بعناد حتى حدود الاستنزاف الذاتي » . ويؤكد مثـل هذه النتيجة ، ايضا ، الشهيد غسان كنفاني ، في ندوة حول المقاومة الفلسطينية في وضعها الراهن « شؤون فلسطينية العدد ٢ ص ٦١ » حيث يؤكد أن مأزق المقاومة ينبع من « العناد اللاعقلاني للالتصاق بالهدف الاستراتيجي ، وعدم حل هذا التناقض الفظيع القائم بين ضخامة الهدف الذي طرحته المقاومة الفلسطينية وبين الامكانات التي بين يديها » .

وثالث هذه القضايا ، ان العلاقة بين حركة المقاومة الفلسطينية والنظام الرجعي في الاردن محكومة بواقع يختلف عن الواقع الذي يحكم علاقات المقاومة مع الانظمة العربية الرجعية الاخرى . ففي حين أن علاقات المقاومة مع الانظمة العربية الرجعية الاخرى لا تقع ضمن دائرة التماس المباشر ولا دائرة تنازع البقاء على المستوى التكتيكي ، مما يترك هامشا لمرونة تكتيكية في العلاقات مع هذه الانظمة . فان علاقة المقاومة مع النظام الرجعي في الاردن ، تقع ضمن دائرة التماس المباشر ودائرة تنازع البقاء على المستوى التكتيكي ، بحكم ان النظام الاردني يقوم على اساس ان الضفة الغربية المحتلة — وهي ارض فلسطينية — ملحقة به ، وان عددا كبيرا من الفلسطينيين يعتبرهم رعايا اردنيين ومن تابعيته . وعليه فان النهوض الوطني الفلسطيني يجب ان يعني في جملة ما يعنيه ، انهاء عملية الالحاق الهاشمي وتأكيد الهوية الوطنية الفلسطينية للفلسطينيين الملحقين بالاردن والمعتبرين — من ناحية الجنسية — كأردنيين .

ان هذا الواقع يفرض أن أية علاقة بين الطرفين — المقاومة والنظام — هي بالضرورة وبحكم هذا الواقع علاقة تناحرية صدامية ، وان كان بالامكان رؤية هامش ضيق يسمح ببعض المرونة التكتيكية في بداية نهوض المقاومة المسلحـــة ، وفي ظل الجو الذي ساد مباشرة بعد حرب العام ١٩٦٧ ، فان هذا الهامش يكاد ينعدم بالكامل في مجرى النضال اللاحق .

ان الاصرار من قبل « البعض » على وجود مثل هذا الهامش حتى عندما تبلورت طبيعة الصراع بين الطرفين على الساحة الاردنية ، بفعل المعارك التي جرت في الساحة قبل معارك أيلول ١٩٧٠ ، كان وهما واصرارا لا يقوم الا على فراغ . لقد لعب النظام الاردني دورا كبيرا — على الصعيد التكتيكي — في ايهام « البعض » بامكانية وجود مثل هذا الهامش — حتى في أثناء المعارك التي بلورت طبيعة الصراع — تحت شعار العداء القومي للصهيونية .

ان وضوح هذا الواقع ، كان يفرض اخراج المقاومة الفلسطينية في الساحة الاردنية من دائرة الالتزام بشعار « عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية » ومن دائرة الالتزام بشعار « البنادق كل البنادق نحـــو العدو الصهيوني » وأن ترى خصوصية وضعها في الاردن وما تفرضه هذه الخصوصية من وجوب رسم سياسات للمعضلات التي واجهتها في الاردن ، لا تندرج ضمن الخط العام لسياسات المقاومة على الصعيد العربي . ان رؤية الفروقات الدقيقة بين وضع وآخر ، وانتهاج سياسات متمايزة بما يتناسب مع كل وضع ، هما اللتان تحددان صوابية أية سياسة أو خطئها .

ورابع هذه القضايا ، ان تجربة المقاومة في الاردن ، هي في احدى مظاهرها الرئيسية ، انعكاس للأزمة التكوينية لحركة المقاومة . أن عدم التعرض لهذه الأزمة هنا ، لا يعني — بأي شكل من الاشكال — اغفالا لها أو اسقاطا للترابط الاساسي بين هذه التجربة والبنية الذاتية التكوينية لحركة المقاومة .

بعد تأكيد هذه القضايا الاربع يصبح بالامكان رؤية هذه التجربة كما حددت معالمها وقائع النضال اليومي لحركة المقاومة في الاردن .

من الامور التاريخية الثابتة أن النظام الهاشمي في الاردن ، شكل منذ نشأته في العام ١٩٢١ احدى اهم ادوات الامبريالية البريطانية — ثم الاميركية — لتنفيذ السياسة الصهيونية واقامة الكيان الصهيوني على الارض الفلسطينية . ولقد تأكد هذا الدور

ـــ بوضوح كامل ـــ بعد عملية الالحاق الهاشمي للضفة الغربية اثر حرب العام ١٩٤٨ ، ثم سياسات النظام الاردني بعد هذا التاريخ في تبديـــد ومصادرة الهوية الوطنيـــة للجماهير الفلسطينية الواقعة تحت سيطرته ، سواء عبر عملية التجنيس ، او عبر عملية تفتيت البنية الاقتصادية ـــ الاجتماعية للفلسطينيين الواقعين تحت سيطرته في الضفة الغربية والضفة الشرقية ، او عبر سياسات القمع والاضطهاد التي مارستها اجهزة قمعه لكل القوى الوطنية في الاردن .

ان هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن ذهن كل القيادات الفلسطينية التي تصـــدرت العمل الفلسطيني بعد العام ١٩٦٧ ، ولا سيما أن تجربة العمل الفدائي الفلسطيني في الاردن قبل العام ١٩٦٧ ، كانت تؤكد الموقف العدائي للنظام الاردني ضد حركة التحرر الوطني الفلسطينية وضد أية ممارسات نضالية وكفاحية من هذا الشعب ضد العدو الصهيوني . لقد مرر « النظام » موقفه العدائي من العمل الفدائي قبل العام ١٩٦٧ تحت مظلة الموقف العربي العام ، الذي كان يرفض استراتيجية العمل الفدائي الفلسطيني ويصر على احتوائه ضمن ما كان يسمى بالقيادة العربية الموحدة .

وبعد حرب العام ١٩٦٧ ، حاول « النظام » ان يستمر في موقفه العدائي السابق بنوع من المرونة ، فمارس سياسة التضييق ومحاولة وضع العمل الفدائي ضمن دائرة سيطرته المباشرة ، ولما لم يستطع ، لجأ الى سياسة الضرب المباشر ، فقامت قواته بتطويق قواعد المقاومة في الاغوار في شباط « فبراير » ١٩٦٨ ، في وقت لم تصبح فيه المقاومة بعد ، ظاهرة سياسية وشعبية في الاردن . ولما فشلت محاولات « النظام » هذه ، حاول العدو الصهيوني أن يقوم بتوجيه ضربة مباشرة وقويـــة للمقاومة قبل أن تستكمل شروط امكانية بقائها ، فكانت معركة الكرامة في ٢١ آذار « مارس » ١٩٦٨ والتي فشل العدو الصهيوني في تحقيق أهدافه منها . لقد كان النظام الاردني يعول على نجاح الهجمة الاسرائيلية في انهاء المقاومة قبل أن تتأكد وتمتلك شروط البقاء . ولما فشل العدو الصهيوني في تحقيق ذلك ، انتهج « النظام » سياسة طابعها التكتيكي ، الاستعداد لدعم المقاومة وعرض لتنسيق العلاقات معها ، وطابعها الاستراتيجي ، سبر امكانات احتوائها مستقبلا أو تهيئة ظروف أكثر ملاءمة لضربها .

معركة الكرامة بين النصر وأوهام التعايش

لقد شكلت معركة الكرامة ـــ بالنتائج التي أسفرت عنها ـــ نقطـــة تحول هامة في وضع المقاومة الفلسطينية في الاردن على صعيدين . فعلى **الصعيد الاول** ، ساهمت معركة الكرامة في ابراز المقاومة المسلحة سياسيا واعطائها زخما جماهيريا اكبر بكثير من قدرتها الحقيقية على استيعاب هذا الزخم وتأطيره وتنظيمه بشكل فاعل . ونتج عن هذا الوضع معطيات عديدة أهمها (١) تقدير خاطىء للقوة الذاتية جرى تكريسه عبر سياسات النفخ الاعلامي العربي والتي لم يكن الاعلام الفلسطيني بعيدا عن المشاركة فيها . لقد دفـــع هذا التقدير الخاطىء للقوة الذاتيـــة بسياسات المغامرة والمراهقة اليسارية الى الامام من ناحية ، كمـــا ولد من الناحية الاخرى ، شعورا زائدا بالثقة بالنفس لدى بعض القيادات الفلسطينية عبرت عنه في الدخول ، بدون خوف وبشكل مبكر ، في شبكة العلاقات العربيـــة وتعقيداتها ومداخلاتها . (٢) خروج المقاومة الى العمل العلني الواسع دون أن تضع في اعتباراتها حسابات « النظام » واحتمالات حركته في المستقبل . ان اندفاع المقاومة الى العمل العلني الواسع بعد معركة الكرامة ، هو اندفاع مبرر ومشروع ، لأنه يتيح امكانات أكبر للحركة والتعبئة والتنظيم ، الا أن هذا الاندفاع حتى يحقق كامل أهدافه ، كان يجب أن يتحدد عبر تصورات المقاومة المسبقة

لدور النظام الاردني فلسطينيا ، وعبر قدرة كوادر المقاومة على التعبئة والتنظيم . لقد اوقع هذا الاندفاع السريع والعفوي نحو العمل العلني منظمات المقاومة الرئيسية — آنذاك — في فوضى وانفلاش تنظيميين ، وساعد — الـى حد كبير — على سيادة اشكال متأخرة جدا من العلاقات التنظيمية ، لا زالت حتى الان تطبع جميع منظمات المقاومة بطابعها . (٣) اغراق العمل الفلسطيني بتنظيمات صغيرة ، وجدت امكانات واسعة امامها للنمو والانتفاخ السريعين ، في الحالة الجماهيرية التي سادت بعد معركة الكرامة ، وفي سياسات بعض الانظمة العربية التي كانت تسعى لايجاد جيوب تنظيمية لها داخل العمل الفلسطيني خدمة لسياساتها وأغراضها .

وعلى الصعيد الثاني ، فقد نمى التغيير الفجائي في موقف النظام الهاشمي من العمل الفدائي بعد معركة الكرامة ، الوهم بامكانية التعايش بين « النظام » والمقاومة . وتحت مظلة هذا الوهم نمت وترعرعت السياسات التي كانت ترى انه بالامكان اعتبار الساحة الاردنية ساحة صديقة أو محايدة على أقل تقدير ، وأنه بالامكان الاستفادة من هامش « التناقض » بين النظام الهاشمي والعدو الصهيوني ، ان لم يكن بكسب « قوة النظام » الى جانب المقاومة الفلسطينية فعلى اقل تقدير بتحييد هذه القوة . وتحت مظلة هذا الوهم غابت أو تراجعت المواقف العدائية للنظام الهاشمي من العمل الفدائي ، كما غاب أو تراجع الوعي بدوره التاريخي بصدد القضيـــة الفلسطينية . وليس المهم في هذه الحالة ان يسكن هذا الوعي عقل بعض القيادات فقط ، بل المهم ، حتـــى يكون هذا الوعي فاعلا ومؤثرا ، أن يتحول الى سياسة يومية تطبع العمل بطابعه وتكسبه السمة الاساسية أو المظهر الرئيسي . لقد كانت السمة الغالبة على علاقات المقاومة مع النظام الاردني ، سمة تتصف بالتشويش والتردد وعدم الوضوح ، تسير بين حدي الانتقال الفجائي والسريع من امكانات التعايش ، الى تحريض أوسع الجماهير ضد « النظام » اثناء المعارك ، ثم العودة السريعة الى امكانات التعايش بعد أن تهدأ الامور . ان سيادة مثل هذه السمة كانت تشير الـــى أن المقاومة بخطها العـــام السائد كانت تفتقر الى الوضوح الاستراتيجي بصدد علاقاتها مـــع النظام الاردنـــي ، وان السمة الغالبة أو السائدة لعلاقاتها معه هي حركتها التكتيكية . ان سيادة مثل هـــذه السمة أضعفت — الى حد كبير — قدرة المقاومة على ادارة دفة الصراع في الاردن بوضوح وبحسم ، وضمن شعارات تكتيكية تكتسب حالة من التدرج والصعود ضد « النظام » على ضوء نمو قوتها الذاتية وعلى ضوء توفر امكانات الحسم الاستراتيجي عندها ، بدل ان تفاجأ في النهاية في المعركة وبضرورة خوض معركة الحسم الاستراتيجي عندما شن «النظام» هجمة الابادة ضدها في أيلول ١٩٧٠ . ان الانتقال الفجائي بالجماهير مـــن شعارات امكانات التعايش الى شعار اسقاط النظام « بقوة السلاح على ضوء بدء « النظام » بهجمته الواسعة والشاملة في أيلول ، جعل المقاومة بعيدة عن الامساك بزمام المبادرة العسكرية والسياسية في ادارة دفة صراعها مع « النظام » كما حد كثيرا من قدرتها على الانتقال — على الصعيد العسكري — من الدفاع السلبي الى الدفاع الايجابي والنشط .

لقد اكدت مجريات النضال اليومي في الاردن ، ان « النظام » تحت مظلة امكانات التعايش استطاع أن يمسك بزمام المبادرة الهجومية استراتيجيا في مواجهته لحركة المقاومة ، واستطاع على الصعيد التكتيكي أن يحشر المقاومة في وضع المهاجم (بكسر الميم) تكتيكيا مع الافتقار الى القدرة على الحسم استراتيجيا ، وبالتالي فان بدايات المعارك وانتهائها ، وكيف تبدأ وتنتهي ، كان يتحكم بها « النظام » الى حد كبير . حتى معركة ١٩٧٠/٦/٩ التي حققت فيها المقاومة نجاحا تكتيكيا في اجبار « النظام » على

التراجع التكتيكي ، حيث فرضت عليه اجراء بعض التغييرات في قيادة الجيش وتطعيم الحكومة ببعض العناصر المعتدلة ، حتى هذه المعركة لم تخرج « النظام » عن الاطار العام لحركته على الصعيدين التكتيكي والاستراتيجي .

لقد اكدت معركة ٦/٩ الى أي مدى كانت المقاومة بحاجة الى طرح شعارات تكتيكية في مواجهتها لحركة « النظام » المتصاعدة باتجاه الصدام الحاسم معها . والمحاولات التي جرت لطرح بعض هذه الشعارات ابان وبعد معركة ٦/٩ ، كانت متأخرة جدا ، وجاءت في وقت أخذ « النظام » فيه يعد نفسه بسرعة لحسم تناقضه مع المقاومة استراتيجيا . وتحت مظلة ما سمي بالحكومة الوطنية — حكومة عبد المنعم الرفاعي — والتي جاءت بعد معركة ٦/٩ ، وتحت مظلة النمو مجددا لامكانات التعايش بعد مجيء هذه الحكومة ، أعد « النظام » وتحديدا « القصر » قواته الضاربة لخوض المعركة الحاسمة في أيلول .

العلاقة مع الحركة الوطنية الاردنية

ان سيطرة الوهم بامكانات التعايش بين « النظام » والمقاومة قد حد — الى درجة كبيرة — من قدرة المقاومة على التعاطي بفعالية ونجاح مع المشكلات التي طرحها وجود المقاومة في الاردن . ويأتي في مقدمة هذه المشكلات العلاقة بين حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية الاردنية، ثم سياسات المقاومة تجاه النضالات الاجتماعية للطبقات الكادحة في الاردن . فعلى صعيد العلاقة مع الحركة الوطنية الاردنية ، لم تكن هناك سياسة واضحة ومحددة المعالم لهذه العلاقة ، اضافة الى أن المقاومة تحركت في الاردن وكأنها البديل للحركة الوطنية الاردنية في وقت لم تستطع أن تقوم فيه بمهمة هذا البديل لأنها تجنبت خوض صراعات مع النظام الاردني على أرضية المطاليب الاجتماعية والديموقراطية للجماهير في الاردن . وخاضت هذه الصراعات **فقط** على ارضية الدفاع عن وجود المقاومة وحقها في الحركة والعمل بين الجماهير الفلسطينية في الاردن ، مما أدى الى أن تشعر الجماهير الاردنية وكأن هذه الثورة ليست ثورتها وليست لها .

صحيح أن تجربة الحركة الوطنية في الاردن خلال سنوات ١٩٤٨ — ١٩٦٧ ، لم تعرف ذلك التمايز بين حركة وطنية فلسطينية وأخرى أردنية . بل كانت هناك حركة وطنية واحدة تضم الفلسطينيين والاردنيين معا ، عبر الاحزاب والتنظيمات والتجمعات النقابية التيكانت قائمة في الاردن . وبالتالي لم يكن من الصواب خلق هذا التمايز من خلال اجراء عملية فرز لحركة وطنية أردنية وأخرى فلسطينية . الا أن الاقرار بعدم صوابية اجراء مثل هذا الفرز ، كان يفرض على المقاومة الفلسطينية أن تطرح برنامجا للعمل على الساحة الاردنية يجمع بين متطلباتها كثورة فلسطينية ، وبين متطلبات اقامة حكم وطني ديموقراطي في الاردن يتجاوب مع الطموحات الاجتماعية والديموقراطية لأوسع الجماهير في الاردن . وحيث انها لم تطرح مثل هذا البرنامج ، حتى تتجنب الدخول في صراعات مباشرة مع النظام الاردني على أرضية المطالب الاجتماعية والديموقراطية ، كان من المفروض ان تساعد على نمو حركة وطنية أردنية مستقلة ببرنامج مستقل ، يلتقي في العديد من نقاطه مع متطلبات الثورة الفلسطينية على الساحة الاردنية ، ويشكل اطارا لتجنيد وتعبئة الجماهير الاردنية في نضالاتها ضد النظام الاردني .

لقد تصرفت المقاومة بقطرية فلسطينية ، في الوقت الذي طغى وجودها فيه على

الوجود المستقل والخاص للحركة الوطنية الاردنية . وعندما اضطرت ، أمام احتدام الصراع بينها وبين « النظام » للتعامل مع حركة وطنية اردنية ، ولانشاء جبهة وطنية اردنية ـ فلسطينية ، كانت الحركة الوطنية الاردنية شبه مشلولة ، وتعيش في فراغ سياسي . والمحاولات التي جرت لبعث الحيـاة في الحركة الوطنيـة الاردنية ، كانت محاولات تفتقر الى الجدية والرؤية الموضوعية لواقع الساحة الاردنية ، اضافة الى ان هذه المحاولات جرت من خلال التعامل مع بعض الشخصيات الوطنية ، ومن خلال طرح اسماء وهمية لتنظيمات أردنية هي بالاساس واجهة أردنية لهذا التنظيم أو ذاك من المقاومة .

ان فشل محاولات انشاء جبهة وطنية فلسطينية ـ اردنية ، تقود النضال الوطني الديموقراطي في الاردن ، يعود بشكل أساسي الى سياسات المقاومـة الخاطئة تجاه النظام الاردني ، والى وضع المقاومة نفسها كبديل عن الحركـة الوطنية في الاردن في الوقت الذي لم تمارس فيه دور هذا البديل . وهذه السياسات الخاطئة ، هي وليدة عدم الوضوح الاستراتيجي في علاقة المقاومة مع « النظام » وتغليب الحركة التكتيكية اليومية على الرؤية الاستراتيجية في ادارة دفة الصراع في الاردن .

لقد أكدت تجربة الاردن ، الضرورة الماسة الى قيام جبهـة وطنية فلسطينية ـ أردنية ، تقود النضال الوطني الديموقراطي في الاردن عبر برنامج عمل يتضمن التعبير عن الطموحات الاجتماعية والديموقراطية للجماهير في الاردن ، اضافة الى متطلبات وجود حركة مقاومة فاعلة ونشطة في الساحة الاردنية . وان مثل هـذا البرنامج لا يكتسب فعاليته وبعده الاستراتيجي ، الا عبر دعم استكمال الحركة الوطنية الاردنية لشروط وجودها المستقل والخاص ، هذا الوجود الذي يستمد فعاليته أيضا من خلال علاقات التلاحم بين هذه الحركة وحركة المقاومة الفلسطينية .

شعار اسقاط النظام

اذا كانت أوهام امكانات التعايش بين المقاومة والنظـام الاردني افقدت المقاومة قدرتها في تكريس الوضوح الاستراتيجي لعلاقاتها مـع « النظام » ، فان رفع شعار اسقاط النظام الاردني منذ البداية ، دون تهيئة الشروط السياسية والتنظيمية الملائمة لوضع هذا الشعار موضع التنفيذ الفعلي ، كـان تعبيرا عن الافتقار الـى المرونة التكتيكية في الحركة اليومية لادارة دفة الصراع ، وجعل الحركة اليومية محكومة بعقلية العناد الاستراتيجي . ان هاتين السمتين من سمات العمل الفلسطيني كمـا أفرزتهما تجربة الاردن ، لا زالتا حتى الآن تطبعان المقاومة بطابعهما ، حيث أن حدود الخلاف بين فصائل المقاومة ، هي في احدى مظاهرها ، محكومة بتصادم حدي المرونة التكتيكية والعناد الاستراتيجي في التعامل مع الوقائع التي تواجهها الثورة الفلسطينية .

ولمزيد من الوضوح ، فان شعار اسقاط « النظام » ، كان صحيحا علـى الصعيد الاستراتيجي ، الا أن هذا الشعار فقد مدلولاته العملية قبل معارك أيلول ١٩٧٠ ، عندما لم ينضج عبر سلسلة من الشعارات التكتيكية والمتصاعدة باتجاه حسم التناقض باسقاط « النظام » واقامة الحكم الوطني الديموقراطي . فتحول الى شعار تحريضي ، لا يستند الى حركة نضالية يومية فاعلة ومتنامية . اضافة الـى أن طرح هذا الشعار وجعله بمثابة المخرج الوحيد كلما كانت تشتد حدة التناقض بين المقاومة و « النظام » في الاردن ، قد دفع المقاومة الى البحث عن أدوات جاهزة قادرة على الحسم السريع ، فكان التوجه نحو المؤسسة العسكرية الاردنية لتكون اداة هذا الحسم عبر انقلاب عسكري ، بدلا من

بناء المؤسسات الشعبية والأطر النضالية الجماهيرية التي تكون أقدر بحركتها على حشر النظام — تكتيكيا — وطبع معركة اسقاط « النظام » بطابع كفاحي شعبي .

الفكر الانقلابي والمؤسسة العسكرية في الاردن . لقد كان خطأ المقاومة ليس فقط في التوجه لحسم الصراع في الاردن عبر انقلاب عسكري ، او شق المؤسسة العسكرية الاردنية لدى احتدام الصراع ، ولكن في الفهم الخاطىء لبنية المؤسسة العسكرية الاردنية ، هذه البنية التي قامت على اساس جعل المؤسسة العسكرية الاردنية اداة « النظام » الرئيسية في قمع الحركة الوطنية ، وكذلك اداته في الحفاظ على تماسك « النظام » امام الهزات التي كان يتعرض لها . ولم يكن صدفة ، فشل كل الانقلابات او محاولات الانقلاب التي قامت في الاردن قبل العام ١٩٦٧ . كذلك لم يكن صدفة ان دور هذه المؤسسة في السياسة الاردنية ، كان دوما ، دورا رجعيا ، وان الجيوب الوطنية التي افرزتها هذه المؤسسة ، كانت جيوبا هامشية ، ولم تجد طريقها الى المؤسسة العسكرية الا في فترة ١٩٥٥ — ١٩٥٧ . وهي الفترة التي رافقت محاولات النظام الاردني للتخلص من هيمنة بريطانيا العسكرية على الجيش الاردني لصالح الامبريالية الاميركية .

ان تغييب خصوصيات الوضع الاردني ، سواء من حيث تركيبة الحكم القائم ، بما فيه المؤسسة العسكرية ، او من حيث التركيب الديموغرافي لسكان الاردن ، جعل من سياسات المقاومة في الاردن سياسات تتسم بالتجريبية وتفتقر الى الرؤية الواضحة والمسبقة لاحتمالات تطور الاوضاع واتجاهاتها ، كما جعلها مرهونة — الى حد كبير — بحركة الخصم ، وحدود حركته التكتيكية في ادارة دفة الصراع .

الاستقطاب الدولي والصراع العربي ـ الاسرائيلي

سلمى حداد

ان من أهم نتائج الحرب العالمية الثانية انها نقلت العالم من مرحلة الدول القومية والتحالفات الى مرحلة العملقة والقطبية . ولقد بدلت هذه الحرب موازين القوى في العالم ، فدفعت اليابان والدول الاوروبية المنهكة الى الصف الثاني ، وجعلت الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة تحتلان مكان الصدارة كقوتين عظميين وحيدتين ، وقسمت العالم الى معسكرين ، قطبين ، تدور في فلكهما الاقتصادي ــ السياسي ــ الايديولوجي وبالتالي العسكري جميع دول العالم . وكانت قوتا هذين القطبين الاشتراكي والراسمالي متوازنتين الى حد ما رغم عدم تماثلهما نوعيا . اذ كان القطب الاشتراكي يعتمد على القوة العسكرية التقليدية الهائلة والزخم الايديولوجي والقدرة الاقتصادية المتنامية ، بينما كان القطب الرأسمالي يعتمد على الاحتكار النووي ، وامتدادات الاستعمار القديم ، والقدرة الاقتصادية الهائلة التي أثبتت الحرب فاعليتها .

وكان عدم الثقة الذي ظهر بوضوح منذ مؤتمر يالطة (١٩٤٥) ، يحكم علاقات المعسكرين العملاقين ، ويهدد بوقوع صدام مدمر ، تستخدم فيه الولايات المتحدة سلاحها الذري ضد المراكز الحيوية السوفياتية ، ويرد عليه السوفيات بتوزيع هذه المراكز ، والاندفاع بالقوات التقليديــة لاحتلال أوروبا الغربيــة والشرقين الاوسط والاقصى ، والتوزع داخل المناطق الآهلة بالسكان لشل السلاح الذري الاميركي ، ووضع القيادة الاميركية الاستراتيجية أمام خيار معنوي صعب : السمــاح للقوات التقليدية السوفياتية المتفوقة باحتلال مناطق هامة وحساسة ، أو ضرب هذه القوات ذريا والحاق الاذى ، في الوقت نفسه ، بسكان البلاد المجتاحة واقتصادها .

الاستقطاب في العصر الذري

عندما فجر السوفيات قنبلتهم الذرية (أيلول ١٩٤٩) وانضموا الى النادي الذري ، تبدلت موازين القوى بشكل جذري . وأصبحت قوتا القطبين متماثلتين نوعيا ، وغدا التوازن العالمي مبنيا على الرعب النووي . وحصل القطب الاشتراكي على زخم جديد بانتصار الثورة الصينية في العــام ١٩٤٨ ، وانضمام هذا البلد بامكانــاته البشرية والاقتصادية والجغرافية الى المعسكر المعادي للاستعمار . واعتقد بعض المحللين الاستراتيجيين أن الرعب النووي سيكون مدخلا الى عالم بلا حروب ، بعد أن غدت الحرب تعادل الانتحار المتبادل . بيد ان ديناميكية الصراع بين المعسكرين الاشتراكي والراسمالي ، ورغبة كل قطب بالسيطرة على أوسع بقعة من العالم وتحديد مناطق نفوذ القطب الآخر ، دفعت استراتيجيي المعسكرين العملاقين الى البحث عن وسيلة لمتابعة الصراع مع تجنب الصدام النووي . ونجم عن ذلك اندلاع الحرب الباردة التي

تمثلت بالتخريب الايديولوجي ، والحرب الاقتصادية ـ النفسية ، والحروب التقليدية المحلية المحدودة في المناطق الهامشية التي تضم عوامل ذاتية تجعلها مناطق غير مستقرة ، ومؤهلة بالتالي لأن تكون مسرحاً للنزاع .

وكانت بلدان العالم الثالث ، وما تحمله في داخلها من تناقضات اجتماعية وسياسية ، وما يموج فيها من تيارات تحررية ، مؤهلة أكثر من غيرها لتكون مسرحا للنزاع بين القطبين الدوليين ، عن طريق القوى المحلية . وكان في معظم بلدان العالم الثالث تياران : يتمثل أولهما بالقوى الاجتماعية ـ الاقتصادية التقليدية المرتبطة ثقافيا ومصلحيا وايديولوجيا بالعالم الغربي ، والمدعومة أحيانا بقوات مسلحة غربية متمركزة على أراضيها أو الى جوارها ، على حين يتمثل الثاني بقوى اجتماعية ـ اقتصادية راديكالية ، تتبنى ايديولوجية التحرر من نير الاستعمار القديم بشكليه السياسي والاقتصادي ، بغية استعادة حرية الارادة السياسية وحرية التصرف بالثروات الوطنية ، والبدء بالسير وفق سياسة تخرج البلد من التخلف الناجم عن سنوات القهر والاستغلال الاستعماريين . واذا كان التيار الاول مضطرا ـ بحكم طبيعته ومصالحه ـ للتحالف مع القطب الراسمالي العالمي ، الذي احتلت الولايات المتحدة مركز قيادته ، فان التيار الثاني كان مضطرا للصدام مع هذا القطب بشكل مباشر أو غير مباشر ، ومضطرا بالتالي لعقد التحالفات مع القطب الاشتراكي الذي حمل الاتحاد السوفياتي لواء قيادته . ومن هنا جاء الاستقطاب الدولي ، وتحولت حروب التحرر الوطني ، في مرحلة تصفية الاستعمار التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، الى حروب محلية محدودة ، يصطدم فيها القطبان العالميان عن طريق طرف ثالث .

ورغم تعقد هذه المعادلة بعد تزايد أعضاء النادي الذري ، وتفجير القنبلة الذرية البريطانية (تشرين الاول ١٩٥٢) والفرنسية (شباط ١٩٦٠) والصينية (تشرين الاول ١٩٦٤) وظهور التناقضات داخل المعسكر الرأسمالي نفسه ، وخاصة بين الولايات المتحدة من جهة وأوروبا بقيادة فرنسة من جهة أخرى ، وبدء النزاع الصيني ـ السوفياتي منذ مطلع الستينات ، والتوجه نحو سياسة الوفاق الدولي منذ مطلع السبعينات ، فان جوهر المعادلة بقي يتمثل في استمرار الصراع بين القطبين عن طريق تجنب الصدام المباشر ، والدخول في صدامات محلية غير مباشرة في مناطق عدم الاستقرار (الهند الصينية ، الشرق الاوسط ، القارة الهندية ، افريقيا ، البرتغال ، أميركا اللاتينية ... الخ) .

وكان الاعتقاد السائد ان الصدامات المحلية ستبقى محدودة ، وان من المتعذر تصعيدها لتحقيق الحسم ، لان هذا التصعيد سيوسع نطاق القوى المتصادمة ، ويدفع الدول العظمى الى المجابهة المباشرة . ولكن نتيجة الحرب الهندية ـ الباكستانية (١٩٧١) ، وانتصار حربي التحرير الفيتنامية والكامبودية (١٩٧٣) وسقوط نظام الليندي الاشتراكي في الشيلي (١٩٧٤) بدلت هذا الاعتقاد الى حد كبير ، وخلقت واقعا جديدا يدعو الى التأمل . ويمكن الخروج من هذا الواقع بالنتيجة التالية : ان الاستقطاب الدولي ، وجسامة الخطر المتبادل الذي يمكن ان تتعرض له الدول الكبرى في حالة صدامها المباشر ، ورغبة موسكو وواشنطن في الحفاظ على الوفاق الدولي ، عبارة عن عوامل دولية موضوعية تؤثر على النزاعات المحلية وتطبعها بطابع المحدودية ، ولكن هذه العوامل تفقد جزءا كبيرا من قدرتها على التحديد اذا توفرت العوامل الذاتية اللازمة للحسم واهمها : ١ ـ اختلال ميزان القوى المحلية بشكل واضح ، ٢ ـ قدرة احد الطرفين المحليين على الحسم السريع ، ٣ ـ هامشية منطقة النزاع بالنسبة الى احد القطبين العالميين او كليهما ، ٤ ـ الوضع الدولي

الملائم للحسم ، ٥ ـ استعداد القطب التحرري لمجابهة الولايات المتحدة مباشرة واستنزافها عسكريا او تهديد مصالحها الاقتصادية الحيوية بشكل جدي .

الاستقطاب في الصراع العربي ـ الاسرائيلي

اندلع الصراع العربي ـ الاسرائيلي في نهاية الاربعينات بعيدا عن الاستقطاب الدولي . ولم تتم الحرب العربية الاسرائيلية الاولى (١٩٤٨) وفق النموذج الكوري (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣) ، بل جرت بشكل يشبه في جوهره النموذج التركي ـ اليوناني في قبرص (١٩٧٤) . اي انها جرت بين دول محلية مرتبطة سياسيا واقتصاديا وتسليحيا بالمعسكر الرأسمالي . لذا استطاع هذا المعسكر تحجيم الحرب ، وتحديد مجالها الجغرافي ، وعنفها ، ومداها الزماني ، بحيث لا تؤثر على مصالحه الحيوية في المنطقة .

وفي منتصف الخمسينات (١٩٥٥) ، عقدت سوريا ومصر صفقات الاسلحة الشرقية ، وحصلت اسرائيل على دعم عسكري ـ اقتصادي من الدول الرأسمالية ، ودخل الصراع العربي ـ الاسرائيلي دائرة الاستقطاب . وزاد من اهمية هذا الاستقطاب وعنفه واستمراريته ان للقطبين الدوليين المهتمين بالصراع مصالح حيوية في الشرق الاوسط ، وهما يعتبران ان نتيجة الصراع المحلي تؤثر سلبا او ايجابا على استراتيجيتهما ومصالحهما العليا . وفي العام ١٩٦٧ وصل هذا الاستقطاب الى عتبة عالية جدا ، ثم قفز الى مرتبة اعلى خلال حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس ، وخلال فترة « اللاحرب واللاسلم » التي اعقبتها .

ومن المؤكد ان هذا الاستقطاب لم يقع نتيجة اختيار طوعي قامت به القيادتان المصرية والسورية في العام ١٩٥٥ ، والقيادات العربية الراديكالية الاخرى فيما بعد . ولكنه جاء نتيجة طبيعة الصراع العربي ـ الاسرائيلي نفسه . فالغزوة الصهيونية عمل استعماري عدواني يستهدف اقامة دولة مصطنعة في قلب الوطن العربي ، وتعزيزها بشعب مستورد ، وتكنولوجيا متقدمة ، واقتصاد طفيلي مرتبط بالاقتصاد الرأسمالي ، وقوة عسكرية غير متناسبة مع حجم الكيان الصهيوني وامكاناته ، بينما يمثل الرد العربي على هذه الغزوة عملا تجرريا ، يستهدف نزع القاعدة العسكرية الطارئة (تحرر سياسي ـ عسكري) ، ومنع تشكيل القاعدة الاقتصادية الوسيطة الرامية الى المشاركة في نهب الوطن العربي وتحويله الى منطقة زراعية ومصدر مواد اولية ملحقة بالاقتصاد الرأسمالي العالمي (تحرر اقتصادي) . ولذا كان من الطبيعي ان يتحالف الطرف الاستعماري المحلي (اسرائيل) مع القطب الاستعماري العالمي ، وان يتحالف الطرف التحرري المحلي (الدول العربية) مع القطب العالمي المعادي للاستعمار .

ولقد وعى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والقوى الراديكالية العربية الاخرى واسرائيل هذه المعادلة ، فدعم الطرفان المحليان علاقاتهما مع القطب المماثل لهما . وكانت النتيجة المحتومة لاي تحليل علمي وموضوعي لطبيعة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وطبيعة النزاع الدائر بين القطبين العالميين ، ان تتحالف اسرائيل مع القطب الاستعماري وان تتحالف الدول العربية كلها مع القطب المعادي للاستعمار . ولكن الامور لم تتم وفق هذا المسار ، لان الفئات الحاكمة في عدد من الدول العربية حافظت على علاقاتها الوثيقة مع القطب الاستعماري ـ الرأسمالي العالمي ، رغم عدائها للطرف الاستعماري المحلي (اسرائيل) ، وتابعت خطها المضاد للقطب العالمي

المعادي للاستعمار ، رغم ان معركتها مع اسرائيل معركة ضد الاستعمـــار . الامر الذي حول الاستقطاب الى نصف استقطاب ، وجعل جزءا من المعسكر العربي متحالفا مع جزء من معسكر العدو (وهو الجزء الاساسي والاهم) ، ومعاديا للقطب العالمي الصديق .

ويرجع موقف هذه الفئات الحاكمة الى عدائها الايديولوجي العميق للقطب العالمي المعادي للاستعمار،وارتباط مصالحها براس المال العالمي وبتكريس الاوضاع الاجتماعية ــ الاقتصادية السائدة في بعض اقطار الوطن العربي رغم هشاشة بنية هذه الاوضاع وتبعيتها للنظام الرأسمالي العالمي ، وخوف الفئات الحاكمة من تنامي النفوذ السوفياتي الذي يؤدي بالتالي الى تدعيم الحركات العربية الراديكالية الرامية الى تطبيق برامج اقتصادية ــ اجتماعية لا تهدد مصالح الدول الرأسمالية ــ الامبريالية فحسب ، بل تهدد ايضا ، وبشكل مباشر ، مصالح الفئات الحاكمة . واذا اضفنا الى ذلك المفاهيم « الليبرالية » الغربية التي تحكم منطق هذه الفئات وبرامجها الاصلاحية ونظرتهـــا الابوية للجماهير الشعبية ، وفهمها الريفي ــ البدوي الساذج للعلاقات الدولية التي ترتكز على العقلانية والربحية والمصلحية ، وانبهارها بطريقة الحياة الغربية وتطلعها الى ممارسة هذه الحياة ولو كانت غالبية الشعب تعيش حيـــاة ما دون البؤس ، وخوفها من التطبيق العملي لسياسة شد الاحزمة اللازمة لمعركة التحرر والخروج من التخلف (خاصة اذا كان عليها ان تشد هي احزمتها) ، فهمنا سر اندلاق هذه الفئات على الولايات المتحدة ، ومعاداتها السوفيات ، ورغبتها في انهاء الاستقطاب عن طريق مصالحة القطب الاستعماري العالمي في صراع الشرق الاوسط .

واذا كانت الفئات الحاكمة في الدول العربية التقليدية تتعامل مع القطب الاستعماري العالمي منذ بداية الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، على اساس قناعاتها ومصالحهـــا وتكوينها الايديولوجي ، فان الرئيس جمال عبد الناصر والفئات الحاكمـــة في الدول العربية الراديكالية لم تسقط هذا التعامل من حسابها بغية تحييد القطب الاستعماري العالمي (الولايات المتحدة) ، ولو جزئيا . والفرق بين تعامل التقليديين والراديكاليين مع اميركا ، هو أن التقليديين لم ينظروا الى الولايات المتحدة كعدو لا بد من تحييده ، بل اعتبروه ، ولا يزالون يعتبرونه ، حليفا تربطهم به علاقات طويلة راسخة الجذور ، ونظروا الى السوفيات كخصم ، بينما اعتبر الراديكاليون السوفيات حليفا استراتيجيا ينبغي تمتين العلاقة معه الى ابعد حد ، ونظروا الى اميركا كعدو لا بد من السعـــي لتحييده مـــا أمكن . واذا كـــان التقليديون يرفضون التقارب من السوفيات ويقدمون العلاقة مع الولايات المتحدة على اي شيء ، فان الراديكاليين (خلال الحقبة الناصرية واليوم) يقدمون العلاقة مع السوفيات على اي شيء آخر ، ويعتبرون تحييد اميركـــا مهمة ثانية .

والخطير في الامر ، ان مركز الثقل في الوطن العربي (مصر) شهد بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر ظهور اتجاهات تقليدية لا تستهدف تصفية التجربة الناصرية الداخلية فحسب ، بل تستهدف ايضا تصفية انجازات الناصرية على الصعيد القومي الوحدوي، والانعطاف عن الخط الناصري العالمي ، بدفع التحالف مع السوفيات الى المرتبـــة الثانية ، وتقديم التعامل مع الولايات المتحدة الى المرتبة الاولى . ولقد تزايدت قـــوة هذه الاتجاهات في مايو (آيار) ١٩٧١ بعد تصفية الجناح الناصري في الحكم ، ثـــم اخذت شكلا ماديا ملموسا في اخراج الخبراء السوفيات من مصر في تموز (يوليـــو) ١٩٧٢ .

وكان من المفروض ان تسقط حرب تشرين هذه الاتجاهات ، بعد ان ثبتت بشكل عملي الحقائق التالية :

١ ـــ ان الولايات المتحدة لا تكتفي بالغاء الاستقطاب وخروج السوفيات من مصر ، ولكنها تطالب براس حركة التحرر الوطني العربية التي تهدد مصالحها الحيوية التي ازدادت اهميتها بعد ازمة الطاقة العالمية .

٢ ـــ ان اندلاق مصر (بتوجيه من السعودية) على واشنطن ، وقيـــام القاهرة باجتثاث الوجود السوفياتي من الارض المصرية ، لم يؤديا الى اكتساب اميركا ، التي تدمت للعسكرية الاسرائيلية خلال الحرب وبعدها ما ساعدها على استعادة توازنها خلال القتال ، والبقاء على الاراضي العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ .

٣ ـــ ان السوفيات لم يتركوا مصر تجابـــه السلاح الاميركي وحيدة بل ردوا على تموز (يوليو) ١٩٧٢ بتزويد القوات المسلحة المصرية والعربية الاخرى باسلحـــة سمحت للجندي العربي بان يجترح انجازات تشرين .

٤ ـــ ان الولايات المتحدة تفضل اسرائيل على الدول العربية الصديقة او الساعية لان تكون صديقة ، لانها ترى ان اسرائيل دولة مضمونة وقادرة على حماية المصالح الاميركية المتطابقة مع مصالحها ، على حين ان الدول العربية (الصديقة) غيـــر مضمونة ، ولا تستطيع على المدى البعيد تأمين المصالح المتناقضة مع مصالح الجماهير العربية (مصالح الناهبين ومصالح المنهوبين) .

ولكن هذه الحقائق لم تكن كافية لمنع الانجراف نحو اميركا (الهوى اقوى مـــن العقل) ، لذا استمر توجه السياسة المصرية على خط التقارب مع واشنطن والثقـــة بها والتباعد عن السوفيات ومهاجمتهم ، الامر الذي ادى في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ الى توقيع اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء ، وانتقال مركز الثقل العربـــي من معسكر العرب الراديكاليين الى معسكر العرب التقليديين . ولقد تم كل ذلك باسم السياسة المتوازنة بين واشنطن وموسكو ، والغاء الاستقطاب الدولي في المنطقة ، واعادة الصراع العربي ـــ الاسرائيلي الى مستواه المحلي ، وتحرير الارادة السياسية العربية من التحديدات التي فرضتها عليها الاستراتيجية السوفياتية العليا . مع ان الغاء الاستقطاب لا يخدم سوى الولايات المتحدة واسرائيل ، لانه يحرم المعسكـــر العربي من دعم الحليف الاستراتيجي (مع ان القسم الاكبر من الاراضي العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ لا يزال يرزح تحت الاحتلال الاسرائيلي) ، دون ان يؤدي الى فصل التحالف الاميركي ـــ الاسرائيلي ، نظرا لقوة هذا التحالف واستناده الى قوى لا يستهان بها داخل الولايات المتحدة . ويجعل المعسكر العربي وحيدا ومجردا من السلاح امام الدولة الصهيونية التي دعم الاميركيون قوتها العسكرية الى الحد الذي جعلها تبقـــى على الاراضي المحتلة عامين اخرين بعد حرب ١٩٧٣ ، وشجعها على العودة الـــى سياسة التهويد والردع ، ومحاولة التحكم بالمصائر السياسية لدول المنطقة (احداث لبنان) .

المصالح الاميركية والمصالح السوفياتية

يقول انصار الابتعاد عن الاتحاد السوفياتي لالغاء الاستقطاب ، ان السوفيات لم يقدموا لنا الدعم الا لتأمين مصالحهم . ولا يمكن للعرب ان يربطوا مسيرتهم النضالية بمصالح دولة عظمى لا يستطيعون التأثير على استراتيجيتها السياسية . ويمكن ان

نقسم هذه المقولة الى شقين : اولهما ان للسوفيات مصالح هامة في المنطقة وهم يسعون الى تأمينها بمختلف الوسائل ، والثاني ، العلاقة بين المسيرة النضالية العربية والمصالح السوفياتية . وسنناقش هذين الشقين كل على حدة .

ان لكل دولة عظمى مصالح حيوية تسعى الى تحقيقها . هذا امر طبيعي ينطبق على جميع الدول في مختلف العصور . بل ان وعي الدول بمصالحها ، وسعيها الدائب لتحقيقها ، هو الذي يجعل منها دولا تستحق هذا الاسم ، ويؤهلها لان تكون دولا عظمى ، اذا ما توفرت لها العوامل المادية والمعنوية الضرورية لبناء الدول العظمى . ومن الطبيعي ان يكون للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في عصر القطبية والعملقة مصالح في كل بقعة من بقاع العالم ، كما ان من الطبيعي ان تسعى هاتان الدولتان لتحقيق مصالحهما ، وان يحصل بينهما احتكاك في مناطق المصالح المشتركة ، ومن بينها الشرق الاوسط .

ولتحديد موقف الامة العربية من مصالح الدولتين العظميين ينبغي اولا وقبل كل شيء معرفة طبيعة هذه المصالح ، وتحديد مدى تطابقها او تعارضها مع مصالح الجماهير العربية .

ان مصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط هي : ١ — تأمين استمرار نهب الثروة العربية ، والثروة البترولية بشكل خاص ، ٢ — تطويق الاتحاد السوفياتي بأنظمة معادية للسوفيات ايديولوجيا ، ٣ — تأمين السيطرة المباشرة او غير المباشرة على النقاط الاستراتيجية الهامة جنوبي الاتحاد السوفياتي وعلى خط سير النفط من منابعه الى اوروبا الغربية . وتتطابق هذه المصالح مع مصالح اسرائيل الراغبة في المشاركة بنهب الثروة العربية وتحقيق الحلم الصهيوني التوسعي عن طريق الامتداد حتى النقاط الاستراتيجية المسيطرة على خط سير النفط . بينما تتعارض المصالح الاميركية نفسها مع مصالح الامة العربية التواقة الى تحقيق استقلالها الاقتصادي ، واستعادة سيطرتها على ثرواتها ، وتصفية كل اشكال السيطرة الاجنبية على الارض العربية . الامر الذي يجعل التحالف الاسرائيلي — الاميركي والتناقض العربي — الاميركي قضية محتومة ، حتى اذا قام العرب بانهاء الاستقطاب ، لان المصالح الاميركية الخاصة باستمرار استغلال الثروة العربية ستبقى متطابقة مع مصالح اسرائيل ومتناقضة مع مصالح الجماهير العربية .

والى جوار المصالح الاميركية فان للسوفيات في المنطقة مصالح أيضا ، ولكنها ذات طبيعة مختلفة اختلافا جذريا . وتتلخص في دعم حركة التحرر الوطني العربية ، وزيادة قوتها ، ومساعدتها على الصمود امام الضغط الاميركي ، وتحرير الثروات العربية من قبضة الاحتكارات الراسمالية العالمية ، وتحرير الارض العربية من كل اشكال السيطرة ، لان نجاح حركة التحرر الوطني العربية في تحقيق هذه الاهداف ، سيكون بالضرورة على حساب مصالح الولايات المتحدة ومواقعها في الشرق الاوسط. وسيؤدي بالتالي الى اضعاف القوة الاميركية بشكل عام وفي الشرق الاوسط على وجه التحديد .

وينطلق السوفيات من تحديد مصالحهم في المنطقة ، وفي بقاع اخرى من العالم ، من منطلق ان كل خسارة تتعرض لها الولايات المتحدة ، وكل تقلص لنفوذها وامتداداتها ، يشكل ربحا غير مباشر لموسكو، ويؤثر على موازين القوى السوفياتية — الاميركية ، لا عن طريق الحصول على مكاسب تضاف الى كفة السوفيات ، بل عن طريق اقتطاع جزء من وزن القوة الاقتصادية — العسكرية الموجودة في كفة الاميركيين، وانتقال هذا الجزء الى اصحابه الشرعيين . وكلما تزايد وزن الاجزاء المقتطعة

من القـوة الاميركيـة والمستعادة من قبـل اصحابها العرب ، كلما زاد اختـلال موازين القوى السوفياتية ــ الاميركية لصالح موسكو . ومن هنا نرى ان المصالح السوفياتية تتطابق مع مصالح حركة التحرر الوطني العربية ومصالح الجمـاهير العربية ، وتتعارض بالتالي مع مصالح دولة الكيان الصهيوني .

والخلاصة : ان الاستقطاب في الصراع العربي ــ الاسرائيلي امر فرضته طبيعـة القوى المحلية المتصارعة ، وجعلـه التحالف المصلحـي بين اسرائيل والمعسكر الامبريالي ــ الراسمالي امرا محتوما .

وكل محاولة عربية للتهافت على الولايات المتحدة ، تحت لواء اتباع سياسة متوازنة بين المعسكرين ، لا يمكن ان تؤدي الا الى تحويل الاستقطاب المزدوج الى استقطاب من جانب واحد (اميركا واسرائيل) ، وضياع الدعم السوفياتي (اللازم في النضال العربي العسكري والسياسي ، والذي استطاعت حركة التحرر الوطني العربيـة بفضله تدعيم مواقعها خلال عشرين عاما) دون التوصل الى فصل الولايات المتحدة عن اسرائيل ، لان اميركا لا يمكن ان تعمل ضد مصالحها ولا ان تتخلى عن الحليـف الموثوق الذي يعمل كفرقة اجنبية وراء البحار لضمان هذه المصالح بتكاليف محدودة .

ويطرح منظرو الخط المصري ــ السعودي فكرة « تيونة » (Taiwanisation) اسرائيل . ويرون ان هذه « التيونة » ممكنة اذا اقتنعت واشنطن بان الدول العربية مستعدة لتأمين المصالح الاميركية وقادرة على ذلك اكثر من اسرائيل . ولكن هـذه « التيونة » تتطلب ، كما تقول الفكرة ، قناعة الاميركيين بان الانظمة العربية التقليدية ثابتة ومستقرة وقادرة على الصمود امام المد الجماهيري المعـادي للاستعمـار والاستغلال . وهذا امر لم تتوصل اليه الادارة الاميركية حتى الان . والاخطر مـن ذلك ، هو ان « التيونة » تتطلب تأمين المصالح الاميركية ، ومن بينها ضرب حركـة التحرر الوطني العربية ، واستمرار النهب الامبريالي للثروة العربيـة ، وترسيخ السيطرة الاميركية على النقاط الحساسة اللازمة لتدفق النفط من منابعه الى أوروبا . اي تصفية كل انجازات النضال الجماهيري خـلال ٣٠ عاما ، والعودة بالمنطقة الى مرحلة ما قبل الناصرية ، مع استبدال العلمين الفرنسي والبريطاني بالعلم الاميركي .

وهكذا نرى ان « التيونة » التي يلاحقها منظرو الخط المصري ــ السعـودي وانصار التقارب مع اميركا ، ستؤدي في حالة نجاحها (وهذا امر مستبعد لاسبـاب تتعلق بانعدام الثقة وبقوة الصهيونية داخل اميركا) الى سقوط المنطقة من جديـد بيد المعسكر الاستعماري ــ الراسمالي ، واستخدام الحراب العربية التقليدية بدلا من الحراب الاسرائيلية ، لعرقلة حركة الجماهير العربية نحو الوحـدة والتحـرر والازدهار .

ان الغاء الاستقطاب عمل خطير النتائج في حالة فشله او نجاحه . فهو مدخل الى الاستقطاب احادي الجانب (في حالة فشله) ، ومدخل الى الوقوع ثانية في قبضـة الولايات المتحدة واحتكاراتها (في حالة نجاحه) . وهذا ما يؤكده التحليل العلمـي لمعسكر الاعداء ومصالحهم وتحالفاتهم وادوارهم ، كما يؤكده التحليل العلمي لثورات العصر التي وعت معادلة الاستقطاب الدولي ، فدعمت علاقاتها مع المعسكر المعادي للاستعمار ، وتعاملت مع الولايات المتحدة على اساس انه العدو الرئيسي الاكثـر خطورة ، وتعاملت مع الخصوم المحليين كاعداء مباشرين ، وكامتداد ضارب للقطب الامبريالي العالمي .

الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية من سابير الى الموجي

يوسف حمدان

عقدت اللجنة التنفيذية الصهيونيــة اجتماعها السنوي بتاريخ ١٩٧٦/١/٥ في مدينة القدس . وهذه اللجنة هي احد جهازين في المنظمة الصهيونية العالمية ينتخبهما المؤتمر الصهيوني العالمي ، وهما الادارة الصهيونية واللجنة التنفيذية الصهيونية ، التي نتخب بدورها رئيس الادارة الصهيونية . ومنذ اربع سنوات اصبح منصب رئيس الادارة الصهيونية هو صاحب اعلى منصب في الحركة الصهيونية ، واصبح في الوقت نفسه يشغــل منصــب رئيس ادارة الوكالة اليهودية . فحتى عام ١٩٧١ كان ناحوم غولدمان يشغــل منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، ولكن في تلك السنة اعيد بناء الوكالة اليهودية حيث تم ، بموجــب اتفاق مع المنظمة الصهيونية العالمية ، ضم الجباية اليهودية الموحدة في الولايات المتحدة ، ومنظمات الجباية في باقي دول الغرب (كيرن هيسود) الى « الوكالة اليهودية الموسعة » ، واصبــح اريه بنكوس رئيسا للادارة الصهيونية ولادارة الوكالة اليهودية ، وبعد وفاة بنكوس عام ١٩٧٣ ، اصبــح اريــه دولتسين ، وهو مسؤول المالية في ادارة المنظمــة الصهيونية والوكالة اليهودية ، رئيسا بالوكالة الى ان انتخب بنحاس سابير رئيسا للادارتين في حزيران ١٩٧٤ . وبعد مرور اكثر من عام على تولي سابير الرئاسة ، توفي في آب (اغسطس) ١٩٧٥ ، فأصبح اريه دولتسين مرة اخرى رئسا بالوكالة ، ولكنــه في هذه المرة اعلن عن ترشيــح نفسه لانتخابات الرئاسة ، الامر الــذي لم يفعله عندما رشح سابير نفسه في المرة الماضية . وقد فعل ذلك مع انه لا ينتمي الى « الحزب الصحيح » فهو من حزب الاحرار التابــع لتكتل ليكود المعارض . اما منافسه يوسف الموجي نائب حزب العمل فقد ضمن استمرار زعامة حزبــه التقليدية في الحركة الصهيونية ــ منذ ٤٠ عاما ــ عندما فاز على منافسه في اجتماع اللجنة التنفيذية الصهيونية المذكور ، واصبح خلفا لسابير في رئاسة ادارة المنظمة الصهيونية العالمية وادارة الوكالة اليهودية .

سابير رفض الحكومة وقبل الوكالة اليهودية

كانت شخصية بنحاس سابير مثيرة للجدل لدى الاسرائيليين عندما احتل وزارة المالية لفترة طويلة في الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة ، وكذلك بعد ان تخلى عــن الوزارة واصبــح رئيسا للادارة الصهيونية والوكالة اليهودية ، واستمر هذا الجدل بعد وفاته . مع ذلك يعتقد الكثيرون ان سابير كان « الرجل القــوي في الدولة منذ

اعتزل دافيد بن غوريون العمل السياسي(١) » . وكان من ابرز قادة حزب مباي ، واصبح زعيم حزب العمل بعد انشائه في عام ١٩٦٨ من مباي واحدوت هعفودا ورافي . أقترن اسمه بالاقتصاد الاسرائيلي واعتبر ماهرا في جمع الاموال ومؤسسا للصناعة الاسرائيلية . كان دائما عرضة للنقد والتهجم وفي نفس الوقت كان منتقدا ومتهجما قاسيا . وقد وصفه احد النواب مرة قائلا « ان سابير عندما يريد مهاجمة احد ، فانــه لا يجر ضحيته الى البحر ليغرقها فيه . ولكنه يحمل البحر الى الضحية ويصبه على رأسها(٢) ! »

ولعل قوة سابير هذه هي التي انقذته من السقوط بعد حرب تشرين عندما سقط ديان وغولدا مئير وغيرهما من الزعماء العتاق . بل انه عندما سقطت اخر حكومة لغولدا مئير في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ــ وكان هو ايضا وزير المالية فيها ــ اقترح عليــه ان يشكــل الحكومة الجديدة بنفسه ، فرفض . ويقال انه هو شخصيا كان وراء فوز اسحق رابين برئاسة الحكومة الجديدة ، ومن الواضح ان وقوفه العلني الى جانبه حسم المنافسة بين اسحق رابــين وشمعون بيرس لصالــح الاول . وواصل سابير دعمه لرابين الذي لم يتمتــع بمركز قوي في حزبه وتمكن قبل وفاته من تحسين وضعـــه في هذا الحزب .

وعندما رفض سابير تشكيل الحكومة او الاشتراك فيها ، اثار ذلــك بعض الاستغراب ، ولكن وفاته المفاجئة في آب (اغسطس) ١٩٧٥ اعطت تفسيرا كافيا لموقفه اذ بدا انـــه اراد مقدما تجنيب حكومة حزبه فراغا قد يخلق مشاكل صعبة في ظروف دقيقة . وكان من الطبيعي ان تتجه الانظار اليه لشغل منصب هام شاغر هو ادارة الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية . نظرا لعدة عوامل :

١ ــ حرب تشرين شكلت ضربة قاسية بالنسبة لاسرائيل والحركة الصهيونية وبرزت صيحات استنجاد في اسرائيــل بالاوساط الصهيونية واليهودية في الخارج وخاصة في الولايات المتحدة ، والغرب بشكل عام . وقد اصبحت هناك حاجة ملحة لتلقي الدعم المالي بعد ان التهمت تكاليف الحرب وحدها اكثر من مجموع الميزانية الاسرائيلية لتلــك السنة . واصبحت هناك حاجة ماسة لاعـــادة الثقة المهتزة باسرائيل لدى يهود العالم ودفـــع اكبر عدد ممكن للهجرة اليها ، خاصة وان احد الضباط الاسرائيليين صرح في كاليفورنيـــا بعد الحرب ، ان تلــك الحرب كلفــت اسرائيل جيلا كاملا من الشباب . واصبح من الضروري استخدام القوة الاقتصادية والسياسية ليهود العالم في مواجهة المعركة الاقتصادية والسياسية العربية . كل ذلك كان يتطلب رجلا على رأس الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية يكون قويا في اسرائيــل ، وله علاقات وثيقة مع يهود الغرب وخبيرا متمرسا في جمع التبرعات مثل بنحاس سابير .

٢ ــ كان هذا المنصب شاغرا منذ وفاة اريه بنكوس ، وكان يشغله بالوكالة اريه دولتسين وهو ليس من حزب العمل بل من حزب الاحرار الذي كان يشكل مع حيروت حزب جاحل والذي شكل فيما بعد مع غيره من الاحزاب اليمينية كتلة ليكود المعارضة .

٣ ــ الجناح العمالي في الحركة الصهيونية تزعم المنظمة الصهيونية العالميـــة والوكالة اليهودية باستمرار منذ عام ١٩٣٥ . وكان الجناح اليميني منافسا قويـــا يحاول تزعمها باستمرار دون نجاح . وكان من المستبعد ان يتخلى حزب العمل عن

زعامة الحركة الصهيونية لانه ، اولا : لا يملك اكثرية بين الاتحادات الصهيونية التي تشكل المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ولذلك من المهم جدا ان يحتفظ بالزعامة . ثانيا : الحكومة الاسرائيلية تحافظ على علاقات وثيقة بالمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية . وبما ان حز بالعمل هو الحزب الحاكم فلا يمكنه ان يتخلى عن رئاسة ادارتي المنظمة والوكالة لحزب معارض . خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار أن الوكالة اليهودية تمول الاحزاب الاسرائيلية ، وتمول بالتنسيق مع الحكومة مشاريع مثل الاستيعاب والهجرة والاسكان والتعليم والشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الامور التي تشرف عليها وزارات الحكومة .

٤ — كان بنحاس سابير ، ليس فقط ابرز قادة كتلة مباي في حزب العمل بل اعتبر زعيما لحزب العمل نفسه . واكثر من ذلك : ا تبر « رجل الدولة القوي » الذي له اوثق العلاقات مع الزعامات الصهيونية والبر ودية في الخارج بحكم كونه وزيرا للمالية لفترة طويلة . لقد سماه بعض الاسرائيليين « الجرافة » التي لا يقف فيوجهها احد . وفعلا عندما اعلن عن ترشيحه لرئاسة ادارة الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية اعلن اريه دولتسين : « كنت انوي خوض الانتخابات [عام ١٩٧٤] ولكن عندما اعلن ترشيح سابير سحبت انا ترشيحي »(٣) وهكذا توجه سابير الى رئاسة الادارتين في المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية بدون منافسة .

نجاح في جمع الاموال وفشل في جمع اليهود

منذ انتخابه وحتى وفاته ، اشترك بنحاس سابير في اجتماعين لادارة الوكالة اليهودية وفي اجتماع واحد للجنة التنفيذية الصهيونية .

ففي حزيران (يونيو) ١٩٧٤ وفور انتخابه القى سابير الخطاب المركزي في اجتماع ادارة الوكالة اليهودية ، وكذلك في اجتماع اللجنة التنفيذية الصهيونية . وفي المناسبتين وعد سابير الحضور وعودا كبيرة . فمثلا قال بانه سيعمل على جلب ١٠٠ الف مهاجر في السنة الى اسرائيل(٤) . ووعد كذلك بتعميق الثقافة الصهيونية لدى اليهود بهدف تشجيع الهجرة ، وبتوسيع الجبايات اليهودية وغير ذلك .

وبعد مرور سنة على توليه المنصب وقبل وفاته بحوالي شهرين اشترك سابير في اجتماع ادارة الوكالة الصهيونية الذي عقد في القدس بتاريخ ٧٥/٦/١٦ ، وكان ابرز ما قاله في خطابه هو انه مرتاح بالنسبة للاموال التي تجمعها الوكالة اليهودية بواسطة الجبايات ، ولكنه غير مرتاح بالنسبة للهجرة اليهودية الى اسرائيل .

فبالنسبة لجمع الاموال قال سابير ان الجباية اليهودية الموحدة (وهي العاملة في الولايات المتحدة ، ومنضمة الى الوكالة اليهودية منذ عام ١٩٧١) جمعت خلال السنوات الخمس الماضية ما يلي(٤) :

في ١٩٧٠ : ١٨١ مليون دولار
١٩٧١ : ٢٥١ مليون دولار
١٩٧٢ : ٢٣٤ مليون دولار
١٩٧٣ : ٤٧٦ مليون دولار
١٩٧٤ : ٢٢٢ مليون دولار
١٩٧٥ : ٣٠٠ مليون دولار نقدا

[بالاضافة الى ما قيمته ٥٥٠ مليون دولار بالسندات]

واما جباية صندوق التاسيس (كيرن هيسود) وهي الجبايات اليهودية العاملة خارج الولايات المتحدة (ومنضمة ايضا الى الوكالة اليهودية منذ العام ١٩٧١) فقد جمعت ما يلي(٦) :

في ١٩٧٠ : ٧٥ مليون دولار

١٩٧١ : ٦٧ مليون دولار
١٩٧٢ : ٦٣ مليون دولار
١٩٧٣ : ٣٠٠ مليون دولار
١٩٧٤ : ١٦٢ مليون دولار
١٩٧٥ : ١٧٥ مليون دولار .

اما بالنسبة للهجرة فقد اكد سابير في الاجتماع ان اسرائيل تعاني « ازمة خطيرة » في هذه الناحية . واعطى الارقام التالية عن الهجرة في السنوات الثلاث الماضية(٧) :

في سنة ١٩٧٣ : ٥٥٠٠٠ مهاجر

١٩٧٤ : ٣٢٠٠٠ مهاجر

في الثلث الاول من ١٩٧٥ : ٧٠٠٠ مهاجر فقط

واعلن سابير ان الهجرة في النصف الاول من عام ١٩٧٥ ، بلغ مجموعها نصف عدد المهاجرين في الفترة المقابلة من عام ١٩٧٤ ، ودعا ادارة الوكالة اليهودية الى ان « مهمتها الاساسية هي البحث عن وسائل لدعم الهجرة ... ان اسرائيل لن تتمتع بالامن والسلام طالما عاش فيها ٣ ملايين يهودي فقط . ويجب ان يصبح هذا العدد ٦ ملايين خلال ٢٥ سنة »(٨) .

ودعا سابير ايضا في الاجتماع نفسه الوكالة اليهودية للعمل على دعم ١٢٥ مستوطنة زراعية حيث ان ٣٢٠ مستوطنة فقط من بين ٥٠٠ مستوطنة زراعية اقيمت منذ انشاء اسرائيل وصلت الى طور الثبات . وركز على وجوب اقامة مستوطنات جديدة « وبسرعة في الجليل والنقب »(٩) ودعا ايضا الى تعميق التعليم اليهودي لدى الجاليات اليهودية وخاصة في الولايات المتحدة واميركا اللاتينية « ازاء خطر اندماج جيل كامل وفقده كل صلة مع الشعب اليهودي»(١٠)

ان الوكالة اليهودية تضم المنظمات الصهيونية وكذلك الجمعيات اليهودية غير الصهيونية والمؤيدة لاسرائيل ، وتطمح لان تكون « برلمان اليهود » وتحاول بذلك كسب الدعم المادي والمعنوي من اليهود بدون ان ينخرطوا في الحركة الصهيونية . وبحكم كونها كذلك ، تحاول تجنب الصراعات الحزبية . ومع ذلك عقد رجال حزب حيروت في يوم افتتاح اجتماع جمعيتها العمومية (المؤلفة من ٣٠٠ مندوب و١٠٠ مراقب من اسرائيل ويهود العالم) مؤتمرا صحفيا في ٧٥/٦/١٦ وطالبوا سابير بالاستقالة « لانه فشل في موضوع الهجرة فشلا ذريعا »(١١) فرد سابير قائلا ان اعضاء حيروت لا يمثلون الا نسبة ضئيلة في جمعية الوكالة اليهودية . وقال بعد ذلك في مقابلة مع مجلة الجيش الاسرائيلي (١٢) انه يخالف بن غوريون الرأي عندما قال ان « الصهيوني هو من يهاجر الى اسرائيل » وفي رايه ان الصهيوني هو كل من يعتقد بأهمية الهجرة

وبدون ذلك ستكون الحركة الصهيونية صغيرة جدا . والحركة الصهيونية مهمة ليس فقط بالنسبة للهجرة بل ايضا بالنسبة للتأييد لاسرائيل ولتنظيم المظاهرات وجمع الاموال . وشدد سابير على ان الهجرة لها علاقة قوية بالتربية الصهيونية واليهودية التي تواجه ازمة ، بل ومعدومة في بعض البلدان . ودعا الى مواجهة النزوح من اسرائيل من جهة ، والى شن حملة من اجل الهجرة من جهة ثانية ... « يجب ان نقول لليهود ان مسألة الهجرة هي مسألة وجود اسرائيل » .

ويبدو ان سابير تعلم في منتصف عام ١٩٧٥ من خطأه في منتصف عام ١٩٧٤ ، فبدلا من ان يقول : سنعمل على جلب ١٠٠ الف مهاجر في السنة قال في هذه المرة : « اننا في حاجة الى هجرة ٥٠ — ٦٠ الف مهاجر في السنة »(١٣) .

لكن سابير لم يعش ليرى فيما اذا كانت طموحاته حول الهجرة ستتحقق ، او بعبارة اصح ، لم يعش ليرى انه حتى بعد ان قلص طموحه الى النصف خاب امله في هذه المرة ايضا . ففي آب (اغسطس) ١٩٧٥ توفي بنحاس سابير بصورة مفاجئة . وبعد وفاته باشهر قليلة ذكرت احصائيات وزارة المالية الاسرائيلية انه في الاشهر العشرة الاولى من عام ١٩٧٥ هاجر الى اسرائيل ١٦,٨٠٠ مهاجر ، في حين ترك اسرائيل ٢٠,٠٠٠ مهاجر (١٤) !

حزب العمل لا يتخلى عن المنصب

بعد موت سابير اصبح اريه دولتسين مرة اخرى رئيسا بالوكالة للادارة الصهيونية وللوكالة اليهودية . وفي هذه المرة اعلن بعد ايام من وفاة سابير انه سيرشح نفسه لانتخابات الرئاسة . واوضح انه في المرة السابقة (اي بعد وفاة اريه بنكوس) أراد ترشيح نفسه عندما قيل ان ابرهام هيرمان (رئيس الجامعة العبرية وسفير سابق في واشنطن) سينافسه على المنصب . وفقط عندما اعلن ترشيح سابير عدل عن رايه . واما في هذه المرة « ... فمن يريد كرسي الرئاسة يجب ان ينافسني وان يثبت انه يستطيع شغل المنصب افضل مني ... سوف اهتم بجمع الاموال والهجرة والاستيعاب وخاصة الهجرة من الاتحاد السوفياتي ... لا يوجد اي تناقض بين كوني فيحزب معارض وكوني رئيسا للادارة الصهيونية والوكالة اليهودية »(١٥) .

في نفس الوقت تبين ان حزب العمل يصر على عدم التخلي عن زعامة الحركة الصهيونية والمشكلة الوحيدة امامه هي اختيار الرجل المناسب والقوي الذي يستطيع ان يملأ الفراغ الذي تركه سابير . واثناء البحث عن مرشح من حزب العمل طرحت عدة اسماء كان ابرزها :

* ابا ايبن ، وزير الخارجية السابق . فحزب العمل رأى به الشخص المناسب . فهو مثل سابير لم يسقط بعد حرب تشرين ولكنه رفض الاشتراك في حكومة رابين . وحافظ على مكانته في اسرائيل ولدى يهود الغرب وخاصة في الولايات المتحدة . ولكن عندما اقترح عليه ان يتنافس على شغل المنصب (خاصة وان دولتسين قد يتنازل عن منافسته كما فعل مع سابير) رفض ايبن الاقتراح . ولعل من اسباب ذلك ما يلي :

١ — ايبن يرى نفسه نشيطا في ميدان السياسة الداخلية ، فهو رئيس « بيت بيرل » المقر النظري لحزب العمل ويعتقد ان موت سابير ترك فراغا في زعامة حزب العمل وانه — اي ايبن — سيتمكن من شغل هذا الفراغ ليصبح زعيما للحزب (١٦) .

٢ ــ رئيس الوكالة اليهودية والادارة الصهيونية يجب ان يكون على علاقة وثيقة مع الحكومة الاسرائيلية ولكن هناك تنافر بين ايبن ورئيس الحكومة رابين . وقد بدا هذا التنافر منذ كان رابين سفيرا في واشنطن وايبن وزيرا الخارجية .

٣ ــ يعتقد ابا ايبن ان الوضع في اسرائيل سيؤدي الى اجراء انتخابات عامة ان اجلا او عاجلا ، وقد يتمكن بواسطتها من الفوز برئاسة الحكومة او على منصب وزير كبير فيها ، على الاقل (١٧) .

* موشي ديان ، وزير الدفاع السابق . فمع انه كان « ضحية » لحرب تشرين اعتقد البعض انه ما يزال يتمتع بمكانة هامة وسمعه طيبة لدى يهود الغرب . وانه زعيم يستطيع الهاب حماس الشباب اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين(١٨) . ولكن ديان ايضا رفض المنافسة على المنصب ، فهو ايضا خصم متربص لرابين ويطمح في العودة الى القمة على صعيد السياسة الداخلية .

* اسحاق نافون وهو بالاضافة الى مناصبه الاخرى رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية . رفض بدوره المنافسة على المنصب بسبب طموحاته في ميدان السياسة الاسرائيلية الداخلية خاصة وانه يعتقد انه ما يزال شابا (١٩) .

وبالاضافة الى هؤلاء طرحت اسماء مثل ابرهام هيرمان واسحاق بن اهرون ويغئال يادين . ولكن الاختيار وقع على رجل آخر هو يوسف الموجي نائب حزب العمل ورئيس بلدية حيفا ووزير العمل سابقا ، وقد تم ترشيحه نظرا لاعتبارات فيما يلي اهمها :

١ ــ يعتبر يوسف الموجي رجلا قويا في حزب العمل ، لدرجة ان اسحاق رابين حاول ادخاله في حكومته بعد اشهر من تأليفها بهدف تقوية حكومته الضعيفة امام انتقادات المعارضة القوية .

٢ ــ على العكس من ايبن وديان تربط الموجي برئيس الحكومة علاقات طيبة وترشيحه لن يثير خلافات داخل حزب العمل كما كان سيحدث في حال ترشيح ديان او ايبن .

٣ ــ للموجي علاقات طيبة مع وزير المالية يشعياهو رابينوفتش الذي يقيم علاقات وثيقة مع الوكالة اليهودية بحكم منصبه . وله ايضا علاقات طيبة مع اسحاق نافون رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية . وحصل ايضا على تأييد غولدا مئير رئيسة الحكومة السابقة التي ما تزال تحافظ على مكانة مرموقة في حزب العمل (٢٠) .

٤ ــ الموجي لم يكن راضيا عن منصبه كرئيس لبلدية حيفا وابدى تحمسا لشغل المنصب المقترح وهو بالاضافة الى ذلك « يعرف الشعب اليهودي جيدا . ففي عام ١٩٤٦ اوفد الى الجاليات اليهودية في اميركا اللاتينية ومنذ ذلك الوقت يسافر الى هناك كل سنة . وفي عام ١٩٥٢ اوفد لاول مرة الى الجاليات اليهودية الناطقة بالانجليزية ومنذ ذلك الوقت اصبح مرغوبا فيه جدا هناك ، وقد حدث ان ذهب لزيارة جاليات يهودية ١٤ مرة في سنة واحدة ... وقد اثبت قدرة فائقة على جمع الاموال »(٢١) .

هكذا تم ترشيح يوسف الموجي وجرت منافسة حادة بينه وبين اريه دولتسين ،

الذي ادرك خطورة منافسه فكثف جهوده مدعوما بحركته الممثلة في المنظمة الصهيونية وبحزبه في البرلمان الاسرائيلي وقد لجأ في معركته هذه الى عدة اساليب منها :

* كثف جهوده لدى الزعماء اليهود في خارج البلاد .وبعد قرار ادانة الصهيونية كحركـة عنصرية دعا الـى عقد مؤتمر صهيونـي عالمي طارىء في القدس بهدف « التصدي » للقرار ومع انه دعا الى المؤتمر نواب ووزراء اسرائيليين لم يكن الموجي بالذات مدعوا لحضور المؤتمر .

* طلب بواسطة حركته تأجيل الانتخابات فبدلا من ان يجري الاقتراع فـي اجتماع اللجنة التنفيذية المقرر في ٧٦/١/٥ يتم الاقتراع اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في كانون اول (ديسمبر) ١٩٧٦ . وكان هدفه من ذلك ، تعزيز مكانته كرئيس بالوكالة في الادارة الصهيونية وفي الوكالة اليهودية خلال اطول فترة ممكنة . ولكـن محكمة المؤتمر الصهيوني قررت في ٧٦/١/٥ انه لا يجوز ارجاء انتخاب رئيس الادارة الصهيونية لا باغلبية عادية ولا باغلبية الثلثين (٢٢) .

مع ذلك كان من المعروف مقدما ان يوسف الموجي مدعوم بقوة سياسية هائلة . فيقف وراءه التجمع العمالي الذي يكوّن العمود الفقري في الحكومة ، ذات التأثيـر القوي والمباشر على المؤسسات اليهودية . وكان معروفا منذ البداية ان « انتخاب الموجي سيكون نتيجة لرغبة حزب العمل في المحافظة على سيطرته على المؤسسات ذات التأثير في وضع السياسة وتوزيع الموارد لاسباب ايديولوجيـة وعملية في آن معا »(٢٣) وكان واضحا ايضا ان تكتل ليكود يريد ان يفوز دولتسين بهدف وضع حد لسيطرة حزب العمل التقليدية على المؤسسات الصهيونية واليهودية المؤيدة لاسرائيل وكان يريد ان يحتلها هو ليحظى بالشرعية السياسية الكاملة .

فوز الموجي : تجديد ام تكريس ؟

بعد ان رفضت محكمة المؤتمر الصهيوني اقتراح حركة الصهيونيين العموميين (وهي الممثلة في المنظمة الصهيونية العالميـة والتي انبثق منها حزب الاحرار فـي اسرائيل) بتأجيل الانتخابات ، اجتمعت اللجنة التنفيذية الصهيونية في ٧٥/١/٥ . وفي اليوم التالي اقترع اعضاء اللجنة وعددهم ١١٠ اعضاء ، فصوت الى جانب يوسف الموجي ٦٧ عضوا والى جانب اريه دولتسين ٤٢ عضوا وامتنع عضو واحد عـن التصويت . بهذا اصبح يوسف الموجي رئيسا للادارة الصهيونية . وكان من المقرر ان يتنافس مع دولتسين في حزيران (يونيو) القادم على رئاسة ادارة الوكالة اليهودية حيث ستجتمع في ذلك الوقت . ولكن اريه دولتسين بعد ان رأى نتيجة الانتخابـات قام وحيىّ منافسه المنتصر ، واعلن انه ينسحب من المنافسة على رئاسة ادارة الوكالة اليهودية . وبذلك اصبح الموجي رئيسا لادارة الوكالة اليهودية ايضا منذ الان . على اثر ذلك وقف الموجي وشكر منتخبيه قائلا : « هنا في هذا المساء اقسم بشرفي ان ابذل كل ما في وسعي من اجل تعميق النشاط الصهيوني . وتعميق الوحدة اليهودية وللقيام بأعمال كبيرة خدمة للشعب اليهودي . انني اؤمن ان كل واحد منا يمثل ٥ر١٤ مليون من اليهود في العالم وسنعمل معا في هذه المرحلة لنتجاوز شتى المصاعب » (٢٤) .

وبالاضافة الى انتخاب الموجي ، قدمت اللجان الفرعية المختصة مشاريـع قرارات الى اللجنة التنفيذية الصهيونية . فلجنة الهجرة والاستيعاب اوصت باقامة هيئة مركزية تعالج مشكلة النزوح من البلاد وبوضع هذه المشكلة على رأس سلـم

الاولويات . ولجنة التعليم والشباب اوصت باقامة خلايا جديدة للاستيطان في « ارض اسرائيل » اي في كل فلسطين المحتلة . واعلنت لجنة النشاطات السياسية والاعلام الخطوط التي تعمل على اساسها حكومة اسرائيل . وطالبت كتلة حيروت بتدريس تاريخ المنظمات الارهابية الصهيونية مثل ايتسل وليحي بالاضافة الى تدريس تاريخ الهاغنا والبلماح المعمول به . كما وكان من بين التوصيات التي قدمت الى اللجنة التنفيذية الصهيونية عقد مؤتمر عالمي للشباب اليهودي في القدس ، واخر للنساء اليهوديات بهدف تقوية العلاقة بين يهود العالم واسرائيل .

يبدو ان الموجي الذي يعي الصعوبات والتحديات التي تواجهها الحركة الصهيونية اليوم ، تعلم من خطأ سلفه سابير فلم يطلق تصريحات طموحه اكثر من اللازم ، لم يعد يجلب ١٠٠ الف مهاجر ، ولم يعد بتحويل اعداد كبيرة من اليهود الى صهيونيين . واكتفى بالوعد انه سيعمل كل ما في وسعه لخدمة اسرائيل و « الشعب اليهودي » . فهو يعلم ان نجاحه ونجاح الحركة الصهيونية التي اصبح زعيما لها ، او فشلهما لن تقرره قوته او ضعفه هو شخصيا ، بل تقرره اساسا أوضاع الحركة الصهيونية والكيان الصهيوني المتمثل باسرائيل ، واوضاع القوى المعادية لاسرائيل والحركة الصهيونية . وهنا لا بد من الوقوف عند بعض الملاحظات .

١ ــ ادارة الوكالة اليهودية اهم بالنسبة لاسرائيل من الادارة الصهيونية . فالوكالة اليهودية تعالج شؤون جمع الاموال والهجرة والاستيطان والتنظيم وغير ذلك . واما الادارة الصهيونية فتعالج شؤون التمثيل والتربية والاعلام الصهيوني والثقافة .

٢ ــ في الوكالة اليهودية ثلاثة اقسام رئيسية : قسم الهجرة ويعتبر فاشلا . قسم الشبيبة الطلائعية ويعتبر فاشلا ايضا « لانه ضحية المفتاح الحزبي »(٢٥) . وقسم الجباية وهو المحور الرئيسي لعمل الوكالة ، ويعتبر ناجحا ، مما يؤكد على ان **العلاقة بين اسرائيل ويهود العالم هي ذات صبغة مالية اساسا** . ويؤكد ذلك ايضا ان الذين تعاقبوا على رئاسة الوكالة اليهودية هم من رجال المال . هكذا كان سابير . وهكذا الموجي . جمع المال « **هو الشيء المسيطر على علاقات اسرائيل باليهود . يوجد متبرعون مهمون في طبقة ضيقة ولكن الشباب اليهودي غير مهتم . فماذا سيحدث عندما سيكون اعتمادنا على اليهود ليس من اجل المال فقط ؟ يجب التركيز على الرابطة اليهودية الصهيونية مع اسرائيل وخاصة بالنسبة لاحتياطي الشباب الذي لا يتوجه بالضرورة لعالم المال . هناك ضعف في الهجرة ، وهناك اندماج في الغرب ... »(٢٦)**

٣ ــ بعد حرب حزيران ١٩٦٧ التي انتصرت فيها اسرائيل شهدت الحركة الصهيونية انتعاشا ملحوظا لدى يهود العالم . وبعد حرب تشرين ١٩٧٣ حدث العكس تماما ، لان اسرائيل فشلت في هذه الحرب . ويكفي للدلالة على ذلك ان نذكر ما اشرنا اليه وهو ان النزوح من اسرائيل عادل تقريبا الهجرة اليها في عام ١٩٧٥ . وهذا امر خطير بالنسبة لتطلعات المشروع الصهيوني وامكانات استمرار وجوده . وهذه الحقيقة تدل على ان اليهود في العالم بشكل عام يعطون اسرائيل اذا كانت « مراهنة رابحه » ولا يعطونها اذا كانت « مراهنة خاسرة » . وقد بين ذلك يوسف غوردون احد قادة الحركة الصهيونية عندما كتب عن انطباعاته عن رحلة في الولايات المتحدة الاميركية ، وروى ان شابا يهوديا قال له هناك : « **لست مستعدا لان اعطي شيئا لاسرائيل لانها مراهنة خاسرة . انني اتصور قطع البحرية الاميركية راسية على**

شواطىء تل ابيب لنقل اللاجئين اليهود منها ، وعندها سنتخلص من ازعاج الشرق الاوسط . فكل شيء يعمل لصالح اعداء اسرائيل ... »(٢٧) وروى ايضا ان مهندسا يهوديا اميركيا قال له : « **اسرائيل قامت من اجل انقاذ اليهود ؟ ولكنها المكان الوحيد الذي يقتل فيه اليهود ! »** واضاف غوردون ان الزعماء اليهود يشكون من ان كل ما تريده اسرائيل منهم هو **المال وليس الرأي . وبناءا على ذلك نصح بالتركيز على « النوعية والتثقيف الصهيوني واليهودي والمحافظة على صحة وسلامة المجتمع الاسرائيلي والقضاء على البيروقراطية . والوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية هما المؤهلتان لذلك »(٢٨) .**

٤ ــ ان تصاعد قوة الثورة الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية عامة . وكل ضربه توجهها لاسرائيل لا تضعف اسرائيل من الداخل فقط بل تضعف الحركة الصهيونية ايضا وتؤدي الى ابتعاد اليهود عنها . ان اكثر ما يزعج قادة اسرائيل في قرار الامم المتحدة الاخير الذي دمغ الصهيونية بالعنصرية هو خشيتهم من ان هذا القرار سيبعد الشباب اليهود عن الصهيونية . وبروز الثورة الفلسطينية على الصعيد الدولي كحركة تحرر وطني في مقابل انفضاح الحركة الصهيونية كحركة عنصرية كولنيالية في وقت يحارب فيه العالم العنصرية والكولنيالية يشكل خطرا مميتا بالنسبة للحركة الصهيونية ووليدتها اسرائيل . وهذه حقيقة اقوى من قوة اي زعيم للحركة الصهيونية .

٥ ــ يقول البروفسور الاسرائيلي المعروف يشعياهو ليبوفتش : « **بالنسبة للحركة الصهيونية فهي لا تمثل لا الشعب اليهودي ولا طابعة التاريخي او مضمون هذا التاريخ . كذلك هي لا تعبر عن المطالب العادلة النابعة من ذلك الطابع والمضمون . انها تمثل مصالح دولة اسرائيل . بل الحقيقة انها تمثل خط حكومة اسرائيل السياسي ، ومساعيها لفرض سلطة احتلالية عسكرية على ١,٥ مليون مواطن في اراض فازت بها نتيجة لحرب الايام الستة . وبين الشعب اليهودي توقفت الصهيونية عن العمل بوصفها حركة بعث قومي . ثم هي لا تتجه في هذا الاتجاه ولا طاقة لها على ذلك ، لانها قطعت صلتها باليهودية . وجهاز الحركة الصهيونية التنفيذي ليس وكالة يهودية لارض اسرائيل ، بل وكالة لحكومة اسرائيل ينفذ مصالحها المالية وسيطرتها »(٢٩) .**

ويبدو ان هذا الواقع لن يغيره حلول الموجي مكان سابير بل هو استمرار وتكريس له .

الحواشي

١ ــ حايم ايزيك ، دافار ، ٧٥/٨/١٥ .

٢ ــ المصدر نفسه .

٣ ــ معاريف ، ٧٥/٨/٢٠ .

٤ ــ عل همشمار ، ٧٥/٦/٢٤ .

٥ ــ دافار ، ٧٥/٦/٢٠ .

٦ ــ المصدر نفسه .

٧ ــ المصدر نفسه .

٨ ــ دافار ، ٧٥/٦/١٧ .

٩ ــ المصدر نفسه .

١٠ ــ المصدر نفسه .

١١ ــ دافار ، ٧٥/٦/١٨ .

١٢ ــ بمحانيه ، ٧٥/٧/٩ .

١٣ ــ المصدر نفسه .

١٤ ــ هاآرتس ، ٧٥/١٢/٤ .

١٥ ــ معاريف ، ٧٥/٨/٢٠ .

١٦ - **معاريف** ، ٧٥/٨/١٩ ٠
١٧ - **هاآرتس** ، ٧٥/٩/١٩ ٠
١٨ - البروفسور شيفاح فايز ، يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/١٨ ٠
١٩ - **معاريف** ، ٧٥/٨/١٩ ٠
٢٠ - هاآرتس ، ٧٥/٩/١٩ ٠
٢١ - **دافار** ، ٧٥/٩/١٢ ٠
٢٢ - رآأ ، ٧٦/١/٧ ٠
٢٣ - **معاريف** ، ٧٥/١١/٢١ ٠
٢٤ - رآأ ، ٧٦/١/٧ ٠
٢٥ - الدكتور دافيد لازار (معهد العلاقات الدولية في الجامعة العبرية) **معاريف** ، ٧٥/١١/٢١ ٠
٢٦ - **المصدر نفسه** ٠
٢٧ - **دافار** ، ٧٥/٩/٩ ٠
٢٨ - **المصدر نفسه** ٠
٢٩ - **هاآرتس** ، ٧٥/١٠/٢٩ ٠

تجارب من الارض المحتلة

بيت دقو ذات القمح الاصفر

عبد الجواد صالح

قرية بيت دقو ، قرية نموذجية فلسطينية جميلة ، تعتلي سلسلة من الجبال المحيطة بالقدس. مدخلها طريق ضيق يشق سهلين مرتفعين . يعتليان ظهر جبلين . تتخذ هذه الطريـــق خاصره جبل ثالث كانها شقت على ارجل سلم متدرج من الحبلات المزروعة بالدوالي واشجار الفاكهة يستمتع الراكب في السيارة بهذه المناظر ولكنه يخاف عندما ينظر الى الوادي عند قدمي السلم . وبعد مسيرة دقائق على هـــذه الطريق تصـــل الى هذه القرية التي بنيت على جبل تحيطه الاودية وكأنها علـــى جزيرة من اليابســة . باختصار انها قلعة حربية من صنع الطبيعة اختارها الفـــلاح الفلسطيني كجزء من حياته المتوارثة . والتي اصبحت جـــزءا من طبيعته المقاتلة من اجل صد الغزوات الطامعة في الوطن العربي . والتي تعتبر فلسطين مدخلا وقاعدة لتحقيـــق هذه المطامع .

تتحكم القرية بطريـــق اللطرون يافا من الشمال . ومـــن الجنوب تتحكـــم بالمستعمرات « الخمس » التي تقـــع على مدخل مدينة القدس . هـــذا الموقـــع الاستراتيجي جعل قرية بيت دقو مطمعا للطموح الصهيوني التوسعي .

اثناء انعقاد مجلس بلدية البيرة القريبة من قرية بيت دقو ، طرق باب المجلس مختار هذه القرية . رجل طويـــل ، نحيف الجسم ، وكأنه يعبر عن السبعين عاما العجاف التي عاشها وعاشتها فلسطين . موشحا بعباءة سوداء تغطي قمبازه الفضي المقلم . في الحقيقة يختلـــف الحاج « اسعد » عن معظم مخاتير القرية ، ليس في جسمه النحيف فحسب ، وليس في حديثه العامي الذي يخرجـــه باطار من اللغـــة الفصحى ولكنـــه يختلف عنهم في مسلكه وتعففه وارتباطه بقضايا جماهيره بالاضافة الى مواقفه من الحكـــم العسكري الصهيوني ورجالاته .

لقد اصبح بيني وبين الحاج اسعد علاقة وطيدة بعد ان قمت بحل مشكلـــة كانت شبه مستعصية في تلـــك القرية . وانقسمت القرية على هذه المشكلة الـــى قسمين ـــ الحارة « التحتا » ومعظمهم من الفقراء الكادحين والحارة « الفوقا » وتضم اغنياء القرية ومعظم ملاكيها . وكانـــت المشكلة حول ملكية قطعة ارض مشاع تتوسط القرية وبالذات ضمن حدود الحارة « التحتا » . لقد سقط قتيـــلان وجرح العشرات من الرجال والنساء والاطفال من جراء النزاعات التي امتـــدت

اكثر من عشر سنوات خلال الحكـم الاردني والتي كان يغذيها بعض رجالات هـذا الحكـم الذين كانوا يعتاشون على خلافات فلاحي القرى . ونامت الفتنة في القرية منذ ان حل الاحتلال الصهيوني ولكن بعد ان طال هذا الاحتلال لعب الحاكم العسكري دوره القذر في اشعال نار الفتنة من جديد . ومن هنا بداية المعرفة بالمختار وكافـة رجال القرية من كلا الجانبين . اذ توسط رئيس البلدية بين الجانبين اثر نزاع دام سقط الكثير منهم جرحى . واعتقل اكثر من خمسة عشر مواطنا ادخلوا السجن . لقد ساعد رئيس البلدية في حل النزاع بالاتفاق على بناء مدرسة للبنات على قطعة الارض المختلف عليها وقد اشترك الجميـع في تمويلها وعملية تشييدها . واصبحت القرية عائلة واحدة ، واصبح رئيس البلدية ضيف القرية بأسرها في كل مناسبة .

طرق الحاج اسعد باب غرفة اجتماعات المجلس البلدي ودخلها بدون ان ينتظر الموافقة . وطلب بكل ادب من رئيس المجلس البلدي ، خلوة معه لدقائق .

ــ نعم ، ماذا ، هل نشب الخلاف مرة ثانية في القرية يا حاج اسعد .

ــ لا ، نحن في مصيبة اكبر ، لقد جئتك تحت ستار الليل حتى لا يراني أحد ، ان القرية تجابه مصيبة عامة . الافندي يريد ان يبيع الارض لسمسار لليهود . ونحن في حيرة من امرنا . لقد عرضنا عليه شراء الارض ، ولكنه رفض .

ــ يا حاج غدا مساء الساعة الثامنة والنصف أكون عندكم . أرجو ان تجمع لي رجالات القرية للتحدث معهم .

يوم الخميس مساء كان الرجال من الجانبين في علية الحاج اسعد وهي عبارة عن مجموعة من البيوت الضخمة يحيطها سور مرتفع . تدخل في فسحة تحتضنها أروقة على الطراز العربي ربط في كل قاعدة منها خيل وأبقار الحاج أسعد . بينما الغنم والخراف مطلقة الحرية في « قاع الدار » ، تعيق سير الداخل والخارج . فوق الاروقة وعلى عرض الواجهة الغربية تقع العلية . غرفة واسعة الارجاء ، عريضة الكلين ، ربما يزيد عن متر ونصف . في بعض جوانبها تحتل الاقواس المغلقة منتصف الجدران ، حيث ترتب الفرش الصوف ومن فوقها اللحف والمخدات . شبابيكها كل اثنين بجانب بعضهما تفصلهما قاعدة القوس الذي يظللهما . في الواجهة الشرقية باب مرتفع القوام على جانبه موقد شهد ليالي الثوار الدافئة حيث كان الجميع يجلسـون ليخططوا هجماتهم على المستعمرات الخمس تحت قيادة البطل عبد القادر الحسيني .

جلس الجميع وأرجلهم « مربعة » ويفصل بين الرجال مخدات طويلة طول عرض الفرشة ، على رأسها اطار من الحرير الاحمر والاخضر والازرق .

جلس كبار القوم في صدر العلية ، ومن تحتهم ضعف عدد الفرشات التي يجلس عليها بقية الرجال على الجانبين ، اما الشباب والصغار فجلسوا مواجهين الكبار وعلى قرب من الباب . وعلى المدخل اصطفت أحذية الرجال ، ومن اشكالها ومدى اتساخ بعضها ولمعان الآخر تستطيع أن تحكم على وجود الفوارق الاقتصادية بين الجميع .

الله يمسيكم بالخير يا اخوان . افتتح الحاج أسعد الجلسة بعد ان اعتدل في جلسته والتفت الي والقى علي تحية مساء خاصة . ثم بدأ الحديث وكأنه ينتزعه من بطن « سفر برلك » الفترة الحالكة من أواخر الحكم العثماني .

الافندي الذي يسكن القدس والذي يواجهنا اليوم بمشكلة مصيرية أحد أحفاد

جباة ضريبة الحكم العثماني . لقد كان يفرض بالسوط ضرائب باهظة حسب اهوائه وخاصة انها كانت عملية « ضمان » في سوق الدلالة . يضمن تحصيل مبلغ معين يسلمه لسلطان الحكم العثماني ، ويضمن حصة الاسد لنفسه . وعندما لم يكن في امكان الفلاح دفع ضريبة « العشر » كان « يتنازل » عن حقه في تحصيل الضريبة مقابل فدان من الارض تسجل باسمه شخصيا . وبالتالي تجمع لهذا الافندي معظم ارض القرية وخاصة السهل الذي يشكل وجه هذه القرية ومدخلها .

يحاول حفيد الافندي الكبير أن يبيع قطعة الارض التي تمتد على جانبي الطريق ، الى السمسار شاهي عجميان ، والذي احتل مركزه الديني بتزوير ارادة اخوتنا الارمن ، وبدعم من القصر ، والذي يعتبر اليوم من أعز أصدقاء الجنرال دايان . واذا ما استوطن الصهاينة هذا السهل ، فانه سيحكم على قريتنا بالموت . ويكون مصيرنا مصير قرى اللطرون الثلاث ، عمواس ويالو وبيت نوبا ، والتي مسحت عن بكرة أبيها . ودخل اهلها قسرا الى شرقي نهر الاردن . وحل محل القرى الثلاث كيبوتس « حورون » .

تذكرت شاهي عجميان ، شاهي ، هو نفس الشخص الذي اشترى فندق « الهيلتون » في مدخل مدينة البيرة والذي باعه الى مؤسسة الكرن كايمت بوكالة دورية حتى تبقىَ عملية البيع سرية وهو نفس الشخص الذي حاول بالامس القريب اغتيال أحد الصحفيين من اخوتنا الارمن الذي حاول كشف مخططات هذا المارق الذي خرج عن اجماع اخوتنا الارمن .

هو نفسه ، ولكننا لسنا على مقدرة للوقوف أمامه ، وهو الذي يتعامل مع دايان ، ويستقبل في عمان استقبال الابطال ، ويتجول في العالم العربي بكل حرية . أرجوك يا أخ أبو صالح أن تساعدنا على معالجة هذا الموضوع .

سألت عن الارض ، وهل تم مسحها من قبل دائرة المساحة الاردنية ؟

نعم ، تم مسحها ولكن الجداول بأسماء أصحاب الارض لم تعلن بشكلها النهائي . وكان من المفروض أن يتم ذلك ولكن هزيمة حزيران وقعت وحالت دون ذلك .

قلت : حسنا ، غدا تعلنون في الصحف اليومية ان هذه ارضكم ، أرض كل أهل القرية ، وتنذرون في اعلانكم بعدم شرعية التصرف من قبل الغير ، وبدءا من فجر الغد تذهبون لحراثتها وزراعتها بالقمح .

لم انته من حديثي حتى سمع الجميع صوت هرج ومرج خارج العلية واعتقد الجميع ، ان دورية صهيونية في طريقها الى العلية لاقتحامها ، ودخل شاب في الاربعين من عمره . مديد القامة ، شارباه غليظان ولكن جميلان ، عيونه واسعة سوداء . ملامحه تريح النظرة اليها ، عقاله مائل نحو اليسار ، علامة الشبوبية « وغية » الفلاح .

— مرزوق يا حاج أسعد ، يريد أن نفتح له الدكان ، ليتصل بهاتف القرية الوحيد مع الحاكم العسكري ليخبره عن اجتماعكم .

قفزت مجموعة من الشباب وصاح بعضهم :

— سيغلق فم هذا الجاسوس الى الابد .

— أرجوكم أرجوكم ، أيها الشباب ، أرجو أن تستدعوه هنا لأتحدث اليه .

احضروا مرزوق ، شاب في الثلاثين من عمره ، عيونه حمراء ، كالكلب المسعور ، يسيل لعابه من زاويتي فمه ، كان بالفعل يختلف عن كل أبناء القرية . وقدموه لي على انه ناطور الارض ، وضعه الافندي لحراسة الارض وهو يسكن في البيت المبني على جزء من الارض المشجرة ويتقاضى خمسة وأربعين دينارا شهريا .

— ماذا بك يا مرزوق ، سألته .

— اريد ان اتصل بالحاكم العسكري ، فلدي تعليمات منه شخصيا بأن أتصل به اذا ما حاول أحدا دخول الارض .

— أنت كاذب يا مرزوق ، لو ان موضوع بحثنا عملية فدائية ، لصح حديثك ، أما وان الخلاف حول ملكية قطعة الارض ، فليس ذلك من اختصاص الحاكم العسكري ، ربما تستطيع أن تخيف البعض بالحاكم العسكري ، ولكنك لا تخيفني .

— هذه تعليمات علي أن أنفذها ، وسأتصل به حالا . وحاول النهوض من مكانه . وقبل أن يقف على رجليه كان الشباب قد أوصدوا الباب بأجسامهم ، ونهض اليه الحاج ابو محمد ، الذي كان أحد قادة ثورة ١٩٣٦ ، وما زالت آثار الرصاص تشوه حنكه بعد أن اخترقت رصاصة وجنتيه ، ويده اليمنى شبه مشلولة من رصاصات اخترقتها من عدة امكنة . وصاح به : اجلس ، يا ولد ، اقسم بالله اذا لم « تغير وتبدل » سأقتلك في ليلة واضعك في كيس وأرميك في أحد الوديان . ونظر ابو محمد الي ، وكأنه يستأذن مني تنفيذ حكم الاعدام عليه أمام الجميع ، بعد أن اثنى على اقتراحه كل من كان يجلس في الديوان .

— يا مرزوق « اسمعلي » أرض الافندي هذه ستباع للصهاينة ، وأنت أول من سيطرد منها ، ماذا يفيدك لو أصبحت مالكا لأحسن جزء من الارض ، وهي التي تحيط بالمنزل الذي تسكنه ، وكلها كما تعلم مشجرة ، وتصبح مالكا للبغل الذي تحرث عليه ، وتصبح في « ارضك » أنت بدلا من أن تكون مجرد حراث في أرض الافندي . واذا لم يعجبك ذلك فانني سأضمن لك عملا دائما في البلدية تعتاش من ورائه طوال حياتك .

وغير مرزوق لهجته ، واعتدل في جلسته براحة تامة ، ورد قائلا كالحمل الوديع ، كما تريد ، أنا أمرك يا أبو صالح .

— الم أقل لكم ان مرزوق رجل طيب ، وهو لن يخرج عن اجماع أهل القرية ، واستطردت موجها كلامي للجميع ، يجب أن تشكل جمعية تعاونية تضم كل أهل القرية ، ويدفع كل فرد خمسة دنانير ، لاستثمار الارض ، ولنبدأ بالدفع حالا ، فلا مجال للتأجيل .

وبدأت عملية المساهمة عشرة دنانير وانهالت الدنانير علي . صحت قائلا مهلا أيها الاخوان ، فلنسجل الاسماء ، ولننظم عملنا ، فهذا شرط للنجاح . وبدأت عملية الدفع والتسجيل ، ومن لم يكن بينهم يحمل نقودا ، خرج ليأتي بها من زوجته حيث تخبئها . وتجمع أكثر من ألف دينار .

— من تأتمنون من بينكم ؟ انتخبوا لجنة من بينكم .

— ولو من نأتمن غيرك يا اخ ابو صالح .

ـ لا ، لا ، عليكم أن تختاروا ثلاثة من بينكم ، توكلونهم بالنيـابة عنكم ، وتفوضونهم بالاتصال بمن يلزم ، وتأتمنوهم على الصرف فيما يجب صرفه . وعلى الثلاثة أن يقدموا اسبوعيا تقريرا شاملا لأهل القرية عن كل ما يحصل معهم ، وكل ما يصرفونه . وعلى كل واحد منكم ان يستفهم منهم حول كل غموض ، وأن يحاسبهم ، ولكن يمنع الاستغابة أو النقد أو الهمس من وراء أعضاء اللجنة .

تداول الجميع فيما بينهم ، واختاروا الثلاثة ، وكانوا يمثلون القرية خير تمثيل .

ـ مبروك لهذه الثقة ، وارجو أن تكونوا موضعها ، والآن يجب أن نعمل برنامجا للعمل . غدا يخرج أهل القرية لحراثة الارض ، كل ببغله ومحراثـه . والذي لا يملكهما ، يخرج بفأسه أو مشطه او بأي أداة يملكها . ومن لا يملك شيئا يخرج بيديه ليعمل بهما . المهم الجميع يخرج ، فهذه الارض للجميع ، وخراجها ملك للجميع .

واعترض البعض على قولي : ان هذه الارض لا تنفعها حراثة الدواب ، فيجب استخدام التراكتـورات لأن الارض بور منذ سبع سنوات اذ لم تمسهـا الايدي المباركة . وهي مليئة « بالنتش » ولا يمكن الا للتراكتور أن يشقها .

ـ اذا عليكم أن تدبروا التراكتورات .

ـ في قريتنا يوجد تراكتور واحد فقط .

ـ من لديه الاستعداد ان يتصل بالقرى الاخرى التي يوجد فيها تراكتورات اخرى، عليه أن يتحرك حالا . وقبل أن يكمل الحاج أسعد ، صاح أمام مسجد القرية : انا ، وتجاوب معه سائق سيارة التاكسي الوحيدة في القرية : وأنا أنقله بسيارتي . وخرج الاثنان ، ولحق بهم المختار ، لا تنسوا أن تذهبوا الى القبيبة ، والجيب ، وبيت عور التحتا والفوقا .

وقام مرزوق وصاح في الجميع : اقسم بالله ان أي واحد منكم تطأ قدماه ارض الافندي سأشي به بأنه فدائي ، وانه يريد أن يخبىء في الأرض سلاحا .

لقد اضاره ان يتحول القول الى فعل . وعندما خاب أمله في فشل الاجتماع ثار .

لم يترك الشباب مرزوق انهاء تهديداته حتى انهالت عليه الضربات من كل جانب .

وتنفزت ، منقذا مرزوق من الايدي الغاضبة ، وخرجت به خارج العلية . مرزوق هل جننت ؟! ربما لا تخاف القتل ، ولكنك لا تفكر كيف سيعيش أولادك من بعدك وعندما يشار اليهم بأنهم أولاد الجاسوس !! ولم كل هذا ، انك ستصبح مالكا للأرض التي اغتصبها الاقطاعي من أجدادك ، وتخلفها لأولادك بدلا من أن تخلف لهم العار طوال حياتهم !.

وما زالت التهديدات الغاضبة واللعنات تسمع من داخل الديوان .

ولكن سيدي هكذا قال لي الافندي ، واكد لي صديقه الذي تقولون عنه انه سمسار بأنه سيزيد من معاشي ، وقد نقدني خمسة دنانير حتى اتصل بهم اذا ما سمعت شيئا ضدهم . ولكنني عهدا علي انني سألتزم بما يلتزم به أهل قريتي .

ولكنني لم اقتنع بالعهد الذي اتخذه مرزوق ، فهو مزيج من الغباء والاخلاص الذي يتميز به العبد المسود .

ودخل الى الديوان ، واعلنت امامهم ان مرزوق اتخذ عهدا على نفسه بالالتزام معكم حتى النهاية !!

ورجعت حيث كنت اجلس ، والتفت الي المختار قائلا : غدا سنذهب ثلاثتكم وانا الى القدس لنوكل اثنين من المحامين احتياطا لتطور الامور ولربما احتجنا اليهم من الناحية القانونية ، وسأضمن تبرع المحامين للدفاع عن قضيتكم العادلة . في نفس الوقت يخرج الجميع رجالا ونساء ، أطفالا وشيوخا الى الارض الطيبة ، ليرفعوا عنها ضيم البوار ، ويزيلوا من على وجهها الجميل الشقوق والطفيليات ، ليحرروها ومن ثم يملكونها .

يوم الجمعة بعد عودتنا من القدس وعندما اطللنا على السهل من بعيد ، كانت أعمدة الدخان ترتفع الى عنان السماء ، كأنها اشارات تعلن قيام الثورة بل بالفعل كانت كذلك . وعندما وصلنا السهل المرتفع كانت القرية تنتشر على الارض ! التراكتورات تمخر أمواج النتش التي تشوه وجه الارض ، ومن ورائهم البغال بمحاريث نوح تمهد الاثلام الواسعة ، وبعض الرجال يعمرون الجدران التي انهالت متباكية على الايدي التي افتقدتها منذ سبع سنوات ، ولم تعد تضع حجارتها في مواقعها ، لقد اضعف غياب الاحبة مقاومتها للسيول والامطار ففقدت مناعتها ضد الغزو ، والنساء تجمع النتش والاعشاب الطفيلية وتحرقها ، والاطفال من وراء أساتذتهم ومديرهم يجملون الحجارة الصغيرة وكأنها بثور حب الشباب على وجه حبيبة جميلة ، فيزيلونها ليعيدوا الابتسامة الضاحكة على الثغر الباسم . والجميع ينشدون ويغنون .

لقد تحققت المعجزة . وتحول الخوف الى تحد للأفندي وللسلطة المحتلة وللسمسار . فجأة خيم صمت رهيب ، توقفت الاغاني والاهازيج ، ونظر الجميع من حولهم ، فرأوا سيارة مرسيدس بيضاء تبصق من داخلها الاقطاعي الافندي وبعضا من رجاله .

لقد أخبرهم مرزوق اللعين !!

ولكن الحاج اسعد صاح : استمروا استمروا . وكأنه اطلق اشارة السبق ، فعادت الاهازيج ، وعاد صوت الصفار مع صوت دقات الحجارة الصغيرة وهي تتساقط فوق بعضها البعض في تفف الصغار ، وعادت التراكتورات بعجلاتها تدور ، وسكتها تخترق بكارة الارض العذراء .

وتصدى المختار ، وكان قد نزع عباءته ، ولف كوفيته من حول رأسه حتى لا تعيق عمله ، تصدى للأفندي ، وربما لأول مرة في حياته .

ــ نعم ؟! ماذا تريد ؟

ــ ويحكم ماذا تعملون ، قالها الافندي وصوته الحاقد يترجرج .

ــ نفلح ارضنا التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا . والمغموسة بعرق ودماء ابطالنا . والتي أمضينا وإياها زهرة العمر ، وريعان الشباب .

والتفت الافندي الى مختار القرية الثاني مستنجدا ، وهو والد زوجة مرزوق ، وقال له بتودد : هل لي أن أشرب فنجان قهوة في بيتك ؟

كان اقتراحه خبيثا خبث الاقطاعي . اذ كان يرى انه لا بد من شرخ الوحدة التي تجمع بين الجميع ، عن طريق سحب أحدهم ، وهو اكثر أصحاب المصالح ارتباطا بالافندي . . . صهره مرزوق .

ولكن المختار الثاني ، وبذكاء الفلاح الفلسطيني ، أدرك نية الافندي الخبيث ، ورد عليه بحزم : لقد مضت الايام التي تدخل فيها بيوتنا وتشرب قهوتنا . انها اليوم محرمة على السماسرة .

وتقدم شاب نحو الافندي ، وكأنه قرر أن ينهي الحوا ـ باسلوبه .

ـــ اسمع ، اقسم لك ان لم تركب سيارتك الآن ، « وتريني عرض أكتافك » فانني سأقبرك في هذه الارض ونحول عظامك الى مكاحل !! وتراجع الاقطاعي نحو سيارته وقبع فيها كالفأر المبلول .

التفت نحوي الحاج أسعد : لقد حان موعد الغداء ، فلنذهب الى البيت لنأكل لقمة خبز .

ولماذا لا نأكل هنا جميعا .

لا ، نأكل في البيت لنغتسل ، ونستريح .

رفضت ذلك وأقنعته بضرورة البقاء مع أهل القرية ، والعمل معهم ، وهي فرصة للحديث . وخضع الحاج أسعد لرغبتي بعد الحاح طويل .

شددت الابصار التي كانت تمرح في الارض الطيبة التي ابتسم وجهها بعد ان ازلنا عنه اهمال السنين عندما ناديت الحاج أسعد باسمه .

نعمين اخ أبو صالح .

أنعم الله عليك ، قل لي يا حاج اسعد ، كيف بنيت هذه العلية ، هل استأجرت لها العمال .

أخ يا أبو صالح ، لقد بنتها سواعد شباب القرية ، كما بنيت كل بيوتها . حتى عندما كنا نصل « القمط » (حجارة أقواس الشبابيك) وعند « العقدة » (صب السقف)كانت كل القرية تشارك في تقديم المناسف على صوت الزغاريد والشوباش . حتى حراثة هذه الارض وزراعتها وعملية الحصاد كانت تتم كما تمت اليوم ، وكنا نسميها نظام « المعاونة » .

وقلت للحاج اسعد : المهم الآن عهد نتخذه جميعا ان نعمل جميعا الكبير قبـــل الصغير للعمل في هذه الارض سويا ، ونحافظ عليها حتى اخر رجل منا .

واتخذ العهد ، واقسم الجميع على البقاء يدا واحدة امام اية محاولة لضيـــاع الارض . فلنرجع الى العمل ، ولنكمل المشوار . وانتشر الجميع في الارض الطيبة ، وبدأت الاهازيج تدوي في سماء فلسطين مرة ثانية .

وبعد ساعات ، جاءت سيارة بيضاء صغيرة ، ومن ورائها سيارة جيب عسكرية اعلنت عن قدومها باطلاق الرصاص في الهواء . شق الحاج اسعد طريقه بين اهل القرية ، وهو يشجعهم على الاستمرار في العمل ، وبالفعل استمر الجميع وكأنهم لا يسمعون من حولهم شيئا الا حوار الغزل مع ارضهم .

ـــ شو انت بيعمل هون ؟ قالها بلكنة غريبة غرابة الاحتلال .

ـــ نفلح في ارضنا كما تعودنا منذ مئات السنين .

ـــ لا ، هذه مش ارضك انت ، هذه ارض حكومة اسرائيل .

ـــ ماذا ، لقد كنا نزرعها قبل ان نسمع بكلمة اسرائيل ، وكان اباؤنا واجدادنا يزرعونها ويفلحونها قبل ان تولد انت .

ـــ انت مكتار وكح .

ـــ وانت ماذا ، وبأي صفة تتحدث معي .

ـــ انا ممثل حكومة اسرائيل ،

ـــ انا اعرف كمختار ان الحكومة عندما تريد ان تتحدث مع المختار تطلبنا اما عن طريق الشرطة او يرسل لنا الحاكم رسالة تطلبنا بموجبه ، وعلى اية حال ، انك عطلتني عن عملي ، وادار المختار ظهره ، وكانه يضرب به عرض الحائط .

ـــ اسمع يا مكتار يا وكح . بامر من الحاكم العسكري باكولك اخرج انت من هون الآن .

فكر الحاج اسعد سريعا ، انه اذا جبن امام اهل بلده فانها سقطة النهاية له ، فلملم قواه ، وصاح : اسمع ان ما من احد على وجه هذه الارض يستطيع ان يمنعني من حراثة ارضي . ورجع المختار ، وعاد الى عمله .

انتظرت سيارة المخابرات الصهيونية دقائق وهم يتجولون بانظارهم في السهل الواسع ، واعمدة الدخـــان ما زالت قائمة كانها نذر عصيان عنيد للسلطة . وادارت السيارات محركاتها ورجعت ، وبرجوعها ارتفع كابوس ثقيل من على صدور الجميع وبالذات من على صدر الحاج اسعد .

يوم السبت صباحا ، خرجت من بيتي مبكرا كعادتي ، ففوجئت بمرزوق ، يلقي علي تحية الصباح وهو ملثم بكوفيته القذرة .

ـــ خير ان شاء الله .

ـــ خير ، في انتظارك في دار بلدية الافندي وجماعته ، لقد نصحتهم باللجوء اليك، لتحل له الاشكال واقسم لك انني لم اخبره بتفاصيل اشتراكك في العملية .

ـــ اخ ايها القذر ، لقد اصبحت تتقن العمالة المزدوجة .

ـــ دخلك ، ارجوك ان لا تقول لهم انني جئت اليك صباح هذا اليوم .

عندما دخلت قاعة الاستقبال استطعت ان اميز الافندي من بين كافة المراجعين، فقد نهض يستقبلني بحرارة وكانه يعرفنـــي من قرن . خلع فيصليته التي تغطـــي

صلعته ، امعانا في الاحترام وكان وجهه احمر يتدفق منه الدم كانه نعل حذاء حديث الصباغة ،

ـ هل تسمح لنا من وقتك الثمين ، سيدي ، بضعة دقائق .

ـ تفضلوا ، وان كنت لست بسيدك ، وانت كما ترى عمري من عمر اولادك .

ـ ولكنه للاحترام ، سيدي .

وبدأ بقص مشكلته ، وبدأ يخرج الحجج والوثائق ومعظمها مكتوب بالتركية على ورق سميك تتخلله خيوط الكتان .

ـ ولكن ما شأني انا في الموضوع ، محاولا جس بض هذا الاقطاعي القذر حول مدى معرفته باشتراكي في عملية مصادرة ارضه من قبل جماهير قرية بيت دقو. وكان واضحا انه لم يكن في حاجة مادية تفرض عليه بيع ارضه لسمسار مشبوه .

ـ انني اعرف عن مدى احترام اهل القرية لك ، واريدك ان تتوسط بيني وبينهم علهم يرفعون ايديهم عن ارضي .

ـ ما دمت تريد بيعها للصهاينة فهي ليست ارضك بل هي ملك اهل القرية . فاجأته بالرأي الحازم دون لف او دوران ، والذي وقع عليه وقوع السيف .

ـ انا ابن فلان وتعتقد انني سأبيع ارضي للصهاينة ، والله لو دفعوا لي خزائن سليمان لما تنازلت لهم عن شبر منها .

ـ وتكذب ؟ خرجت الكلمة مني ولم اعرف كيف تفوهت بها ، ولكن يظهر ان حقدي الدفين ، على الاقطاعي القذر قد وصل مداه . وصحت به ساردا بعض الحقائق ، ألم يأت السمسار شاهي عجميان قبل عشرة ايام واتفقتم على بيع الارض، ومنذ ذلك اليوم وهو يأتي اليك يوميا ومعه بعض الصهاينة ؟

ـ هذا صحيح ، ولكنهم يأتون هنا نتيجة اهتمامهم بالاثار القديمة ، وانت تعرف ان في « الخربة » مغارة واسعة مملوءة بقطع الفخار وغيرها من الاثار .

وانفجرت به صائحا : اسمع لا اريد ان اسمع المزيد من الكذب ، باختصار اذا كان لديك الاستعداد بتوكيل دائرة الاوقاف بهذه الارض فانني على استعداد للتدخل لرفع يد الفلاحين عن ارضك ، او ان تقوم بتأجيرها للمزارعين بموجب عقود طويلة الامد ، وانا اتعهد اليك بان تعود اليك بعد نهاية الاحتلال مباشرة والا فان الارض لمن يفلحها لا لمن يريد بيعها للصهاينة . وقمت من وراء مكتبي الذي تزينه خارطة فلسطين المطرزة بايدي الامهات الفلسطينيات وفتحت له باب مكتبي مشيرا له بالخروج ، ولما وصل الاقطاعي الباب ، تجاهلت يده الممدودة للسلام علي ، وقلت له عندما تقرر اختيارك ، فانني على استعداد لخدمتك .

يوم الاحد ، في الدقائق الاخيرة من الساعة الثانية عشرة ، دق جرس التلفون في بيت رئيس البلدية . هنا مكتب الحاكم العسكري ، خلال دقائق يطلب الحاكم العسكري مقابلتك في مكتبه . دخلت مكتب الحاكم العسكري ، وكان يجلس على رأس الطاولة الحاكم العسكري موشي فيلدمان ، وعلى يمينه يجلس مستشار الحاكم العسكري

ديفيد فرحي ، وكلاهما بولونيان ، والاخير استاذ في الجامعة العبرية ويعمل في نفس الوقت مستشارا للحاكم العسكري العام ، ويتكلم اللغة العربية بطلاقه وفصاحه .

ــ نعم ، وقلت ببرود ، نعم ؟!

تكلم المستشار بالعربية قائلا ، سيتلو عليك الحاكم العسكري انذارا بالعبرية وانا سأترجمه لك ، ولا مانع من تسجيله كلمة كلمة حتى لا تنساه .

« لقد تجاوزت في الاونة الاخيرة صلاحياتك كرئيس بلدية ، وقمت بنشاطات اقليمية خارجة عن اطار صلاحياتك وخارج حدود مدينتك . بما يؤثر على امن دولة اسرائيل ، اننا نوجه اليك هذا الانذار النهائي لتتوقف عن نشاطاتك غير الشرعية هذه . انتهى الحديث » .

حاولت ان استوضح الامر :

« هل تعني عقد صلح مع عائلتين متنازعتين في قرية يستجير اهلها لحل هذا النزاع امرا يقلق امنكم ، او ان انشاء جمعية تعاونية يهدد امنكم » .

لم يجب اي منهما بكلمة . ورد المستشار : لا مجال للنقاش ، لقد نتهى الاجتماع .

بعد اشهر ابعدت والقي بي في الصحراء ، ولكن سنابل القمح التي زرعت في اراضي بيت دقو ، اصبحت خضراء يانعه ، طويلة يافعة ، تتمايل بدلال كلما هبت نسمة فلسطينية عليها ، وكلما تمايل قمح بيت دقو الاصفر الذهبي ، كلما ارتفع صوت حفيفها يغني اغنية العودة للمبعدين من ديارهم .. كل المبعدين .

الســـابقون

للصحفي السوفيــاتي تسزار سولودار
ترجمـــة الــدكتور شوقــي العمري

تنشر شؤون فلسطينية الجزء الثاني والاخير من سلسلة مقالات الصحفي السوفياتي سولودار ، وكانت قـد نشرت الجـزء الاول في العدد ٣٩ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ .

[١٠]

انت ملزم بأن تحقد على العرب

— ان الكثيرين من الصهيونيين وحتى من الاسـرائيليين القدامى لا يستطيعون أن يغفروا لأولئك اليهود الذين عاشوا سابقا في الاتحاد السوفييتي .

« فلنقل بصراحة — قال لي الكاتب الاجتماعي النمساوي غـانس فولكر بصدد أحاديثي التي أوردتها فيما قبل — ان المقيمين القدامى يتملكهم الغضب لأن الادارة الاسـرائيلية تمنح القادمين الجدد تسهيلات ضرائبية ، مع ان هذه التسهيلات ضئيلة . يجب علينا ألا ننسى أن مستوى الضرائب في اسرائيل يحتل المركز الاول في العالم . لذا فان السكان يستاؤون من التسهيلات الضرائبية التي تمنح للقادمين الجدد » .

هذا ومن المعلوم أن المواطنين السوفييت السابقين لم يفهموا معنى أن يدفعوا قيمة العلاج للطبيب ، فهم لم يعتادوا ذلك . وهذا ما كان يثير الاسـرائيليين القدامى . لكن هذا الامر بديهي بالنسبة للسوفييت لأنهم لم يعتادوا أن يدفعوا للطبيب مـن جيبهم الخاص . كما ان للمواطنين السوفييت السابقين مميزاتهم غير المادية ، مثلا : يصابون بالدهشة لأن المالكين أصحاب العمل هم الذين يتيحون لهم فرصة العمل وليس الدولة . وهذا يتطلب منهم الخضوع للمالك حتى الاذلال طلبا للعمل . لذلك فهم يندِّدون بكل ما يقدرون ، ويحتجون على هذه اللوائح التي تبدو لهم بكل بساطة وحشية ، مما يثير غضب سكان اسرائيل القدامى الذين يرون في أولئك الذين تعودوا على صورة الحياة السوفييتية نوعا من الاطوار الغريبة . — وواصل فولكر حديثه قائلا : ان سكان اسرائيل القدامى يحتدون غاضبين نظرا لأن القادمين من الاتحاد السوفييتي يتعطشون للثقافة ، ويشكون :

— عدد المكتبات قليل ..

— سعر تذكرة السينما مرتفع جدا ..

— لا يوجد أي مكان يمكن أن تستمع فيه لمحاضرة قيمة . مما يدفع هؤلاء السكان

للقول : « ان هؤلاء الارستقراطيين هم الاطفال المدللون للسلطة السوفييتية » . ولكن هل تعلم لماذا لا يستطيع الصهيونيون ، وبصورة خاصة ، ان يصفحوا عن المواطنين السوفييت السابقين ؟ لأن « المهاجرين » من الاتحاد السوفييتي لا يحملون اية كراهية للعرب . هذا كل ما في الامر . — كن على ثقة بأنني توصلت الى هذه النتيجة بعد مشاهدات طويلةودقيقة . فالصهيونيون يلحون على كل قادم جديد : « انت ملزم بأن تحقد على العرب » ! ويستغرب هذا القادم :

— ما هو السبب ؟

— ولماذا ؟

« لا يوجد اي سبب يدفعني لكي احقد عليهم . كما انني لا استطيع ان أعبىء أطفالي بالحقد ضدهم . . لا أستطيع ! » .

لقد استمعت لمثل هذه الاقوال من افواه المهاجرين السوفييت مرارا . لذا فان الآلام سوف تمزق كل اسرائيلي ان لم تسعفه القدرة على الافضاء بمشاعر الغضب تجاه الصهيونيين .

لقد ركب بعض العرب سيارة محملة بالركاب . ولم يكن على ابرام بيتلاشفيلي الا ان يتخلى عن مكانه لامرأة من عقيدة اخرى تكاد بكل صعوبة أن تتحرك . في تلك اللحظة انقضت عليه مجموعة من الشباب :

« انت غير جدير باسرائيليتك — صرخت محتدة في وجهه فتاة يبدو من حقيبة الكتب التي تحملها أنها طالبة — هؤلاء البقر يستخدمون بكل وقاحة نفس السيارات التي نستخدمها نحن ، لأننا بعد لسنا في حالة تسمح لنا بأن نعزلهم في سيارات منفردة ! » .

« اني اتصور كيف تربون اطفالكم ! — بسخرية قـال ابرام بتيلاشفيلي لصديق الفتاة — . وفي نفس السيارة اصاب الهجوم أيضا سميون خونوفيتش بولونسكي . وهو اوديسي سابق . — فما هو الذنب الذي ارتكبه نحو المجتمع الاسرائيلي ؟

لقد طلب بولونسكي من ابنه البالغ من العمر عشر سنوات ان يخلي مقعده في السيارة لامرأة عربية حامل . ولشدّ ما آلمته آنذاك تلك الملاحظة الحاقدة التي انبعثت من صدر عجوز اسرائيلي : « فلتمش السيارة على جسد هذه المرأة البشعة قبل أن تتمكن من أن تلد قاتلا جديدا ! » — لكن « الامرأة البشعة » قد اعتذرت على أية حال عن الجلوس في المقعد الذي أخلي لها . وليس غريبا بعد ذلك ، ان يجد العرب في مظاهر الاحترام الطارئة من قبل الاسرائيليين مدخلا للسخرية والاحتقار .

ومنذ الساعات الاولى لوصول اليهود السوفييت الى اسرائيل يتلقون على حد تعبير ايدي ليفيت « ارشادات » بأن يسفروا عن احتقارهم لكل عربي يلتقون به .

لقد وجد ليونيد تولتشينسكي الفنان السابق الذي كان يقيم حفلاتـــه في احدى مقاطعات موسكو عملا ليليا مؤقتا في احد الملاهي الليلية الرخيصة . ولكن صاحب الملهى سرعان ما رمى به على الطريق خارج باب الملهى لأن ليونيد سمح لنفسه بأن يتفوه بكلمتي : « يهود وعرب » . وما لاقاه ليونيد لاقاه آرون ابراموفيتش كورولابنيك . كان آرون يعمل لدى صاحب محطة بنزين . ولقد تعرض للاهانة لأنه كان يتعاطف مع العرب .

— فما الذي فعله آرون ؟

— لقد كان يقوم بعملية تنظيف وقود احدى السيارات من الاوساخ التي علقت به . مر بجواره أثناء عمله شاب عربي . سأله الشاب :

— كيف يمكنني أن أجتاز طريق الميدان ؟

— وصف له آرون بكل ادب الطريق الذي يمكن ان يجتازه عبر الميدان . وكان هذا سببا كافيا من قبل صاحب محطة البنزين لتوبيخه واهانته . كذلك فانهم يستخدمون مدارس « الالبان » أيضا لتغذية الحقد ضد العرب .

— كيف ذلك ؟

— انهم يدرسون في هذه المدارس اللغة العبرية فقط .

— ولكن . . ! بلباقة شديدة أختيرت الموضوعات الدراسية فيها — يقول المهندس زلوتسكي — ، فالتلاميذ يدرسون في « الالبان » موضوع « معاداة العرب » (انتي ارابيزم) . حتى أولئك المتخلفون في دراستهم يتخرجون من الالبان وهم يختزنون في نفوسهم احتياطيا كبيرا مــن الالفاظ المشينة ذات الطابع العدائي للعرب . كما انهم يعبئون وبصورة خاصة حتى الاطفال الصغار بالحقد ضد العرب . أعطي مثالا على ذلك بمقطعين فقط من كتاب يدرس لتلاميذ الصفوف الاخيرة ، وبالتحديد من الفصول التي تتحدث عن تاريخ الحروب الاسرائيلية العربية :

« أن شعب اسرائيل هو الشعب المختار من بين الشعوب من حيث الفصيلة والتربية والجو الذي يتطور فيه » . « ان فصيلة شعب اسرائيل هي أرقى فصيلة . فلقد تشكلت عن طريق اختيار افضل ما في كافة الاجيال » . يتبع ذلك الاستنتاج التالي : « يجب ابادة العرب » !

ويغني الصغار في « روضات الاطفال » بقيادة المربيات وبصوت واحد ، هذه الاغنية :

« آتو — تو ، تو — تو ، تو — تو

آرابيم يموت »

وتعني الترجمة الحرفية للسطر الثاني : « فليمت العرب » !

... ...

— وعندما رجعت تانيا ، وهي ابنة كلارا روزينتال من المدرسة ، بدأت على الفور تحفظ عن ظهر قلب قصيدة من الشعر . اندهشت الام . — فما هو هذا الشعر الذي أخذت تانيا تحفظه غيبا بناء على أوامر المدرسة ؟

وعندما القت الام نظرة على الكتاب أصابها الفزع . — لقد كان هذا الشعر عبارة عن شعارات موزونة مختارة تدعو لإبادة العرب . ان النتيجة تبدو واضحة وبشكل حاسم : « فما دام العرب بجوارك ، فلن تستطيع أن تعيش حياتك بهدوء » . لكن . . ! يمنع بشكل قاطع كتابة اي شيء يتعلق بمسألة « الكراهية للعرب » عندما يحمل البريد رسائل المهاجرين في اسرائيل الى أقربــائهم في الاتحاد السوفييتي أو في البلــدان الاشتراكية . فهذه مسألة محظورة للغاية .

ــ لقد تسلم الكسندر شابوشنيك الذي كان فيما مضى عاملا بسيطا في أوديسا ، وكان يعمل جزارا في مصنع للحوم ، انذارا من أحد العملاء الصهيونيين : « انني على علم بما تكتبه في رسائلك . فتذكر جيدا وبلغ الآخرين : ان كتابة أي سطر واحد عن اضطهاد العرب ستعلمكم على الفور ، ما معنى مخالفة الطاعة . لذا .. الافضل لك ، ان تكتب في رسائلككيف يعيش العرب عندنا في طمأنينة » .

ــ واحيانا يغامر القادمون الجدد بالتحدث عن هذا الموضوع المثير للغضب ، مع اناس ــ من وجهة نظرهم ــ غير قادرين على الكتمان . فلقد تجاسر وتحدث عن هذا الموضوع مارك ايساكوفيتش برلشتيين الذي هاجر من أوزبكستان وحصل على عمل في مكتب للمواصلات ، كان عملا جيدا نوعا ما .

ــ لقد سأل مارك زميله الذي يعمل معه في المكتب :

ــ « كم كانت ثقيلة تلك المعاناة التي عاناها اليهود نتيجة للعنصرية التي كانت تمارس ضدهم ! ، ومع ذلك الهذا الحد فقدتم ضمائركم ؟

ــ كيف تقدرون أن تمارسوا العنصرية السوداء ضد العرب ؟ وعلى الرغم من توقع برلشتيين أن ينفجر فيه زميله فان هذا الزميل تمالك اعصابه ، ولم يهدده بنظراته على انه اسرائيلي غير مخلص . لكنه بصبر ، أخذ يرد على برلشتيين ، وكأنه يرد على تلميذ عاجز عن الفهم :

ــ انت مخطىء . كيف يمكن ان نكون عنصريين ونحن نعترف حتى بالسود .

ــ كيف تقول ذلك . وأنت ترى من حولك اليهود ذوي البشرة السوداء الذين جاءوا من مجاهل أفريقيا ؟

ــ السث معي بأنهم يشبهون البقر !

ــ فكم هم أغبياء وغير ناضجين !

ــ أحيانا لا يستطيع الواحد منا أن يتمالك أعصابه . ويود ، والرب شاهد على ذلك ، ان يصفع وجه ذلك السفـــاردي الغبي الراس ، والـــذي يفهم بقدر ما يفهم الجاموس !

ــ ولكننا نلتزم الصبر ضاغطين على قلوبنا . حتى اننا أحيانا نقوم بمساعدتهم بعض الشيء . فنحن لا نحدد تنقلاتهم داخل دولتنا . لهذا السبب ، يبدو لك أننا واياهم على دين واحد ؟

ــ كلا . ان حكومتنا أسمى من ذلك . نحن نهادن الزنوج لأنهم يرغبون في أن يكونوا مفيدين لنا ، ويريدون مساعدتنا في حدود طاقاتهم الهزيلة بشأن تقوية اسرائيل . وما دمنا لسنا أمريكا للآن ، فاننا نسعى أن نقيم علاقات مشتركة مع اليهود ذوي البشرة السوداء في بلادنا ، وان كانوا لا يتمتعون بالخير كثيرا . أما العرب فنحن نعلم شيئا واحدا « انهم أعداؤنا التاريخيون » . اننا نثق تماما بأن قلوبهم لا يمكن أن ينمو في داخلها أناس تقدميون . فأنا أفضل الموت على ان اذهب الى طبيب عربي . فلا يمكن أن تحتمل الارض وجودنا سويا مع العرب .

ولحسن الحظ لم يتمكن الصهيونيون من تعبئة سكان اسرائيل بمثل هذه التصورات

الوحشية . فلبرشتيين صديق مسن مهنته محاسب . وله ابن أصيب في حرب الايام الستة . لقد أخذ بانفعال يقول :

« قرأت عن معسكرات الموت الهتلرية التي أبيد فيها اليهود ، ولا يخالجني الشك المريع بأن معاملة العرب الذين يعيشون بيننا لا تقل عن معاملة الهتلريين لليهود . فهل يختلف اطلاق الرصاص على الشيوخ في احدى القرى العربية عن الاعمال التي تام بها الهتلريون ضد اليهود في أحياء كاأوناس أو مينسك ؟. لقد شاهد ابني كيف نكل الجنود اليهود بالسجناء العرب . وما رآه ابني ، لا أتمنى حتى لألد اعدائي أن يداهمه في حلمه .

ان مثل هذه الكلمات يهمس بها الانسان همسا في اسرائيل ، وعيناه تتطلعان في كل جانب .

ثمة بعض المهاجرين ، على استعداد وبأي ثمن أن يستخدموا « المعاداة للعرب » كورقة رابحة في أيديهم على طريق النجاح الخطر في سبيل الحصول على منصب .

لقد فكر في هذا الامر الكاتب غريغوري سفيرسكي ، وان كان في الحقيقة قد تأنى في تفكيره . لقد جاء الى اسرائيل وهو يحمل بين جنبيه افضل الاماني عن مشاريعه الادبية الطويلة المدى ، على الرغم من كونه أديبا فاشلا . وفور وصوله الى اسرائيل اقترح على دور النشر أن تنشر مؤلفاته الكاملة التي رفضتها دور النشر السوفييتية . ولكن سرعان ما أصيب بخيبة أمل ، عندما أبلغته دور النشر الاسرائيلية بأن نشره من الناحية الفنية ضعيف وغير جدير بالطباعة . كذلك لم يلق انتاجه الجديد : الذي يحتوي على المؤثرات الخارجية ذات اللوحات البهلوانية ، والمونولوجات ، والادوات المركبة ، التي يصب المؤلف من خلالها جام غضبه على اليهود السوفييت الذين لم يراودهم التفكير بالهجرة الى اسرائيل — الرواج المنتظر . كما ان أجره نظير انتاجه كان شحيحا . فلقد كانت اسرائيل تفيض بمثل هذا اللون من الادب قبل وصول سفيرسكي اليها . ولقد انعكس الفشل حتى على المظهر الخارجي لسفيرسكي . يحدثنا الطبيب يوسف غريغوريفتش بورشتيين ، وهو من مدينة مينسك عن سفيرسكي : « شاهدت رجلا عصبيا ، وغير حليق وقد تآكلت ملابسه واهترأت ، وبدا كانسان مهلهل متداع . لقد علم المواطنون السوفييت السابقون بأن سفيرسكي حصل على اعانة لكتابة مجموعة من القصص عن عذابات سكان بيروبيدجان . وكان كل فصل من هذه القصص يبدأ بمقطع من افتراءات سولجنيتسن . لكن قصصه من وجهة نظر كتاب القصة كانت فاشلة . أما الاعانة التي حصل عليها سفيرسكي فانه قبل تعارفنا كان قد أنفقها . وتغير فجأة . وصار من الصعب التعرف عليه بعد مرور بضعة أسابيع : لقد تحسنت أحوال سفيرسكي ، وبدا شامخا على غير عادته . وما عاد ، وهذا هو الاهم ، يطلب كوبا من الشاي على حساب غيره أو يوحي غامزا بالسؤال عن سيجارة . فلقد كشف لي معارفه الذين يحيطون به أسباب هذا التغيير الاسطوري : « ان سفيرسكي كرس كل انتاجه بالتهكم على العرب ، لدرجة أنه وجد لديه الشجاعة على ان يختلق جذورا تاريخية لعداء ابدي بين الشعوب العربية والسلافية . ومن الطبيعي بعد ذلك أن يصبح مؤلفا مرغوبا فيه ومعترفا به ! ولم تعترف به اسرائيل فقط ، وانما اعترفت به أيضا البلدان الراسمالية الاخرى المعادية للاتحاد السوفييتي . فمنذ اليوم الاول لنشوب الحرب الجديدة في الشرق الاوسط عينت اذاعة « الحرية » سفيرسكي مراسلا خاصا لها في القدس ، وكلفته بمهمات على غاية كبيرة من الاهمية .

ان كل شرير ، وهذا أمر بديهي ، ينمو في وادي الاعشاب الطفيلية . وحتى لا يفتقد

سفيرسكي عشه الذهبي ، فانه بافتراءاته عن وحشية القوات المصرية والسورية قد تخطى بعيدا كل الكتابات الاسرائيلية الشوفينية حول هذه المسألة . بصراحة ، لقد ساعد لهيب الحرب على اثرائه .

ومع ان كتابات سفيرسكي المعادية للعرب قد وجدت طريقها الواسع للنشر ، واذيعت من الراديو باللغة الروسية ، فانها لم تؤثر بشكل كبير على المهاجرين السوفييت . ان اعترافات سميون خونوفيتش بولونسكي المؤثرة لأكبر دليل على ذلك :

« على الرغم من قسوة الحياة في فيينا ، فان ما اسعدني هو شعوري بأنني الآن لن الح على ابني قائلا له بخبث : « من اجل ابيك يا ولدي حاول أن تخلق لدى الآخرين انطباعات بأنك واثق ، وتعلم علم اليقين ، بأن العرب ليسوا من جنس البشر ، وانما هم وحوش » . عندما كنت في اسرائيل لم تسعفني الشجاعة على ان انظر في عيني ولدي . ولكنني كنت مضطرا لأن أعلمه بهذا الشكل . قد يبدو لكم هذا مستحيلا . ولكن كلمة واحدة غير حذرة تصدر عن ولدي كفيلة بأن تجعلهم يحيكون تهمة لي بأنني متعاطف مع العرب . والتعاطف مع العرب هو أقسى تهمة بالنسبة للمواطن الاسرائيلي !

واستمعت الى كلمات آرون أبراموفيتش كورولابنيك الذي شاخ به الزمن :
— « انني أعرف جيدا ، كيف كان الهتلريون يعلمون الالمان : اذا كنت آريا حقيقيا فيجب عليك أن تحقد على اليهود . هل كان بامكاني أن أتصور انا الذي فقدت في الجستابو الهتلري كثيرا من الاقرباء ، بأنني سأسمع ذات يوم من فم اليهود نفس هذه الوصايا العنصرية موجهة ضد العرب ! وتصيبني الرعشة كلما تذكرت الشعارات والاغاني ومقالات الجرائد والخطب داخل الاجتماعات . فكلها تنحصر في قانون لا أخلاقي : « انت ملزم بأن تحقد على العرب » .

[١١]

الاستماع الى قضية اتهام

بعد أن تخلص جابو وعديلته زويا من الحصار الاسرائيلي ووصلا الى فيينا ، سمعا أخبارا مزعجة : لقد غادر بعض أقربائهما مدينة تفليسي الجورجية الى اسرائيل . ومما يثير الغرابة ، أنهم هاجروا من الوطن ، متوجهين الى اسرائيل بناء على برقيات وصلتهم من جابو وزويا ، وكانت تنبض بالتفاؤل . وهذا على ما يبدو هو السبب الرئيسي .

— لم يكتف عملاء الوكالة الصهيونية بتزييف البرقيات . لقد استخدموا كذلك أسلاك التليفون . ثم أخذوا يجرون اتصالات تليفونية مع الاقرباء في تفليسي باسم جوبا وزويا . لذا فان بالامكان تصور الحالة النفسية لهذه العائلة !

ماذا بقي لهما ؟

وكيف يمكنهما أن يستقبلا الاقرباء المخدوعين في محطة القطارات الشرقية لمدينة فيينا ، ويقولان لهما الحقيقة المرة ؟

لقد قام باستقبال القادمين من تفليسي على أية حال ، مندوب من الوكالة الصهيونية ، حيث كلف بنقلهم على الفور من المحطة الى مركز التجمع في « شيونا و » وعزلهم حتى تتم عملية تسفيرهم بالطائرة الى اسرائيل .

شاهد العميل الصهيوني تامير الذي كان في قاعة الانتظار في المحطة كلاً من جابو وزويا مع مجموعة من اصدقائهما الذين فروا من اسرائيل الى فيينا . وعندما ادرك سبب وجودهم في المحطة بعد ان تجسس على اصواتهم اتصل بالمفتش المناوب المسؤول عن قضايا التحقيق في الجرائم البوليسية تشيبيك ، ولفت نظره الى مجموعة « مشكوك في أمرها » . وبمرافقة تامير قام تشيبيك بمراجعة هويات ووثائق الاشخاص الذين حامت حولهم الشبهات . وبينما كان هؤلاء يصغون الى تهديدات تامير بالايديش ، أصبح في علم المؤكد ، بأن حضرة المفتش المحترم هو ايضا عميل صهيوني .

لقد اكد شاهد الاتهام الرئيسي تامير بأن المفتش ابرز لجابو وزويا وأصدقائهم « هويته » البوليسية . اما جابو وزويا والشهود المدافعون فلقد كانوا منفعلين ــ حدث هذا قبل وصول القطار بدقائق ــ ، وأعلنوا انهم لم يروا هوية تشيبيك ، وكان أن طلب آنذاك احد المواطنين الجورجيين السابقين المساعدة من شرطي كان يرتدي الزي العسكري ، عندما سألهم تشيبيك عن هوياتهم . بكلمات أخرى ، ان تشيبيك كتامير تماما .. وهما عميلان للوكالة الصهيونية . واقتنعوا اخيرا بأن بحثهم عن الحماية عند شرطي غير مجد لأن الشرطي هو واحد من العسكر .

وهكذا وجدوا انفسهم ــ الجميع : جابو وزويا وأصدقاؤهم ، ليس على رصيف المحطة وانما في قسم البوليس . وهكذا أيضا لم يستقبلوا اقرباءهم الجورجيين ، وانما تولى هذا الامر العميل الصهيوني تامير الذي استقبلهم بالكلمات المعسولة ، ووفق بنقلهم الى مركز التجمع في « شيوناو » .

استبد الغضب بجابو وزويا معا ، وقاوما المفتش الذي لم يسمح لهما بالتوجه نحو رصيف المحطة . كان تشيبيك يبدو من مظهره الخارجي بأن بامكانه أن يلعب دور العملاق على الشاشة . وحسب شهادة المدعو تامير ، فان زويا التي لا تملك جسما رياضيا قد ضربت المفتش .

لقد قادت هذه الوقائع طبقا لقانون الاتهام كلا من جابو خانانا شفيلي وزويا جفيتيا شفيلي الى قفص الاتهام . لم يكن الامر سهلا بالنسبة للقاضي النمساوي . وهذا الامر مفهوم . وتم استجواب المتهمين وشهود الدفاع بواسطة مترجمة . وكان واضحا أن الامر بالنسبة للمترجمة المسكينة كان شاقا . فبعض الشهود كان يتكلم الروسية بصعوبة ، وهذا ما جعلها تقتضب ما يقال في اكثر الاحيان .

جرى الاستماع للقضية للمرة الثانية . في الجلسة الاولى راى تامير ان من الافضل له الا يظهر أمام هـذا الحشد الكبير من البشر حتى لا يقال ان وراء هذه القضية « الايادي الطويلة للوكالة » ، وان كانت في واقع الحال تبدو على الاراضي النمساوية اكثر من طويلة . فهي قوية ايضا . ومع ذلك أصر المحامي على استدعاء تامير . وهكذا بحثت القضية للمرة الثانية .

أجاب تامير على أسئلة المحامي ، ولم يجرؤ للحظة أن يرفع عينيه في وجهه . كان واضحا أن الذي يدافع عن المتهمين هو هنري ديورماير سكرتير اللجنة الدولية للدفاع عن سجناء ماوتخاوزن ورئيس اتحاد الحقوقيين الديموقراطيين النمساويين .

بالمناسبة ، يجب أن نكون منصفين تجاه النائب العام الذي لم يحتف « بالطالب » . ــ زعم تامير بأنه طالب ، ومن باب الصدفة فقط وجد نفسه في المحطة ــ ونظر نحوه بدون بشاشة .يجب فهم النائب العام الحكومي أيضا . فاللوحة على ما يبدو غير مثيرة

على الاطلاق . — فكيف يحق لمفتش الجرائم البوليسية ، وبكلمة واحدة من العميل الصهيوني أن يضع سبعة أشخاص غير معروفين لديه أبدا تحت طائلة الشبهات ؟

اخذ تامير يتصبب عرقا . ومن ثم صار يتلوى ويدور على نفسه كما لو أنه سقط تحت الاقدام . وعندما انتهى من الادلاء برأيه اختفى بين الشرطة التي كانت موجودة في قاعة المحكمة ، حتى الشرطة اشاحت عنه ، ونظرت اليه ببرود ، مما دفعه الى مغادرة القاعة . لقد كرس المحامي هنري ديورماير خطابه عن أسياد تامير .

— كان من المفروض ان نستمع الى قضية ، يبدو أن المتهمين فيها هم المسؤولون عن تامير — قال المحامي — وعلى ضوء الاقوال التي استمعت اليها . فان تامير لم يخدع فقط اولئك الذين أدافع عنهم ، وانما أيضا وضع في شرك الخديعة الاقرباء التعساء . انني الفت نظر المحكمة الى تنبيهات الصحافة النمساوية المتكررة حول « الاستهتار » الذي يمارسه عملاء الوكالة الصهيونية في عاصمتنا . فهؤلاء العملاء يعلنون على الملأ عن علاقات غير موجودة في الاساس ، بينهم وبين الشرطة . فهم أحيانا يقدمون انفسهم على انهم شرطة . انهم يثيرون حالة من الاستفزاز لدى المرعوبين والضائعين ، الفارين من اسرائيل .

لو كان بالامكان وضع جلسات محاكمة جابو وزويا في اطار عرض مسرحي حسب تسلسل الاحداث ، لأطلقنا على هذا العرض اسم الكوميديا المأساوية . لقد شاهد الجميع دموع الشهود ، عندما أوردت المحكمة اسماء الاقرباء وأبناء الوطن الذين خدعوا ولم يكن باستطاعة جابو وزويا تحذيرهم من مغبة السفر الى اسرائيل . لقد ضجت القاعة بالضحك عندما ذكر المفتش تشيبيك في تقريره الذي القاه أمام القاضي بأنه كان منزعجا عندما أخبره تامير عن وجود مجموعة من الاشخاص في المحطة مشتبه في أمرهم ، وبينهم فتاة خطيرة مجرمة . بل كانت أخطرهم جميعا لأنها قاومتهم وبكل قوة . لقد أصدرت المحكمة حكمها بالسجن على جابو لمدة شهرين ، وعلى زويا لمدة أربعة شهور وبشروط . بعد انتهاء المحاكمة رفض القاضي خوفمان أن يدلي بأي تصريح لممثلي الصحافة الاجنبية المعتمدين في البلاد ، ولمندوبي الصحف النمساوية . ولكنه وافق على أن يتحدث مع كاتب سوفييتي .

خلع القاضي عن نفسه المعطف الاسود الحريري وقال : — « أيها السيد الكاتب ، يبدو أنك تشك في أن الطفلة زويا كانت قادرة على أن تخدش وجه العملاق تشيبيك . ولكن تجربتي في القضاءاقنعتني بأن هذا الأمر كان فعلا وحقيقة . ومع ذلك فقد خففت مدة الحكم عليها بشروط — واصل القاضي كلامه ، وقد شد من عقدة رباط العنق العصري — فلقد توصلت الى أن المحكومين قد فعلا ذلك وبلا وعي . خيل اليهما بأنهما يتعرضان للضغوط لكي يرجعا الى اسرائيل . لذا فقد سيطر عليهما رعب لا انساني تحت احساس ارجاعهما بالقوة الى اسرائيل .

— « رعب لا انساني تحت احساس ارجاعهما بالقوة الى اسرائيل . » . ان هذه الكلمات التي انبعثت من فمالقاضيالنمساوي تعني الشيء الكثير .!

[١٣]

فلنتحدث عن الموفقين

لقد استعرضت في هذه الصفحات المصائر المحزنة لسائقي السيارات ، ولميكانيكيي

اجهزة الراديو ، وللصرافين ، والحدادين ، والبائعين ، والحلاقين ، والطباخ ، ومساعدة الطبيب ، ومدرسة الموسيقى ، والمتقاعدين . فلربما لا يشكل هؤلاء الناس النقص المهني لدولة اسرائيل . يبدو على الارجح أن الاشخاص الذين يتمتعون بمهن وتخصصات نادرة يلقون في اسرائيل الحفاوة والترحيب .

افتراض قائم على أسس . فعندما نتحدث عن هؤلاء الاقرباء الاثرياء ورجال الاعمال والموظفين الكبار من ذوي الجيوب المالية ، فان السلطات الاسرائيلية والمنظمات الاسرائيلية ، تأخذ بعين الاعتبار وجهات نظر هؤلاء الرجال الاثرياء ، وبارتياح تقابل المتخصصين من ذوي المهن المحددة . وتضعهم في أماكن تخصصهم بسرعة . كذلك تؤمن لهم السلطات الاسرائيلية رواتب جيدة ، ومساكن مريحة . ووسط ذويهم من « المهاجرين » يطلق عليهم « الموفقين » .

ـــ ولكن لماذا حتى هؤلاء « الموفقون » يسعون لمغادرة اسرائيل عند أول فرصة تتاح لهم ؟

أمامي الآن مذكرة تحتوي على عشرات الصفحات ، وهي مكتوبة بخط دقيق ومرتب ، وتدل على أن كاتبها انسان منتظم ومنضبط . فمقاطعه ، من وجهة نظري ، كقارىء ، مقنعة .. ومنطقية ، كما أنها تنطوي على براهين متتالية . بيد أن بعض الاماكن في هذه المذكرة ، وهذه حقيقة ، يتسلل اليها التكرار والخطأ وتستدعي التصحيح . على أية حال يمكن تجاوز هذه الاخطاء . فهي على ما يبدو مكتوبة دفعة واحده وبدون مراجعة . فالذين يطلبون الغفران يكتبون بهذه الطريقة بالتحديد .

ـــ ان كاتب هذه المذكرة مرشح في العلوم . وقد عمل سابقا مدرسا في أحد المعاهد السوفييتية الكبيرة ، وكان يستعد لمناقشة رسالة دكتوراه كان قد أنجزها . لقد نشرت لهذا العالم عدة ابحاث علمية ، وأستطيع أن أطلق عليه أسما مزورا ، مثلا ، يفسيبيا ميخايلوفيتش روبنشتيين حتى لا يتعرض للتحقيق في اسرائيل حيث لا زال يقيم هناك مؤقتا .

ـــ لقد آمن يفسيبيا ميخايلوفيتش بالدعاية القومية الاسرائيلية . وانطلاقا من ايمانه هذا قرر أن يقدم مساعدته للشعب اليهودي لكي يتمكن من بناء دولته . ثمة أمر يجب ايضاحه ، فهو لم يفكر بنظام الدولة الاسرائيلية وبنمط الحياة الاجتماعية فيها . لقد كانت عنده رغبة صادقة « ببناء وخلق البلد الفتي » . في اسرائيل عمل روبنشتيين مدرسا في اكبر المعاهدالعلمية في البلاد . وكان وضعه المادي حسنا . ولكن ...!

« لقد فقدت اسرائيل في مسعاها نحو التطور المادي جزءا كبيرا من القيم الاخلاقية والروحية . فهي عندما أختارت نظام الحياة الغربي ورثت عنه الانحلال والانحطاط الاخلاقي ، وهذا ما يتمتع به المجتمع الراسمالي وديموقراطيته الفاسدة » . وتوصل العالم الشاب الى هذه النتائج المحزنة : « ان النزعة نحو كسب الثروة بأي ثمن في ظل القانون قادت الى شعار « كل شيء مسموح به » ، وبالتالي فانها خنقت الضمير الاجتماعي والمثل الاخلاقية . ولقد أصبحت هذه النزعة الجوهر الاساسي والمقياس الرئيسي للعلاقات المتبادلة . وهذا الوضع من وجهة نظر المجتمع الغربي طبيعي . ثمة ما يلفت الانتباه ، فان جيلي الذي نما في ظل الاشتراكية ، لم يتعرف بشكل عملي مفهوم على جوهر « الراسمال » وقبضته المميتة . وفي هذا كما يبدو لي سعادتنا الكبيرة . لأن مقياس سعادة الناس السوفييت قائم على القاعدة الانسانية الحقيقية . وهذا ما يجعل من بلادنا أقوى البلاد في العالم . لذا فان من الصعب على مواطن من

بلادي ان يعيش في مجتمع يختلف تركيبه الاجتماعي عن مجتمعنا . وبكل تأكيد فان مثل هذا الواقع القاسي سيصيبه بالتمزق والاهتزاز ، ولن يجد في هذا الواقع الرعاية والمسؤولية اللتين تعود عليهما في وطنه » . ونتيجة لانهيار الاوهام الممتلئة بخيبات الامل : « لقد شعرت بأننا مهاجرون ، لأن نفسية المجتمع الاسرائيلي تنظر الى القادم الجديد على أنه معدم ويسعى لكي يصبح منافسا في الصراع العام من أجل الوجود . فهو لا يعتبر اخا ، أو ابنا عاد الى بيته القومي ، وانما هو غريب ، هو مادة لعدم اللامبالاة ، وأحيانا هو الشر بعينه . انه وحيد وملقى خارج الحياة » . « انني في حالة قاسية ومرة ، لأنني لم اجد في اسرائيل المتطلبات المادية لوجودي : متطلبات أماني في الخلق والبناء ، متطلبات ذاتي الانسانية ، وقواي الروحية ، حيث كنت أنوي تكريس كل ذلك لاسرائيل . فجميع اهدافي وآمالي التي عقدت العزم على أن أحققها في اسرائيل قد أصبحت عديمة الجدوى . لقد شعرت أنني غريب .. ولست ضروريا لاسرائيل » .

ــ لماذا اسهبت في نقل اعترافات هذا الباحث العلمي الشاب ؟ السبب واضح : لانها تكاد تكون شبيهة بنفس الاعترافات التي سمعتها من موسى ماتوسوفيتش غيتبرغ المتخصص في سبك الفولاذ ، والذي كان مصمما في الماضي لاحدى ادارات البحوث في دنبروبتروفسك . لقد حصل غيتبرغ أيضا على عمل في مجال تخصصه في مدينة كيفون التي لا تبعد عن حيفا . وأمنوا له السكن والراتب . وحتى يتمكن رؤساء غيتبرغ الاستفادة من مؤهلاته العالية استطاعوا أن يعفوه من دراسة اللغة العبرية في «الالبان» ان غيتبرغ يعرف فقط الروسية والالمانية ، لذلك فان بعض رؤسائه كانوا يتفاهمون معه بواسطة المترجم . كل شيء على ما يبدو كان حسنا . لكن ...!

ــ ان الصداقة في اسرائيل تباع . لقد قابلت هناك العديد من المعارف . واعتقدت ان علينا ، في هذا المكان الجديد ، أن نوطد صلتنا . كلا . لقد رأى الواحد منا الآخر منافسا له . وطوال الوقت حامت براسي خواطري : ــ هل يمكن أن افاتحهم بما يعتمل في نفسي دون أن يشوا بي ؟ ــ ولكن . ربما يصبح مثل هذا الامر مسرحية مأساوية . فعند أول همسة صرخ أحدهم في وجهي : أتتهمني بأنني واش . انا ..!. وسرعان ما اعتقدت فيما بعد ،بأن هذا السلوك هو أحد أشكال حياة الاسرائيليين . لقد تحملت ، بخلاف الكثيرين من المواطنين السوفييت السابقين ــ واصل غيتبرغ حديثه ــ الطقس المحلي جيدا . ولم يفرضوا علي كالآخرين أن أدرس اللغة العبرية على الفور . بل العكس . لقد أشعروني بأنني عما قريب سأحصل على ترقية في وظيفتي . ومع ذلك ، فقد داهمني شعور بأنني سأصبح مكتوف اليدين ان لم أغادر اسرائيل . انه الحنين الى الوطن؟ نعم .. وبكل تأكيد . ثم الشوق الى ولدي وزوجتي ؟ وبلا حدود . الا أن السبب الاول في عدم قدرتي على الانسجام مع الغربة ، ومع هذا العالم الغريب الذي هزني هو احساسي بأنني طوال عدة شهور لم أحظ بدعوة أحد العاملين معي للزيارة . اية زيارة هذه ! كذلك لم يحاول أحد منهم أن يتحدث معي حديثا روحيا . فقط أحاديث عادية تتعلق بالعمل . وليس هذا كل ما في الامر ، فأحيانا تجدهم ينشطون ، عندما يتبادر الى اذهانهم بأنني اشك في مدى ولائهم للمثل الاسرائيلية . ويأخذون في التنافس فيما بينهم بالقاء العبارات الشوفينية . لقد أحسست بأن بعض العمال يشعر بما أعانيه من وحدة ، ويريد أن يتعرف مني على التفاصيل الحقيقية للحياة السوفييتية . الا أن هذا البعض لم يتمكن من التأثير على النظام المميت الفارض وجوده الابدي على الشركة .

في اسرائيل فقط ، أدركت بكل ما ينبض في جسدي من حياة ، بأنني تعودت على كل المزايا المتعددة الثمينة للحياة السوفييتية ، هذه المزايا التي شعرت بأنها ضرورية لي في غربتي كالهواء ، وبدونها لا أستطيع أن أعيش . ــ ابدا لا أستطيع .!

فعندما أعلنت للمسؤولين عني بأنني سأغادر اسرائيل ، صرخ أحدهم في وجهي بغضب « أنت مسمم بطابع الحياة السوفييتية » .

— فليكن . على آية حال انه محق بقوله .

لن أورد هنا الكثير من أقوال غيتبرغ لأنها تنطبق مع اعترافات روبنشتيين التي ذكرناها . ولنتحدث الآن عن عائلة برافشتيين التي عاشت سابقا في كييف .

طبقا للمفهوم الاسرائيلي ، فان هذه العائلة هي عائلة سعيدة نسبيا . فالزوج مهندس معماري ، والزوجة مهندسة معمارية كذلك . بوريس برافشتيين شاب ، ذو مستقبل ، يتولى الاشراف على مكتب تصميم مشاريع . ابنه وشقيقه استشهدا على جبهة الحرب الوطنية . لقد الح بوريس على زوجته بأن تسافر معه الى اسرائيل . أخيرا علم بوريس بأن احتكاكاته بالفنانين الاسرائيليين الذين اقاموا حفلاتهم الفنية في كييف ، ولقاءاته مع سياح دولة اسرائيل قد لعبت بالنسبة له دورا قاتلا . فلقد أقنعوا برافشتيين بعد أن وصفوا له الجنة على أرض الاجداد بأن من واجبه أن يعيش ويعمل في الوطن اليهودي .

وهكذا يغادر بوريس وزوجته مع أطفالهما الاتحاد السوفييتي تاركين وراءهم في كييف أقرباءهم . لقد حصل المهندسان — بوريس وزوجته — على عمل مريح . وتعتبر شقتهما جيدة طبقا لواقع الحياة الاسرائيلية . ولكن الزوجين ، أخذا يشعران يوما بعد يوم ، وبجلاء ، أنهما ارتكبا خطأ فادحا ، وان لم يفصح الواحد منهما للآخر عن مكنون احساسه .

وذات يوم من أيام اجازتهما الاعتيادية ، تفاهما بصراحة ، وقررا بلا رجوع : أن الخطأ لا يمكن أن يصبح قدرا حتميا ، يجب مغادرة اسرائيل ! — ما الذي دفعهما الى اتخاذ مثل هذا القرار ؟ وحتى أجيب على هذا السؤال ، سوف أستخدم أقوال بوريس برافشتيين التي أدلى بها لصحفيين نمساويين مستثنيا تلك الاقوال التي تتطابق مع اعترافات الدكتور في العلوم برافشتيين ، والمصمم غيتبرغ .

— هل من المعقول أن تمر اللقمة في الحلق ، عندما يتبادر الى علمك أن واحدا من الذين جاءوا معك ، وهو انسان تعدى الشباب ، قد تحول الى عاطل عن العمل ، ويعاني من الجوع .

عاطل عن العمل ! لقد كان هذا المفهوم بالنسبة الينا قبل سفرنا الى اسرائيل مفهوما تجريديا . وهل من المعقول أن ينام الانسان مطمئنا ، وهو يعلم ان امرأة سوفييتية مريضة وحالتها خطرة ، قدرفضوا ادخالها المستشفى : لم يكن لدى هذه الامرأة المعدمة نقود تدفعها ثمن العلاج . ولكن ليس هذا هو الحد الادنى للعلاقات اللاانسانية تجاه المرضى . لقد شاهدت أنا وزوجتي أطفالا صغارا وقعوا تحت وطأة المرض ، وقد القي بهم خارج المستشفى ، لأن آباءهم قد تجاوزوا موعد دفع ثمن العلاج .

— وهل كان بامكاننا أن نكون لا مبالين ونحن نشاهد العسكر وهم يضربون ذوي العاهات ، فقط لأنهم احتجوا ضد تخفيض الاعانات المالية ، مع ان ذوي العاهات من السكان القدامى في فلسطين وهم يعتبرون من المواطنين المميزين في اسرائيل . ولكن السلطات الاسرائيلية تعاملهم باستخفاف ، لأنهم فقراء وضعفاء . وهذا أبسط مثل لحقوق الانسان على الطريقة الاسرائيلية !

وعما قريب سوف نرى أن الواقع المرير لنمط الحيـــاة الاسرائيلية قد داهم عائلة

برافشتيين نفسهما مباشرة . فلقد رفض الاسرائيليون أن يعترفوا بأطفالهما على انهم يهود ، وأطلقوا عليهم لقب الاطفال « اللامطهرين » . فعل الوالدان المستحيل . ولم يدعا دائرة ما الا وطرقاها . ولكن دون جدوى . وقد نصحوهما بأن يقدما الاعتذار للسلطات الدينية . وليس من الصعب التصور كيف استقبل الحاخامات الزوج والزوجة اللذين خرقا تقاليد العقيدة المقدسة . وصار من المتعذر على الاطفال كذلك أن يذهبوا الى المدرسة حيث سخروا منهم هناك وسمموهم . ثمة أمر ، فقد لاحظ هؤلاء الاطفال على ستراتهم وعلى حقائبهم كتابات مهينة وبذيئة . — حقا . انها لطفولة سعيدة ، أليس كذلك ؟

والادهى من ذلك ان برافشتيين لم يخف اعتذاره عندما قال للعاملين معه ان أخاه قد منح وساما في كييف . — كيف يحق لانسان يحمل جوازا اسرائيليا أن يظهر اعتزازه بمثل ذلك الأخ ؟ لذا يبدو أن هناك من رأى في ذلك اتجاهـــات معادية لاسرائيل . وانصبت على رأس برافشتيين بعد ذلك مشاكل جديدة .

أعتقد أن ما ذكر كان سببا كافيا دفع برافشتيين لأن يعلن أمام الصحفيين النمساويين : — « لقد أمضيت في فيينا اربعة شهور طوال بلا عمل على الاطلاق ، وفي حالة من الرعب المتواصل نتيجة استفزازات عملاء الوكالة الصهيونية ، وهذا ليس أمرا هينا أبدا . ان هذه الشهور الاربعة التي أمضيتها في فيينا كانت بالنسبة للسنتين اللتين عشتهما في المنفى الاسرائيلي شهورا من الراحة والاستجمام . . . » .

وهذان زوجان آخران « موفقان » — فيودور دافيدوفيتش ايدل سبورغ الذي عمل مسؤولا تكنولوجيا في احد المعاهد العلمية للبحوث . — آنا بوريسوفنا تبليتسكايا حصلت في الاتحاد السوفييتي على الدراسات العليا في المسرح .

من الصعب الآن الاعتقاد بأنهما عندما سافرا الى اسرائيل كانا قد قررا لنفسيهما مسبقا على أن سفرهما الى اسرائيل لن يكون الى الابد . لكن من السابق لأوانه القول ان الباحث العلمي ومخرجة فن الهواة لم يعلما أنه من الصعب عليهما التلاعب بالجنسية السوفييتية . غير أن اعترافات تبليتسكايا المحزنة جديرة بالثقة : « ان احساسنا بالوعي ، بأننا أنا وزوجي سنعيش حتى آخر أيام حياتنا في اسرائيل كاد يفضي بنا الى الجنون . لقد وجدنا أنفسنا كما لو أننا وقعنا في عالم آخر ، حيث تتحكم القسوة واللامبالاة بمصائر الناس ، ومن ثم صارت هذه القسوة واللامبالاة مظهرا من مظاهر السلوك . وحتى لا يصطدم الانسان يوميا بهذا الواقع ، عليه أن يعيش في داخل برج منفصلا كليا عن الناس .

وتصرخ الصحافة الاسرائيلية عن الكومونيكابلنوست ، لكننا الآن على أتم الاستعداد لأن نمزق تسعرنا : لقد لمسنا الكومونيكابلنوست الحقيقية هناك في كييف ، وفي كل مدينة سوفييتية كنا نسافر اليها !

اما في اسرائيل فان مظاهر الوحدة كنا نلاحظها وسط العمال فقط . لقد كان من الصعب علينا أن نقيم اتصالات مع العمال ، لأن ذلك معناه أن نثير تجاهنا شكوك المسؤولين : — كيف يصح لعائلة شخصية علمية بارزة ، لعائلة أكاديميين يتمتعان بامتيازات أن تحتك بالعمال البسطاء !

ثمة دلالة . نعم . فلو بقيت لدى الانسان مشاعر انسانية لوجد نفسه يتصرف تحت أي ثمن ، وتحت أيةظروفحياتية ، ولكن دون أن يمارس وجوده في ظل واقع انعدمت

فيه القيم الاخلاقية وسيطرت عليه شوفينية التاريخ البربري . لقد كان باستطاعتي انا وزوجي أن نسوق عشرات الامثال التي قادت بنا الى اتخاذ قرارنا بالفرار من اسرائيل . ولكني سأصور كل ذلك بكلمات ثلاثة : صورة الحياة المروعة !

لقد أوردت محدثتي هذه البراهين التي تعكس ملامح المجتمع الاسرائيلي المميزة ، هذه الملامح التي يعترف بها حتى الفلاسفة الغربيون في المجتمع البرجوازي المعاصر . ففي اسرائيل ــ الدولة البرجوازية ــ تكون الواقع المريض نتيجة لحروب الاغتصاب الاستفزازية ، وأدى بدوره الى انعدام الانسانية التي يشعر بفقدانها الانسان وبشكل حاد . لذا لم استغرب عندما أنهت تبليتسكايا كلامها على النحو التالي :

ــ لقد شعرت عندما كنت في اسرائيل ، كم كانت مدينة كييف انسانية . هذه المدينة التي تعتبر بالنسبة لي أعز مدينة على نفسي !

تذكرت بعد هذا الحديث مع الكييفية السابقة القصائد العظيمة . قصائد الشاعر السوفييتي اليهودي الكييفي دافيد غوفشتيين ، واخذت استعيد على ذاكرتي مقاطع من قصيدته « كييف » :

انني اراك يا مدينتي

كانت غالية

حتى الدموع

غالية ،

حتى الالام

لقد كتب غوفشتيين هذه الابيات في عام ١٩٤٣ ، عندما كانت مدينة كييف ترزح تحت اقدام الهتلريين المحتلين . آنذاك توجه الشاعر الى المحاربين السوفييت في الدنيبر قائلا :

صعدوا ضرباتكم الجبارة

كي يصطبغ الدنيبر

بدم الاعداء

لا شك أن تبليتسكايا الممثلة السابقة التي مثلت على المسرح اليهودي ، تعرف شعر غوفشتيين الرائع ، الذي كان يكره بعمق الشوفينية ، والذي غنى برقة صادقة للأخوة بين الشعوب . وهي تعرف كذلك أن الشاعر غنى فقط لأولئك اليهود الكييفيين الذين غادروا كييف متوجهين عبر البراري ، وعبر ادغال شرق سيبيريا البعيدة لفلاحة الارض ولبناء مدن جديدة . ثم لماذا لم تتذكر تبليتسكايا . وهذا أمر مؤسف ، مقاطع الشاعر المتقنة المتماسكة ، عندمافكرت أن تستبدل جنسيتها السوفييتية بالجنسية الاسرائيلية . لو فعلت ذلك ، لما أمضت الآن هي وزوجها الليالي القاتلة في المدينة الصاخبة على الدوناي ، حيث تبدو الحياة قاسية ومريرة لأولئك الذين بلا وطن .

وليس صدفة أن يقول المهندس زلوتسكي ، وهو الذي يقدر كل كلمة ينطق بها ، دون اي انفعال كاذب : ــ « لو خيرت بين الموت وبين العودة الى اسرائيل ، لفضلت الموت » .

ان هذه الكلمات تتوج بشكل مقنع وقاطع القصة عن المهاجرين « الموفقين » .

[١٣]

من اين تبدأ الغربة ؟

ــ لقد اتيحت لي الفرصة سابقا ان ارى قصر « شيوناو » القديم المحاطة ممراته بالاسوار الحديدية ، قبل أن تعلن الحكومة النمساوية عن عدم رغبتها في اقامة مركز تجمع على أراضيها للمواطنين السوفييت اليهود السابقين الذين يتوجهون الى اسرائيل . .

وانا عندما اذكر هذا المكان ليس من باب الرغبة في رسم لوحة رائعة لخندق من المياه وحاجز كئيبمن الاسلاك الشائكة التي تحيط بقصر مهجور يحمل الى حد ما تسمية شعرية « شيوناو » وهي تعني « روضة جميلة » . كذلك لست بصدد اعطاء وصف خارجي وداخلي لهذا العدد الكبير من الحراس الشبسان الذين يرتدون القمصـــان العسكرية الزرقاء ، ويحملون على أكتافهم الرشاشات ، والاجهزة اللاسلكية معلقة بأحزمتهم السوداء الكبيرة . فالمكان الذي تحتجز فيه الادارة الاسرائيلية المواطنين السوفييت السابقين فورا بعد مغادرتهم أرضنا سواء في « شيوناو » أو في أي مركز تجمع آخر ليس هو المهم . المهم هو أمر آخر : وبالتحديد من مركز التجمع الذي يحمل طبقا للنظام المعمول به اسم المرحلة ، ومن هذه المرحلة تبدأ الرحلة مع الغربة . فمن وراء قضبان الشبابيك التي يخترقها نباح الكـلاب الاخرس ، يتعـــرض المواطنون السوفييت السابقون على أيدي ممثلي الدولة الاسرائيلية لما يسمى بالاستجواب لعدة ساعات طوال وذلك للحصول منهم على المعلومات والتفاصيل .

ــ بصراحة ، ان الاسئلة التي تطرح عليهم هي اسئلة تجسسية ــ هذا ما تقوله الطبيبة لوبوف ايلينيتشنا غوردينا ، وهي مواطنة سابقة من مدينة ريغا ــ . لقد حاولوا أن يجدوا في كل واحد منا « آلة استعلام » أو في أسوأ الحالات مزيفا . حتى النساء اللواتي كما هو معروف ، لا يستدعين في الاتحاد السوفييتي للخدمة في الجيش كما هو الحال في اسرائيل لم يفلتن من محاولة الاستجواب . لقد حاولوا الحصول منهن على معلومات حول تواجد القوات السوفييتية . كذلك طلبوا من الرجال أجوبة خطية حول هذا الموضوع . لقد استمعت باذني الى الاستجواب الذي تعرض له شاب من أوكرانيا سابقا من قبل عميل صهيوني لم يستطع أن يخفي حنقه الشديد : « الهذه الدرجة أنت ساذج ؟ ، ألم تستطع أن تدرك بنفسك أننا لسنا بحاجة الى ايمانك ! » .

وتنطبق حكاية غوردينا مع حكايات : المواطن الكييفي السابق غولدنيفا ، والمواطن الريفـــي السابق ميشكوفنا وآخرين ، مـــع أنهم تواجدوا في مركز التجمع في فترات متباينة ، وتعرضوا للاستجواب من قبل مستجوبين مختلفين .

يعطي القادة الصهيونيون للاستجواب الاول (الاستجواب الثاني يتم في مطار اللد) أهمية بالغة : فالشخص القادم الى اسرائيل ، كان منذ ساعات على أراضي الاتحاد السوفييتي . ان أعصابه متوترة ، ولم يع بعد ما الذي حدث له ، لذا يجب الاستفادة من ذلك ! وهكذا ينصب على كل من تطأ قدماه مركز التجمع المعزول عن العالم الخارجي سيل من الاسئلة :

ــ هل يوجد وسط معارفكم من الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي من يعمل في مجال الاختراعات والاكتشافات العلمية .؟

ــ هل تعرفون عناوينهم بالضبط .؟

— ما هي الوسيلة من وجهة نظركم لحثهم على السفر الى اسرائيل .؟

— هل يوجد وسط اقربائكم ومعارفكم من يستوجب توجيه دعوة سريعة له .؟

— هل يوجد وسط معارفكم من سافر أو هو بصدد السفر الى اسرائيل ولم يعبأ صهيونيا كما هو مطلوب .؟

— من الذي سافر الى اسرائيل ، من وجهة نظركم ، دون رغبته الشخصية .؟

— هل باعتقادكم أن أحدا من الذين وصلوا يجب وضعه تحت المراقبة .؟

وفي حالة الدوران حول الاجابة على مثل هذه الاسئلة الاستفزازية ، فان المستجوب يتعرض لتنبيه يحمل معاني كثيرة : — تدقيقك ليس في مكانه ، وعليك الا تلزم الصمت ، بل عليك انتتكلم . . ان تتكلم !

لقد كتبت هذا الفصل تحت عنوان « من اين تبدأ الغربة ! » . ولكني أدركت الآن ، عندما أخذت تطوف بخيالي هذه الحكايات الكثيرة عن الاستجوابات في مراكز التجمع ، ان الامر ليس على هذه الصورة ، حيث يبدأ بالنسبة للكثيرين من المواطنين السوفييت السابقين « المعسكر العدواني » وليس « الغربة » .

ان الكثيرين من الذين غادروا الاتحاد السوفييتي باسم المثل الصهيونية مضطرين للاعتراف الآن بأن اخوتهم الاسرائيليين ينظرون الى هذه المثل وبالدرجة الاولى على انها « المعاداة للصهيونية » . ثمة من يحاول القيام بدور المستورد « للآثار الادبية » مستهدفا من وراء ذلك أن يكسب لنفسه « رأسمالا سياسيا » وأن كان الجزء الاعظم من الصائدين وراء « الآثار » ينتهي وهذه حقيقة الى موقف مخجل .

فهذا اتسفي كارمال مثلا ، الذي يقيم حاليا في المدينة الاسرائيلية ناتانيا ، تسرع عندما أعلن بأن احد اكبر الشعراء السوفييت قد كلفه شخصيا بنشر قصيدته الجديدة في اسرائيل ، هذه القصيدة التي تتناول الوضع القاسي لليهود في البلاد السوفييتية . وتبعته الصحافة الاسرائيلية وأعلنت بتسرع كذلك : ان كارمال الوطني الاسرائيلي المخلص قد قام بتمزيق نص القصيدة المذكورة بدقة ، ابان تفتيشه في الجمارك ، بعد أن حفظها عن ظهر قلب . ونشرت القصيدة الى جانب ملاحظات كثيرة عن معنى تغطية اسم الشاعر الحقيقي . وتناقلت الاذاعات المعادية للسوفييت مقاطع منها واذاعتها على الفور . وبعد مرور بضعة أيام اضطرت الصحافة الاسرائيلية للاعتذار بكل خجل أمام قرائها « لعدم الدقة » في نشر القصيدة . لقد اتضح أن انتاج الشاعر السوفييتي الكبير الممنوع ، هو قصيدة « لقد نشأت غريبا » للشاعر الروسي سيميون نادسون الذي عاش قبل الثورة . لقد نشرت هذه القصيدة لأول مرة عام ١٩٠١ ، وهي منشورة ضمن أشعار نادسون .

وما دامت هناك مجموعة جاهزة للتحرك عبر ما يسمى « بالمرحلة » الى مطار اللد ، فسوف تحاول الوكالة الصهيونية مستخدمة شتى الوسائل لقطع خط الرجعة على المواطنين السوفييت . وهنا تتدخل لمساعدة الوكالة الصهيونية البضاعة المزيفة لانسان بلا وطن وهو سولجينتسن . وهذه البضاعة صدرت في الخارج وباللغة الروسية بواسطة الاجانب المعادين للسوفييت .

لقد قال شاب لغريش مايمان بكل ثقة ، وكان يحمل مسدسا ، ويقوم بمهمة أمين

مكتبة مركز التجمع في « شيوناو » : سأعطيك كتابا جديدا لسولجينتسن بدون أن تقف في الطابور . ولكن عليك أن تكتب باختصار ، بالروسية طبعا ، الانطباعات التي تركها بنفسك هذا الكتاب . لا تخش شيئا . فهي ضرورية لدار النشر ، ولمسألة الاحصاء فقط .

لقد شاهدت ــ قال مايمان ــ كيف أخفوا في الخزانة الحديدية وبحرص شديد هذه الانطباعات التي لم تستدع اطلاقا اعطائي الكتاب بدون طابور ، لأن معنى ذلك أن مؤلفات سولجينتسن ستتكوم على الارفف في مركز التجمع . وهذا ما دفعني الى أن أتذكر ذلك الكيفي السابق . لقد اقترحوا عليه في اسرائيل ان يكتب في احدى الجرائد الصهيونية مؤكدا ان المقاطع السينمائية التي تم عرضها على شاشة التليفزيون بعد المونتاج عن سولجينتسن هي وثائقية . لكنها في حقيقة الامر كانت عبارة عن مقاطع سينمائية معادية للسوفييت طبخت على أنغام الكتابات السولجينتسية .

وفيما بعد صار يستخدم الاستفزاز ضد كل من بقي في مركز التجمع بصور شتى ، وليس فقط بمساعدة مؤلفات سولجينتسن . فهناك « قاعة اللوحات الفنية » التي استخدمت هي الاخرى لاثارة انتباه المتعلقين بقضايا الفن . ويمكن القول أن لوحات الفنانين التجريديين الذين لم تحظ معارضهم باقبال احد ولو ليوم واحد ، على الرغم من انها عرضت في مختلف « القاعات الفنية » للمدن ، تعرض دوريا في هذه القاعة . ولهذا الغرض قاموا بتنظيم زيارات لمشاهدة معرض اللوحات الفنية . وبعد خمس دقائق من مشاهدة المعرض ، كانوا يطلبون من كل واحد تسجيل انطباعاته في دفتر الزيارات .

لقد اطلعت على هذه الانطباعات . انها قليلة على اية حال ، وان كانت تحمل في اكثرها الاعجاب « بالفن المعاصر في العالم الحر » . ومن الانطباعات التي اطلعت عليها كانت انطباعات نولين الذي أطلق على نفسه نحاتا . وفيما بعد لم اعثر لأي اثر على اسم هذا المدعي في فهارس مؤلفات النحاتين السوفييت . وقال لي المهاجرون من مدينة حيفا عن اللقاء الذي قوبل به نولين السالف الذكر في « العالم الحر » عندما أخذ يتحدث عن قضية النحت . لقد قاطعوه . واقترحوا عليه ان يقوم بعمل آخر غير النحت ، أن يقوم مثلا بتلوين نماذج الاعلانات .

وعندما ودع نولين معارفه الذين غادروا اسرائيل تنفس بحزن « يبدو لي أنني سأمضي عمري هنا . أما أنتم فلديكم على أية حال شبه أمل في أن تصفح عنكم الدولة السوفييتية . أما أنا فبصفتي مخبولا ، فقد عمدت فور وصولي الى اسرائيل الى تشويه صورة الفن السوفييتي المعاصر امام مندوبي الصحافة الاسرائيلية . انكم تعلمون كم كان تلفيقي فارغا وبلا معنى ، ومع ذلك فانهم هنا ينشرونه . فهل بامكان انسان مثلي أن يطلب استعادة الجنسية السوفييتية ــ طبعا سيذكرونني على الفور بأكاذيبي ! » .

إن أول من سيذكر نولين عند ابداء رغبته بمغادرة اسرائيل هي السلطات الاسرائيلية . ستذكره بانطباعاته المدونة في دفتر الزيارات اثناء مشاهدته لمعرض اللوحات الفنية . وبالطبع ستطلعه هذه السلطات على نسخة مصورة لانطباعاته المدونة .

حدثني أحد المهاجرين عن اعترافات نولين التي جاءت متأخرة قليلا :

ــ ما الفرق بيني وبينه ؟ صحيح انني لم ادل لمندوبي الصحافة الاسرائيلية بأية اقوال معادية للسوفييت . ولكني أيضا نسيت أن البلاد السوفييتية جعلت مني انسانا .

لقد عاش والداي حياة تعيسة حقيرة ، وكانا محرومين من اية حقوق في العهد القيصري . أما أنا فقد أصبحت متخصصا ، وحصلت على الدراسات العليا . ومع ذلك ، نسيت كل هذا . نعم ، نسيت ، وليس كل هذا فحسب .

وقال ثان :

ــ عندما احرق الهتلريون اليهود في افران معسكرات الاعتقال ، اقدمت عائلة بيلوروسية على انقاذ والدي من الموت . وقام الروس فيما بعد بتهجيرهما مع الآخرين الى اوزبكستان بعيدا عن خطوط الجبهة . لقد حدثتني أمي عن العناية الحارة هناك .

اما انا ...

والثالث حبست صوته الدموع :

ــ من مدة استعادت ابنتي شريط ذكرياتها ، وتذكرت كيف أمضت شهرا اسطوريا في « آرتيك » ! « هل نسيت كل هذا فقط ! ــ يا الهي ، كم من الاشياء الرائعة قد نسيت منذ اللحظة التي قررت فيها ان اغادر ارضي » !

« ــ كيف استطعت ان انسى ؟! » .

هذه العبارة يرددها الآن اناس من مختلف العمر ، ومن مختلف المهن ، أناس غادروا الاراضي السوفييتية من مختلف زواياها .

ــ ليس هذا غريبا . فصورة الحياة الاسرائيلية تذكرهم في كل خطوة يخطونها كيف أنهم استطاعوا ، او بالاحرى كيف واتتهم الشجاعة على النسيان .

وهذا واحد من مئات ، بل من آلاف الأمثلة : لقد سقط على الارض سلك مكهرب ــ يقول فلاديمير ريبزين ــ وأمام نواظري وقع شخص على الارض ، وصدمه تيار السلك المكهرب .

لا ادري اين يوجد اقرب تليفون .؟

أخذت اتلفت حولي كشخص عاجز لا يستطيع ان يفعل شيئا . صار الجمهور الذي احتشد حول المصاب يبكي . صرخت : « لماذا لا يستدعون له الطبيب ؟ » .

اوضحوا لي عمليا : يجب اولا تفتيش جيوبه ، ومعرفة اذا كان يحمل نقودا او في اسوأ الحالات وثائق معتبرة .

لم يخطر على بالي عن اية وثائق يدور الحديث في مثل هذه اللحظة الحرجة .

قالوا لي : الحديث يدور عن الوثائق التي تثبت ان بامكان هذا الانسان ان يدفع اجرة المساعدة الطبية عند اجرائها له .

ــ صرخت من الغيظ : بماذا تفكرون ؟ يمكن والحالة هذه ان يلفظ انفاسه !

سمعت جوابا مضحكا : « ان كنت صاحب مصرف فاستدع انت له الطبيب ، وادفع انت عنه اجرة العلاج ! » . عندما حدثت اسرتي عن هذه الحادثة الرهيبة ، اخذ كل واحد فيها يتذكر : كنا نعالج جميعا نحن واقرباؤنا وفي كل الحالات والظروف مجانا .

وكان الطبيب ، مرارا ، ليلا أو نهارا ، يحضر للمنزل عند أول اشعار . آخ .! لا وقت الآن للتذكر ، ولتعداد ذلك . فكل ما يجول الآن في الخواطر أمر واحد : ــ كيف استطعت أن أنسى . ولو لدقيقة .!

ــ كيف استطعت أن أنسى ؟!

لقد استمعت للعديد من هذه الاعترافات من المواطنين السوفييت السابقين الذين فروا من اسرائيل . وعندما اتذكر تفاصيل ودقائق حكاياتهم أرى بوضوح ، أن غربتهم لم تبدأ من مركز التجمع ، وانما بدأت من النكران الاسود بالعرفان لأخوة العائلة بين الشعوب السوفييتية . من الخيانة ، حيث كان القلب ينطوي على أفكار لحساب « الوطن الثاني » . ومن النسيان الذي لا يغتفر ، لكل ما أعطته لهم الارض الغالية . وان هذا النسيان لهو الفاصل الاول للانهيار الذي قادهم الى المصير الرهيب ، حيث يعتبرون الآن مواطنين سابقين للدولة السوفييتية .

[١٤]
اسوا من الموت

السابقون ..!

الا يبدو أن هذه الكلمة كثيرا ما تتكرر في مقالاتي الوثائقية ؟

كلا . انها الكلمة التي لا تعرف الحلول الوسطية والقادرة على طرح الوصف الدقيق لمصائر هؤلاء الناس الذين غادروا الاتحاد السوفييتي الى اسرائيل .

ومع أن هؤلاء الذين تحدثت عنهم لم يرغبوا في أن يتحولوا الى مواطنين اسرائيليين ، لانهم تيقنوا بعد ان رأوا بأم عيونهم ، أنهم سقطوا على أرض غريبة ، وبين أناس غرباء ، وفي وسط اجتماعي غريب .. بكلمة واحدة .. سقطوا في الغربة . وعلى رغم كل ذلك ، فهم السابقون . وبكل ما تحمل هذه الكلمة من قسوة في الرأي .

لقد كانوا أناسا يتمتعون بحقوق كبيرة . وكانت آفاقهم بلا حدود . وكانت الدروب مفتوحة أمامهم على مصراعيها ، ولكنهم ضلوا في متاهاتها المظلمة . كانوا واثقين من مستقبل أطفالهم . أما الآن ، فليس لهم الحق أن ينظروا في عيون هؤلاء الاطفال ، والا فسوف يصطدمون بنظرات مشحونة بالتنديد .

وعلى الرغم من كونهم غارقين في مصائبهم ، الا أنهم يفكرون في أولئك الذين بدأت تتحرك في بطونهم سموم الدعاية الصهيونية ، حيث يقفون على حافة القدر المحتوم .

انني أجد نفسي ملزما في هذه المذكرات التسجيلية التي لم ارتكب في اية كلمة من كلماتها الخطأ ضد الحقيقة بأن اختتمها بكلمات المهندس زيلبرفاين وهو أحد القاطنين في البيت القائم على مالتسغاس . انه كثير الصمت ، ويمعن في التفكير . وتجده كذلك يصمت ، حتى عندما تسيل من حوله دموع الذكريات عن مدينته أوديسا ، والتي لا يحق له الآن ان يطلق عليها أوديسته الغالية بحكم خطيئته التي ارتكبها .

قال زيلبرفاين :

ــ اريد ان أصرخ بأعلى صوتي . واصرخ حتى يسمعني كل من يلتف حول المذياع في الليالي ، ويصطاد « صوت اسرائيل » الذي سبب لنا آلاما لا نظير لها .

ــ أريد أن أصرخ: أيها الناس لا تكرروا خطأنا الرهيب ، لأن هذا الخطأ قد يبدو من المستحيل علاجه .

ــ أيها الناس . انه لأسوأ من الموت ان يصبح الواحد منا مواطنا سابقــا للوطن السوفييتي .

الجبل الصغير *

« مقاطع من قصة لم تتم »

الياس خوري

يسمونه الجبل الصغير ، وكنا نسميه الجبل الصغير . نحمل الحصى ، نرسم الوجوه ، نبحث عن بركة ماء نغتسل بها من الرمل ، او نملؤها رملا ونبكي . نركض بين حقوله او ما يشبه الحقول ، نأخذ سلحفاة بين ايدينا ، ونمضي بها الى حيث اوراق الشجر الخضراء تغطي الارض . نخترع اشياء نقولها او لا نقولها . يسمونه الجبل الصغير ، كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

تلة واحدة او مجموعة تلال . لم اعد اذكر ، ولم يعد احد يذكر . تلة على الطرف الشرقي لبيروت سميناها جبلا ، لان الجبال كانت بعيدة . جلسنا على منحدراتها وسرقنا البحر . الشمس تطلع من الشرق ، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق . نقطف السنابل حبة حبة لنلهو بها . كان الفقراء او ما يشبه الفقراء يركضون اطفالا بين حقول التلال ليسألوا اشياء الطبيعة عن اشيائهم . هذا الذي نسميه عيدا كان يوما ككل الايام ، لكنه يختلط برائحة البرغل والعرق . نأكلها بين اشياء الطبيعة لنخبرها عن اشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلما . كان الجبل الصغير مجرد حافة نخترقها في تعجب وكبرياء . ننسج القصص عن احزاننا وننتظر لحظات الفرح او الموت ، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الايام .

يسمونه الجبل الصغير ، وكان يمتطي الحقول الواسعة الى شجيرات الصبير المنتشرة في انحائه . كانت النخلة التي امام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار . او كنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا . لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي . فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط . تركناها تنحني يوما بعد يوم . وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي .

كنا نخاف على الجبل وعلى نباتاته . وكان يتقدم الى حافة بيروت ويسقط فيها . وشجيرات الصبير التي تجرح ارجلنا ، تموت ، والنخلة تنحني والجبل يتقدم الى حافته .

★ الجبل الصغير ، هو الاسم الشعبي الذي كان يطلق على حي الاشرفية في بيروت .

يسمونه الجبل الصغير . كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

★ ★ ★

جاؤوا خمسة رجال يقفزون من سيارة جيب شبه عسكرية . يحملون البنادق الرشاشة في ايديهم ، يطوقون المنزل . يخرج الجيران من منازلهم يتفرجون . احداهن تبتسم وترسم بيدها علامة النصر . يتقدمون الى المنزل ويطرقون الباب . تفتح امي باب البيت بتعجب . يسألها قائدهم عني . خرج مــن البيت . ـــ اين ذهب ـــ لا ادري .

ـــ تفضلوا اشربوا فنجان قهوة .

يدخلون . يبحثون في البيت عني . لم اكن هناك . يبحثون بين الكتب والاوراق. لم اكن هناك . اكتشفوا كتابا على غلافه الخلفي صورة عبد الناصر . لم اكن هناك قلبوا الاوراق واثاث المنزل . شتموا الفلسطينيين . كسروا سريري وهم يفتشونه . شتموا امي والجيل الفاسد . لم اكن هناك .

وقف قائدهم ، يحمل على كتفه بندقية رشاشة وفي يده مسدسا يتوعد . الافضل ان لا يرجع الى هنا .

لم اكن هناك . امي كانت هناك ، ترتجف بالحزن والحقد ، وتمشي في البيت بعصبية . توقفت عن الاجابة على اسئلتهم وتركتهم . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعيـــة الدولية . جلست على كرسي في المدخـــل تحرس بيتها ، وهـــم في الداخل يمزقون الاوراق والذكريات . جلست على كرسي ، وهـــم يرسمون اشارة الصليب على وجوههم علامة الحقد او الفرح .

خرجوا ، رفعوا ايديهم في الشـارع باشارة النصر . وكان بعض الناس ينظرون اليهم ويرسمون شارة النصر .

★ ★ ★

سميناه الجبل الصغير عندما كنا صغارا نركض في شوارعه الترابية او عـــلى حافة الاسفلت الذي يجرح اقدامنا . نمشي في شوارعه لنبحث عن اشيائنا ونلعب . وفي ايام العطلة أذهب مع ابي واخوتي الى حقوله التي كانت تسمى السيوفي ، حيث نلهو بحرية بين اشجار الزيتون والزنزلخت . هناك نقف على تلة عالية مشرفة على ثلاث طرق ، طريق نهر بيروت ، طريق كرم الزيتون ، وطريق ثالث كنا نسميه طريق بيتنا . نقف على التلة العالية الواسعة ، نركض فيها ، ونخاف دائما من السقوط في احد الطرق الثلاث .

وقف فوق التلة العالية . يمسك بيده اليمنى يد والده الكبير . كان ينظر الـــى السيارات التي تسير بعيدة عنه في الطريق ويتعجب من كونها صغيرة الى هذا الحد انها لا تشبه ابدا السيارة التي يذهب بها عادة الى منزل خاله البعيد . سيارات صغيرة جدا ، تسير خلف بعضها ، كأنها سيارته الصغيرة التي اشتراها له والده وجعلهـــا تسير امامه ، وهو يغني لها . السيارات المعدنية التي تمشي لا صوت لها . تسير في حركة رتيبة خلف بعضها وفي خط مستقيم دون ضجيج او زمامير . لا تتوقف . في

داخلها ما يشبه الناس الصغار الحجم . انهم ليسوا اطفالا في مثل سني ــ كان يفكر ، وعندما سأل والده مرة عن سر كون هذه السيارات صغيرة الى هذا الحد ، اجابه والده بلهجة العارف بالاسرار ، ان السبب يعود الى كون الاشرفية جبلا ، كان البيروتيون يقصدونه للاصطياف . وهي جبل عال بالقياس الى بيروت . فالمسافة التي تفصلنا عن طريق نهر بيروت هي مسافة عالية ، كذلك تلك التي تفصلنا عن طريق كرم الزيتون . وكلما بعدت المسافة تصغر الاشياء . وغدا عندما تكبر سوف ترى السيارات صغيرة جدا . لأن الرؤية ترتبط كذلك بحجم الذي يرى . كنت اهز راسي دليل الفهم دون ان افهم شيئا . وغالبا ما كنت اترك والدي يتكلم حكايته التي يكررها دائما عن المسافات والسيارات ، والتهي بملاحقة احد الزيزان المذهبة وهو يطير بين الحشائش الخضراء او يقف بين اغصان شجر الزيتون .

صف طويل من السيارات الصغيرة التي لا تصدر اصواتا . نجلس على حافة التلة نتأملها ، وننتظر اليوم الذي سنكبر فيه فنراهــا صغيرة جدا ، او ننزل الى الطريق فنراها كبيرة . تسير امامنا وكانها قطرات ماء ملونة ، لها احجام مختلفة . شاحنات ، ناقلات نفط ، سيارات صغيرة من مختلف الانواع . نميزها دون ان نعرف الاسماء او الوظائف . كانت بعيدة وصغيرة ، ونحن نمسك بأيدي بعضنا وننتظر ان نكبر ، فتصغر اكثر ، نمسك بأيدي بعضنا وننتظر ان نفهم السر . ودائما كنت اتعجب كيف تكون السيارة صغيرة لانها بعيدة . واحلم بقصص الاقزام التي اخبرونا اياهــا في المدرسة ، او بقصص الرجل الذي مسخه الشيطان الى قزم كما تخبرني جدتي .

الجبل الصغير في مكانه ، الحشائش التي تغطي جسده الجميل ، بدأت تخلي مكانها للطرقات ، فرحنا بافتتاح اول سينما في السيوفي . لكن المفاجآت كانت تنتظرني. كنا نكبر دون ان يحصل ما انتظرناه طويلا . نكبر ونذهب الى السيوفي لنتفرج على السيارات فنراها تكبر . نحن نكبر والسيارات تكبر . الحركة تحيط بنا والاصوات ترتفع . نحن نكبر والخطوط التي كانت مستقيمة تتعرج الى ما لا نهاية ، والاصوات تصبح اكثر اقترابا ، والمساحات اكثر ضيقــا . امشي وحيدا ، والجبــل الصغير يتقوس ويتعرج . ابحث عن ذكرياتي حين كان احد الشعانين عيدا نخرج به مــن الكنيسة بنبرة شرقية ، فلا اجد من الذكريات الا صورة صغيرة مهملة في جيبي .

السيارات تكبر ، تحيط بي . الاشجار تصغر او تختفي . انا اكبر والسيارات تكبر ، وحول رقبتي اصواتها ، الوانها ، احجامها . الآن نميزهــا لكننا لا نفهــم . التوقعات القديمة او الذكريات القديمة مجرد توقعات او ذكريات .

في الليل ، تصعد السيارات من الطرق الثلاثة الى التلة المرتفعة ، او تأتي اليها تحيط بي الاضواء التي تسحق العينين . يحاصرني صوت محركاتها وهي تتقدم الــى وجهي . السيارات كبيرة ، لها عيون واسعة تمد خيوطا من اللهب الذي لا يحرق . تضع على وجهي علامات الرهبة والاسئلة والاجوبة .

السيارات تكبر ونحن نكبر . والطرق الواسعة تكبر . والاشجار تنحني علــى الجبل الصغير . اين اصبحت معادلات والدي وهو يروي لــي حكايات المسافــة والعلو والكبر ؟.

تقف وحدك ، وسط نهر من الاضواء التي تمنعك من الرؤيا وتسرق ذاكرتك . وتذهب للبحث عن بيتك وحيدا وبلا ذكريات .

★ ★ ★

اخبرني ابو جورج قصة الاسماء . وابو جورج هو صديقي منذ ان كنت اسير وحيدا بين الاضواء ابحث عن معادلات ابـي في الجبل الصغير . يلتقينـي وحيدا ، اجلس على حافة هضبة تطل على خط القطار البطيء الذي بقي وحيدا من ذاكرتي ، ويخبرني ذكرياته عن الفرنسيين والحرب العالمية .

يروي ان السيوفي ، كانت ارضا واسعة يملكها رجل اسمه يوسف الصغير . من اجل ذلك سميت الاشرفية جبل الصغير . ثم اشتراها الاخوان الياس ونقـولا السيوفي بأرخص الاسعار . وبنوا فيها بعد الحرب العالمية الاولى معملا للموبيليا . فاصبحت المنطقة تسمى باسميهما .

المصنع ، وهو في الواقع مشغل كبير ، لا يشذ عن اولوية الصناعات الخفيفة في بلادنا ، كان حدثا . يعمل فيه حوالي خمسين عاملا . بنوا الاكواخ قربه ، وفتح الى جانبه مقهى صغير يقدم القهوة والعرق . كان المصنع مشروعا جديدا ، وكان الناس يعتادون لاول مرة على نمط جديد من الحياة . آلات حديثة . مفروشات على النمط الاوروبي لا يعلمون اين ستذهب ، ولا كيف ستباع . يقبضون في نهاية الشهر مرتبات او ما يشبهها ، يعطون قسما منها لنسائهم ، ويشربون العرق بما تبقى .

عندما بدأت المنطقة تعتاد على النمط الجديد من العلاقات والعمل ، دخلها نمط جديد من السرقة . فبدل النمط القديم الذي كان يمارسه رجل يدعى ندره ، يسكن في الطرف الشرقي من المنطقة ويمارس فرض الخوة على طريقة الشهامة العربيـة القديمة . دخلت السرقة المنظمة الى المنطقة . السرقة التي تقوم بها عصابات تخطط لما تريده ، تسرق دون رحمة ولا شهامة ولا اعتبارات مبدئية . أهم حدث كرس النمط الجديد من السرقة ، كان سرقة معمل السيوفي نفسه . ففي آخر الشهر ، يذهـب المحاسب الى بيروت ، ليجلب مرتبات العمال الى المعمل حيث يجري توزيعها . كمن له اللصوص عند احد المفترقات ، سرقوا ماله وتركوه يصرخ في الطريق . تنبه العمال على صوت المحاسب ، تجمعوا حول صراخه . ركض الرجال والنساء والاطفـال ولحقوا بالسارقين . السارقون يركضون ، والناس تركض خلفهم من المفارق والازقة الترابية . وقبل ان يصل الناس الى اللصوص ، توقف اللصوص عن الركض ، رموا الدراهم في الطريق ، وتابعوا ركضهم . عندها انحنت الاجسام على الدراهم وبدأت الايدي تتخاطفها . ونسي الناس اللصوص وتركوهم يهربون ، وبدأوا يتناوبون بغير انتظام على التقاط الدراهم من الارض .

هذا ليس نمطا شهما مـن اللصوصية يقول ابو جورج . لمـاذا ؟ لان الناس بأسرها نسيت الشرف وتبعت الدراهم . تساهلوا مع اللصوص والتقطوا دراهـم المصنع . هنا بدأ الانحدار . ويروى ، تابع ابو جورج ، ان المعمل بدأ عملية افلاسه من هذه اللحظة . فمات الياس السيوفي من الحزن وباع شقيقه نقولا الارض الـى الناس . فقسمت الى ملكيات صغيرة .

لكن ابو جورج ، يقول ان الافلاس ، ربما كان له سبب آخر . فهناك بعـض الناس الذين قابلوا نقولا السيوفي ، الذي كان يعمل فراشا في وزارة المالية ، بعـد افلاسه ، يروون ان السبب يعود الى السكر ولعب القمار ومعاشرة الاجانب . الله اعلم ، يقول ابو جورج . لكن منذ بدأ هذا النوع الجديد من السرقة ، بدأت عمليـة انحدار الناس . واصبحنا نتعامل مع اشياء لم نكن نعرفها في زمننا .

★ ★ ★

هل الجبل ينحدر ؟

كانت السيارات الكبيرة تتقدم ، تجتاحنا ، وترسل انينها في ارجاء الشوارع . الجبل يخترق من جميع النواحي . يقطعون الاشجار ويقيمون البنايات . آلات جبل الاسمنت اصبحت شعار المرحلة . في كل شارع آلة يتراكض من حولها العمال السوريون والاكراد . يرمون في أحشائها الرمل والحصى والماء . فتدور على نفسها وترمي بعد ذلك الاسمنت الذي تبنى به البيوت العالية الحصينة . تنبت البنايات وكأنها ولدت هنا . وتتساقط الحجارة الرملية الدافئة والسميكة لتأتي مكانها حجارة الاسمنت المجوفة والباردة . والعجلة تدور . مئات العمال يأتون من اكواخ التنك المزروعة على المدخل الشرقي لبيروت والتي تسمى الكرنتينا ، ليحملوا الحصى والرمل ، ويمدوا الاسمنت على الساحات .

تأتي الجرافة ، فتسوي التلة بالارض ، او بالعلو الذي افترض للارض . وتتساقط النخلة امام بيتنا بين فكي الجرافة . جذورها المنتشرة فوق الارض ، في بركة من الحجارة والرمل ، تقتلع وتتساقط . تتمزق كالشرايين الصغيرة أمام القذائف . والابنية الجديدة تعلو . جبال من الابنية والطرقات والساحات .

هل الجبل ينحدر ؟

اسير على مفترقاته ، ابحث عن طفولتي . اجد امامي عالي التلة التي اسميها جبلا ، منحدرا صغيرا يفصل الجبل عن نهر بيروت . السيارات الصغيرة كبرت ، وانا كبرت . والبنايات العالية اصبحت تغطي البحر . كنت اعتقد اننا سرقنا البحر . لكن رائحة الاسمنت المسلح سرقت رائحة البحر .

لم ينحدر الجبل .

الاصوات على مداخله ، والابنية تتوالد ، والساحات تبنى . هذا الصوت المرتفع لم يعد صوتي . الاصوات تنحني على المداخل ، والحركة اصبحت عنوان لحظة جديدة . هذا هو الجبل الصغير الذي لم ينحدر .

تعلو الحجارة وتعلو الرؤوس . تعلو الموسيقى الصاخبة وتعلو الرؤوس . احمل على جسدي وشما قديما يعود الى الايام وانتظر على حافته .

١٩٥٦ : العدوان الثلاثي على مصر . كنا في مدرسة الحي الفقيرة والصغيرة . كنا صغارا . نستمع الى راديو صوت العرب . نذهب الى البيت ونفرح عندما تنتصر مصر .

١٩٥٨ : المتاريس في الحي . الوجوه كالحة . المسلمون يريدون قتلنا . لم تصدق امي . كانت دائما تقول ، هذا غير معقول . انهم يشبهوننا كثيرا .

الابنية العالية تصبح متاريس . تغيرت الاشياء . الاصوات ترتفع . تغيرت الاشياء . السيارات تكبر ونحن نكبر .

★ ★ ★

يتابع ابو جورج رواية قصته عن معمل الموبيليا . لا يمل الحديث عن ذكريات الحي . يعتبر نفسه جزءا من تاريخه . وفي كل لحظة يتساءل معي عن جدوى الحياة . يحدثني طويلا عن شقيقه الذي كان جنديا في الجيش الفرنسي في حوران ، فتمرد ابان ثورة جبل الدروز ، ودفع ثمن تمرده ميتة رهيبة في الزنازين الرطبة . المهم في الموضوع ، ان المعمل بعد افلاسه لم يهدم . بقي البناء الكبير في مكانه فارغا من الآلات والشغيلة . كنا نذهب الى هناك لنتفرج عليه ، ندخله فنراه مظلما ، لكنه بقي نظيفا طوال الوقت . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . لم نعرف الويلات التي عرفناها في الحرب الاولى ، لكننا عرفنا قصف الطائرات . حول الجيش الفرنسي المعمل الى مقر عسكري له . الى ما يشبه الثكنة العسكرية ، التي كان يسكنها عشرات الجنود الفرنسيين ومعهم جنود اعتقد انهم صينيون ، كان يقال انهم من الهند الصينية ، كانوا قصار القامة ، صفر الوجوه ، شبه حفاة ، يلبسون في اقدامهم احذية من المطاط التي لا تقي من البرد . كانوا بمثابة فراشين عند الجيش الفرنسي، يطهون الطعام ، يعدون القهوة . و فياوقات الراحة ، يغنون اغنيات خاصة بهم ،بلغة لم استطع فهمها ، رغم انني حاولت أن اقيم معهم علاقة حسنة .

وفي اوقات القصف ، كان الجنود ينتشرون بين التلال . وكان هؤلاء القصار القامة ، يتراكضون ، باقدامهم الصغيرة التي تلبس احذية المطاط ، بين التلال وينتشرون بين سنابل القمح وهم يتكلمون بسرعة لغتهم الغريبة .

طبعا ، نال لبنان استقلاله بعد الحرب ، وغادرنا الجنود الفرنسيون ، وذهب هؤلاء الجنود الصغار القامة الى بلادهم . واعتقد انني رأيتهم او رأيت ما يشبههم في التلفزيون عندما كانت تعرض بعض الافلام عن حرب فيتنام .

★ ★ ★

جاؤوا . خمسة رجال يقفزون من سيارة جيب شبه عسكرية . يحملون البنادق الرشاشة في أيديهم . يطوقون المنزل . يخرج الجيران من منازلهم يتفرجون . احداهن تبتسم وترسم بيدها علامة النصر . يتقدمون الى المنزل . ويطرقون الباب ، تفتح امي باب البيت بتعجب . يسألها قائدهم عني . خرج من البيت . — اين ذهب — لا ادري .

— تفضلوا اشربوا فنجان قهوة .

يدخلون . يبحثون في البيت عني . لم اكن هناك . يبحثون بين الكتب والاوراق. لم اكن هناك . اكتشفوا كتابا على غلافه الخلفي صورة عبد الناصر . لم اكن هناك قلبوا الاوراق واثاث المنزل . شتموا الفلسطينيين . كسروا سريري وهم يفتشونه . شتموا امي والجيل الفاسد . لم اكن هناك .

وقف قائدهم . يحمل على كتفه بندقية رشاشة ، وفي يده مسدسا يتوعد .
— الافضل ان لا يرجع الى هنا .

لم اكن هناك . امي كانت هناك . ترتجف بالحزن والحقد ، وتمشي في البيت بعصبية . توقفت عن الاجابة على اسئلتهم وتركتهم . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعية الدولية . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها . وهم في الداخل يمزقون

الاوراق والذكريات . جلست على كرسي . وهـم يرسمون شارة الصليب عـلى وجوههم علامة الحقد او الفرح .

خرجوا ، رفعوا ايديهم في الشارع باشارة النصر . وكان بعض الناس ينظرون اليهم ويرسمون شارة النصر .

★ ★ ★

تدخل السيارات الكبيرة التي تملأ الشوارع . سيارات شبهعسكرية مدهونة باللون الاسود . تطلق زماميرها وهي تسير . يقفز منهـا رجال يحملون البنـادق الرشاشة . احدهم يضع منظارا يتدلى من رقبته ويركض من زاوية الى اخرى . يصرخون في الناس . يرتجفون بالكراهية . يقف رئيسهم الذي يضع منظارا يتدلى من رقبته ويجيب على اسئلة بعض الفضوليين . يحدثهم عن حصار الكرنتينا . سوف ندمرها على آخرها ونطرد الغرباء من لبنان . سننتصر على الغرباء والشحاذين الذين يريدون سرقة بلادنا .

يركب سيارته الشيفروليه شبه العسكرية ويمضي . الرجال يتراكضـون . يسيرون في الشوارع بخطـوات منظمـة . هان ـ دوي ، هان ـ دوي . [تعبير عسكري الماني يعني واحد ، اثنين ، كان يستعمله المسلحون في حينا . لا أعلم السبب لكنه كان يستعمل على نطاق واسع !] .

تجول السيارات في الشـوارع . تأكل السيارات الشوارع بين اسنانهـا . السيارات الكبيرة ترسل زمامير الخطر . اقف امامها : عجلاتها كبيرة جدا ، طويلة وضخمة .

تأكلني المعادن السوداء : يقولون حواجز . وانا ارى وجهي يتساقط في الطريق . تأكلني المعادن السوداء : صوتي يتدحرج وحيدا ، ويمتد الى حيث جثث اصدقائـي التي تدفن في مقابر جماعية . تأكلني المعادن السوداء : الايدي التي ترتفع لا تلـوح بالرايات ، بل تمسك الموت . المعادن في الطريق ، الخوف وقوارير الغاز الفارغـة والجثث وعلب التبغ المهرب في الطريق . جاء وقت النصر . جاء وقت الموت . جاءت الحرب . وامي تهز رأسها وتحدثني عن الفقراء .

★ ★ ★

يسمونه الجبل الصغير ، وكنا نسميه الجبل الصغير . نحمل الحصى نرسـم الوجوه ، نبحث عن بركة ماء نغتسل بها من الرمل او نملؤها رملا ونبكي . نركض بين حقوله أو ما يشبه الحقول ، نأخذ سلحفاة بين ايدينا ونمضي بها الى حيث اوراق الشجر الخضراء تغطي الارض . نخترع اشياء نقولها او لا نقولها . يسمونه الجبل الصغير ، كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

تلة واحدة او مجموعة تلال . لم اعد اذكر ولم يعد احد يذكر . تلة على الطرف الشرقي لبيروت سميناها جبلا ، لان الجبال كانت بعيدة . جلسنا على منحدراتهـا وسرقنا البحر . الشمس تطلع من الشرق ، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق ، نقطف السنابل حبة حبة لنلهو بها . كان الفقراء او ما يشبه الفقراء يركضون اطفالا بين حقول التلال ليسألوا اشياء الطبيعة عن اشيائهم . هذا الذي نسميه عيدا كـان

يوما ككل الايام ، لكنه يختلط برائحة البرغل والعرق ، نأكلها بين اشياء الطبيعة لنخبرها عن اشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلما . كان الجبل الصغير مجرد حافة نخترقها في تعجب وكبرياء . ننسج القصص عن احزاننا وننتظر لحظات الفرح او الموت ، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الايام .

يسمونه الجبل الصغير ، وكان يمتطي السهول الواسعة الى شجيرات الصبير المنتشرة في انحائه . كانت النخلة التي امام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار . وكنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها . فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا . لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي . فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط . تركناها تنحني يوما بعد يوم . وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي .

كنا نخاف على الجبل وعلى نباتاته . وكان يتقدم الى حافة بيروت ويسقط فيها وشجيرات الصبير التي تجرح ارجلنا ، تموت ، والنخلة تنحني ، والجبل يتقدم الى حافته .

يسمونه الجبل الصغير . كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

★ ★ ★

في الثالثة من عمري ، جاء كاهن الحي بجبته الطويلة السوداء ، ولحيته الجميلة . جلس في بيتنا وتحلقنا جميعا حوله . بدأ يخبرنا النوادر والقصص . ثم حدثنا عن انجازات ستالين والبولشفيك . التفت الي ، داعب شعري ، وقال لامي ان الوقت قد حان لانذر للقديس انطونيوس والبس عباءته . [لبس عباءة القديس انطونيوس ، هو تقليد عند غالبية المسيحيين الشرقيين في بلادنا ، يلبسونها لاولادهم تبركا بذكرى اول راهب مسيحي ترك المدينة وذهب الى صحراء سيناء حيث اسس اول تقليد رهباني في الكنيسة] .

العباءة بنية اللون ، وعلى الخصر حبل ابيض يتدلى . امشي في الشوارع واقلد حركات القديسين . امشي وحولي اطفال يلبسون العباءة او لا يلبسونها . نتقدم صفا طويلا ، الى حيث الايقونات المذهبة والزجاج الذي تلونه الشمس . وحين انسى انني اصبحت قديسا ، اركض ، العب بالحصى والرمل . اقع على الطرقات . ثم حين اعود الى البيت ، تنظر امي الى ثياب القديس الملوثة ، تضربني على وجهي وتشتمني . ثم تأمرني ان اركع واصلي . اركع واصلي فينسى القديسون انني تركتهم وذهبت لالعب مع الاطفال الآخرين .

امشي مزهوا بعباءتي البنية الجميلة . اقلد حركات الكاهن . اذهب الى المدرسة فخورا بثيابي ، واضع فوق رأسي هالة مدورة من اوراق الاشجار .

مات كاهن الحي فجأة . لم افهم ماذا يعني خبر موت الكاهن . اذكر انني بكيت لان اختي بكت كثيرا . ثم بعد حوالي ستة اشهر كما اذكر [ربما لم اعد اذكر الحادثة، لكنها مطبوعة في ذاكرتي لان امي روتها لي عشرات المرات] . ذهبت مع امي وابي الى الكنيسة . كان التقليد هو خلع ثياب الراهب الجميلة في الكنيسة حيث تقدم الى الهيكل ، ثم تضاء الشموع كشكر او كصلاة .

ذهبنا الى الكنيسة ، كنت فرحا ومندهشا . وصلنا الى بابها الكبير الذي يبقى مفتوحا بشكل دائم . كان الباب مغلقا . طرق ابي على الباب ، لم يفتح أحد . طرقت امي ، لم يفتح احد . ماذا نفعل قال ابي . طرقت على الباب ، ركلته بقدمي . نترك العباءة على باب الكنيسة اجابت امي .

ــ والشموع ؟

ــ نضيئها في الاسبوع القادم .

طرقت على الباب ، ركلته . لم يفتح احد . قام ابي وساعدني على خلع العباءة. بدأت ابكي . اخذت امي العباءة ووضعتها امام الباب ورسمت اشارة الصليب . كنت ابكي . امسكني ابي ومشينا الى البيت . لم يفتح احد باب الكنيسة . تركنا العباءة على الباب ، وعدت حزينا . ولم نضيء الشموع في الاسبوع القادم .

★ ★ ★

جاؤوا .

خمسة رجال يقفزون من سيارة جيب شبه عسكرية . يحملون البنادق الرشاشة في ايديهم . خمسة رجال يلبسون قبعات كبيرة سوداء ، يتدلى من رقابهم صليب اسود كبير الحجم . يطوقون المنزل . يقرعون اجراس الكنائس ، ويطرقون الباب .

خمسة صلبان طويلة سوداء تتدلى امام امي وهي تفتح الباب . تتمتم بعبارات غير مسموعة . تغلق الباب في وجوههم وتبكي .

خمسة رجال يكسرون الباب ، ويسألون عني . لم اكن هناك . اكتشفوا كتابا على غلافه الخلفي صورة عبد الناصر . لم اكن هناك . امي كانت هناك ترتجف بالحزن والحقد والخوف . امي كانت هناك . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعية الدولية . جلست على كرسي في المدخل تحرس بيتها ، وهم في الداخل يمزقون الاوراق والذكريات .

امي كانت هناك ،

لم اكن هناك .

كنت في الجانب الشرقي من المدينة ، ابحث مع رجال قصار القامة ، شبه حفاة ، يلبسون في اقدامهم احذية من المطاط لا تقي من البرد . كنت في الجانب الشرقي من المدينة ابحث عن الجبل الصغير ممدا على قامة رجال ينبت البحر في عيونهم الجميلة .

جامعة عربية في فلسطين : دراسة أولية

الدكتور حنا ناصر

لقد قامت محاولات كثيرة منذ زمن الانتداب البريطاني لاقامة جامعة عربية في فلسطين(١) ، ولكن جميع هذه المحاولات فشلت حتى الآن(٢) . وفي بضع السنوات الاخيرة ازداد اهتمام القيادة الفلسطينية بالتعليم الجامعي وأجريت عدة دراسات(٣) ، بحثت في التعليم الجامعي بشكل عام وافترضت ضمنا ـ بسبب وجود الاحتلال ـ اقامة جامعة فلسطينية خارج فلسطين . والبحث التالي يأتي مكملا لندراسات السالفة الذكر ، ويحتوي على توصيات عامة واقتراحات بصدد جامعة عربية (او كليات جامعية) في فلسطين نفسها .

لا يمكن في الوقت الحاضر انشاء مؤسسات جامعية عربية في فلسطين الا في الجزء المحتل منها بعد عام ١٩٦٧ . ولن تعم فائدة مثل هذه المؤسسات حاليا الا على أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة ، وذلك لأن الحكم العسكري يمانع في التحاق أبناء فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧ (أي عرب اسرائيل) والفلسطينيين الموجودين في الخارج بمؤسسات الضفة الغربية وقطاع غزة .

وبالرغم من هذا التقييد ، فان قيام جامعة عربية على أي جزء من فلسطين هو أمر بالغ الأهمية . فعدا عن الاهمية التربوية والثقافية ، التي تعد من الاهداف الكلاسيكية لأية جامعة ، فان وجود جامعة فلسطينية يؤكد شرعية الشعب الفلسطيني على ارضه ووطنه ويحافظ على هذه الشرعية . واذا روعي التخطيط الصحيح ، يمكن للجامعة أن تلعب دورا أساسيا في خلق جيل قادر على تحمل القيادة ومواجهة تحديات المستقبل . ولا شك بأن معاناة الشعب الفلسطيني تفرض نمطا معينا من التخطيط . ومن الانسب أن لا تكرر الجامعة في برامجها كل ما يعمل به في الجامعات العربية أو الاجنبية ، بل يجب أن تنطلق الى الامام متمسكة بفلسفة مرتبطة بأماني الشعب الفلسطيني . وبالطبع سيكون هنالك حاجة دائمة أثناء التخطيط ، وبعد انشاء الجامعة ، لتربويين مختصين لتحديد البرامج الدراسية والثقافية في الجامعة وحتى لأسلوب الحياة الجامعية فيها(٤) .

وفي مجال البحث عن التعليم الجامعي ، تجدر الاشارة الى ان التعليم الجامعي ـ داخل فلسطين وخارجها ـ يساعد في هجرة الخريجين اذا لم تتأمن وظائف كافية لهم . وبما أن وجود هذه الوظائف يعتمد الى حد بعيد على مشاريع التنمية والتطوير في البلاد ، فان من الامور الاساسية التي يجب أن تهتم بها القيادات الفلسطينية هي دعم هذه المشاريع في الارض المحتلة . ولا شك ان مثل هذا الدعم سيكون له أثر كبير في دعم صمود المواطنين .

ويتطلب التخطيط الجامعي معرفة عدد الطلبة المرغوب تأمين التعليم الجامعي لهم وكذلك معرفة الاختصاصات المطلوبة والتكاليف ومساحة الارض المزمع بناء الجامعة عليها . وستبحث كل هذه الامور في البنود التالية :

١ ــ عدد الطلبة الجامعيين

يبدأ التخطيط الجامعي عادة بتقدير عدد الطلبة الذين يجب تأمين التعليم الجامعي لهم . وتقدير هذا العدد صعب لانه يتوقف على مدى التنمية المطلوبة في البلد ومدى أمكانيات التطوير وتوفر الاموال اللازمة والاحوال السياسية الملائمة . وجميع هذه الامور غير واضحة في الارض المحتلة . وبالرغم من وجود هذه الصعاب فقد يساعد في تحديد الاعداد مقارنة نسبة الطلبة الجامعيين الى السكان في عدد من البلاد العربية والمتقدمة ، والجدول التالي(٥) يبين هذه المقارنات لعام ١٩٧٠ .

جدول (١) ــ نسبة الطلبة الجامعيين الذين يدرسون في بلدهم أو في الخارج بالنسبة لكل ١٠٠٠ من السكان

البلـــد	النسبة	البلـــد	النسبة
فلسطين والاردن	١١ر٢	ليبيـــــا	١ر٨
الجزائر	٧	البحريـــن	١ر٦
لبنـــان	٦	السودان	ر٨
سوريا	٦	السعودية	ر٥
مصـــر	٥ر٤	الولايات المتحدة	٣٠
العراق	٣ر٢	الاتحاد السوفياتي	١٨
الكويت	٣	فـــرنسا	٩
تونس	٢	انجلتـــرا	٨

ويظهر من الجدول الاول أن نسبة التعليم الجامعي لابناء فلسطين والاردن هـــي نسبة عالية عند مقارنتها بالدول العربية الاخرى وحتى ببعض الدول الغربية . وقد دلت الدراسات(٦) ان ٩٠٪ من طلبة فلسطين والاردن الجامعيين هم طلاب فلسطينيون وان نسبة التعليم الجامعي للفلسطينيين كانت في عام ١٩٦٦ حوالي ١٢ لكل الف من السكان الفلسطينيين(٧) . وستستعمل هذه النسبـــة كأساس لتحديد اعداد الطلبة المطلوب تأمين التعليم الجامعي لهم . وعلى افتراض ان ١٠٪ يتركون الجامعة بعد السنة الاولى و ٧٪ بعد السنة الثانية و ٥٪ بعد السنة الثالثة(٨) ، فان توزيع الطلبة على الأربع سنوات الجامعية يظهر في جدول رقم(٢) .

جدول (٢) ــ نسبة توزيع الطلبة الجامعيين بالنسبة لكل ١٠٠٠ من السكان

السنة الجامعية	النسبة
السنة الاولى	٣ر٤٠
السنة الثانية	٣ر٠٦
السنة الثالثة	٢ر٨٤
السنة الرابعة	٢ر٧٠
المجمـــوع	١٢ر٠٠

وتدل الاحصائيات أن عدد سكان الضفة الغربية وقطاع غزة قد بلغ ٠٠٠ر١٠٠ر١ نسمة في عام ١٩٧٥ . واعتماداً الى النسب المبينة في الجدول رقم (٢) ، يكون المجموع المقترح لطلبة الجامعات ٢٠٠ر١٣ طالبا ، منهم ٣٧٤٠ طالبا في السنة الاولى . وبما أن هنالك تزايدا طبيعيا في سكان الضفة وغزة مقداره ٣٪ سنويا فان الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي يجب ان تزداد بهذا المقدار سنويا . والجدول التالي يبين الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي ابتداء من عام ٧٦/٧٥ وحتى ٨١/٨٠ ، كما يبين الجدول عدد طلبة السنة الاولى والسنة الرابعة — أي سنة التخرج .

جدول (٣) — الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي

	٧٦/٧٥	٧٧/٧٦	٧٨/٧٧	٧٩/٧٨	٨٠/٧٩	٨١/٨٠
طلبة السنة الاولى	٣٧٤٠	٣٨٥٢	٣٩٦٨	٤٠٨٧	٤٢٠٩	٤٣٣٥
طلبة السنة الرابعة	٢٩٧٤	٣٠٦٣	٣١٥٥	٣٢٥٥	٣٣٤٧	٣٤٦٣
مجموع الطلاب (أربع سنوات)	١٣٢٠٠	١٣٥٩٦	١٤٠٠٣	١٤٤٢٤	١٤٨٥٦	١٥٣٠٢

وتجدر الاشارة الآن الى ان عدد الطلبة الذين تخرجوا من المدارس الثانوية في الضفة الغربية وقطاع غزة في عام ٧٥/٧٤ كان ٩٥٠٠ . وعلى هذا الاساس ، فاعداد الطلبة المقترحة للالتحاق بالسنة الاولى في الجامعات — أي ٣٧٤٠ — تشكل ٣٥٪ من خريجي المدارس الثانوية . وتتلاءم هذه النسبة مع نسبة الطلبة المؤهلين(٩) للالتحاق بالجامعات .

وبالطبع تبرز الآن مشكلة بقية الطلبة والذين لا يلتحقون بالجامعات اذ سيواجهون صعوبة في التوظيف لأنهم غير مؤهلين بعد المرحلة الثانوية آلا للعمل في الوظائف البسيطة . وقد تحل مشكلتهم بتوجيههم الى الاعمال المهنية ، ولكن هذا الموضوع يحتاج بحد ذاته الى دراسة وبحث وربما توصيات بتغييرات جذرية في نظام التعليم دون المرحلة الجامعية ولا شك ان وجود جامعة يساعد في احداث التغييرات .

وتبقى أخيرا مسألة توزيع التعليم الجامعي بين الذكور والاناث . فالاناث تشكل ٥٠٪ من المجتمع ولكن مساهمتهن في تطوير المجتمع تقل كثيرا عن هذه النسبة . ويعود السبب الى النسبة المنخفضة لتعليم الفتيات في العالم العربي ، اذ يقدر أن من خريجي الجامعات ١٠٪ فقط هم نساء (و ١٪ منهن حاصلات على شهادة الدكتوراه) . وليس معقولا حاليا ان تكون نسب التعليم للفتيات في الجامعات مساوية للشباب ولكن يجب أن تزداد النسبة الى ما يقرب من ٣٠٪ كما هي الحال في عدد من البلاد المتقدمة .

٢ — الاختصاصات والاحتياجات

تدل الاحصائيات الحالية ان التخصصات العلمية للطلبة من فلسطين والاردن لا تزيد عن ٤٢٪ من مجموع التخصصات (الباقي تخصصات ادبية) . وفي الدول المتقدمة تصل نسبة التخصصات العلمية الى أكثر من ٦٠٪ . ولمجاراة هذه الدول يجدر — أثناء التخطيط الجامعي — تغيير التحيز نحو التخصصات الادبية . وكخطوة أولى يمكن جعل

نسبة التخصصات العلمية والادبية متساوية ، وعلى ذلك تكون اعداد الطلبة المقترحة للتخصصات العلمية أو الادبية هي نصف الاعداد المبينة في جدول ٣ . وتظهر اعداد هذه التخصصات في الجدول رقم ٤ .

جدول (٤) — الاعداد المقترحة للتعليم الجامعي للتخصصات العلمية أو الادبية

	٧٦/٧٥	٧٧/٧٦	٧٨/٧٧	٧٩/٧٨	٨٠/٧٩	٨١/٨٠
طلبة السنة الاولى	١٨٧٠	١٩٢٦	١٩٨٤	٢٠٤٤	٢١٠٤	٢١٦٨
طلبة السنة الرابعة	١٤٨٧	١٥٣٢	١٥٧٨	١٦٢٥	١٦٧٣	١٧٣١
مجموع الطلاب (اربع سنوات)	٦٦٠٠	٦٧٩٨	٧١٠١	٧٢١٢	٧٤٢٨	٧٦٥١

يتبين مما سبق التوزيع العام للتخصصات ويمكن عمل تفصيل أدق بتقدير الاحتياجات في المجالات المختلفة ، وذلك يتطلب احصائيات غير متوفرة حاليا . كما يتطلب معرفة مدى التنمية المرتقبة في البلاد ، وهذا أمر صعب في ظروف الاحتلال . ولكن هنالك بعض الاحتياجات التي يمكن تقديرها وستذكر هنا كأمثلة على التخطيط الجامعي .

فأحد الاحتياجات التي يسهل دراستها هو عدد المدرسين الجامعيين المطلوبين للقيام بمهام التعليم في مرحلة الدراسة الثانوية(١٠) . وهذه الاحتياجات تتعلق باعداد كبيرة من المواطنين وبالتالي فان لدراستها اهمية خاصة — ويعتمد عدد المدرسين المطلوبين للمرحلة الثانوية على الامور التالية — أولا عدد طلبة المدارس الثانوية وسيرمز له بالحرف ع ، ثانيا : عدد الطلبة في اية شعبة ، ويمكن الافتراض أن الشعبة الواحدة تحتوي في المعدل على ٣٠ طالبا(١١) . ثالثا عدد الحصص الاسبوعية لكل شعبة ومقدارها ٣٦ حصة اذ ان الاسبوع الدراسي ستة أيام واليوم الدراسي يتكون من ست حصص . رابعا : عدد الحصص الاسبوعية التي يدرسها المعلم ويمكن اعتبارها ٢٤ حصة .

وبناء على هذه الارقام يمكن الاستنتاج بأن عدد المدرسين المطلوبين هو ع/٢٠ مدرسا(١٢) .

وفي العام الدراسي ٧٠/٦٩ كان عدد طلبة المدارس الثانوية في الضفة الغربية وقطاع غزة ٢٦٫٣٤٥ منهم ١٦٫٠٢٥ من الضفة الغربية . وازدادت الاعداد في سنة ٧٤/٧٣ الى ٣٠٫٩٩١ طالبا منهم ١٨٫٣٢٨ من الضفة الغربية . وعلى أفتراض نمو متماثل خلال الخمس سنوات القادمة ، يمكن عمل جدول — رقم ٥ — يبين اعداد الطلبة واعداد المدرسين المطلوبين (اي ع/٢٠) ابتداء من العام الدراسي ٧٦/٧٥ وحتى العام ٨١/٨٠ .

ويتبين من الجدول رقم (٥) ان عدد المدرسين المطلوبين في عام ٧٦/٧٥ هو ١٦٧٣ مدرسا . ويقدر عدد المدرسين الجامعيين الموجودين حاليا في الضفة الغربية وغزة بنحو ٨٠٠ مدرس ، وبالتالي هنالك احتياج لأكثر من ٨٠٠ مدرس جامعي آخر لسد

النقص الحالي . وبالامكان سد هذا النقص تدريجيا خـلال الخمس سنوات القادمة وذلك بتأهيل ٢٠٠ خريج جامعي في السنة . ويظهر من الجدول أيضا أنـه بسبب الزيادة السنوية في عدد الطلبة ، هنالك احتياج لحوالي ٦٠ مدرسا اضافيا سنويا . وهنالك احتياج أخير لسد النقص الناجم عن فقد بعض المدرسين لوظائفهم (وفاة ــ اقالة ــ هجرة) ويقدر العدد بحوالي ٥٪ مـن المدرسين الموجودين أي ٤٠ مدرسا سنويا . وبالتالي فان عدد الخريجين المطلوبين في السنـة الواحدة خلال الخمس سنوات القادمة هـو حوالي ٣٠٠ خريـج . وبعد الخمس سنوات يسد النقص في المدارس الثانوية ويقل عدد الخريجين المطلوبين للمرحلة الثانوية .

جـــدول (٥)

تقدير لعدد طلبة الصفوف الثانوية وعدد المدرسين المطلوبين
خلال ٧٦/٧٥ و ٨١/٨٠

	٧٦/٧٥		٧٧/٧٦		٧٨/٧٧	
	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون
الضفة الغربية	١٩٫٦٢٥	٩٨١	٢٠٫٢٢٥	١٠١١	٢٠٫٨٢٥	١٠٤١
غـــزة	١٣٫٨٣٥	٦٩٢	١٤٫٤٢١	٧٢١	١٥٫٠٠٧	٧٥٠
المجموع	٣٣٫٤٦٠	١٦٧٣	٣٤٫٦٤٦	١٧٣١	٣٥٫٨٣٢	١٧٩١

	٧٩/٧٨		٨٠/٧٩		٨١/٨٠	
	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون	الطلبة	المدرسون
الضفة الغربية	٢١٫٤٢٥	١٠٧١	٢٢٫٠٢٥	١١٠١	٢٢٫٦٢٥	١١٣١
غـــزة	١٥٫٥٩٣	٧٨٠	١٦٫١٧٩	٨٠٩	١٦٫٧٦٥	٨٣٨
المجموع	٣٧٫٠١٨	١٨٥١	٣٨٫٢٠٤	١٩١٠	٣٩٫٣٩٠	١٩٦٩

(ولكن تبقى الحاجة الى اعداد من الخريجين مماثلة لتلك المبينة في الجدول وذلك بغية توظيف نسبة الثلثين منهم في المدارس الاعدادية . ويكون ذلـك بمثابة الخطوة الثانية في تحسين الدراسة دون الجامعية على المدى البعيد) .

وعدا عن المدرسين ، فمن الاحتياجات الاخرى الممكن دراستها لتوفر الاحصائيات(١٣) عنها هي الاحتياجات الطبيـة . فأطباء الاردن شكلوا ٢٫٥٤ طبيب / ١٠٫٠٠٠ من السكان في عام ١٩٦٧ وفي نفس العام كانت النسبة لكل ١٠٫٠٠٠ من السكان تساوي ٨٫٦ في لبنان و ١١٫٨ في الكويت ــ (وهي أعلى نسبة بين الدول العربية) . وكان من المخطط له أن تصل النسبة في الاردن في عام ١٩٧٥ الى ٦٫٧ والنسبة الحالية في الضفة الغربية وقطاع غزة لا زالت منخفضة وتقدير بحوالي ٤ اطباء لكل ١٠٫٠٠٠ من السكان فاذا افترض زيادة النسبة الى ٦/١٠٫٠٠٠ (وهذه نسبة متواضعة) وعلى أساس أن عدد سكان الضفة الغربية وغزة بلغ ١٫١٠٠٫٠٠٠ في عام ٧٥ ، فان النقص

الحالي في عدد الاطباء هو ٢٢٠ طبيبا . وبالامكان سد هذا النقص تدريجيا خلال خمس سنوات وذلك بتأهيل ٤٤ طبيبا سنويا . وبسبب الزيادة الطبيعية في السكان وقدرها ٣٪ ، فان هنالك احتياجا لتأهيل ١٨ طبيبا اضافيا سنويا . وبالتالي فان عدد الاطباء المطلوبين سنويا خلال الخمس سنوات القادمة هو ٦٢ طبيبا . وبعد الخمس سنوات يسد النقص الرئيسي في عدد الاطباء المطلوبين ، واذا بقي عدد الاطباء الذين يتخرجون سنويا كما كان — أي ٦٢ طبيبا سنويا — فان نسبة الاطباء ستزداد عن ٦ أطباء /١٠٫٠٠٠ من السكان وهذه الزيادة شيء مرغوب فيه بالطبع .

وبالنسبة للمهندسين والمهنيين والفنيين ، وحتى المزارعين ، فان الاحتياج اليهم يتوقف على برامج التنمية الموجودة في البلد وعلى امكانيات تمويل هذه البرامج . وحاليا يجد الانسان ان الاعمار في الضفة الغربية وغزة قليل جدا وكذلك فان عدد الاشخاص الذين يعملون بالزراعة قليل . وأحد أسباب ذلك ان اليد العاملة العربية تعمل في « اسرائيل » لارتفاع الاجور فيها بالنسبة للضفة وغزة ولوجود العمل بكثرة هنالك . ولكن يمكن التخمين انه حالما توجد الامكانيات لدعم مشاريع البناء والزراعة في الضفة وقطاع غزة ستصبح هنالك احتياجات كبيرة للمهندسين والفنيين والمشتغلين بالزراعة ، وكما ذكر سابقا فان هذا الدعم هو دعم لصمود المواطنين في الارض المحتلة .

وفي نهاية الحديث عن الاحتياجات ، يجدر الاشارة مرة أخرى الى أن ما ذكر عن الاحتياجات هو على سبيل الأمثلة فقط . ومما لا شك فيه أن موضوع الاحتياجات يتطلب بحد ذاته دراسة عميقة ومطولة .

٣ — تكاليف التعليم الجامعي

تتكون تكاليف المشاريع عادة من تكاليف انشائية وتكاليف متكررة . وينطبق هذا التقسيم على الجامعات أيضا . ويمكن للتكاليف الجامعية أن تكون متواضعة اذا توخيت البساطة في البناء الجامعي وربما لا تؤثر هذه البساطة على مستوى التعليم . ولكن يصعب أن يكون التعليم الجامعي في مستوى جيد اذا كانت النفقات المتكررة متواضعة أيضا . وفيما يلي مقارنة لنفقات التعليم المتكررة للطالب الواحد في عدد من جامعات الشرق الاوسط .

جدول (٦) — تكاليف تعليم الطالب الواحد
بالدينار الاردني

الجامعة	العام الدراسي ٦٨/٦٧	العام الدراسي ٧٥/٧٤
الجامعة الاردنية	٢١٥	٣٩٠
جامعة القاهرة	١١٠	—
الجامعة اللبنانية	٩٠	—
جامعة دمشق	٥٢	—
الجامعة الامريكية في بيروت (كلية العلوم والآداب)	٧٨٠	٨٩٠
جامعة بيرزيت	—	٣٠٠

ويظهر من هذه اللائحة تفاوت كبير في التكاليف المتكررة في الجامعات . ويدل ذلك على بعض التفاوت في مستويات التعليم الجامعي كما يدل على بعض التفاوت في مستويات المعيشة في البلدان المختلفة . والاغلب ان تكون تكاليف الطالب في أية مؤسسة جامعية في فلسطين اقرب ما تكون الى التكاليف في الجامعة الاردنية . وبالطبع ستزداد هذه التكاليف سنة بعد أخرى ، وسيستعمل الرقم ٤٠٠ دينار / للطالب كأساس للتخطيط للتعليم الجامعي خلال الخمس سنوات القادمة .

ويجدر القول هنا أن تكاليف تعليم الطالب في صفوف السنة الاولى والثانية الجامعية اقل بكثير من تكاليف الطالب في صفوف السنة الثالثة والرابعة . ويرجع ذلك الى أن تشعب الطلبة على الاختصاصات المختلفة يتم عادة بعد السنة الثانية ، وهذا التشعب يعني انخفاضا في عدد الطلبة في الصف الواحد ، وبالتالي ازدياد كلفة التعليم بالنسبة للطالب الواحد . وسيشار الى هذه النقطة عند بحث ميزان الكليات المتوسطة .

وبالنسبة للتكاليف الانشائيـة ، فالاحصائيات(١٤) تدل علـى أن معدل التكاليف الانشائية في الجامعات العربية هو ١٥٠٠ دولار / للطالب لكليات الاداب و ٣٠٠٠ دولار / طالب لكليات العلوم . وذلك يعني معدل ٢٢٥٠ دولار للطالب (٧٥٦ دينار اردني) اذا كانت التخصصات الادبيـة والعلمية متساويـة في العدد . والتكاليف الانشائية للمرافق الاكاديمية في الجامعة الاردنية تقدر بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب ، وربما كان هذا الرقم المتواضع مناسبا لتقدير تكاليف انشاء أية مؤسسات جامعية في فلسطين . ولا يشمل هذا الرقم التكاليف الانشائية لمساكن الطلبة، وتقدر هذه التكاليف بحوالي ٦٠٠ دينار للطالب على أساس أن الطالب الواحد يحتاج الى ١٠ متر مربع وبناء المتر المربع يكلف حوالي ٦٠ دينارا . وبالطبع لا يدخل في هذه الحسابات ثمن الارض المزمع انشاء الجامعة عليها . ويصعب حاليا ايجاد أراض مناسبة يقل سعر المتر المربع فيها عن دينار أردني .

٤ ــ مساحة الجامعة

لا توجد أرقام منطقية لتقدير المساحة اللازمة لانشاء اية جامعة . وعند مقارنة مساحات جامعات تضم اعدادا متساوية من الطلبة يظهر اختلاف كبير في المساحة قد يصل الى خمسين ضعفا . وبالرغم من هذا التباين فان هنالك شيئا مؤكدا وهو انه يستحسن أن تحصل الجامعة على أكبر مساحة ممكنة ضمن امكانياتها المادية . والكثير من الجامعات وقعت في خطأ تقدير مدى وسرعة التوسع فلم تحصل علـى مساحات كافية قبل البدء بانشاء الجامعة . ولا شك في انه بعد انشاء الجامعة ، تصبح الأراضي المحيطة بالجامعة باهظة الثمن وقد يصعب شراؤها .

ولكي يعطى القارىء فكرة عن مساحة بعض الجامعات في المنطقة ، فان مساحة الجامعة الاردنية ٦٠٠ دونم وتضم حاليا حوالي ٤٠٠٠ طالب أما الجامعة الامريكية في بيروت فتضم حوالي ٥٠٠٠ طالب ومساحتها أكثر من ٦٠٠ دونم ، عدا عن ٢٠٠ دونم أخرى في البقاع تحت تصرف كلية الزراعة . وتدل هـذه الاعداد أن ٢٠٠ متر مربع للطالب هو رقم معقول وممكن استعماله لحساب مساحة الارض اللازمة للجامعة .

التكوين الجامعي
(نماذج جامعية)

لقد أعطيت فكرة عامـة في البند السابق عن اعداد الطلبة وتخصصاتهم وتكاليف

تعليمهم وسكنهم . ومن المهم الآن تحليل نماذج مختلفة للتكوين الجامعي للتمكن من اختيار ما هو أنسب للظرف الحالي . وقد أشار الدكتور نبيل شعث(١٥) الى نماذج مختلفة من الجامعات والمؤسسات التعليمية التي يمكن أن تحقق أهداف التعليم العالي للفلسطينيين .

وبغض النظر عن التفاصيل الدقيقة لهذه النماذج فان احد الاسئلة الاساسية التي تتعلق بالتكوين الجامعي هو ان كان من الضروري تأمين التعليم الجامعي لجميع الطلبة في جامعة واحدة أو أنه من الانسب انشاء جامعتين أو اكثر — خاصة وان عدد الطلبة المرغوب تعليمهم يقدر بحوالي ١٤٫٠٠٠ طالب وطالبة . وما يمكن ان يحدد الاجابة على هذا السؤال ثلاث نواح هي النواحي الاقتصادية والتربوية والاجتماعية .

الناحية الاقتصادية — ان الارقام التي استعملت سابقا لتقدير تكاليف التعليم الجامعي تدل على معدل تقريبي للتكاليف في الجامعات الصغيرة والكبيرة . فتكاليف الطالب تتوقف الى حد ما على عدد الطلبة في الجامعة . وفي دراسة اجرتها احدى الجامعات(١٦) ظهر ان تكاليف الطالب تزداد بسرعة عندما يقل عدد الطلبة عن ٧٠٠ وتنخفض تكاليف الطالب تدريجيا عندما يزيد عدد الطلبة على ٧٠٠ وحتى يصل الى ٢٠٠٠ طالب وبعد ذلك تبقى تكاليف الطالب الواحد ثابتة نوعا ما(١٧) . ويتبين من ذلك أن تكاليف الطالب في الجامعة التي يقل عدد طلابها على ٧٠٠ هي تكاليف مرتفعة ويجب تجنب انشاء مثل هذه الجامعة الا عند الضرورة . ويتبين أيضا انه لا توجد ميزة مادية أساسية من انشاء جامعة تضم ١٤٠٠٠ طالب مثلا بدلا من انشاء جامعتين أو حتى ثلاث تضم بمجموعها ١٤٫٠٠٠ طالب وربما يكون انشاء اكثر من جامعة في مناطق مختلفة من البلاد أنسب لأن ذلك يخفف من مشاكل ونفقات السكن على الكثير من الطلبة .

الناحية التربوية — تدل الدراسات وخبرة الكثيرين ان الجامعات الصغيرة نسبيا (بين ٢٠٠٠ — ٥٠٠٠ طالب) أفضل من الناحية التربوية من الجامعات الكبيرة . فالطالب في الجامعة الصغيرة يشعر بانتماء أكبر للجامعة ويتمكن من انشاء علاقات متينة وبناءة مع زملائه والمدرسين وهذه كلها أمور لها أهميتها التربوية .

الناحية الاجتماعية — ان تواجد جامعات (أو كليات) في مناطق مختلفة من البلاد ينعش هذه المناطق اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . واذا كانت الجامعة تعي دورها الحقيقي فبامكانها أن تلعب دورا هاما في تطوير ونهضة مجتمع المنطقة التي توجد فيها .

يظهر مما سبق أن تأمين التعليم الجامعي بواسطة جامعتين او اكثر في مناطق مختلفة من البلاد تضم كل واحدة حوالي ٥٠٠٠ طالب ، أفضل من تأمين التعليم بواسطة جامعة واحدة كبيرة . وهنالك تحفظ أساسي في هذا التكوين اذ يجدر البدء بجامعة واحدة فقط ، ومن الحكمة عدم انشاء الجامعة الثانية قبل التأكد من أن الجامعة الاولى قد تركزت وأصبحت لها مكانة مرموقة اكاديميا واجتماعيا . ويعود سبب هذا التحفظ الى أن أية جامعة ناشئة تحتاج الى موارد كبيرة من المال والطاقة البشرية . وهذه الموارد محدودة عادة . وانشاء جامعتين في نفس الوقت سيوزع هذه الموارد بين الجامعتين وبالتالي يضعف كلا منهما . وعدا عن ذلك فان انشاء جامعتين، واحدة بعد الاخرى ، يساعد الجامعة الثانية في تلافي الاخطاء التي تكون قد برزت في التخطيط للجامعة الاولى .

وفي مجال البحث عن التكوين الجامعي ، يجدر ذكر نموذج آخر للتكوين ، وهو وجود جامعة « أم » في مكان ما وكليات متوسطة (سنتين بعد الدراسة الثانوية) في مناطق أخرى من البلاد ويدرس طلبة الكليات المتوسطة موادا مختلفة في العلوم

البحتة والاداب وينتقلون بعد السنة الاولى او الثانية الى الجامعة « الأم » لاتمام تخصصهم . ويتكون طلبة الكليات المتوسطة من سكان المنطقة التي توجد فيها الكلية ، وبالتالي فلا حاجة الى منازل سكنية وما يترتب على ذلك من تكاليف مرتفعة ، وهذه احدى ميزات هذا النموذج من التكوين الجامعي . وكما تبين أيضا عند البحث في تكاليف التعليم الجامعي ، فان تكاليف التعليم للطالب الواحد في الكليات المتوسطة اقل مما هي عليه في الجامعات . ومن الناحية التربوية توجد ميزة خاصة لهذا النوع من التكوين الجامعي ، اذ ان معظم التسرب والرسوب من الجامعات يحصل خلال السنتين الاولى والثانية وبالتالي فان الطلبة الذين ينتقلون الى الجامعة « الأم » هم الطلبة الذين أثبتوا كفاءتهم الجامعية ، ويساعد هذا في تعزيز مركز الجامعة اكاديميا ، كما يخفف على الجامعة المشاكل الادارية والمالية التي تنجم عن الرسوب والتسرب . وعدا عن هذه الميزات للكليات المتوسطة ، فان ايجاد مؤسسات جامعية في المناطق المختلفة يساهم ــ كما ذكر سابقا ــ في انتعاش هذه المناطق ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا .

وعند انشاء كليات متوسطة ، يجدر ملاحظة التحفظ السالف الذكر مرة أخرى ، وهو عدم انشاء مثل هذه الكليات قبل انشاء الجامعة « الأم » وتركيزها اكاديميا وماديا . كما انه من المناسب عدم انشاء كليات متوسطة قبل التأكد أن مجموع عدد الطلبة المتوقع الالتحاق بها لا يقل عن ٧٠٠ والا لاصبحت كلفة التعليم للطالب مرتفعة كما بحث في السابق . وبالطبع فان هذا التحفظ يحدد مواقع الكليات الممكن انشاؤها الى المدن الكبيرة والمناطق ذات الكثافة السكانية العالية نسبيا .

ومن النماذج الجامعية التي تقترح أحيانا ، وجود كليات جامعية كاملة ــ مثل كلية علوم وآداب وطب ــ في مناطق مختلفة ، وهذه الكليات بمجموعها تكون الجامعة . ان لهذا النموذج بعض السيئات ، فهنالك عدد من المواد المشتركة التي يجب ان يدرسها طلبة السنة الاولى وبعض طلبة السنة الثانية في معظم الكليات . وستزداد الكلفة اذا تكرر تدريس هذه المواد في الكليات المختلفة . وعدا عن ذلك فان التربويون يؤكدون ان اندماج طلبة الكليات المختلفة في حرم جامعي واحد له أثره التربوي الايجابي . وبالرغم من هذه التحفظات فانه يلزم احيانا ايجاد كليات متخصصة في مكان غير الحرم الجامعي . وعلى سبيل المثال ، يفضل أن تكون كلية الطب قريبة من مستشفى حتى اذا لم يكن المستشفى ضمن أو قرب الحرم الجامعي .

ويتبين من كل ما سبق أن انسب تكوين جامعي في الوقت الحاضر هو جامعة متوسطة الحجم (حوالي ٥٠٠٠ طالب) تضم الكليات المختلفة أو معظمها في نفس الحرم الجامعي . ومن الافضل انشاء جامعة ثانية أو كليات متوسطة بعد تركيز الجامعة الاولى وحسب ما تحتمه الظروف .

التكوين القانوني

يمكن تقسيم الجامعات من الناحية القانونية الى نوعين ــ جامعات حكومية وجامعات أهلية . ومعظم الجامعات العربية حكومية . وهناك عدد لا بأس به من الجامعات الاهلية في البلاد العربية منها ما هو أهلي عربي مثل الجامعة المستنصرية (تحت اشراف نقابة المعلمين) في بغداد وجامعة بيرزيت (تحت اشراف مجلس أمناء) في الضفة الغربية ، وهنالك أيضا الجامعات الاهلية الاجنبية مثل الجامعة الامريكية في بيروت والجامعة الامريكية في القاهرة وجامعة القديس يوسف في بيروت .

والجامعات الحكومية هي جامعات مجانية (بعضها يتقاضى قسطا بسيطا) ولذلك تعتمد هذه الجامعات في سد نفقاتها على ما تخصصه لها حكوماتها . أما الجامعات الأهلية — العربية والأجنبية — فانها تتقاضى أقساطا ، ورغم ان هـذه الاقساط تكون مرتفعة أحيانا الا انها اقل عـادة من التكاليف الحقيقية للتعليم . ولذلك تعتمد هذه الجامعات على التبرعات التي تحصل عليها من أصدقائها وأحيانا من حكوماتها .

ولمدة طويلة احتلت الجامعات الأجنبية الصدارة في العالم العربي بسبب الاموال الكثيرة التي تدفقت عليها . ولكن وجود هذه الجامعات أصبح أمرا غير مرغوب فيه بعد أن أدرك العالم العربي ان بامكان هذه الجامعات أن تلعب دورا رئيسيا في توجيه الطلبة توجيها قد يختلف مع المصلحة الوطنية . كما أن وجود هـذه الجامعات بحد ذاته هو وجود سياسي أو اجتماعي يخدم أهداف الهيئات المسؤولة عنها . ولذلك أصبح من المهم عدم تشجيـع قيام أيـة جامعة غير عربية في العالم العربـي عامة وفلسطين بالذات .

وبسبب امكانياتها المادية والدعم الحكومي لها ، يظهر أن الجامعات الحكومية أفضل من الجامعات الاهلية الوطنية(١٨) . وبالطبع اذا لم يتيسر وجود جامعات حكومية ، فانه يجدر تشجيـع ودعم الجامعات الاهلية ما دامت هـذه الجامعات عربية وتعي مصلحة البلد . وحتى في حالة وجود جامعات حكومية ، فان بامكان الجامعات العربية الاهلية أن تؤدي دورا فعالا في القيام بمهام التعليم الجامعي في البلد ، خاصة اذا لم تتمكن الحكومة من القيام بجميع مسؤوليات التعليم الجامعي .

التنفيـذ

لقد ذكر عند البحث في التكوين الجامعـي أن انسب تكوين في الوقت الحاضر هو جامعـة متوسطة الحجـم (٥٠٠٠ طالب) تضم الكليات الجامعية المختلفة — أو معظمها — في حرم واحد . وبالطبع ليس من الضروري ان تنشأ جميع الكليـات في نفس الوقت ، ويفضل أن تبدأ الجامعة بكليتي الاداب والعلوم الطبيعية (رياضيات ، كيمياء ، فيزياء ، أحياء ...) ، لأن هذه الكليات تعتبر نواة لأية جامعة كما ان نفقاتها اقل من نفقات الكليات العلمية المهنية . ويجب ان يخطط لكلية الاداب أن تتسع لنصف الطلبة وان تتسع باقي الكليات للنصف الآخر (بحيث يكون ما لا يقل عن ٢٠٪ من الطلبة لكلية العلوم الطبيعية التي تؤهل الطلبـة بعد السنة الاولى وجزءا من الثانية للالتحاق بالكليات العلمية — طب ، هندسة ، زراعة ... الخ) .

وعند التخطيط لتنفيذ المشروع الجامعـي في الوقت الحاضر ، تبرز اربع مشاكل رئيسية :

١ — **الاموال اللازمة** — يتبين من البحث عن التكاليف الجامعية ان النفقات المتكررة للتعليم تقدر بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب في السنة و ٤٠٠ دينار اخرى للطالب لانشاء البناء الجامعي . وهذا يعني أن جامعة بالعدد المقترح — اي ٥٠٠٠ طالب — تحتاج الى مليوني دينار للانشاء ومليونين آخرين سنويا للنفقات المتكررة . هذا كلـه عدا عن نفقات البناء لمساكن الطلبة والمدرسين وثمن الارض المزمع بناء الجامعة عليها .

وتحتاج الجامعة لأرض مساحتها ١٠٠٠ دونم — على اعتبار أن المساحة اللازمة ٢٠٠ متر مربع للطالب ، فاذا قدر ثمن المتر المربع من الارض بدينار واحد يكون ثمن قطعة الارض مليون دينار . أي أن الجامعة بحاجة الى ثلاثـة ملايين دينار للأرض والبناء ومليوني دينار سنويا للنفقات ، ولا شك ان هذه ميزانية كبيرة .

٢ ــ **الهيئة التدريسية** ــ تحتاج الجامعة الى عدد كبير من المدرسين من حملة الشهادات العليا (ماجستير ودكتوراه) للتدريس فيها . وفي الجامعات المرموقة تكون نسبة الطلبة الى المدرسين فيها ١٢ : ١ . ومعدل النسبة في الجامعات العربية هو ٢٠ : ١ . واذا أتخذ المتوسط الحسابي لهذه النسب ــ أي ١٦ : ١ ــ كأساس لتقدير عدد المدرسين المطلوبين يكون العدد المطلوب للجامعة المقترحة حوالي ٣٠٠ مدرس وهذا عدد كبير وليس من السهل تأمينه .

٣ ــ **الهيئة القانونية للجامعة** ــ من المهم ان يكون للجامعة مجلس أمناء عربي يتولى جميع أمور الجامعة . ومن المهم أيضا المحافظة على استقلالية الجامعة وعدم ارتباط هذا المجلس معنويا أو ماديا بالحكم العسكري . وايجاد هيئة مسؤولة تنشأ تحت ظروف الاحتلال وتتمكن من المحافظة على استقلاليتها أمر صعب نوعا ما .

٤ ــ **اختيار موقع الجامعة** ــ ان الموقع المثالي لانشاء جامعة عربية فلسطينية هو مدينة القدس . وليس من الصعب ادراك الاهمية السياسية والمعنوية لوجود جامعة في هذه المدينة . ولكن سلطات الاحتلال تمنع إنشاء أية مؤسسات عربية ، وبالتالي يجب اختيار موقع آخر للجامعة .

وبغض النظر عن الموقع فهنالك مشكلة تأمين قطعة أرض تتراوح مساحتها بين خمسمائة الى ألف دونم . والاغلب ان تكون قطعة أرض بهذا الحجم مقسمة الى قطع صغيرة وممتلكة من قبل اشخاص عديدين ويصعب بالتالي شراؤها . وما يجري عادة في مثل هذه الحالات هو استملاك هذه الارض للنفع العام . ولكن ، مرة أخرى ، ترفض سلطات الحكم العسكري استملاك أراض للمشاريع التعليمية .

ويمكن تذليل بعض الصعوبات التي ذكرت ــ خاصة من ناحية الموقع والهيئة القانونية ــ عن طريق مؤسسات التعليم العالي (غير الحكومية) القائمة حاليا في الضفة الغربية وقطاع غزة(١٩) . ويمكن لهذه المؤسسات أن تسد حاجة ملحة للتعليم الجامعي في الوقت الحاضر كما يمكنها أن تلعب دورا أساسيا في التخطيط الجامعي العام في البلاد عند زوال الاحتلال . وما هو مطلوب الآن هو عمل بحث تفصيلي عن هذه المؤسسات وعن امكانياتها في التطوير من النواحي المالية والادارية والانشائية . وكل هذه الامور ستساعد المسؤولين عن أمور التعليم الجامعي للفلسطينيين في دعم ما هو مناسب من المؤسسات وبالتالي تنفيذ مشروع قيام جامعة عربية في فلسطين .

الخــلاصة

عمل هذا البحث من أجل التخطيط لانشاء مؤسسات جامعية في فلسطين نفسها وقد استغلت الاحصائيات المتوفرة لاستنتاج عدد الطلبة المراد تأمين التعليم الجامعي لهم . واقترحت نسب معينة لتوجيه الطلبة للتخصصات المختلفة . وبالمقارنة مع بعض جامعات الشرق الاوسط استنتجت أرقاما تدل على ما يكلف التعليم الجامعي في فلسطين كما أبديت ملاحظات عامة حول نماذج مختلفة للجامعات وحول التكوين القانوني للجامعة . وأبديت ملاحظات أيضا حول المشاكل الرئيسية التي قد تبرز عند تنفيذ المشروع وأخيرا قدمت اقتراحات عملية للبدء بالمشروع حالا . وبالرغم من أن جميع الارقام المستنتجة هي تقريبية وربما تختلف بعض الشيء عن الواقع الا أنها ما زالت تعطي صورة متكاملة تساعد في التخطيط من أجل تنفيذ المشروع الجامعي . وفيما يلي ملخص للبحث :

١ — من المناسب أن يكون الطلبة الجامعيون ١٢/١٠٠٠ من السكان . ويكون طلبة السنة الاولى ٤ر٣/١٠٠٠ من السكان .

٢ — بما أن عدد سكان الضفة وغزة بلغ ٠٠٠ر١٠٠ر١ في عام ٧٥ ويتزايد بمقدار ٣٪ سنويا ، فان عدد الطلبة المقترح للتعليم الجامعي يتراوح بين ٠٠٠ر١٣ و ٠٠٠ر١٥ خلال الخمس سنوات القادمة . وخلال نفس المدة يتراوح العدد المقترح لطلبة السنة الاولى — أي الملتحقين بالجامعة — ما بين ٣٧٠٠ و ٤٣٠٠ طالبا .

٣ — يجب أن تصل نسبة تعليم الفتيات الى ٣٠٪ .

٤ — نسب التخصص المقترحة ٥٠٪ اداب و ٢٠٪ علوم طبيعية و ٣٠٪ علوم مهنية (أي هندسة ، طب ، زراعة ...) .

٥ — يفضل تأمين التعليم عن طريق جامعتين أو اكثر بدلا من جامعة واحدة كبيرة ويخطط لكل واحدة من هذه الجامعات لكي تتسع لحوالي ٥٠٠٠ طالب وطالبة . وبعد تركيز أول جامعة والتي يجب ان تضم معظم الكليات ، يجوز التفكير في انشاء جامعة ثانية او ربما كليات متوسطة حسب ما تحتمه الظروف في ذلك الوقت .

٦ — تبدأ الجامعة الاولى بكليتي الاداب والعلوم الطبيعية ، اذ تعتبر هاتين الكليتين نواة لأية جامعة . ومن ثم تنشأ الكليات المهنية . ويخطط لأن تتسع كلية الاداب ٢٥٠٠ طالب وكلية العلوم الطبيعية ١٠٠٠ طالب ، والكليات العلمية المهنية ١٥٠٠ طالب .

٧ — من الأنسب أن لا تقل مساحة الارض لبناء جامعة تضم ٥٠٠٠ طالب عن ١٠٠٠ دونم . ويقدر ثمن هذه الارض بمليون دينار اردني .

٨ — تقدر النفقات المتكررة الجامعية بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب في السنة وتقدر النفقات الانشائية للمرافق الاكاديمية بحوالي ٤٠٠ دينار للطالب آيضا . وعلى هذا الاساس فان جامعة تتسع لخمسة آلاف طالب تحتاج الى انشاءات للمرافق الاكاديمية بحوالي مليوني دينار وعدد مماثل سنويا للميزانية المتكررة . كل هذا عدا عن التكاليف الانشائية لمساكن الطلبة وتقدر بحوالي مليون دينار (على أساس أن ٣٠٪ من الطلبة يحتاجون الى مساكن وان تكاليف انشاء المساكن هو ٦٠٠ دينار للطالب) .

٩ — القدس هي الموقع المثالي للجامعة ولكن سلطات الاحتلال تمنع انشاء جامعة أو أية مؤسسات عربية في مدينة القدس .

١٠ — يجب أن تكون الجامعة عربية بمعنى أن مجلس أمنائها وادارتها عربية صرفة ، ويجب عدم ارتباط الجامعة (حتى ولو كانت عربية) بالحكم العسكري ماديا أو معنويا .

١١ — عدد أعضاء الهيئة التدريسية اللازمين للجامعة التي تضم ٥٠٠٠ طالب هو ٣١٠ عضو (على اعتبار أن نسبة الطلبة للمدرسين هو ١٦ : ١) .

١٢ ــ توجد بعض الصعوبات في انشاء جامعة عربية جديدة تحت ظروف الاحتلال ، وبالتالي يقترح الاستفادة مــن مؤسسات التعليــم (غير الحكومية) العربية القائمة حاليا في فلسطين .

١٣ ــ تبقى المشكلة الاساسية وهي النزوح (نزوح الخريجين وحتــى غيرهم) من البلاد . وهذه الظاهرة حاصلة بغض النظر عن وجود أو عدم وجود جامعة داخل فلسطين . والحل الأمثل لها هو دعم مشاريع التنمية والتطوير والبنــاء والزراعة داخل الارض المحتلة .

وفي النهاية تجدر الاشارة الى عاملين مهمين يؤثران على بعض الاستنتاجات الواردة سلفا . وهذان العاملان هما أولا ــ عدد الجامعيين الفلسطينيين الموجودين في الخارج والذين يرغبون أو يستطيعون العودة الى فلسطين في المستقبل القريب ، ثانيا ــ عدد طلبة الارض المحتلــة الذين سيستمرون في محاولــة متابعة دراستهم الجامعية في الخارج . وأبرز تأثير لهذين العاملين هو علــى الحجم الاجمالي للتعليم الجامعي في فلسطين من اعداد طلبة ومدرسين ومجموع التكاليف الانشائية . أما بقية الاستنتاجات فهي مستقلة الى درجة كبيرة من هذين العاملين .

---

١ ـ من بين هذه المحاولات ، المحاولة التي قام بها السيد جورج شبر عام ١٩٤٧ لاقامــة جامعة عربية في القدس . وكان اهتمامه كبــيرا بالمشروع فكتب ابنــه ، المهندس الدكتور سابا شبر اطروحة الماجيستر عن بناء الجامعــة . ولكن حكومــة الانتداب البريطاني لم توافق على اقامة الجامعة . كذلك قــام السيد موسى نــاصر رئيس اللجنة الملكية التي انشئت عــام ١٩٦٢ لاقامة جامعة في الاردن ، بكتابــة مذكرة خاصة اقترح فيها ان تكون القدس مركزا للجامعة . ولكن تم انشاء الجامعة في ذلك الحين في عمان . وبعد عام ١٩٦٧ قام عدد من الاشخاص في الارض المحتلة بتأليف لجنة لاقامة جامعــة في الضفــة الغربية المحتلة . وقــد ترأس اللجنة الشيخ محمد الجعبري وكان سكرتيرها المحامــي عزيز شحادة . وقد حصلت اللجنة عــام ١٩٧٣ علــى موافقــة الحكــم العسكري لانشاء الجامعة ولكن لم يتم انشاء الجامعة حتى الآن . وقــد تعرضت اللجنــة لانتقادات كثيرة اذ تبين انه سيكون للجامعة المقترحة ارتباط معنوي ومادي بالحكم العسكري .

٢ ـ باستثناء ما قامت بــه بعض مؤسسات التعليم الاهلية في الضفــة الغربيــة من تطوير برامجها لتصبح مؤسسات جامعية، وبالطبع لا يمكن لهذه المؤسسات تحمل عبء التعليــم الجامعــي بأكملــه بسبب امكاناتها المحدودة ، ولكن سيشار فيما بعد الى الدور الرئيسي الذي يمكن لهذه المؤسسات ان تقوم به في الوقت الحاضر .

٣ ـ ابراهيم ابو نــاب ـ ورقــة عمل مقترحة من أجل مشروع جامعة فلسطينية ، بيروت ٧١/٩/١٢ (غير منشور) .
د. نبيل شعث ـ ورقة عمل في مشروع الجامعة الفلسطينية ، بيروت ٧١/١١/١ (غير منشور) .
د. محمود زايد ـ اقتراحات انشاء كلية جامعية عربية فلسطينية لتدريس العلوم بيروت ، تشرين أول ١٩٧١ (غير منشور)
د. ابراهيم ابو لغد ـ
Ibrahim Abu - Lughod, Plan for a Palestinian University, (Draft, Unpublished, 17/11/71).

٤ ـ على سبيل المثــال ، يقترح د. ابراهيم ابو لغد (المصدر السابق) أن تكون السنة الدراسية أحد عشر شهرا بدلا من تسعة شهور وان يتكون الاسبوع الدراسي مــن ثلاثة أيام دراسة أكاديمية وثلاثــة أيام عمل في المصانــع والمــزارع والمؤسسات العامــة . ويؤكــد د. ابو لغــد ان لهذا البرنامج ميزات اقتصادية كما انه يساعد في خلق الانسان الفلسطيني الجديد .

٥ ـ د. انطون زحلان
A. B. Zahlan, Arab World : Year 2000, (Arab Projects and Developments, Beirut, 75).

٦ ـ د. نبيل شعث
Dr. Nabil Shaath, *High Level Palestinian Manpower*, (The Journal of Palestine Studies, vol. 1. no.2, Winter 72)

٧ – المصدر السابق

٨ – تستعمل الكثير من الجامعات هذه النسب لتقدير الرسوب والتسرب ٠

٩ – يمكن اعتبار علامة ٧٠٪ في الامتحانات الثانوية العامة كدالة للمؤهلين للالتحاق بالجامعات ٠ وتدل الاحصائيات ان حوالي ٣٢٪ من خريجي المدارس الثانوية يحصلون على معدل ٧٠٪ أو أكثر ٠ ويرى د٠ ابو لغد (المرجع السابق) ان الامتحانات العامة ليست مقياسا جيدا للتأهيل للجامعات ٠ وبالرغم من الموافقة على رأيه ، الا انه من الانسب استعمال هذا المقياس لأن الامتحانات العامة ستبقى أساسا للقبول لبضعة سنوات – على الأقل ٠

١٠ – يقسم نظام التعليم – دون المرحلة الجامعية – في الضفة الغربية وقطاع غزة الى ثلاث مراحل – المرحلة الابتدائية ومدتها ست سنوات والمرحلتين الاعدادية والثانوية ومدة كل منهما ثلاث سنوات ٠ وبالرغم انه مناسب ان يكون مدرسو المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية من حملة الشهادات الجامعية ، الا انه يمكن الاكتفاء بالجامعيين للمرحلة الثانوية كخطوة أولية ٠

١١ – معظم الشعب تحتوي حاليا على ٣٥ طالبا أو أكثر ، ويصل العدد أحيانا الى ٤٥ ، وهذه أعداد كبيرة تساهم في انخفاض مستوى التعليم ٠ ويجدر العمل على جعل الشعبة تحتوي على ما لا يزيد عن ٣٠ طالبا ٠

١٢ – عدد الشعب تساوي ع/٣٠ وعدد الحصص الاسبوعية لجميع الشعب يساوي (ع/٣٠) × ٣٦ ٠ وبالتالي فعدد المدرسين المطلوبين هو (ع/٣٠×٣٦) / ٢٤ اي ع/٢٠ ٠

١٣ – محمد حسن درويش – Mohammad Hasan Darwish, *Health Manpower in Jordan,* (The National Planning Council, Amman, April 72).

١٤ – د٠ محمد الغنام / التربية في البلاد العربية ، المركز الاقليمي لتخطيط التربية وادارتها في البلاد العربية – بيروت ١٩٧١ ٠

١٥ – د٠ نبيل شعث ٠ ورقة عمل في مشروع الجامعة الفلسطينية بيروت ١/١١/١٩٧١ (غير منشور) ٠

١٦ – نشرة خاصة – جامعة ييل في الولايات المتحدة ١٩٦٨ ٠

١٧ – وتعليك ذلك أن هنالك حدا أدنى من الوظائف الادارية والمدرسين والاجهزة والكتب في الجامعة وتكاليف هذه الامور تتوزع على عدد صغير من الطلبة وفي الجامعات الصغيرة وبالتالي فان التكلفة بالنسبة للطالب الواحد تكون كبيرة ٠ أما في الجامعات الكبيرة فان الاحتياجات من موظفين وأجهزة وكتب تزداد بنفس النسبة – نوعا ما – بازدياد عدد الطلبة وبالتالي تبقى تكاليف الطالب الواحد ثابتة أو تنخفض قليلا ٠

١٨ – من بين الجامعات الحكومية يظهر ان للجامعة الاردنية أفضل نظام مالي اذ يعطي للجامعة صبغة الاستقلال لدرجة كبيرة ٠ فموارد الجامعة المالية الرئيسية لا تعتمد على مخصصات مباشرة من الحكومة ، وانما على ما تحصل عليه الجامعة كنسب معينة من عائدات الجمارك وأرباح الشركات وضرائب المطار ٠٠٠ ألخ ٠

١٩ – يتلاءم هذا الرأي مع تواصي اتحاد الجامعات العربية الذي قام في عام ١٩٧١ بدراسة امكانية قيام جامعة عربية في الارض المحتلة ووجد أن أنسب طريقة – في الظرف الحالي – هو تطوير مؤسسات التعليم العالي غير الحكومية ٠

التربيــة والمعركة

الدكتور الياس زين

تمثل التربية دورا بارزا في المعركة . وتعتبر في الواقع **خط الدفاع الاول** ، في المعركة ضد التخلف العــام وضد التحديات الخارجيــة . فالتربية **قوة ايجابية** ، تلجأ اليها الشعوب ، منذ اقدم العصور الـى الوقت الحاضر ، للتغلب علــى الأزمات والمحن والنكسات والهزائم ، ولمواجهة التحديات الاجنبية والاحتلال العسكري الاجنبي ، فضلا عن كونهــا السبيل للقضــاء على التخلف الاقتصــادي والاجتماعي والسيــاسي والعسكري ، الخ .

وتتطلب المعركة موارد بشرية ومادية لمواجهة التحديات ولتحقيق النصر . والموارد البشرية هي التي تعنينا في هذا البحث . واذا اردنا اعداد الموارد الانسانية للمعركة ، فيجب تطويرها وتنميتها ، بواسطة **التربية والتعليم والتدريب الهادف** ، كمــا فعلت الشعوب في العصور القديمــة والحديثة . فالانسان هــو العنصر الاساسي في كل معركة .

وعلى الرغم من اهمية تطوير الموارد البشرية واعدادها للمعركة ، بواسطة التربية والتعليم ، لمواجهة التحديات ولبناء امة قوية ، لم يدرك العرب تماما دور التربية في خدمة المعركة بعد ، كما يجب . ونتيجة لذلك ، فقد منوا بهزائم ونكسات عديدة في التاريخ المعاصر ، وخاصة نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وما تلاها من محن وتحديات . بيد أن الصهيونية واسرائيل ، كما سنرى في هــذا البحث ، قد ادركتا دور التربية والتعليم في صراعهما مع الأمة العربية المتخلفة ، تربويا وعلميا ، وذلك في بناء مجتمع **متعلم وعصري** . وبهذا تعوض اسرائيل عن النقص في عدد الرجال والنسـاء ، الذين تحتاج اليهم لمقاومة اكثر من مائة مليون عربي . فهي تقوم بتنمية شعبها ، بواسطة التربية والتعليم ، وباستقطاب مهاجرين جدد من المتعلمين والمثقفين ، تعليما جامعيا وعاليا . بيد أن المسؤولين والمربــين العرب ، قد ادركوا مؤخرا ، دور التربيــة في المعركة ، عندما أعلنوا في المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، اهمية المسؤولية الملقاة على التربية في مواجهة التحديات والمعركة ، في القرار الاول ، الذي أعرب فيه المؤتمر : « عن ايمانه العميق بأن **التعليم** ــ اذا أحسن تعبئته وتوجيهه ، كما وكيفا ــ **قوة فعالة في احداث التغيير** الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وفي تمكين الأمة العربية مــن مواجهة التحديات ومغالبة الصعاب والتغلب عليها » (١) . كما دعــا أعضاء المؤتمر ، الذي انعقد في مراكش سنــة ١٩٧٠ ، الــى « **تعبئة المدارس والمعاهد والكليات** للمعركة

المصرية ، وتسليح الطلاب ، بالعلم وتطبيقاته الحديثة وبالقدرة على النضال ، من اجل تحرير الوطن وحرية الأمة العربية » (٢) .

ونظرا لأهمية التربية في صنع المستقبل للجيل الجديد ، ترى الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البلاد العربية ، التي انعقدت في بيروت (١٩٧٤) ، ان الوطن العربي يزيد اهتمامه بالتربية ، مع بقية مناطق العالم ، لأنه « يرى فيها السبيل الاكيد لازالة آثار التخلف والتجزئة ، التي فرضت عليه حينا من الزمن ، ولاعداد الجيل العربي القوي ، القادر على أن يدفع عن وطنه عدوان المعتدين ، وان يبني المجتمع العربي الواحد ، على أساس من العقلانية والعلم والتقنية ، مستمداً من تراثه الغني الزاخر العزم والتصميم والهدى ، ومستجيبا لمتطلبات الحضارة الصناعية الحديثة . ولذلك كله ، يقف موضوع الاصلاح التربوي اليوم ، في مقدمة القضايا المطروحة على المجتمع العربي » (٣) .

ومما تجب الاشارة اليه في هذا المجال ، انه لا يكفي اتخاذ القرارات والتوصيات ، فيما يتعلق بأهمية التربية ، كقوة فعالة في احداث التغيير وازالة آثار التخلف ، بل الأهم من كل ذلك ، تنفيذ ذلك بسرعة ، قبل فوات الأوان .

التربية للمعركة في العصور القديمة والوسطى

والآن نبدأ بعرض عـــام للتربية في خدمة الدفـــاع والحرب في العصور القديمة والوسطى . وسنركز على الشعـــوب التي استخدمت التربيـــة كوسيلة للدفـــاع أو للأمن أو للحرب أو للابقاء على عاداتها ، أي اننا اخترنا الشعـــوب التي ربطت التربية بقضايا الدفـــاع والحرب والفروسية ، كشعب اليونـــان والرومان والفرس والأوروبيين الشماليين .

وقبل أن نلقي نظرة على التربية ، التي كانت تعد الرجال والنساء للمعركة ، يجدر بنا أن نؤكد حقيقة بديهية بأن الانسان ، منذ اقدم العصور ، حاول أن يحسن نفسه ، بشكل أو بآخر ، بواسطة التربية والتعليم والتدريب . فالانسان البدائي مثلا ، اضطر أن يعلم أولاده ، كي يتمكنوا من البقاء . وكان الأطفال يتعلمون اشعال النار ومهارات الصيد وبناء البيوت وزرع الحبوب . ويبدو أن التربية التي ارتبطت بالمعركة ، بدأت اولا في بلاد اليونان .

١ ــ التربية اليونانية

لعل حكماء اليونان القدماء ادركوا ، قبل غيرهم ، اثر التربية في بناء جيل قوي من الابطال . فمنذ أكثر من الفي سنة ، طالب اولئك بضرورة تعميم التعليم . ويرى بعض المؤرخين أن السبب الجوهري في خلق رجال اقوياء وابطال في اليونان القديمة ، يعود الى نظم التربية وطبيعتها . هذا وينصح أفلاطون في « جمهوريته » للفتيان بالعاب الفروسية والقوس والحراب ، وبالصراع الذي يقوي الجسد والرقص ، الذي يهب الرشاقة .

أ ــ التربية الاسبارطية

كانت المدارس والمعاهد في اسبارطة ، الدولة ــ المدينة العسكرية ، تربي الاولاد ليكونوا **محاربين** ، وقد أعدت فعـــلا أولئك الجنود الذين وقفوا بين الموت والنصر في

« ثرموبولي » . وكان المواطن الاسبارطي يدرب في **التوعية الوطنية** ، لدرجة انه كان يترك بيته لأجل وطنه . والجدير بالذكر أن الوطنية هناك ، لم تكن شيئا يحكى فيها في ابان أوقات الاعياد القومية فحسب ، بل كانت جزءا لا يتجزأ من حياة الاسبارطيين . ويعود الفضل الى الدولة التي هيأت ذلك الجو . كما أعطت الدولة أيضا معنى جديدا لحياة اسبارطة ، فجعلت المواطن فخورا بأن يكون اسبارطيا .

ومن بين الصفات التي كانت تعتبر اكثر حمدا : القوة ، الشجاعة ، الصبر ، القومية ، والطاعة .

وكانت تربية الولد تبدأ منذ بلوغه الثامنة من العمر وحتى الثامنة عشر . وكان يعيش في ثكنات عسكرية عامة ، حيث كان يتدرب على كل انواع احتمال الصعوبات ، وعلى الركض ، والقفز ، والمصارعة ، والملاكمة ، والموسيقى العسكرية ، والتدريب العسكري ، ولعب الكرة ، واستعمال الخنجر ، والقتال ، وفن الخطابة الموجزة والسلوك كل هذه كانت تمثل منهج الدراسة . ومن سن ١٨ الى ٢٠ سنة ، كان الشاب يقضي اوقاته في التدريب على فنون احتراف الحرب . ومن سن ٢٠ الى ٣٠ كان يخدم في الجيش على مواقع حدودية . وأما النساء فكن يتدربن ايضا على « الجمنزيوم » ، حتى الزواج ، ليصبحن اقوياء ، ولبناء قدرتهن على حمل الاولاد الاقوياء . وكانت العائلة بكاملها ، معبأة في الغالب في خدمة الدفاع والحرب .

وعلق الفيلسوف ارسطو ، معبرا بدقة عن طبيعة التربية في اسبارطة ، بقوله : « أعدت اسبارطة ودربت للحرب. ولكن في السلام تصدأت مثل السيف في غمده » . والتربية للمواطنة عنت في اسبارطة أن تستعمل في خدمة دولة تتسم بالعسكرية القوية . فالاستعداد للحرب كان مطلوبا مسبقا ، كأساس للأمن والسلامة . لذا كانت كل حياة الاسبارطيين منهمكة بالتدريب في كل نشاط من نواحي حياتهم .

ونتيجة لذلك ، تركت التربية في اسبارطة أمثلة رائعة في البطولة . فاسبارطة كانت تمجد التربية الحربية الرتيبة . لذا أصبح الاسبارطيون اعظم جنود في اليونان ، وعليه ، فقد تمتعوا بمكانة خولت اسبارطة أن تفرض ارادتها على الولايات اليونانية عدة مرات في القرن الذي سبق سنة ٥٠٠ ق. م. وارغمت اسبارطة تلك الولايات المجاورة على الانضمام الى حلف اسبارطة (٤) .

ب ــ التربية الأثينية

وفي اثينا ، حيث التربية كانت حرة ، ادرك المفكرون اليونان هناك ، الدور الذي تمثله في بناء جيل قوي ، وفي جعل الحياة ذات معنى قيم ، وفي حماية الدولة من العدوان الداخلي والخارجي . لذلك ركزت التربية الاثينية على بناء « العقل السليم في الجسم السليم » معا . فاهتمت التربية بتنمية مواهب الانسان كافة ، وخاصة ببناء العقل الناقد ، الذي يسأل ويناقش . وكان الاعتقاد السائد هناك أن الرجل المفكر أو الناقد هو رجل قوي . والرجل القوي هو دعامة للدولة في السلم وفي الحرب على حد سواء .

وكان تدريب الشباب صارما وعنيفا . عندما يبلغ الشاب السادسة عشرة من العمر ، كان يدرب في مدرسة للدولة ، في خارج أثينا ، تدريبا رياضيا ، لتهيئته لدخول الخدمة العسكرية . وفي اثناء التدريب هذا ، كان المتدربون يعيشون سوية ، ويلبسون

ازياء عسكريـــة ، ويقومون بتمارين صارمـــة ، ويحضرون محاضرات عن الموسيقى والآداب والهندسة والبيان .

ماذا كانت النتيجة ؟ ان هذا النوع من التربية اعطى نتائج ناجحة في السلم وفي الحرب . واستطاعت اثينا ، بهذه التربية ، أن تتحدى ، لمدة ٢٠٠ سنة ، ظلم الشرق ، الممثل بدولة الفرس ، التي لم تستطع قهر اليونان في مواقـــع عديدة . هذا ويعتقد المؤرخ كيوبرلي : ان نظام التربيـــة الاثيني ، قد أعطى في عهده ، نتائج ناجحة ، قلما شهد العالم مثلها في التاريخ (٥) .

٢ ـــ التربية الرومانية

وفي روما ، كانت التربية هناك تربية جسدية وخلقية ، اي حربية وخلقية . وكان الصبيان يدربون جيدا في مهارات الحرب والزراعة ، وكان الذكور الاصحاء الصالحون للخدمة يلتحقون بالجيش في سن الثامنـــة عشر . وكانت التربية تعنـــى بالتدريبات المتصلة بساحة الوغى ، فضلا عن حفظ الأناشيد الدينية والقانون الروماني .
وعن طريق هذه التربية الطبيعية ، خرج الرجال الاشداء الشجعان الذين عرفوا بوطنية ، لم يعرف التاريخ مثلها . وكانت رومـــا ، المدرسة الكبرى لنفضائل المدنية والحربية . وكان المواطنون في رومـــا يريدون ان يكونوا جنودا ومواطنين مطيعين ، قادرين على التضحية .

٣ ـــ التربية الفارسية

وفي بلاد فارس ، كانوا يعلمون ابناءهم أمورا ثلاثة : ركوب الخيل ، ورمي السهام، وقول الحق .وبعد سن السابعة ، يصبح الطفل بين أيدي الدولـــة . وكان التعليم النظامي يبدأ في سن السابعة . وفي مجال التربية البدنية ، كان البرنامج يضم الجري والمبارزة ورمي السهام ورمي الرمح . وبين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر ، كانت التربية تتسم بالعسكرية ، وكان الشاب يتلقى أولا ، حزام الرجولة ، ثم يقسم أن يتبع تعاليم « زرادشت » ، وان يخدم الدولة باخلاص . ثم يأخذ بالتدريب علـــى المبارزة واستخـــدام السلاح . وبـــين سنوات العمر الخـــامسة والعشرين والخمسين ، ينخرط رجال الفرس في الجندية ، فيشاركون في الحروب والغزوات . ويضم منهاج المحاربين : الدين والقراءة والكتابة والتربية البدنية بوجه خاص .
وبفضل التربية في بلاد فارس ، حيث سيطرت الدولة عليها عامة ، استطاعت ان تكون **قوة عسكرية** ، ذاع صيتهـــا ، وتمكنت الامبراطورية الفارسية مـــن توسيع حدودها (٦) .

٤ ـــ التربية في شمال اوروبا

وأما التربية في القرون الوسطى ، في اوروبا ، فتوجهت لتخدم حاجات المجتمع في تلك العصور . وكـــان معظم الفرسان ، في بـــلاد أوروبا الشمالية ، يهتمون بأنماء القادة العسكريين والاجتماعيين . ففي عمر السابعة مثـــلا ، كان الولد يرسل الى السيد . ومن ضمن ما يتعلمه ، ميثـــاق الشرف للفرسان . وفي عمر الرابعة عشر ، يصبح مرشح فارس ، وخادما شخصيا للفارس ، يعتني بسلاح الفارس في اثناء قيامه بالحرب ، كما يتدرب الشاب المرشح للفروسية على انجازات الفروسية ، في العاب صناعية (صورية) ، وكذلك يتمرن على الشجاعة والبطولة في الحرب . وعندما يصل الشاب الى الحادية والعشرين ، يصبح فارسا (٧) .

التربية للمعركة في القرن التاسع عشر

والآن ننتقل الى دور التربية في المعركة في القرن التاسع عشر ، ونركز على تجربتي دولتين رائدتين حقا ، وهما بروسيا واليابان ، الاولى في النصف الاول والثانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وفي الواقع فان التجربة التربوية ، في كل من بروسيا واليابان ، قد اصبحت مضرب الامثال في العالم اجمع .

١ ـ « معجزة » التربية في المانيا(*)

ولعل تجربة المانيا (بروسيا) التربوية في القرن الماضي ، تعتبر شهادة حية ، لدور التربية الفعال ، اذا وجهت الوجه القومي الصحيح ، في بث روح وطنية سليمة ، وخلق جيل جديد قوي ، يؤمن برسالة أمته وأمانيها القومية . والمعروف أن رجال التربية في العالم لا يملون ابدا ، من الاستشهاد بتجربة ألمانيا التاريخية الرائدة والحية في استخدام التربية والتعليم لانقاذ البلاد ، وجعلها قوية ومتحدة .

ويجدر بنا الآن أن نسلط الاضواء على الخلفية التاريخية ، لهزيمة المانيا من قبل فرنسا ، قبل أن نذكر قصة قفزة المانيا التربوية .

في ختام عام ١٨٠٤ ، تحولت فرنسا من جمهورية الى امبراطورية ، واصبح نابوليون بونابرت ، القائد المعروف ، أول امبراطور على فرنسا . وصمم الامبراطور الجديد على اخضاع بروسيا (المانيا) ، بعد تغلبه على النمسا . واستطاع فعلا الجيش الفرنسي الحاق هزيمة شنعاء بالجيش البروسي في معركة « يينا » عام ١٨٠٦ ، وارغمه على التراجع حتى الحدود الروسية ، ونتيجة لهذه الكارثة ، خسرت بروسيا نصف أراضيها وشعبها ايضا في معاهدة « تلست » سنة ١٨٠٧ ، وسقط اسم بروسيا من قائمة الدول العظمى ، في ذلك العصر ، بعد ان كانت دولة قوية في عهد الملك فريدريك الكبير . وعلق المؤرخ التربوي الكبير ، « كيوبرلي » ، على تلك الهزيمة بقوله : « لم تشهد بروسيا في تاريخها كهذا النوع من الاذلال ، ففي اشهر قليلة ، تحطمت حصيلة ما جنته بروسيا في قرن ونيف من العمل البناء » .

وتسلم الفرنسيون بيد من حديد كل السلطات في البلاد ، ما عدا شؤون التربية والتعليم ، التي تركت لابناء البلاد الاصليين . بيد أن الدولة الالمانية اهتمت كل الاهتمام بالتربية والتعليم .

ولكن كيف استطاعت بروسيا التغلب ، تدريجيا ، على هول الصدمة ؟ بدىء أولا باجراء سلسلة من الاصلاحات في شتى المرافق ـ في الاقتصاد والادارة والجيش **والتعليم** . الا ان الاهتمام الاكبر كان قد ركز على شؤون التربية والتعليم ، وذلك بناء على الايمان بأن المدارس تعتبر المصدر الرئيسي الذي يمكن ان تنبعث منه الحياة الجديدة في البلاد . وعبر ملك بروسيا آنذاك ، فردريك وليم الثالث ، عن الايمان القوي بقوة التربية والتعليم بقوله : « ان ما خسرته الدولة عسكريا ، سوف نسترجعه عن طريق التربية » . كما أعلن : « ان على الدولة ، ان تكسب بالقوى الذهنية ، ما خسرته بالقوى المادية » . وفي نفس السياق ، صرح أحد الوزراء : « هدفنا الاساسي هو انشاء جيل جديد من الرجال ، عن طريق التربية والتعليم » .

ولعل هذه الافكار والمشاعر مستمدة من الفيلسوف الالماني ، « فيخته » ، الذي حث الزعماء والقادة في المانيا الى اللجوء للتربية والتعليم ، لانقاذ البلاد والدولة من

---

* بروسيا دولة من دول المانيا ، قديما . وكانت عاصمتها برلين . وكان لملوكها الدور الاول في توحيد المانيا وجعلها امبراطورية ، بعد معاهدة فرساي عام ١٨٧١ .

الذل والمآسي ، نتيجة للهزيمة العسكرية على يد نابوليون . وتوجه في شتاء عام ١٨٠٧ و ١٨٠٨ الى الشعب الالماني بخطبه المعروفة « رسائل الى الأمة الألمانية » . وقال في احدى خطبه : « لم يبق لنا أمل في حياة جديدة ، الا الأمل الذي تؤمنه لنا المدارس ، حيث تتعلم الاجيال الجديدة . . . فأنا آمل أن اقنع بعض الالمان بأن أريهم أنه ليس هناك سوى التعليم ، كوسيلة لخلاصنا من شرور الاضطهاد والذل الذي نعانيه . . . » هذا ونادى « فيخته » باصلاح نظم التربية السائدة آنذاك ، وبضرورة قيام **تربية قومية** ، تساعد على بعث الأمة الالمانية ، وطالب بتوحيد المناهج والبرامج التربوية ، كما دعا الى بث **الروح الوطنية والى تربية مشتركة** بين فئات الشعب الالماني كافة ، ولتحقيق ذلك ، شدد الفيلسوف الالماني ، على تبني **نظام عسكري** صارم في المدارس ، حيث يدرب التلاميذ على أساليب مقاومة نابوليون وجنوده . واستطاع « فيخته » أن يجعل القادة الألمان يشعرون ، معه ، بأهمية التربية والتعليم ، في بعث أمـة قوية . كما استطاع ان يحرك المفكرين ايضا ، مما أدى ، في النهاية ، الى اجراء اصلاحات جذرية في نظام التعليم على كافة المستويات ، واعادة تنظيمه من جديد على اهداف قومية . ومن ابرز التغييرات الاخرى ، كـان : « تأميـم » التعليـم ، بحيث أصبحت الدولة المسؤولة عن تعليم النشء وتربيته ، في مدارس شعبيـة ، اتسمت بطابع الوطنية الشديدة . وأصبح الاطفال الالمان بذلك يتلقون تربية وطنية وتثقيفا للحياة في المدارس.

وعلى الصعيد العملـي ، انشئت دائرة خـاصة للتعليم في وزارة الداخلية ، وتم انتزاع المدارس من أيدي الكنيسة ووضعها في خدمة الدولة ، فأصبح التعليم بذلك مهمة من مهمات الدولة الاساسية . ومن ابرز ما قامت به دائرة التربية المذكورة ، ايفاد بعثة مؤلفة من سبعة عشر معلما بروسيا الى سويسرا ، للدراسة ، مدة ثلاث سنوات ، على يد المربي السويسري الكبير ، بستالوتزي ، وللتعرف علـى طريقته وافكاره . وبعد عودة الموفدين مباشرة ، تم تعيينهم فورا ، كمدراء لدور المعلمين ، او مدراء للتعليم في مناطق مختلفة مـن بروسيا . وتم تعيين أحد كبار رجال الفكر والسياسة الالمان عام ١٨٠٩ ، « وليم فون هامبولت » ، مديرا لدائرة التربية في وزارة الداخلية . وبدأت على اثر ذلك أضخم عملية اصلاح تربوي في القرن التاسع عشر . ومن أهم ما حققه الاصلاح انشاء **مدارس عصرية** عرفت **بمدارس الشعب** .

وبالاضافة الى ذلك ، فلقد اهتم الالمـان ايضا ، **بالتعليم العالي** ، والتعليم التقني ايضا . فأنشأوا جامعة برلين في عام ١٨١٠ ، وجامعة بون في عام ١٨١٧ ، ومجموعة من المدارس التقنية في انحاء البلاد كافة . والجدير بالذكر أن « فيخته » عين رئيسا لجامعة برلين ، وراح يجوب البلاد ويلقي الخطب الحماسية ، ويستنهض الهمم ، ويدعو المواطنين الى العناية بالتعليم والاكثار مـن الجامعات الوطنيـة . وقد حذا الاساتذة الجامعيون حذوه ، وقاموا بدور كبير في عمليات التوعية والتثقيف وبث الروح الوطنية . وكان لاهتمام الالمان بالتعليم العالي ، بوجه خاص ، نتائج علمية وتربوية وسياسية واجتماعية باهـرة . وكانت **الجامعة فعلا خط الدفاع الاول** ، الذي أتاح لالمانيا القفز منه واستعادة استقلالها وتوحيد أراضيها . ومما يجب التشديد عليه هو أن الخطة التربوية الجديدة ، التي ركزت على بعث الروح الوطنية ، وبناء جيل جديد من الرجال ، أثمرت ، بعد أقل من مضي عقد واحد من الزمن ، بحيث غـدت التربية وسيلة مؤثرة في يد الدولة الالمانية .

ماذا كانت النتيجة ؟ على الصعيد العسكري ، بعد أعوام قليلة ، اي في عام ١٨١٣ مثلا ، انهزم نابوليون في معركة « ليبزيغ » ، أمام قوات بروسيا وروسيا والنمسا . ثم اندحر مرة ثانية عام ١٨١٥ ، في معركة « واترلو » في حربه ضد انكلترا وبروسيا .

وتوالت انتصارات بروسيا على فرنسا منذ ذلك الحين ، كما سنرى . وأما على الصعيد التربوي ، فان التقدم الذي حققته بروسيا ، في حقل التربية والتعليم ، قد أذهل فرنسا نفسها . فأرسلت عام ١٨٣٠ مدير دار التعليم العليا ، فيكتور كوزين ، وهو أحد مشاهير المربين آنذاك ، لالمانيا ليستطلع الاحوال التعليمية هناك ، ولدراسة اسباب استعادة بروسيا قوتها ، خلال فترة قصيرة بعد الحرب . وبعد الزيارة التي قام بها لالمانيا ، عاد وقدم تقريرا ، عرف باسمه ، نقل فيه مشاهداته وانطباعاته بالتفصيل ، وقدم سلسلة من الاقتراحات لاصلاح التعليم في فرنسا . وعلى اساس التقرير ، تم اصدار قانون التعليم الفرنسي العام سنة ١٨٣٣ ، والذي يعتبر احدى اهم ركائز النظام الفرنسي في القرن التاسع عشر .

وفي حرب السبعين (سنة ١٨٧٠) ، انتصرت المانيا على فرنسا ، ومحت عارها وهزيمتها . لماذا حققت المانيا ذلك النصير المبين على غريمتها فرنسا ؟ ما هي العوامل وراء النصر الالماني ؟ دعونا نأخذ جوابا من الماني وجوابا آخر من فرنسي . اعلن المستشار الالماني ، بسمارك ، وهو من مشاهير السياسيين الالمان ، واحد الذين حققوا الوحدة الالمانية وجعلوا المانيا في مقدمة الدول الاستعمارية ، في القرن التاسع عشر : « ان الذي انتصر في معارك حرب السبعين ، انما هو **المعلم** » . وقد اعلن الكاتب والعالم الاثري الفرنسي ، ارنست رينان ، في أعقاب حرب عام ١٨٧٠ : « ان **الجامعات** الالمانية هي التي كسبت الحرب » . ونتيجة لذلك ، أدركت فرنسا مرة ثانية اهمية التعليم العالي ، فراحت تصلحه . وذكر « ثيودور زيلدن » في دراسة له عن التعليم العالي في فرنسا : « ان حرب عام ١٨٧٠ قد زودت حركة اصلاح الجامعات بقوة دفع عظيمة » .

ويجدر بنا ان نعيد الى الاذهان ان المربي السويسري ، بستالوتزي (١٧٤٦ — ١٨٢٧) ، كان أعظم ملهم في حركة اصلاح التربية الشعبية في المانيا . وفي الوقت الذي لم يكترث به نابوليون ، امتدحه الفيلسوف فيخته في عام ١٨٠٢ بقوله : « انني أتوقع بعث الأمة الالمانية من معهد بستالوتزي » . وهكذا كان (٨) .

٢ — « معجزة » التربية في اليابان

والتجربة الثانية الرائدة لدور التعليم في بناء نهضة عصرية وأمة قوية هي في اليابان . وتعود جذور نهضة اليابان الحديثة الى ما تحقق منذ العصر الذهبي ، الذي يعرف باسم عصر « ميجي » ، نسبة الى الامبراطور الياباني ، الذي قاد البلاد الى نهضتها الحديثة . عندما اعتلى العرش عام ١٨٦٧ ، كانت اليابان دولة متخلفة . فقرر الامبراطور الجديد أن يجعل اليابان دولة قوية ، تجاري الدول الغربية . ومن أهم ما قام به ، لتحقيق هدفه ، كان حث الشعب على نيل **العلم والمعرفة** في الغرب . فأرسل العديد من البعثات والطلاب ليدرسوا في مدارس ومعاهد البلدان الغربية ، حيث راحوا يتعلمون كل شيء من الغرب ، من علوم وادارة وفنون عسكرية وتربوية . ولا سيما **التربية المهنية** . هذا وقد تم تعميم التعليم الابتدائي ، وانشاء جامعة طوكيو ، واستقدام الخبراء الاجانب ، والتركيز على التقدم العلمي والصناعي ، الى جانب التربية الخلقية والقومية . ونتيجة لذلك ، وفي ظرف أقل من ٤٠ سنة ، أصبحت اليابان دولة قوية حديثة ، تضاهي دول الغرب نفسها ، بفضل « المعجزة » التربوية (٩) .

التربية للمعركة في القرن العشرين

بعد ان عرضنا تجارب بعض الشعوب التي استخدمت التربية من

اجــل المعركــة او مــن أجل نهضتهــا الحديثــة ، ناتــي الآن الـــى تجــارب الشعوب التي تركز على التربية والتعليم من اجل خلق امة قوية ومتقدمة . ولقد اخترنا الدول الكبرى الثلاث ــ الاتحاد السوفياتي ، الصين ، والولايات المتحدة الاميركية ــ لانها توجهت الى التربية بشكل كثيف ، لبناء أمة قوية ، تواجه التحديات الاقتصادية والعلمية والعسكرية من الخارج . ولا بد من الاشارة الى أن الاميركيين ادركوا اهمية التربية في بناء مجتمع متقدم ، قبل غيرهم . الا ان الشيء الذي سنركز عليه ، في هذا البحث ، يتمثل في تجربــة الولايات المتحدة التربوية الاخيرة ، بعد اطــلاق اول قمر صناعي سوفياتي عــام ١٩٥٧ ، وما عقب ذلك من اصلاحات تربوية ، لأن الاميركيين اعتبروا النصر الســوفياتي يعود الى تفوق نظام التربية الروسي ، على النظام التعليمي الاميركي .

١ ــ التربية السوفياتية

في الاتحاد الســوفياتي ، أحتلت التربية مكانة بارزة جدا ، بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في عام ١٩١٧ .

وعندما استولى الشيوعيون على الحكم ، وعدوا ابنــاء شعبهم بالتعليم المجاني للجميع ، وهكذا جرى . لأن الحزب الشيوعي السوفياتي يعتبر التربية وسيلة لخلق مجتمع شيوعي . وجاء في الدستور السوفياتي ، المادة ١٢١ ، بان « لكل المواطنين السوفيات الحق في التعليم . وهذا الحق مضمون بواسطة نظام تربوي حر ، مجاني ، اجباري والزامي ، للمرحلتين الابتدائية والثانوية » . وتركز السياسة السوفياتية على أن التربية عمل من اعمال الدولة ؛ تخدم بواسطتها اغراضها وحاجاتها . فتقيم الدولة مدارس ومؤسسات للتعليم ، على كافة المستويات وتديرها وتشرف عليها (١٠) .

ويبدو اهتمام السوفيات بالتربية والتعليم من اقوال مؤسس الدولة السوفياتية ، ف. آ. لينين ، واعماله . ففي فترة ثورة اكتوبر ، اي في فترة المجاعة والحرب الاهلية ، كان هم لينين ، في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد ، هو بناء المزيد من **المدارس** وفصول محو الأميةاو المزيد من التوجيه الثقافي المبسط ، نحو العمال والفلاحين الأميين، الذين سيكونون عماد الدولة الجديدة وحماتها (١١) . ويعتبر لينين أن التربية اداة فعالة **لبناء الانسان الشيوعي** . ونراه يخاطب المؤتمر الثالث لاتحاد الشبيبة الشيوعية لكافة روسيا في ١٩٢٠/١٠/٢ بقوله : « انتم تعلمون انه يستحيل بناء مجتمع شيوعي في بلد من الأميين » . وحث الشعب على المضي الى القرى « لتصفية الأمية ، لكي لا يبقى في صفوف جيلنا الصاعد ، اميون. » هــذا ودعا لينين الـــى تكييف النشاط التربوي والتعليمي وأسسه ، على أساس ضرورات الانتقـــال الى البناء السلمي وخطتــه الواسعة ، لتحويل البلاد صناعيا واقتصاديا . ودعا لينين ايضا الـــى تلاحم التربية بالحياة . واعلن في المؤتمر الثالث لاتحاد الشبيبة الشيوعية ، المذكور ، « اننا لا نؤمن بالتعليــم والتثقيف والتربيـــة ، اذا انحصرت في المدارس ، وانفصلت عـــن الحياة الجياشة » (١٢) .

ويذكر انه في عشية ثورة أكتوبر (١٩١٧) ، كان اكثر مـــن ٧٠ بالمائة من سكان روسيا لا يحسنون القراءة والكتابة ، وكانت نسبة الأمية ٩٩ بالمائة بين شعوب آسيا الوسطى . وتنبأ علماء الاجتماع عام ١٩٠١ أن التعليم الشامـــل سيتحقق في القسم الاوروبي من روسيا بعد ١٥٠و ٢٠٠ سنـــة ، في حين لا يتحقق في مناطقها القومية البعيدة سوى بعد ٤٦٠٠ سنة . ولكن الثورة الثقافية الاشتراكية ، استطاعت أن

تقضي على الأمية من تلك البلاد الشاسعة . ففي أواخر الثلاثينات ، أي بعد أكتوبر ١٩١٧ ، بعقدين من السنين فقط ، أزيلت الأمية الشاملة في البلاد (١٣) .

٢ ـــ التربية الصينية الجديدة

شهدت الصين الشعبية ثورة تربوية وتعليمية ، في اعقاب تسلم الشيوعيين للسلطة عام ١٩٤٩ . ولقد بدأ التحويل الجذري في نظام البلاد التربوي والتعليمي ، أولا ، بناء على نصيحة الاتحاد السوفياتي والثوريين المتشددين كافة . وقام الصينيون ، بتصميم وبعزم وبسرعة ، الى اجراء اصلاحات جبارة في حقل التربية والتعليم ، شملت تنظيما جديدا تماما لمعاهد التعليم العالـي ، ومناهج التعليم ومحتوياته والاساليب التعليمية وطرائقه . وبدأت الاصلاحات التربوية فعلا في العام ١٩٥٢ ، عندما تبنت الصين نظام التربية السوفياتي التقدمي . وفي بداية **الثورة الثقافية** الاولى عام ١٩٦٦ استطاعت الصين أن تغير نظامها التربوي وتقلبه راسا على عقب . ومن ابرز الشعارات التي رافقت الاصلاح التعليمي العبارة الآتية : « في التربية ، سوف لا نملك ما يوجد لدى الآخرين فحسب ، بل ما لا يملكه الآخرون » .

والجدير بالذكر أن كل قطاعات البـــلاد ومرافقها المختلفة ، قد اصبحت « ورشة تربوية وتعليمية » . فكل المصانع ، والمؤسسات ، ومجالس الابحاث ، والدوائر العامة ، والهيئات الوطنية ، والقوات المسلحة ، و « الكومونات » الشعبية (المزارع الشعبية الجماعية) ،والمـــدن ، والمنظمات الشارعية ـــ كلها ـــ يجـــب أن تنشىء مدارس وتديرها .

وفي الصين الشعبية ، لا يمكن فصل مسألة التربيــــة عن مسألة **خلق جيل ثوري** متعلم . ومن ابرز ما حققته الثورة التربوية من انجازات كان القضاء على الأمية ، بين صفوف الصينيين الكبار ، ممن هم دون الاربعين من العمر ، وذلك بحدود العام ١٩٦٥ . ويذكر أنه في عشية انتصار الثورة الصينية عام ١٩٤٩ ، اظهرت الاحصاءات، أن نسبة الأميين بلغت اكثر من ٨٥ بالمائة ، وكذلك اكثر من ٤٠ بالمائة من الاولاد ، ممن كانوا في عمر الدراسة ، خارج المدارس ، اي دون تعليم . هذا وفي عام ١٩٤٩ لم يبلغ معدل سنوات التعليم للفردالصيني الواحد سوى سنتين فقط ، ولكن سرعان ما ارتفع المعدل الى ٥ر٣ سنوات في عام ١٩٥٩ ، والى ٥ر٥ سنوات في سنة ١٩٦٦ ، والى ٥ر٦ سنوات في أوائل السبعينات الحالية . ولقد عممت الصين برامج للتعليم الاجباري المجاني لجميع النشء الصيني ، لمدة تسع سنوات (١٤) .

وتجدر الاشارة الى أن التربية الثورية تشدد على فطرة الطالب وابداعه وجرأته ورفضه الخضوع والتقليد ، بعد ان كانت في الماضي ، اي قبل الاصلاح التربوي في ابان الثورة الثقافية عام ١٩٦٦ ، تشدد علـــى الخضوع للتقاليد وللقدرة علـــى تسجيل المعلومات وحفظها من الكتب .

وتعلق الكاتبة الصينية ، « هان سويك » ، على الاصلاح التربوي بقولها : « ان اصلاح التربية في الصين سيؤدي الى تغيير الدوافع العلمية . اي أن العلم لا يقوم ، بعد الآن ، على دوافع المنفعة ، بل يقوم علـــى زيادة **الطاقة العلمية** عند الانسان ، وتكوين عقله الخلاق . والتجربة الصينية ، التـــي لم يشهد مثيل لهـــا في تاريخ تلك البلاد ، ترمي الى تخطيط اعداد التربية ، على المدى الطويل ، تربية جيل مقبل على الاضطلاع بمهامه ، وتربية شعب بكامله لممارسة الديمقراطية » .

وبالاختصار ، ليس هدف التربية والتعليم في الصين ازالة الامية بأسرع ما يمكن ، وبناء مجتمع حديث ، اشتراكي ، صناعي ، تقني ، قادر على استيعاب التقنيات الحديثة وعلى التجديد والابداع الذاتي فحسب ، بل للتربية هدف آخر ايضا ، الا وهو خلق رؤية للعالم «اكبر من الرؤية الفردية» ، هي رؤية بروليتارية ثورية وأممية(١٥) .

٣ ـ التربية الاميركية الجديدة

لقد ادرك الاميركيون اهمية التربية والتعليم قبل ثورتهم الصناعية ، في القرن التاسع عشر . وعاشوا قبل غيرهم الثورة التربوية ، الفريدة من نوعها في تاريخ الشعوب . وبلغ الدافع الى التعليم والمعرفة درجة الى ان « انقلب كل بيت من هؤلاء المستوطنين الجدد الى **مدرسة** . فالأب والأم يقضيان الليل مع أولادهما بالتعليم ، والنهار في الحقل ».ومن هذا يتضح أن الاميركيين قد أدركوا اهمية التربية والتعليم منذ عشرات السنين ، لذا راحوا ينفقون بسخاء أموالا باهظة ، على تربية جميع فئات الشعب وتعليمها ، وذلك لخلق جيل قوي ـ جسديا وعقليا ومعنويا وخلقيا . ويرى بعض العلماء ، وربما كان ذلك صحيحا ، ان انتصار الولايات المتحدة في الحرب مرجعه ، في الاغلب ، الى نظامها التعليمي . وبكلام آخر ، فان نجاح الولايات المتحدة ، صناعيا وعسكريا ، في الحربين العالميتين الاخيرتين ، يعود الى نظامها التربوي الديمقراطي .

بيد ان الولايات المتحدة ، اصيبت بنكسة كبيرة ، في اعقاب اطلاق اول قمر صناعي سوفياتي ، وتحليقه فوق الارض بنجاح في عام ١٩٥٧ . ولقد نسب عدد كبير من الاميركيين هذا النصر العلمي والتكنولوجي الى نظام التربية والتعليم السوفياتي . كما اتهم عدد من المربين والشخصيات الاميركية نظامهم التعليمي بالتخلف عن النظام التربوي السوفياتي . فراح الاميركيون يتسابقون على درس نظام التعليم السوفياتي ويحللونه بدقة ، لمعرفة نقاط قوته . وظهر ، نتيجة لذلك ، عشرات الكتب الاميركية التي تعالج نظام التعليم السوفياتي وتحلله .

وكان الرد الاميركي على التحدي العلمي السوفياتي ، اعادة النظر في مناهج التعليم واهدافه ومحتوياته وأساليبه على المستويات كافة ، ابتداء بالمدارس الابتدائية ، مرورا بالثانوية ، وحتى الجامعية . كما أعيد النظر ايضا في أضخم مختبرات الابحاث النووية ، لتحديد مواطن الضعف فيها وتقويتها وتبديلها ، كي تنسجم مع تلك المرحلة من متطلبات التحدي العلمي والتكنولوجي والعسكري ، الذي اخذ يواجه البلاد . وفي عام ١٩٥٨ اصدرت الحكومة « القانون التربوي للدفاع الوطني » ، والذي يعد فعلا من اعظم القوانين التربوية في الولايات المتحدة ، ويمكن ان نعتبره بمثابة « ثورة تربوية وعلمية » لما تحقق بفضله من انجازات ضخمة في حقل التربية والعلوم والتكنولوجيا ، ومن ضمن ما قدم هذا القانون : مساعدات مالية الى حكومات الولايات والمدارس والجامعات والاشخاص، لتحسين البرامج التعليمية وتطويرها ، وتقديم أموال الى الولايات المختلفة لشراء ادوات تعليمية وخاصة في ميادين العلوم والرياضيات واللغات الاجنبية واللغة الانكليزية والتاريخ والجغرافيا والقراءة والتربية المدنية . وكذلك تقديم أموال لميادين اخرى ، ومنها منح للدراسات العليا ، بغية القيام بأبحاث في وسائل الاعلام الجماهيرية لاغراض تربوية ، وتحسين الارشاد التربوي وبرامج التقويم ، وتوسيع برامج اعداد المعلمين وتدريبهم ، وخاصة في المواضيع الحساسة ، وكذلك تحسين التربية المهنية .

هذا ولقد سلكت هذا السبيل ايضا ، بعض الدول الاوروبية ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلدان الاسكندينافية (١٦) .

مما تقدم يتضح أن للتربية والتعليم دور استراتيجي في اعداد جيل قوي من الرجال والنساء وتدريبه في خدمة الأمن والدفاع والحرب . ويبدو ان الشعوب ، عبر العصور، تلجأ الى التربية والتعليم لمواجهة التحديات العسكرية او العلمية وللدفاع عن نفسها ضد عدو خارجي .

التربية في الوطن العربي وفي اسرائيل

بعد ان قدمنا صورة موجزة عن تجارب الشعوب ، في استخدام التربية لخدمة اغراض مجتمعاتها ومتطلباتها الاقتصادية والدفاعية والعسكرية ، نأتي الى دراسة التربية في الوطن العربي نفسه ، لنرى مدى مساهمتها في المعركة التي تخوضها الأمة العربية ، ضد التخلف والعدو الصهيوني . ويشمل عرضنا هذا ثلاثة أنواع من التربية : (١) التربية الصهيونية والاسرائيلية ، (٢) التربية في الاقطار العربية ، (٣) التربية في الثورة الفلسطينية . لقد اخترنا التربية الصهيونية لنرى بوضوح الدور البارز الذي مثلته في خلق مجتمع متعلم وعصري في فلسطين المحتلة ، بيد ان التربية في الاقطار العربية اجمالا ، لم تخدم المعركة لأن معظم المواطنين الكبار ما زالوا أميين . واما الحديث عن التربية الاسرائيلية والتربية العربية ، فيقودنا الى الكلام عن التربية الفلسطينية ، نظرا للفلسفة الثورية التي تبنتها الثورة الفلسطينية ، في حقل التربية والتعليم والتدريب ، لبناء جيل جديد من الرجال والنساء ، يستطيع ان يواجه التحدي الصهيوني الذي اغتصب فلسطين ، وأن يحرر ارضه المحتلة ، وبالتالي ليكون مواطنا جديدا في فلسطين الديمقراطية العلمانية .

١ ــ التربية الصهيونية والاسرائيلية

قبل ان نتحدث عن التربية الصهيونية والاسرائيلية ، في العصر الحديث ، يجدر بنا ان نقدم لمحة تاريخية موجزة جدا عن التربية لدى بني اسرائيل في العصور القديمة . فمن المعروف لدى طلاب تاريخ التربية ان بني اسرائيل قد عنوا بالتربية عناية كبرى . وكانت للتربية لديهم قوة خاصة ، هي التي استطاعت ان تبقي عاداتهم واعتقاداتهم وتقاليدهم حية ، طوال القرون المديدة ، على الرغم من تشردهم في بلدان العالم كافة .

في العصور الاولى ، كانت التربية لدى العبريين تربية دينية وقومية ، بينما الثقافة الفكرية لم تكن سوى شيء ثانوي ، ولكن بعد ظهور المسيحية ، غدت التربية عامة تهدف الى تعليمهم وتثقيفهم ، ولم يعد الهدف مقصورا ، كما كان من قبل ، على غرس بضع مبادىء خلقية طيبة وعادات دينية . وحاول اليهود ، بعد انتشار المسيحية وانتصارها عليهم ، ان ينتقموا لأنفسهم من انكسارهم هذا باللجوء الى **الثقافة والعلم،** شأنهم شأن اكثر الأمم المغلوبة ، كما فعلت الأمة البروسية بعد معركة « يينا » والفرنسيين بعد حرب السبعين من القرن الماضي (١٧) .

وتابع اليهود ، بالاعتماد على التربية ، لاثبات وجودهم في بلدان العالم ، وللانتقام من الشعوب . وتجسد ذلك في الحركة الصهيونية التي استخدمت التربية كالأداة الاولى والأهم لتحقيق أهداف الصهيونيين ، وأقامة دولة اسرائيل في فلسطين المحتلة . وجاء أول اقتراح بتأسيس **جامعة يهودية** في فلسطين مثلا ، من أستاذ للرياضيات في

جامعة هايدلبرغ ، اسمه « ريفي هيرش شابير » ، علـــى شكل رسالـــة قصيرة في الجريدة العبرية اليومية ، هاميلتز ، التي كانت تصدر في سان بطرسبرغ في ٢٠/٦/١٨٨٢ . وأثار الموضوع ثانية استاذا للديانة اليهودية ، يدعى « اسرائيل ابراهامز » ، في جامعة كمبريدج ، البريطانية ، وذلك حين نشر مقالا في مجلة « الجويش كرونيكل » في ٢٨/٢/١٩٠٨ . وكان الصهاينة يعتبرون دوما أن الخطط الراميـــة جميعها ، الى تأسيس جامعة يهودية في فلسطين ، امر يجب تحقيقه قبل اي استقرار في فلسطين على نطاق واسع .. لماذا ؟ لأن يهود أوروبا ، وخاصة يهود المانيا ، كانوا يدركون اهمية الجامعة في عملية « بناء الدولة » (١٨) .

ولم تهتم الصهيونية بمحاولة انشاء جامعة يهودية في فلسطين فحسب ، بل بانشاء مدارس يهودية ايضا . فبعد الحرب العالمية الاولى ، وبصدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، اخذت المدارس اليهودية تتزايد بسرعة في فلسطين . وتم انتقال عدد كبير من المدارس، التي كانت تملكها المؤسسات اليهودية الخاصة ، الى المنظمة الصهيونية ، التي كانت قد انشأت ، بدورها ، دائرة خاصة ، تعرف بالدائرة التربوية ، للاشراف علـــى هذه المدارس وتولي شؤونها . وهكذا دخلت الصهيونية ، بانتهاء الحرب ، في فترة الانتداب البريطاني علـــى فلسطين ، مزودة بالجهاز الاداري وبالقاعدة التربوية ، اللازمة ، للانطلاق بشكل واسع .. وبين سنة ١٩٢٠ ، ١٩٢٦ ، تم تنظيم التعليم اليهودي في فلسطين ، بحيث اصبح نظاما مستقلا .

ومنذ قيام الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، اهتمت اسرائيل بشؤون التربية والتعليم ..هذا ويوصي المجلس القومي للبحوث وشؤون التطوير في اسرائيل ، « بأن تبذل البلاد قصارى جهدهـــا لتضمن لكل ولد ولكل بنت الثقافـــة المناسبة » . والتعليم في اسرائيل اجباري للأولاد بين ٥ و ١٦ سنة .

ويهدف التعليم في اسرائيل الى تكوين مجتمع عصري موحد بين اليهود الذين تجمعوا في فلسطين المحتلة ، وبناء دولة عصرية ، تملك أسباب القـــوة المادية والروحية ، والمحافظة على التراث اليهودي ونشره وتعميمه بين الناشئة اليهود في اسرائيل .

ومن أبرز مظاهر نظام التربية والتعليم في اسرائيل ، العلاقة الوثيقة بين المدارس والروح العسكرية . تبدو المدارس الاسرائيلية ، وكأنها شبه ثكنات عسكرية ، فتحولت المدارس الثانوية مثلا ، الى شبه ثكنات ، حيث يتم التدريب العسكري « الجدناع » . والروح العسكرية هذه ، التي تتمثل في المدارس الثانوية ، تتصاعد وتتكثف ، في أثناء الخدمة العسكرية الاجبارية ، التي تتلو فترة التخرج ، من المدرسة الثانوية مباشرة .

وانسجاما مع مبادىء الحركة الصهيونية الدولية واهدافها ، اخذت اسرائيل بمبدأ انصهار الشعب اليهودي القادم من شتى بلدان العالم ، بواسطة التربية والتعليم في المدارس . وتبدأ اسرائيل بتطبيق هـــذا المبدا ، اولا ، في دور الحضانـــة ورياض الاطفال ، بحيث يؤخذ الطفل في سن مبكرة ويخضع لعملية اعادة تكوين الشخصية وصهره في بوتقة جديدة . ويذكر ان دور الحضانة ورياض الاطفال ، كما هو معروف في بلدان كثيرة من العالم ، لا تنال ذلك الاهتمام والدعم ، كما تناله في اسرائيل عامة . لماذا ؟ يعود السبب الى طراوة شخصية الطفـــل في السن المبكرة ، بحيث تستطيع دور الحضانة ورياض الاطفال تلقينهم القيم والمبادىء والمفاهيم الصهيونية بشكل غير مباشر ، وذلك بواسطة الالعاب والأناشيد والقصص . ويجري كل ذلك تحت اشراف معلمة مدربة ، تقوم عند الطفل مقام الأم . ويشدد في هذه الرياض والدور ، وخاصة

في الدور ، على تعلم اللغة العبرية ، بأشكالها المبسطة والنطق بها ، باعتبار أن كثيرين من الاطفال لا يتكلمون العبرية في بيوتهم ، وخاصة أطفال المهاجرين الجدد ، أو يتكلمون لغات مشتقة عن اللغة العبرية ، ولا تنطبق معها تطابقا كبيرا (١٩) .

هذا وتعمل اسرائيل ايضا على محاربة الأمية بين الكبـــار ، بحيث تتراوح هذه النسبة بين ١٥ و ٢٥ بالمائة من المهاجرين الجدد . ويقوم بعملية التعليم هذه ، وحدة خاصة من الجيش ،تتألف من البنات في الخدمة العسكرية . ولقد بدات العمل في عام ١٩٦٤ . ويطلق على البنات العاملات في هذه الوحدة ، الجنديات ــ المعلمات (٢٠) .

وتبدو اهمية دور التربية في بناء دولة صهيونية قوية ، من تصريح رئيس الوزراء الحالي ، اسحق رابين ، عندما كان سفيرا في واشنطن (١٩٦٩) ، ورئيس الاركان في ايام حرب ١٩٦٧ ، قال فيه : « لا تزال العوامل التــي أوصلتنا الى النصر سنة ١٩٦٧ ، هي نفسها اليوم ، كما انها لا تزال لمصلحتنا . ان خلق جيش حديث ، يفترض وجود بلد وشعب متقدمين في الهيكل الاجتماعي والتربية وطريقة الحياة بكاملها » (٢١) .

وهكذا يتضح أن « الهيكل الاجتماعي وطريقة الحياة » في اسرائيل متأثران بالتربية والتعليم ، وبما يجري ايضا في المدارس ، لدرجة لعلها تفوق ما يحصل في غيرها من البلدان . ومن هنـــا يظهر الترابط الوثيق بين اهداف التعليم الاسرائيلي ، واهداف الحركة الصهيونية من جهـــة ، وبين أهداف التعليم وحاجات المجتمــع الاسرائيلي واوضاعه من جهة أخرى .

٢ ــ التربية في الاقطار العربية

علمنا ، مما تقدم ، كيف استطاعت الصهيونية العالمية واسرائيل استخدام التربية في بناء مجتمع صهيوني متعلم وعصري في فلسطين ، بيد ان القاء نظرة فاحصة على الواقع التربوي في الاقطار العربية عامة ، يشير الى صورة قاتمة عامة ، نظرا لانتشار الأمية بين الكبار على نطاق واسع ، وتخلف نظم التعليم وفقدان التوازن بين أنواع التعليم في المدارس والجامعات . وبكلام أوضح فالتعليم في الاقطار العربية مـــا زال تقليديا ورجعيا الى حد بعيد ، يتجه الى القلة أو النخبة من الشعب ، ولا يفي بحاجات المجتمع ومتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وقضايا الدفاع والحرب . ولعل من ابرز سمات التخلف التعليمي ، في الوطن العربي ، الحقائق المريرة الآتية :

أ ــ **انتشار الأمية بين الكبار** : لعل أول ما يسترعي الباحث ، في هذا الصدد ، مدى انتشار الأمية بين الكبار العرب ، وخاصة بين الفئات الناشطة والمنتجة من السكان . تفيد احدث احصاءات اليونسكو لعام ١٩٧٠ ، أن عدد الأميين الكبار (١٥ سنة فأكثر) في جملة الاقطار العربية ، بلغ ٥٠ مليون نسمة ، أي ٧٣ بالمائة (٨٦٪ للاناث و ٦٠٪ للذكور) ، مقابل ٣ر٥ بالمائة لجملة البلدان المتقدمة (٢٢) و ١٥ بالمائة لاسرائيل (٢٣) . وبهذا يتضح ان الحكومات العربية قد عجزت عن تأمين التعليم لمعظم المواطنين ، في عصر اصبح التعليم فيه ، حقا من حقوق الانسان الاساسية ، فضلا عن كونه اداة فعالة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والدفاعية .

ب ــ **نقص فادح في نسبة الملتحقين بالمدارس والجامعات** : وتدل الأرقام على النقص الفادح في نسبـــة الطلاب الملتحقين بالمدارس وبالجامعات . بلغت نسبـــة الطلاب المسجلين في التعليم الثانوي (اعدادي ، متوسط ، ثانوي) وأنواعه (مهني ، اعداد معلمين) الى ٢٣ بالمائة ، مقابل ٦٢ بالمائة في البلدان المتقدمة . وتنحدر نسبة الطلاب

المسجلين في التعليم العالي الى ٤ بالمائة فقط ، مقابل ٢٤ بالمائة للبلدان المتقدمة . ولا ريب في أن قدرة البلاد ، اقتصاديا وعسكريا ، تقاس بنسبة الطلاب في التعليم الثانوي والتعليم العالي .

ج — **اتجاه التعليم الثانوي — اكاديمي ونظري :** هذا ولا يزال التعليم الثانوي يتجه اجمالا نحو التعليم الاكاديمي النظري (العام) ، بحيث تصل نسبة الطلاب المسجلين في المدارس العامة الى ٨٦ بالمائة ، مقابل ١٢ بالمائة فقط للمدارس المهنية ، و ٢ بالمائة لاعداد المعلمين ، وذلك للعام ١٩٧٠ ، والغريب في الامر أن نسبة الطلاب الملتحقين في التعليم الاكاديمي العام آخذة في الارتفاع . فلقد كانت النسبة ٨١ بالمائة عام ١٩٦٠ . بيد أن الملتحقين بالتعليم المهني آخذة في الانخفاض . لقد كانت النسبة ١٦ بالمائة ، وكذلك الحال لطلاب دور المعلمين ، بحيث كانت النسبة ٣ر٢ بالمائة لعام ١٩٦٠ (٢٤). ويأتي كل ذلك في الوقت الذي تحتاج فيه الأمة العربية الى المزيد من خريجي المدارس والمعاهد المهنية ودور المعلمين ، لتلبية حاجات مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتربوية المتزايدة . ولكن نجد أن نسبة الطلاب في التعليم المهني في بعض البلدان المتقدمة مرتفعة جدا . فتصل الى ٧١ بالمائة في تشيكوسلوفاكيا ، والى ٥٠ بالمائة في الاتحاد السوفياتي ، والى ٤٥ بالمائة في اسرائيل (٢٥) .

٣ — التربية الثورية الفلسطينية

اذا كانت الشعوب القوية والمنكوبة ترنو انظارها الى التربية ، لتجد فيها طريق الخلاص، فان الشعب العربي الفلسطيني ليس بشاذ عن هذه النظرية. فلقد استطاع الشعب الفلسطيني ان يحقق مستوى رفيعا جدا من التربية والتعليم ، ارفع بكثير من بقية الشعوب العربية . ولم يكتف الشعب الفلسطيني بتحقيق قسط وافر من التعليم ، بل هب ، قبل انطلاق الثورة الفلسطينية ، مرات عديدة ، مطالبا بحق أبنائه في تربية وطنية عربية فلسطينية (٢٦) . وبعد انطلاق الثورة ، ازداد ضغط الجماهير الفلسطينية من أجل تحقيق تربية وطنية فلسطينية. ولقد تم ذلك على الصعيد النظري في عام ١٩٧٢ ، عندما أعد قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية « فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني » . والغاية القصوى من هذه الفلسفة ، خلق او تكوين انسان فلسطيني جديد ، قادر على النضال الطويل وعلى المساهمة الفعالة في انجاح عملية لبلده المغتصب . هذا وتتسم هذه الفلسفة بالواقعية والموضوعية والعقلانية والثورية . والآن سنقدم اهم محتويات خطة التربية الثورية الفلسطينية .

« وتهدف فلسفة التربية والتعليم ، من خلال تحقيق الأسس التي تقوم عليها ، الى خلق **الانسان الثوري** ، قوميا واجتماعيا ، الذي سيكون أساس حرب الشعب الطويلة ، التي يخوضها الشعب الفلسطيني ، وضمان استمرارها وأداة نجاحها ، والذي سيكون أيضا مواطنا في فلسطين الجديدة المحررة » .

« وترتبط فلسفة التربية والتعليم للشعب العربي الفلسطيني بشخصية هذا الشعب ومقوماته ، باعتباره جزءا من الأمة العربية ، وبمباديء الثورة الفلسطينية التي تحدد آماله وتطلعاته وتصميمه على التحرير والتقدم ، وبحاجاته القائمة والمنتظرة في ظل الاوضاع التي يعيشها والصعوبات التي يواجهها والنضال الذي يخوضه ضد الصهيونية والامبريالية » .

وتتمثل هذه الفلسفة في الايمان بالاهداف والمبادىء الآتية ، والعمل على تعزيزها وتجسيدها ، سلوكا وعملا .

أ ـ الثورة الفلسطينية المسلحة هي الطريق الوحيد لتحرير الارض والانسان ، مما يحتم العمل على تلبية حاجاتها وضمان ثباتها ونموها ونجاحها .

ب ـ فلسطين ، بعد التحرير الكامل ، دولة عربية ديمقراطية ، يتساوى فيها جميع المواطنين ، في الفرص والحقوق والواجبات ، دون تمييز على أساس الجنس أو اللون أو الدين .

جـ ـ غرس **القيم** الآتية وتنميتها في نفوس النشء : حب الشعب والثقة به ، وحب الوطن والثورة والثقة بالنصر ، وحب العمل والانتاج لخدمة الثورة والشعب ، والمبادىء والقيم الوطنية والثورية والتحرر من السلبية ومن القيم الفردية والقيم التقليدية السلبية ، وروح التفاؤل الثوري وروح حب المستقبل في النفوس ، والاحساس بالمسؤولية والانضباط وتقوية الصلابة والمناعة في الخلق ضد الازمات والقوى المضادة للثورة والتهيئة للمشاركة الفعلية في قضايا المجتمع .

وتتمثل الفلسفة أيضا في تنمية الروح النضالية لدى الشعب العربي الفلسطيني ، وذلك عن طريق : ضرورة التحلي بالصفات الثورية ، مثل الصدق والاخلاص والمواظبة والشجاعة والحزم والتواضع والكتمان ومقاومة الانتهازية والوصولية والاغتياب والدس والنفاق والكذب . ثم عن طريق الارتباط العضوي بالارض والوطن في النشء ، الذي لم يعش في فلسطين ، ولم يرها ، والهاب الخيال في تصورها وحبها والحنين اليها .

وتتمثل الفلسفة كذلك في مساعدة الفرد على النمو السوي ، جسميا وعقليا واجتماعيا وعاطفيا ، وتنمية نواحي الابداع عند **الموهوبين** ، وفي الاهتمام بتربية **الروح الرياضية** ، وبالجوانب الصحية ، وبالتراث الشعبي الفلسطيني والعربي ، وفي العناية بتفجير **الطاقات العقلية** لابناء الشعب الفلسطيني وتنميتها الى أقصى الحدود الممكنة ، وفي تنمية المسؤولية الخلقية واتباع المنهج الديمقراطي في العلاقات الانسانية .

هذا وتوصي فلسفة التربية ، في وضع المناهج والمقررات الدراسية ، الحاجة الى ان يتبع الطلاب **الاسلوب العلمي** في البحث والتفكير والاستنتاج ، وفي تمييز المعلومات الصحيحة من الخاطئة ، وان يلزموا الموضوعية في النقد ، بقصد التقييم والتغيير والبناء والتقدم المستمر (٢٧) .

وبهذا تكون الثورة الفلسطينية ، قد خطت خطوات صحيحة في تبني تربية ثورية ، تستطيع بناء الانسان الثوري ، الذي يحمل قيما تقدمية ، تقود حتما الى التحرير والنصر والعودة .

التربية في خدمة المعركة

بعد ان بينا بالحقائق وبالارقام تخلف التربية في جملة الاقطار العربية ، وعجزها ، بالطبع عن خدمة المعركة ، نظرا لمفاهيمها وأنواعها وطبيعتها التقليدية ، فالاسئلة التي نطرحها الآن هي : كيف يمكن للتربية في الاقطار العربية ان توضع في خدمة المعركة ؟

ما هي التربية الصالحة للمعركة ؟ وما هي ابرز مرتكزات هذه التربية ؟

للاجابة على هذه الاسئلة وما شابهها ، اعتمدنا على تجارب الأمم وخبراتها في هذا الميدان ، كي نستفيد منها ، في وضع مخطط لتربية عربية جديدة ، تستطيع ان تفتح الطريق أمام التنميـــة الاقتصادية والاجتماعية والدفاعية . ولتحقيق ذلك ، لا بد من احداث تغييرات جذرية في بنية التعليم ومحتواه ، للحصول على تعليم عصري وحديث، بمستوى المعركة . ولسنا أول من يطالب بذلك . ففي مؤتمر مراكش (١٩٧٠) نادى أحد وزراء التربيـــة العرب « بالثورة التعليمية » وبوجوب اسقـــاط النظم التعليمية القائمة في البلدان العربيةِ ، لترتفع على أنقاضها نظم جديدة ، وأهداف جديدة ، ترقى الى مستوى التحديات ، التي تواجه الأمة العربية ، في تحركها نحو المستقبل ، لبناء انسان عربي جديد ، يستطيع أن يواجه المعركة بالعلم وبالثقافة وبالشجاعة (٢٨) . وتجدر الاشارة الى اننا ننطلق مـــن النظرية القائلة بانـــه لا يمكن ان نحقق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بمجرد التوسع في التربية فحسب ، بل في اعتماد نوع معين من التربية ، وخاصة في هذا العصر .

١ ــ اعتماد فلسفة تربوية جديدة

ان التربية التي تخدم المعركة ، بشكل فعال ، هي التربية التي تعتمد ، اولا ، على فلسفة واهداف ومبادىء وقيم تربوية جديدة ، سليمة وصحيحة .

تهدف فلسفة التربية والتعليم ، المرغوب فيها ، الى خلق الانسان المعربي الجديد ، ذلك الانسان الثوري ، قوميا واجتماعيا ، الذي يستطيع ان ينقل أمته من أمة متخلفة أو نامية ، الى امة متقدمة وقوية ، وان يغالب تحديات التخلف ويتغلب عليها ، وان يصمد ضد قوى العدوان والصهيونية والامبريالية ، ومحاولة التغلب عليها ، وان يتجه في تفكيره وفي أعماله نحو الوحدة الوطنية والقومية الشاملة ، وان ينفتح على المجتمع الدولي ، للتفاهم وللتعاون ، من أجل السلام ، وأن يأخذ بأساليب العلم والتكنولوجيا في مجالات الحياة المختلفة ، وان يربط التنمية باتربية والتعليم ، وان يتجه نحو الادارة العلمية ، سواء في الحكم أو في مجالات الحياة . كما تهدف الى تنمية الجراة والشجاعة والمعرفة والحكمة والتسامح والمحبة والصبر ، وتنمية الايمان بالقيم الانسانية والعربية والديمقراطية والحرية ، والتوجيه نحو دحض البغضاء والاستبداد والتفكك والتشكك وعدم الثقة . وكذلك تسعى التربية الجديدة الـــى التعبير بجراة وشجاعة عـــن امل الشعوب العربية وقوتها ، كأمة لها ماضيها العريق ، وسيكون لها مستقبلها ومكانتها المرموقة في العالم الحديث (٢٩) .

٢ ــ اعتماد مفاهيم ومبادىء تربوية صحيحة

ولا بد ايضا من اعتماد مفاهيم ومبادىء واهداف تربوية وتعليمية صحيحة وعملية، تستطيع أن تخدم المجتمع والمعركة . لقد تغير مفهوم « المنهج » مثلا ، واصبح يشمل « كل خبرة تقع تحـــت أشراف المدرسة وتوجيهها » ، سواء كانت منهجيـــة أم غير منهجية . فأصبح يركز علـــى كل جوانب شخصية التلميذ وكل جوانب « الخبرة » . وعليه فقد تحولت أهداف التعليم ، بالتالي أهداف المناهج . فمضمون التعليم قد اتسع واصبح يشمل التربية باوسع معانيها . وغدت مهمة التعليم تتجه الى صنع المواطن واعادة صنع المجتمع ، ودفعه الـــى طريق التقدم . وقد جرى هذا التحول من بعدين اساسيين : (١) التحول عن حشو ذاكرة التلميذ بالمعلومات والمعارف الـــى تنمية قدرة الطالب ــ بالمعلومـــات والمعارف ــ علـــى التفكير الموضوعي والعلمي ، الـــى حد

الابداع والابتكار ، في المجال الفيزيقي والاجتماعي . وتزويده بالمهارات والاتجاهات والقيم ، للحياة الاجتماعية الذاتية (أسرة ، عمل ، حياة مدنية وسياسية ، ترويح ، استثمار أوقات الفراغ ، الخ) ، فضلا عن تأمين الصحة النفسية والجسدية للتلميذ وتحسينها . واما البعد الثاني فهو التحول ، الذي جرى ، من مجرد النقل الثقافي ، وحتى التكيف مع الحاضر ومواجهة قضاياه ، الى **صنع المستقبل** وما يعنيه من تكوين انسان جديد ، قادر على تطوير الحياة والسير بنفسه وبمجتمعه على طريق التطور والتقدم (٣٠) .

وبالاضافة الى ذلك ، فعلى التربية أن تركز على القيم الاجتماعية والسياسية الجديدة في المجتمع ، ومن ابرز هذه القيم التي اخذت تظهر وتنتشر في العالم : قيم الديمقراطية وما يثوي وراءها من معاني العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص والقضاء على التمييز الطبقي والطائفي ، والقيم الثقافية الانسانية الجديدة ، التي تنطلق من ضرورة الربط ، بين التراث القومي وبين الحضارة العالمية الحديثة ، ومشاعر الاعتزاز القومي ، والرغبة في اللحاق بركب التقدم الدولي ، ومواجهة هوة التخلف ، التي تقوم حاليا ، بين المجتمعات المتقدمة والصناعية وبين المجتمع العربي ، وقيم التحرر من الاستعمار والامبريالية والصهيونية العالمية (٣١) .

٣ ــ اعتماد التخطيط التربوي

التخطيط التربوي هو التنبؤ بسير المستقبل في التربية والسيطرة عليه ، من أجل الوصول الى تنمية تربوية متوازنة ، والى تحقيق الاستخدام الامثل للموارد البشرية والمادية المتاحة ، والى الربط ، في النهاية ، بين التنمية التربوية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة .

فالتخطيط التربوي ــ كأي تخطيط ــ يريد ان يقبض على زمام التطور الذي يجري في المستقبل . فيطرح ، منذ اليوم ، قضايا السنوات المقبلة **ويتنبأ** بها ، ليستطيع بالتالي ان يقدم لها الحلول اللازمة ، وليعد ما ينبغي لمواجهتها . والتخطيط التربوي لا يكتفي بالتنبؤ بما سيقع في المستقبل ، بل يريد أن **يتحكم** به ، ويتدخل في سيره ، كالزيادة في عدد الطلاب مثلا . ومعنى هذا أن التخطيط التربوي ــ كأي تخطيط ــ يسعى أن يتحكم في مستقبل التربية تحكما علميا مدروسا ، بدلا من أن يترك الامر للزمن . فالتخطيط هو ، اولا وآخرا ، صنع المستقبل وبناء المستقبل . وكذلك يهدف التخطيط التربوي الى الربط بين تنمية التربية وبين التنمية الاقتصادية والاجتماعية . فالتنمية التربوية هي الاداة الرئيسية لأي تنمية اقتصادية واجتماعية ، ولا سبيل الى تحقيق تنمية اقتصادية او اجتماعية في بلد من البلدان ، بغير تنمية الثروة البشرية ورأس المال البشري فيها . اي بغير تربية الافراد وتعليمهم بغية اعدادهم للمشروعات المختلفة ، في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسواهما (٣٢) .

٤ ــ محاربة الأمية والقضاء عليها بين الكبار

لا يمكن لدولة ان تستعد للمعركة ، بشكل قوي وفعال ، وتنتصر لفترة طويلة ، ما لم تقطع شوطا بعيدا ، في القضاء على آفة الأمية بين الكبار والراشدين . فالامية آفة خطيرة وعدو داخلي خطير ، يجب القضاء عليها ، لبناء أمة قوية ومتقدمة . وهناك امثلة عديدة عن تجارب الدول التي شنت حربا شعواء على الأمية في بدء مسيرتها نحو التطور والتقدم . فان كان لينين قد أعلن ، « انه يستحيل بناء مجتمع شيوعي في بلد

من الأميين » (٣٣) . ونحن نقول انـــه يستحيل بنـــاء مجتمع عربي عصري متقدم ، يستطيع أن يواجه التحدي الاسرائيلي والامبريالي ، بغير مجتمع متعلم .

وفي الصين الشعبية ، كانت نسبة الامية عشية انتصار الثورة عام ١٩٤٩ ، اكثر من ٨٥ بالمائة ، كما كان اكثر من ٤٠ بالمائة من الاولاد في عمر الدراسة خارج المدارس ايضا . وبلغ معدل متوسط سنوات التعليم للفرد الواحد سنتين فقط . ولكن بفضل الحملات الشعبية الواسعة النطاق التي اقامتها الحكومة الجديدة ، فقد ارتفع معدل سنوات التعليم الى ٥ر٣ سنوات في عام ١٩٥٥ والى ٥ر٥ سنوات في عشية الثورة الثقافية عام ١٩٦٦ ، والى حوالي ٥ر٦ سنوات في عام ١٩٧٢ . ولا تزال الحكومة الصينية عازمة على رفع هذا المستوى (٣٤) .

هذا وقد حذت كوبا حذو الاتحاد السوفياتي والصين في القضاء على الأمية في فترة وجيزة جدا .

والجدير بالذكر ان الامم المتقدمة والقوية في العالم ، قد قضت على الأمية نهائيا ، وهـــي : فرنسا ، المملكة المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، المانيـــا الشرقية ، فنلندا ، رومانيا ، الدانمرك ، اليابان واوستراليا . هذا يعني أن هذه الدول قد قضت على الأمية ١٠٠ بالمائة (٣٥) .

٥ ــ تعميم التعليم الالزامي للجميع

ومن أهـــم الخطوات ، للقضاء علـــى الامية ولرفـــع مستوى الافراد وللنهوض بالمجتمع ، هي تعميم التعليم الابتدائي أولا ، ثم التعليم المتوسط ، فالتعليم الثانوي . هذا ما قامت به الدول الراقية والمتقدمة والقوية في العالم ، حيث تطبق قوانين حازمة للتعليم الالزامي لكافة المواطنين . ففي الولايات المتحدة ، تمتد فترة التعليم الالزامي من ٦ الى ١٨ سنة ، وفي الاتحاد السوفياتي من ٧ الى ١٦ سنة ، وفي بريطانيا من ٥ الى ١٥ سنة ، وفي سويسرا من ٧ الى ١٥ سنة ، وفي المانيا الاتحادية من ٦ الى ١٥ سنة ، وفي المانيا الديمقراطية من ٧ الى ١٧ سنة ، وفي كندا من ٦ الى ١٦ سنة ، وفي السويد من ٧ الى ١٦ سنة من العمر ، وفي اسرائيل من ٥ الى ١٥ سنة .

هذا ولقد حدد مؤتمر طرابلس ، ليبيا ، لوزراء التربية العرب في عام ١٩٦٦ ، في قرار ، دعا فيه الى تحقيق التعليم الالزامي الابتدائي ، قبل عام ١٩٨٠ ، كمـــا أصر مؤتمر مراكش ، في القرار الاول ، على الابقاء علـــى هدف تحقيق الالزام في التعليم الابتدائي سنة ١٩٨٠ ، والسعي الجاد الى تحقيقه مع تكييف هذا التعليم ليكون بمحتواه واهدافه ، تعليما شعبيا نافعا (٣٦) . بيد أن الدلائل تشير الى ان هذا الهدف لن يتحقق في الوقت المحدد له .

٦ ــ تعليم وظيفي للكبار

لا يمكن لأية دولة عربية أن تشهد نموا اقتصاديا سريعا ، اذا بقي مستوى التعليم في الطاقة العاملة والتأهيل منخفضا ، اللهم الا اذا استخدمت ايد عاملة أجنبية ماهرة ومدربة . ومن المعلوم ان النمو الاقتصادي يمكن أن يتحقق بزيادة انتاجية العمالة الى اقصى درجة ممكنة . وهذا يتطلب بالطبع العمل على احداث تغيير جذري في التكوين التعليمي والثقافي لليد العاملة في البلاد ، ولا ريب في أن الحاجة تدعو بشكل ملح الى تعليم العاملين في الاقتصاد أو اعادة تثقيفهم وتدريبهم ، ليكونوا اكثر عملا وانتاجا ،

هذا يعني بكلام اوضح ، بذل المزيد من الجهود انجادة ، من اجــل التعليم الوظيفي للكبار ، ومن أجل تغيير السياسات التعليمية وخططها (٣٧) .

٧ ــ اتصال التعليم بالمجتمع

ينبغي ارتباط التعليم بحاجات المجتمع وقضاياه ، وبمتطلبات سوق العمل والتنمية وبحاجات التلاميذ وميولهم . فهذا الاتصال يضفي على التعليم صفة **الوظيفية** ، ويجعل منه اداة للاصلاح الاجتماعي وللتقدم الاقتصادي ، وبالتالي لتطوير المجتمع وانمائه .

٨ ــ محتوى المناهج

ان صورة الانسان الذي نريد ان نعده ، نستطيع ان نجدهــا في المناهج التعليمية والتربوية ، فاذا اردنا ان تخدم المناهــج والبرامج قضية الوحدة الوطنيــة والقومية والمعركة ، فعليها ان تقدم للتلاميذ المعاني والمهارات والادوات اللازمة للصمود ضد التحديات والأزمات . ومن اجل التغلب عليها ، كما عليها ان تعكس قيما وطنية وقومية وتقدمية . وكذلك عليها ان تنمي الروح النضاليــة لدى الجيل الجديد ، وذلك عن طريق ضرورة التحلي بالصفات الثورية ، مثل الصدق والاخلاص والمواظبة والشجاعة والحزم والتواضع والكتمــان ومقاومــة الانتهازية والوصوليــة والاغتياب والدس والنفاق والكذب (٣٨) . ولقد أصبح تصميم المناهج عملا علميا وجماعيا في آن واحد ، يضطلع بالجزء الاكبر منه اكاديميات تربوية ومراكز بحوث ، كما هو الحال مثلا ، في الاتحاد السوفياتي وفي الولايات المتحدة الاميركية ، وكذلك الاشراف علــى المناهج وتنفيذها (٣٩) .

٩ ــ الاهتمام بالتربية البدنية

ان بناء جيل جديد قوي يحتاج ، بلا ريب ، الى « عقل سليم وجسم سليم » . فعلى المدارس والجامعات ان تهتم بالتربية البدنية وبتربية الروح الرياضية ، وكذلك ان تهتم بالجوانب الصحية الفردية والجماعية ، عن طريق نشر المعلومات الصحية وتنمية العادات الصحية ، سلوكا وعملا . فالدول المتقدمة والقوية تهتم بالتربية البدنية . ففي الولايات المتحدة الاميركية مثــلا ، نجد في كــل مدرسة قاعة الالعاب الرياضية (جمنازيوم) للنشاطات الرياضية والترفيهية في داخل مباني المدرسة ، وكذلك ثمة ملاعب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق . وتركز التربية البدنية في الولايات المتحدة على الروح الرياضية والعمل الجماعي ، وكذلك على تنمية الجسم السليم (٤٠) .

١٠ ــ ربط التربية بالدفاع

والتربية التي تخدم المعركة هي التي ترتبط بشكل مباشر بحاجات الدفاع الوطني . فالمعركة ، كما ذكرنا ، تتطلب رجالا متعلمين ومثقفين ، يتحلون بمهارات فنية وعلمية . ونذكر هنا ، على سبيل المثال ، تجربة الولايات المتحدة الاميركية ، في اعقاب اطلاق القمر الصناعي السوفياتي الاول « سبوتنك » عام ١٩٥٧ ، ولقد حذت بلدان أوروبية حذو الولايات المتحدة ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلدان الاسكندينافية (٤١) .

١١ ــ تربية وطنية

والتربية ، التي تخدم المعركة ، هي التي تعزز الوحدة الوطنية وتغرس في الجيل الجديد حب الوطن والتضحية في سبيله والعمل علــى وحدة أبنائه كافــة . ولنا من

التجربة الالمانية المذكورة آنفا ، والتجربة الاميركية ، مثلان حيان علـى ذلك . فلقد استطاعت التربية الاميركية مثلا أن تخلق اجيالا من الاميركيين ، الذين اتوا من مختلف بلدان العالم ومن مختلف الطوائف الدينية ومـن مختلف القوميات والاجناس ، الى العالم الجديد ، أمة واحدة (٥٠ ولاية) ، مما جعلها اقوى دولة في العالم ، اقتصاديا وعسكريا وعلميا وتكنولوجيا وتربويا ، الخ . ويعود الفضل الى وحدة الامة الاميركية الى المدارس والجامعات التي استطاعت ، بفضل التربية الوطنية الاميركية ، ان تصهر مختلف فئات الشعب الاميركي في بوتقة واحدة .

١٢ ــ تشجيع الموهوبين والمتفوقين

والتربية ، التي تخدم المعركة وتحقق النصر ، هي التي ترعـى التلاميذ **الاذكياء والموهوبين والمتفوقين** وتساعدهم على تنمية نواحـي الابداع وتقدم لهم المساعدات والمنح المالية ، فضلا عن التوجيه والارشاد التربوي والنفسي . هذا ما تفعله الولايات المتحدة مثلا ، وخاصة في اعقاب اطلاق أول قمر سوفياتي الى الفضاء عام ١٩٥٧ . وجاء في التوصية التاسعة مـن الدراسة الطويلة التـي قام بها المربـي الاميركي المشهور ، « جيمس ب. كونانت » ، الرئيس السابق لجامعة هارفرد ، ان ثمة برامج خاصة يجب أن تنظم للطلاب الموهوبين ، اكاديميا ، في المدارس الثانوية الاميركية . ولقد اقترح برنامجا خاصا للذكور وللاناث في المدارس الثانويـة يشمل : رياضيات (٤ سنوات) ، لغة اجنبية (٤ سنوات) ، علوم (٣ سنوات) ، بالاضافة الى أربع سنوات من اللغة الانكليزية وثلاث سنوات من العلوم الاجتماعية ، ومجموعة من ١٨ درسا من الواجبات البيتية في السنوات الاربع . وهذا البرنامج يتطلب أيضا على الاقل ١٥ ساعة من الواجبات البيتية في كل اسبوع . وهناك منح تعطى للطلاب الموهوبين ، بعد اجتياز امتحانات مقننة على الصعيد الوطني (٤٢) . هذا وتقوم حكومة الاتحاد السوفياتي برعايـة الاطفال الموهوبين وخـاصة في الرياضيات والفيزيـاء والعلوم الطبيعية . ويتضمن البرنامج الخاص بالرياضيات مثـلا ، موضوعات لا تدرس في المدارس العادية ، الا على المستوى الجامعي (٤٣) .

١٣ ــ ربط التعليم بالعمل

ينبغي ادخال العمل في التربية والتعليم ، وربطه بهمـا ، والتركيز على النواحي التطبيقية العملية في التعليم . كما ينبغي غرس روح حب العمـل واحتماله في نفوس الناشئين ، وتشجيعهم على اكتساب المهارات اليدوية المختلفة . وكان كارل ماركس أول من تحدث عن « التربية نصف شغل ونصف درس » ، وعن مسألة تكييف الشباب اجتماعيا ، وعن التربية المهنية ، وأول من أراد أن يضع حداً لاحتقار العمل اليدوي ولتوجيه المراهقين توجيها غير صحيح . « يجب أن تسير التربيـة والانتاج جنبا الى جنب » .ولقد جرى تنفيذ هذه النظرية في الصين الشعبية ، حيث اعتمد نظام « نصف شغل ، نصف درس » ، بغية خلـق نموذج جديد للمثقف البروليتاري . ولقد بدأت التجربة في سنة ١٩٥٨ ، هذا وشن الرئيس ماوتسي تونغ حملـة جديدة ، حث فيها الشباب المثقف على الذهاب الى الريف للتعلم من المزارعين ، وذلك بالعيش وبالعمل معهم ، على قدم المساواة ، والتربية في الصين لا تركز على العمل مع التربية فحسب، بل أيضا التربية مـع العمل . فيتطلب مثـلا ، من الطلاب في المدارس العادية وفي الجامعات أن يشتركوا في عمل منتهـج ، كأي درس عادي في المنهـج . وتشجيع المؤسسات ، في بعض الحالات ان تنشىء مصانع خاصة لها لتستخدم من قبل طلابها . وهكذا يتضح أن التربية في الصين لم تعد تنشىء رجالا مثقفين بالمعنى الكلاسيكي بل

تكون « عمالا مثقفين » ، وبذلك نزلت التربية من برجها العاجي الى حقل الرز ، الذي طالما أحتقر في الصين القديمة (٤٤) .

١٤ ــ توسيع التعليم المهني والتقني وتعزيزه

ومن عوامل تطور الامم وتقدمها ، توسيع التعليم المهني والتقني وتعزيزه ، وتحقيق نوع من التوازن بين نسبة الطلاب في التعليم الاكاديمي العام ، وبين نسبة الطلاب الملتحقين بالتعليم المهني والتقني . ويذكر ان الامم المتقدمة والصناعية تعتني عناية خاصة بالتعليم المهني وتشجعه بشتى الطرائق ، لتحقيق نوع من التوازن بين التعليمين المذكورين . ويمكن توسيع التعليم المهني وتعزيزه برفع أجور العمال المهنيين والفنيين المتوسطين ، وتطوير المدارس المهنية القائمة ، وبناء مدارس مهنية رفيعة ، وخاصة في المناطق الريفية ، وتقديم منح ومساعدات مالية للطلاب المهنيين ، وتأمين اعمال لهم فور تخرجهم .

١٥ ــ توسيع التعليم العالي وتعزيزه

وتقاس الأمة القوية والمتقدمة بنسبة الطلاب الملتحقين في التعليم العالي او عدد خريجي أو حاملي الشهادات الجامعية . واذا أردنا ان نخوض المعركة بنجاح ، أو نبني أمة قوية ، فعلينا ، من ضمن ما نقوم به ، في ثورتنا التربوية ، توسيع التعليم العالي وتعزيزه . ويمكن أن نحقق ذلك عبر تطوير الكليات والجامعات القائمة حاليا في الاقطار العربية وانمائها ، ماديا وبشريا وعلميا ، وانشاء جامعات جديدة من النوع الممتاز ، اي المتقدم . فالجامعة فعلا هي خط الدفاع الاول .

هذا وتهتم الدول المتقدمة والقوية في الوقت الحاضر ، في توسيع التعليم الجامعي وتعزيزه . ففي الولايات المتحدة وحدها ، نجد اكثر من ٣٠٠٠ جامعة وكلية ، كما نجد في الاتحاد السوفياتي اكثر من ٧٠٠ مؤسسة للتعليم العالي . واصبحت الجامعة رمزا للتقدم وللقوة في العالم المتقدم والراقي .

ويمكن للجامعة أن تسهم في المعركة من خلال القيام بنشاطات مختلفة ، أبرزها تطوير التعليم وانمائه ، اعداد قيادات علمية وفكرية وعسكرية ، اجراء دراسات علمية وتكنولوجية واستراتيجية ، تنمية روح التفكير العلمي ، وذلك بتنمية القدرة على الملاحظة وغرس القدرة على الاستنتاج من الملاحظات ، انشاء مراكز للبحوث والتطوير ، نشر نتائج الدراسات العلمية والتكنولوجية في الداخل وفي الخارج ، تشجيع العلماء والباحثين ماديا ومعنويا ، تقديم خدمات العلماء والباحثين والاساتذة في الجامعة لانماء كافة أوجه المجتمع ، تعزيز مناهج التعليم ببرامج ودروس علمية وتكنولوجية حديثة ، تشمل علم الذرة وعلم الفضاء والطيران ، وعلم الصواريخ والقذائف وما شابه ذلك .

١٦ ــ اعتماد البحث العلمي في التربية

اصبح البحث العلمي (البحث والتجريب) في التربية اتجاها تقدميا في الدول المتقدمة . لأن البحث العلمي يعد من ابرز اتجاهات العصر الحديث وسماته . ولعل البحث العلمي ، في التربية والتعليم ، أهم سبيل أو قاعدة ينبغي الاعتماد عليها ، في مواجهة قضايا التعليم في الاقطار العربية ، في الوقت الذي أصبح فيه تخطيط المناهج وأبعادها المختلفة ، يعتمد على البحث والتجريب . وهكذا نجد أن تصميم المناهج

أصبح عملا ، علميا وجماعيا ، يقوم ، بالجزء الاكبر منه ، أكاديميات ومراكز بحوث ، كما يجري الآن في الاتحاد السوفياتي وفي الولايات المتحدة . لقد اختصر الاتحاد السوفياتي مثلا ، مرحلة التعليم الابتدائي ، مع زيادة كفاءة المناهج والتعليم نفسه ، الى ثلاث سنوات بدلا من اربع سنوات (٤٥) . هذا ولقد تنبه مؤتمر مراكش (سنة ١٩٧٠) ، المؤتمر الثالث لوزراء التربية العرب ، لهذا الوضع . فدعا الى الاهتمام بالبحث والتجريب ، لأنهما سبيل الثورة العلمية الحقيقية للأمة العربية . كما دعا المؤتمر في القرار الاول الى « الحرص على اقامة التعليم على اسس علمية بالبحث التربوي والتفكير الموضوعي والمناقشة المتبصرة في مشكلاته » . فالتعليم الجيد هو الذي يستند الى نتائج البحث العلمي ، لا الى القرارات الاعتباطية او التقاليد العمياء (٤٦) .

خطوات التنفيذ

بعد كل ما قدم من اقتراحات لتنمية التربية ، رب سائل : كيف يمكن ان نحقق الاقتراحات الواردة في خطة التربية الانمائية ، لجعل التربية في خدمة المعركة ؟ لا ريب في ان انجاح مخطط تطوير التربية وانمائها ليس بالامر السهل ، فانه يتطلب اموالا باهظة ، وتوعية شعبية ، واعلاما تربويا واسع النطاق ، واعداد المربين بشكل فعال ، وادارة تربوية حديثة ، وانشاء مراكز للبحوث التربوية والانماء .

١ ــ **تأمين الاموال اللازمة :** ينبغي تأمين المال اللازم لانجاح اي مشروع أو خطة انمائية . ونظرا لتصاعد عائدات النفط العربية ، بحيث وصلت الى ٦٥ بليون دولار عام ١٩٧٤ ، وهي آخذة في الارتفاع ، نقترح تثمير ما لا يقل عن ٥ ــ ٦ بالمائة من الناتج القومي المحلي العربي في انماء التربية والتعليم .

٢ ــ **نشر الوعي التربوي :** ان الجهود التي تبذل لنشر التعليم وتطويره ، يجب ان يسبقها ويرافقها ايضا ، حملة اعلامية تربوية لتمهيد الطريق لها ، وذلك بالقيام بحملة توعية تربوية واسعة النطاق ، كما جرى في المانيا من قبل الفيلسوف فيختة . وينبغي استثارة اهتمام المجتمع العربي بنشر التربية وتعميمها وتجديدها ، وذلك عن طريق الاقناع بضرورة تعميم التعليم وفائدته لحاجات التنمية ومتطلبات المعركة . ويمكن ان يتوجه الإعلام التربوي الى تهيئة الراي العام بفئاته المختلفة ، من مسؤولين ومربين ومربين وطلاب وآباء وامهات وهيئات شعبية ونقابية ، لغاية نشر فكرة التربية والمعركة ، وجعله يستقبلها ويتوقعها . ولهذا الغرض يمكن استخدام وسائل الاعلام الجماهيرية المتوافرة ، من جرائد ومجلات واذاعة وتلفزيون وغيرها من الوسائل التي تساهم في التأثير على الراي العام ، للحصول على الدعم الشعبي . ويمكن تهيئة الراي العام فكريا ونفسانيا ، بالاضافة الى ما تقدم ، بواسطة عقد ندوات ومؤتمرات وحلقات دراسية والقاء محاضرات في المدارس والجامعات والنوادي والقاعات . هذا ويمكن نشر الوعي التربوي ، بواسطة انشاء مكتبات في المدارس والمدن والقرى ، تزود بالكتب والمراجع والمجلات والجرائد .

٣ ــ **انشاء مراكز للبحوث والانماء :** لعل من افضل الوسائل لانماء التربية والتعليم انشاء مركز للبحوث والانماء ، في كل قطر عربي . ومن مهمات هذا المركز ، اجراء الدراسات والتجارب العلمية والميدانية ، في حقل التربية ، تولي مهمة التخطيط التربوي في البلاد ، واعداد الاطر التربوية كافة ، وتولي مهمة الاعلام التربوي ، ومهمة تحديث التربية . وذلك بتطوير المناهج والامتحانات والاساليب التربوية وطرائقها ،

والادارة التربوية ، وبنية التعليم واهدافه . وينبغي اجراء تعاون وتنسيق بين كافة المراكز التربوية العربية والدولية . والجدير بالذكر أن الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البلاد العربية (سنة ١٩٧٤) قد دعت الى ضرورة اقامة مركز تربوي في كل دولة عربية (٤٧) .

٤ ــ **تامين ادارة مرنة ومستقلة :** لا يمكن للمرء ان يتصور اهمية الادارة الحديثة ، المرنة المستقلة استقلالا اداريا وماليا ، في انجاح اي خطة تربوية واقتصادية . فكم من مشروع لم ينفذ في الوقت المحدد له ، أو لم ينفذ أبدا ، نظرا لتخلف الادارة المركزية العامة وتحجرها . فالقيود الادارية تجمد سير الاعمال وتعرقل تنفيذها . لذا يستحسن ان نبدأ بتحديث الادارة العامة ، وذلك بوضع رجال في الادارة مدربين في علم الادارة تدريبا جامعيا ، وبانشاء ادارات محلية لا مركزية ، مستقلة اداريا وماليا ، ولكن تنسق مع الادارة المركزية . وتجدر الاشارة الى اننا لمسنا ، في السنوات القليلة الماضية ، اتجاها مشجعا حقا نحو الاستقلال الاداري والمالي في بعض المؤسسات العامة في الاقطار العربية .

٥ ــ اعداد المربين وتدريبهم

لا يمكن للتربية ان تخدم المعركة الا باعداد المربين وتدريبهم ، كي يتمكنوا من أن يصبحوا قوة محركة ايجابية للتجديد والتطوير والانماء . ويمكن تحقيق ذلك عن طريق اعدادهم ، اعدادا علميا ومهنيا وتربويا رفيعا ، ينمي فيهم التفكير العلمي ، والتعاون الاجتماعي ، والمبادرة الفردية ، وعن طريق تدريبهم ، في اثناء الخدمة ، في دورات خاصة ، طويلة أو قصيرة الأجل ، في عطلة الصيف او في العطل ابان العام الدراسي ، ثم عن طريق اشراكهم في الابحاث والتجارب الميدانية والعلمية ، وتشجيعهم على التعليم الذاتي المستمر ، وعلى استخدام الوسائل التعليمية والتقنيات التربوية ، وتهيئتهم ليكونوا مرشدين ومشاركين لطلابهم ، يحفزونهم على التعلم الذاتي ويساعدونهم عليه . ولاجتذاب العناصر الموهوبة من الطلاب الى مهنة التعليم ، على كافة المستويات ، ينبغي تحسين ظروف عمل المعلمين وزيادة رواتبهم ، بما يضمن لهم العيش الكريم ، كما ينبغي ان تتاح لهم الفرص للمشاركة في بحث قضايا التربية والتعليم المطروحة ، ووضع سياساتها واستراتيجياتها . فينبغي اذن ان تحتل وظيفة المعلم المكانة الاولى من الاهمية في بناء الشعوب العربية ، وفي اعداد الاجيال المقبلة ، لأنهم الفئة الموجهة من ابناء الأمة ، والتي تكاد ان تكون « رسلا » ، على حد تعبير أمير الشعراء .

خلاصة واستنتاجات

من كل ما تقدم من حقائق ومعلومات وافكار ، يمكن ان نخرج بالخلاصة والاستنتاجات الآتية :

١ ــ التربية قوة ايجابية فعالة ، اذا احسن تعبئتها ، من حيث الكم والكيف ، وذلك في احداث تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ودفاعية في اي بلد .

٢ ــ التربية تسلح الفرد بالعلم والمعرفة والثقافة ، وبالقدرة على النضال من اجل مواجهة التحديات ومغالبة الصعاب والتغلب عليها .

٣ ــ تلجأ الشعوب الى التربية عندما تعصف بها الأزمات وتحل بها الهزائم والكوارث ، لأن التربية هي السبيل الى مواجهة كل ذلك ، والى القوة والنصر .

٤ ــ تستخدم الشعوب التربية لتلبيـــة متطلبات المجتمع وحاجاته ، وذلك وفق العصر والظروف ، ولكل عصر متطلبات خاصة به ، تتغير بتطور الزمن .

٥ ــ للتربية علاقة وثيقـــة ، عبر العصور ، في شؤون الدفـــاع والحرب . ففي العصور القديمة ارتبطت بقوة في قضايا الأمن والفروسية والدفاع والحرب ، وفي القرن التاسع عشر ارتبطت بشؤون الأمن والدفاع والتحرير وبناء جيل قوي للتحرير (بروسيا مثلا) ، بينما ارتبطت في بناء دولة عصرية ومتقدمة ، اقتصاديا في اليابان . واما في القرن العشرين فقد ارتبطت بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء جيل متعلم وعصري، وتفوق علمي وتكنولوجي . وكل ذلك يرتبط ارتباطـــا مباشرا بشؤون الدفاع والأمن القومي . وهكذا نرى أن مفهوم التربيـــة قد تطور مـــن الاهتمـــام بالاعداد للدفاع والفروسية والحرب فقط ، الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية، الخ . أيضا . .

---

١ ــ المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربيـــة والـــوزراء المسؤولـــين عـــن التخـطيط الاقتصادي في الدول العربيـة ، التقرير النهائـي . مراكش : ١٢ ــ ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٧٠ (باريس : اليونسكو ١٩٧٠) ، ص ٢١ .

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

٣ ــ اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلوم والثقافة ، الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البـلاد العربية ، التقرير النهائي (بيروت ٢ ــ ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤) ، ص ١ ــ ٢ .

٤ ــ (أ) ــ
Edward P. Cubberly, *The History of Education,* (Boston : Houghton Meoflin Co., 1920), PP. 22 - 23.

(ب) ــ
James H. Robinson, *et. al. History of Civilization Earlier Ages,* (Boston : Ginn & Co., 1937), P. 145.

(جـ) ــ
Ge. ge W. Bostford, *Helenic History* (New York, The Macmillan Co., 1939), P. 65.

(د) ــ عبدالله عبد الدايم ، التربية عبر العصور (بـيروت ، دار العلـم للملايين ١٩٧٣) ، ص ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٥ .

٥ ــ المصادر السابقة : (أ) ص ٣٠ ــ ٣٧ ، (ب) ص ١٨١ ، و (د) ص ٥٣ــ٥٦ .

٦ ــ (أ) المصـــدران (٤ ــ ب) ص ٨٦ ، و (١٥ ــ د) ص ٤٣ ــ ٤٥ ، ٨٦ .

(ب) ــ
Emerson Lavender, *et. al. A Thousand Ages,* (New-York: McGraw - Hill Co., 1962), PP. 200 - 202.

٧ ــ المصدر نفسه ، (ب) ، ص ٣٢٣ .

٨ ــ (أ) ــ المصدر (٤ ــ أ) ، ص ٥٦٦ ــ ٥٧٠ .

(ب) ــ منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف ، التعليـم في اسرائيـل (بيروت ، مركز الابحاث، ١٩٦٩)، ص ١٣ ــ ١٦ .

(جـ) ــ انطـوان ب. زحـلان ، العلـــم والتعليـم العالـي في اسرائيـل (بـيروت ، مـؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٠) ، ص ١٧٧

٩ ــ (أ) المصدران (٤ ــ أ) ، ص ٧١٩ ــ ٧٢٠ ، (٤ ــ د) ، ص ٣٦ ــ ٣٧ .

١٠ ــ
U.S. Department of Health, Education and Welfare. Office of Education. *Education in The U.S.S.R.,* Bulletin 1957, No. 14 (Washington 1957) PP. 11 - 15.

١١ ــ مجلة الطريق ، بيروت ، أيلول ١٩٧٤ ، ص ١١٨ .

١٢ ـ ف. ا. لينين ، عن الثقافة البروليتارية (منشورات وكالة أنباء نوفوستي . بلا تاريخ) ، ص ١٥ ـ ٣٤ .

١٣ ـ مجلة الى الامام ، بيروت ، ٧ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، ص ٣٢ .

١٤ ـ (أ) الياس زين ، هجرة الادمغة العربية (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ، ١٩٧٢ ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ .

(ب) ـ Frederick Harbison & Charles A. Myers *Manpower & Education* (N. Y.McGraw Hill Co., 1965) P. ix.

١٥ ـ جريدة الانباء ، بيروت ، ٢٢ آب ١٩٧٠ .

١٦ ـ (أ) ـ المصدر (١٤ ـ أ) ، ص ١٦٨ ـ ١٧٢ .

(ب) ـ مجلة دراسات عربية ، العدد ١٠ (آب ، اغسطس ، ١٩٦٧) ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

١٧ ـ المصدر (٤ ـ د) ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

١٨ ـ المصدر (٨ ـ ج) ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

١٩ ـ المصدران : (٨ ـ ب) ، ص ٤٤ ، ٥٠ ، ٣٣١ ـ ٣٣٧ ، ٤٠٠ و (٢٩) ، ص ١٨٥ .

٢٠ ـ Kalman Yaron, *Life-Long Education in Israel* (Jerusalem: The Adult Education Association of Israel 1972), PP. 104 - 105.

٢١ ـ جريدة النهار ، بيروت ، ١٩٦٩/٦/٢٢ .

٢٢ ـ مجلة التربية الجديدة ، بيروت العدد الثاني ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ٣١ .

٢٣ ـ *Reader's Digest 1971 Almanac Yearbook* (Pleasantville, New York, 1971), P. 412.

٢٤ ـ (أ) ـ المصدر نفسه ، ص ١٦ ـ ٣٤ .

(ب) ـ UNESCO, *Statistical Yearbook 1972/1973* (Paris 1973, 1974).

٢٥ ـ United Nations, *Statistical Yearbook 1973*, (New York, 1974), PP. 760 - 786.

٢٦ ـ شؤون فلسطينية ، العدد ٢٥ ، أيلول/سبتمبر ١٩٧٣ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

٢٧ ـ قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط (م.ت.ف) . فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، ص ٤ ـ ٩ .

٢٨ ـ صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية ، العدد ٢٩ (أيار ـ آب ١٩٧٢) ، ص ١٢ .

٢٩ ـ (أ) ـ فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي يتجدد ، لجماعة من علماء التربية (بيروت، دائرة التربية في الجامعة الاميركية ، ١٩٥٦) ، ص ٦ .

(ب) ـ المصدر ٢٨ ، ص ٩ .

٣٠ ـ المصدر ٢٨ ، ص ١٧ ـ ١٨ .

٣١ ـ عبدالله عبد الدايم : التربية في البلاد العربية ، حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها (دار العلم للملايين) ١٩٧٤ ، ص ٦١ .

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٧ ـ ١٢٠ .

٣٣ ـ المصدر ١٢ ، ص ٣٤ .

٣٤ ـ المصدر (١٤ ـ أ) ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

٣٥ ـ *Britannica Book of The Year*, 1967 and 1968, P. 318. «Literacy».

٣٦ ـ المصدران : (٢٤ ـ ب) و ١ ، ص ١١ و ٢٢ .

٣٧ ـ محمد الغنام ، التربية في البلاد العربية في ضوء مؤتمر مراكش (١٩٧٠) ، (بيروت ، المركز الاقليمي ، ١٩٧١) ، ص ١٦ .

٣٨ ـ قسم التخطيط التربوي في مركز التخطيط ، (م.ت.ف.) فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، بيروت ، ١٩٧٢) ، ص ٦ ـ ٧ .

٣٩ ـ المصدر ٢٨ ، ص ١٨ ـ ٢٢ .

٤٠ - *Education in America* (Booklet, 48 P.) no date, P. 19

٤١ - المصدر (١٤ - أ) ، ص ١٧٠ - ١٧٢ ·

٤٢ - James B. Conant, *The American High School Today* (Signet Books, 1964), PP. 62 - 67.

٤٣ - المصدر (١٦ - ب) ، ص ٤٧ ·

٤٤ - المصدر ١٥ ·

٤٥ - المصدر ٢٨ ، ص ١٧ - ٢٣ ·

٤٦ - المصدر ٣٧ ، ص ٢٢ و ٤٢ ·

٤٧ - المصدر ٣ ، ص ٧ ·

الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة في اسرائيل

السيد عليوه

تخضع ادارة المشروعات لنوع او آخر من انواع الرقابة . ففي النظام الراسمالي يهتم المساهمون بحصولهم على أقصى قدر من الربح على استثماراتهم ، وقد تفرض الدولة نوعا من الرقابة على هذه المشروعات الخاصة لحماية المساهمين وتأمين الصالح العام . اما المشروعات العامة فتفرض عليها الرقابة لأسباب اقتصادية او اجتماعية او سياسية وذلك باعتبارها خلايا اقتصادية وأداة من ادوات التخطيط الاقتصادي تعمل على تحقيق برامج العمالة او خطط الاستثمار وغيرها من أساليب ادارة التنمية . غير انه مهما اختلفت أهداف الرقابة وتنوعت فانها تنحصر في هدفين رئيسيين : الاول التحققمن ان الاتفاق تم وفقا لما هو مقدر له والثاني أن الموارد قد استخدمت افضل استخدام . وليس هناك من خلاف حول تلك الاهداف التي تسعى اليها الرقابة على نوع الاجهزة التي تباشرها .

ورغم انـــه يتعذر كثيرا أن نميز الفـــروق الدقيقـــة بين كـــل مـــن الاشراف ـ الرقابـــة ، والمتابعـــة ، لانها عمليـــات متكاملة ومتداخلة ، فاننـــا نستطيع القول بأن المتابعة تتداخل بصورة قوية مع الاشراف لما تتضمنه من معنى التنسيق والتوجيه ، ولأنها غالبا ما تفيد معنى قريبا من معنى الاشراف وهو ضمان تنفيذ الخطة او السياسة خلال السنة المالية ودون انتظار للنتائج في نهايتها . في حين ان الرقابة غالبا ما تكون عملية لاحقة على الاداء .

وهذه الاخيرة هي ما يطبق غالبا في اسرائيل ، فالاداريون هناك لا يتصرفون على هواهم وانما تطل من فوقاكتافهم — على حد قول كايدين — مجموعة من « كلاب الحراسة العامة » ، لعل من اهمها الكنيست ومكتب مراقب الدولة ورجاله الذين يقومون بالتفتيش على اساس معايير المشروعية والنظامية والتكامل المعنوي والكفاية والاقتصاد (١) .

ونظرا لاهمية تجربة الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة في اسرائيل ، سواء في مجال الدراسات المقارنة أو في مجال الدروس المستفادة لادارة الصراع (العربي — الاسرائيلي) الشامل ، سوف نبحثها في ثلاث نقاط . تعالج الاولى دور الكنيست في الرقابة على المشروعات الحكومية الاقتصادية ، والثانية دور مراقب الدولة في هذا المجال ، وتتناول الثالثة مشاكل الرقابة البرلمانية .

دور الكنيست في الرقابة

في الاصل تباشر السلطة التشريعية ، في اي بلد ، رقابتها على المشروعات العامة

عن طريق سلسلة من العمليات والاجراءات تبدأ باصدار التشريع المنشىء للمؤسسات والمشروعات العامة واقرار الاعتمادات المالية اللازمة لمباشرة نشاطها ، ثم تعهد الى المجالس النيابية بمتابعة تحقيق تلك الاهداف التي تضمنتها التشريعات لتتأكد من سلامة انفاق الاموال العامة ومدى كفاية استخدامها . ولذلك فهي تشكل لجانا داخلية من بين اعضاء المجلس للقيام بتلك المهام ودراسة التقارير السنوية للمشروعات العامة ، او تعهد بجزء منها الى أجهزة خارجية تابعة لها كهيئات المحاسبة والرقابة العامة أو الى اجهزة السلطة التنفيذية .

وفي اسرائيل لا يملك الكنيست ، باستثناء الميزانية ، رقابة على الاموال الحكومية الطائلة ، بل ان الميزانية نفسها تترك كثيرا لما هو مرغوب فيه تحت مظلة الاجراءات التقديرية والتنبؤ والتخطيط وامدادات القروض والارصدة غير المصرح بها ، وتورد التقارير السنوية لمراقب الدولة بعضا من الحيل التي يلعبها كبار المسؤولين الماليين . ولعل هذا هو الذي دفع مراقب الدولة الى ان يطالب بأن تقوم المشروعات العامة المنظمة على شكل « سلطات عامة » (ذات لوائح مستقلة) بتقديم ميزانياتها الادارية مع خطة للأعمال الى الحكومة للحصول على موافقة الكنيست .
على أية حال فان الكنيست يمارس صلاحياته في الرقابة على الاموال العامة من خلال عدة وسائل اهمها سن التشريعات والمناقشات العامة ، ومناقشة الميزانية واللجان البرلمانية .

١ ــ **سن التشريعات** : تتلخص اختصاصات الكنيست في خمس وظائف رئيسية : الوظيفة التشريعية ، والوظيفة المالية ، والوظيفة السياسية ، والاشراف على الجهاز الاداري ، وحق الكنيست في حل نفسه واجراء الانتخابات . وفي مجال الرقابة على القطاع العام تهمنا الوظائف الاربع الاولى . ولا ريب ان اهم عمل يتولاه مجلس الكنيست هو اصدار التشريعات العامة للبلاد . وتقوم الحكومة باقتراح مشروعات القوانين التي تقدم بواسطة الوزير المختص ، وقد يقدمها اعضاء افراد في الكنيست . ويجب أن يمر مشروع القانون بثلاث قراءات حتى يصبح قانونا . وعموما لا بد أن يحصل المشروع على الاغلبية البسيطة للحاضرين ، ولكن في حالة القوانين التي تؤثر على دستور الدولة فانها تحتاج لأغلبية كل الكنيست لاقرارها .

وتبدأ اولى مراحل العمليات الرقابية بأن يصدر البرلمان التشريع المنشىء للمؤسسة او المشروع العام ، فهو الذي يقيمه ويحدد مكانه في النظام الاقتصادي والهدف من انشائه وشكل جهاز الادارة وطريقة تكوينه ومهامه وعلاقته بالمشروعات الاخرى وبالسلطتين التشريعية والتنفيذية وبجمهور العملاء . كذلك يبين التشريع مستويات الاشراف والرقابة والنظام الداخلي .

والمتبع في اسرائيل ، انه في حالة غياب قانون يحدد من له سلطة تقرير اقامة شركة حكومية ، فان اي وزارة تستطيع أن تقيم شركة داخل اطار نشاطاتها اذا كانت تلك الشركة في نظرها أمرا لازما وكانت مصروفات اقامتها تقع ضمن اعتماد الموازنة للمجال المخصص من النشاط . أما عند انشاء « هيئة عامة » (اي شركة عامة ذات لائحة مستقلة) فان قرارا من الكنيست ضروري لاصدار تشريع بقانون خاص .

وعلى اية حال ، فان معظم الشركات هناك هي شركات محدودة رسميا مما يمكن الوزارة من اقامة شركة على مسؤوليتها الخاصة ومن ثم تؤسسها حينئذ رسميا بمقتضى مواد قانون الشركات . وفي راي مكتب مراقب الدولة انه يتعين قيام سلطة عليا لتقرر

أو توافق على انشاء الشركات الحكومية،وان تكون هناك وثيقة تحدد بالتفصيل المصلحة العامة التي تبرر قيام الشركة . على أن تقدم هذه الوثيقة الى الكنيست مرفقة بمشروع القانون في حالة انشاء « هيئة عامة » ، او الى الحكومة اذا كانت اقامة الشركة ستتم بقرار من الحكومة (٢) .

٢ — **المناقشات العامة** : بخلاف سن القوانين ، يمارس الكنيست سلطته الرقابية من خلال المناقشات العامة . ان طريقة عمل الكنيست قد تطورت مع الزمن واصبحت تقسم حاليا الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : اولها المناقشات العامة ، وثانيها المقترحات لجدول الاعمال وثالثها الاستجوابات . وتستنفد المناقشات العامة ، التي تعتبر عمل الكنيست الرئيسي ، معظم وقت الكنيست ومجهوده ، وتدور حول معظم المواضيع التي يبحثها المجلس سواء في السياسة الخارجية أو تقارير الوزراء أو مشروعات القوانين . وهذه المناقشات العامة على نوعين : منها ما يحدد الاشتراك فيها وفقا للكتل البرلمانية الحزبية وذلك ضمن الوقت الاجمالي الذي تخصصه رئاسة الكنيست ، ومنها ما يتم بصورة شخصية .

اما المقترحات لجدول الاعمال فتقدم من قبل كتلة أو مجموعة من الكتل البرلمانية او عدد معين من الاعضاء ، وتجرى بناء على طلبهم لمناقشة موضوع أو مشكلة ما يعتقدون أنه لا بد من بحثها على وجه السرعة ، وهذه المقترحات تتعرض غالبا بالنقد والتجريح لسياسة الحكومة ومواقفها . اما الاستجوابات فيحق لأي عضو في الكنيست التقدم بها الى أي وزير في الحكومة ، بشأن أعمال وزارته ، وغالبا ما يكون هدفها الحصول على معلومات اضافية عن مسألة معينة ، أو لفت نظر الحكومة لأخطاء ترتكبها الوزارات المختلفة أو انتقاد السياسة الحكومية . وليست هناك عمليا اية قيود مفروضة على تقديم الاستجوابات المختلفة التي زاد عددها عن المئات ، سنويا ، في أولى سنوات الكنيست ليصبح حاليا يعد بالآلاف (٣) .

وغني عن البيان ان اجراءات الكنيست هذه تنبع من مبدأ مسؤولية الوزير . اذ انه بمقتضى القانون الدستوري العرفي يكون الوزير مسؤولا ، في حدود قدرته الفردية ، عن أعمال وزارته. وقد فسر هـــذا ليشمل اعمـــال وقرارات الوزير نفسه ، ونائب الوزير ، وكذا معاونيه من رجال الخدمة المدنية . وفيما يتعلق بأعماله هو فان الوزير يكون مسؤولا عن تعيين السلطة القادرة وعن قراراتها واعمالها اذا استشارها او نصحها أو حتى وافق جزئيا عليها (٤) .

ويمكن أن يصعد الموقف ضد الحكومة في الكنيست ، ليتعدى مجرد المناقشة العامة او الاستجواب الى طرح الثقة بالحكومة . وقد حدث أن قررت أربعة أحزاب من احزاب المعارضة التقدم باقتراح الى الكنيست بسحب الثقة من حكومة جولدا مائير بسبب فضائح سوء الادارة في الصناعات التي تملكها الدولة وذلك بسبب فشل شركتين تشرف عليهما الحكومة ، وهما شركة « فيريد » لتنمية الموارد المائية ، وشركة « آراو » للمواد الكيماوية (٥) .

٣ — **مناقشة الميزانية العامة للدولة** : يستطيع الكنيست أن يناقش امور الشركات العامة في مناسبات مختلفة ، وأعظم مناسبتين هامتين هما : مناقشة ميزانية الدولة ، وكذا مناقشة تقارير مراقب الدولة . فقد تشكل شؤون الشركات موضوعا للمناقشة البرلمانية خلال مناقشة الميزانية حينما تتضمن الميزانية بند نفقات يتعلق بالشركات تحت المناقشة او حينما تتضمن الميزانية مخصص عمليات احدى الوزارات أو شؤون الوزارة التي تشرف على الشركة .

هذا وتحصل كثير من الشركات على الجزء الاعظم من ارصدتها في شكل قروض من ميزانية الدولة وليس في شكل نصيب في راس المال . لذلك يقترح مكتب مراقب الدولة أن يأخذ الكنيست صورة واضحة شاملة عن القروض عند مناقشة الميزانية كل عام ، وان تقدم وزارة المالية الى الكنيست قائمة بالقروض الممنوحة الى الشركات من الدولة وعرض موجز بغرض كل قرض وشروطه .

كما يضعف من صلاحيات الكنيست في الرقابة على الميزانية نقاط الضعف الموجودة في قانون الميزانية الاسرائيلي ، اذ انه بمجرد الموافقة على الميزانية السنوية فان الكنيست يصبح بعيدا كل البعد عن السيطرة على اوجه انفاق الحكومة للأموال العامة . ويحدث ذلك بسبب تنوع وتفرع الميزانية الاصلية الى ميزانيات ملحقة ، وميزانيات لم يتم انفاقها من السنة السابقة ، وايرادات مخصصة (٦) .

لذا تركزت جهود مكتب مراقب الدولة في المساعدة في عمل الكنيست لتحقيق الاصلاح الاداري عن الميزانية : اعدادها : هيكلها وتنفيذها ، وذلك بهدف ان يحتفظ الكنيست بنفوذه الصحيح في تشكيل ووضع الميزانية والاشراف على تنفيذها وتلافي المصروفات التي توضع بعيدا عن رقابة البرلمان (٧) .

٤ ــ **اللجان البرلمانية :** لكي تتابع المجالس النيابية تنفيذ التشريعات التي تسنها ، عادة ما تلجأ الى تكوين لجان متخصصة من بين اعضائها لمراقبة الانفاق العام أو انشاء اجهزة خارجية تابعة لها . وبالفعل يشكل اعضاء الكنيست عدة لجان داخلية دائمة وفرعية لتمارس نشاطها فيما يدخل في اختصاصات المجلس في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهي تسع لجان دائمة (٨) . وهذه اللجان هي : لجنة المجلس ، واللجنة المالية ، ولجنة الدستور ، ولجنة القانون والعدالة ، والشؤون الاقتصادية ، والشؤون الداخلية ، والتعليم والثقافة ، والخدمات العامة والعمل ، ولجنة الشؤون الخارجية والامن .

وبالطبع تعتبر اللجنة المالية اهم هذه اللجان في مجال الرقابة على شركات القطاع العام . اذ من خلال اللجنة المالية يقوم الكنيست باختيار مراقب الدولة ويقرر راتبه ويقيم الاتصال الدائم معه . والكنيست هو الذي يقرر بالاغلبية خضوع اي هيئة للتفتيش من قبل مراقب الدولة . وقد تطلب اللجنة المالية من مراقب الدولة أن يعرض بيانا بالراي ، وتهتم مع مراقب الدولة بالتقارير التي يعرضها على الكنيست أو على اللجنة ، كما انها تقدم توصياتها بشأن تقريره السنوي الى الكنيست للموافقة . هذا وتقوم اللجنة ايضا بمناشدة الادارة لتنفيذ توصيات واقتراحات المراقب . بالاضافة الى ذلك فانها تقوم كل عام بفحص ميزانية مراقب الدولة والتصديق عليها ، ويمكن تبين استقلال المراقب عن ادارة الدولة من حقيقة ان وزير المالية ليس له علاقة بميزانيته ، كما انه (وزير المالية) ليس له علاقة بميزانية الكنيست نفسه .

هذا وتلجأ الحكومة ، لتضعف من سيطرة لجان الكنيست ، الى تشكيل اللجان الحكومية (تكون قاصرة على أعضاء الائتلاف الحكومي) بشأن بعض المسائل مثلما حدث في لجنة المدخرات والتخفيضات ، الامر الذي أثار انتقاد المعارضة عند مناقشة تقرير مراقب الدولة لعام ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ (٩) . في حين يسعى المراقب الى احكام رقابة الكنيست على الشركات الحكومية بالمطالبة بتشكيل لجنة فرعية للجنة المالية أو لجنة خاصة تكون لديها الوقت الكافي لمناقشة شؤون الشركات .

ولا يفوتنا أن نشير الى ان حزب المباي قد نجح في ابعاد الحزب الشيوعي وممثلي

الاقلية العربية عن لجنة المالية ولجنة الشؤون الخارجية والامن ، حين تقرر حرمان الاحزاب التي تتمثل بأقل من ثمانية أعضاء من الاشتراك في أي من اللجنتين .

صفوة القول ان التجربة الاسرائيلية في مجال الرقابة البرلمانية على المشروعات العامة جديرة بالاهتمام وذلك لعدة اعتبارات سياسية واقتصادية . ولكن لا يمكن مقارنتها بتلك الانجازات التي حققتها كل من البرلمان الفرنسي ومجلس العموم البريطاني في ممارسة الرقابة الفعالة على المشروعات العامة ، بواسطة لجنة تمويل المجمعات ولجنة مراجعة حسابات المشروعات العامة في الاول ، ولجنة الصناعات المؤممة في الثاني (١٠) .

دور مراقب الدولة

بطبيعة الحال يقوم الكنيست بنفسه بمهام الوظيفة السياسية ، والتي تتمثل في رقابة الكنيست على أعمال الحكومة الاسرائيلية وترتكز على حق الكنيست في طلب الثقة او سحبها ووقف السؤال والاستجواب وكذلك استدعاء الوزراء وكبار الموظفين . اما الوظيفة المالية فان مكتب مراقب الدولة يعتبر الاداة الرئيسية للكنيست للمساعدة في ادائها .

ويمكن أن نتتبع الدور الذي يقوم به مكتب مراقب الدولة في الرقابة على مشروعات القطاع العام الاسرائيلي بالتركيز على أربع قضايا رئيسية : نشأة مكتب مراقب الدولة وتطوره ، مركزه ، اسلوب عمله ، واخيرا التحول الى وظيفة (مفوض الشكاوى العامة).

١ : **نشأة وتطور مكتب مراقب الدولة** : ابان الانتداب البريطاني كان هناك مكتبا صغيرا للمراجعة على الادارة الفلسطينية وكان يتبع مباشرة مكتب المراجعة الاستعمارية في لندن مما جعله مستقلا عن المندوب السامي . وبعد انشاء اسرائيل صدر قانون مراقب الدولة في مايو ١٩٤٩ الذي نص على أن يتم تعيين وعزل مراقب الدولة بواسطة الكنيست فقط الامر الذي جعله مستقلا ليس فقط عن لجنة الخدمة المدنية والخزانة العامة ، بل ايضا عن الحكومة بما في ذلك رئيس الوزراء (١١) .

وفي السنوات الاولى عمل المراقب في مجال المصالح الحكومية والسلطات المحلية . وكانت وزارة الدفاع وجهاز الامن قد اقامت في البداية ، بسبب الطابع السري لنشاطهما ، نظام الرقابة الخاص بها ، ولكن في عام ١٩٥٠ أصبحت هذه أيضا تحت اشراف مراقب الدولة . كما تم تعديل القانون عام ١٩٥٢ امتد بمقتضاه نطاق اشرافه ليشمل الشركات ذات اللوائح المستقلة . ثم عدل بعد ذلك في عام ١٩٥٤ ، وأيضا في ١٩٥٨ . وهو الآن يغطي كل فروع الهيئات التي يجري التفتيش عليها ، وعمليا كل مؤسسة في اسرائيل تتلقى اموالا أو منحا من الحكومة .

ويتبع مكتب مراقب الدولة اليوم أربعة اقسام رئيسية تغطي الوزارات المدنية ، وزارة الدفاع ، السلطات المحلية ، وشركات الدولة . وهناك أيضا ادارات للاتصال (مع اللجنة المالية بالكنيست) والنشر والتخطيط والتدريب . ويوجد المقر الرئيسي في القدس وله مكاتب فرعية في كل من تل ابيب وحيفا . ويعمل فيه قرابة ثلاثمائة شخص (١٩٧١) من افضل الكفاءات في اسرائيل .

وقد تطورت وظيفة مراقب الدولة فلم تعد قاصرة على فحص ومراجعة انتظام الحسابات والمخزون ، ولكن امتدت لتشمل مشروعية الايراد والمصروف ، وكذلك الاقتصاد والكفاية في ادارة الممتلكات . وقد أضيف الى هذه المهام ، مهمة فحص المعايير

المعنوية في كل من الوزارات ومؤسسات الدولة والشركات الحكومية والسلطات المحلية . وأخيرا أصبح المراقب مطالبا بأن يشفع كشفه للعيوب والمخالفات بوضع المقترحات والتوصيات بالتعديلات الضرورية .

وبالفعل نجد التقرير السنوي رقم (٢٠) لمراقب الدولة (من أغسطس ١٩٦٩ الى يوليو ١٩٧٠) يتضمن ملاحظات على تسع من الشركات والهيئات العامة تم التفتيش عليها . وخلاله تم التأكيد على مجموعة من المبادىء والقضايا الهامة وبالأخص تلك التي تتعلق بمجالس الادارة ، وقواعد الادارة العامة وادارة الاعمال ، واسعار الخدمات المصرفية ، والعلاقة مع الحكومة ، والعمليات بين الشركات ، والعمولات على الاعمال ، وعرض التقارير المالية والميزانيات ، والاجور والمزايا (١٢) .

٢ : **مركز مراقب الدولة :** يتمتع مراقب الدولة بمركز حصين في النظام الدستوري والجهاز الاداري للدولة ، فالكنيست وحده هو الذي يستطيع عزل مراقب الدولة بأغلبية الثلثين . هذا وتتركز وظائف المراقب في الاشراف والرقابة على مالية الدولة وادارتها ، وعلى ممتلكات الدولة ومشروعاتها الاقتصادية . كما انه يضع أمام الكنيست في تقريره السنوي نتائج نشاطه الرقابي مما يمكن الكنيست من أن يقيم الاداء الحكومي ، واداء السلطات المحلية والمشروعات الحكومية والعامة (١٣) .

وهذا الوضع الخاص الذي يحظى به مراقب الدولة : استقلاله عن السلطة التنفيذية ومسؤوليته المباشرة امام الكنيست ، جعلت البعض يصورونه كما لو كان بمثابة سلطة رابعة (غير مسيسة) بعد السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية . ومع ذلك يمكن القول ان الطابع المعتدل للمركز القانوني لمراقب الدولة هو الطابع المرغوب فيه والمفضل لدى أوساط المهتمين في اسرائيل . اذ ليس من الصواب — في نظرهم — تخويل المراقب حق اصدار التعليمات التي تضمن تصحيح الاخطاء التي اكتشفها لأن ذلك يعني أن يتقلد المراقب مسؤولية متضاربة مع صالح الادارة ومع مركزه الخاص كمراقب للدولة . ومن المحقق أن من يصدر أمرا ينبغي أن يتحمل مسؤولية التوقيت والنطاق والطريقة التي ينفذ بها ، ويجب أن يكون قادرا أيضا عند الضرورة لتقييد أو تغيير أو تمديد الامر . ومثل هذه ينبغي الا تكون في أيدي مؤسسة خارج نطاق ادارة الدولة . لذا فمن الصواب أيضا — في نظرهم — أن تكون سلطة مراقب الدولة في تصحيح المخالفات محدودة بعرض الاقتراحات فحسب ، على أن تستمد قوتها الحقيقية من جودة واحكام هذه المقترحات ومن نفوذ المراقب الذي يحققه بفضل الخبرة والمهارة والمعرفة والسمعة التي يكتسبها (١٤) .

واقع الحال أن سلطة مراقب الدولة تكبلها مجموعة من القيود تتمثل في : نظام المراجعة اللاحقة ، السياسة والحكم العسكري ، اشتراك الموظفين في الادارة ، طبيعة المقترحات التشريعية . وسوف نعود اليها تفصيلا فيما بعد .

ولكن من ناحية أخرى نلاحظ ازدياد الثقة في اجراءات وأساليب مراقب الدولة ، الامر الذي يفسر واحدة من أحدث وظائفه وهي مراجعة مصروفات الحملة الانتخابية للأحزاب السياسية في الكنيست طالما أن هذه الاحزاب تتلقى منحا مالية من الحكومة للانفاق منها على الانتخابات .

٣ : **اساليب الرقابة :** بدأت أولا بالرقابة على المراجعة المالية ، وبتعديل القانون عام ١٩٥٢ حصل على السلطة القانونية للاهتمام بالاقتصاد والكفاية والمعايير المعنوية في الهيئات التي يجري التفتيش عليها . وأبعد من ذلك بدأ المواطنون يكتبون شكاويهم الى

المراقب الامر الذي مهد لان يتولى مراقب الدولة وظيفة أخرى هي وظيفة الاومبودسمان. بل انه بحث بعض القضايا والظواهر العامة مثل نظام التقنين والبطاقات ورخص الاستيراد وتخصيص موارد النقد الاجنبي النادرة ونظام تسجيل التلاميذ وأخيرا الاهتمام بنظام تدريب واختبار سائقي الجيش بعد كثرة حوادث الطرق .

والمتبع في اجراءات الرقابة ان مكتب مراقب الدولة لا يستطيع أن يغطي كل الوحدات مرة واحدة ، وانما يقوم بالتفتيش على وحدات ونشاطات محددة باختيار دقيق اي انه يتبع اسلوب الرقابة بفحص العينة او مراجعة الاختبار .

ثم تجري مناقشة التقارير التي يعدها المراقب بواسطة اللجنة الدائمة الخاصة بتقرير مراقب الدولة ، وهي لجنة فرعية تابعة للجنة المالية بالكنيست . وتقوم اللجنة بالتشاور مع المراقب باختيار بعض الموضوعات من التقرير السنوي وتعرضها على المجلس .

ولا ريب في ان الاخطاء الكبرى التي يضبطها مراقب الدولة ويجري مناقشتها في الكنيست يكون لها تأثيرها المعنوي الرادع . اذ من شأن ذلك ان يجعل كل حزب يفتح عينيه جيدا على ما قد ينال من خصومه ويحاول في نفس الوقت الحفاظ على حسن النظام داخل بيته . وهذا المناخ من شأنه أن يدعم مركز مراقب الدولة الامر الذي يرتقي بمعايير الادارة العامة . ناهيك عن اثر ذلك على رجال الخدمة المدنية كما تصبح تقارير المراقب ، بما تتضمنه من توصيات ، ذات دور تعليمي لارشاد الادارة العامة .

٤ : **التحول الى وظيفة الاومبودسمان** : في الاصل لم يتضمن قانون مراقب الدولة (لعام ١٩٤٩) مادة محددة تتطلب ان يعـــالج مراقب الدولة الشكاوى المقدمة مـــن الجمهور ، ومع ذلك فانهرأى من الملائم بحث تلك الشكاوى التي تكون ذات أهمية عامة أو تتضمن مسألة تتعلقبمبدأ ولا تهتم بحالة فردية خاصة ، وهذا القيد الاخير يلغي امكانية تناول الشكاوى المتعلقة بتقديرات ضرائب الدخل للأفراد . وبالطبع استبعد المراقب تلك الشكاوى التي يكون الشخص أو الهيئة المسؤولة عنهـــا غير خاضعة للتفتيش أو تلك الشكاوى التي تتعلق بالسلوك الشخصي خارج نطاق واجبات الموظف المدني .

ونتيجة هذا التواتر في الممارسة والخبرة المتراكمة صدر في مارس ١٩٧١ التعديل الخاص لقانون مراقب الدولة الذي أقره الكنيست ، وتم بمقتضاه انشاء وظيفة مفوض الشكاوى العامة لبحث الشكاوى المقدمة من عامة الجمهور الاسرائيلي . وبذا أصبحت اسرائيل في عداد الدول التي تأخذ بهذا النظام المسمى « الاومبودسمان » أي مفوض الشكاوى العامة والذي تشتهر به الدول الاسكندنافية . ولما كان التعديل القانوني ينص على أن يتولى مراقب الدولة اختصاصات مفوض الشكاوى العامة ، فقد أضحت اسرائيل أول بلد يربط بين وظيفة الاومبودسمان وبين وظيفة مراقب الدولة (١٥) .

ولا جدال ان هذا التحول الى وظيفة الاومبودسمان قد عزز مركز مراقب الدولة فقد زوده بسلطة رسمية لطلب اي نوع من المعلومات من المصالح الحكومية والمنظمات العامة بصدد اية مشكلة يبحثها (١٦) .

ويميل التشريع الاسرائيلي الى التوسع في صلاحيات مفوض الشكـــاوى العامة فيخوله فحص الشكاوى التي يكون موضوعها اجراء يضر مباشرة بالشاكي أو يحرمه من بعض المزايا ، اذا كان منافيا للقانون أو تم بدون سلطة شرعية أو كان منافيا للادارة

السليمة أو غير عادل . وبالمقارنة بالبلاد الاسكندنافية فاننا نجد الاومبودسمان نادرا ما ينتقد مادة القرار الاداري وانما يركـــز على مدى صحة الاجـــراءات التي اتخذ بمقتضاها . وهذا التمييز ليس قائما في الدانمرك اذ قد يتدخل الاومبودسمان اذا كان يعتبر القرار غير مسؤول ، أما في النرويج فيتدخل اذا اعتبر القرار غير معقول ، أما في نيوزيلندا فيتدخل اذا اعتبر القرار خاطئا .

ويبدو ان هذا التوسع كان سببا في ذلك السيل المتدفق من الشكاوى الذي انهال على مفوض الشكاوى العامة فيمكتب مراقب الدولة في اسرائيل في العام الاول لانشائه .

يكفي في هذا الصدد ان نلقي نظرة على التقرير الاول للأومبودسمان الاسرائيلي عام ١٩٧١ الذي تضمن عدة ملاحظات واحصائيات طريفة وذات مغزى . ففي خلال الفترة من ٢٢ سبتمبر ١٩٧١ الى ٩ سبتمبر ١٩٧٢ (السنة اليهودية طبقا للتقويم التقليدي) تلقى مفوض الشكاوى ٩٨٣٩ شكوى ، كان منها ٢٣٤٩ شكوى عبارة عن نسخ من شكاوى أرسلها اصحابها قبلا الى الجهات المعنية . وتبقى للمفوض نحو ٧٤٩٠ شكوى وهذا يعتبر معدلا عاليا للشكاوى بالنسبة لعدد السكان في اسرائيل اذا قورنت بمعدلاتها في اسكندنافيا وغيرها من البلدان .

وبفحص هذه الشكاوى ، يشير التقرير انه يتبين ان أهم المؤسسات التي كانت نسبة الشكاوى ضدها لها ما يبررها فعلا (مما يلقي الشك على قدرة هذه المؤسسات) ، كانت وزارة المالية (حيث ان نسبة ٦١,٣٪ من الشكاوى ضدها كانت صحيحة تقريبا) ووزارة الرفاهية الاجتماعية (نسبة ٦٠٪) . أما تلك المؤسسات التي كانت اقلها (مما يشير نسبيا الى سلامة نظمها) فكانت شركة كهرباء اسرائيل (٢٠,٣٪ مـــن الشكاوى كان لها مايبررها) ثم القوات الجوية (٢١,٢٪) ثم رابطة اسرائيل « بار » (٢٥٪) ثم بلدية بير سبع (٢٧,٣٪) ووزارة الاسكان (٢٩٪) (١٧) .

وجدير بالذكر ان الكنيست قد اقر حق أعضائه في التقدم بشكاوى من اجراءات لا تتعلق بأناس آخرين . وهذا ما يميز عضو الكنيست عن زميله عضو البرلمان البريطاني حيث تقضي التقاليد هناك بأن تتلقى اللجنة البرلمانية للشكاوى ، الشكاوى من الجمهور عن طريق أعضاء البرلمان . اي ليس هناك مجال لأن يتقدم الاعضاء بشكاوى لم ترد مباشرة من آخرين (١٨) .

مشاكل الرقابة البرلمانية

لقي موضوع الرقابة البرلمانية كثيرا من الاهتمام من جانب الباحثين ، كما تعددت الآراء بصدد نقاط الضعف التي تقلل من فاعلية الاشراف البرلماني على المشروعات العامة . ويرى البعض أن سلطة الرقابة البرلمانية لا تختلف كثيرا عن رقابة المساهمين في ظل انتشار ملكية الاسهم ، اذ لا يملك البرلمان الوقت ولا الكفاية الفنية لاحكام الرقابة ، وانما يستطيع من وقت لآخر ان يناقش السياسة العامة لادارة المرافق العامة . ويحتاج البرلمان ، لكي يقوم بواجبه على أحسن وجه ، الى مصادره الخاصة بالمعلومات نظرا لافتقار المعلومات التي تقدمها مجالس الادارة أو الوزارات الى الموضوعية في بعض الاحيان وعلى الرغم من اهمية أساليب المناقشة والاستجواب البرلماني ، فانها عادة ما تتم في سنة أو أكثر بعد انتهاء العمليات . وفضلا عن ذلك فان كبار المفكرين يحذرون من المغالاة في ممارسة الرقابة البرلمانية لدرجة قد ينزلق معها المجلس النيابي الى التدخل في الادارة اليومية للمشروعات العامة الامر الذي قد يضر بها .

هذا القول ينطبق على الموضوع بصفة عامة ، اما في اسرائيل فاننا نستطيع ان نميز ثلاث سلبيات سافرة فينظام الرقابة البرلمانية هي : ضعف المركز السياسي للكنيست وبطء اجراءات مراقب الدولة ، وتشدد رقابة الامن .

أ ــ **ضعف المركز السياسي للكنيست :** هذه المشكلة ترجع لأسباب سياسية تتعلق بنظام الحكم وأيضا لأسباب تنظيمية تتعلق بمدى كفاءة الكنيست نفسه كهيئة للاشراف ، وقد ترتب على ذلك ضعف رقابته بوجه عام على أعمال الحكومة .

وتشير دراسة أهم الاتجاهات السياسية والعقائدية داخل الكنيست الى تغلب الاعتبارات العملية والبراجماتية على الاعتبارات الايديولوجية مع الاهتمام بالاحتياجات المعاصرة المصحوبة بالتصدع في الايديولوجية السياسية التقليدية . وهذا من شأنه بالطبع أن يولد شيئا من عدم الاكتراث بأمور القطاع العام .

وفضلا عن الظاهرة السياسية العامة التي تعبر عن تدهور سلطة المجالس التشريعية لصالح السلطة التنفيذية ، فان دراسة تطور النظام السياسي الاسرائيلي يفصح عن ضعف رقابة الكنيست على أعمال الحكومة . بل ان رقابته على الادارة تعد اقل أعماله شأنا فغالبا ما تعمد الحكومة الى ارجاء المناقشات البرلمانية المتعلقة بالعيوب المالية والادارية (١٩) .

أما بصدد حق طلب المعلومات من الحكومة ، فاننا نجد الكنيست ، ككل ، لا يطلب معلومات محددة من رئيس الوزراء أو الوزراء وانما هو يعمل كساحة عامة للمعلومات وتبادل الرأي بفعل اهتمام وسائل الاعلام . اما طلب المعلومات فقد يقوم به الاعضاء أو اللجان . ورغم ان القسم الثاني والعشرين من القانون الاساسي لعام ١٩٥٨ قرر حق الكنيست في تشكيل لجان للتحقيق ، الا أن هذه الاداة الحاسمة لم توضع موضع التنفيذ منذ ذلك التاريخ اللهم الا تشكيل لجان للاستقصاء من قبل الوزير المختص أو مجلس الوزراء وبرئاسة رئيس المحكمة العليا [من اشهرها لجنة حريق المسجد الاقصى عام ١٩٦٩ ولجنة اجرانات الخاصة بالتقصير في حرب اكتوبر ١٩٧٣] . أي ان الكنيست لم يأخذ زمام المبادرة في انشاء أي لجنة تحقيق لبحث الاخطاء في الادارات الحكومية ، ولا يتوقع أنيقوممراقب الدولة نفسه بذلك . وقد أضعف هذا الى حد بعيد قدرة الكنيست على تأمين المعلومات الحساسة من الهيئة التنفيذية .

٢ ــ **بطء اجراءات مراقب الدولة :** سبقت الاشارة الى أن سلطة مراقب الدولة ــ الذي يعتبر الاداة الرئيسية للكنيست في الرقابة البرلمانية ــ تكبلها مجموعة من القيود تتمثل في نظام المراجعة اللاحقة ، والحكم العسكري ، واشتراك الموظفين في الادارة ، وطبيعة المقترحات التشريعية التي تقدم الى الكنيست

وعادة ما يتضمن التقرير السنوي لمراقب الدولة العيوب أو المخالفات في احدى الهيئات أو المنظمات الادارية ، والعلاج المقترح لها ، وهذا يعني ان الجهود التي بذلها للوصول الى العلاج اللازم في الموقع أو بالمراسلات لم تثمر حتى وقت كتابة التقرير . يضاف الى ذلك انه يمكن ان نفترض ــ نظريا ــ أن الكنيست ولجنته المالية سوف يهتمون بتصحيح المخالفات الواردة في التقرير السنوي بعد نشرها ، ومع ذلك فان الكنيست من الناحية العملية لا يملك حق التدخل في الادارة اليومية (٢٠) .

والنتيجة المنطقية لهذا كله هو بطء تنفيذ الاصلاحات التي يقترحها مراقب الدولة . بل ان الحق المقرر لمراقب الدولة ــ ككلب حراسة على الميزانية ــ في طلب الحصول

على المعلومات الادارية ذات الطابع السري (وثائقية أو شفوية) مـــن المسؤولين الرسميين . هذا الحق مقيد بجوانب محددة تنأى به عن الادارة اليومية ولا يضمن حق المواطنين في أن يعرفوا .

٣ ـــ **تشدد رقابة الامن :** نظرا لظروف قيام اسرائيل على اغتصاب حقوق الشعب الفلسطيني ومظاهر العداء والتوتر التي تسود في الداخل والخارج ، نجد ان رقابة الامن تسيطر على مساحات واسعة من الحياة العامة في اسرائيل . وتتمثل في الرقابة على النشر وفي الحكم العسكري في المناطق العربية ، وغير ذلك من صور التسلط التي من شأنها الاخلال بكفاءة الرقابة البرلمانية ، ناهيك عن كونها تضعف من تأثير الرقابة الاهلية والشعبية .

لقد احتج أعضاء الكنيست ، الذين ينتمون الى اقصى اليمين واقصى اليسار على حد سواء ، ضد الرقابة الصارمة على النشر التي امتدت الى محاولة املاء آراء على محرري الموسوعة اليهودية ، والى منع نشر الرسوم الكاريكاتورية في صحيفة الطلبة ، واعتبروا ذلك من قبيل التدابير السياسية التي تعبر عن القلق على أمن النظام وتهدد حرية الصحافة .

أما الحكم العسكري فقد اعتبره مكتب مراقب الدولة احد القيود الهامة على رقابة الدولة ، ومع ذلك فقد ارتأى ان ذلك مسألة سياسية عسكرية ، ومن ثم فانه لا يعتبر نفسه مؤهلا لأن يتبنى موقفا في هذا الصدد حيث ان تقليص هذا الحكم ـــ في نظره ـــ هو قضية سياسية لا يمكن البت فيها على أساس الاعتبارات التنظيمية أو الادارية فحسب . وازاء الضغوط السياسية المطالبة بالغاء الحكم العسكري لجأت اسرائيل الى اعلان الغائه ابتداء من أول ديسمبر ١٩٦٦ ، الا أن أعضاء الكنيست كشفوا إن ما تم فعلا لم يكن الا نقلا لسلطة الحكم العسكري من يد رجال يرتدون زي رجال الجيش الى رجال يرتدون زي الشرطة (٢١) .

هذه الاوضاع ، بصفة عامة ، جعلت عضو الكنيست عاجزا عن ان يظفر بالمعلومات اللازمة له ليعرف ماذا يدور داخل أحدى الوزارات أو الشركات العامة . لقد اخفق نظام الاستجواب في الكنيست ـــ بالمقارنة مع النظام البريطاني ـــ عن اجبار الحكومة في شرح الحقائق أو أصلاح متاعب المواطنين ، ويرجع ذلك ، أساسا ، الى طبيعة النظـــام الانتخابي الاسرائيلي . هذا بالنسبة لجانب الطلب ، أما بالنسبة لجـــانب العرض للمعلومات فليس بالغ الفعالية ، اذ نادرا ما يقبل الوزراء أن يشاركهم أعضاء الكنيست المعلومات التي يرفضون نشرها . أضف الى ذلك أن أعضاء المعـــارضة لن يحظوا بمعلومات تبعد كثيرا عن الاتجاه السياسي . وبدلا من ذلك يلجأ أعضاء كل من أحزاب الائتلاف والمعارضة الى استخدام العلاقات الشخصية أو السياسية لاقـــامة قنوات للاتصال بالوزراء والموظفين العموميين . ومن المحتمل ان تكون هذه القنوات فعالة ، ولكن حينما يستخدمها أعضاء الكنيست فانهم لا يستخدموها كممثلين للهيئة التشريعية ، ولا حتى باعتبارهم وسطاء بين السلطة التنفيذية وبين الجمهور ، وانما بصفتهم أعضاء في دائرة « المطلعين » (٢٢) .

بل ان هذا التناقض الصارخ بين السرية المفرطة وبين صحة المعلومات ، في اسرائيل حمل البعض الى اقتراح جمع ونشر المعلومات بواسطة منظمات خاصة تقوم لهذا الغرض (٢٣) .

خلاصة القول ان الرقابة البرلمانية في اسرائيل تعاني كثيرا بفعل مجموعتين مـــن

العوامل : عوامل ايكولوجية ترتبط بالظروف الاجتماعية والاقتصـــادية والسياسية السائدة ، وعوامل عضوية موجودة في طبيعة اسلوب الرقابة البرلمانية ـــ كنظام فرعي ـــ في النظـــام الرأسمالي ، وبالنموذج الاسرائيلي الـــذي تطرحـــه التجربة الصهيونية في فلسطين المحتلة .

---

١ ـ

Gerald E. Caiden, *Israel's Administrative Culture,* (Institute of Government Studies, Univ. of California, Berkeley, 1970), p. 69.

٢ ـ

Dr. M. Gilon, *Norms for Public Administration,* (State Comptroller's Office, Jerusalem, 5730—1969), pp. 289-290.

٣ ـ من مقدمة محاضر الكنيسيت ، (اصدار مؤسسة الاهرام ـ القاهرة ١٩٧١)

٤ ـ

Likhousky, Eliahu S., *Israel's Parliament, The Law of the Knesset,* (Clarenden Press, Oxford, 1970), p. 151.

٥ ـ أنظر صحيفة الاهرام ، ٣١ أكتوبر ١٩٧٢

٦ ـ

Hesth, Meir, *The Legal Framework of Economic Activity in Israel,* (Praeger Special Studies, New York, 1967), pp. 188-189.

٧ ـ

Gilon, *op. cit.,* p. 9.

٨ ـ

Rackman, Emanuel, *Israel's Emerging Constitution, 1948-1951,* (New York, 1955), p. 101.

٩ ـ

Precise of the discussion in the Knesset on Part of the State Comptroller's Report for 1958-59, (*Public Administration in Israel and Abroad, 1968*), p. 115.

١٠ ـ

Molinier, «Les expériences britannique et française de Contrôle Parlementaire des entreprises publiques», (*Revue Internationale de Droit Comparé,* Paris, Vol. 24, No. 4, oct.-déc., 1972), pp. 773-790.

١١ ـ أنظر العرض والتعليق الذي كتبه ادوين صموئيـل في مجلـة « الادارة العامـة في اسرائيل والخارج لعام ١٩٧١ » ص ١٥٦ ـ ١٥٨ عن الكتاب الذي صدر عن مكتب مراقب الدولة ـ والوارد ذكره في الحاشية رقم (٢) .

١٢ ـ نقلا عن ملخص التقرير السنوي المذكور الوارد من الكتاب السنوي

Israel Government Year Book, 5731 (1970-71), P. 349.

١٣ ـ

Heth, *op. cit.,* p. 17.

ص ٦ ـ ٧

١٤ ـ أنظـر كايدن ص ٦٩ وأيضا جيلـون ، ٦ ـ ٧ .

١٥ ـ

Hirsch, Yakob, «The Gensis of the Israel Public Complaints Commissioner», (*Public Administration in Israel and Abroad, 1972*), p. 119.

١٦ ـ

Galnoor, Itzhak, «Administrative Secrecy», (*Public Administration in Israel and Abroad, 1971*), p. 48.

١٧ ـ التقرير المذكور صدر بالعبرية في أكتوبر ١٩٧٢ بالقـــدس وظهـر لـــه ملخـص بالانجليزية في مجلة « الادارة العامـة في اسرائيل والخارج » ١٩٧٢ السابق الاشارة اليها ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٤

١٨ ـ للمقارنة بالمفوض البرلماني البريطانـي وبالنموذج الاسكندنافي راجع

Gwyn, «The British PCA: Ombudsman or Ombudsmouse?» in *International Political Science Abstracts,* Vol. 23, No. 4, (Paris, 1973), p. 1332.

١٩ ـ أنظر نتائج بحوث سيلحمان وآراء كل من برنشتاين وكرينز في السيد عليوه : **القوى السياسية في اسرائيل ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧** (مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ـ أكتوبر ١٩٧٣) ص ١٥٣ ـ ١٩٥ ، ص ٢٠٣

٢٠ ـ Gilon, *op. cit.*, p. 21

٢١ ـ أنظر المصدر السابق ، ص ١٢ ثم راجع محاضر الكنيست ، مرجع سابق ، ص ١٥٩

٢٢ ـ Galnoor, *op. cit.*, p. 46.

٢٣ ـ Ariely, *Leadership in the Economy,* (Tel Aviv Publisher, 1967), pp. 157-169.

من مساهمات بريطانيا في خلق دولة اسرائيل

سياسة توزيع امتيازات المشاريع الكبيرة في فلسطين ايام الانتداب

عادل حامد الجادر

كان الصهاينة حريصين على أن يتضمن صك الانتداب ما يلزم بريطانيا بتنمية الوطن القومي وقد اتضح بعد صدوره أن بنوده تأثرت كثيرا بمقترحاتهم فيما يختص بتفاصيل تشكيل الوطن القومي كالبند الحادي عشر الذي جاء فيه « ادارة فلسطين .. لها السلطة التامة في وضع ما يلزم من الاحكام لاستملاك أي مورد من موارد البلاد الطبيعية او الاعمال والمصالح والمنافع العمومية ويمكن لادارة البلاد أن تتفق مع الوكالة اليهودية بانشاء او تسيير الاشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلاد الطبيعية بشروط عادلة ومنصفة ما دامت الادارة لا تتولى هذه الامور مباشرة بنفسها .. » (١) .

وقد جاء في بيان لأحد اعضاء الوكالة اليهودية نشرته مجلة زيونست ريفيو بتاريخ ٢٠ فبراير (شباط) سنة ١٩٤٢ : « في فلسطين اليوم ١٨٠٠ مشروع صناعي يملكها اليهود كلفت ١٤ مليونا من الجنيهات وتنتج سلعا بمثل هذه القيمة سنويا ، وقد أصبح ٤٥ الفا من اليهود المشتتين يعيشون بفضل هذه الصناعات . وقد وجهت نسبة عظيمة من رأس المال القومي اليهودي الى انجاح مشروع البحر الميت ومشروع الكهرباء » (٢) .

فلقد بادرت الحكومة البريطانية بعد الاحتلال الانجليزي لفلسطين الى منح الامتيازات(٣) الاقتصادية للشركات الصهيونية . وقد حصلت على ثلاثة امتيازات لمشاريع ثلاثة هي أهم ما في فلسطين من موارد ثروة وهي : مشروع روتنبرغ الكهربائي، مشروع استغلال البحر الميت ، مشروع أراضي الحولة .

١ ــ امتياز شركة الكهرباء الفلسطينية (مشروع روتنبرغ الكهربائي)

تكاد موارد القوى المائية في فلسطين تكون محصورة في نهر الاردن ورافده نهر اليرموك وينبع نهر الاردن من جبل حرمون في الاراضي اللبنانية على ارتفاع ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر ويجري جنوبا الى أن ينصب في بحيرة الحولة حيث يبلغ ارتفاعه ٨ أمتار عن سطح البحر ثم يخرج منها ويجري جنوبا ليصب في بحيرة طبريا ، حيث يهبط الى ١٩٢ مترا تحت سطح البحر ، واخيرا يصب مياهه في البحر الميت على عمق ٣٩٣ مترا تحت سطح البحر وهكذا يكون هبوطه من بحيرة الحولة الى البحر الميت أكثر قليلا من ٤٠٠ متر . وقد أمكن توليد قوة كهربائية من مياه نهري الاردن واليرموك تبلغ ٣٠٠ر٠٠٠ حصان (٤) .

ويعود التفكير في منح هذا الامتياز الى عام ١٩٢٠ حينما عقد اتفاق بريطاني فرنسي « لتسوية مسائل معينة تتصل بالانتدابات على سورية ولبنان وفلسطين وبلاد ما بين النهرين » .وتشير المادة الثامنة من هذا الاتفاق الذي عقد في باريس الى « تعيين خبراء يكون لهم مطلق الحرية في بحث استخدام مياه اليرموك وروافده والاردن الاعلى لأغراض الري وتوليد الكهرباء بعد سد احتياجات المناطق الخاضعة للانتداب الفرنسي واستخدام الفائض منها لمصلحة فلسطين » (٥) . ومن هنا تبدو في الاتفاق نية السماح لفلسطين بأن تستفيد من مياه الاردن واليرموك وروافدهما الواقعة في خارج حدودها .

وتأتي الخطوة التالية بتأسيس شركة الكهرباء الفلسطينية . وقد أسسها مهندس يهودي روسي الاصل ، بنحاس روتنبرغ(*) ، في فلسطين عام ١٩٢٣ برأسمال قدره مليون جنيه . وقبل أن يتم تسجيل الشركة بصورة رسمية ذهب الى انجلترة وشرع بالتشاور مع الزعماء الصهيونيين في اعداد مشروع شامل لتزويد فلسطين بالقوة الكهربائية على أساس تجاري عن طريق توليدها من نهر العوجة على مقربة من يافا، ومن نهر الاردن عند مصب اليرموك فيه . وقد أجرى مباحثات مع الحكومة البريطانية وأفلح في استثارة اهتمام رجال السياسة وفي مقدمتهم ونستون تشرشل ، الذي اقره كوزير المستعمرات في عام ١٩٢١(٦) وقد بين أنه ضروري لبريطانيا نفسها في هذه المنطقة كما أوضح ان بنود الانتداب تلزم بالموافقة عليه لأن هذا المشروع من بين العوامل التي تساعد على رقي وتقدم المنطقة(٧) على أن يؤلف شركة لا يقل راسمالها عن مليون جنيه يدفع منه ٢٠٠ ألف جنيه على الاقل في غضون العامين الاولين لمباشرة عملها . وتم تأسيس الشركة في سنة ١٩٢٣ .

ولغرابة واهمية الصفقة كانت موضع بحث في مجلس العموم البريطاني بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٢٢/٧/٤ . وقد وصف السير وليم جيسون هيكس الصفقة بما يلي : « المادة ١١ من صك الانتداب تقول : لادارة فلسطين ان تتفق مع الوكالة اليهودية ... بانشاء أو تسيير الاشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلاد الطبيعية .. وهذا في حد ذاته كما ارى هو ما ينطبق على خطة روتنبرغ . ان تنظيم الادارة مع المنظمة الصهيونية لانشاء شركة عامة للمنافع في فلسطين ، ان هذا يعني صهينة فلسطين . واريد أن اقول ان الحكومة اغلقت باب الامتيازات في وجه غير الصهيونيين . لقد قدمت طلبات امتياز تطوير حيفا ويافا ولكن كان رد الحكومة ان شيئا لا يمكن فعله حتى تعلن الهدنة ولم يكن السلام قد عقد لواءه بعد ... »(٨) .

وجاءت الحكومة البريطانية بشركة صهيونية واعطتها حق احتكار « عمران البلاد برمته » دون ان تأبه لعربي واحد (**) ، او تحسب لعرب البلاد اقل حساب(٩) .

وكانت الحكومة العثمانية قد منحت امتيازا لتوليد الكهرباء في فلسطين وكان صاحبه

---

* - كان قد شغل منصب وزير الشرطة في حكومة كيرنسكي وهي الحكومة الاولى التي جاءت في اعقاب الثورة الروسية وبعد سقوط القيصرية وقد عاشت هذه الحكومة عشرة اشهر الى ان قامت ثورة اكتوبر الاشتراكية فأطاحت بحكومة كيرنسكي .

** - في سنة ١٩١٩ تقدم المرحوم فؤاد سعد بمشروع لانارة حيفا بالكهرباء ووافق عليه الحاكم العسكري الا ان السلطة المركزية بالقدس اجلت المصادقة عليه وتمادى التأجيل حتى صودق على مشروع روتنبرغ .

يونانيا (مافروماتيس) . واودع هذا الامتياز لدى وزارة المستعمرات في حينه (قبل منح الامتياز لبنحاس روتنبرغ بسنة كاملة) وقدمت جميع الضمانات المالية للقيام به ، وعبثا جاهد صاحب هذا الحق المكتسب الاسبق في سبيل حقه فتعارض مشروعه مع مشروع روتنبرغ ، وهو اذ ذاك قيد المفاوضة ، فسدت في وجهه الابواب وكل ما حظي به من عطف ، كان النصح له والمشورة عليه ان يتفاهم مع الصهيونيين ولكن المحاباة صدته عن تنفيذ مشروعه ، فتقدم بقضية لمحكمة العدل الدولية في لاهاي ، وثبت امتيازه ولكنه حصر بمنطقة القدس(١٠) .

وقد أثار اعطاء الامتياز لهذه الشركة الاجنبية سخطا شديدا في فلسطين وشرقي الاردن فاستنكره المؤتمر الاقتصادي العربي في عام ١٩٢٣ . غير ان المشروع يمضي في طريقه فيحصل روتنبرغ على امتيازين الاول لاستخدام مياه حوض العوجا لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها للانارة والري في قضاء يافا والذي صدقه المندوب السامي هربرت صموئيل في ١٢ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢١ (١١) . والامتياز الثاني والاهم الممنوح في مارس (آذار) سنة ١٩٢٦ لشركة الكهرباء الفلسطينية لاجل استخدام مياه نهر الاردن واليرموك لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها وقد صدق عليه المندوب السامي بلومر (١٢) .

وقد تضاعف رأسمال الشركة باشتراك المولين الانجليز والامريكان (١٣) وقد أصبح للبريطانيين نفوذ قوي في الشركة يتجلى في تكوين غالبية اعضاء مجلس الادارة ، وفي اندماج الشركة مع بعض مكاتب استثمار الاموال في لندن كما يتجلى في النفوذ الامريكي في مساهمة شركة الاقتصاد الفلسطينية وهي شركة أمريكية ، بمبلغ ١٣٤ الف دولار فيها(١٤) ومن كبار المساهمين ايضا الوكالة اليهودية في فلسطين(١٥) .

ونشطت الشركة في القيام بأعمالها وما ان حل عام ١٩٣٢ حتى أتمت بناء محطة لتوليد القوة الكهربائية بقوة الماء هيدرو الكتريك في تل أور (نهرايم) عند ملتقى الاردن باليرموك ثم أقامت الشركة محطات في أنحاء فلسطين بقوة البخار او الديزل حتى أصبح مجموع طاقتها ٩٠ الف كيلووات عام ١٩٤٤ . ويتجلى النجاح السريع الذي أحرزته في تضخم رأسمالها الذي وصل الى ٥ر٤ مليون جنيه عام ١٩٣٩ وفي ارتفاع أرباحها ، فوزعت عام ١٩٤٣ ربحا قدره ٨ر٧٪ فضلا عن ٥ر٢٩٪ حولت للاحتياطي . ولقد ازداد توليد الكهرباء وبيعها زيادة سريعة جدا ، وهبطت أسعارها تدريجيا فقد ازداد عدد الوحدات المبيعة سنة ١٩٢٦ من ٧٦٤ر٣٤٣ر٢ كيلووات الى ٩٥٧ر٤٩٥ر٢٥ كيلووات سنة ١٩٣٦ . وهبط دخل الشركة من الوحدة المبيعة للكيلووات من ٥ر٢٨ المل في سنة ١٩٢٦ الى ٤ر٢٠ المل في سنة ١٩٣٠ الى ٩ر٨ المل في سنة ١٩٣٦ . وقد زاد الهبوط التدريجي في أسعار الكهرباء للاغراض الصناعية من نشاط النمو الصناعي فمن ٠٠٠ر٢٦٦ر٧١ كيلووات باعتها شركة الكهرباء الفلسطينية في سنة ١٩٣٧ فان (٠٠٠ر٣٠٤ر٢٠ كيلووات) أو نحو ٣٠ في المائة استعملت لاغراض صناعية(١٦) .

وسأتناول هنا مناقشة اهم مواد الامتياز الذي عقد بين المندوب السامي لفلسطين وبين الشركة في ١٩٢٦/٣/٥ ومدته ٧٠ عاما لاستخدام مياه نهر الاردن واليرموك وروافدهما لتوليد الكهرباء من القوة التي تستخرج من المياه وتوزيعها داخل فلسطين وشرق الاردن . واشير بالمقارنة الى أهم مواد عقد الامتياز الممنوح لبنحاس روتنبرغ في ١٩٢١/٩/١٢ لاستخدام نهر العوجة لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها للانارة والقوى والري في قضاء يافا .

حصر المياه والكهرباء في الشركة : جاء في المادة الثالثة من عقد الامتياز : « تمنح الشركة امتيازا مطلقا باستعمال مياه الاردن وحياضه وروافده بما فيها نهر اليرموك لتوليد الكهرباء لمدة سبعين عاما ... » (١٧) . ومعنى هذا ان الشركة وحدها تحتكر وتستعمل مياه نهر ارلادن واليرموك وهي مصدر المياه في فلسطين — ولا يسمح لأحد من سكان البلد باستخدام هذه المياه لغرض توليد الكهرباء او أي أغراض صناعية او زراعية أضافة الى ذلك فان هذا الامتياز يقيد او يلغي حقوق الافراد والاهالي من نهر الاردن واليرموك، خلافا للاحكام المدنية الاسلامية التي تنص على عدم نفاذ أمر السلطات باعطاء ما لا يخص الاهالي من المنافع للاشخاص فلا يصح تمليك المنافع العامة للاشخاص وخصوصا الى هيئات أجنبية ، وان تبقي على الملك العام للدولة . ومثل هذا الاحتكار وما انطوت عليه هذه المادة الآنفة الذكر من تسهيل لاصحابه وتضييق على غيرهم نشأ عن اتباع سياسة انشاء وطن قومي في فلسطين لليهود ، بما يحقق لهذه السياسة من نجاح ، وليس بالممكن ضمان المساواة في تيسير الاستفادة من موارد المياه لاشخاص او هيئة معاملين بغير هذه الدواعي . وكان قد منح المندوب السامي لروتنبرغ نفس هذه الحقوق المطلقة وذلك لاستخدام حوض نهر العوجة لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها للانارة والري في يافا(١٨) وبهذا قيدت والغيت حقوق العرب من نهر العوجة . فاثر هذه المواد هو سيطرة اليهود على موارد جميع المياه داخل فلسطين اضافة الى امارة شرق الاردن واحتكارهم لتوليد الكهرباء لجميع فلسطين والاردن وهذا له أثره الكبير في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ببناء مئات المصانع اليهودية لأن توليد الكهرباء أصبح تحت سيطرتهم وحجب عن العرب توليد الكهرباء للانارة والمقاصد الزراعية والصناعية .

وتستمر التسهيلات فتخول الشركة سلطة في اقامة سد لخزن مياه بحيرة طبرية ولها أن تسحب مياهها لأدنى حد وان تجرها بالاقنية الى المحطات الكهربائية وان تحول مياه اليرموك وروافده الى الاقنية المذكورة او الى بحيرة طبرية لنفس الغاية (١٩) .

ان الغبن الفادح والاضرار التي تعرض لها الاقتصاد العربي الفلسطيني والاردني بالغة الاهمية اذ ان اخصب الاراضي الفلسطينية والاردنية تقع داخل (منطقة الامتياز)(*) فاقامة سد لخزن مياه بحيرة طبريا لانشاء محطات لتوليد الكهرباء ادى الى انخفاض المياه جنوب بحيرة طبريا الى ٢٧ مترا(٢٠) عن مستوى سطح البحر . وهذا ادى الى استحالة ري مناطق واسعة في الاراضي الفلسطينية والاردنية كان من الممكن ريها بتكلفة قليلة . اضافة الى ان تحويل مجرى نهر اليرموك وروافده، لاقامة محطة في منطقة العبيدية لتوليد الكهرباء ايضا ادى الى حرمان قرى عربية كثيرة تعيش على الزراعة من مياه نهر اليرموك وروافده ففي الوقت الذي ما تزال قرى عربية تعتمد على الزراعة من مياه نهر الاردن واليرموك وروافده قبل تحويل مجراه كانت تشيد المستعمرات اليهودية والمصانع ويتم تشغيلها بقوة الكهرباء لاستيعاب المهاجرين اليهود اقتصاديا .

حق الاغتصاب بدعوى المصلحة : جاء في المادة العاشرة من الامتياز (٢١) « على المندوب السامي بناء على طلب الشركة وعلى نفقتها او في حالات تعذر الشراء باتفاق متبادل لقاء تعويض توافق عليه الشركة او تعذر الاتفاق ان ينزع ملكية العقارات او الاراضي او الابنية او الحقوق الارتفاقية ... » وواضح من هذه المادة ان الاسباب التي ذكرت

---

* — تعني عبارة « منطقة الامتياز » وتشمل فلسطين وشرق الاردن واي مناطق اخرى موجودة اذ ذاك وتدخل من وقت لآخر في دائرة اختصاص المندوب السامي .

لاباحة نزع الملكية ليست ضرورية ولا خاصة بالكهرباء بقدر ما هي عامة وغير مانعة ويقصد بها خلق أي سبب لتنفيذ الهدف الاعلى من تمليك اليهود . وبالفعل تم تمليك هذه الشركة ما مقداره ١٨ الف دونم خلاف المباني والدور التي هدمت واستملكتها الشركة وكان قد التزم المندوب السامي بمثل هذا النص في المادة ١٣(٢٢) من امتياز العوجة بنزع ملكية أي ارض أو عقار تراها الشركة اليهودية ضرورية لمشاريعها . وتحت سطوة نزع الملكية الذي انفرد بتنفيذه المندوب السامي ، أخذ اليهود يستولون بقوة بريطانيا على الاراضي قطعة وراء أخرى وهذا يطابق ما منحه دستور فلسطين في مادته الثالثة عشر للمندوب السامي في أن يهب أو يؤجر أية أرض من الاراضي العمومية (٢٣) ويطابق احكام المادة الثالثة من قانون نزع الملكية في سلطة أصحاب المشاريع بنزع ملكية اية ارض يحتاجون اليها لمشاريعهم (٢٤) كل هذا يفرض علينا أن نعود الى المادة الثانية من صك الانتداب التي تنص على ان بريطانيا تتعهد بأن تجعل فلسطين في وضع سياسي واقتصادي واجتماعي صالح لانشاء وطن قومي لليهود .

واحكاما للاستغلال جاء في المادة ١١ مكرر من الامتياز على المندوب السامي « ان يحرم استعمال مياه الاردن وحياضه بما في ذلك نهر اليرموك وجميع روافده وحياضه المشمولة في منطقة الامتياز ... » (٢٥) معنى هذا ان امتياز مشروع الكهرباء لم يطلق يد الصهيونية في احتكار الكهرباء في فلسطين وشرق الاردن فحسب وانما اطلق يدها في التحكم بمستقبل المياه العربية كلها وبموجب هذا كان لا يحق للعرب اقامة مشاريع انمائية واستثمارية تعتمد على مياه الاردن واليرموك العربيين الا اذا رضيت الصهيونية بذلك . وبهذا لم يكن (مشروع روتنبرغ) مجرد مشروع كهرباء لتزويد فلسطين وشرق الاردن بالطاقة الكهربائية فقط وانما كان في حقيقته وأبعاده جزءا من المخطط الاستعماري الصهيوني للسيطرة على فلسطين والمياه العربية الجارية فيها .

كما وقفت المادة (١١) من الامتياز الآنف الذكر كالسيف المسلط فوق أي مشروع يحاول الاهالي أو المزارعون العرب القيام به أو أي تحسين تجريه في ري مزارعهم في منطقة الامتياز ، اذ ان المادة الآنفة الذكر تعطي الشركة الحق في استخدام كل موارد الماء على جانبي نهر الاردن لتوليد الكهرباء . بل الانكى من ذلك انه يعطي الشركة الحق في الحصول على الماء من الجداول التي تروي الارض في أي وقت تحتاج اليه ، على ان تقدم التعويض فقط عن الاضرار التي تلحق الارض التي كانت تسقى وقت منع الماء. وهذا معناه أن أية أموال تنفق على توسيع الري في هذه المنطقة مهددة بالضياع . فالشركة الكهربائية كانت تتحكم بمستقبل فلسطين . وتمنع أي تطور صناعي أو زراعي لأنها احتكرت توليد الطاقة الكهربائية واصبحت المياه محرمة على أصحابها العرب لان الشركة تستخدم كل موارد الماء على جانبي نهر الاردن لتوليد الكهرباء (٢٦) .

ولتلافي ما قد يكون ثغرة في موارد الامتياز يمكن النفاذ منها الى انشاء محطة غير هذه ، نصت المادة ١٨ من عقد الامتياز « للشركة الحق المطلق بتوليد الطاقة الكهربائية في منطقة الامتياز ... ولا يسمح المندوب السامي بانشاء محطات كهربائية أخرى لتوليد الطاقة الكهربائية وتوريدها وبيعها في منطقة الامتياز الا بموافقة الشركة ..»(٢٧)

فالشروط الواردة بهذه المادة والتي التزم بها المندوب السامي جعلت المشروع ذا صفة احتكارية واطلقت يد الصهيونية في احتكار توليد الكهرباء والتحكم في المياه العربية ويخول صاحب الامتياز أن يبني ، ويشغل مصانع ومعامل تستهلك الكهرباء المولدة. فهذا النص الذي أوجده مبتكرو مشروع روتنبرغ ليوجدوا البيئة الصناعية لاستيعاب المهاجرين

وتشغيلهم في المصانـــع والمطاحن والمزارع والمعامل والمختبرات التـــي تبنيها وتشغلها الشركة انما هي عملية بناء للوطن القومي اليهودي .

وعندما صار البناء وتشغيل المصانع بأيدي اصحاب الامتياز اليهود اصبحوا قادرين على مقاومة أية تطلعات صناعية عربية .

وبهذه الشروط التزم أيضا المندوب السامي في المادة ٢٦(٢٨) من عقد امتياز العوجة ، فاحتكر روتنبرغ توليد الكهرباء واستغلال ميـــاه نهر العوجة وبناء وتشغيل المصانع والمطاحن والمعامل والمشاريع الزراعية والصناعية والتجارية . وكان الهدف من توسيع بنود الامتياز واحكامها ان يضمنوا لاصحاب الامتياز السيطرة على الموارد الطبيعية وعلى سائر المرافق ، ووراء هذه الأكمة السيطرة السياسية .

احكام تتعلق بالارباح : جاء في المادة ٣٤ مـــن الامتياز (٢٩) « اذا زاد ربـــح الشركة الصافي(*) عن عشرة في المائة ولم يتجاوز ٢٠٪ فعليها أن تدفع للمندوب السامي نصف ما يزيد عن ١٠٪ اما اذا تجاوزت أرباحها ٢٠٪ فعليها أن تعطي المندوب جميع الارباح التي تزيد عـــن ١٥٪ » وقد جاءت نفس هـــذه الاحكام بالمادة « ١٨ ، ٢ » من امتياز العوجة (٣٠) ان هذه الاحكام تدل على التسهيلات الكبيرة التي منحتها السلطة المنتدبة لصاحب الامتياز فيجب ان لا تقل حصة الحكومة مـــن الارباح عن ٥٠ في المائة فالمادة الآنفة الذكر تدل على أن منح الامتيـــاز ليس بدافـــع الحرص على مصلحـــة الشعب الفلسطيني بقدر ما هو وضع فلسطيني في ظروف اقتصادية تسهل انشاء الوطن القومي وليس أدل علـــى ذلك من تبديد الثروة من استخدام توليد الكهرباء من المياه العربية بهذا الثمن البخس .

اعفاء الشركة من الضرائب : ولرغبة بريطانيا في تقوية اليهود وانجاح مشروعاتهم جاءت المادتان ٣٥ ، ٣٦ من عقد الامتياز . لا تفرض ضريبة على أرباح الشركة لمـــدة عشر سنوات ، ولا تستوفي الحكومة ضريبة على الارباح اذا لم تحقق الشركة ربحا لا يقل عن ٦ في المائة خالصا من الضرائب(٣١) . وهذا تدعيم للمشروع اليهودي وانجاح له . وكان على السلطة المنتدبة ان لا تتساهل في فرض ضريبة على أرباح الشركة مهما قلت هذه الارباح حرصا على واردات البلاد وحفاظا على حقوق شعب فلسطين والاردن . وزعموا بأنهم عقدوا ذلك الامتياز ليراعوا مصلحة اهالي فلسطين وشرق الاردن ولكن هذا النص يدعم الوجود الصهيوني . وقد التزمت السلطة المنتدبة بذلك أيضا في المادة ٣٨ من عقد امتياز العوجة واعفت الشركة لمدة سبع سنوات من فرض ضريبة على أرباح المشروع(٣٢) .

وعدا عن هذا فانه أعطى الحق للشركة في تأجيل دفع الرسوم الجمركية على المهمات المستوردة من الخارج الى أن تكون ارباح الشركة ، بعد أخذ مبالغ واطفاء رأس المال والاندثار الاحتياطي ، كافية لتمكين الشركة من دفع حصة لحاملي الاسهم لا تقل عن ٨ في المائة في السنة من غير استيفاء ضريبة عليها (٣٣) . وقد أدى اعفـــاء أو تأجيل دفع الرسوم الجمركية على المواد والبضائع التي تستوردها شركة الكهرباء واعفاء الشركة من دفع ضرائب على أرباحها ولمدة طويلة الى تدعيم وتوسيع الصناعة اليهودية وبذلك تزداد المقدرة الاستيعابية بقبول عدد كبير من المهاجرين اليهود وسيؤدي ذلك الى تقهقر الصناعات العربية فانحلالها .

---

* – بعد خصم الاستهلاكات وكافة النفقات وحصة الاحتياطي ، خالصا الضريبة .

وهكذا كان مشروع راوتنبرغ من الاركان الرئيسية الكبرى التي اعتمدت عليها الصهيونية في التحكم في مستقبل فلسطين وجعلها قادرة على استيعاب مئات الالوف من المهاجرين .

وليس ادل على تحيز بريطانيا ودسائسها الماكرة لاقامة الوطن القومي اليهودي من منح هذا المشروع بالطريقة التي تم فيها المنح للصهيونية « اذ ان بنحاس روتنبرغ نفسه كان من الساسة الصهيونيين النشطين الذين يقفون في الغالب مواقف متطرفة (٣٤) وجعلت الامتياز في حكم الاحتكار اذ منح توليد الكهرباء في فلسطين كلها بأي طريق من الطرق . وفرض على المدن العربية ان تحصل على الكهرباء اذا أرادت من المشروع . وكان هذا السبب في بقاء عدة مدن عربية دون كهرباء حتى نهاية عهد الانتداب البريطاني، والمشروع حقق في النهاية ما أراده واضعوه منه ، وأصبحت مصادر القوة المحركة واللازمة للصناعة تحت تصرف الصهيونيين . « ومـا زال المشروع قائما في اسرائيل ويعتبر من أهم موجوداتها » (٣٥) .

٢ ـ امتياز استخراج الاملاح والمعادن من البحر الميت

لم تكن الصهيونية تقنع بالاستيلاء على مصدر واحد من مصادر الثروة ، أو موقع استراتيجي واحد ، فقد كانت تطمع في فلسطين ، لذلك كانت ترى انه لا بد من أن تكون لها مصادر الثروة الفلسطينية ليتحقق لها بالتالي : انتزاع كل هذه المصادر من أصحابها العرب وحرمانهم من خيراتها وعائداتها ، الاستفادة منها في فتح ابواب العمل لعشرات الالوف من المهاجرين الغزاة وبذلك تزيد من قدرة فلسطين على الاستيعاب ، الاستفادة من عائدات هذه المصادر في تمويل المخططات الموضوعة للسيطرة على فلسطين ، التحكم في التطور العربي في فلسطين ، اذ تضمن من خلالها سيطرتها على مصادر الثروة ووضع سدود عالية في وجه اي تقدم يتطلع اليه العرب ، وفي ذات الوقت تكون قد فتحت أبواب التقدم والتطور والازدهار أمام الاقلية اليهودية وبذلك يصبح المجتمع الفلسطيني أغلبية متخلفة تعتمد على الزراعة البدائية ، واقلية يهودية متقدمة تعتمد على الصناعة الحديثة والزراعة الآلية .

ان المعادن المحلولة في مياه البحر الميت هي كلوريد الصوديوم (ملح اعتيادي) ، كلوريد البوتاسيوم ، كلوريد المغنسيوم ، برومید المغنسيوم ، كلوريد الكالسيوم ، سلفات الكالسيوم(٣٦) . وفي سنـة ١٩١٩ اخذ العـالم بروك عينـات من ميـاه البحر على أعماق مختلفة وحللها في مختبر الحكومة في لندن بغية معرفة تركيبها . فعلى هذا التحليل وتقدير بروك لمياه البحر الميت (١٥٩ كيلومترا مكعبا) تكون كميات الاملاح المحلولة في مياه البحر المذكورة كما يلي(٣٧) ، بملايين الاطنان : كلوريد البوتاسيوم ٢ر٠٠٠ ، برومید المغنسيوم ٩٨٠ ، كلوريد الصوديوم ملح اعتيادي ١١ر٠٠٠ ، كلوريد المغنسيوم ٢٢ر٠٠٠ ، كلوريد الكالسيـوم ٦ر٠٠٠ مليون طن . ومجمـوع الاملاح ٤٢ر٠٠٠ مليون طن ذائبة في البحر الميت وهي كمية عظيمة وثمينة جدا ولكي ندرك اهمية الثروة في البحر الميت يجب أن نعرف منافعها(٣٨) . فالبوتاس يستخرج منه البوتاسيوم لأجل صناعة الاسمدة وتستهلك الزراعة نحو ٩٠ في المائة من منتجات البوتاس . كما انه يستخدم ايضا في صنع البارود والادوية والدهان والصابون والزجاج والكبريت والاصباغ والورق وغير ذلك . اما البروم فيستعمل في فن التصوير وتركيب الادوية بشكل بروميد الصوديوم ، بروميد البوتاسيوم ، بروميد الامونيوم ، ومن مركبات البروم الرئيسية « اثلين الدبروميد » وهو اذا استعمل مع مركبات أخرى وأضيف الى البترول سهلت الحركة في محركات السيارات والطيران كما انه يستخدم ايضا في

تركيب بعض الاصباغ والقذائف اليدوية والقذائف الغازية وما أشبه . وأما منافع كلوريد الصوديوم (الملح الاعتيادي) فهامة ولكن وفرة هذه المادة في الطبيعة تجعل سعرها رخيصا ، ففضلا عن استعماله في الطعام يستخدم ايضا في صنع الصابون وحامض الهيدروكلوريد والصودا وهذه هامة في صناعة الصابون ، وتستخدم أيضا في تحضير الكلورين الذي يدخل في صناعات كثيرة بما فيها صناعة القذائف الغازية والكلورين مطهر فعال وعامل قوي في قصر الاقمشة أي تبييضها . أما كلوريد المغنسيوم فيستعمل في صناعة النسيج لتليين الالياف الصوفية وتنعيمها . وفي الصناعة كمادة اساسية تتالف منها بعض التراكيب . وكلوريد الكالسيوم يستعمل كعامل مخفف . ويتبين لنا ان لهذه الاملاح اهمية كبرى في ميدان الصناعة في أيام السلم وأيام الحرب على السواء وقدر العلماء المطلعون ثروات البحر الميت بحوالي ٢٤٠ — ٥٠٠ ألف مليون جنيه استرليني(٣٩) .

ويرجع الاهتمام بأملاح البحر الميت الى سنة (١٨٣٥) عندما قام رجل ارلندي اسمه كوستكان بتأليف بعثة لدرس الموضوع وأخذ القياس والعينات من البحر المذكور ، ولكن البعثة باءت بالفشل وبعد ذلك تألفت بعثات أخرى انكليزية ثم أمريكية ثم فرنسية واخيرا تركية ، وكانت غايتها علمية بحتة فكانت نتيجة دروسها تقديم نظريات عديدة عن أصل البحر الميت ومعلومات عن خصائصه .

وفي سنة ١٩١٩ شرع م. أ. نوفومسكي بدراسة امكانية الاستثمار التجاري للثروة المعدنية في البحر الميت وفي سنة ١٩٢٠ أجرى تجارب عملية منظمة واسعة النطاق على شاطىء البحر الميت تكللت بالنجاح التام .

وكان الجنرال اللنبي أيضا يهتم بمشروع كهذا فطلب فوراً بعد الاستيلاء على القدس ، لجنة من الخبراء من انجلترا للقيام بالابحاث اللازمة . فابتدأت اللجنة ابحاثها حتى قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى وبعد أن وصلت الى نتائج تدعو الى الامل اعلن في سنة ١٩٢٥ انه بالامكان اعطاء امتياز لاستثمار هذه الثروة المعدنية . فتقدم موئير نوفومسكي الآنف الذكر (وهو يهودي هاجر من روسيا) والماجور توماس كريكوري تولوك (بريطاني) ، الذي كان يهتم في أثناء الحرب باستخراج البوتاس من البحر الميت ، مشتركين بطلب الامتياز لاستثمار هذه الثروة المعدنية(٤٠) والذي دعا الى انضمام الفريق البريطاني والصهيوني هم وكلاء التاج(٤١) وانفا شركة بوتاس فلسطين وهنا يبتلع الاستعمار لقمة أخرى فيعطي امتياز استغلال موارد البحر الميت الى هذه الشركة .

وقد سجلت الشركة عام ١٩٢٩ كشركة بريطانية برأسمال قدره ٤٠٠ الف جنيه وتساهم فيها أموال يهودية وبريطانية وأمريكية(٤٢) وللبريطانيين فيها نفوذ قوي يمثله الماجور ت. ج. تولوك احد المؤسسين وهيمنة شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية على سياسة مجلس ادارتها . أما المصالح الامريكية فتمثلها شركة الاقتصاد الفلسطينية ومديروها من اليهود ويتعاونون مع الوكالة اليهودية(٤٣) وتساهم هذه في رأسمالها بمبلغ ٤٦٥ الف دولار ، وبذلك تعتبر مالكة لأكبر حصة من اسهمها(٤٤) .

وقد حصلت شركة البوتاس الفلسطينية على هذا الامتياز في أول يناير (كانون الثاني) ١٩٣٠ ومنذ بدأت المفاوضات في هذا الامتياز قوبلت باستنكار شديد في الاوساط العربية في فلسطين فاحتج المؤتمر العربي السابع المنعقد في القدس في ٢٠ يونية (حزيران) ١٩٢٨ « على أعطاء امتياز البحر الميت لشركة أجنبية(٤٥) وفي سنة ١٩٢٩

احتج المجلس الاسلامي الاعلى على منح استثمار امتياز البحر الميت لفريق من الصهيونيين(٤٦) وباشرت الشركة العمل في سنة ١٩٣١ وتقدمت أعمالها تقدما سريعا فزادت في انتاج البوتاس كما يتبين من الاحصائية التالية :

السنة	الانتاج بالطن	السنة	الانتاج بالطن
١٩٣٥	١٨٫١٢٤	١٩٣٩	٦٣٫٥٢٧
١٩٣٦	١٩٫٧٩٣	١٩٤٣	١٠٣٫١٢١
١٩٣٧	٢٩٫١١٠	١٩٤٦	٨٦٢٫٠٠٠(٤٧)

اما البرومين فكان ينتج كمستخرج اضافي ففي سنة ١٩٣٥ بلغ انتاجه ٤٤٥ طنا ووصل انتاجه قبل الحرب الى ٦١١ طنا ولا بد انه تضاعف اثناءها ان لم يكن قد زاد على ذلك والارقام الاكيدة غير متوفرة اذ اعتبرت سرا حربيا في ذلك الحين ، وكانت هذه المواد تقدم للحلفاء في الحرب العالمية الثانية لتساعد في المجهود الحربي(٤٨) وكان يصدر الى بريطانية اكثر من ٧٤ في المائة من انتاج البرومين وفي أول قيام الشركة ركزت اعمالها في شمالي غربي البحر الميت حيث انشأت أحواضا متسعة لتجفيف الماء الذي يحوي الأملاح ، ثم لم تلبث أن انشأت مركزا آخر لاستخراج الاملاح في جنوبه ، وفي خلال فترة الحرب العالمية وسعت الشركة هذين المعملين وبرهنت منتوجات الشركة على أهميتها الحربية ، وبالنظر لأن هذه الاملاح متوفرة بالمناطق التي سيطرت عليها دول المحور ، قبل ذلك الحين(٤٩) وكان هذا البوتاس قبل الحرب ثم بعدها يصدر الى بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والولايات المتحدة الامريكية والهند وسيلان وجنوب افريقيا والصين واليابان وكندا(٥٠) .

عقد هذا الامتياز في ١ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٠ بين السير روبرت تشانسلور ، المندوب السامي لفلسطين ولشرقي الاردن بالنيابة عن حكومتي فلسطين وشرق الاردن بواسطة وكلاء التاج للمستعمرات فريق أول ، وبين شركة البوتاس الفلسطينية وهي شركة مسجلة في انكلترا(٥١) .

التنازل عن الحقوق والاراضي : جاء في المادة (٢) من عقد امتياز شركة البوتاس الفلسطينية الآنف الذكر « تمنح الحكومة وتتنازل بهذا الامتياز عن الحقوق والاراضي ... »(٥٢) وبموجب هذا المادة لم تتنازل الحكومة عن الحقوق والاراضي لمنطقة الامتياز للشركة وانما للشركة الحق في استخراج الاملاح المعدنية والمعادن والمواد الكيمياوية من مياه البحر الميت أو تحتها وتجهيزها للبيع في الاسواق مع الاحتياط لانكماش مياه البحر الميت، ففي هذه الحالة يسري الامتياز على المناطق التي تتكشف منه. وبفضل هذه التنازلات والحقوق العريضة التي منحتها الحكومة للشركة جعلت من البحر الميت مرتعا خصبا للصهيونية ولمدة ٧٥ عاما. مقابل ذلك كله تدفع الشركة اجرة سنوية قدرها جنيه واحد يدفع على قسطين في السنة فالحكومة المنتدبة قيدت نفسها بالتزامات ومنحت الشركة من الحقوق ما لا يقابلها أي غنم . وبهذا أطلقت يد الصهيونية في احتكار استخراج الاملاح والمعادن واحتكرت كذلك تسويق وبيع هذه المواد في الاسواق الداخلية والخارجية . وكل ذلك في حكم التمليك لطول مدة الامتياز وبهذا الاحتكار انتزع مصدر من اهم مصادر الثروة الفلسطينية من أصحابها العرب وحرموا من خيراتها وعائداتها . وقد بقي أصحاب الثروة فعلا لا يستفيدون شيئا من البحر الميت الذي أصبح بفعل هذه المادة وكأنه بحيرة يهودية . وان هذه التنازلات والحقوق من قبل الحكومة للشركة جاءت تنفيذا لأحكام المادة الثانية التي ترمي الى القضاء على الاقتصاد الفلسطيني

وتنفيذا لأحكام المـادة ١١ من التي وضعت لحرمـان الفلسطينيين مـن مواردهم الطبيعية(٥٣) .

الشركة تستولي على الاراضي خارج منطقة الامتياز : دابت الحكومة المنتدبة منـذ ابتداء انتدابها ، في سبيل تمليك اليهود واعدادهم لأمتلاك فلسطين ، على نزع ملكية الاراضي . فحرصت على أن تنص على ذلك في عقود الامتياز التي تمنحهـا للشركات الصهيونية التي تستغل موارد فلسطين الاقتصادية ، فنصت الفقرات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من المادة الخامسة من عقد الامتياز الآنف الذكر « تمنح الحكومة الشركة بناء على طلب كتابي حق استئجار أرض اضافية للمدة الباقية من أجل الامتياز ... على أن تكون هذه الاراضي خارج منطقة الامتياز . واذا كانت ملكا خاصا او يشغلها أحد الناس فتنزع الحكومة ملكيتها ... »(٥٤) وفعلا بلغ ما منحته بريطانيا للشركة اليهودية خارج منطقة الامتياز ٧٤٫٩٨٧ دونم مجانا(٥٥) ، كما أجرت لهـم ٦٤ ألف دونم بايجـار اسمي وهذا الايجار بمثابة تمليك لطول مدة الامتياز ، وسلط الجيش البريطاني والبوليس على امر الاستيلاء(٥٦) وتم انشاء المناطق السكنية للعمال والمهندسين والموظفين اليهود الذين يشتغلون بالمشروع . وقد أقيمت بعدئذ مستعمرة كالية(٥٧) على الطرف الشمالي الغربي من البحر الميت . وقد كان الاستيلاء على الاراضي العربية يتم تحت ستار احتياجات الشركة للأشغال الفرعية ، وحقيقة الامر هي عملية استيعاب المهاجرين اليهود في المشروع واسكانهم في هذه الاراضي بعد طرد سكانها الاصليين منها .

والفقرة (٥) من المادة الآنفة الذكر حرمت الشركة الحكومة من تأجير أية ارض ضمن ٥ كيلومترات من اقرب حد لمنطقة الامتياز الا بموافقة الشركة ، أي جعل منطقة الامتياز وما جاورها منطقة محرم على العربدخولها خوفا من أي تطلعات صناعية عربية لاستغلال بعض المناطق القريبة من منطقة الامتياز لوجود الاملاح والمعادن فيها .

واذا كان المندوب السامي يملك صلاحية الاستيلاء على الاراضي الفلسطينية ليملكها لشركة البوتاس الفلسطينية فالانكى من ذلك هو انه فوض هذه الصلاحية للشركـة نفسها بأن تستملك ما تريده من الاراضي في أية بقعة من أراضي فلسطين باسم (الغاية العامة) أو الصالح العام(٥٨) واستملاك الاراضي باسم الغاية العامة يقرر من قبل سلطة تشريعية منبثقة من الشعب وليس من شركة أجنبية ، ولا ريب ان الغاية العامة من وجهة نظر شركة البوتاس الفلسطينية هي استملاك أكبر مساحة مـن الارض الفلسطينية لاستيعاب المهاجرين وبناء المؤسسات الصهيونية. ويتضح لنا ذلك أكثر اذا علمنا ان الشركة استملكت أراضي في مدينة القدس وهي خارج منطقة امتيازها وبعيدة عن البحر الميت .

ونثبت فيما يلي نموذجا على تطبيق هذه المادة :

ان شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة المؤلفة في انجلترا والمسجلة في فلسطين بمقتضى قانون الشركات ، استنادا الى الاعلان الصادر من المندوب السامي بمقتضى الفقرة (٢) من المادة الثانية والعشرين من قانون الاراضي (استملاكها للغايات العامة) سنة ١٩٤٣ ... الذي فوضت بموجبه شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة ممارسة جميع الصلاحيات المخولـة للمندوب السامي والقيام بجميع الالتزامات المترتبة عليها ... تعلن شركـة البوتاس الفلسطينية المحدودة بمقتضى المادة التاسعة عشرة من القانون المذكور ان الارض المبينة أوصافها في الذيل أدنـاه والتـي صدر اعلان استملاكها ... قد أنيطت بها اعتبارا من ٧ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤٧ وهو تاريخ وضع يد شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة على تلك الاراضي .

الذيل : قطعة أرض واقعة في الموقع المعروف بكرم اللوز في محلة البقعة الفوقا ضمن منطقة بلدية

القدس وتؤلف قسما من القسيمة رقم ٤٩ من قطعة تخمين الاملاك في المدن رقم ٣٠٠١٧ وتبلغ مساحتها ٥٤٤ مترا مربعا . تحريرا هذا في اليوم السادس من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤٨ .

شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة
م. سيزون (٥٩)

كل المنافع حكر على الشركة : يحق للحكومة بعد مضي خمسة وعشرين عاما أن تعرض حق استخراج الاملاح والمعادن على شركات أخرى فيما لو رفضت الشركة قبول هذا العرض بنفس شروط الامتياز الحالي(٦٠) ومعنى هذا انه لا يحق للحكومة خلال ٢٥ سنة من تاريخ عقد الامتياز أن تباشر بنفسها حق استخراج الاملاح والمعادن **ولا أن تجيز أو تسمح لأية هيئة أو فرد خلاف شركة البوتاس الفلسطينية ، ولا أن تفعل ذلك بعد مضي هذه المدة ، بدون أن تعرض على الشركة للقيام بالاشغال التي يراد القيام بها، وبنفس شروط الامتياز. ان هذه الامتيازات هي حق من حقوق السكان الاصليين، وفي** حالة عدم وجود شركة عربية للسير في العمل كان واجب الحكومة أن تساعد على تأسيس شركة لتلك الغاية ، واذا كانت الحكومة مضطرة أن تستغل الامتيازات كان في مقدورها أن تسير بالعمل بنفسها أو تؤسس شركة تكون هي فيها حائزة لأكثر الاسهم . وفي هذه الحالة لا تكون الحكومة بحاجة الى أن تستغل الوفر في الميزانية لشراء أسهم أجنبية(٦١) .

لم تتخذ الحكومة أية طريقة من هذه الطرق بل أعطت أحسن امتيازات فلسطين الى المؤسسات اليهودية لأنها مسؤولة عن جعل فلسطين في أحوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي . والشركة صاحبة الامتياز مأخوذة بهذه الدواعي . والقصد من وراء هذا الالتزام من جانب الحكومة هو حرمان العرب من الاستفادة من ثروة طبيعية هم أصحابها .

ولم تكتف الشركة باحتكار استخراج الاملاح والمعادن من البحر الميت ، بل جاءت الفقرة (٢) من المادة (٦) الآنفة الذكر وأطلقت يدها باستخراج أملاح البوتاس والبرومين وأملاح البرومين وكلوريد المغنسيوم في منطقة تبلغ مساحتها ٥ كيلومترات عرضا تقاس من خط الشاطىء للبحر الميت(*) .

فالشركة بحكم هاتين الفقرتين احتكرت استخراج وصناعة وتسويق الاملاح والمعادن واتخذت من البحر الميت وما يحيط به من الاراضي مرتعا خصبا بدون وجود أي نوع من أنواع المنافسة أو المزاحمة من هيئات أو أفراد لا يدينون بسياسة الوطن القومي .

حصة الحكومة من الارباح والعوائد : تدفع الشركة للحكومة حصة من صافي الربح(**) بنسبة ما يزيد بعد توزيع ربح للمساهمين قدره ١٠٪ فاذا لم يتجاوز المبلغ الزائد ٥٪ كان للحكومة منه ٢٠٪ ، واذا تجاوز ذلك كان لها ٤٠٪(٦٢) فهذه المادة قد امنت المساهم وضمنت له ١٠٪ من الارباح بينما بخلت على الحكومة وجعلت لها

---

* - هي تلك المنطقة التي ورد ذكرها في الفقرة (٥) من المادة (٥) التي جاء فيها « لا يحق تأجيرها الا بموافقة الشركة » .

** - مجموع الايرادات بعد خصم نفقات التشغيل والتجديدات والتبديلات والتعميرات وعوائد الحكومة وفائدة السندات ، واقساط استهلاكها وتحويل مبلغ للاحتياطي لا يتجاوز ١٠٪ فضلا عن قسط استهلاك رأس المال نفسه .

حصة ضئيلة وربما لا يبقى لها شيء بعد صرف الـ ١٠٪ للمساهم . وكان الانصاف يقتضي أن تحصل الحكومة على ٥٠٪ على الاقل في جميع الحالات .

ولا يخفى ما تنطوي عليه من غبن أيضا المادة العاشرة من الامتياز التي تشير الى عوائد تدفعها الشركة للحكومة تساوي ٥٪ من قيمة ما يستخرج ويباع من كلوريد البوتاس والبرومين وكلوريد المغنسيوم(٦٣) وكما ان رؤوس أموال المشروع يهودية ، فأرباح المشروع ستذهب اليهم ، ويستفاد من هذه الارباح في تمويل المخططات الموضوعة لسيطرة على فلسطين واستعمارها من قبل الصهيونية ويزدادون غنى ورفاهية على حساب الشعب الفلسطيني . ان تبديد هذه الثروة بثمن بخس هي عملية خلق أوضاع اقتصادية من شأنها تشييد الوطن القومي اليهودي .

حق الحكومة والاهالي في الاكتتاب العمومي : عند اصدار أسهم تزيد عن ٢٥٠ ألف جنيه يجب أن تعرض الشركة للاكتتاب العمومي ٥٠٪ منها على الاقل ويكون للاردنيين والفلسطينيين الاولوية في الاكتتاب بخمسها(٦٤) . وللحكومة الاولوية في الاكتتاب بـ ٢٠٪ من الاسهم التي تعرض للاكتتاب(٦٥) . معنى هذا انه اذا اصدرت الشركة أسهما بـ ٢٥٠ ألف جنيه مثلا ، وجب أن تعرض منها ١٠٠ الف جنيه للاكتتاب العمومي ، يكون للحكومة الاولوية في الاكتتاب بـ ٢٠ الفا منها وللشعب في فلسطين وشرق الاردن الاولوية في الاكتتاب بـ ١٦ الف جنيه . فالغبن واضح في قلة اكتتاب الفلسطينيين والاردنيين وكان يجب على الحكومة أن تشترط على الشركة أن تكون الاولوية في الاكتتاب للعرب الفلسطينيين والاردنيين بما لا يقل عن ٥٠٪ من الاسهم التي تعرض للاكتتاب العمومي .

ان القصد من ذلك هو سد فم العرب ببضع مئات من الاسهم تباع لهم حتى يقال لهم انكم قد اشتركتم معنا في المشروع ، والقصد من ذلك أيضا هو أن يتمكن مديرو هذه الشركة في المستقبل عندما يلزم الامر لايجاد عدة ملايين من الجنيهات لأجل توسيع المشروع من أن يقولوا للممولين في الخارج ان الشركة قد دخلها جميع العناصر ففيها انجليز وفيها يهود وفيها عرب فلا خوف من مقاومة العرب لها .

وتمكينا للشركة واطلاقا ليدها في التصرف نصت المادة ٢٢ من عقد الامتياز « يؤتى بالعمال من فلسطين وشرقي الاردن ولكن يمكن استخدام عمال من الاجانب بتصريح من الحكومة »(٦٦) .

ومما نلاحظه على هذه المادة هو الغموض حول نسبة تشغيل العمال الفلسطينيين والاردنيين وبدون تبين نسب واضحة لهم ولا لمدى خبرتهم . ولو كانت الحكومة المنتدبة بعيدة عن المحاباة لادخلت نصا على الامتياز يحتم على آخذ الامتياز أن ينتخب موظفيه بالنسبة الى عدد السكان « ولكن الشغل في هذا المشروع يقوم به عمال يهود عدا عدد قليل جدا من العمال العرب الذين تستخدمهم الشركة ذرا للرماد في عيون عرب فلسطين وشرق الاردن ، ان حكومة فلسطين كل عام تعطي الرخص اللازمة للجنة الصهيونية لأجل ادخال مهاجرين الى فلسطين ، آخذة في الاعتبار عدد اليهود الذين يلزم استخدامهم في البحر الميت ، فيكون نتيجة ذلك ان عدة مئات في كل سنة يدخلون الى فلسطين باسم أنهم سيشتغلون في البحر الميت وبعد أن يشتغلوا قليلا أو لا يشتغلون أبدا ، تطلب اللجنة الصهيونية عددا آخر لأجل نفس العمل في البحر الميت ... وان أقل عامل يهودي يأخذ ثلاثمائة مل يوميا ، في حين أن أكثر أجرة تدفع لأي عربي هناك هي ١٥٠ ملا ، بقطع النظر عن أن عدد العمال العرب ضئيل جدا والقصد من تشغيلهم هو التضليل والتمويه »(٦٧) .

وخلاصة القول ان المادة الآنفة الذكر سمحت للشركة بفتح ابواب العمل للمهاجرين اليهود وبذلك تزيد قدرة فلسطين على استيعابهم .

الضرائب تحسم من العوائد والارباح المستحقة على الشركة : اذا فرضت في المستقبل ضريبة على الاملاح المستخرجة أو صادراتها أو ضرائب على ارباح أو دخل ، فيما تدفعه الشركة فيها يحسم من العوائد والارباح المستحقة عليها للحكومة(٦٨) .

لقد كان محتملا ان تحسم هذه الضرائب من نصيب الحكومة من الارباح فقط ، أما العوائد فأمر لا يحتمل المساومة لأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود الثروة القومية واستغلالها، والشأن كذلك في الضرائب، فهناك من الضرائب ما يعتبر الاحجام عن دفعها ماسا بهيبة الدولة وسيادتها في الداخل مما لا يصح التهاون فيه . ولكي تغطي الحكومة المنتدبة هذا النقص الناشيء عن الاعفاءات المتعددة والتسهيلات التي منحتها لشركات الامتياز ، كانت تفرض ضرائب على الفلاح العربي ممعنة في الغلو ومفروضة على ضرورات المعيشة .

٣ ــ امتيازات أراضي الحولة

تقع منطقة الحولة ومستنقعاتها في اقصى شمال فلسطين . وحدودها هي شرقا سوريا وشمالا سوريا ولبنان وغربا طريق طبريا شمالا فحدود لبنان وجنوبا طريق طبريا شرقا لجسر بنات يعقوب . وكان مستقبل الاعمال الصهيونية في فلسطين مرتبطا كل الارتباط بالمياه التي تجري وتتجمع في هذه المنطقة ، فالانهار الأخرى الموجودة في فلسطين مثل نهر العوجة طاقتها المائية قليلة ولا تكفي الاراضي التي تجري فيها .

لقد كانت الصهيونية تتطلع الى منطقة المياه هذه واسست هناك بعض المستعمرات واقدمها واهمها مستعمرة روشبيناه على اراضي قرية الجاعونة العربية قرب جسر بنات يعقوب الذي يصل سوريا وفلسطين . وازداد هذا التطلع بعد الانتداب فقد أصبح الحكم في فلسطين يحقق كل ما تبتغيه الصهيونية . وصار من أكبر أهدافها أن يكون لها مواقع قوية في هذه المنطقة الستراتيجية نظرا لأهمية منابع المياه وتجمعها في هذه المنطقة واثرها في الاستيطان الصهيوني .

اضافة الى مستقبل الدفاع عن هدف الغزو ، وهو فلسطين ، يحتم ان تكون هذه المنطقةالجبلية المتاخمة لسوريا منيئة بالحصون والقلاع ثم لتكون هذه المنطقة بالذات في المستقبل منطقة دفاع طبيعية . ان هذه المنطقة في الأصل جزء من سوريا وفي اتفاقية سايكس ــ بيكو السرية التي وقعت بين فرنسا وانكلترا في مايو (أيار) ١٩١٦ بقيت كذلك جزءا من سوريا . ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وفي المحادثات التي دارت بين كلمنصو رئيس وزراء فرنسا ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، اتفق على تعديل اتفاقية سايكس ــ بيكو السرية وكان هذا التعديل لمصلحة انكلترا . ثم صار تعديل جديد لمصلحة الاطماع الصهيونية باتفاق انجلترا وفرنسا وأخرجت بموجبه منطقة الحولة والمرتفعات الجبلية الشمالية من الحدود السورية وأدخلت ضمن حدود فلسطين(٦٩) .

تبلغ مساحة هذه المنطقة ما يقارب من ٢٣٧ ألف دونم . غير ان أراضي الحولة الحقيقية هي تلك الاراضي المنخفضة في هذه المنطقة والمبينة في الفقرتين ب وج أدناه والتي تبلغ مساحتها ٢١٨ ألف دونم(٧٠) : أ ــ الاراضي الجبلية الواقعة في أقصى الشمال ١٩٠٠٠ دونم والممتدة حتى حدود سوريا . ب ــ الاراضي الوسطى والقسم الغربي ١٦١٠٠٠ دونم والممتدة جنوبا وشرقا حتى بنات يعقوب . ج ــ أراضي الحولة ومستنقعاتها وبحيراتها ٥٧٠٠٠ دونم المعروفة بمنطقة امتياز الحولة .

وتشمل المنطقة المنخفضة من الحولة اجود أراضي فلسطين ويمكن استعمالهـا كأراضي سقي لتدفق المياه اليها من نهر الحصباني وانهر صغيرة أخرى تلتقي جميعها في منطقة تبعد ١٤ كيلومترا الى الشمال من بحيرة الحولة حيث يتكون نهر الاردن وينحدر هذا النهر جنوبا الى بحيرة الحولة جنوبا الى البحر الميت مارا ببحيرة طبريا .

والمعروف ان بحيرة الحولة كانت عبارة عن مستنقع كبير تكوّن نتيجة هزة ارضية تسببت في ظهور نتوء بارز في مجرى نهر الاردن في الجزء الجنوبي منه عند خروجه من البحيرة ، مما أعاق مجراه وجعل مياهه تفيض على ضفتيه وتركد على الاراضي المحيطة به ، وخصوصا في فصل الشتاء حيث تزداد مياهه بفعل السيول والقنوات وذوبان الثلوج من قمم الجبال المحيطة. وفي كل عام كانت رقعة الفيضان تزداد حتى شكلت مستنقعا كبيرا(٦٧) مساحته (٥٧) ألف دونم (١٥ الف فدان) وأصبح هذا المستنقع موطنـا للأمراض وخصوصا الملاريا ونبتت فيه الاعشاب البرية. وتلافيا لهذا الغرض ولكي تكون المنفعة من استعمال تلك الاراضي أعم منحت الحكومة التركية في شهر يونية (حزيران) ١٩١٤ محمد عمر بيهم(*) وميشيل سرسق امتيازا بتجفيف هذه الاراضي واحيائها(٧١) لمدة معينة وتوزيعها ببدل معقول على المزارعين . وقد وضعت في صيغة الامتياز شروطا بتشكيل شركة لهذا الغرض يحمل أسهمها عثمانيون ولا تنتقل لغيرهم . وقد شكل أصحاب الامتياز الشركة باسم (الشركة السورية العثمانية الزراعية المحدودة) لتنفيذ الالتزام . الا ان مداهمة الحرب العالمية الاولى حالت دون بذل الجهد المثمر في سبيل القيام بالامر ، فلما وضعت الحرب أوزارها أخذ سليم علي سلام — صاحب معظم الاسهم في الشركة — تفويضا من الشركاء وقام بمساع طويلة لدى الحكومة البريطانية لتثبيت صحة تملكه للامتياز(٧٢) وبمساعدة الامير فيصل بن الحسين تمكن من تثبيت حقوقه وحقوق شركائه في الامتياز ثم نشط في عمليات التجفيف(٧٣) .

غير ان اليهود الذين كانوا يقدرون قيمة الارض ، اخذوا يسعون معه تارة لحمله على التنازل لهم عن الامتياز وتارة مع الحكومة لحملها على الوقوف منه موقف المعرقل لنشاطه والمشجع على التنازل. وأخيرا نجحوا فاتفق معهم على التنازل عن الامتياز ، فحولت الشركة السورية العثمانية الزراعية الآنفة الذكر الامتياز في اليوم الثالث في شهر اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٤ الى شركة صهيونية هي شركة تحسين الاراضي الفلسطينية المحدودة(٧٤) مقابل ١٩٢ الف جنيه استرليني(٧٥) وقد تذرع صاحب الشركة سليم علي سلام بكثرة النفقات التي يتطلبها المشروع وبقرب انتهاء مدة الامتياز والخوف من فقدانه .

ووافقت الحكومة المنتدبة على هذا التنازل . على ان الانكليز لم يكونوا بعيدين عن التنازل للشركة الصهيونية . فقد وضعوا هم الاسس التمهيدية لسحب الامتياز ، وذلك عقدهم بامتياز الكهرباء المعطى لليهود عام ١٩٢٦ ينص على عدم حق الشركة الكهربائية في اي عمل يقلل أو يخل بالحقوق والسلطات والامتيازات الممنوحة قبل ذلك التاريخ بما في ذلك الممنوح منها في العهد العثماني . (أ) الامتياز المؤرخ ١٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٢١ الممنوح لبنحاس روتنبرغ لاستخدام مياه حوض العوجا في توليد الطـاقة الكهربائية

---

* ــ محمد بيهم وسليم علي سلام ورفاق لهم هؤلاء كانوا في الحركة الاصلاحية البيروتية والحكومة التركية في ذلك الحين كانت بيد الائتلافيين الذين كانوا يجنحون الى مرضاة العرب فمنحتهم الامتياز (انظر محمد عزة دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، ج ٣ صيدا ١٩٥٠ ص ٩) .

وتوريدها والمستقر الآن في شركة يافا الكهربائية والمعروف « بامتياز العوجا » أو (ب) الامتياز الممنوح من بلدية القدس سنة ١٩١٤ لتوليد الكهرباء .. أو (ج) الامتياز الممنوح من الحكومة العثمانية في شهر يونية (حزيران) سنة ١٩١٤ لمحمد عمر بيهم وميشيل سرسق بشأن أراضي الحولة . فنجد الفاظ الفقرات أعلاه تعطى مدلول الحفاظ على تلك الامتيازات كشأن الامم والحكومات التي تحافظ على ارتباط الشرف وحرمة التعاقد ولكن حين نقرأ الفقرة (د) تتضح لنا الحقيقة البريطانية وندرك ان بريطانيا كانت تبيت ــ لتلك الامتيازات ــ مع الصهيونية أمرا ، تقول الفقرة (د) : أية امتيازات تمنح بدلاً من الامتيازين المذكورين أعلاه تحت (ب) و(ج) هي تنفيذ لأحكام البروتوكول الملحق بمعاهدة لوزان التي تقضي بأن تكون بعض الامتيازات الممنوحة في المملكة العثمانية موافقــة للأحوال الاقتصادية الحديثة للمدة والمدى اللذين تكون فيهما تلك الامتيازات سارية أو قابلة التنفيذ .

وسرعان ما اسرعت بريطانيا الى الغاء الامتياز الممنوح من بلدية القدس سنة ١٩١٤ لتوليد الكهرباء لأحد اليونانيين واسمه مافروماتيس وجعل تنوير القــدس لروتنبرغ اليهودي لولا ان اقامت حكومة اليونان دعوى أمام محكمة لاهاي الدولية فقضت ببقاء الامتياز القديم(٧٦) وانتقلت أراضي الحولة الغنية المهمة الى الايدي اليهودية ، ولو كانت الحكومة المنتدبة مهتمة بشؤون الفلاح العربي لما وافقت على التنازل ولكانت قد قامت بالمشروع على حساب الخزينة ووزعت الاراضي المستصلحة على مزارعي العرب المحرومين من الارض والذين طالما اشارت الى مشكلتهم تقارير اللجان المتعددة .

وقد جاء في تقرير خبيرها السر جون سمبسون سنة ١٩٣٠ عن هذا الامتياز « اذا رجع امتياز الحولة الى الحكومة فيجب أن تحتفظ الحكومة بالاراضي لأجل مشــاريع التحسين ، ان هذه الاراضي من أخصب أراضي فلسطين(٧٧) .

وجاء في تقرير خبيرها الثاني فرنش سنة ١٩٣١ « وقد قلت سابقا ان كل مستنقع الحولة يجب أن يعتبر وحدة لا تتجزأ في مشاريع التحسين ، ولأجل تأمين هذا التحسين فمن الضروري أن يدخل ضمن أعمال الحكومة الارض بأجمعها والمياه »(٧٨) .

ولما كان هذا الامتياز يعود بطبيعة الحال الى الحكومة لعجز صاحبه الاول عن القيام بشروط الامتياز في المدة المضروبة ، فان الحكومة بدلا من الترحيب بهذه العودة اخذت على نفسها ان تكون الوسيط الفعال في نقل الامتيــاز من صاحبه الى الشركــات اليهودية .

وقد اراد المندوب السامي لحكومة فلسطين ارثر واكهوب ان يبرر موقف الحكومة بشأن هذا الامتياز فقال في اجتماع تم بينه وبين اللجنة التنفيذية العربيــة في صيف ١٩٣٤(٧٩) : ان الحكومة لا يمكنها ان تقوم بالتجفيف المطلوب في الامتياز لضخامة نفقات المشروع . ويقول الخبراء ان تجفيف أراضي الحولة يكفيه ٧٥٠ الف جنيه فقط ليكون دخلها السنوي بعد ذلك نصف مليون جنيه(٨٠) .

وفي الوقت الذي تدعي فيه الحكومة ان لا طاقة لها بتجفيف هذه الاراضي فانها قررت صرف ١٧٠ ألف جنيه في هذه المنطقة لأعمال مقاومة الملاريا التي كانت يجب أن تقوم بها الشركة اليهودية صاحبة المشروع(٨١) .

ولم تكتف الحكومة بما فعلته ، بل استرسلت في جورها ومحاباتها فأعفت أصحاب

الامتياز اليهود من دفع خمسين الفا من الجنيهات كان يجب عليهم دفعها بموجب الامتياز كما أعفتهم أيضا من دفع الضرائب لمدة خمس عشرة سنة(٨٢) .

وبقصد تمكين أصحاب الامتياز من وضع يدهم على هذه الاراضي وطرد المزارعين العرب منها أصدرت السلطة المنتدبة قانون (حدود) امتياز الحولة رقم ٦ لسنة ١٩٣٨(٨٣) ولم يعترف هذا القانون بحقوق المزارعين العرب الذين شرعوا يزرعون ما جففوه منذ زمن العهد التركي حتى أصبحوا يتمتعون بحقوق المزارعة ووضع اليد طيلة عشرين سنة الا بمساحة لا تتجاوز ١٥٫٧٧٢ دونما متريا(٨٤) وعدد هؤلاء المزارعين المنكوبين بسبب تحويل الامتياز الى اليهود هو (١٥٠٠) عائلة .

وفي تقرير السرجون سمبسون ان القطعة الكافية في هذه الاراضي للعائلات العربية لا تقل عن (٦٠) الف دونم(٨٤) ، أي ٤٠ دونم للعائلة الواحدة لكي تعيش على الحد الادنى ، ولكن الحكومة لم تخصص لهم الا بمعدل (١٠) دونمات للعائلة وذلك انقص بكثير من القطعة الكافية المقدرة(٨٥) وعلى قلة هذه الاراضي التي احتفظ بها المزارعون العرب فان الحكومة المنتدبة وضعت الاسس التمهيدية لسحبها منهم فاشترطت الفقرة (٢) من المادة (٢) من القانون الآنف الذكر جواز تعديل في حدود هذه المنطقة ، وهذا الشرط جاء ليستخدم لصالح الاراضي اليهودية وضم الاراضي العربية لها .

ولكي تطرد السلطة المزارعين العرب من هذه الاراضي التي استولى عليها اليهود بموجب الامتياز فانها فرضت العقوبات بالحبس والغرامة على كل مزارع يمارس أي حق في هذه الاراضي(٨٦) وكان بعض الاهالي في هذه المنطقة يعيشون على صيد السمك من بحيرة الحولة ، فمنحت السلطة المنتدبة رخصة مطلقة باصطياد السمك لأصحاب الامتياز تجيز لهم دون سواهم اصطياد السمك من المياه المشمولة في منطقة الامتياز . واعفتهم من اي بدل ايجار لقاء هذه الرخصة ، سوى دفع رسم سنوي قدره (٥٠٠) مل(٨٧) .

ان ما انطوت عليه احكام المواد الآنفة الذكر هو تسهيل لأصحاب الامتياز وتضييق على غيرهم حتى يمكن اتباع سياسة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، ولكي يحقق لهذه السياسة النجاح لم يكن من الممكن أن تحفظ للعرب اراضيهم وتضمن الاستفادة لهم من الثروة السمكية .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه النكبة اخراج أهل الحولة من هذه الاراضي التي استوطنوها منذ مئات السنين وتشريدهم في كل مكان ونزول اليهود مكانهم فيها . وقد استطاعوا انشاء مستعمرات على ضفاف بحيرة الحولة مثل جولاتا ومستعمرة يسود همعلا ، وصار سكان هذه المستعمرات يعيشون على صيد السمك من بحيرة الحولة .

ان حصول الصهيونية على امتياز اراضي الحولة لم يعطها مساحات من الارض ثمينة وخصبة يستفاد منها في تحويل آلاف اليهود الى مزارعين يرتبطون بالارض فحسب، وانما أعطى لها ميزة السيطرة على موقع استراتيجي هو الجليل الشرقي .

خلاصة

تميزت الحياة الاقتصادية الفلسطينية بالميزات التي نجدها في اقتصاد المستعمرات ، اي بتطفل عدد صغير من الاحتكارات ــ صناعية ومالية وزراعية ــ على اقتصاد متأخر نسبيا . فقد بادرت الحكومة المنتدبة الى تسليم الشركات الاحتكارية الصهيونية عن طريق

الامتياز منبعي الثروة في البلاد وهما القوة الكهربائية وموارد الصناعة الكيمياوية . فمنح امتياز لاستثمار واستغلال مساقط نهر الاردن واليرموك ونهر العوجا لتوليد القوة الكهربائية الى الصهيوني بنحاس روتنبرغ . وبالنظر لشروط الامتياز يتبين ان الخطر العظيم في المشروع هو استيلاء الشركة صاحبة الامتياز على المياه في فلسطين وشرق الاردن دون مقابل وحرمان البلدين من القيام بمشروعات ري في أراضيهما الخصبة الواقعة على نهر الاردن . واستغلال هذه الاراضي لمشروعات الشركة دون دفع أي تعويض . كذلك يحول أصحاب شركة الكهرباء الفلسطينية دون استعمال مياه نهر العوجا لري البساتين في السهل الساحلي . ينتج من هذا بطبيعة الحال تأخر الزراعة الفلسطينية وعجزها عن سد احتياجات السكان .

ومنح امتياز لاستثمار واستغلال الاملاح والمعادن من البحر الميت الى وكيلي شركة البوتاس الفلسطينية وهما نوفومسكي وتولوك وبهذا الامتياز سيطر الصهيونيون على موارد الصناعة الكيمياوية في فلسطين. وعرض ل. شتين في كتابه الصهيونية أهمية هذين المشروعين فقال « مشروعان عظيمان انصرف اليهما اليهود بعظيم الجهود : استثمار القوة المائية في فلسطين على يد شركة الكهرباء ، واستغلال معادن بحرها الميت على يد شركة البوتاس . في كلا المشروعين أعمل اليهود ما أوتوه من حسن المبادرة ومزية الاقدام ، وما أحرزوه من حذق ومهارة في تطبيق العلم ، ومن وراء ذلك كله ، قوة المال اليهودي . وان ذلك لدور فاضل من أدوار الاحداث الكبيرة التي حددت مستقبل فلسطين الصناعي »(٨٨) .

أما أهمية هذه المشاريع بالنسبة للزعيم الصهيوني حاييم وايزمان فيقول : « ان مستعمرتي ناحلال وداغانيا ، والجامعة العبرية واشغال روتنبرغ الكهربائية وامتياز البحر الميت — هذه كانت بالنسبة لي سياسيا أكثر من جميع الوعود الصادرة عن الحكومات العظمى والاحزاب السياسية الكبرى ، وما ذلك نقص مشاعر احترامي نحو الحكومات والاحزاب او الانتقاص في الاعتبار الواجب للتصريحات السياسية ، وانما لأن التصريح — في اعتقادي — يكون حقيقيا فقط عندما يوازيه انجاز لعمل في فلسطين . ان التصريح يعتمد على الآخرين أما العمل فلا يعتمد الا علينا نحن ، هذا كنه حياتي الصهيونية(٨٩) .

وغير هذين المشروعين فقد سلمت الحكومة المنتدبة لليهود امتيازاً لأراضي الحولة . وهذه الاراضي تمتاز بالخصوبة وهي منطقة تجمع المياه في فلسطين اضافة الى موقعها الاستراتيجي . فالاهمية الاقتصادية لتجفيف هذه الاراضي هي تجفيف مساحة من الارض قدرها ٦٠ الف دونم (١٥ الف فدان) تصبح صالحة للزراعة عن طريق الري ٢ — ان تجفيف هذه المستنقعات ومنع الفيضانات الموسمية سيؤدي الى خفض مستوى المياه من ٢ — ٣ قدم تحت سطح الارض وبذلك تتحسن مساحات أخرى تبلغ عشرات الآلاف من الدونمات التي ليست في حقيقتها مستنقعات ، بل السيول المرتفعة منعت استعمالها للزراعة عن طريق الري. وقد قامت اسرائيل بمشروع اسكان الف عائلة بهذه المنطقة وبناء عدة مدن أهمها بلدة كريات شمونة عدد نفوسها ٢٠ الفا ومدينة حاشور ، وأصبح هناك كيان اقتصادي سليم لسكان المنطقة الذي بلغ عددهم مع سكان الكيبوتسات نحو ١٠٠ الف نسمة(٩٠) .

ان منخفض هذه المنطقة وهو الحولة بالاضافة الى كونه موقع تجمع مياه الانهار المتدفقة من الشمال ، يجعله أنسب مكان للتحويل ، وقد وضحت هذه القيمة بعد أن

قامت اسرائيل بمشروعها لاستغلال نهر الاردن في ارواء النقب بهدف استيعابه واقامة المستوطنات فيه ليصبح خط دفاع استراتيجي عميق في مواجهة مصر .

وباستيلاء الصهيونيين على هذه المشاريع فتحت أبواب العمل لعشرات الالوف من المهاجرين اليهود وبذلك زادت قدرة فلسطين على استيعابهم اقتصاديا .

وعن طريق سيطرة الصهيونية على مصادر الثروة الفلسطينية منعت اي تقدم يتطلع اليه العرب صناعيا وزراعيا وفي ذات الوقت فتحت ابواب التقدم والتطور والازدهار أمام الاقلية اليهودية .

لقد أثرت الحالة الاقتصادية على مستوى العرب الفلسطينيين فتسببت في هبوط مستواهم واصابهم الفقر والبطالة . لأن اصحاب المشاريع الصناعية فضلوا العمال اليهود على العرب هذا الى جانب طرد الفلاحين من الاراضي التي استولوا عليها . وعلى النقيض من ذلك نجد أن مستوى اليهود الاقتصادي قد ارتفع جدا بفعل هذه المشروعات وغيرها من عشرات المشروعات الصناعية والزراعية التي عمل فيها آلاف العمال اليهود .

وبمنح السلطة المنتدبة هذه الامتيازات الى الصهيونية فانها منحتهم اقامة قاعدة مضمونة في البلاد .

---

١ ـ الامانة العامة لجامعة الدول العربية ـ ادارة فلسطين : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين المجموعة الاولى (١٩٥١ ـ ١٩٤٦) القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ Newten, France : *Fifty Years in Palestine* (Harbour Press Ltd., London and Brussels), 1948 p. 213.

٣ ـ تطلق كلمة الامتياز على الاذن الصادر من الادارة الى احد الافراد او الشركات لاستغلال مورد من موارد الثروةالطبيعية .

٤ ـ سعيد حمادة ، النظام الاقتصادي في فلسطين ، المطبعة الاميركانية الجامعة الامريكية بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٦٧ وهو بدوره يستند على

Report on Palestine and Trans-Jordan submitted to the council of the league of Nations, 1930 p. 128.

٥ ـ أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، مطبعة الحلبي، مصر (د٠ت) ج ٢ ص٢٣٧

٦ ـ Sykes, Christopher : *Cross Roads to Israel* (Collines-Clear-Type Press, London), 1965 p. 144

٧ ـ Hobman. J.B. *Palestine's Economic Future* (Pexculand-V Humqhries and Co., Ltd., London, 1946 p. 190.

٨ ـ Hansards Parliamentary Debates-House of Commons 5th series, Vol G (1917), 155 (1922) p.p. 293-294.

٩ ـ Frances Newten, *op. cit.*, p. 213

١٠ ـ أكرم زعيتر ، القضية الفلسطينية ، دار المعارف ، بمصر ، ١٩٥٥ ، ص ٦٥ .

١١ ـ روبرت هاري داريتون مجموعة المناشير والاوامر والقوانين الفلسطينية ، أربعة مجلدات ، مطبعة دير الروم ، القدس ، سنة ١٩٣٦ ، ص ٧٢٦ ـ ص ٨٣٨ .
نهر العوجة نهر صغير يبلغ مقدار تفريغه

٨ر٥ متر مكعبا في الثانية ومصدره الى الشمال الشرقي من يافا ومصبه في البحر المتوسط شمالي تل أبيب ولا يمكن الاستفادة من مياهه لأجل الري الا بواسطة المضخات ٠ وقد أعطى امتيازه أولا الى شركة فلسطين الكهربائية لتوليده قوة كهربائية منه ، على انه اذا ظهر بعد ذلك بزمن أن لا حاجة لتوليد الكهرباء منه فاستعيض عن الامتياز الاول بامتياز اخر تنحصر غايته في مشاريع الري ومنح لشركة فرعية وهي شركة يافا الكهربائية والمعروف بامتياز العوجة وهذه الشركة تابعة للشركة الاولى شركة فلسطين الكهربائية ٠

١٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ الى ص ٧١٩ ٠

١٣ ـ د٠ عزة النص ٠ المياه ومشاريع الري في بلاد الشام ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٥٣ ٠

١٤ ـ عبد الرحمن علي الكردي ، وادي الاردن وامتيازاته ومشروعاته ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٩٩ ٠

١٥ ـ سعيد حمادة ، مصدر سابق ، ص ٣٦٩

١٦ ـ المصدر نفسه (راجع الجدول ٢٦) ص ٣٦٩ ، ص ٣٧٠ ٠

١٧ ـ داريتون ، مصدر سابق ، ص ٧٠٧ ٠

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ٠

١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ٠

٢٠ ـ سعيد حمادة ، ص ٦٨ ٠

٢١ ـ داريتون ، ص ٧٠٧ ٠

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ٠

٢٣ ـ المصدر نفسه ، مرسوم دستور فلسطين، ص ٣٣٠٤ الى ٣٣٢٩ ٠

٢٤ ـ المصدر نفسه ، قانون (نزع ملكية) الاراضي ، ص ٩٥٥ ٠

٢٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ٠

٢٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧

٢٧ ـ المصدر نفسه

٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ٠

٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ٠

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ٠

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ٠

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢٦ ٠

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٠٧ ٠

٣٤ ـ
Sykes, Christopher, *op. cit.*, p. 114

٣٥ ـ المصدر نفسه ٠

٣٦ ـ سامي وفا الدجاني (تاريخ البحر الميت والطرق المتبعة لاستخراج الاملاح والاستفادة منها) مجلة الاقتصاديات العربية القدس عدد ٢٧ ديسمبر ١٩٣٥ ص ٩ ٠

٣٧ ـ المصدر نفسه ٠

٣٨ ـ المصدر نفسه وكذلك رياض حمدي قولي وادي الاردن البحر الميت ، دمشق ١٩٦٥ ص ٤٧ (رسالة ماجستير) وسعيد حمادة مصدر سابق ، ص ٧٥ ، وهو بدوره يستند الى عديد من المراجع العلمية والسياسية ٠

Novemeysky, M. : *The World Potash Industry and the Dead Sea, Palnews Economic Annual of Palestine*, 1936, p. 127.
Raczkowski, H. : *The Dead Sea chemical* industry (London N.D.). p.p. 27. 28.
Blake, G.S. : *The Mineral Resourses of Palestine and Trans Jordan* (Jerusalem, 1930), p. 4.

٣٩ ـ د٠ نجيب صدقة ، قضية فلسطين ، دار الكتاب ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ١٠٢ ٠

٤٠ ـ مجلة الاقتصاديات العربية (بيان شركة بوتاس فلسطين) العدد ٦ ، مارس ١٩٣٥ ، ص ٢٣ ٠

٤١ –

Frances Newton, *Op. Cit.*, p. 213.

وتقول الانسة فرنسيس نيوتن في كتابها أيضا « ضمنت معاهدة الصلح التي عقدت في لوزان بسنة ١٩٢٣ مشروعية الامتيازات الممنوحة لرعايا تركية ورعايا الحلفاء .. وبحكم الانتداب حلت بريطانيا محل تركيا ، وكانت الحكومة التركية قد منحت امتيازا لاستثمار أملاح البحر الميت لثلاثة من رعاياها وذلك بفرمان سلطاني ١٩١٢ ، وحالت حرب البلقان ، ثم الحرب العالمية الاولى دون الشروع في الاعمال . ففي سنة ١٩٢٣ بيع هذا الامتياز التركي الى ميتلند ادوردس (بريطاني) وفي حينه بادر هذا المشترى الى مراجعة وزارة المستعمرات طالبا الاعتراف بالحقوق المنتقلة اليه وكان ذلك قبل عقد معاهدة لوزان فأجيب بعدم امكان النظر في الامر ريثما ينعقد الصلح مع تركيا ولكن وزارة المستعمرات لم تذكر اي سبب او علة عندما ابلغت المستر ادوردس رفضها النهائي ان تعترف بالامتياز التركي ، ولما عاد الكرة بعد عقد الصلح . اضطر ادوردس الى بيع امتيازه الى شركة فرنسية ليصبح له التقدم الى محكمة العدل الدولية وخشيت الحكومة البريطانية التعرض لاحتمالات المحاكمة فعرضت التحكيم ، وعادت فاشترطت للسير في التحكيم استعدادا من جانب الحكومة الفرنسية لدفع التعويض عما لحق البريطانيين من أضرار حرب دمشق ، فتراجعت حكومة الانتداب السوري عن نصر الشركة ، وهكذا آل هذا الامتياز الاكبر الى يد الصهيونية » .

٤٢ – جاء في الجريدة الرسمية لحكومة فلسطين عدد ٥٣٥ المؤرخ في ١٦ أيار ١٩٢٩ الشركات التي مدت شركة البوتاس الفلسطينية بالاموال هي : باسيل مونتغمري وشركاه ، لندن ، س. تنانت وأولاده وشركاهم ليمتد ، لندن ، بولنغ وشركاه ليمتد ، لندن ، ليسلي أوكوهرت رئيس الشركة الروسية الاسيوية ليمتد ، لندن ، ذي جووش كولونيال تراست ليمتد ، لندن ، ذي بالستاين ايكونومك كوربوريشن ، نيويورك ، وان مديري بعض هذه الشركات المذكورة أعلاه سيكونون أعضاء في مجلس ادارة هذه الشركة .

٤٣ – سعيد حماده ، مصدر سابق ، ص ٣٦٢ .

٤٤ – عبد الرحمن علي الكردي ، مصدر سابق ص ١٠٤ .

٤٥ – عيسى السفري ، فلسطين بين الانتداب والصهيونية ، يافا ، ١٩٣٧ ، ص ٩٨ .

٤٦ – سلسلة الوثائق العامة وثائق المقاومة الفلسطينية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١٣٢

٤٧ – عبد الرحمن علي الكردي ، مصدر سابق ص ١٠٤ .

٤٨ – مجلة الاقتصاديات العربية ، مصدر سابق ص ٢٣ ، ورياض حمدي تولي مصدر سابق ، ص ٤٣ .

٤٩ –

Who's Who : The Near and Middle East, « Palestine and Trans-Jordan (Europa Publications Ltd., London), 1945/1946, Vol. 1, Part 11, p. 302.

٥٠ –

Hobman, J. B. *OP. Cit.*, p. 137.

٥١ – الحكومة الفلسطينية الجريدة الرسمية رقم ٢٦١ والمؤرخة في ١٦ جزيران ١٩٣٠ . وقد صدر قانون رقم ٢٣ بتثبيت الامتياز المؤرخ في اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٩٣٠ والممنوح من قبل المندوب السامي الى شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة لاستخراج الاملاح والمعادن من البحر الميت بقدر ما يتعلق ذلك الامتياز بفلسطين ويخول المندوب السامي سلطة القيام بما هو مترتب عليه بمقتضى الامتياز بصفة المندوب السامي لفلسطين . (الجريدة الرسمية العدد ٦٦٧ المؤرخ في شباط ١٩٣٧) .

٥٢ ـ الحكومة الفلسطينية ، **الجريدة الرسمية** العدد ٢٦١ حزيران ١٩٣٠ ٠

٥٣ ـ الجامعة العربية ، **الوثائق الرئيسية** ٠

٥٤ ـ **الجريدة الرسمية** ، العدد ٢٦١ ، مصدر سابق ٠

٥٥ ـ **مجلة الاقتصاديات العربية** ، عدد ٧ لسنة ١٩٣٦ ، ص ١٥ ٠

٥٦ ـ صالح ابويصير ، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** ، ط ٣ بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٠٣ ٠

٥٧ ـ عودة بطرس عودة ، **القضية الفلسطينية في الواقــع العربي** ، المطبعــة الفنية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٢١ ٠

٥٨ ـ الحكومة الفلسطينية ٠ **الجريدة الرسمية**، (قانــون الاراضي استملاكهــا للغايات العامة) عدد ١٣٠٥ في ١٠ كانون الاول ١٩٤٣ ٠

٥٩ ـ الحكومة الفلسطينية ، **الجريدة الرسمية** العدد ١٦٤٣ في ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٨ ٠

٦٠ ـ المصدر نفسه العدد ٢٦١ في ١٦ حزيران ١٩٣٠ ٠

٦١ ـ محمد توفيق جانا ، **الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين** (شهادة فؤاد سابا) دمشق ، ١٩٣٧ ص ٢٧٣ ٠

٦٢ ـ **الجريدة الرسمية** مادة ١٣ ـ ١ ، ٢ ، ٣ من عقد الامتياز العدد ٢٦١ حزيران ١٩٣٠

٦٣ ـ **المصدر نفسه** ، مادة ١٠ ـ ١

٦٤ ـ **المصدر نفسه** مادة ١٨ ـ ٢

٦٥ ـ **المصدر** نفسه مادة ١٥ ـ ١

٦٦ ـ **المصدر نفسه** مادة ٢٢

٦٧ ـ **الوثائــق العامــة** مؤسسة الدراسات الفلسطينية (افتتاحية جريدة الجامعة العربية في ١٧/٢/١٩٣٣) ص ٣٠١

٦٨ ـ **الجريدة الرسمية** (عقد امتياز شركــة البوتاس الفلسطينية مادة ٢٦) عدد ٢٦١ حزيران ١٩٣٠ ٠

٦٩ ـ عودة بطرس عودة **مصدر سابق** ص ٣٢٤

٧٠ ـ **وثائق الهيئة العربية العليا** (ملف امتياز الحولة) مكتبة الهيئة بيروت ٠

٧١ ـ الحكومة الفلسطينية ، **الجريدة الرسمية** (قانون حدود امتياز الحولة) العدد ٧٧٠ المؤرخ في ٢٤ آذار سنة ١٩٣٨ ٠

٧٢ ـ محمد عزة دروزة **مصدر سابق** ص ٩١

٧٣ ـ عيسى السفري ، **مصدر سابق** ص ١١٠

٧٤ ـ **الجريــدة الرسميــة** ، عــدد ٧٧٠ مصدر سابق ٠
أسسها الصهيوني العتيق أرثر روبن في عــام ١٩٠٨ وقــامت بانشاء طائفة مــن المستعمرات اليهودية في شمال فلسطين أشهرها مستعمرة (دجانيا) التي أنشئت في نفس العام بجوار سفح على ساحل طبرية ٠

٧٥ ـ
Barbour, Nevil: «*Nisi Dominus*», Institute for Palestine studies, Beirut 1969 p. 122.

٧٦ ـ أكرم زعيتر ، **مصدر سابق** ، ص ٦٥

٧٧ ـ جون هوب سمبسون : **تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران** ، مطبعة دار الايتام القدس ، ١٩٣٠ ، ص ١٢٣ ٠

٧٨ ـ عمر ابو النصر ، **جهاد فلسطين العربية**، بيروت ١٩٣٦ ، ص ١١٨ ٠

٧٩ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١١٩ ٠

٨٠ ـ عيسى السفري، **مصدر سابق** ، ص ١١٠

٨١ ـ عمر ابو النصر ، **مصدر سابق** ٠

٨٢ ـ نديم البيطار **قضية العرب الفلسطينية** مطابع صادر ريحاني ، بيروت ، ١٩٤٧ ص ١٦٤ ٠

٨٣ ـ **الجريدة الرسمية** ، عدد ٧٧٠ آذار ١٩٣٨

٨٤ – المصدر نفسه ٠

٨٥ – جاء في تقرير جونسون – كروسبي « لكي يتسنى للعائلة الواحدة ان تعيش على الحد الادنى من الارض يحتاج المالك الذي يزرع الارض نفسه ٧٥ دونما بينما ان المستأجر يحتاج الى ١٣٠ دونما » (حكومة فلسطين ، تقرير اللجنة التي عينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب بالنسبة لتلك الحالة ، القدس ١٩٣٠، ص ٣١) ٠

٨٦ – قانون حدود امتياز الحولة مادة ٤ ٠

٨٧ – الجريدة الرسمية (رخصة مطلقة باصطياد السمك) عدد ٧٠٢ تموز ١٩٣٧

٨٨ –

Frances Newten *OP. Cit.,* 212

٨٩ –

Weizmann, Chaim : *Trial and Error* (Hamish Hamilton, London,) 1950 p. 477.

٩٠ – د٠ عزة النص ، مصدر سابق، ص ٨٠ ٠

مراجعات

Peggy Mann, *Golda : The Life of Israel's Prime Minister*, (Vallentine, Mitchell, London, 1972).

قراءة كتاب من هذا النوع تحتاج قبل كل شيء الى أعصاب متينة ، ليس فقط بسبب التزييف الفج والوقح للحقائق التاريخية ، ولكن أيضا بسبب اعتماده منهجية انتقائية مفرطة. لا تتوقف قبل أن تجعل من « غولدا مائير » الخير بذاته مجسدا ، ولا تتواضع باعفاء أية صفة انسانية طيبة دون أن تضفيها عليها ، بحيث ترتعد الاطراف فزعا اذا ما فكرنا لحظة واحدة بمصير هذا العالم بدون « غولدا » ، هذا اذا ما كان بالامكان تصور ذلك . وهكذا فان العناية الالهية قد خصت اليهود – مرة أخرى – بـ « أعظم امرأة في عصرنا » والتي باتت « واحدة من ثلاث نساء حكمن الدولة اليهودية خلال الـ ٢٠٠٠ سنة التي حكم اليهود فيها الاراضي المقدسة » ص ٣٣٣ .

حياة « غولدا مائير » بطبيعة الحال يصعب فصلها عن تاريخ المشروع الصهيوني ككل ، وعن الحياة السياسية في اسرائيل ومنذ انشائها . ولكن الكتاب يبدو غير معني على الاطلاق الا بوجه واحد من الصورة ، حيث اننا سوف نعدم وجود كلمة واحدة تشير الى الدور الذي لعبته « غولدا » في اتخاذ بعض القرارات الهامة خلال تاريخ اسرائيل ، فضلا عن أننا لن نقرأ كلمة واحدة ايضا تشير الى الصراعات المريرة والحادة التي شهدتها التركيبات السياسية الحاكمة خلال الخمسينات والستينات وعن مواقف « غولدا مائير » الخاصة خلالها . على أن التركيز سوف ينصب أساسا على تأكيد الاهمية الحيوية للايديولوجية الصهيونية بالنسبة لليهود وعلى تثبيت مسألة «الحقوق» التاريخية والدولية لانشاء وطن قومي بفلسطين، وبين ذلك التأكيد وهذا التثبيت هناك سرد لنتف من حياة « غولدا مائير » .

من هنا يتبدى المدى الذي انحدرت اليه فائدة هذا الكتاب ، طالما أنه حصر نفسه – بهدف ابراز الصورة المطلقة الايجابية – في ذلك النطاق الضيق والمكرر ، وعدا عن بعض المعلومات عن الحياة الخاصة لرئيسة الوزراء السابقة فان الكتاب يفشل حتى في أن يكون كراسا دعائيا ، ذلك لأنه ما زال هناك فاصل – ولحسن الحظ – بين العمل الدعائي وبين الكذب السافر .

●● في مدينة « كييف » بروسيا القيصرية وبتاريخ ٣ أيار ١٨٩٨ ولدت «غولدا موبوفتش»، ولكن والداها « موشي » و « بلوما » لم يعلقا أملا على حياتها لأنهما كانا قد فقدا خمسة أطفال ولدوا بين « غولدا » وبين اختها الكبرى « شانا » ، على أية حال كانت الحياة من نصيب الطفلة السادسة ، ثم ما لبثت العائلة أن رزقت بطفلة أخرى في ١٩٠٢ أسموها « تزبكا » . وكان والد الفتيات موشي يعمل نجارا لكنه اضطر بسبب سوء أحواله الاقتصادية الى بيع ورشته والهجرة الى الولايات المتحدة ، أما زوجته « بلوما » وأطفاله الثلاثة فلقد أرسلهم الى مدينة « بنسكا » ليعيشوا في

كتف جدهم وذلك حتى يتوفر له في أمريكا شيء من المال ليرسل لهم تذاكر الباخرة ، كان ذلك في ١٩٠٣ ، ولكن موشي لم يصب النجاح بسرعة وحتى استقر في مدينة « ميلووكي » وبفضل معونة من جمعية خيرية لمساعدة المهاجرين اليهود ، وما لبث أن أرسل في عام ١٩٠٦ تذاكر السفر لعائلته ، على أن تلك السنوات الثلاث التي قضتها غولدا طفلة في « بنسكا » لعبت دورا أساسيا في حياتها فيما بعد ، ذلك لأنها هنا عايشت مظاهر العداء للسامية وهنا عاشت الخوف والفزع ، كذلك فلقد كان لها في «بنسكا» أول تماس مع الافكار الصهيونية حين كانت أختها الكبرى « شانا » تشارك في نشاطات بعض التجمعات اليهودية والصهيونية ، ولكن لعل أهم تأثير تركته تلك الفترة هو ذهابها الى مدرسة ملحقة بالكنيس حيث تعلمت مبادىء اللغة العبرية .

استقرت العائلة الآن في « ميلووكي » وافتتحت « بلوما » مخزنا صغيرا لبيع الخضروات وبدأت « غولدا » تعمل مع والدتها في المخزن خلال المساء وتذهب الى المدرسة خلال الصباح ، وفي المدرسة الامريكية تقرر تغيير اسم اختها الصغرى من «تزبكا» الى «كلارا» ، أما أختها الكبرى « شانا » فلقد تزوجت وهي في العشرين من شاب يهودي مهاجر من روسيا أيضا . في ١٩١٢ حين كان عمر غولدا ١٤ سنة تشاجرت مع والديها اللذان كانا يريدان تزويجها ولا يرغبان ان تتابع دراستها ، وهكذا هربت غولدا من المنزل وذهبت لتعيش مع شقيقتها في « دنفر » وفي بيت اختها عاشت جوا سياسيا كاملا حيث كان يتواجد في المنزل كل مساء مهاجرون يهود عديدون ذوو اتجاهات سياسية متباينة بدءا من الماركسية وانتهاء بالصهيونية ، لكن الاخيرة كانت النظرية التي « تبدو لها أكثر عملية » . لماذا ؟ لأن « الكتاب المقدس كان مليئا بالشواهد والفقرات التي تقرر بأن الله قد أعطى هذه الارض لليهود ومنذ عشرين قرنا قبل مولد المسيح . لقد وعد الله العبري الاول - ابراهيم - باعطاءه هذه الارض » ص ٤٣ . ولكن غولدا لم تكن متدينة .. « في الحقيقة سواء اعتبرنا التوراة ككلام مباشر للرب أو اعتمدنا تقارير الفلاسفة والمؤرخين فان كل تلك تؤكد الحقيقة بأن اليهود عاشوا في فلسطين مدة تزيد بقرون عن المدة التي عاشها هناك أي شعب آخر ... وفي الواقع فان آلافا من العائلات اليهودية استطاعت أن تعيش في فلسطين بالرغم من الاضطهاد الذي استمر قرونا طويلة والذي وقع على البلاد منذ ان جعل الرومان القدس مسواة بالارض في سنة ٧٠ ب.م » ص ٤٤ .

لكن غولدا ما لبثت ان تشاجرت مع أختها واضطرت الى مغادرة المنزل وترك المدرسة ، ووجدت عملا في مكان لغسل الالبسة كذلك استأجرت غرفة في « دنفر » وسكنت وحيدة ، وفي تلك الفترة تعرفت على « موريس مايرسون » وبالرغم من أنه لم يكن « جميل الصورة .. الا انه كان ذا روح جميلة » كما كتبت الى احدى صديقاتها ، وفي تلك الفترة أيضا (عمرها الآن ١٦ سنة) ابتدأت بجمع النقود في الشوارع لصالح الصندوق القومي اليهودي ، على أن « موريس » لم يكن مهتما بشكل خاص بالسياسة أو « بالقضية » بل كان ذا اهتمامات أدبية وفنية .

عندما علم والداها بأوضاعها أرسلا يسألانها العودة حتى تتاح لها فرصة متابعة دراستها مرة أخرى ووافقا على أن لا يتدخلا في شؤونها الخاصة ، وهكذا كان على قصة غرامها ان تتعطل قليلا ولكن « موريس » وعد باللحاق بها الى « ميلووكي » كي يتزوجا .

خلال الحرب العالمية الاولى ساهمت غولدا بنشاط في جمعية « المساعدة عند الحاجة » لاغاثة اللاجئين والجائعين من يهود أوربا ، وخلال هذه الفترة كانت قد اتخذت قرارها بالسفر الى فلسطين ، وانتسبت الى حزب « بوعيل صهيون » وحين كتبت الى صديقها « موريس » عن نشاطاتها ومشاريعها كتب لها يقول : « .. بالرغم من انني أعطيك حقك الكامل في تلك النشاطات .. ولكن فكرة فلسطين أو أية أرض أخرى لليهود تبدو بالنسبة لي سخيفة » ص ٥١ ، وبالرغم من أن غولدا كانت على علاقة مع شبان عديدين وان « أربعة من كل خمسة شبان كانوا يقابلونها كانوا يقعوا في حبها » الا انها ظلت متعلقة

بـ « موريس » ، على أن هذا لم يحل دون مشاركتها بشكل واسع في النشاطات الصهيونية وفي عقد الندوات « لاقناع الشباب اليهودي في أمريكا بضرورة الكيان القومي » ·

في ١٩١٧ تزوجــت غولدا مــن « موريس مايرسون » بعد أن وعد بالسفر للحياة معها في أي مكان بالعالم حتى ولو بفلسطين ذلك « لأنه لا يستطيــع العيش بــدون غولـدا » وفي ١٩٢١/٤/٢٣ ركبت غولدا الباخرة في طريقها الى « الارض المقدسة » عـن طريـق « نابولي » ورافقها في تلك الرحلة زوجها واختها شانا مع طفليها الاثنين بالاضافة الى احدى الصديقات· وحين وصلت الباخرة الــى « نابولي » تعذر عليهم أخذ سفينــة أخرى الى حيفـا بسبب الاضطرابات التي سادت فلسطين بتلك الفترة· وهكذا استقلت المجموعة سفينــة اخرى الــى الاسكندرية ومنها تابعوا الرحلة بالقطار الى تل أبيب التي وصلوها بتاريخ ١٩٢١/٧/١٤ ·

عملت « غولدا مايرسون » مدرسة للانكليزية في مدرسة البنات الثانوية بتل أبيب ، وقدمت وزوجها طلبا للانضمام الــى كيبوتز مرحافيا وقبل طلبهما بعد أن رفض في ثلاثة اجتماعات متوالية (كان الكيبوتز يضم ٣٢ رجلا و ٨ نساء وكــان الرجال يرغبــون بانضمام نساء غــير متزوجات) ، وحين انتقلا الى الكيبوتز ابتدأت المشاكل مـع « موريس » الذي لـم يستطع ـ بعكسها ـ التلاؤم مع الحياة الجديدة ، ورفض علــى الاطلاق انجـاب الاولاد واشترط مغادرة الكيبوتز لتحقيق ذلك ، ورضخت غولدا « لأنها تحب زوجها » وانتقلت العائلة في ١٩٢٤ لتعيش في القدس وحصل « موريس » على عمل في مكتبــة ، وأنجبت غولدا طفـلا في ذات العام « مناحيم مايرسون » ، ولكـن لأنهــا كانت « تؤمن بالصهيونية أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم » أخذت طفلها وذهبت ثانية الــى الكيبوتز ، ثم ما لبثت أن عادت الى « الحياة التي أرادها لها زوجها أن تعيشها بعد ستة أشهر فقط » · وأنجبت طفلة أخرى في أيار ١٩٢٦ « سارة مايرسون » وظلت غولدا زوجة مطيعة حتــى عرض عليها عمـل كسكرتيرة « لجمعية المرأة العاملة » لأن « يهود فلسطين لا يمكنهم التبذير بهـذا الشكل فهـم بحاجة ماسة الى قدرات امرأة من هذا النوع » وحاولت جهدها توضيح الامر « لموريس » ولكن دون جـدوى ·· « لقد كانوا قـد ارتكبوا خطيئة الوقوع في حب بعضهما بعضا » ·

على أن « قدرات امرأة مـن هذا النوع » كانت محصورة تقريبا في اتقانها للانكليزية ، ونظرا لحاجة الوكالة اليهودية لشخص يضمن « كسب الفهم والتأييد للقضية الصهيونية في انكلترا » ص ٧٥ ، بدأت غولدا بالسفر وبشكل متواصل الى بريطانيا وباتت عنصر الاتصال بين الحركة الصهيونية هناك والمستوطنين في فلسطين ·

وفي ١٩٣٢ وحين كان عمرها ٣٤ عاما وبسبب من مرض ابنتها سارة تقرر ارسال غولدا الى الولايات المتحدة بمهمة نشر الدعوة « بأوساط اليهود الذين اندمجوا في الحياة الامريكية » · أخذت غولدا ولديها معها بينما استقر موريس في حيفا حيث عمل في شركة للاستيراد ، ومرة أخرى كانت رحلة غولدا الى أمريكا عن طريق مصر حيث اخذت الباخرة من بورسعيد · كانت هذه الرحلة نقطة تحول في ابراز فعالية ونشاط غولدا سواء على صعيد نشر الدعوة او جمـع التبرعات، وحين عادت بعد عامين الى فلسطين كافأتها «الوكالة اليهودية» بتعيينها في اللجنة التنفيذية للهستدروت · ولكن شمل العائلة لم يلتئم مرة أخرى حيـث ظل موريس في حيفا واستقرت غولـدا والاولاد في « تـل أبيب » ، « وشعر الطرفان أن سعادتهما كانت أكبر حين كانا بعيدان عن بعضهما بعضا » (ص ٩٠) وهكذا فلقد قررا « الانفصال غير الشرعي » ·

عقب عام واحد فقط (١٩٣٥) انتخبت غولدا لتصبح سكرتيرة اللجنة التنفيذية للهستدروت· وفي عام ١٩٤٦ حين تم اعتقال «موشي شرتوك» رئيس الدائرة السياسية في الوكالة ، ونظرا لغياب رئيس الوكالة ـ دافيد بن غوريون ـ خارج البلاد ، تم اختيار « غولدا مايرسون » لتصبح فجأة « ممثلة الهستدروت وكـل يهود فلسطين في كـل المحادثـات السياسية مـع البريطانيين » (ص ١٢٨) ·

علــى أن نشاطات غولدا في الفترة التـي

سبقت ذلك التاريخ كانت تؤهلها لاحتلال مثل هذا المنصب ، ففي عام ١٩٣٨ شاركت بأول مؤتمر دولي وكان : مؤتمر « ايفان » الذي دعى اليه الرئيس الامريكي روزفلت لايجاد الطرق الكفيلة بانقاذ الاقليات المضطهدة في ألمانيا والنمسا ، وهناك صرحت – وكان هذا على الاغلب أول تصريح تنقله الصحافة لها – « هناك فكرة واحدة موجودة الآن في رأسي ، هناك أمر واحد أود رؤيته قبل موتي ، وهو أن لا يحتاج شعبي مرة أخرى أي تضامن عاطفي من العالم » . كذلك شاركت غولدا بالوفد الذي ذهب الى بريطانيا للاعتراض على صدور « الكتاب الابيض » في عام ١٩٣٩ . أما حين اندلعت الحرب العالمية الثانية فلقد كانت غولدا واحدة من الذين طبقوا شعار بن غوريون بشكل نموذجي « سوف نقاتل في الحرب وكأن الكتاب الابيض لا وجود له ، وسوف نقاتل الكتاب الابيض وكأن الحرب لا وجود لها » .

وهكذا كانت غولدا « تعمل في النهار لصالح المجهود الحربي للبريطانيين والحلفاء ، وتعمل في المساء أحيانا وبشكل سري ضد البريطانيين » ، وتركز نشاطها في تلك الفترة في « لجنة المهاجرين غير الشرعيين » وأصبح منزلها بحكم اطلاله على البحر مركز الادارة لهذه الجمعية التي نجحت في تسريب عدة آلاف من اليهود الى فلسطين .

خلال الفترة القصيرة بين قرار التقسيم من هيئة الأمم وبين انتهاء الانتداب البريطاني كانت الوكالة وهي تعد نفسها للحرب القادمة بحاجة ماسة للاموال ، وقرر « بن غوريون » السفر مباشرة الى الولايات المتحدة لجمع مبلغ ٢٥ مليون دولار من يهود أمريكا ، الا أن « غولدا » أصرت على أن تحل مكانه بهذه المهمة « ما يمكنك فعله هنا لا يمكنني القيام به ، ولكن ما سوف تقوم به في أمريكا استطيع أنا انجازه » (ص ١٤٢) وهكذا سافرت غولدا الى أمريكا ، وفي أول محاضرة لها هناك قالت :

« اذا كان لدينا ٢٥ أو ٣٠ مليون دولار في الاسبوعين أو الثلاثة القادمين ، يمكننا أن نؤسس أنفسنا هناك .. ليس بامكانكم انتم أن تقرروا اذا ما كنا سوف نقاتل أم لا . سوف نقاتل ، ولن ترفع الطائفة اليهودية علما أبيض في فلسطين من أجل المفتي .. يمكنكم فقط ان تقرروا شيئا واحدا ، ان كنا سوف ننتصر في هذه الحرب أو ان كان المفتي سوف ينتصر .. وعلى يهود أمريكا ان يفعلوا ذلك خلال ساعات » (ص ١٤٥) .

وفي نهاية الحفل كانت حصيلة التبرعات ٢٥ مليون دولار . واستمرت غولدا بالعمل في طول أمريكا وعرضها ولمدة شهرين ونصف ، ومولت عمليات شراء مصفحات وطائرات وبعض مخلفات الجيوش الالمانية ، وكان حصيلة ما جمعته يتجاوز الـ ٥٠ مليون دولار (ص ١٤٥) . وعندما عادت الى فلسطين قال لها بن غوريون: « يوما ما عندما سوف يكتب تاريخنا ، سوف ينص على أن هناك امرأة يهودية جمعت الاموال التي جعلت تأسيس الدولة أمرا ممكنا » .

قبل ذلك التاريخ بقليل وفي تشرين الثاني ١٩٤٧ كانت « غولدا مايرسون » قد اجتمعت بالملك عبدالله الذي أخبرها بأنه يخطط لضم القسم العربي الناتج عن قرار تقسيم فلسطين الى امارته ، ووعدها بأن يكون صديقا للدولة اليهودية الناشئة (ص ١٥٠) على أن تطور الاحداث اثار شكوك القادة الصهاينة . وهكذا فلقد قرروا ارسال غولدا لمقابلته وتذكيره بوعوده ولكن الملك لم يوافق على عقد الاجتماع على الحدود مثل المرة السابقة وذلك لخطورة المكان لكنه وافق على ارسال عربة تأخذ غولدا ومرافقها من مناطق الحدود الى العاصمة عمان حيث يعقد الاجتماع في بيت صديق موثوق . وفي ١٠ أيار ١٩٤٨ تخفت « غولدا » بزي امرأة عربية ورافقها « ازرا دانين » الذي كان يتحدث العربية بطلاقة . وأخبرها الملك ان « الانسان لا يستطيع ان يتخذ خطوات متسرعة .. » وحينما غادر الغرفة بعد ٤٥ دقيقة كان « خائب الآمال ، وكئيبا وحزينا حتى ، لم يبد كرجل يريد الحرب ، ولكن كرجل مدفوع بقوى خارج اطار سيطرته » (ص ١٥١) .

في ١٤ أيار ١٩٤٨ كانت غولدا مايرسون واحدة من ٣٨ شخصا وقعوا « عريضة اعلان قيام

اسرائيل » وكان ذلك في متحف الفنون بتل أبيب وفي الساعة الرابعة بعد الظهر « أخيرا بعد ١٨٧٨ سنة هناك مرة أخرى أمة يهودية » (ص ١٥٩) • ومرة أخرى طلب منها أن تسافر الى أمريكا لجمع التبرعات وغادرت بعد ثلاثة أيام فقط من قيام اسرائيل • وأثناء وجودها هناك تم تشكيل أول حكومة اسرائيلية وأعلن اسم « غولدا مايرسون » كوزيرة لشؤون يهود روسيا وهذا يتضمن أيضا منصب سفيرة اسرائيل في موسكو •

سارة ابنة مايرسون كانت قد غادرت منزل والدتها وعمرها ١٧ سنة لتعيش في كيبوتز « رافافيم » في النقب وهناك تعرفت على يهودي يمني « زخاريا ريخافيم » وقررا الزواج ، وعين زخاريا كعامل لاسلكي في السفارة الاسرائيلية بموسكو وكان هذا التعيين بمثابة شهر عسل للعروسين • والدا « غولدا » هاجرا أيضا الى فلسطين عام ١٩٢٦ ورافقهما زوج ابنتهما « شانا » اما الاخت الصغرى لغولدا « كلارا » فلقد تزوجت واستقرت في أمريكا ، « أصبح هؤلاء الفرع الامريكي للعائلة » • « مناحيم » الابن الاكبر لغولدا أصبح عازف كمان محترف أيضا تزوج من فتاة تدعى « غازيل » • وفي تلك الفترة كانت « غولدا وموريس » قد انفصلا عن بعضهما بعضا رسميا ••

في مطلع أيلول ١٩٤٨ توجهت غولدا الى موسكو ولكنها لم تستمر في منصبها ذاك اكثر من بضعة أشهر حيث أنها غادرتها في نيسان ١٩٤٩ عقب اجراء أول انتخابات في اسرائيل وتشكيل حكومة بن غوريون الذي عين فيها غولدا وزيرة للعمل والتطوير ، وهكذا عادت لتشغل هذا المنصب ولمدة سبع سنوات متواصلة لعبت فيها دورا مركزيا في اسكان وتأهيل وتشغيل مئات الآلاف من المهاجرين الجدد ، كما أنها قامت خلال تلك الفترة برحلات عديدة الى أمريكا الشمالية والجنوبية والى أوروبا بهدف جمع التبرعات والاموال لانجاز خطط وبرامج التنمية والاسكان •

عام ١٩٥١ توفي زوجها موريس مايرسون وتوفيت والدتها « بلوما » ، وخلال تلك الفترة عمل مناحيم مدرسا في كونسرفاتور تل أبيب ورزق بثلاثة اطفال (امنون ، دانيال ، جيدون) اما أخته سارة فلقد رزقت طفلين (نعوم ، شاؤل) •

في ١٩٥٦ اشتدت الخلافات بين رئيس الوزراء « بن غوريون » وبين وزير خارجيته « موشي شاريت » وأراد بن غوريون ان يعين شخصا في هذا المنصب لـ « يسير معه على طول الخط » (ص ١٨٨) وهكذا اصبحت غولدا مايرسون وزيرة للخارجية ، وحين أثار تعيين امرأة في هذا المنصب بعض الاستنكار ، قال بن غوريون : « انها أفضل رجل موجود داخل مجموعتي » •

تحت اصرار بن غوريون على ضرورة استخدام الاسماء العبرية ، لأن « العبرية كانت العامل الاكثر أهمية لتوحيد مواطني اسرائيل المتعددي الانواع واللغات » (ص ١٨٤) ولوجود ضغط على موظفي الحكومة خصوصا حتى يعبرنوا اسمائهم ، اختارت « غولدا مايرسون » أقرب الاسماء العبرية الى اسمها الثاني وكان اسم « مائير » •

في نهاية أيلول من ذات العام كانت غولدا مائير احد الذين سافروا الى فرنسا سرا بهدف الاعداد النهائي لحرب السويس وبالطبع لعبت بحكم منصبها دورا أساسيا في محادثات وظروف تلك الحرب • وفي العام التالي بدأت بسلسلة نشاطاتها الخارجية وزارت افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية عدة مرات وعززت التعاون الاقتصادي والسياسي مع تلك الدول ووضعت الارضية للتغلغل الاسرائيلي فيها • وحين تنحى بن غوريون عن منصبه في ١٩٦٤ وخلفه « ليفي أشكول » طلب الاخير منها الاستمرار في منصبها ، ووافقت على ذلك الا انها طالبت بأن تتقاعد في بدء الدورة الانتخابية التالية في ١٩٦٥ واحتفظت مائير بمقعدها في الكنيست وسكنت قرب منزل ابنها في « راموت افيف » من ضواحي تل أبيب ••

كان حزب « الماباي » في تلك الفترة يعاني أخطر أزماته ، حيث انشق « بن غوريون » و « دايان » وأسسا حزبهما الخاص • مما

انعكس على شعبية « المباي » وعلى رسوخ وثبات قواعده ، وفي محاولة لاعادة تلك الشعبية ولدعم صفوف الحزب عرض علـى « غولدا مائير » رئاسة الحزب وكان ذلك عقب شهر واحد فقط من تاريخ تقاعدها ، ووافقت مائير على المنصب الجديد ، ولكنها لم تنجح في تلك المهمة الا في مطلع ١٩٦٨ أي بعد حوالي ثلاثة أعوام حين أعلنت تشكيل الحزب الائتلافي الجديد « حزب العمل الصهيوني » .

في اليـوم الخامس لحـرب حزيران سافرت غولدا مرة أخرى الى الولايات المتحدة بهدف جمع الاموال « للأمة التي تقاتل مرة أخرى من أجل حياتها » (ص ٢٢٣) ، ومرة أخرى أيضا حققت نجاحا كبيرا ، وحين عادت واحتلت منصب السكرتيرة العامة لحزب العمل الصهيوني كانت قد بلغت من العمر سبعين عاما ، وقررت مرة أخرى أن تتقاعد .

الا أن « أشكول » مـات فجأة في شباط ١٩٦٩ ، وكان على الحزب الحاكم اختيار رئيس وزراء جديد حتى قدوم الانتخابات التالية ، وفازت مائير بأصوات أربعين عضوا من أعضاء اللجنة المركزية للحزب وغاب سبعة أعضاء ولم يصوت أحد ضد القرار . وكانت غولدا مصرة على أنها سوف لن تستمر في هذا المنصب الى أبعد من تاريخ الانتخابات التالية في أكتوبر من ذات العام ، أما عن مسألة كبرها في السن فلقد أجابت «ان السبعين‌ليست اثما» . على ان مائير خاضت الانتخابات التالية ونصبت ثانية رئيسة وزراء ولمـدة أربعـة أعوام تالية . واختارت « سيمحا دينتز » مستشارا سياسيا اول لها ـ او ما اصطلح عليه : طبـاخ في مطبخها ـ وكـان « دينتز » قد عمل معها كسكرتير خاص أثناء عملها كوزيرة للخارجية، وشكلت مائـير حكومتها وكانت أوسع حكومة شهدتها البلاد طوال تاريخها اذ ضمت ٢٤ وزيرا يمثلون أحزابا وتجمعات برلمانية حصلت على نسبة ٩٠٪ من أصوات الناخبين . ..

الى هنا يتوقف الكتاب . (٢٨٧ صفحة قطع متوسط) . ولعل أول مـا يمكن ملاحظته هو سلاسة وسهولة أسلوب الكتاب ومتانة الصفة الادبية فيه ، ولا عجب فالمؤلفة « مان » هـي كاتبـة قصة بالاساس وتكـاد تكون مختصة بروايات الاطفال . على أن تلك الحياة الحافلة « لغولدا » وظفتها المؤلفة بطريقة « خبيثة » لتجعل منها هيكلا عاما تستطيع من خلاله تشويه الحقائق التاريخية المتعلقـة بالقضية الفلسطينية وتكـرار الاطروحـات الصهيونية التقليدية عن « الحق التاريخي » وعن « رغبات السلام » و « اعتداءات العرب » .. الخ .

فالانكليز أصدروا الكتاب الابيض في عام ١٩٣٩ خوفا من حظر النفط العربي (ص ٩٨) والعرب الفلسطينيون لم يكن لديهم أي دافع أو رغبة لمحاربة الصهيونيين ولكن الارهابيين الذين كان المفتي يستأجرهم من الدول المجاورة هم من كان يثير الفتن (ص ٩٧) ، وان عدد المهاجرين (الهاربين) الفلسطينيين من أراضي دولة اليهود يعادل عدد اليهود الذين هاجروا من الدول العربية الى اسرائيل ، اذن لماذا كل هذه المشاكل (ص ١٧٧) لا بل وان اسرائيل تمتاز بأنها لم تطلب مساعدة هيئـة دولية مثل الاونروا ـ التـي يدفع المواطن الامريكي تكاليفها ـ من أجل اغاثة اليهود العرب . ثم تخصص المؤلفة صفحات طويلة (٢٤٥ ـ ٢٥١) للبرهنة على فوائد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وغزة ، امـا عـن العرب في اسرائيل « فانهم يعيشون بمستوى حياة أعلى بكثير من مستوى سكان أية دولة عربية في الشرق الاوسط وهذا يتضمن مستوى التعليم والصحة، وملكية الاراضي والحرية الشخصية والسياسية» (ص ٢٤٦) وبمقابل هذا فلقد تم مثلا اعدام تسعة يهود ابرياء في ساحة الحرية المزدحمة ببغداد حيث حمل كل منهم شارة كبيرة على صدره مكتوب عليها بالخط العريض : يهودي (ص ٢٣٤) . وفي حين كان العرب يتلقون الاسلحة الحديثة مجانـا مـن كل دول العالم «كان اطفال اسرائيل يقفون في الشوارع يطلبون من الناس دفـع قرش واحـد لشراء طائرات الفانتوم .. حيث أن اسرائيل لم تحصل على أية مساعدات أو هدايا مباشرة من الولايات المتحـدة سواء عسكرية أو غيرهـا وذلك منذ مطلع الستينات في حين أنها (أمريكا) كانت تقدم مثل هذه الى عدد من الدول العربية..» (ص ٢٣٤) .. وفي حـين يدرس الطلبة في

اسرائيل اللغـة العربيـة فان « التلاميذ في المدارس العربية تقدم لهم مسائل الحساب من نوع : اذا كان هناك ((اسرائيليا قتل منهم أربعة فكم اسرائيليا يبقى على قيد الحياة » (ص ٢٤٩) ٠٠

أما باطار المبالغات فسوف نقرأ مثلا وفـي محاولة لاثارة اكبر قدر من التعاطف والشفقة على اليهود اثر المذابح النازية « في معسكر واحد ، « أوشفيتز » تم جمع ١٧ طنا من الذهب فقط من حشوات أسنان اليهود الذين تم حرقهم فيه » (ص ٩٧) ٠ أيضا « ان شحم اليهود المحروقين استخدم لصنـع الصابون الرخيص واستخدمت عظامهم لتصنيع الفوسفات ٠٠ لتسميد حقول وحدائق زهور الالمان » (ص٩٧) ٠

كل هذا مجرد غيض من فيض المبالغـات والكذب الوقح ، وعلى كل المستويات بدءا من أن « أفـلام اليزابث تايلور منعـت في العالم العربي لأن الممثلة تزوجت من يهودي وأصبحت يهودية » (ص ٢٠٩) ٠ وحتى « أن اسرائيل هي عامل ضمان ليصرف عليه ٠٠ ذلك انه اذا ما سحقت الأمة الاسرائيلية فان الروس سوف يسيطرون على الدول العربية المنتجة للبترول تلك المادة التـي تقوم عليهـا الاقتصاديات الاوروبية » (ص ٢٤٠) ٠

بالرغم من كل هذا فان الاحساس الذي يرافق قراءة هذا الكتاب هو أن منهجه وأسلوبه قد فات أوانهما بعض الشيء ، وان الكتاب جاء متأخرا بضعة أعوام ، فالقاعدة التـي تقول بعدم امكانية الكذب على كل الناس كل الوقت ما تزال صحيحة كما يبدو ٠

نعمان كنفاني

عادل سمارة ، **اقتصاد المناطق المحتلة : التخلف يعمق الالحاق**

(منشورات صلاح الدين / القدس ، آب ، ١٩٧٥)

صدر عن منشورات صلاح الدين في القدس المحتلة كتاب « اقتصاد المناطق المحتلـة : التخلف يعمق الالحاق » للكاتب الصحفي عادل سمارة ، ويقـع في ١٦٧ صفحـة مـن الحجم المتوسط ٠ وقد اهدى المؤلف كتابه « الى الفلسطينيـين الذيـن يعانون حالـة التغريب القصوى ولكنهم يرفضونها » ٠

يحوي الكتاب مجموعة من المعالجـات التي تتناول الـوضع الاقتصادي في الارض المحتلـة ومدى تأثره سلبا بواقع الاحتلال ٠ ويمكن القول ان هذا الكتاب يشكل بداية ناجحة لدراسات اقتصادية أكثر دقة وشمولا عن الارض المحتلة بحيث تشخص ابعاد المخطط الصهيوني الذي لا يرمي وحسب الى تحويل الارض المحتلة الى سوق لمنتجاته وانما ايضا الى ربطها سياسيا بالمشروع الصهيوني في فلسطين من خلال خلق القوى الاجتماعية المحلية التي يمكن لهـا ان تلعب دورا ضمن اطار مرسوم ٠

وفي الواقع ، فان الكاتب لم يكتف بمعاينة الوضع الاقتصادي في الارض المحتلة على نحو مقطوع عن الممارسات السياسية التي تجري في المنطقة ، ذلك انه ربط الوقائع الاقتصادية الملموسة بأفق سياسي محدد ، واستطاع ان يوظـف استنتاجاتـه عـن الواقـع الاقتصادي للأرض المحتلة لخدمة منطلقات سياسية وطنية تقدمية ٠

يتناول الكاتـب في دراسته واقـع الطبقات الاجتماعية المحلية التـي تعيش تحـت ظـل الاحتلال ، ومدى الدور الذي تلعبـه اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا مـن خلال واقعها الطبقي الذي يحدد في نهايـة المطاف اطار تحركها في كافة المجالات ٠

ففي استقصائه لأوضاع الطبقة العاملـة

الفلسطينية في المناطق المحتلة يشير الكاتب الى واقع الضياع القومي الذي تتعرض له فئة كبيرة من العمال من خلال الارتباط اليومي بالمصانع الاسرائيلية التي أصبحت مصدر الرزق الوحيد لهذه الفئة ، واذا أضفنا الى ذلك محاربة الاحتلال للنقابات العمالية العربية وعدم تعامله مع العمال من خلالها لأدركنا واقع التشتت الذي يجتازه العمال العرب ، ويحرمهم من فرص النضال الجماعي المنظم ـ الاضرابات مثلا ـ للدفاع عن حقوقهم في وجه الاستغلال الطبقي والقومي الذي يخضعون له ٠

ان حوالي ٦٠ ألف عامل عربي ـ أي ثلث العمال العرب في المناطق المحتلة ـ مضطرون للعمل في الورش والمصانع الاسرائيلية ، وهذا يعني عمليا مزيدا من التبعية الاقتصادية لاسرائيل مما يؤدي بدوره الى طمس الشخصية القومية ٠

بعد ذلك ينتقل الكاتب الى تصوير المعاناة الاقتصادية للعمال العرب ٠ فالاجور متدنية رغم الانتفاخ الظاهري فيها ٠ ذلك ان أسعار السلع الضرورية ترتفع بنسب تفوق بكثير نسبة ارتفاع الاجور ٠ يضاف الى ذلك ما تسرقه سلطات الاحتلال من أجور العمال العرب على شكل ضرائب لا يتلقون في مقابلها أية خدمات، والتخفيض المتوالي في قيمة الليرة الاسرائيلية، ناهيك عن أشكال الاستغلال المتعددة التي يخضع لها العامل العربي مرورا باعطائه أجرا أقل بكثير من أجر العامل الاسرائيلي ، وانتهاء بالعمل ١٢ ساعة في اليوم بدلا من ٨ ساعات اذا احتسبنا الساعات الجوفاء التي تضيع هدرا لدى انتقال العامل من مقر سكنه الى مكان عمله يوميا ٠

ولا تقف ظاهرة استغلال الايدي العاملة عند هذا الحد وانما تتجاوزها الى استغلال النساء والطلبة لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي مما يلحق أشد الأذى بالطلبة الذين ينقطعون عن الدراسة تحت اغراءات العمل ٠

لكن أبرز مظهر لاضطهاد العمال العرب واستغلالهم هو وضعهم في ظروف عمل قاسية وتوزيعهم على الاعمال غير الفنية والتي لا تؤدي الى اكتساب خبرات ومهارات جديدة ، ان غالبية العمال العرب يتوزعون على قطاعات كانت نسبة العمال العرب العاملين في قطاع البناء ٣ر٣٪ وقد ارتفعت هذه النسبة الى ٩ر٢٥٪ سنة ١٩٧٣ ، وكانت نسبة العاملين في الزراعة سنة ١٩٦٨ = ١٪ وقد ارتفعت هذه النسبة سنة ١٩٧٣ الى ٢ر١٣٪ أما قطاع الصناعة فقد كانت نسبة العاملين فيه سنة ١٩٦٨ = ٤ر٠٪ ولم ترتفع سنة ١٩٧٣ الا بمقدار ١ر٤٪ ٠

يخلص الكاتب من تقصيه لوضع الطبقة العاملة وارتباطها بالمصانع الاسرائيلية الى حقيقة أن هذا الوضع الاقتصادي الشاذ ينعكس على واقع الشعب الفلسطيني ويؤثر على قضيته الوطنية ٠ ويطالب أصحاب رؤوس الاموال المحلية بالتحرك لايجاد مشاريع تساهم في امتصاص قسم من العمال العرب وبالتالي تطوير الاقتصاد المحلي والمساهمة في تخفيف حدة الارتباط باقتصاد الاحتلال ٠

وقد كان من الأنسب لو أن الكاتب تنبه الى الفشل النسبي الذي منيت به سلطات الاحتلال في تجريد العمال العرب من حسهم الوطني ومشاركتهم مع جماهير الشعب الفلسطيني في النضال ضد الاحتلال رغم اغراءات العمل وارهاب البوليس الصهيوني ٠

في تناوله لتاريخ رأس المال المحلي ومدى قدرته على الاضطلاع بدور وطني في مواجهة الاحتلال ، يقرر الكاتب بأنه رغم التخلف التكنولوجي والسياسي والتنظيمي في أوساط البورجوازية الفلسطينية ٠ الا أنها ساهمت في النضالات الوطنية التي خاضها الشعب الفلسطيني في تاريخه الحديث ويضرب مثالا على ذلك باضراب سنة ١٩٣٦ الذي استمر ستة أشهر وساهمت فيه البورجوازية الى جانب الجماهير ٠

لكن معضلة رأس المال المحلي تتمثل بكونه تطور على نحو عفوي تماما ، وتعرض لعقبات من جانب الحكومات الاردنية بسبب ارتباطاتها بالدول الرأسمالية مما أدى الى عدم تمكنه بعد النكسة من مواجهة رأس المال الاسرائيلي المتقدم والمدعوم برأسمال أجنبي ٠

ان من سمات ضعف البورجوازية المحلية ميلها الدائم الى الادخار واحجامها عن الاستثمار ، ولعل عدم الاستقرار السياسي في المنطقة يعزز لديها هذا المسلك فلا تجرؤ على انشاء مشروعات اقتصادية كبيرة ٠

يضاف الى ذلك ان البورجوازية الاسرائيلية معنية بضرب البورجوازية العربية واضعافها لتظل في موضع التابع ٠ ومن هنا نفهم لماذا أصبحت معامل الخياطة ومعامل تعبئة السمنة مجرد توابع للمصانع الاسرائيلية ٠ وقد أفرز هذا الواقع فئة من البورجوازية المحلية وهي الكومبرادور التي ارتبطت مصلحيا مع الاحتلال وتعمل على تشجيع التعامل معه وتقوي ارتباطها به ليس اقتصاديا فحسب وانما في التطلعات السياسية المشبوهة أيضا مثل الادارة المدنية وغيرها ٠

الا أن النواقص الذاتية والموضوعية في واقع الرأسمالية المحلية لا تعني أنها - أي الرأسمالية المحلية - عاجزة عن أداء دورها في معركة شعبنا وصموده ضد الاحتلال ، ففي وسعها أن تسهم في انهاض الاقتصاد الوطني نسبيا وتعطيل عملية الالحاق التي تخطط لها السلطات الصهيونية ٠

ان واجب الرأسمالية المحلية أن تساعد في تطوير التعاونيات الزراعية والجمعيات الاستهلاكية لمكافحة الغلاء ، ومساندة لجان احياء الارض ، وتنشيط اقامة مشاريع استهلاكية مثل المطاحن ومعاصر الزيت ومعامل التعليب والنسيج ، مع عدم اغفال التفكير باقامة مشاريع انتاجية رغم أنها تتطلب وقتا طويلا لاعطاء المردود وتحتاج الى خبرة ومال ٠

بعد ذلك يتناول الكاتب وضع الفلاحين في ظل الاحتلال فيؤكد حدوث تغيرات على وضعهم كطبقة ، حيث انتقلت أقسام من الفلاحين الى العمل في المصانع الاسرائيلية تحت تأثير الغلاء وعدم الاهتمام بتطوير العمل الزراعي في الارض ، وهذا يؤدي الى اضعاف الارتباط بالارض الامر الذي يخطط له العدو لتسهيل ابتلاعها ومصادرتها ٠

ويتعرض الكاتب لوضع المرأة في ظل الاحتلال ومدى مشاركتها في عملية الانتاج الاقتصادي، فبينما كانت فرص العمل في السابق متاحة فقط للفتيات المتعلمات ، فقد أدت قسوة الاوضاع الاقتصادية وظروف الغلاء الى دفع أقسام أكبر من النساء الى سوق العمل وخاصة في قطاع الزراعة ، الا أن المرأة العاملة تخضع لاستغلال بشع وتتقاضى أجرا أقل مما يتقاضاه الرجل ٠

وحيث أن الاقتصاد الاسرائيلي المتطور ، والمدعوم من جانب سلطات الاحتلال يعمل على خنق الوجود المستقل للاقتصاد المحلي ، فان الكاتب يبحث في الواقع الموضوعي للاقتصاد الاسرائيلي عن منافذ يمكن للاقتصاد المحلي أن يتطور ولو نسبيا من خلالها ٠

فهنالك قطاعات اقتصادية ما زال الاقتصاد الاسرائيلي لعدة أسباب يعاني أزمة فيها ولا يستطيع تلبية احتياجات السوق الى انتاج هذه القطاعات ٠ ففي قطاع زراعة الخضروات تعاني اسرائيل نقصا شديدا، ويمكن للمزارعين العرب أن يضاعفوا انتاجهم من الخضروات دون منافسة ٠ وبذلك يتحقق هدف استغلال الارض المهددة بالخراب والضياع ، وتشغيل اعداد من العمال العرب وتمتين ارتباطهم بالارض ٠

وفي مجال الثروة الحيوانية تعاني اسرائيل من نقص في اللحوم وبالتالي فان انشاء مزارع للثروة الحيوانية تسهم في انعاش الاقتصاد المحلي ٠ ويورد الكاتب جدولا يوضح حجم واردات اسرائيل من الحيوانات واللحوم والبيض ومستخرجات الالبان والطحين والقمح ، ومدى ارتفاعها اذا ما قورنت بحجم صادراتها من هذه المنتجات ٠

تبقى مسألة هامة وهي ظاهرة الالحاق التي تلازم النظام الرأسمالي انسجاما مع طبيعته الاستغلالية، وحيث تشكل الحروب الاستعمارية بشكل عام مداخل طبيعية للالحاق الاقتصادي بينما تعتبر حروب التحرر الوطني نزوعا مضادا للالحاق ٠

والسؤال الذي يطرحه الكاتب : هل سيظل اقتصادنا ملحقا ؟ أم أننا قادرون على رفض هذا الالحاق ؟

هنا يعود الكاتب الى التاكيد على الكثير من الاستنتاجات التي سبق أن طرحها في أكثر من موضع وهي ضرورة الالتحام بالارض واستثمارها ، ودعوة رأس المال المحلي ان يلعب دوره في تنشيط الزراعة والصناعة ، ويطالب المؤسسات الاجتماعية المحلية أن تقدم القروض للفلاحين من أجل احياء الارض ، كما يلح على ضرورة تشجيع التعاون الزراعي بين الفلاحين .

ان الاوضاع الاقتصادية المتردية في الارض المحتلة وتأثيرها المتزايد على قطاعات أوسع من الجماهير تشكل أساسا ماديا للالتقاء على برنامج الحد الادنى سياسيا واجتماعيا في مواجهة الاحتلال .

محمود شقير

Kazziha, Walid : *Revolutionary Trans-formation in the Arab World - Habash and his Comrades from Nationalism to Marxism.* (Charles Knight & Co., London 1975).

الدكتور وليد قزيحة هو أستاذ في قسم العلوم السياسية بالجامعة الاميركية بالقاهرة ، وعضو سابق في حركة القوميين العرب قد وضع هذه الدراسة بتكليف من مؤسسة فورد الاميركية والجامعة الاميركية بالقاهرة ، وفيها استعرض تاريخ الحركة منذ نشوئها في بداية الخمسينات الى حين تطورها لتصبح الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وفي الواقع أن دراسة نمو هذه الحركة وتطورها ، هو في الوقت نفسه دراسة لنمو الفكر الماركسي وتطوره في الوطن العربي ، وصورة لأوديسة المثقف العربي من نكبة عام ١٩٤٨ الى نكبة عام ١٩٦٧ .

في البداية كانت فلسطين .. فلسطين هي نقطة الاستقطاب لكافة المفكرين العرب خارج مصر . ولذا ظهرت في الفترة التي تلت النكبة كتابات نبيه فارس وقسطنطين زريق ومحمد جميل بيهم ومنيف الرزاز وفايز صايغ وميشيل عفلق وجورج حبش ، وقد شكل الفلسطينيون نسبة كبيرة ، ان لم تكن الاكثرية ، بين هؤلاء المفكرين ، كما أن معظمهم كان مرتبطا بالجامعة الاميركية ببيروت ، اما كطالب أو كأستاذ . وفي هذا العهد الليبرالي للفكر القومي العربي ولدت حركة القوميين العرب في بيروت ، وكانت رابع منظمة سياسية عربية ذات نشاط يتجاوز الحدود الاقليمية ، اذ سبقها كل من : القوميين السوريين الاجتماعيين ، والاخوان المسلمين ، وحزب البعث العربي الاشتراكي .

في مرحلة الصفر بعد النكبة الاولى ، كان نقاش المثقفين العرب يدور حول نقاط أساسية ثلاث : التهديد الصهيوني – علاقة العرب بالغرب – طبيعة الانظمة العربية الحاكمة . ولم تكن صورة الامور واضحة تماما في أذهانهم واسرائيل كانت ما تزال العدو المجهول . لذا فقد حفلت أطروحاتهم بالتناقض . فمن جهة كانت الدولة الصهيونية في رأيهم هي بمثابة رأس الرمح للامبريالية الغربية ، ومن الجهة الاخرى كانت الصهيونية العالمية ، بحكم سيطرتها الاقتصادية والفكرية على دول الغرب ، قد نجحت في جعل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية مجرد أداة في يدها .

وكان المنطلق في هذا النقاش المستمر هو القاعدة الليبرالية التي ارتكز عليها معظم هؤلاء المفكرين ، اذ ارتبطت الماركسية في أذهانهم بموقف الاتحاد السوفياتي المؤيد لانشاء اسرائيل ، وهذا الارتباط أعماهم لسبب ما عن الحقيقة الواضحة التي تبين بأن الليبرالية هي الاخرى شاركت في تأسيس الدولة الصهيونية . الا أن الأهم من ذلك في نظرهم كان فتور الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية تجاه الفكرة

القومية ، تلك الفكرة التي كان ساطع الحصري قد طرحها بقوة وأسلوب مقنع ، مستوحيا اياها من قراءاته في نشوء الفكرة القومية بأوربا القرن التاسع عشر • ويجب ألا ننسى هنا الخلفية الاجتماعية لهؤلاء المفكرين ، اذ كانوا بلا استثناء تقريبا ينتمون الى الطبقة البورجوازية • لذا لم يكن من المستغرب أن يكون المنطلق ليبراليا والحديث يدور عن السياسة قبل الاقتصاد ، وأحيانا بمعزل عن الاقتصاد •

وكانت القناعة العامةتكمن في فكرة الوحدة العربية الشاملة • ففي هذه الوحدة كان البلسم الشافي لجميع الجراح ، برأي هؤلاء المفكرين • ولكن الفرق بين جيل الخمسينات وجيل الثلاثينات ، ان الاول كان يريدها وحدة شعبية ديمقراطية ، بينما الجيل السابق كان يضع أمله في تحقيق الوحدة على أيدي الملوك والامراء العرب •

في هذه الفكرة وقعت الانقلابات العسكرية في سوريا ، وبدأت شمس الناصرية بالبزوغ اثر صفقة الاسلحة التشيكية • وكانت هذه الصفقة بمثابة دقة العربي على باب المعسكر الاشتراكي • فقد وقف العربي أمام هذا الباب مسلحا بشعارات الحياد الايجابي وعدم الانحياز • وفي نهاية الخمسينات ، أضاف الى قائمته شعار رفض المبادىء المستوردة • (المبادىء وليس الايديولوجيات ، فالاخيرة لم يحن دورها بعد على المسرح العربي) وفي غمرة الحماس العربي بالفجر الذهبي الجديد ، نسي الكثيرون حقيقة بديهية ، وهي أن الأمة التي توقفت عن الانتاج الفكري منذ قرون لا تملك خيارا غير الاستيراد • ولكن الطريق الى الجحيم معبد بالنيات الحسنة ، كما يقول المثل المعروف ، ولذا بقي التركيز على الفكرة القومية الى أن كاد التفكير الأممي يبتلع العراق في عهد عبد الكريم قاسم • وقد تعلم حزب البعث من هذا الدرس ، وأخذ يشدد على الجانب الاقتصادي في برنامجه ، بينما تأخرت حركة القوميين العرب في الاستجابة للتحدي الاجتماعي ـ الاقتصادي ، وربما رجع ذلك الى هوية قادتها الفلسطينية ، بكل ما تعنيه هذه الهوية من انشغال بالقضية دون سواها • ان المؤلف يستشهد بعبارة مشهورة للدكتور جورج حبش: لقد قتلوا أبناء شعبنا وطردونا من بيوتنا ومدننا وأرضنا ، وفي الطريق من اللد الى الرملة شاهدت الاطفال والشبان والشيوخ يموتون • فماذا ستفعل أنت اذا رأيت ذلك كله ؟ انك لا تستطيع الا ان تصبح ثوريا وتناضل من أجل القضية •

تأسست الحركة في البداية كرابطة طلابية وذلك في مقر العروة الوثقى ببيروت ، وكان الاعضاء المؤسسون هم الدكتور جورج حبش ، والدكتور وديع حداد (فلسطين) وهاني الهندي (سوريا) والدكتور أحمد الخطيب (الكويت) والمرحوم باسل الكبيسي (العراق) (علما بأن المؤلف يغفل دور الكبيسي كعضو مؤسس) وفي أوائل عام ١٩٥٥ فصلت الجامعة الاميركية سبعة عشر طالبا من طلابها (بينهم الكبيسي) وذلك لاشتراكهم في المظاهرات ضد حلف بغداد، كما حلت جمعية العروة الوثقى • وكنا نتمنى أن يتحدث المؤلف بتفصيل أكثر عن هذه الحادثة الشهيرة التي كشفت حقيقة عواطف تلك الجامعة نحو فكرة القومية العربية • ففي أواخر القرن التاسع عشر كانت هذه الجامعة تشجع الفكرة القومية كبديل عن التفكير الاسلامي • وواصلت تشجيعها لهذه الفكرة في أواسط هذا القرن اذ أرادت من القومية أن تصبح حاجزا أمام الماركسية • ولكن الزمام أفلت من يدها عندما وقف القوميون العرب ضد الامبريالية الغربية ، فكشفت عن وجهها الحقيقي حينما فصلت الطلاب بالجملة •

ان المؤلف يتناول هذه الحادثة في أربعة سطور فقط •

ومع بداية الستينات ، ازداد توسع الحركة في الوطن العربي ، وخاصة في الاردن والعراق والكويت • الا ان الحركة أخفقت في زرع جذور لها في البحرين والمملكة العربية السعودية ، كما كان واضحا ان تنظيمها الداخلي لم يكن متماسكا كل التماسك • وفي المعركة ضد التحالف القاسمي ـ الشيوعي في العراق ، كان حزب البعث هو الذي قاد القوميين الى النصر ، بينما لعبت الحركة دور الشريك الاصغر • أما

في سوريا ، فان تأييد الحركة للرئيس جمال عبد الناصر جعلها تدخل في مجابهة خاسرة مع حـزب البعث الحاكـم ، ففقدت مقعديها في الوزارة ، ومنعت صحيفتها « صوت الجماهير » من الصدور ، الا انها عوضت عن هذه الهزائم الى حد ما حينما اجتذبت اليها شبانا من عدن، بينهم قحطان الشعبي وابن عمه فيصل ، قاموا عام ١٩٦٣ بقيادة انتفاضة ردفان ضد الاحتلال البريطاني ، تلك الانتفاضة التي تحولت فيما بعد الى ثورة عارمة تعتبر ثاني أعظم ثورة عربية في هـذا العصر ضد الاستعمار (بعد الثورة الجزائرية) .

ان نمو الحركة السياسي بقدر ما هو مهم ، لا يعادل في أهميته نموها الفكري الذي كان هو في الواقع النمو الفكري للمثقف العربي الملتزم بصرف النظر عـن المنظمـة السياسية التـي ينتمي اليها اليوم ، أو التي كان ينتمي اليها بالأمس . فمن الليبرالية اليمينية التي كانت نقطة الانطلاق ، سار المثقف العربي الملتزم ، بعثيا كان أم حركيا أم ناصريا ، الى أن التقى بالماركسية على أرض اليسار العالمي الجديد، وكان هذا هو التحول الثوري في الوطن العربي. فلم تعـد الحركـة الصهيونيـة متميزة عـن الامبريالية الغربيـة في الاذهان ، كمـا كانت سابقا ، بل اصبحت جزءا عضويا منها . وكذلك الفكر القومي الوحدوي لم يعـد يطرح بمعزل عـن الاعتبـارات والعوامـل الاجتماعيـة ـ الاقتصادية ، مثلما كان الامر في السابق . ولم تعد استعادة فلسطين هي قضية ثأر وانمـا أصبحت حركة تحرير شعبية عامة . ومع ان الحركة انتهت مع نهاية الستينات لتحل محلها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التـي كرست نفسها لهدف أوحد ، ومع أن هذه الجبهة نفسها قد انقسمت بعد ذلك الـى ثـلاث جبهات : الشعبية والديمقراطية والقيادة العامة ، الا ان الصراع الفكري الذي خاضه أعضاء الحركة على مدى عقدين من الزمن قد أثمر دروسا تاريخية هي اليوم جزء أصيل من التراث المعاصر لهذه الأمـة .

ان الدكتور قزيحة قد قدم دراسة قيمة الى القارىء ، واذا كان هناك ثمـة تحفظ عليها ، فهذا التحفظ ينصب على مؤسسة فورد التي تبنت المشروع . فان هذه المؤسسة تابعة لنفس الشركة الاميركية الكبرى التي فتحت مصانع السيارات والمدرعات في اسرائيل ، علاوة على علاقتهـا الحميمة مـع وكالـة الاستخبـارات المركزية . اننا لا نريد أن نحكم على المؤلف من هذه الزاوية ، بل نفضل ان نطلب من الجامعات والمؤسسات الثقافية العربية ان تسد الطريق على مؤسسة فورد ومثيلاتها وذلـك بأن تقوم هـي باستكتاب الباحثين وتبنـي المشاريـع العلمية .

وكلمة نقد أخيرة : يستشهد الدكتور قزيحه في سياق كتابـه بمؤلفين همـا ايلـي كدوري وفاتكيوتس ، مع ان أولهما كاتب صهيوني اشتهر بتلفيقاته ، والثاني كاتب مأجور بمعنى الكلمة ، وعلمـا بأن الاستشهادين لا ضرورة لهمـا مطلقا ولا يضيفان الـى النص شيئـا مفيدا ، ولذا كان من الافضل عدم اسباغ صفة المرجع الثقة على هذين الكاتبين .

فارس المنصوري

عبد القادر ياسين ، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العـــام ١٩٤٨** ، (مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٥) .

[١]

* ليس من المهم ، حقا ، أن نستعرض فصول هـذا الكتاب مـن زاوية تعرض مؤلفه للتاريـخ الصرف ، لمراحـل كفـاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ ، ذلك أن عشرات من الباحثين الفلسطينيين والعرب ، قد أشبعوا تلك الزاوية تنقيبا ، واستفاضوا في الكشف عـن خفاياها التاريخية الدقيقة ، ولكن مـن المجدي ، أن نتساءل هـل أضاف المؤلف وجهة نظر جديدة الى مجمل وجهات النظر الفكرية - الاجتماعية التي عالجت الموضوع ذاتـه من قبل ؛ والسؤال الثاني ، هل تستحـق وجهة النظر التي طرحها المؤلف اخراج هـذا الكتاب الى النور ، وبالفعل ، فان نقدنا سينصب على هـذه الناحية بالضبط ، ونستعير قول المدير العام لمركز الابحاث أنيس صايغ لنؤكد معه ، اننا لا نزال نشعر ان موضوع الكفاح الفلسطيني لا يزال يتسع للمزيد من الدراسات ، وذلك لأنه يحتاج : أولا ، الى المزيد من البحث والتنقيب والاستقصاء ، ويحتاج ، ثانيا ، الى المزيد من التحليل واستقراء المعلومات واستنطاق معانيها ص ٥ ، ونحن بدورنا نتفق مع الدكتور صايغ ، علـى الاسس نفسها ولكـن نشترط الأسس الثانية أكثر ، وهي المزيد من التحليل واستنطاق المعلومات لتعرية معانيها ، والنظر اليها من زوايا جديدة وعديدة ، تخصب الرؤية العلمية في الموضوع عينه .

يقسم المؤلف كتابه الى أربعة فصول ، يتناول خلالها ، أولا : الخلفية التاريخية الاجتماعية للحركة الوطنية ، ثانيا : فجر الحركة الوطنية ، ثالثا : الحركة الوطنية بينما تستكمل ملامحها ، رابعا : الانحسار والأزمة . وسنلخص كل فصل على حدة ونضع بعض المعلومات التـي نرى ضرورتها ، على هدي الأسس التـي ذكرناها آنفـا .

الفصل الاول - خلفية اجتماعية تاريخية : يرى المؤلف ، في هذا الفصل ، ان البرجوازية الصناعية الوطنية ، في سوريا الطبيعية ، بما فيها فلسطين ، كانت ، كفئة من طبقة ناشئة ، في أواخر القرن التاسع عشر ، تحاول ان تثبت كيانها وسط مقاومة عنيفـة مـن الاستعمار التركي ورأس المال الاجنبي ص ٩ ، كما أن تطورها كان ضعيفا ، الى حد لم تستطع معه استخلاص أية مراكز هامـة في ادارة البـلاد ص ٩ ، ودفعها ضعفها هذا الى سلوك سبيل الجمعيات السرية التي لم تعتمد على الجماهير ، ومن ناحية ثانية كانت الملكية الكبيرة للارض ، جنبا الـى جنب مـع الاستثمارات الفلاحية الصغيرة ، امـا الاستثمارات الكبـيرة فكانت معدومة ص ١١ ، وقد سادت الوسائل العتيقة في الزراعة ، وسادت مـن ثم علـى القريـة الفلسطينية ، علاقات اقطاعية متخلفة ص ١٣ ، ثم يورد المؤلف احصاءات مأخـوذة من مراجع مختلفة ، للبرهنة علـى رؤيتـه ، ويفصل في طريقة عمل علاقات الانتاج هذه ، ليصل الى القول ، ان الانتـاج الصناعي تميز بالضعف الشديـد ، وكانت نسبـة العاملين بالحرف والصناعات ، في جميع أنحاء سوريا ، عشية الحرب العالمية الاولى ، حوالي ١٠٪ من السكان ، وكـان يقيم في المـدن كبـار الملاك والتجار والحرفيون والعمال ، ويستشهد الباحث «برأي» للمستشرق الروسي لوتسكي ليسجل : انه لم يكن هناك حد فاصل ، اي طبقي ، بين الاعمال الحرفية والزراعة ص ١٥ ، لذا فان الزعامة ، في أصولها ، زعامة دينية - عائلية ، وتضم كبريـات العائـلات مـن أمثـال الحسيني ، والنشاشيبـي والدجانـي ، والخـالدي ، وعبد الهادي ص ١٥ ، وبسبب هـذه الاوضاع الاقطاعية العشائرية الدينية ، تولد لكل مدينة تقاليدهـا وتشريعاتهـا ورسومهـا وموازينها التجارية والاجتماعية الخاصة ص ١٧ ، ويورد المؤلف « رأيا » لانجلز في هذا المجال يقول فيه : ان القيمة الزائدة المكتسبة لم تكن مضمونة أمام جشع الحكام الطغاة والبشوات ، واذا كان هذا الشرط ، أي الأمان للقيمة الزائدة ، معدوما ، فان البرجوازية لم تجد التربة الخصبة لتنمو فيها ص ١٧ ، ومن هنا ظلت صلابة النضال البرجوازي ، ضد تركيا ، هشة وضعيفة .

وفي القسم الثاني ، من هذا الفصل ، يستعرض المؤلف خلفية الحركة الوطنية ، فيرى ، ان الحركة الوطنية السورية عبرت عن نفسها ، من خلال نهضة فكرية عاشتها سوريا، منذ أواسط القرن التاسع عشر ص ١٨، ففي عام ١٨٨٠ ، أخبر القنصل البريطاني ، في بيروت ، حكومته عن ظهور منشورات ثورية، كما وضع أول برنامج سياسي نادى باستقلال سوريا وبجعل اللغة العربية لغة رسمية ، ووقعت اضطرابات في القدس عام ١٨٨٢ – ١٨٨٤ ، وفي نفس العام تبدى تعاطف مكبوت مع ثورة المهدي في السودان ص ١٨ ، وتحت ضغط جمعية تركيا الفتاة ، قدم السلطان عبد الحميد الثاني المزيد من التنازلات وأعاد العمل بالدستور عام ١٩٠٨ ، واستمرت الحركة العربية الثورية بالنهوض ص ١٩ ، وأعدم جمال باشا على أثر ارتفاع المد الثوري ثلة من المواطنين ، وقد تدرجت الحركة الوطنية السورية في مطالبها ص ٢٢ ، وبعد خروج القوات المصرية من سوريا عام ١٨٤٠ ، عاد النشاط الاستعماري الصهيوني ، في الوقت ذاته متوازيا مع الحركة الوطنية ، ومدعوما من بريطانيا المتلهفة للسيطرة على فلسطين وسوريا ص ٢٣ ، وتصاعد عدد اليهود من ٢٥٠ عام ١٤٨١ إلى ما يقرب ٨٥ ألفا ما قبل نشوب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، ويؤكد المؤلف على مقارنة جيفريز ، أحد المؤرخين الغربيين ، بين الحركة الصهيونية والحركة العربية في فلسطين ، فيبين أن الاولى نشأت خارج فلسطين ، في حين أن الثانية حركة وطنية أصيلة ص ٢٩ .

نلمس ، في هذا الفصل ، ان المؤلف قد وضع مقدمة نظرية بحتة ، ثم استعرض التاريخ المتسلسل لجذور الحركة الوطنية في فلسطين ، غير أن ضعف الربط المنطقي – الفكري يلاحظ بين المقدمة والعرض حيث لم يستطع الباحث تطبيق منهجه النظري بصورة واضحة على التطور التاريخي – الاجتماعي للحركة الوطنية، فهو يقول مثلا : ان البرجوازية العربية لم تجد المناخ الملائم للتطور ، مناخ الحفاظ على القيمة الزائدة ، في نفس الوقت الذي يصر فيه على ان البرجوازية العربية أصبح لها تطور فكري ناضج ، بينما قدم السلطان العثماني تنازلات لها ، وان كانت هذه التنازلات أخذت تحت ضغط جمعية تركيا الفتاة ، أي ليست عربية بحتة ، وللقارىء ان يستقرىء الوقائع والتاريخ ليجعلها تنطق بنفسها ، ونتفق مع المؤلف على النواحي التاريخية ، ولكن ندين ضعف أسلوبه في محاكمتها ، وهذا نقص ، كثير ما يعتري أبحاث الباحثين العرب .. النظرية من جهة ، والوقائع من جهة أخرى ، دون تقيدها بعملية الجدل الرابط ما بينها .

الفصل الثاني : فجر الحركة الوطنية : يؤرخ المؤلف ، لفترة امتداد جذور الحركة الوطنية في فلسطين ، معتمدا على مقدمته النظرية ، وانطلاقا من رؤية أولية ، فيصف بالضعف والسلبية الحركة الوطنية الفلسطينية ص ٣١ ، في مراحلها الاولى والتي امتدت من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٩ ، واستمرت المرحلة الثانية من عام ١٩٣٠ – ١٩٣٩ وشغلت المرحلة الثالثة المدة من ١٩٤٠ – ١٩٤٩ ص ٣١ ، وقد انفرد كبار الملاك بقيادة المرحلة الاولى ، ولعب ضيق أفقهم وضحالة امكانياتهم الثورية ، وطبيعتهم الرجعية ، دورا رئيسيا في أتسام الحركة الوطنية بالضعف ، ومن العناصر الفاسدة التي أدخلتها هذه الفئة الحاكمة ، الى ذهنية الجماهير ، انها وجهتها نحو العداء العنصري الطائفي لليهود ، منحرفة بالجماهير عن عدوها الرئيسي المتمثل بالاستعمار البريطاني ص ٣١، على ان الانجليز هم الذين اشادوا بتأليف الجمعيات الاسلامية المسيحية ، بل ولعبوا دورا في انتقاء بعض اعضائها ص ٣٥ ، وهناك ما يشير الى أنه كان لفرنسا دور في تأسيس هذه الجمعيات ذات الطابع العنصري الديني ص ٣٦ ، اما المفيد الاكبر من هذه الجمعيات فكان كبار الملاك ، وعملوا على تحويلها الى مؤسسة اقتصادية تتبنى وتحترم مصالحهم الطبقية وأطماعهم ، وعلى سبيل المثال تصدت تلك الجمعيات لمهمة تنشيط تصدير الحمضيات ، علاوة على قبولها بتكليف سلطات الاحتلال البريطاني لها لتوزيع القمح والاسمنت على الاهالي ص ٣٨ ، ولم يكن لها مهام عملية نضالية سوى ارسال البرقيات وتقديم العرائض ص ٣٩ ، بينما الجماهير

تعانـــي الأمرين في ظـل الاحتـلال البريطاني والاستيطان الصهيونـــي المستفحـل ، فأخـذ الفلاحون يتقاطرون ، مطرودين ، من الاراضي التي نجح الصهاينة في ابتياعها ، الامر الذي جعل للجماهير أسلوبها الخاص في النضال ، والذي تميز بالعنف والصلابة ص ٤١ ، وتكشف الوثائق السرية البريطانية والصهيونية الستار عن أنه ، في أوائل عام ١٩١٩ تشكلت جمعية عربية سريـــة في القـــدس ، وعرفت باسم « الفدائية » ، وضمت بعض رجال الشرطة والدرك ص ٤١ ، وراحت تعد لانتفاضة مسلحة، أما في عـــام ١٩٢٠ ، فشنــت عصابات من الفلسطينيين المسلحين هجوما على مستعمرتي المطلة وتل حي شمال فلسطين ، غير أن عناصر الثورة المضادة لم ترق لها أساليب الكفاح التي اعتمدتها الطبقات الشعبية ص ٤٢ ، فعمدت الـــى التجمـع في « الحزب العربـــي الموالي لبريطانيا » ، هكذا بلا مواربة ص ٤٢ ، وكان الحزب ممثلا لمصالح الطبقة الكومبرادورية في البلاد ص ٤٣ ، ولكن الحزب وبعد تسلل عناصر ثورية من المثقفين والفلاحين الى عضويته ، تقدم الى مواقع أكثر وطنية ، وفي العام نفسه ١٩١٩ ، تأسس أول حزب ماركسي في فلسطين، حيـث أوفـد الكومنترن بعض مندوبيه الـــى فلسطين ، واحتوى بعض المهاجرين الجدد من اليهـود وبعض القاطنـين ، وعمل علـى نشر الدعوة البلشفية ص ٤٤ ، وتميز تاريخ الحزب ، في مرحلته الاولى ، اي حتى عام ١٩٢٩ ، بالعزلة والمساهمة المحـدودة بالنشاط الثـوري ، لكنه أصدر قرارا شجب فيـــه الاحتلال البريطاني ص ٤٥ ، وفي عام ١٩٢٠ نظم مظاهرة في يافا ضد الاحتلال ص ٤٦ . بعد هذا العرض الموجز لانبثـاق وتطـور بعض الاحـزاب والجمعيات الفلسطينية ، يحاول المؤلف تعرية تاريخ علاقة أمريكا بفلسطين ، فمنذ منتصف القرن الماضي، سارعت الحكومة الامريكية الى شمول اليهود الاشكناز ، في فلسطين ، بحمايتها ، وتحت ضغط المفوضية الامريكية في الاستانة ، سمح الباب العالي ، لكل يهودي أمريكي ، يزور فلسطين ، بالبقاء شهرا ص ٣٦ ، وفي أمريكا التحمـــت مصالـــح الرأسماليين اليهـــود ، بالاحتكاريـــين الامريكيـــين ، وتأسست عـــام ١٩٠٦ ، اللجنة اليهودية الامريكية ص ٤٦ ، وهكذا ، في شباط ١٩١٩ ، اقترح الدكتور هوارد بليس ، رئيس الجامعة الامريكية في بيروت ، على مؤتمر الصلح ، تشكيل لجنة دولية لتحري رغائب السوريين ص ٥٠ ، وتبنى ولسون ، ولويد جورج البريطاني ، وكليمنصو الفرنسي، وأورلندو الايطالي هذا الاقتراح ، وبمضي ستة أسابيع ، أذاعت اللجنـــة المشكلة ، بيانا ، اعترفت فيه بالشعور المعادي لليهود ص ٥١ ، وساهمت شركات احتكارية أمريكيـــة ، مثل شركة ستاندرد اويل ، بتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين . وخلال السنوات الثلاث التي أعقبت الحرب العالمية الاولـــى ، تفجر الوطن العربي بالحركات الثورية ، وشاركت الحركة الوطنية الفلسطينية في هذا النضال ص ٥٢ ، خصوصا وان الاستعمار البريطاني عمد الـــى اغراق الفـلاح العربـــي الفلسطيني بالأزمات ، وفرضت السلطات البريطانية الضرائب العالية على المنتجات المحلية ، في حين سمحت باستيراد المنتجات الاجنبية، مما تسبب في اضعاف وخنق المزارع والصانع المحلي ، ولعل هذا يفسر سخط الفلاح والعامل الحرفي والرأسمالي العربـي ص٥٦، وأدى هذا السخط الى اندلاع اضطرابات ، عام ١٩٢٠ ، في الخليل ، وانعقد المؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا ، وفي تموز من نفس العام عين هربرت صموئيل مندوبا ساميا على فلسطين ، ولاحقا اعترف وايزمان بأنـــه كان وراء تعيين صموئيل ، مما أتاح تدفق الهجـرة اليهودية ص ٥٩ ، وتزايد سخط المثقفين العرب بسبب ضيق فرصهم للتعين في الوظائف الحكومية ، أمـا عفو صموئيل عــن عرب فلسطين الذين أدينوا في أحداث ابريل فلـم يجد ، واجتاحت حيفا مظاهرات احتجاج ص ٦٢ ، على موقف تشرشل المؤيد لليهود، وتعيين الملوك الهاشميين الاثنين ، فيصل وعبدالله ، واستبدال المجلس الاستشاري بمجلس تشريعي ص ٦١ ، ولكن موسى كاظـم الحسيني لعـــب دورا كبيرا في تهدئة النفوس الثائرة، بناء على طلب المندوب السامي ، واتهمــت الجمعيـــات الاسلامية المسيحيـــة العناصر الشيوعيـــة باشعال نـــار الفتنة ، وهكذا تم القضاء على بوادر هذه الحركة الوطنية في مرحلتها الاولى ، وشملت الحركات الوطنية ، في العالم ، تراجعات امتدت

طوال عشر سنوات ، ويلخص المؤلف أسباب هذا الركود بالنقاط التالية ص ٦٥ : أولا - ضعف وتردد قيادة الحركة الوطنية ، ثانيا - خوض الحركة الوطنية الفلسطينية النضال بعد سلخها عن سوريا ، ثالثا - مواجهة الحركة لاستعمار صاعد ، رابعا - الصهيونية كعدو ثان لا يُستهان بخبرته .

ثم يستعرض المؤلف في الصفحات التالية تاريخ بعض الوعود والعهود والاضرابات المتعلقة بفلسطين ، ويرى ان استراتيجية الحركة الوطنية في هذه الفترة ، اي ما بعد عام ١٩٢١ ، فقد عبر عنها موسى كاظم الحسيني أكثر من مرة ، حين أدلى في أوائل عام ١٩٢٤ ، بحديث للصحفي اليهودي الامريكي أوسكار ستراوس، قال فيه ، لا نريد ان يحكمنا أحد ، لا الانجليز ولا الإتراك ، نريد حكومة وطنية مستقلة فيها نواب للمسلمين والمسيحيين واليهود ص ٨٢ ، وفي الجانب الاخر ، جانب معسكر الثورة المضادة ، ازداد النشاط واتسع ، بعد قرار انتداب بريطانيا ، ولشق الجمعيات الاسلامية المسيحية ، وبث الفرقة بين عنصري الأمة من مسلمين ومسيحيين . ولا نفهم نحن بالطبع كيف يبيح المؤلف لنفسه هنا ، أن يمجد الجمعيات الاسلامية المسيحية ، في الوقت الذي ادانها فيه ورأى ان بريطانيا هي منشئتها الحقيقية . مقول بدأت عام ١٩٢١ بعض عناصر الثورة المضادة في تشكيل ما أسمته الجمعيات الاسلامية ص ٨٤ ، على حد تعبير المؤلف ، ولقد احتضنت الحركة الصهيونية ، وحكومة الانتداب نشاط الثورة المضادة وباركته ص٨٥، فتزعم الصهيوني ، كلفريسكي ، حركة الدعاية بين العرب ، وألف الجمعية العربية اليهودية ص ٨٥ ، ودعا بولس شحادة ، أحد المتعاونين مع سلطات الانتداب ، وصاحب صحيفة مرآة الشرق ، الى تكوين حزب حر معتدل ، وانعقد المؤتمر الاول للحزب في القدس ، برئاسة عارف الدجاني ، وتسمى باسم الحزب الوطني ص٨٦، وفي عام ١٩٢٣ تم تأسيس حزب الزراع على نمط سابقه ، أما حزب الاهالي فتم تأسيسه عام ١٩٢٥ ، في نابلس وشارك فيه عبد اللطيف صلاح ، وعادل زعيتر ، ومحمد صلاح ص ٨٧ ، وفي هذا الوقت سهلت التشريعات التي سنتها حكومة الانتداب، من تدفق المهاجرين اليهود ، حتى فاق عددهم ، رسميا ، في عام ١٩٢٩ ، ما يزيد عن ١٠٠ ألف مهاجر ، عدا عن الآف المتسللين ص ٨٩ ، واقترنت الهجرة بنزع أراضي الفلاحين العرب، وكان متوسط الضريبة المفروضة على الفلاح العربي ٣٫٨٧٠ جنيهات ، بالاضافة الى جنيهين ، من الضرائب غير المباشرة ، في حين كان متوسط دخله ١١٫٨٠٠ جنيها ، مما أوقعه فريسة للمرابين الذين كانوا يقرضونه بفائدة تتراوح بين ٣٠ - ٥٠٪ . أما العمال فقد تفاقمت أزمتهم ، بعد الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت البلاد منذ عام ١٩٢٧، امتدادا للأزمة العالمية ص ٩١ ، كما حرم العرب من التعليم العالي ، لكل ذلك ، كان طبيعيا أن تنجذب الى الحركة الوطنية كل الطبقات المتضررة ، العمال ، المثقفون ، البرجوازيون . ولا ندري لماذا أقحم الباحث هنا البرجوازيين ضمن الفئات المتضررة ، خصوصا وأنه وصفهم بالكومبرادورية ، ومفهوم هذا أنهم مرتبطون بالاحتكارات والمصالح الاجنبية الامبريالية . ويرى المؤلف بعد ذلك أنه لهذه الاسباب مجتمعة ، توالت الاضرابات والمظاهرات والاصطدامات ، ففي ٢٤ أيلول ١٩٢٨ ، على أثر محاولة اليهود احتلال حائط المبكى ، اشتعل استياء عارم لدى العرب ، مما دفع سلطات الاحتلال الى تدارك الامر بازالة ستائر ومقاعد كان اليهود قد أقاموها ص ٩٦ ، وكذلك في ٢٣ آب ١٩٢٩ احتشد المصلون في المسجد الاقصى ، وكرر المشايخ ، على مسامعهم الدعوة الى الصبر والصمت ، بيد أن نفرا من الحاضرين اعتلوا المنبر ونددوا بالشيوخ وطعنوا في وطنيتهم ص ٩٧ ، وفي خضم ارتفاع موجة الكفاح الجماهيري استقدمت الحكومة البريطانية ، في ٢٥ - ٢٦ آب ذاته ، خمسة الاف جندي من مصر ومالطة ، وقبعت ١٢٠ طائرة لمواجهة ما يستجد ، وفي نفس الشهر ، من نفس العام ، هاجم عرب صفد المستوطنين اليهود المتواجدين في مدينتهم ، ونتيجة الهجوم أسفرت عن قتل وجرح ٤٥ منهم ، كما استشهد ٩ من العرب وجرح ٢٦ منهم ص ٩٩ ، ويصف الباحث مزية الحركة الوطنية في الريف ، بأنها اتخذت طابعا معاديا للصهيونية ، حيث اخذ الثوار يغيرون على المستعمرات ص ٩٩ ،

وبوصول جون فيلبي ، الى فلسطين ، الذي أشهر اسلامه وتسمى باسم عبدالله ، تم التغرير بقادة الحركة الوطنية حين بسط أمامهم مشروعا بحل القضية ، واستكمالا لعملية التغرير ، أرسلت الحكومة البريطانية ، لجنة برلمانية ، في محاولة منها لالهاء العرب وتبريد الموقف ص ١٠١ ، وفي العام التالي ١٩٣٠ أصدرت بريطانيا كتابها الابيض ، حيث أكدت فيه ، أن صك الانتداب هو تعهد دولي لا يمكن العدول عنه ، وفي هذا الوقت ، هب العرب ، واقتحموا الحدود من الاردن وسيناء وسوريا لنجدة اخوانهم في فلسطين ص ١٠٤ ، بيد أن هذه الهبة لم تتطور باتجاه ثوري بسبب قصر عمرها ، ولفشلها عدة أسباب يبرزها المؤلف : أولا — حرمان الحركة الوطنية من القيادة الثورية ، ثانيا — ضعف الثورة نتيجة تفتتها ، ثالثا — الضباب الفكري ، فلا فكر ثوري يفرز الاصدقاء عن الاعداء ، ويحدد معالم الطريق ، ومن ثم الافتقار الى برنامج سياسي وعسكري صحيح ·

على ان هذه الهبة اقنعت الجماهير بان الصهيونية ، تستند الى الحرب الامبريالية البريطانية ·

ان الاكتشاف الاول والاهم ، الذي حققه المؤلف ، هو عدم وجود الامان للقيمة الزائده ، لدى البرجوازية في سوريا ، وكان في مقدور الباحث ان يستفيد من اكتشافه هذا ، بأن يستخدمه كبوصلة ، يتحرك على هديها لتعرية الاسباب التحتية التي جعلت البرجوازية العربية تظل اسيرة التردد والمماحكات ، ولكنه لم يستفد من اكتشافه بل أورده كرأي فحسب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اتضح في هذا الفصل ، ان المؤلف يصف شيئا جديدا وهو لايلقي الاتهامات جزافا ، فلا يصنف قادة تلك المرحلة في خانة الخونة ، ولكنه يشدد على ان مواقفهم المتخذة تنبع من مواقعهم الطبقية وان كان هذا التحليل يفلت من بين اصابع المؤلف في احيان كثيرة الا انه يفيدنا حقا، غير انه ، اي الباحث ،يفقد قدرته على التمييز بين الهام والجوهري من جهة ، وبين الانى والعابر من جهة اخرى ، فهو يحدثنا عن احداث لا تكمن فيها أي أهمية ، وهو يتناسى تلك النظرة الميتافيزيقية التي كانت تعتنقها الجماهير وكان لها إكبر الاثر في امور كثيرة ، ومن الواضح أيضا أن النظرية عنده تستبق البحث ، ولنلاحظ أن المنهج الماركسي يستخلص النظرية من اعماق الواقع وليس العكس ، والباحث اراد فرز الطبقات ، واثرها في المجتمع الفلسطيني ،فسقط في هوة التبسيط والتسطيح ·

الفصل الثالث — الحركة الوطنية تستكمل ملامحها · يرسم المؤلف ، في هذا الفصل ، الخطوط العامة لصورة مسار الحركة الوطنيه ، فيسجل : انه بانتكاسة هبة آب ١٩٢٩ ، تأكد للجماهير العربية الفلسطينية ، عقم اساليب النضال السلبية التي انتقتها لها قياداتها الرجعية ، وتميزت الفترة التالية ، التي انتهت بانتهاء ١٩٣٩ ، بالمسار الصحيح للنضال ،نضال ضد العدو الرئيسي ، الاستعمار البريطاني ص١١١ ، وافادت تقارير البوليس والمخابرات البريطانية ، في فلسطين وشرق الاردن ، تشرين الاول ١٩٢٩ ، ان الاعداد لتكوين عصابات مسلحة كان يجري على قدم وساق ص ١١٢ ، ويعلن الباحث ، ان هذا التطور اتى تعبيرا عن نمو الطبقات الجديدة ، البرجوازية بفئاتها، والعمال ، وفي اطار تفاقم الازمة الاقتصادية العالمية ص ١١٣ ، ونتيجة لطرد الفلاحين من اراضيهم ص ١١٣ ،كل هذا انعكس في المجال السياسي ، وادى الى احداث تمايز طبقي وطني ثوري ، تمثل في تبني كبار الملاك للاتجاه الديني ، وتبني العناصر البرجوازية للاتجاه القومي الليبرالي ص ١١٤ ، ثم ادى فتح الاسواق — بواسطة الاستعمار — الى احداث تغييرات جوهرية في التكوين الاجتماعي ، اضمحلت على اثره العلاقات الاقطاعية ص ١١٦ ، ولكن يضيف الباحث ، انه من المألوف أن تتسم برجوازية المستعمرات بالمحافظه ، نتيجة العوامل التالية : اولا — انحدارها من طبقة الملاك الشديدة المحافظة ، ثانيا — طبيعتها الطفيلية ، بسبب نشأتها في احضان الاستعمار · ثالثا — انعدام تراثها الفكري والحضاري ·

لا بد لنا من ابداء ملاحظة فورية على هذه النقاط ، لقد قال لنا المؤلف في الفصل الاول ان

البرجوازية العربية قد انضجت فكرها في القرن الماضي ، وها هو ينفي هذا هنا ، ونتساءل أيضا ، كيف يصر المؤلف على ان البرجوازية الفلسطينية شقت طريقا جديدا للنضال وهي تفتقد الادوات العملية لتحقيق هذا الهدف ،مثل الاستقلال عن المصالح الاستعمارية وامتلاكها لتراث فكري واجتماعي ، وفي الحقيقة ان المؤلف تقوده نظرية اعتنقها مسبقا وهذا ما يعطي لبحثه طابعا غير منسجم واعتباطيا في احيان كثيرة ثم يبرمج الباحث دور المثقفين فيقول . قد أسهم المثقفون الفلسطينيون ، بقسط وافر في انارة الجماهير ، بالخطب والمقالات والندوات ، واتسع عددهم في هذه الفترة ، ويتناقض المؤلف مع ذاته حين يؤكد : ان انشاء البنوك العربية ، البنك العربي عام ١٩٣٠ ، والبنكين الصناعي العربي والزراعي ١٩٣٥ ، قد جاء تعبيرا عن تطور ونضوج البرجوازية العربية من الناحية الاقتصادية ص ١٤٠ ، ولسنا نفهم هنا ، ما هو هذا النضوج ، ونحن نعلم مدى اسهام البنوك والشركات البريطانية بتحويل هذه البنوك ، وتكريسها لخدمة الاهداف الاستعمارية ، وكان من الافضل ان ينقب الباحث عن الادوار الحقيقية التي لعبتها هذه البنوك . ثم يرى المؤلف ان وفاة موسى كاظم الحسيني ١٩٣٤، ، افسحت المجال لتشكيل احزاب ، فجرى تشكيل حزب الاحرار ص ١٢٣ ، ومركزه حيفا في آذار ١٩٣٠ ، وهدفه المعلن هو الاستقلال التام ، ويقول المؤلف ان بعض العناصر المؤسسة لهذا الحزب كان يتعامل مع الحركة الصهيونية ، وهم ممن باعوا وسمسروا لها في مجال الاراضي ص ١٢٤ ، ثم تأسس حزب الاستقلال في القدس ، آب ١٩٣٢ ، وبالرغم من ان تركيب الحزب الطبقي كان من المثقفين ، وابناء كبار الملاك ، الا انه كان اقرب الاحزاب السياسية تعبيرا عن مصالح البرجوازية ، والملاحظة التي نجبر على ابدائها ، هي اننا لا ندرك الكيفية التي تم على قاعدتها هذا الفصل التعسفي بين الاحزاب ، وليس هناك ادلة متينة تدعم ظنه ، ثم كذلك في تلك الفترة تألف حزب الدفاع الوطني ذي النزعة المضادة للثورة ص ١٢٧ ، وكذلك الحزب العربي الفلسطيني ، ابريل ١٩٣٥ ، برئاسة جمال الحسيني والفرد روك ، وكان المفتي هو الاب الروحي لهذا الحزب ، مما جعل الجماهير تلتف حوله ص ١٢٧ ، اعتقد ان في هذا ما يبرهن على مقولتنا السابقة ، حول نظرة الجماهير الغيبية التي كانت عاملا قويا يوجه انتماءها وتحركها ، هذه النظرة التي لم يتناولها المؤلف بشكل كاف . وبعد ذلك تم تأسيس حزب الاصلاح في القدس ، حزيران عام ١٩٣٥ ، وطالب بالاستقلال ومنع الهجرة والسعي لعقد معاهدة بين العرب والانجليز ص ١٢٨ ،وكذلك تأسيس حزب الكتلة الوطنية ، واعتبر السعي الى الاستقلال اول اهدافه ، اما الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فوجد في صفوفه بين الشيوعيين العرب واليهود ، وكافح منذ نشأته ، ضد الاستعمار والصهيونية . وتميزت الفترة هذه بازدياد مساهمة الحزب الشيوعي ص ١٢٩ . ومن ناحية اخرى ازداد معدل تسرب الارض من ايدي الفلاحين ، وتدهورت حالتهم الى الفقر ص ١٣٠ ، كل هذا جعل الفلاحين يتصدرون النهوض الثوري ص ١٣١ ، وبالجانب الثاني من المشهد ، اخذ عدد الطبقة العاملة يتسع ، فبلغ عدد العمال العرب عام ١٩٣٥ ، ٣٣ ألفا ، وانخفض بسبب ثورة ١٩٣٦ الى ٣٠٢٩ ص ١٣٢ ، وتفاقمت أزمة العمال العرب حدة حين بدأ الصهاينة في الاستغناء عنهم ص ١٣٣ . ولقد عبر النهوض الثوري الذي كونته العوامل الانفة الذكر ، عن نفسه من خلال المؤتمرات والمظاهرات والصدامات مع القوات البريطانية ، ففي آب ١٩٣٥ ، قمعت القوات البريطانية اضرابا نظمه عرب فلسطين للاحتجاج على تسليح الحكومة لسكان المستعمرات الصهاينة ص ١٣٨ ، وعندما اتسعت الهجرة اليهودية ، المباركة من قبل قوات الانتداب ، عام ١٩٣٣ ، وبلغ عدد المهاجرين اليهود الرسميين ١٥ ألفا ، وطالبت المنظمات الصهيونية ، باربع وعشرين الف تأشيرة اخرى ص ١٤٠ ، تظاهر في القدس ٥ الاف عربي ، رغم هروع بعض قادة الحركة الى احضان السلطات البريطانية خوفا من اندلاع ثورة ص ١٤١ ، الا ان البوليس ،وحرس الحدود تصدوا للمظاهرة وفتحوا النار عليها ص ١٤٢ ، وفي نابلس هاجم ٣ آلاف متظاهر سكة الحديد وفرع بنك باركليز واعلن الطلبة الاضراب ، ولكن كان لعناصر الثورة المضادة

دورهم في اجهاض الانتفاضة ص ١٤٤ ، وقدرت لجنة السير وليم موريسون عدد القتلى بـ ٢٦ عربيا وشرطي واحد ص ١٤٥ ، بيد ان الانتفاضة في مجمل الاراضي الفلسطينية ، امتدت ستة اسابيع ص ١٤٦ ، ففي هذا الوقت بدأت حركة القسام بالظهور ص ١٤٨ ، وبدأ القسام بالحلقة الرئيسية ، وهي تنظيم الخلايا السرية ، ولقد اتسع تنظيم القسام مع تزايد السخط الشعبي ص ١٥١ ، فلجأ الى المدينة ، حيث يقيم السكان الاكثر تعلما ص ١٥٥ ، وعندها سارع المندوب البريطاني الى الاجتماع بكبار العسكريين البريطانيين لدرء خطر القسام المستفحل ، وتحركت حملة ، حوالي ٥٠٠ جندي بريطاني وطوقت منطقة قرية البارد ، التي وقعت فيها اشتباكات بين رجال القسام وسلطات الاحتلال ، ودار بين الطرفين قتال غير متكافىء ، قضي على حركة القسام فيه ص ١٥٦ ، ويستخلص المؤلف الدروس المستفادة من حركة القسام : أولا — انها توجهت نحو العدو الرئيسي ، الاستعمار البريطاني ، ثانيا — لم تحقق اهدافها ولكنها حفزت الجماهير واوضحت لها امكانية الكفاح المسلح ، ثالثا — الاخذ بزمام المبادرة ، رابعا — فرضت اعتبارات الامن على القسام اختصار تنظيمه على النخبة مما ادى الى ضيق الحجم، خامسا — الخطأ الاساسي ان القسام حصر نشاطه في منطقة واحدة ص ١٥٨ .

هذه بعض الدروس التي اوردها المؤلف نضيف اليها ان حركة القسام كانت اول حركة ثورية عربية استعملت في تنظيمها البؤرة الثورية .

ثم يتوجه المؤلف الى ايراد البواعث التي ادت الى ثورة ١٩٣٦ ، ومنها ، ان اليهود اخذوا يعتدون على الفلاحين العرب ، وارتفاع ضريبة الدخل ، وتدهور صناعات الرأسماليين العرب ، امام الرأسماليين الصهاينة الذين استوردوا المعدات الحديثة ص ١٦١ ، اضافة الى ذلك كانت هناك عوامل خارجية عربية وعالمية ، منها تاجج النضال في مصر ص ١٦٢ ،وسوريا ، ووصول النازي الى الحكم واضطهاد اليهود الالمان ، مما ادى الى تدفق المهاجرين اليهود من المانيا الى فلسطين ، وينسى المؤلف ان يشير هنا الى تأييد الحركة الصهيونية للاضطهاد النازي ، بهدف دفع اليهود الى الهجرة ، كل هذه العوامل ضيقت الخناق على المواطن الفلسطيني مما دفعه الى الثورة عام ١٩٣٦ ، ونفذت المدن الفلسطينية العصيان العام ص ١٦٥ ، وقامت الطائرات البريطانية باكتشاف تجمعات لعصابات عربية في الجبال ، واطلق الثوار النار على المندوب السامي ، في ١١ حزيران من نفس العام ، وحاولوا اغتيال سيكرست ، مفتش شرطة القدس ص ١٦٦ ، وفي آب ايضا ، دخل فوزي القاوقجي البلاد على رأس ٥٠٠ مجاهد عراقي ص ١٦٧ ، وسارت الثورة باتجاه التنظيم ، الا ان حكومة الانتداب واجهتها بسياسة خاصة ، فسنت قانون الطوارىء ، الذي تضمن عقوبات بالغة القسوة ، حتى بلغ عدد المعتقلين العرب ٦٠٠ ، عدا العشرات من القتلى والجرحى ص ١٦٧ ، وفرضت حينئذ الاحكام العسكرية العرفية ص ١٦٩ ، وتحركت رجعية البلاد العربية لتصفية الثورة ، من امثال نوري السعيد وبشوات مصر واستسلمت قيادةالثورة لنداءات ملوك ورؤساء رجعيين فانهى الاضراب الكبير بعد ان دام ٦ أشهر ص ١٧٢ ، ويصف المؤلف الثورة ، بانها وطنية ديمقراطية ، ويتضح هذا من اهدافها والطبقات التي شاركت فيها ص ١٧٩ ، وقد تمثلت عيوبها في التردد والخوف من حركة الجماهير ص ١٨٤ .

يقول ماركس ، في مؤلفه البياني الشيوعي ، اننا نصف الثورة حسب طبيعة الطبقة التي تستفيد منها ، ولكن المؤلف لا يستفيد من هذه المقولة ونراه يصف الثورة بأنها وطنية ديمقراطية في نفس الوقت الذي يشير فيه الى طابعها الشعبي ، الذي استفادت منه الطبقة المرتبطة بمصالح واهداف ومواقع الاستعمار ، او كما يعترف الباحث نفسه بانها ، مرتبطة باحسن احوالها بالبنوك والشركات الاحتكارية .

الفصل الرابع — انحسار فأزمة : يعالج المؤلف ، ها هنا ، مسألة كررها عدة مرات ، ولكنه لا يستقر فيها على حال ، وهي مسألة نمو البرجوازية الفلسطينية ، ونصادق معه على ان البرجوازية الفلسطينية ترعرعت آنذاك ، ولكنها برجوازية من نمط خاص ،

وتتصف بالطفيلية والتذبذب والهروب من الدائرة الوطنية ، فالبرجوازية الفلسطينية نمت بفعل ظروف الحرب العالمية الثانية ، وأجبرت الاستعمار على الاعتماد على البضائع المحلية لسد الاحتياجات ، ولكن القنوط عاد فاصاب هذه الطبقة عقب انتكاسة الثورة، وهدوء المناخ العالمي، ونستطيع مع المؤلف ان نفهم ونفسر هروب قطاعات واسعة من البرجوازية العربية الفلسطينية تجاه الاستعمار ص ١٨٩ ، ولكن المؤلف يناقض نفسه حين يشير الى نمو القوى الثورية العالمية ، وخضوع البرجوازية الوطنية ، كما يصفها ، ونكرر ان المؤلف واقع تحت تأثير نظرية جاهزة ، فرغم كل الخصوصيات ، التي لم يتجاهلها حتى ماركس ، لنمط الانتاج الاسيوي يبرر المؤلف الاسباب والبواعث التي قادت الى ثورة ١٩٤٨ بانها قنوط لا غير ، والواقع ان اتساع اعمال المعسكرات الحربية البريطانية التي وطدت تواجدها في فلسطين ، كانت اجور العمال العرب جد متدنية ص ١٩٥ ،ومع ذلك ارتفعت انتاجية العامل العربي الى مستوى انتاجية العامل اليهودي ، زد على ذلك ، أن ظروف حياة العمال العرب كانت غاية في القسوة ،ويستهلك ايجار البيت ٤٠ ٪ من اجرة العامل الفلسطيني ص ١٩٧ ، ومن ناحية اخرى كانت الضرائب المتصعدة ، تحول دون افادة الفلاح من التغيير العالمي ، الذي دفع بالاستعمار لاعتماد الانتاج المحلي ص ١٩٩ ، كما حملت مصروفات الدولة نفس الطابع المتعسف ، حيث احتل البوليس والسجون ، في هذه المصروفات ، المرتبة الاولى ص ١٩٩ ، في حين ان حصة الصحة ٢٦ ٪ من كل المصروفات ، والتعليم ٥ ٪ فقط ص ١٩٩ ، ولكن رغم تسطير المؤلف لهذه الحقائق الا انه لا يستنطقها بما فيه الكفاية ، فالثورة لم تكن ثورة وطنية فحسب ، بل ثورة فيها الكثير من المشاكل والقضايا الطبقية ، وفي ايلول ١٩٤٣ اسس الشيوعيون العرب بينهم حزبهم الجديد « عصبة التحرر الوطني » بعد انشقاقهم عن الحزب الشيوعي الفلسطيني ، واصدروا صحيفة اسبوعية باسم الاتحاد ، ترأس تحريرها اميل توما ، وكافحت العصبة ضد الهجرة ونادت بانشاء حكومة ديمقراطية مستقلة ص ٢٠٢ ، وفي نيسان ١٩٤٤ ، اعاد الحزب العربي تشكيل فروعه ، ولكن اخذ بعض قادة الحركة الوطنية بالتساقط ، وحينما اتى عام ١٩٤٦ اصدرت اللجنة الانجلو اميركية المتواطئة ، تقريرها الذي اوصت فيه بادخال مئة الف يهودي الى فلسطين. بهدف خلق توازن بشري ص ٢١١ ، وامام تفاقم الازمة احال الاستعمار البريطاني قضية فلسطين الى الامم المتحدة ، وفي ايلول ١٩٤٧ ،اصدرت اللجنة المرسلة من الامم المتحدة قرار التقسيم ص ٢١٣ ، وحينما اقرت الجمعية العمومية مشروع التقسيم ، دخل جيش الانقاذ بقيادة القاوقجي وكان العرب يتسلحون ببنادق قديمة ، وفي عام ١٩٤٨ ، اي ١٥ أيار ، ساهم الجيش الاردني والمصري بنزع الاسلحة من ايدي المناضلين ص ٢١٤ .

هذا الفصل تتداخل قضاياه ومن الصعب تلخيصه تلخيصا دقيقا ، وراجع هذا التداخل الى عدم الوضوح الفكري في ذهن الباحث ، وفقدانه لادوات منهجية دقيقة ، بحيث يضيع فرصة استنطاق الوقائع والارقام استنطاقا دقيقا وحاسما ، وعلى أية حال نجمل نقدنا بما يلي :

اولا ـ ان الكتاب ، بحد ذاته ، بادرة جيدة من نوعها ، ولكنها مسطحة من حيث الترتيب الفكري والمنهجي ، ولقد عانينا في قراءته ، ليس بسبب الغموض ولكن بسبب التشابك في العرض ،وربما يعود هذا التسطيح والتهوش الى نوعية الدراسة ، وهي دراسة علمية لقضايا تاريخية ، وهذه الدراسة لم تزل في عالمنا العربي غير دقيقة وانفعاليه ، .

ثانيا ـ يخلط المؤلف بين مفهوم البرجوازية الاوروبية ومهامها التي حققتها ، وبين البرجوازية الشرقية التي تعتمد على الاستيراد والتحالف مع الاحتكارات وتفتقد من ثم مهامها الوطنية .

ثالثا ـ اعتمد المؤلف كثيرا ، والى حد التخمة ، على افكار ماركسية جاهزة متقولبة في ظروف وازمنة معينة ، ومن المفيد ان نستعمل المنهج الماركسي لا الايديولوجية الماركسية .

هذه بعض ارائنا النقدية وعسانا ان نكون قد شخصنا نقاط الضعف للافادة منها في بناء دراسات اخرى في المستقبل .

هاني الزعبي

[٢]

كتاب بذل فيه جهد كبير في جمع المعلومات الغزيرة ، ويتميز بأسلوب سهل متزن ودسم في الوقت نفسه ، بحيث أن كل لفظ فيه يقصد معنى أو فكرة · ولكن السمة العامة والبارزة التي يمتاز بها هذا الكتاب هي منهجه : انها دراسة تحليلية للمراحل التاريخية المختلفة التي مرت بها نضالات الشعب العربي الفلسطيني حتى النكبة · وفي الحقيقة ، كان الاوفق أن يكون عنوانه « تطور الحركة الوطنية الفلسطينية » · فاذا كان المؤلف قد أعطى للاحداث وتواليها الزمني اهتماما ، وأبرز بطولات الافراد والمجموعات والجماهير الفلسطينية التي دافعت عن أرضها في شرف وتضحية ، الا أنه وجه معطيات البحث بحيث تشكل خطوطا تربط بين الوقائع وتفسرها الى درجة كبيرة · وفي أغلب الاحيان نجد الكاتب يشاركنا في استنتاج هذه الخطوط العامة بأن يوضحها على صورة تمهيد تسرد الحوادث أو خاتمة تستخرج منها العبرة ·

وقد عنى مؤرخون – سبقوا عبد القادر ياسين – باحياء التراث الكفاحي للشعب الفلسطيني المجيد · وكانت أعمالهم مفيدة وهامة ، وان اكتفت غالبا بتسجيل الاحداث · فقد ساعدت على تأكيد الوجود الحاضر لهذا الشعب باعتباره استمرارا لماضيه الطويل ، وقوت جذوره في أرضه ولو عاش في المنفى · فكانت مساهمة عظيمة في تلك العملية التي أثمرت بتبلور الشخصية الفلسطينية وظهورها في الميدان العربي كقوة لها ذاتيتها ويستحيل طمسها ·

الا ان التنقيب في التاريخ الفلسطيني باعتباره مادة يدرسها العلم أمر حيوي · وذلك لأن التحليل العلمي يرمي الى البحث عن القوانين العامة التي حكمت سير الاحداث وترابطها ، ودفعت بالافراد والجماعات الى التحرك في الاتجاه العام الذي تدل عليه خطواتهم · ومتى أدرك الانسان قانونا من قوانين العلم ، استطاع ان يستخدمه أداة لصالحه · ومن هنا كانت القيمة الكبرى لمؤلف عبد القادر ياسين· اذ أنه يعيد أسباب الصراع السياسي وأساليبه ونتائجه الى المصالح الطبقية المتواجدة · ويوضح أن هذه المصالح بدورها صادرة عن علاقات اقتصادية واجتماعية موجودة ، ولكنها غير ثابتة وتتطور· وتستقطب عوامل التطور الاقتصادي هذا الطبقات الاجتماعية والقوى السياسية المعبرة عنها الى معسكرين ، أحدهما معسكر التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، والاخر معاد له · ولكل منهما طليعة قيادية تتكون من الفئة الاجتماعية السائدة على الباقي والأقدر على فرض فكريتها وأساليبها · كما أن بين القيادتين جسورا وروابط كثيرا ما تحول دون ان ينتهي الصراع الى نتيجة حاسمة ·

ومنذ أن قامت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، يتكرر التساؤل في بعض الاوساط الوطنية عن أسباب النكبة والهزائم المتتالية التي منيت بها الدول العربية بعد ذلك · فهل تكمن الاسباب فقط في المسؤولية الشخصية لهذا الفرد أو ذاك من الحكام والقادة ؟ لو كان هذا صحيحا لانحصرت المشكلة في اختيار الحاكم الصالح ، وقد حدث فعلا أن تولى قادة وطنيون في هذه الفترة او تلك ، ولكنهم فشلوا، مما يدل على ان الامر ليس قضية فرد دون غيرها ··· أم ان التخلف الحضاري العربي والفقر يجعلان مستحيلا التغلب على القوة الصهيونية الاستعمارية بملايينها وجيوشها الآلية ومفكريها المستعينين بالحاسبات الالكترونية ؟ ولكننا نشهد شعوبا فقيرة ومتخلفة أيضا – في كوبا وفيتنام ، وفي كامبوديا وبنجلاديش وأريتريا – تنزل الضربات القاصمة بذلك العملاق الامريكي وأعوانه ، وتزيحهم من طريقها ·

يجيب كتاب عبد القادر ياسين على ذلك التساؤل في ثنايا صفحاته ، وان كنا نعاتبه على عدم وضع اجابته في صيغة مركزة محددة : تستطيع الحركة الوطنية أن تنتصر لو كان لها واضحا أن العدو الاساسي هو الاستعمار ، ولو تبنت قيادتها خطا سياسيا يعبر عن مصالح الجماهير الكادحة الواسعة ، ولو أقامت الطليعة شبكة من الارتباطات التنظيمية المتينة بينها

وبين مختلف الركائز الشعبية ٠٠ وقد تجعل الظروف المحيطة ـ الدولية مثلا ـ هذه الشروط غير كافية في فترات معينة ، ولكنها هي الشروط اللازمة والجوهرية على أية حال ٠

ان النضال الطويل الدامي الذي خاضه الشعب الفلسطيني البطل من أجل أرضه وكيانه وشرفه ليشكل كنزا لا يفنى من الخبرات والدروس لمن يعتبر ٠ ويمسك عبد القادر ياسين بيدنا ليضعها على العديد الهام منها ٠ وبعضها يلقي ضوءا ساطعا على المشاكل التي تواجهها الحركة الوطنية الفلسطينية اليوم ٠

ولعل العبرة الاولى تتعلق بعلاقة هذه الحركة بالشعوب والنظم الحاكمة العربية ٠ ولقد وقفت الجماهير العربية دائما مؤيدة للقضية الفلسطينية ، وان كان بصورة هامشية في أغلب الاحيان خلال الفترة التي تحت الدراسة ٠ أما اليوم ، فالقضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الاهداف الوطنية العربية ، بعد أن فتحت النكبة الطريق أمام التوسعية الاسرائيلية لكي تبتلع لا فلسطين كلها فحسب بل وأقساما كبيرة من أراضي الدول العربية الاخرى ، وتهدد الباقي ٠٠٠

غير أن التمسك بالتضامن العربي وبالحركة القومية العربية يجب ألا يجعلنا نفقد التمييز بين مصالح الشعوب ومصالح الطبقات الحاكمة، وفي تاريخ فلسطين انجناءات بارزة انحسرت فيها الحركة الوطنية عن تحقيق مرادها بسبب قبولها التدخل من بعض الحكام العرب (الامير عبدالله ، وابن السعود عام ١٩٢٩ ثم نوري السعيد وملك السعودية وأمير شرق الاردن وملك العراق وامام اليمن عام ١٩٣٦ الخ) ٠ هذا علاوة على الدور الذي لعبوه في حرب ١٩٤٨ ٠٠ وبعد النكبة انتشر في بعض الاوساط الرأي القائل ان حل قضية فلسطين لن يأتي الا على أيدي الدول العربية ٠ وتسبب هذا الرأي في اشاعة الكثير من اليأس والتواكل والسلبية بين صفوف الجماهير الفلسطينية ٠ ولم تحل الدول العربية القضية ، بل كانت ـ مدة طويلة ـ عاملا في طمسها ٠ وعلى العكس ، فمنذ أن أصبح من محاور الفكر الوطني الفلسطيني أن مفتاح الحل في أيدي أبناء الشعب المشرد ، بات واضحا ان استعادة حقوقهم القومية أمر ممكن من خلال النضال ، وليس من شك في أن متانة الوحدة الشعبية الفلسطينية حول المقاومة في العقد الاخير كان عنصرا فعالا في كتم أنفاس العناصر العميلة وشل تردد المترددين في الدول العربية ذاتها ٠

والعبرة الثانية التي يمكن استخلاصها من كتاب عبد القادر ياسين هي أن الاعتماد على الاستعمار كحليف أو صديق أو متفاهم ٠٠٠ لتحقيق الهدف الوطني ، مغالطة مجرمة ٠ ولقد لجأ الزعماء العرب الى الدولة المنتدبة لكي توقف الموجة الصهيونية سنوات بعد سنوات دون جدوى ٠ واستلفتت عيني عبارة قالها عوني عبد الهادي في شهادته أمام اللجنة الانجلوامريكية : ان الانجليز والامريكان سوف يعدلون عن مساعدة الصهيونية لانهم « لا يقبلون ابادة عرب فلسطين ولا يضحون بمصالحهم في البلاد العربية والاسلامية » ٠ وقد أثبت التاريخ ان النقيض تماما هو الذي حدث ، وان الاستعمار العالمي نجح في أن يغتصر المزيد ثم المزيد من الثروات العربية بالاعتماد على العصا الاسرائيلية الغليظة ٠ ونسمع اليوم بعض المسؤولين يرددون كلاما شبيها بحكمة عوني عبد الهادي بعد أن مرت عليها ثلاثون سنة : يحاولون ان يقنعونا بأن الاحتكارات النفطية الامريكية هي الضمان لاستقلال البلاد العربية ، وهي الحريصة على عودة اللاجئين الى بلادهم ٠٠٠ الا أن بعض دروس التاريخ العربي في فلسطين وغيرها دخلت عميقة في الوعي الوطني بحيث باتت دبلوماسية الخطوة خطوة تصطدم به في كل مناورة من مناوراتها ٠

والعبرة الهامة الثالثة هي أن الجماهير الشعبية ـ من العمال والفلاحين والمنتجين الصغار ـ هي القوة الفعالة في الحركة الوطنية، وهي دعامة الثورة ووقودها وضمان استمرارها ونجاحها ٠ وهي التي تستميت الثورة المضادة والجبهة الاستعمارية في سبيل ابعادها عن الميدان الوطني وجعله قاصرا على الشخصيات الرسمية « المعتدلة » التي تؤخذ ستارا لطعن القضية من ورائه ٠ غير ان التحرك الجماهيري العربي ـ وخاصة منذ أواخر الثلاثينات ـ أخذ

يبطن مضمونا جديدا ، هو استهداف التحرر من العسف الطبقي جنبا الى جنب الاستقلال عن السيطرة الاجنبية ٠ واذ أبرز عبد القادر ياسين ما جرى من التمايز الاجتماعي في المرحلة الاخيرة ، فقد ربط به أن أحد أسباب انحسار الثورة الوطنية تعود الى افتقار القيادة الى البرنامج الاجتماعي الذي يوحد المطالب الطبقية بالمطلب القومي العام، ويرسم صورة للمستقبل الذي يناضل الشعب من أجل انجازه ٠ وزادت ضرورة التمسك بمثل هذا البرنامج اليوم ، بعد أن أصبح الكفاح ضد الاستعمار مرادفا للكفاح ضد الرأسمالية في أذهان الجماهير العربية ، وبعد أن أقيمت في بعض البلاد العربية نظم أعلنت في وضوح انها تعمل من أجل الاشتراكية، وبعد أن ظهر المعسكر الاشتراكي العالمي كحليف وفي ثابت للقوى الوطنية العربية ٠

ويثير منهج الكتاب بعض الموضوعات التي تستحق أن يفرد الباحثون دراسات متأنية أخرى لها ٠ وقد يكون أهمها في نظري تبيان السمات الخاصة للاقتصاد والمجتمع الفلسطينيين قبل الاحتلال البريطاني ، وتراثها التاريخي ٠ ولقد كانت الاوضاع ـ كما ذكرها الكاتب ـ تتصف عموما بالتخلف ، وهذا صحيح ٠ ولكنه كان تخلفا خاصا ، متميزا عن التخلف المصري مثلا في تلك الفترة ٠ والدليل على ذلك ما نراه من تأثير العشائرية على تكوين القيادات الوطنية الفلسطينية وعلى مسار الحركة الجماهيرية ذاتها ، وهي سمة غير موجودة في التاريخ المصري الحديث ٠ ومن أين أتت هذه العشائرية ، وكيف امتزجت بشبه الاقطاع ؟ هذا سؤال سوف تساعدنا الاجابة عليه للوصول الى فهم أدق للحركة الوطنية الفلسطينية ٠

وكذلك تستحق المواقف المزدوجة لطبقتي كبار الملاك والبورجوازية الفلسطينية دراسة أوسع ٠ فما من شك في أن أشباه الاقطاعيين سعوا في الفترة المبكرة الى الاستقلال السياسي ، وان قبلوا ان يكون مبتورا ٠ وتصرفت البورجوازية أيضا بطريقة مشابهة بعد ذلك ٠ ولا أظن أن تلك المواقف المعارضة للاستعمار ـ هينة كانت أم عنيفة ـ عادت الى مجرد المناورات السياسية ٠ بل كانت تعبيرا عن مصالح اقتصادية واجتماعية لهذه الطبقات٠ وفي اعتقادي ان البحث في هذه النقطة سوف يساعد على رسم تكتيك اجتماعي أوضح للثورة الفلسطينية ٠

وأخيرا ، فعلاقة المثقفين العرب بالطبقات الاجتماعية الرئيسية امر يحتاج الى تفصيل وايضاح ٠ واكد عبد القادر ياسين في أكثر من موضع أنهم كانوا يعبرون عن البورجوازية ، ولكني أشك في الصحة التامة لهذا التبسيط ٠ فلنا مثلا أن نعتبر من المثقفين عددا كبيرا من صغار رجال الدين أو ذوي الثقافة « الشرقية » المستمدة من التراث الاسلامي ، وكانوا أقرب الى البورجوازية الصغيرة ، والفلاحين بصفة خاصة (مثال ذلك حركة القسام) ٠

ومهما كان الامر ، فقدفتح عبد القادر ياسين بكتابه الطريق لما سار عليه من منهج علمي قيم ٠ ونأمل أن ينتهل رواد اخرون مادة مستمرة من الذخر الثري الذي يمثله تاريخ فلسطين ٠

أحمد صادق سعد

اسرائيليات

مشروع شمعون بيرس
او
محاولة صهيونية لعزل المناطق عن الثورة

اقدم شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي يوم ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر ٧٥) علـى الاعلان عن بدء تنفيذ خطة طالما راودت حكام اسرائيل ، وترددوا في تنفيذها لاطماع اقليمية ، وهي « منح » اهالي الضفة الغربية وقطاع غزة صلاحيات اوسع لادارة شؤونهم الداخلية ذاتيا .

ليس الهدف من هذه الخطة الاستجابة الى مطالب الاهالي العرب بالتحرر من حكم الاحتلال الاجنبي ، بل لان حكام اسرائيل يعتقدون ان « الادارة الذاتية ستفرز زعماء محليين ـ لو جرت رعايتهم في الوقت المناسب لاصبحوا ثقلا مضادا « لمنظمات التخريب » كمتحدثين فريدين باسم الفلسطينيين » . (افتتاحية لجريدة دافار ٢٤/١٠/٧٥) .

وتعترف الدوائر الاسرائيلية (يديعوت احرونوت ٢٦/١٠/٧٥) ان كثيرين من وجهاء المناطق رغبوا ، بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، في اقامة هيئة محلية « تكون لها صلاحية تمثيل مليون نسمة ، هم سكان المناطق ، في الاتصال بحكومة اسرائيل . وفي تلك الفترة حاول يغال الون اقناع غولدا مئير بتشجيع سكان المناطق على بلورة زعماء محليين ... لكن السياسة التي اتبعت هي سياسة دايان ، الداعية الى منع التنظيم المحلي وترك السيطرة والخيارات في ادارة المناطق للملك حسين » (المصـــدر السابق) .

وهكذا اخذ حكام اسرائيل الان يندمون على « الفرصة » التي بددوها . ويبدو انهم ظنوا انه رغم كل ذلك لم يفتهم القطار . فأقدم شمعون بيرس ، يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، على طرح المشروع الاسرائيلي للمرة الاولى علنا امام الاهالي العرب بقصد ترقب ردود الفعل ، خاصة وانه لا ينطوي على اي التزام من جانب اسرائيل . فهو لا يعني حلا نهائيا ولا يسد اي خيار ، لا في وجه حكم ذاتي في نطاق اتحاد فدرالي مع اسرائيل ولا في وجه اتحاد فدرالي اسرائيلي / فلسطيني / اردني ، ولا حتى في وجه دولة فلسطينية مستقلة متدالفة مع اسرائيل شرط ان تكون شؤون الامن في يد اسرائيل ... » (يهوشع تدمور ـ دافار ٢٤/١٠/٧٥) .

اختار بيرس لتفجير قنبلته ، بلدة بيت جالا ، فصرح امام رئيس بلديتها ـ فرح الاعرج ـ ووجهائها : بأن « الفراغ في الضفة الغربية يجب ملؤه بواسطة ادارة ذاتية وحكم ذاتي » . (هآرتس ٢١/١٠/٧٥)

واذا كانت السلطات الاسرائيلية قد ترددت في طرح مشروعها هذا على امتداد سنين منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، فان بيرس قد طرح مشروعه « لاول مرة وبشكل قاطع لا يقبل التأويل بعد ان ظل يثير هذا الموضوع ، حتى الآن ، كاقتراح قيد نظر الحكومة » (يهودا ليتن ـ هآرتس ٢١/١٠/٧٥) .

وما ان كشف بيرس النقاب عن مشروعه حتى تناولته الصحف الاسرائيلية بالتعليق بعضها مشجعا وبعضها متحفظا او محذرا . فاعترفت اذاعة اسرائيل ان « هذه الفكرة لم تلق حماسا في الضفة الغربية (رأأ ٧٥/١٠/٢٢) وقال المراسل السياسي لاذاعة اسرائيل انه « من الناحية العملية لم يطرأ جديد في هذا الصدد ، فلقد طرحت الفكرة عدة مرات ولكنها لم تنفذ ، سواء بسبب الاغلبية من اعضاء الحكومة التي تعتقد بان الوقت لم يحن بعد لتشجيع اقامة حكم ذاتي كهذا ، او بسبب عدم رغبة عرب الضفة الغربية ومخاوفهم من الانفصال عن عمان او الابتعاد عن نفوذ م.ت.ف. » (رأأ ٧٥/١٠/٢٢) .

وابدى يهوشع تدمور (دافار ٧٥/١٠/٢٤) تحفظه ازاء المشروع قائلا : « يشك فيما اذا كان هذا هو الوقت المناسب للادلاء بمثل هذه التصريحات في موضوع حساس كهذا ففي هذه الايام من الخير ان نعمل اكثر ونقلل الكلام ... »

اتصالات ، عروض واغراءات :

واستعرض يهودا ليتن (هآرتس ٧٥/١٠/٢٦) سلسلة المحادثات التي اجراها شمعون بيرس منذ اكثر من نصف عام مع زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة ومن بينهم الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل ، وحاكم القدس السابق انور الخطيب ووزير الدفاع الاردني السابق انور نسيبه والمحامي عزيز شحاده من اعيان رام‌الله ورئيس بلدية نابلس الحاج معزوز المصري ورئيس بلدية نابلس السابق حمدي كنعان ورئيس البرلمان الاردني سابقا حكمت المصري ، والمعين لرئاسة بلدية غزة رشاد الشوا . وشرح بيرس لهؤلاء الوجهاء تفاصيل اقامة حكم ذاتي في مناطق الخليل ونابلس وغزة « بحيث تدار في اطار هيئة اعلى فوق مستوى البلديات ... مشيرا الى انها ستحصل على صلاحيات بل وعلى ميزانيات للقيام بوظيفتها ، وملمحا الى انور الخطيب ... « سوف نهتم بان تكون للقدس كلمة تعبير » ، ولكن ، حسب اقوال بيرس ، « كان الرد غير متحمس » . (هآرتس ٧٥/١٠/٢٦)

وكما هو متوقع ، باركت صحيفة دافار مشروع بيرس ، ودعت ، في مقال افتتاحي (دافار ٧٥/١٠/٢٤) الى تشجيع الادارة الذاتية ، لا سيما وان هذه الفكرة « لا تسد اي اختيار لتسوية تقوم على الحل الوسط بموجب اي مشروع وحسب اية نظرية محتملة، سواء كانت اردنية او فلسطينية » .

لكن دافار (نفس المصدر) نصحت بتناول المشروع بالحذر والحيطة والامتناع عن العلنية في تناوله ، فترى « ان نجاح المحاولة يكمن في الحرص على عدم تناولها علنا ، فكثرة الكلام « ستصحي الدببة في الغابة ، واللبيب بالاشارة يفهم » ، ويجب التقدم في التجربة تدريجيا ، فاولا على الصعيد المحلي والديني ، وبعد ذلك فقط تبذل محاولات لتوسيع الادارة الذاتية في القطاعات الاوسع وفي مناطق كاملة ....والحذر العظيم والتناول التدريجي وعدم العلنية كل هذه ستساعد على تنفيذ الفكرة ... » .

وعبر يهوشع تدمور (دافار ٧٥/١٠/٢٤) عن ندم حكام اسرائيل على تبديد الفرصة التي سنحت بعد حرب حزيران (يونيو ١٩٦٧) حيث كان في المستطاع - في رأيهم - تحقيق هذه الفكرة ، اما الان « فقد اتضح ان خطأ اسرائيل السياسي الفادح ، منذ حرب الايام الستة ، هو تجاهلها العنيد للموضوع الفلسطيني ،فانه، في نهاية الامر ، هو مصدر النزاع بيننا وبين العرب ، وهذا التجاهل خلق فراغا سياسيا خطيرا ساعد على ظهور « منظمات التخريب » وم.ت.ف » (المصدر السابق) .

وتحدث ليتن عن اماني الاهالي التي لا تجد لنفسها تعبيرا وعن الخيار الوحيد امام بيرس : « سيبقى الخيار الوحيد امام بيرس هو تعيين شخصيات من الصف الثالث او الرابع المشروعة ونحن هؤلاء بشك فيما اذا كانوا سيصمدون للضغط ... اذ ان اماني السكان القومية ورغبتهم الطبيعية في اقامة اطار سياسي مستقل لا تجد لها اي تعبير (المصدر السابق) . وحذر ليتن من العواقب ،

« اسرائيل ، التي تقوم بضم المناطق فعلا ، لن تخسرج مستفيدة ... اذ ان رد احدى الشخصيات التي تحدث اليها بيرس كان ... « الزعماء المحليون لا يستطيعون الان اتخاذ مبادرة صريحة خوفا من الاذى ... » (المصدر السابق) .

وعبر يهودا ليتن (هآرتس ٧٥/١٠/٢٦) عن رأيه في مشروع بيرس فقال « ان الاغلبية الكبرى من سكان يهودا والسامرة تعارض اي نوع من الحكم الاسرائيلي على المدى الطويل ، ففي نظر الكثيرين يبدو اقتراح بيرس لعبة لضم يهودا والسامرة ضما فعليا » ...

وسخر ليتن (المصدر السابق) من عبارة « الفراغ » التي وردت على لسان بيرس ، وقال انها « وصف لا يطابق الواقع » .

واشار ليتن الى صلة اهالي المناطق بالعالم العربي ، وقوة نفوذ المنظمات الثورية الفلسطينية . فقال (المصدر السابق) ... « يعرف زعماء الصف الاول في يهودا والسامرة انهم اذا قبلوا مشروع الادارة الذاتية ... فانهم يحكمون على انفسهم بالانتحار السياسي . ففي نظر الدول العربية والمنظمات الفلسطينية ومعظم سكان المناطق ... سيبدو الزعماء الذين يوافقون على قبول هذا المشروع الجديد « كمتعاونين مع حكم الاحتلال » .

واعترض النائب توفيق طوبي (راكاح) على مشروع بيرس ووصفه « بأنه يمس الرغبة في السلام ويمثل التطلعات الاستعمارية لدى اسرائيل لتخليد الاحتلال » . (ر.أ.ا. ٧٥/١١/٤) .

واعترف الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل بنفوذ م.ت.ف في المناطق المحتلة « يجب ان يكون معتوها ذلك الذي لا يعترف في هذه الايام بزعامة م.ت.ف الوحيدة » . (يديعوت احرونوت ٧٥/١٠/٢٦) .

وبعد ان شرح بيرس الظروف والملابسات التي دعته الى تقديم مشروعه ، ومنها ضرورة ملء « الفراغ » الذي نجم ، على حد قوله ، في الضفة الغربية ، ووجود « شخصيات محترمة وحكيمة في يهودا والسامرة تستطيع ادارة شؤونها وصدور قرارات مؤتمر الرباط التي الغت تمثيل الاردن لسكان يهودا والسامرة ، وفي ضوء المواقف المتطرفة التي يتخذها رجال المنظمات » ، دعا الى سد هذا الفراغ بواسطة الادارة الذاتية ، التي ستكون - كما يتصور - ادارة منتظمة تفي باحتياجات المكان ومطالب السكان . واخيرا عبر عن قناعته بأنه « في النهاية سيمكن العثور على الجسر » (هآرتس ٧٥/١٠/٢١) .

ومن البوادر المشجعة التي رآها بيرس ، « حدوث تغييرات في يهودا والسامرة بما فيها فتور التطرف والعنف ، ووصول عدد اكبر من العرب الى استنتاج بانه يجب تسوية الخلافات في اطار الاعمال اليومية ، وحدوث تغييرات اجتماعية لا تنكر في المنطقة ، حيث اصبح المجتمع (اقل اتصالا بمسائل الارض ،وبرزت طبقة من المثقفين وظهرت طبقة عمال) » . (المصدر السابق) .

ولكي يبدد مخاوف وتحفظات الاهالي العرب وينفي عن مشروعه صفة التآمر على مصير المناطق واهلها عمد بيرس الى تزيين مشروعه بقوله ، في الكنيست ، على مسمع من يعنيهم الامر : « ان اقتراح حكومة اسرائيل على سكان المناطق بتوسيع اطار الادارة الذاتية ليس امرا وليس قهرا ... فالحكومة لا تبحث عن خونة او دمى ، والمناطق متاحة للادارة بالطريقةالتي تمت بها ادارتها حتى الان ، فادارتها مفتوحة للتحسين الكثير حسب استعداد ورغبة السكان انفسهم ، وليس من الضروري ان تكون هناك صلة بين حل النزاع حلا دائما وبين توسيع الادارة الذاتية ، وعدم توسيع الادارة المحلية لن يعجل في احتمالات الحل ، كما ان توسيعها لن يمس احتمالات كهذه في المستقبل ... واقتراح الحكومة مقرون بكثير من التسامح وبقدر كبير جدا من حسن النية ، فهو يهدف الى تقوية اسس الكرامة المتبادلة والتفاهم المتبادل بين « الشعبين » في حالة من عدم التماثل » (دافار ٧٥/١١/٤) .

انتخابات المجالس القروية كخطوة اولى في سبيل تنفيذ المشروع :

رأت الاوساط الاسرائيلية في الانتخابات التي

جرت في ٥٧ قرية من قرى الضفة الغربية في اواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) واوائل شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ ، بداية تحول لصالح احتمال المضي في تنفيذ مشروع شمعون بيرس رغم الحذر والشكوك التي احاطت بهذا التفاؤل .

فقد اعتبرت صحيفة دافار (٧٥/١٠/٢٩) في نتائج الانتخابات التي جرت لانتخاب مجالس قروية في ٢٦ قرية في الضفة الغربية « نقضا لبعض الافتراضات التي كادت تكون بمثابة مسلمات » . وتعتقد دافار ان نسبة الاشتراك العالية (٩٠٪ على حد زعمها) في الانتخابات تنقض الافتراض بوجود صلة حاسمة بين الاهالي العرب وم.ت.ف بعد ان طالبت اذاعة م.ت.ف الاهالي بمقاطعة الانتخابات ، وترى دافار في هذه النسبة العالية للناخبين دليلا « على استعداد السكان لادارة حياتهم المحلية بانفسهم » (المصدر السابق) لكنها مع ذلك اشارت الى رفض الادارة الذاتية من قبل المتحدثين باسم « الزعامة الغير منتخبة ... وخاصة في مدن الضفة » ، وتعترف كذلك بأنه « لا يمكن استنتاج شيء من التصويت فيما يتعلق بألــوان المنتخبين (بفتح الخاء) السياسية » ، لان الانتخابات كانت شخصية. وتعترف كذلك بحقيقة تستحق التسجيل وهي ان « ثلث المنتخبين (بفتح الخاء) كانوا دون سن الاربعين ، ويريدون القضاء – حسب اقوالهم – على سيطرة الزعامة القديمة في قراهم » . (المصدر السابق) . كما ان اعتراف الصحيفة بوجود « نسبة معينة من المنتخبين من ذوي الثقافة الجامعية ومنهم طلبة يدرسون في جامعة بيروت » ، لا يدعم توقع الاوساط الاسرائيلية حدوث تحول بين الاهالي العرب لناحية قبول مشروع شمعون بيرس ، (المصدر السابق) . خاصة في ضوء دعوة صحيفة « الفجر » العربية التي تصدر في القدس الى ابناء يهودا والسامرة للاشتراك في الانتخابات للمجالس القروية « لاحبــاط مشروع الادارة المحلية » ، حيث دعت الصحيفة (رأي ٧٥/١١/٢٣) الاشخاص الذين يعارضون الادارة الذاتية الى ترشيح انفسهم ، وبعد فوزهم في الانتخابات ، ان يعارضوا الادارة الذاتية » . (المصدر السابق) . ويتضح حذر وشك لاوساط الاسرائيلية من امكان نجاح مشروع بيرس من اعتراف صحيفة دافار في افتتاحيتها (٧٥/١٠/٢٤) بأن « كل محاولة لتعيين اشخاص من قبل الحكم (العسكري) سيكون مآلها الفشل الذريع » .

مشروع الون لخلق دمى والتوجه نحو الاردن :

في معرض تناولها لمشروع شمعون بيرس اشارت الصحف الاسرائيلية الى مشروع قديم مماثل هو مشروع يغال الون ، وفي هذا المجال كشفت بعض الصحف الاسرائيلية النقاب عن وجود تفاهـــم بين اسرائيل والاردن علـى مستويات عليا ، واعترفت بتطابق المصالح بين اسرائيل والاردن من حيث تطلع كليهما الى انحسار او حتى زوال نفوذ م.ت.ف من المناطق المحتلة .

فيرى يهوشع تدمور ، المحرر السياسي لصحيفة دافار (٧٥/١٠/٢٤) ان تصريحات الملك حسين بأن الاردن « غير مرشحة للمفاوضات لانها لا تمثل الفلسطينيين وانها متمسكة بقرارات مؤتمر الرباط ، عوجهة للخارج ... » اما بالنسبة لاسرائيل « فهناك جميع الفرص للاقدام على خطوة تمنح الفلسطينيين في الضفة صلاحيات الادارة الذاتية » . (المصدر السابق) .

وعن التفاهم بين اسرائيل والاردن يقول ماتي غولان (هآرتس ٧٥/١٠/٢٤) ان مشروع الون لعام ١٩٦٧ « لم يصدر عن فراغ ، بل سبقته اتصالات بالملك حسين وكان رد فعل الملك ايجابيا ... » وواضح ان اسرائيل لن تقدم على خطوة تثير غضب الاردن ... لان اية خطوة معاديـة للاردن هي في الضرورة موالية لـ م.ت.ف. .

ويرى فولص ، المحرر السياسي في صحيفة هآرتس (هآرتس ٧٥/١٠/٢٤) انه ليس « لحسين سبــب ليعترض على مثل هــذه الخطوة ، فاذا صح الظن ان اقامة ادارة ذاتية في المناطق ستبعد سكان المناطق عن م.ت.ف

فان في هذا خير لاسرائيل ولكنه ليس افضل مما هو للاردن ، اذ بهذه الطريقة تزداد فرص حسين ليعود ويحكم الضفة الغربية . ولكن حتى لو لم يتحقق هذا الحلم فان اي شيء ، في نظره ، افضل من قيام دولة فلسطينية تحكمها م.ت.ف . وهنا تتوافق المصالح بين اسرائيل والاردن ... »

وفي سياق تعليقه يذهب فولص الى ابعد من هذا ويكشف عن اهداف مشروع بيرس : « الادارة المدنية ومركز الاردن (في الضفة) متصلان اتصالا لا ينفصم ، ولذلك لا ينبغي اعتبار الخطة هدفا في حد ذاتها بل خطوة لتمهيد الارض لمفاوضات مع الاردن » . (المصدر السابق) .

هذا وقد اشتركت اكثر من صحيفة اسرائيلية في الزعم بأن اسهم م.ت.ف. آخذة في الهبوط في المناطق المحتلة بينما تصعد اسهم الملك حسين . حتى ان صحيفة هآرتس (٧٥/١١/١٣) نقلت عن اوساط الامن الاسرائيلية انها عثرت على تفسير لهذا الزعم ويكمن في « مرور عام على خطاب ياسر عرفات « التاريخي » دون ان يتغير وضع سكان الضفة الغربية في شيء ، بينما الملك حسين الذي تقرب الى سوريا خلال الاشهر الاخيرة ، وارتفعت مكانته في العالم العربي ، مقارنة بالسنين الماضية ، لم يعد يعتبر « خائنا » للقضية العربية » .

ويذهب تسفي البيلغ ، المحرر السياسي في صحيفة يديعوت احرونوت (٧٥/١٠/٢٦) ، الى كشف اسرار جديدة بشأن اختيار اسرائيل لأهون الاضرار ، اي تفضيل حكم الاردن للضفة الغربية حتى على حكم السكان لانفسهم : « نحن الذين منعنا زعماء المناطق من تمثيل السكان بقصد مساعدة حسين على حكمها » .

وكشف ماتي غولان (هآرتس ٧٥/١٠/٢١) عن ميل حكام اسرائيل الى تقسيم الضفة الغربية طبقا لمشروع الون ، « حسب مشروعه ستنقل الادارة المدنية الى ايد فلسطينية من سكان المناطق ، حيث يحصل المسؤول على رتبة توازي رتبة مدير عام في وزارة حكومية ، وستكون لهؤلاء الاشخاص صلاحيات ينفردون بها في المجالات التي سيفوضون فيها مثل الزراعة والتعليم والادارة المدنية وسائر الشؤون الداخلية فيما عدا الجيش والشرطة .

وشرح ماتي غولان (المصدر السابق) وجهة نظر الون : « يعتقد الون ان الطريق الوحيدة هي منح حكم مدني ذاتي لسكان الضفة وبهذا تتبلور منهم قيادة يمكن - عندما يحين الوقت - التفاوض معها على تسوية ... ويعتقد الون ان الجمود السياسي قد يحمل في طياته خطرا على اسرائيل وبغياب امكان تقدم سياسي مع سوريا يعتقد انه يجب تحويل الجهود السياسية الى الجبهة الشرقية ... ولذلك شرح الون مشروعه هذا بالتفصيل في لقاء مع طاقم الوزارة بعد عودته من نيويورك منذ بضعة ايام وشرح لرابين ولبيرس ان مشروعه هذا يصدر من الادراك الراسخ بأنه لا يتوقع ، في المستقبل القريب ، احتمال اجراء مفاوضات مع الملك حسين » . (المصدر السابق) .

ويقول ماتي غولان (هآرتس ٧٥/١٠/٢١) ان الون سيعرض في احدى جلسات الحكومة القادمة مشروعا لنقل الادارة المدنية في يهودا والسامرة وقطاع غزة فورا الى ايد فلسطينية من سكان هذه المناطق ، والمقصود هي المناطق المستعدة اسرائيل فيها الى الوصول الى حل وسط . « ويبدو ان النية متجهة الى التقسيم وفقا لمشروع الون » .

ومؤامرة صنع دمية من اهالي المناطق على امل مفاوضتها في المستقبل قد فضحتها حركة « شينوي » ، التي ايدت (ر٩٩ ٧٥/١٠/٢٢) « موقفي وزير الخارجية ووزير الدفاع بتشجيع قيام حكم ذاتي لسكان يهودا والسامرة » . وترى الحركة « ان هذا سيفتح الطريق امام تمثيل محترم للفلسطينيين في اية محادثات في المستقبل حول المناطق والسلام » . (المصدر السابق) . ودعت حركة « شينوي » الى « اعتبار وجود هيئة مفوضة ومنتخبة من عرب يهودا والسامرة شريكا في المفاوضات حول مستقبل المنطقة » . (المصدر السابق) .

بدء التنفيذ في قطاع غزة :

قبل ان يفجر بيرس قنبلته في بيت جالا يوم

٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥ ، كان قد بدأ بالفعل في بدء تنفيذ خطته ، واختبار قطاع غزة ميدان لتجربة الخطة . اذ اعلنت صحيفة هآرتس في نفس يوم ظهور بيريس في بيت جالا ان رشاد الشوا « سيعين بعد غد رئيسا لبلدية غزة بعد ان اتفق على ذلك بينه وبين وزير الدفاع » (هآرتس ٢٠/١٠/٧٥) .

وعلى الاثر اخذت تفاصيل الخطة تظهر تباعا . فانطلقت الاوساط الاسرائيلية تروج للشوا ولمشروع بيرس . فاعلن حاكم غزة العسكري – مساعد العميد دافيد ميمون – ... « عن تخصيص ١٥ مليون ليرة (دافار ٢٣/١٠/٧٥) ومبالغ اخرى في المستقبل لاغراض التنمية ، وانه استجاب لرجاء رشاد الشوا فاطلق سراح ١٣ سجينا ومعتقلا ، وخفف الحكم عن ثمانية سجناء آخرين كما وعد بدراسة احتمالات اخرى ... » . كما اعلن ميمون عن « امكان زيادة اعضاء المجلس البلدي من ١٢ الى ١٨ عضوا » . (المصدر السابق) .

وتكفلت اذاعة اسرائيل بشرح اهداف مشروع بيريس من تعيين الشوا ، « يتطلع الحكم الى اقامة مناصب ذات مسؤولية من سكان القطاع وفي مرحلة متأخرة يتطلع الى اقامة ما يشبه البرلمان لادارة شؤون سكان القطاع ، حيث ان تعيين رشاد الشوا رئيسا لبلدية غزة يعد خطوة اولى نحو الحكم الذاتي في قطاع غزة » . (رأ٠٩٠١ ٢٤/١٠/٧٥) .

اسلوب « فرق تسد » :

وسرعان ما ظهرت أوساط اسرائيلية تحذر من مغبة هذه الخطوة وتحلل المحاذير والمخاطر المنطوية عليها وتسجل توقعاتها للتطورات المقبلة . فبالاضافة الى اعتراف صحيفة هآرتس (٢٠/١٠/٧٥) . بوجود « معارضة ضد الشوا برئاسة الدكتور حيدر عبد الشافي تدعو الى اجراء انتخابات وتعارض تعيين رئيس بلدية » . تساءل المعلق السياسي في صحيفة دافار – داني تسوكوني . (دافار ٢٩/١٠/٧٥) : عما اذا كانت لاسرائيل سياسة بعيدة المدى بالنسبة للموضوع الفلسطيني . واشار تسوكوني الى « ثورة المجموعة المؤثرة في الرأي العام في غزة برئاسة الدكتور حيدر عبد الشافي والمحامي ابراهيم ابو ستة والمحامي زهير الريس وغيرهم ، على الشوا واعضاء مجلس بلديته ... اكثريتهم من طبقة الملاك والتجار الاغنياء واليمينيين في غزة امثال شفيق مشتهى – رئيس بلدية بئر السبع سابقا ، وتوفيق اليازجي صاحب بيارات البرتقال والمصانع . وعبد الحي الحسيني المدرس ، وحمدي عبد الغفار مدير مدرسة يافا ، وموسى ابو شعبان مختار حي الرمال وفايق خيال صاحب بيارة برتقال ، واحمد حسن الشوا رجل الاعمال ، وبهجت سكيك مدير ضريبة الدخل سابقا ، ورفيق بسيسو التاجر والشيخ الحاج هاشم خازندار » .

ولعل هذا التناحر على الحكم الذي تفجر في قطاع غزة هو ما كان يصبو اليه شمعون بيرس اصلا من طرح مشروعه . وينعكس هذا الواقع في مقال تسوكوني (المصدر السابق) : « عندما علمت طبقة اصحاب البيارات والتجار الاغنياء واليمينيين في غزة بوجود احتمال تسلم اليساريين في غزة لزمام الحكم ، قررت الحؤول دون ذلك مهما كان الامر ، وهكذا نشبت «حرب العرب » في غزة » .

وفضح تسوكوني أهداف حكومة اسرائيل فقال : « من الجائز ان تكون السلطة الاسرائيلية تفضل اسلوب « فرق تسد » في الادارة الذاتية في المناطق بدلا من الوحدة العربية » . (المصدر السابق) .

جسر ... الى مصر ام الى الاردن ؟

ويفضل تسوكوني اجراء انتخابات ديمقراطية في غزة . ويرى انه « مهما تكن نتائجها فمن شأنها ان تخدمنا ، فلو انتخب الشوا لكان في هذا دليل قاطع على ان جزءا ملموسا من الشعب الفلسطيني يرفض قيادة م.ت.ف واساليبها المتطرفة . ولو انتخب (الموالون لمصر ولـ م.ت.ف) لاضطروا الى التعاون مع الحكم الاسرائيلي ، وبذلك تكون صلاتهم بـ م.ت.ف. محيرة الى درجة ما ... » . (دافار ٢٩/١٠/٧٥) .

ويعتقد تسوكوني ان الجفاء بين مصر والشوا سيغلق خيارا مفتوحا لاقامة علاقات

اقتصادية وتجارية بين مصر واسرائيل : « من الصعب الافتراض ان الشوا سيجر القطاع في اتجاه تقوية العلاقات الاقتصادية والتجارية مع مصر ، الامـــر الذي يعنينا ، لان سياســة الجسور المفتوحة مع مصر ... من شأنها لــو قامت ، ان تمد جسرا من السلام بيننا وبين جارتنا في الجنوب ... هذا في حين يستطيع عبد الشافي وابو ستة ، مثلا ، مطالبة مصر بفتح خط ملاحي تجاري بين غزة وبور سعيد ». (المصدر السابق) .

وبينما يستبعد تسوكوني توجه الشوا نحو مصر ، كشف يهودا ليتن ، المحرر في صحيفة هـآرتس (٧٥/١٠/٢٣) . عــن ولاء الشوا للاردن ، مقتبسا عن مصدر اسرائيلي مسؤول: « قال لي وزير السياحة موشيه كول ان موضوع تعيين الشوا دليل على انعطاف في سياســة الاردن . اذ لا يجوز ان يقبل الشوا ، المعروف بولائه الواضح للاردن ، هذا التعيين من قبل وزير الدفاع بـــدون مشاورة حكومة عمان ، ووصف كول هذا بـ (ساعة وئام) مع حكومة الاردن » .

رد فعل ذوي الشأن :

ظهرت الشكــوك في امكان تنفيذ مشروع بيرس ـ كما سبق وذكر ـ منذ الاعلان عنه . ففي اليوم التالي لاعلان بيرس عن مشروعه في بيت جالا ، ظهـرت صحيفة « حدشــوت يسرائيل » بمقال افتتاحي عبرت فيه عـــن « شكها في امكان تعاون عرب المناطق لتنفيــذ هذا الحكم الذاتي » . (ر.ف.ف ٧٥/١٠/٢٣) .

ولم يتأخر رد اهالي المناطق المحتلة . فجاء على صورة انتفاضات طالبية متتابعة اتسمت بالعنف وشجب مشروع بيرس . وبما ان بــدء تنفيذ المشروع اتجه الى قطـــاع غزة بتعيين رئيس بلدية ومجلس بلدي من قبل الحكـم العسكري ، فقد بدأت مقاومة المخطط من ذلك الموقع ، حيث « القيت عبوة ناسفة في حــي الرمال على منزل الحاج توفيق الاستاذ ، وهو اول الاعضاء الاثني عشر الذين سيتم تعيينهم اليوم في مجلس بلدية غزة ... وقد وقـــع الحادث على صعيد سياسي محلي » . (ر.ف.ف. ٧٥/١٠/٢٢) .

اما في الضفة الغربية فقد تفجرت مقاومـة المشروع في رام الله حيث « عرقل تلاميـــذ المدارس الثانوية سير التعليم في جميع المدارس احتجاجا على قرار وزير الدفاع باقامة ادارة ذاتية في المناطق ... وفي بير زيت عرقلــت الدراسة في الكلية المحلية لليوم الثالث لنفس السبب » (هآرتس ٧٥/١١/٧) .

وفي يوم ٧٥/١١/٨ انتقلت الانتفاضة الــى مدارس اللاجئين القريبة من رام الله ، وصفتها اذاعـــة اسرائيل بأنهـــا « استمرار مباشر للصدامات التي وقعت امس ضد قوات الامن والمعركة المنهجية التي تديرها عناصر معينة ... ضد مشروع الادارة الذاتية وضد كــل محاولة للمساس او الاخلال بمركز م.ت.ف » (ر.ف.ف ٧٥/١١/٩) .

وبعد ثورة طلبة مدارس رام الله ثار طلبة مدارس البيرة المجاورة ثم طلبة مدارس جنين ونابلس حيث « قامت عشرات من طالبـات المدارس الثانويـــة ... بسد الطرق واطــلاق صيحات في وجه رجال الامن ... والقي القبض في جنين على ٦٢ فتاة ... ورفع تلاميذ المدارس الثانوية في نابلس علم فلسطين ورجموا قوات الامـــن بالحجـــارة ... واعتقل بعـــض المتظاهرين ... » (ر.ف.ف. ٧٥/١١/١٢) .

ثم اتسع نطاق الثورة فشمل جبل الخليـل حيث « رجم الطلاب السيارات المارة في كل من الخليل وحلحول ... كما اعتصم الطلبة في عدد من مدارس القدس ، وهذا هو الاسبوع الثانـــي لاعمال الشغب في مدارس الضفـــة احتجاجا على الحكم الذاتي ... » (ر.ف.ف. ٧٥/١١/١٦) .

امـــا على صعيد الشخصيات والهيئـات العربية العامة ، فقد « اعترض عضو الكنيست توفيق طوبي (راكاح) على الفكرة ووصفهـا بأنها (مؤامرة استعمارية اسرائيلية / اميركية) بهدف خلق مستعمرة كلاسيكية في المناطق » . (دافار ٧٥/١١/٤) .

وهاجمت صحيفة « الفجر » الشيخ محمـد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل لانه دعـا سكان الضفـــة الغربية الى دراسة اقتــراح

اسرائيل لادارة ذاتية قبل ان يردوا برد سلبي عليه ، فقالت « لقد تجاهل الشيخ حقيقة ان الادارة الذاتية هدفها في الواقع ايجاد زعماء يكونون بديلا لـ م.ت.ف. » هآرتس ٢/١١/٧٥) .

واشارت اذاعة اسرائيل الى مذكرة ارسلها اربعة رؤساء بلديات الى قائد المنطقة عبروا فيها عن معارضتهم لفكرة الحكم الذاتي ... ومن بين الموقعين على المذكرة رؤساء بلديات محترمون جدا ... مثل الحاج معزوز المصري من نابلس وحلمي حنون من طولكرم وهما صاحبا المبادرة في هذه المذكرة .. ويقول حلمي حنون ان الفكرة تعني استمرار حكم اسرائيل ... » (ر.١٠,٠١٠ ٥/١١/٧٧) .

واتصل رؤساء بلديات نابلس وطولكرم وقلقيلية وجنين برؤساء البلديات الاخرين في الضفة لتنظيم العريضة العامة ضد الحكم الذاتي (المصدر السابق) .

وذهب حلمي حنون الى تحدي نوايا حكام اسرائيل وتوضيح المطالب الحقيقية لاهالي المناطق المحتلة : « اذا كانت حكومة اسرائيل تريد حل القضية الفلسطينية فعليها ان تثبت ذلك عن طريق شرطين : الاعتراف بـ م.ت.ف كممثل وحيد للشعب الفلسطيني . والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره » . (المصدر السابق) .

صبحي النجار

المساعدات الاميركية لا توقف تدهور الاقتصاد الاسرائيلي

اتبعت اسرائيل خلال السنة الماضية عدة اجراءات اقتصادية ، لوقف التدهور في وضعها الاقتصادي ، ومحاولة ايجاد حل لبعض مشاكلها المتأزمة . ويشير المراقبون الى انه رغم المساعدات الاميركية الضخمة التي حصلت عليها اسرائيل خلال السنة الماضية ، والتي تقدر بأكثر من مليارين وربع من الدولارات ، والمساعدات التي ستحصل عليها خلال هذه السنة ، وتقدر بمليار وثمانمائة مليون دولار ، فأن الوضع الاقتصادي يزداد سوءا ، لان الجزء الاكبر من هذه المساعدات سيستثمر في شراء الاسلحة في الولايات المتحدة نفسها . وليس من اجل حل المشاكل الاقتصادية المحلية في اسرائيل . فقد اعلن رئيس الحكومة رابين « ان المساعدات الاميركية تمنح لنا بشروط صعبة من ناحية استعمالها ، اذ سنضطر الى انفاق معظمها لانتاج معدات في الولايات المتحدة نفسها ... » هآرتس ، ٣١ / ١٠ / ٧٥) . ويشير مصدر اخر الى ان « اكثر من نصف المبلغ المطلوب لسد نفقات الامن في اسرائيل ، يقع على عاتق دافع الضرائب الاميركي . فمعظم اموال المساعدات لا تصل الى اسرائيل ، وانما تنفق في الولايات المتحدة ، حيث نحصل عليها على شكل اسلحة ومعدات . ومن وجهة نظر وزارة المالية لا يعتبر الامر مدخولا او انفاقا ... » (شموئيل شتيس ، معاريف ، ٢٤ / ١٠ / ٧٥) . لذا فأن المشاكل الاقتصادية المتأزمة في اسرائيل ، مثل العجز في ميزان المدفوعات الذي وصل مع نهاية السنة الماضية الى نحو ٣٫٧ مليار دولار وازدياد حجم الديون الخارجية التي وصلت الى نحو ٧٫٥ مليار دولار ، ثم الهبوط في فائض العملة الصعبة ، لن تجد حلا لها عن طريق المساعدات الاميركية . وثمة توقعات سيئة بالنسبة لهذه السنة ايضا ، خاصة ان اسرائيل لن تحصل على ما يبدو على كل المساعدات التي طلبتها من الولايات المتحدة ، الامر الذي بدا واضحا اثناء زيارة رابين الاخيرة : حيث

اعلن ان الرئيس فورد سيطلب من الكونغرس مساعدات لاسرائيل تقدر بـ ٨ر١ مليار دولار في الوقت الذي تطالب فيه بمبلغ يفوق ٢ر٢ مليار دولار . لذا فقد اعلن رابين ان « سنة ١٩٧٦ ستكون اصعب من سابقتها ، ويستحسن بنا ان ندرك ذلك ونستعد لـه » (يديعوت احرونوت ، ٢٤ / ١٠ / ٧٥) .

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد اجرت في اواخر السنة الماضية بحثا اقتصاديا شاملا القى خلاله وزير المالية رابينوفيتش تقريرا شاملا حول الوضع الاقتصادي خلال تلك السنة ، وما يتوقعه خلال السنة الحالية . وورد في هذا التقرير ان « المشاكل التي تواجهنا اليوم لا يمكن حلها خلال سنة او سنتين ، فالمطلوب مضي دائم وبدون تراجع في الطريق الذي اخترناه ، على مدى عدة سنوات حتى ينخفض العجز في ميزان المدفوعات الى مدى نستطيع تحمله ، بواسطة استيراد عادي لرأس المال ، وبدون تعلق بمساعدات ضخمة من دول اجنبية . ان السنتين المقبلتين ستكونان في غاية الصعوبة ، اجتماعيا واقتصاديا » (دافار ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) . وعدد رابينوفيتش المشاكل التي واجهها الاقتصاد الاسرائيلي خلال سنة ١٩٧٥ ومنها : (١) انخفاض الهجرة . فأحد عوامل الانخفاض في الطلب وفي سرعة النمو الاقتصادي خلال السنتين الاخيرتين هو الانخفاض الكبير في الهجرة ، اذ بلغ عدد المهاجرين في سنة ١٩٧٥ ، ١٨ الف فقط مقابل ٣٢ الفا في سنة ١٩٧٤ و ٥٤ الفا في سنة ١٩٧٣ . ورافق هذا الانخفاض في الهجرة حركة نزوح كبيرة ايضا . (٢) البطالة . فقد بلغت نسبة العاطلين عن العمل في سنة ١٩٧٥ ، ٤ر٣ ٪ من الطاقة البشرية العاملة في اسرائيل ، مقابل ٣ ٪ في السنة عام ١٩٧٤ . (٣) انخفاض الانتاج الصناعي عن المستوى الذي وصله في النصف الثاني من سنة ١٩٧٤ . اما في القطاع الزراعي فقد استمر الانتعاش رغم الانخفاض في النشاط العام ، وذلك بفضل زيادة استهلاك المنتوجات الزراعية في الصناعة والتصدير . (٤) انخفاض بنسبة ٥ر١٧ ٪ في الاعمال في فرع البناء ، وانخفاض بالاستثمارات بنسبة ٥ ٪ . (٥) انخفاض بالاستهلاك الفردي بنسبة ٣ ٪ مع حدوث ارتفاع بنسبة ١ ٪ فقط في الاستهلاك العام . اما الاستهلاك الامني المحلي فقد طرأ عليه انخفاض بنسبة ٤ ٪ ، مقابل ذلك ازدادت الواردات الامنية المباشرة بنسبة ١٨ ٪ . (٦) ارتفاع جدول غلاء المعيشة بنسبة ١١ ٪ وارتفاع مستوى الاجور بنسبة ٣٢ ٪ . (٧) عجز في ميزان المدفوعات بنحو ٣ر٧ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٥ ، مقابل ٣٥ر٣ مليار دولار في سنة ١٩٧٤ . ويعود هذا العجز الى الفرق القائم بين الواردات التي بلغت ٧ر٧ مليار دولار ، وبين الصادرات التي بلغت اربع مليارات دولار . اما ديون اسرائيل الخارجية فوصلت مع نهاية السنة الى ٥ر٧ مليار دولار ، بزيادة قدرها ٣ر١ مليار دولار عن سنة ١٩٧٤ (دافار ، هآرتس ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) .

رغم هذه الحقائق تشير اوساط وزارة المالية الى « ان الاجراءات الاقتصادية التي اتبعت خلال السنة الاخيرة ، قد حققت جزءا من اهدافها . فقد انخفض مستوى المعيشة وحدث انخفاض كبير في الاستهلاك الفردي ، وتقلص حجم الواردات . وبدأت تلمس فائدة بعض الاجراءات الاقتصادية ، في الفتور الذي يسود بعض الفروع الاقتصادية . فقد انخفضت سرعة التضخم المالي من ٥٦ ٪ في السنة الى ٢٣ ٪ هذه السنة . كذلك تم ادخال بعض الاصلاحات الهامة ، مثل الاصلاح في ضريبة الدخل واقتطاع علاوة غلاء المعيشة واتباع سياسة « التخفيض الزاحف » في قيمة الليرة الاسرائيلية » (دافيد ليفكين - دافار ، ٢٣ / ١١ / ٧٥) .

كذلك تطرق وزير المالية رابينوفيتش اثناء حديثه خلال النقاش الاقتصادي في الحكومة الى سنة ١٩٧٦ ، قائلا ان الحكومة لا تملك بدائل حقيقية في سياستها الاقتصادية للسنة الحالية ، وذلك على ضوء التوقعات والتطورات التي يمكن ان تحدث خلالها . واوضح انه ستكون هناك حاجة الى اتباع خطوات غير عادية قبل ما يتعلق بميزانية السنة الحالية وذلك من اجل عدم التعرض للمكاسب الاولية

التي حققتها السياسة الاقتصادية حتى الان . واعلن رابينوفيتش كذلك ان سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ هما سنتا انتقال خطيرتين . « ولكن اذا نجحنا في تشجيع الصادرات ، وتأمين استيراد الاموال على غرار الحاضر ، وتجميد نفقات الامن المحلية في مستواها الحالي ، عندئذ يمكننا ان نأمل بالنجاح في زيادة الانتاج القومي بصورة تدريجية ابتداء من سنة ١٩٧٧ » (دافار ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) .

وكان المستشار الاقتصادي لوزير المالية قد قدم تقريرا الى الحكومة حول توقعاته للسنة الحالية ، وذلك قبيل البدء بالبحث الاقتصادي المشار اليه . وابرز التوقعات الواردة في هذا التقرير هو معدل البطالة المتوقعة خلال هذه السنة ، التي يتوقع وصولها الى ٦٧ الف شخص مقابل ٣٩ الفا في سنة ١٩٧٥ . اما بالنسبة للهجرة فيتوقع قدوم ٢٤ الف مهاجر خلال السنة . ولكن نظرا الى نسبة النزوح المتوقعة ، لن يبقى اي فائض في ميزان الهجرة . كذلك يتوقع ارتفاع العجز في ميزان المدفوعات الى اربعة مليارات وثمانين مليون دولار مقابل ٣٫٧ مليار دولار في سنة ١٩٧٥ . وحسب التقرير ستزداد ديون اسرائيل بالعملة الصعبة بـ ١٫٧ مليار دولار ، حيث تصل الى ٩٫٢ مليار دولار خلال سنة ١٩٧٦ . اما فائض العملة الصعبة فيتوقع ان يحافظ على مستواه الحالي اي ١٠٧٠ مليون دولار (معاريف ، ٢٨ / ١٠ / ٧٥) .

وتفيد الاخبار ان وزارة المالية تعمل الان على اعداد خطة اقتصادية شاملة للسنة المقبلة ، تحل مكان السياسة المتقطعة التي اتبعت خلال السنة الاخيرة . « وتشير التفاصيل المتوفرة حتى الان ، الى انه اصبح من الواضح ان سنة ١٩٧٦ ستكون احدى الفترات الصعبة في تاريخ الاقتصاد الاسرائيلي ، فترة ترافقها قرارات اقتصادية كثيرة ، مثل فرض ضرائب جديدة ، وتقليص الخدمات التي تمنحها الحكومة والمؤسسات العامة ، ثم اقالة عمال وتجميد جزء كبير من الاستثمارات .

« وتنوي وزارة المالية عرض خطة طوارىء اقتصادية ، تكون ذات انعكاسات بعيدة المدى على الحياة الاقتصادية . وستكون هذه خطة شاملة لا تتعلق فقط بميزانية الدولة ، وانما بمجالات عدة من الحياة في اسرائيل » (دافيد ليفكين - دافار ، ٢٣ / ١١ / ٧٥) .

انخفاض متواصل في قيمة الليرة

وحتى اقرار مثل هذه الخطة ، تواصل وزارة المالية اتباع سياستها القديمة الرامية اولا الى تشجيع الصادرات كعلاج للعجز في ميزان المدفوعات ، وذلك عن طريق تخفيض قيمة الليرة خلال فترات متقاربة . ولكن اخر تخفيض اجرته الحكومة في تاريخ ٣ / ١ / ٧٦ حيث خفضت قيمة الليرة بنسبة ٩ر١ ٪ . ويعتبر هذا التخفيض استمرارا لسياسة « التخفيض الزاحف » الذي اعلنته الحكومة الاسرائيلية في تاريخ ١٨ حزيران ١٩٧٥ ، والذي خفضت بموجبه قيمة الليرة ست مرات حتى الان . والمميز لهذا التخفيض ان نسبته لا تتعدى الاثنين بالمئة حسب قرار الحكومة (انظر الجدول) .

التخفيض في قيمة الليرة حسب سياسة « التخفيض الزاحف »

التاريخ	قيمة الليرة بالنسبة للدولار
١٧ / ٦ / ٧٥	دولار = ١٢ر٦ ليرة .
٥ / ٨ / ٧٥	دولار = ٢٤ر٦ ليرة .
٩ / ٩ / ٧٥	دولار = ٣٦ر٦ ليرة .
٢٨ / ٩ / ٧٥	دولار = ٧ ليرة .
٢٢ / ١١ / ٧٥	دولار = ١٠ر٧ ليرة .
٣ / ١ / ٧٦	دولار = ٢٤ر٧ ليرة .

الا ان الحكومة الاسرائيلية اضطرت الى خرق هذا القرار في شهر ايلول الماضي حيث اضطرها الواقع الاقتصادي الصعب الى اجراء تخفيض كبير بنسبة ١٠ ٪ مع رفع اسعار الوقود والسيارات واجور السفر الى الخارج ومعظم المنتجات الصناعية .

اسباب الازمة

يتساءل الكثيرون من خبراء الاقتصاد والمعلقين الاسرائيليين عن اسباب الازمة في الاقتصاد الاسرائيلي ، وهل ان عبء الامن هو

سببها الرئيسي والوحيد . « صحيح ان العبء الامني الكبير الذي تتحمله اسرائيل منذ حرب تشرين ، وانعكاسات الانكماش الاقتصادي والتضخم المالي في العالم على الصادرات والواردات الاسرائيلية ، هما بدون شك عاملان اساسيان في الازمة التي يمر بها الان الاقتصاد الاسرائيلي ، الا ان جذور الازمة تعود الى ادمان الاسرائيلي على كثرة الاستهلاك ، وخاصة السلع المستوردة . » (الياهو سلفط ـ هآرتس ، ٣١/١٠/٧٥) . ويرى الخبراء ان هناك اسبابا حقيقية اخرى وراء هذه الازمة أولها ان الاسرائيلي لا يعمل بما فيه الكفاية ، وحقيقة هي ان معدل ساعات عمله هي اقل مما هي عليه في دول صناعية اخرى . والبضائع والخدمات التي يستهلكها تزيد كثيرا عن تلك التي ينتجها . ثانيا ، البيروقراطية الشديدة، وعلى هذا الاساس اصبح مقبولا الادعاء بأن العاملين في الخدمات يتجاوز عددهم في فروع الانتاج . ثالثا ، عدم ثبات قيمة الليرة . رابعا ، ان جهاز اعتماد الميزانيات لا يعمل بشكل صحيح . وقد صادقت لجنة بن شاحار ، التي قدمت مشروعا خلال السنة الماضية بشأن اصلاح نظام الضرائب المباشرة في اسرائيل ، في توصياتها على ان حسابات الدخل القومي التي يعتمد عليها اثناء تعيين الميزانية العامة غير دقيقة . فالوزارات الحكومية ، والسلطات المحلية والمؤسسات والمشاريع الاقتصادية ، طورت اساليب معقدة لتجاوز ميزانياتها المعتمدة . خامسا ، ان عبارة « ميزانية مغلقة » قد اختفت من القاموس في اسرائيل . فالمؤسسات المحلية مقتنعة بأن السلطات البلدية ، ستغطي النقص في ميزانياتها ، كذلك باتت تدرك بعض المؤسسات الصناعية ان التهديد بأقالة بعض عمالها يؤدي الى تدفق الاموال لسد خسائرها او عجزها . « وقد تعودت البلديات على ان تقوم وزارة المالية دائما بتغطية العجز داخلها ، وحكومة اسرائيل باتت مقتنعة من ان حكومة الولايات المتحدة تنقذ دائما الوضع في اللحظة الاخيرة » (المصدر نفسه) .

العلاج ...

يقترح الخبراء الاقتصاديون اساليب عديدة لعلاج ازمات الاقتصاد الاسرائيلي . وقد اطلق معظمهم خلال السنة الماضية فكرة اعلان حالة الطوارىء الاقتصادية كحل للخروج من الازمة . وهناك اوساط عديدة في اسرائيل تؤيد هذه الفكرة ، وتعمل الان وزارة المالية ، كما اشرنا الى اعداد خطة طوارىء حقيقية لهذه السنة ، ويرى البعض ان « اسرائيل تواجه امكانيتين : الاولى ـ اتفاق سلام مع الدول العربية . والثانية ـ اتباع حكم طوارىء اقتصادي . وعليها ان تختار بينهما اذا كانت راغبة في البقاء . وكل حل وسط ـ اي ابقاء الوضع على ما هو عليه ـ سيؤدي الى انهيار كامل ، خلال وقت اسرع مما يتوقعه العدو . وبما أن اتفاق سلام شامل لا يمكن تحقيقه في المستقبل المنظور ، فأن الامكانية الثانية ، هي اكثر ملاءمة » (اهرون ميغر ـ دافار ٢٤ / ١٠ / ٧٥) .

ويرى اخرون انه بأمكان حل مشاكل الاقتصاد الاسرائيلي عن طريق زيادة التصدير ، وهو الرأي السائد في وزارة المالية . « وفي هذا المجال لا زلنا نتخبط في مكاننا . لقد زاد قطاع الزراعة من صادراته ، الا ان منتجاته هي مركب صغير في صادراتنا ، و ينبغي زيادة الصادرات في المجال الصناعي والخبرة العلمية . ان دولا كثيرة قد قللت من صادراتها ، وهكذا فعلت اسرائيل ايضا ، واليوم اصبح بيع صادراتنا في الخارج امرا في غاية الصعوبة . والمصدرون بحاجة الى حافز اضافي من اجل زيادة صادراتهم . والاداة التي تملكها الدولة في هذا المجال هي الحافز الذي تمنحه للدولار . وعلى هذا الاساس يحدث في كل مرة تخفيض في قيمة الليرة ، سواء كان صغيرا ام كبيرا . ان التخفيض مهما كان اعتباطيا ليس الا عملا من جانب الدولة من اجل ملاءمة قيمة الليرة لما يحدث في السوق العالمية . ومع دخولنا الى السوق الاوروبية المشتركة اصبحنا جزءا من اقتصاد اكبر » (عضو الكنيست دافيد كورن ـ معاريف ، ٢٧ / ١٠ / ٧٥) . وعلى هذا الاساس يقترح الكاتب تحسين ظروف عمل عمال الصناعة في اسرائيل « لانه عمليا يعيش المجتمع كله على حساب « المنتجين من اجل الصادرات » والذين ينتجون المنتوجات

الاساسية ويمنعون بذلك استيرادها بأموال صعبة » (المصدرنفسه) ٠

ليس تشجيع فرع الصادرات هو المخرج الاساسي للازمة ، وانما « يجب ايضا تغيير نظام الاجور من اساسه ، لكي يعكس مساهمة العامل في الانتاج » ٠ وبالطبع « مطلوب ايضا قيمة حقيقية لليرة ، كذلك فأن الدخل من الدولارات (مساعدات صادرات قروض) يكفي لتغطية الواردات الامنية والمنتجات الغذائية الاساسية ، اما باقي المنتجات المستوردة فينبغي ان تخضع لنظام السوق الحرة ٠ كذلك من الواضح انه ينبغي خفض عدد الموظفين في المؤسسات العامة ، ربما بدون اقالات واسعة ، وذلك بواسطة منع قبول موظفين جدد ٠ كذلك ينبغي فرض القانون فيما يتعلق بعلاقات العمل ٠ بالاضافة الى ذلك من الضروري تعيين قوانين صارمة تتعلق بكل مؤسسة حكومية او عامة ، وعدم تعيين الميزانيات حسب الطلب ، وانما وفق الامكانات » (الياهو سلفط هآرتس ، ٧٥/١٠/٣١) ٠

تدهور علاقات العمل

لم يحدث خلال الفترة الاخيرة اي تحسن في مجال علاقات العمل المتأزمة في اسرائيل ، التي تؤدي بين الحين والاخر الى حدوث اضرابات متتابعة في المرافق الاقتصادية الحيوية في اسرائيل ٠ فبعد اضراب شركة الطيران الاسرائيلية (ال ـ عال) الذي وقع في اواخر السنة الماضية ، جاء اضراب شركة الباصات للنقل العام (ايجد) خلال شهر كانون الثاني الماضي ، ليزيد من تدهور علاقات العمل ويشل الحياة العامة في اسرائيل ٠ ويبدو ان مطالب العمال لا تنتهي في اسرائيل ، بسبب الوضع الاقتصادي غير المستقر ، اذ لا يمضي شهر بدون ارتفاع في الاسعار وانخفاض في قيمة الليرة ، يقابله مطالبة العمال بزيادة الاجور ، واعلان الاضرابات من اجل تحقيق مطالبهم ، بحيث اصبحت هذه الاضرابات امرا عاديا ، ومظهرا من مظاهر الحياة هناك ٠ وثمة عوامل عديدة لهذه الظاهرة اولها البناء التنظيمي والعلاقات المتبادلة بين مؤسسات الهستدروت المختلفة ، وعدم توفر الرقابة الكافية ، ثم القوة الاقتصادية والعامة التي امتلكتها لجان العمال، خاصة في فروع الخدمات العامة ٠ ويفوق عدد اعضاء هذه اللجان الثلاثين الفا ٠ « ونشهد هنا مجرى من الابتعاد الفكري بين قيادة الهستدروت ـ اللجنة التنفيذية والمكتب التنفيذي ـ وبين اعضاء لجان العمال ٠ ففي الوقت الذي يترأس فيه الهستدروت اشخاص لهم نهج فكري معين ٠٠٠ ونظرة اقتصادية وسياسية شاملة ، فأنه ما من شك ان معظم هذه الصفات غير موجودة لدى جزء من اعضاء لجان العمال ٠ ان لجان العمال انانية تنظر الى مصلحتها الذاتية المحلية فقط ، وتتجاهل الاعتبارات العامة خارج دائرتها » (رؤوبين عاشور ـ هآرتس ، ٧٥/١٠/٢٧) ٠ وهناك عامل اخر للاضرابات وهو كثرة اللجان في نفس مكان العمل ٠ وخير مثال على ذلك هو شركة (ال ـ عال) حيث يوجد عشر لجان منفردة ، وعلى الادارة ان تدير مفاوضات مع كل واحدة منها ، كل سنتين (بصدد اتفاقات لاجور) ، الامر الذي يزيد الوضع تأزما بسبب كثرة المطالب واختلافها ٠ والعامل الثالث هو السهولة التي تحدث بها الاضرابات بسبب عدم وجود قانون واضح وملزم يتعلق بهذه المسألة ٠ كذلك فأن عدم التناوب في انتخاب رؤساء لجان العمال من جديد ، يكسبهم نفوذا داخل عملهم ، الامر الذي يسهل الاضرابات ٠

حنه شاهين

نجاح المبادرة السورية في لبنان ، يقلق اسرائيل

منذ بدء الازمة اللبنانية واسرائيل تبدي اهتماما بالغا بما اسمته «التدخل» السوري في لبنان ، لاية مبادرة تتقدم بها سوريا لحل الازمة ، ووضع حد للاقتتال الدامي بين الاطراف المتنازعة • متهمة اياها بالعمل مع (م٠ت٠ف) على تحويل لبنان ، الى دولة مواجهة ضد اسرائيل ، قد تتواجد فيه قوات سورية وفلسطينية ، ليكمل الحلقة المفقودة في الجبهة الشرقية التي تسعى سوريا جاهدة لانشائها ، وخاصة بعد التقارب السوري الاردني وانشاء قيادة عسكرية موحدة ، الامر الذي ترى فيه اسرائيل خطرا حقيقيا على امنها ، وتسعى الى منعه بكل الوسائل ، الى حد التهديد باحتلال جنوب لبنان والقضاء على التواجد الفلسطيني فيه •

وقد طالب النائب امنون لين ، قبيل نجاح المبادرة السورية الاخيرة ، حكومة اسرائيل بالعمل على « خلق حقائق جديدة على الحدود ، ولمنع احتلالها بواسطة قوات سورية ـ فلسطينية » • (ر٠أ٠ف٠أ ٧٦/١١/٣) •

وفي بداية السنة الحالية ، صرح وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس : « ان تدخل سوريا في لبنان ، لن يقابل بلا مبالاة من جانب اسرائيل » (ر٠أ٠ف٠أ ٧٦/١١/٩) •

ردود الفعل الرسمية على المبادرة ••

كان اول تصريح ادلى به رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحق رابين على نجاح المبادرة السورية ، امام وفد من منظمات الجباية اليهودية الموحدة في تل ابيب يوم ٧٦/١/٢٤ ، بأن حكومته ترقب الاوضاع في لبنان عن كثب « واننا لن نقف جانبا ، اذا ما تطورت الاحداث بشكل يهدد امننا » • (معاريف ، ٧٦/١/٢٥) •

وحين سئل اذا ما كان ثمة احتمال لتدخل عسكري اسرائيلي في لبنان ، اجاب : « انني اعتقد ان جيراننا يعرفون ما نعنيه جيدا ، وانا افضل ان يفكروا ما الذي عليهم ان يفعلوه اكثر من مرتين ، كي لا يؤذوا باسرائيل لان تفقد صبرها » •

الا انه عاد وخفف من حدة تهديده قائلا : « نحن لن نتدخل في لبنان ، الا اذا كان ثمة خطر على امننا » (المصدر نفسه) • ولكنه لم يسقط من حسابه احتمال نشوب حرب شاملة في المنطقة مع اسرائيل ، نتيجة لنجاح المبادرة السورية وانه يترتب « على اسرائيل ان تكون على اهبة الاستعداد لاحتمال كهذا » • (المصدر نفسه) •

اما شمعون بيرس ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، فقد صرح في رده على الاسئلة التي وجهت اليه في نادي الصحافة ، في « بيت سوكولوف » في تل ابيب يوم الجمعة ٧٦/١/٢٣ ان « تقدير الحكومة هو ، بأن ما فعلناه بالنسبة للاوضاع في لبنان كان كافيا ، واذا ما طرأ اي تغيير في الاوضاع ، فاننا سننظر في الامر » (يديعوت احرونوت ، ومعاريف ، ٧٦/١/٢٥) •

ثم اردف مبررا عدم تدخل اسرائيل العسكري ، الذي هدد هو نفسه به عدة مرات ، قائلا « ان الحكومة لا تتوقع غزوا سوريا ، وانما العكس ، فان القسم الاكبر من بياناتها ، كان موجها لمساعدة سوريا كي تقرر بأن لا تغزو لبنان • (المصدر نفسه) • ثم عاد وترك الباب مفتوحا امام اسرائيل ، لاحتمال تدخلها العسكري حيث اضاف ان « حقوق اسرائيل محفوظة على اي حال • اننا ننظر في الامر وفقا لتطورات الاحداث » (المصدر نفسه) • ثم عاد وصرح ـ بعد ان اكد ان القوات التي دخلت لبنان ، هي قوات فلسطينية وليست سورية ـ بأن سياسة اسرائيل بالنسبة للاحداث في لبنان ، تتلخص في ان « لا تتدخل في الحرب الاهلية الدائرة في لبنان • وان تمنع اي تدخل اجنبي قد يؤثر على امن اسرائيل » (المصدر نفسه) •

وحين سئل في مقابلة له مع الراديو الاسرائيلي في اليوم التالي ٧٦/١/٢٦ ، عما اذا كانت

اسرائيل ترى في نجاح المبادرة السورية في لبنان ، سيطرة سورية عليه ، اجاب بلهجة حذرة « ان لسوريا نفوذا في لبنان ، واعتقد ان هذا النفوذ قد ازداد حاليا » (ر٠١٠٠، ٧٦/١/٢٧) .

اما وزير الاديان اسحق رفائيل ، فقد عبر عن دهشته ، في جلسة لحزب المفدال في تل ابيب في ٧٦/١/٢٣ ، لسكوت العالم المسيحي والفاتيكان ، وعدم تدخلهما في لبنان ، «تاركين لسوريا ان تفعل ما تشاء به » ، حيث قال : « من واجبنا ان نعبر عن مدى دهشتنا ، لتجاهل العالم المسيحي الكبير المثير للدهشة، لما يجري في لبنان ... اننا حتى الآن لم نسمع اي رد فعل يستحق الذكر من جانب الفاتيكان ، او الناطق باسمه ، ولا من رؤساء الكنائس في الشرق والغرب » (يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢٥) .

وهكذا نرى ان حكام اسرائيل ، قد لجأوا الى التقليل من شأن المبادرة السورية ، او ما اسموه بـ « التدخل » السوري في لبنان . ويبدو انهم اخذوا بعين الاعتبار ان كل « رد عسكري » من جانبهم ، قد يؤدي الى تدهور جديد في المنطقة ، وقد يؤدي بدوره الى سقوط اتفاقية سيناء ، الامر الذي لا ترغب فيه اسرائيل ، ولا تتمناه الولايات المتحدة الاميركية .

وفي نفس الوقت ،قام وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس ، بزيارة للحدود مع لبنان ، لتطمين سكان المستوطنات هناك ، واستغل الفرصة لمحاولة احراز كسب دعائي لحكومته ، حيث صرح ان اسرائيل مستعده لقبول « لاجئين مسيحيين من لبنان » .

... وردود فعل الاوساط السياسية الاخرى :

وعلى الصعيد السياسي الاوسع ، فقد تفاوتت تصريحات السياسيين الاسرائيليين ، وردود فعلهم بالنسبة لمبادرة السلام السورية في لبنان ، وفقا لمواقف الاحزاب والدوائر السياسية التابعة لها ، الا ان هذه التصريحات اتسمت جميعها بطابع التخوف من المستقبل ، وتوجيه اللوم للحكومة لعدم تدخلها ،ومطالبتها برد فعل عسكري على ما اسمته بـ « التدخل » السوري في لبنان .

وقد قرنت غولدا مائير ، رئيسة الوزراء السابقة ، ما يدور من احداث في لبنان ، بما يدور في انغولا ، واتهمت سوريا بأنها تقوم في لبنان ، بنفس الدور الذي تقوم به كوبا في انغولا بمساعدة الاتحاد السوفياتي « لا بد وان تكون الاحداث في انغولا بمثابة تحذير لنا ، بالنسبة لمدى استعداد الدول الغربية الكبرى للوقوف في وجه تدخل سوفياتي مباشر » (يديعوت احرونوت ، ومعاريف ، ٧٦/١/٢٥) .

وفي مقابلة له مع الراديو الاسرائيلي يوم ٧٦/١/٢٤ ، وصف الجنرال اهارون ياريف ،وزير الاعلام الاسرائيلي السابق ، والنائب في الكنيست ، هذه المبادرة ، على انها كانت بمثابة النهاية للبنان الذي تريده اسرائيل « لبنان كما عرفناه حتى السنة الماضية ، والذي حدد المسيحيون فيه خطه السياسي ، والذي حافظ على الا يتدخل في الصراع المباشر مع إسرائيل بشكل فعال - قد انتهى من الوجود ، ولم يعد قائما بعد » .

ثم حذر ياريف ، من ان لبنان ما بعد المبادرة ، قد يتحول الى دولة مواجهة ، ولا بد لاسرائيل من ان تكون على اهبة الاستعداد لمواجهة الموقف . « ثمة احتمال كبير بأن ينضم هو الآخر - اي لبنان - لدول المواجهة ضد اسرائيل ، وعلينا ان نضع ذلك في حسابنا ، سواء كان ذلك في موقفنا او عملنا بالنسبة اليه » (يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢٥) .

ورغم ان عضو الكنيست الإسرائيلي مئير عميت (حزب العمل) ، اكد في مقابلة له مع الراديو يوم ٧٦/١/٢٤ ، على تعاظم القوى الوطنية نتيجة للمبادرة السورية ، ورغم ما ابداه من تخوف للاخطار التي تنطوي عليها المبادرة السورية بالنسبة لاسرائيل ، الا انه نصح اسرائيل بأن لا تتدخل وتعمل ، ما دامت سوريا لم تدخل الى ابنان اية قوات نظامية او شبه نظامية . واضاف « ما من شك ان يد المسلمين في لبنان ستقوى ، الامر الذي يشكل خطرا جديا على اسرائيل . ومن حق اسرائيل

ان تتدخل ، اذا ما دخلت قوات سورية نظامية، او شبه نظامية ، وما دام ذلك لم يحصل - فليس من الحكمة ان تتدخل اسرائيل وتعمل»• (يديعوت احرونوت ، ومعاريف ، ٢٥/١/٧٦)•

الا ان عضو الكنيست مردخاي بورات - نائب رئيس الكنيست الاسرائيلي ، حاول في اجتماع للهستدروت في « بيت اشكول » في تل ابيب في ٢٣/١/١٩٧٦ ، ان يكون اكثرهم « اعتدالا » في تعليقه على المبادرة السورية ، مصرحا بان ليس لاسرائيل اية مصلحة ، في ان تتدخل في مجرى المعارك في لبنان ، ودعا لان تركز اسرائيل اهتمامها على ميزان القوى العسكرية فقط ، حيث اضاف « تيقظنا بالنسبة للقضية اللبنانية ، يجب ان يتركز على ميزان القوى العسكرية هناك فقط » • (يديعوت احرونوت ، ٢٥/١/٧٦) •

وقد اختلفت لهجة التصريحات ، التي ادلى بها بعض من زعماء الاحزاب اليمينية المتطرفة ، عن تصريحات غيرهم ، فبينما حاول الاخرون « تبرئة » سوريا من التدخل المباشر في لبنان ، لاعطاء المبررات لاسرائيل على عدم تدخلها ، وتنفيذ تهديداتها بالتدخل العسكري •• ثارت ثائرة اليمينيين لنجاح المبادرة السورية في لبنان ، ووصفوها بأنها « غزو » سوري للبنان و « احتلال » اه ، الى الحد الذي جعل عضو الكنيست حاييم لانداو (ليكود) - رئيس لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست ، بالنيابة - لان يدعو حكومة اسرائيل - في خطاب له امام الطلاب من حزب ليكود اليميني في تل ابيب يوم ٢٤/١/٧٦ - الى ان تعلن ، انه ما لم تسحب سوريا « جيش الاحتلال » السوري - الفلسطيني من لبنان دون تأجيل ، فانها ستستخدم « جيش الدفاع» الاسرائيلي كي « تدافع » عن نفسها ، واضاف لان « الجيش الفلسطيني الذي غزا لبنان ، هو جزء من الجيش السوري الخاضع لاوامر الاركان السورية.، وعلى هذا فهو غزو سوري مباشر مقنع بلباس الجيش الفلسطيني» (المصدر نفسه) •

كما وتقدم عضو الكنيست - رلمان شوفال (ليكود) - في حديث له مع عضو الكنيست سمحا ارليخ - بطلب لعقد اجتماع عاجل لقيادة حزب ليكود وممثليه في لجنة الخارجية والامن، كي « يبحثوا تطورات الاحداث الخطيرة في الحرب الاهلية في لبنان » ، منوها الى ان ثمة وضعا جديدا قد طرأ بالنسبة لاسرائيل ، وعليها ان تستعد لمواجهته « حسب ما تقتضيه مصالحها الحيوية ، حتى وان كانت هذه المصالح لا تتفق ومصالح صديقتنا الكبرى ، الولايات المتحدة ، اتفاقا كاملا » (المصدر نفسه) •

اما حزب « ارض اسرائيل الكاملة » ، فقد دعا رئيس الوزراء لان يؤجل سفره للولايات المتحدة ، كي يتفرغ لمعالجة ما اسمساه بـ « الاوضاع الخطيرة في الحدود الشمالية لاسرائيل » ، موجها انتقادا لاذعا لحكومة اسرائيل ، لتقاعسها وتراجعها عن تنفيذ تهديداتها بالتدخل في لبنان ، ووصف هذه التهديدات ، بأنها تهديدات فارغة ، مما ادى الى نجاح المبادرة السورية في لبنان ،حيث قال « لقد تجاهلت دمشق تهديدات اسرائيل بأن لا تتدخل في لبنان ، لانها ترى فيها مجرد تهديدات فارغة » (معاريف ، ٢٥/١/٧٦) •

الصحف : اسرائيل هزمت في لبنان !

لقد احتلت المبادرة السورية ، المكانة الرئيسية في الصحف الاسرائيلية •

فقد وصفتها افتتاحية صحيفة « معاريف » بأنها « مناورة سورية حكيمة » ، متهمة دمشق بأنها « استخدمت الفلسطينيين كي تضع يدها على مراكز السلطة في لبنان » (٢٥/١/٧٦) • وبهذا تكون قد سحبت البساط من تحت ارجل القادة الاسرائيليين ، الذين لا ينفكون عن توجيه التحذيرات تلو التحذيرات لسوريا ، من التدخل في لبنان ، اذ ان ما فعلته سوريا لا يمكن ان يسمى « ولو من الناحية الشكلية ، على انه « تدخل اجنبي » » (المصدر نفسه) •

وقالت الصحيفة ، ان الاتفاق الذي حصل في لبنان ، يمنح السوريين والفلسطينيين سيطرة بعيدة المدى ، على الاحداث الجارية في لبنان ويلغي التوازن بين المسيحيين والمسلمين ، وان المسيحيين قد تحولوا بفعلها ، من شركاء في

الحكم إلى اقلية مغلوبة على امرها ، وبهذا « تكون سوريا قد إنتصرت بجولة مهمة في الصراع الدائر على السلطة في لبنان ، وبواسطة مناورة ذكية » (المصدر نفسه) .

اما المحلل السياسي المعروف لصحيفة « يديعوت احرونوت » ، ارئيل جيناي ، فقد علق لعددين متتالين من الصحيفة المذكورة ، على المبادرة السورية ، متهما سوريا بأنها دفعت بالقوات الفلسطينية المتواجدة في سوريا بأوامر مباشرة من الرئيس حافظ الاسد ، كعامل ضاغط على « المسيحيين » كي يوافقوا على شروط ما اسماه بـ « التسوية السياسية » التي وضعتها دمشق و « لكي تمنح المسلمين اللبنانيين قسطا اكبر في السلطة في لبنان ، ومسؤولية اوسع بادارة شؤون الدولة السياسية والاقتصادية لهذه الدولة » (٢٣/١/٧٦) . وقال ان ذلك « يشكل مصدر قلق كبير لاسرائيل » ، لان الحكم الجديد الذي سيقوم في لبنان « في شروط كهذه ، سيتخذ قطعا ، موقفا اكثر عدائية تجاهنا ، مما لو كان حكما لبنانيا يسيطر عليه المسيحيون الموارنة » .

واوضح : ان اسرائيل « لن تستطيع التدخل فيما اذا طرأ اي تغيير على البناء الحكومي ونظام الحكم في لبنان ، الامر الذي « من شأنه ان يضعف التأثير المسيحي الماروني ، وتقوية تأثير المسلمين الى حد كبير » الامر الذي سيكون « غير مرغوب فيه بالنسبة لاسرائيل » (المصدر نفسه) .

وربط جيناي هذه المبادرة ، بما اسماه بـ « اهداف سوريا للمدى البعيد » ، ومدى ما تقدمه هذه المبادرة من خدمة لسوريا ، في « انشاء سوريا الكبرى ، التي ستبتلع اول ما تبتلع لبنان ، ومن ثم دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومن ثم الاردن ، وبالتالي اسرائيل » .

واستدرك في آخر تعليقه ، ان احدا لا يعرف ما سيترتب على هذه المبادرة من نتائج في المستقبل ، رغم النجاح الحالي التي حققته ، واعرب عن شكه في استمرار نجاحها ، وانها ستكون سببا في تفجير الموقف بشكل اعنف ، بحيث تفقد سوريا سيطرتها على مجرى الاحداث فتكون بذلك « كالساحر الذي عرف السر لاثارة العاصفة ، الا انه لم يعرف السر لاخمادها » . (المصدر نفسه) .

وفي تحليله السياسي الثاني للمبادرة السورية ، في صحيفة يديعوت احرونوت الصادرة في ٢٥/١/٧٦ ، علق ارئيل جيناي ، على انه « من المبكر لان يتنبأ احد بالنسبة لنتائج التطورات الاخيرة في لبنان » واوضح ان « مبادرة السلام التي تقدمت بها سوريا ، والتي وافق المسيحيون عليها – مرغمين – تحفظ لهم ، ولو على الورق ، استقلال لبنان ، وحقوقا معينة اخرى » (المصدر نفسه) .

واضاف انه « على المدى القصير ، لم يتغير الموقف ضد اسرائيل بشكل خطير » ، اما على المدى البعيد فان « الوضع على الحدود الشمالية قد تدهور » وانه لن يكون ثمة مناص امام اسرائيل ، الا ان « تتخذ خطوات دفاعية ، كاحتلال مناطق معينة ، كي تضمن سلامة المستوطنات الشمالية » وان ذلك سيكون اسهل على اسرائيل بالنسبة لردود الفعل في الولايات المتحدة واوروبا الغربية « مما لو استمر في لبنان حكم مسيحي باغلبيته » (المصدر نفسه) .

وبهذا يكون ارئيل جيناي ، قد ترك الباب مفتوحا امام اسرائيل – تمشيا مع تصريحات المسؤولين الاسرائيليين – للقيام باعتداء عسكري على لبنان ، اذا ما سنحت الفرصة لذلك .

توفيق فياض

وثيقة ساوندرز تثير القلق داخل اسرائيل

اثارت الشهادة التي ادلى بها هارولد ساوندرز ، نائب مساعد وزير الخارجية الاميركية ، ردود فعل عنيفة وقلقة في اسرائيل وذلك على كافة المستويات الرسمية والشعبية والصحافية منها ، وعلى الاخص فيما يتعلق « بالموضوع الفلسطيني » • وقد دفعت هذه الوثيقة بعض المسؤولين الاسرائيليين الى القول ، ان هناك تحولا جديا في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية ، كما اطلق بعضهم اسم « الوثيقة الفلسطينية » على تلك الوثيقة نظرا لما تحتويه من مفاهيم وطروحات جديدة ، لم يسبق للولايات المتحدة ان طرحتها • وكان البعض من الاسرائيليين قد قلل من اهميتها ودعا الى عدم التخوف والفزع منها •

ردود الفعل الرسمية

كان من بين المسؤولين الاسرائيليين الذين علقوا على هذه الوثيقة ، اسحاق رابين نفسه عندما قال : « ان وثيقة ساوندرز مليئة بعدم الدقة والعرض غير الصحيح للامور ، ولهذا ترفضها حكومة اسرائيل وقد نقلت ملاحظاتها حولها الى حكومة الولايات المتحدة » (دافار ٢٠ / ١١ / ٧٥) • ولكن لم يكن هذا فقط رد رئيس الحكومة على الوثيقة ، فقد اشارت صحيفة « هآرتس » الصادرة في نفس اليوم الى ان رابين « قد شذ مؤخرا وبصورة ملحوظة عن سياسة غولدا مئير المعلنة بشأن الفلسطينيين عندما قال بأن تجاهل المشكلة اليوم معناه الانتحار من الناحية الاعلامية » •

وكذلك وجه كافة الوزراء خلال جلسة الحكومة التي عقدت يوم ١٦ / ١١ / ٧٥ ، انتقادا عنيفا بالنسبة لشهادة ساوندرز • وقد اكد جميعهم على انها مليئة بالمغالطات • وعلى الرغم من تطمينات وزير الخارجية الاميركية ، الا ان الوزراء انتقدوا الوثيقة بما يلي :

★ تم تشويه وتليين وصف نوايا منظمة التحرير الفلسطينية الداعية للقضاء على اسرائيل ، كما تم التساهل في تعريف م • ت • ف على انها منظمة ارهابية •

★ تم ابعاد الاردن للمرة الاولى في الوثيقة الاميركية ، من المكان الاول كمرشح رئيسي للمفاوضات مع اسرائيل فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني •

★ لا تحدد وثيقة ساوندرز موقف اسرائيل في الموضوع الفلسطيني ، كما تحدد في قرارات الحكومة ، وانما المقصود مواقف اسرائيلية مختلفة كأنما لا يوجد للحكومة الاسرائيلية موقف واحد وقاطع في الموضوع الفلسطيني ، وكأنما لم يعلن ولم يسلم هذا الموقف لحكومة الولايات المتحدة • وبناء على هذا الموقف فان اسرائيل مستعدة للتفاوض حول حل مشكلة الهوية الفلسطينية في اطار اتفاقية مع الاردن • وكان من ابرز الوزراء المنتقدين ، حاييم تسادوك ويسرائيل غاليلي ، وشمعون بيرس وجاد يعقوبي وزبولون هامر • وقد اكد جميع الوزراء « بأن ساوندرز هو ممثل للادارة وطالما ان الادارة لم تتحفظ من اقوال شهادته ، فأنه يجب النظر اليها بكامل الخطورة » (حغاي ايشد ، دافار ٧٥/١١/١٧) •

وعلق وزير الخارجية ييغال الون بقوله : « ان العلاقات مع الولايات المتحدة تشهد صعودا وهبوطا ، ولكن لا يمكن التحدث عن تحول • وانني لا اوافق على التقدير القائل ان ما يسمى بوثيقة ساوندرز تشكل اعترافا بحقوق م • ت • ف • ومعلوم اننا نعارض هذه الوثيقة ، وقد قدمنا احتجاجاتنا عليها للولايات المتحدة » (ر٠١٠١٠ ٧٥/١١/٢٧) • ومن جهة اخرى حلل رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، يتسحاق نافون ، الوثيقة خلال محاضرة له في نادي المهندسين في القدس فقال : « ان التجديد في هذه الوثيقة يقع في جملة واحدة وهي : « من عدة نواح فأن البعد الفلسطيني للنزاع العربي ـ الاسرائيلي هو لب النزاع » ، واشار ايضا الى ان هذا النزاع قد وصف في الماضي على انه قائم بين دولة اسرائيل

والدول العربية ، اما الان فهناك تركيز على البعد الفلسطيني . (المصدر نفسه ٢٥ / ١١ / ٧٥) .

اما زعيم حزب حيروت والارهابي المعروف ، مناحيم بيغن ، فقد سئل بعد عودته من واشنطن عن نشر الوثيقة فقال : « لقد نشرت وثيقة ساوندرز دون معرفة الحكومة ، وهذا شيء خطير من هذه الناحية لوجود تعهد اميركي صريح بأن تتشاور حكومتا الولايات المتحدة واسرائيل مع بعضهما البعض في المسائل السياسية الرئيسية . ويبدو اذن انه لم تجر بينهما مشاورة حول هذه المشكلة » (المصدر نفسه ٢١ / ١١ / ٧٥) .

ولم يتوقف رد الفعل الاسرائيلي عند هذا الحد وانما تعداه الى ما هو ابعد من ذلك . فقد رد البروفيسور مردخاي ابير ، المستشرق في الجامعة العبرية في القدس ، على الوثيقة بقوله : الحقيقة ان التوقيت جاء في فترة معينة بعد يوم ونصف اليوم من قرار الجمعية العمومية ، واعتقد ان هذا يشكل استمرارا في التحول القائم في مكانتنا في الولايات المتحدة... لقد شهدت في الاونة الاخيرة هذه اللعبة في واشنطن ، حيث اولا ينزلون بنا الضربة ، وبعد ذلك يباشرون بتلطيف الجو . ان اقوال كيسنجر لم تهدئنا اطلاقا ، لان هذا الاسلوب اصبح معروفا جيدا ، ولذلك فان اقواله بالنسبة لي ليست مهدئة بل « برشانة » للتنويم . وهذا استمرار لسياسته التي لم نرد عليها في الماضي . ويبدو لي اننا على وشك ابتلاع وثيقة ساوندرز دون اي رد فعل ، واعتبارها وثيقة غير مهمة » (المصدر نفسه ٧٥/١١/١٧) .

ردود الفعل الصحافية

تحدث الكثير من المعلقين والمحللين الاسرائيليين في مختلف الصحف الاسرائيلية، حول هذه الوثيقة ، وقد تفاوتت تحليلاتهم وتقديراتهم ، ولكنها اجمعت في معظمها على ان هناك تحولا وخطورة في هذه الوثيقة ، وفيما يلي عرضا لاهم ما كتبه هؤلاء المعلقين .

تحدث الصحافي يشعياهو بن فورات ، عن هذه الوثيقة بقوله : ان الانعكاسات السياسية « للوثيقة الفلسطينية » - لا تقل في اهميتها عن سلسلة القرارات المؤيدة للفلسطينيين والمعادية للصهيونية ، التي اتخذت في الجمعية العمومية مؤخرا . وبالرغم من ان لغة الوثيقة حذرة ، وأنه ورد فيها انه لا يوجد للادارة الاميركية في هذه المرحلة ، اقتراح بحل المشكلة المذكورة ، فأنه يجب ابداء الرأي حول بعض النقاط في الوثيقة .

● « البعد الفلسطيني يشكل بؤرة الازمة العربية - الاسرائيلية » و « الفلسطينيون كمجموعة يشكلون عاملا سياسيا ، يجب التفاوض معه اذا اريد احلال السلام » - ان هذين التصريحين من قبل الادارة الاميركية ، يشيران الى تبدل جدي في نظرة واشنطن الى المشكلة الفلسطينية .

● المسألة حسب رأي كاتب الوثيقة ليست « هل » وانما « كيفية » اعطاء تعبير للمصالح الفلسطينية .

● بحذر ولكن بوضوح جاء في الوثيقة ، ان م.ت.ف. وليس الاردن ، حسب قرار مؤتمر القمة في الرباط هي ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » .

● لقد لمح بوضوح ، الى انه يكفي اعتراف م.ت.ف. بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ من اجل دفع اسرائيل لاجراء مفاوضات مع المنظمة الرئيسية للمخربين . وهذا الامر يناقض تماما موقف اسرائيل ، بما في ذلك التصريحات الاخيرة لرئيس الحكومة ، ضد التفاوض مع عرفات ومنظمته .

● يوجد في الوثيقة اكثر من تلميح ، للطريقة التي ترتسم في الادارة [الاميركية] ، من اجل تقريب الجهات المعنية (اسرائيل وم.ت.ف.) واجراء مفاوضات مباشرة بينهما.

● تتجاهل الوثيقة وجود « ميثاق فلسطيني»، الذي ينص على ان الهدف الوحيد للفلسطينيين هو تصفية دولة اسرائيل المستقلة .

● كما ان الوثيقة تتجاهل ايضا مطالبة

م.ت.ف بتسلم اي « منطقة يتم اخلاؤها » بهدف مواصلة الحرب من هناك ضد اسرائيل الى حين تصفيتها .

● تدهش الحقيقة ، ان كاتب الوثيقة لا يذكر ، ولو بالتلميح ، المعضلة الإستراتيجية لاسرائيل في حال تنازلها عن قطاع غزة والضفة الغربية .

ويخلص بن فورات الى القول ، أن تحليلا واعيا للوثيقة يثبت ان الادارة الاميركية قد تبنت الرأي العربي ، ولهذا فهي تطالب بالاسراع بمناقشة قضيتهم ، في حين ان هذا الامر قد ترك الى نهاية الدور . فالادارة الاميركية تتوقع تعايش اسرائيل مع الدولة الفلسطينية في حدود لم ترسم بعد . ومن اجل ذلك فهي تبحث عن طرق للتفاوض مع الفلسطينيين اي (م.ت.ف.) . (يديعوت احرونوت ١٢/١١/٧٥) .

وتحدث المعلق يوسف حاريف ، عن « الوثيقة الفلسطينية » ، وعن الضجة التي اثارتها فأشار الى ان رابين قد طلب من السفير الاسرائيلي في واشنطن ان يستوضح كيسنجر شخصيا ما هو معنى هذه الوثيقة . وطلب اليه ان يثير ثلاثة اسئلة رئيسية تثير انطباعا واضحا جدا ، بان هناك انحرافا في موقف واشنطن تجاه الفلسطينيين : المسألة الاولى اعتبار المشكلة الفلسطينية لب النزاع المسألة الثانية المبدأ المشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة ، وهو ان المفاوضات ستجري بين دول وليس مع « منظمات » ، المسألة الثالثة تطرقت الى الاردن ، الذي اعتبرته الولايات المتحدة حتى الان شريك اسرائيل للسلام .

واشار حاريف الى انه انتظرت سفير اسرائيل « مفاجئة مثيرة » ، فقد الغى كيسنجر الوثيقة . وعندما ادعى السفير الاسرائيلي بأنهم يعتقدون في القدس بأن الوثيقة قد اعدت لتهيئة الكونغرس والرأي العام في الولايات المتحدة للتغير في موقف الادارة من المسألة الفلسطينية ، اجاب كيسنجر « ان هذا هذيان من الدرجة الاولى ! » . وتساءل الصحافي الاسرائيلي ، ولكن بعد اقوال التهدئة هذه لا يزال يطرح السؤال : هل يخطر على البال بان وثيقة « يتحفظ » عنها وزير الخارجية تماما ، يمكن ان تسلم للكونغرس من قبل « اي موظف » .

ويقول حاريف ، الى انه بالرغم من هذه التطمينات والنفي ، فان الاسرائيليين ينتابهم الخوف والقلق من حدوث تغيير في السياسة الاميركية . وان الوثيقة قد اعدت من قبل وزارة الخارجية الاميركية ، وقد استند في ذلك، الى اللقاء الذي تم بين احد موظفي السفارة الاسرائيلية والفرد اثرتون ، مساعد وزير الخارجية الاميركية ، فأكد له اثرتون ، ان الوثيقة قد كتبت من قبل المسؤولين في وزارة الخارجية وفي مجلس الامن القومي عن هذه المشكلة . (معاريف ٢١/١١/٧٥) .

ويستطرد حاريف بقوله ، على اي حال لا شك في ان شيئا ما آخذ بالتغيير في واشنطن . فقبل اذاعة وثيقة ساوندرز ، صرح موظف كبير في وزارة الخارجية على مسمع من احد رجالات السفارة الاسرائيلية بواشنطن ، « انه حسب تقديرهم [الاميركيين] فان احدى الطرق لجلب السوريين الى المفاوضات ، هي الاشارة الى تقدم في الموضوع الفلسطيني . واضاف الموظف نفسه، الى انه يسود الرأي لدى وزارة الخارجية ، بأن الحل هو في اطار اقليمي مستقل في الضفة الغربية .

« البعوضة الفلسطينية » تنقر الرأس الاميركي

ويصف حارين ، احد الاسباب لاذاعة مثل هذه الوثيقة بقوله : ان « البعوضة الفلسطينية » لم تبدأ صدفة بنقر رأس وزارة الخارجية في واشنطن . ولكن الرغبة في توثيق العلاقات مع مصر وتقريب سوريا الى الولايات المتحدة ، قد فوت لديها المعرفة ، بأنه دون خطوة نحو م.ت.ف. فان نوايا واشنطن هذه ستكون موضع الشك . واشار حاريف الى الخطورة التي تكمن وراء هذه الوثيقة ، فذكر بأنها قدخلقت خلفية جديدة

للموضوع الفلسطيني ، من خلال تجاهل بعض المبادىء المقدسة لدى الادارة الاميركية . واشار الى انه في اكتوبر ١٩٧٤ ، قد وضع فورد اسرائيل امام خيارين اما التفاوض مع الاردن او مع م.ت.ف. وخلص حاريف في تعليقه الى القول : يبدو ان الحزام اخذ في التضييق حول اسرائيل ، وانه كلما كانت صعوبات واشنطن بالتقرب الى القاهرة ودمشق كبيرة ، كلما كثرت المحاولات لطرح « مناورات اكاديمية » في الموضوع الفلسطيني (المصدر نفسه) .

وورد في احدى افتتاحيات صحيفة «هآرتس» تعليقا حول هذه الوثيقة ، ما ملخصه ، ان وثيقة ساوندرز تثير القلق والمعارضة . وان المركز الرسمي لصاحبها لا يسمح لنا . ان نمر بصمت على اقواله او ان نحاول التقليل من اهميتها . ويستخلص منها ، انه في نهاية الامر ، فان م.ت.ف. ستكون شريكة في المفاوضات حول تسوية المشكلة الفلسطينية وان ساوندرز يعتمد دون اي خوف ، على اساس قرار مؤتمر الرباط من العام الماضي ، وانه يشك في فاعلية اية محاولة لاخذ الاردن في الحسبان كطرف للمشكلة الفلسطينية . وان من يتعقب التصريحات الصادرة عن وزارة الخارجية الاميركية خلال السنة الاخيرة حول المشكلة الفلسطينية ، لا يمكن ان يتخلص من الانطباع بأن الريح تهب باتجاه التفكير الذي يعتبر م.ت.ف كطرف رئيسي لحل المشكلة « كيفية اعطاء هوية قومية » لعرب المناطق المحتفظ بها (هآرتس ٧٥/١١/١٤) .

واعترفت صحيفة دافار في افتتاحيتها يوم (٧٥/١١/١٤) ان هناك هوة عميقة بين الولايات المتحدة وبين اسرائيل فيما يتعلق بموضوع حقوق الفلسطينيين . وان الخلاف ليس فقط بيننا وبين الاوروبيين وانما الامريكيين ايضا . وتتوقع هذه الصحيفة الى انه سيتم قريبا توجيه ضغط من قبل واشنطن بهدف انسحاب اسرائيلي ما من الجولان . وربما ستكون وثيقة ساوندرز بداية هذا الضغط . وخلصت الصحيفة الى القول ، ان الولايات المتحدة لم تعد تعتبر المشكلة الفلسطينية بأنها مشكلة لاجئين انسانية وانما مشكلة سياسية وتتحدث ايضا عن الحقوق القومية والشرعية .

واما دان مرغليت ، احد كبار المعلقين الاسرائيليين ، فقد انتقد تصديق الحكومة الاسرائيلية للتطمينات والنفي الاميركي . واشار الى ان الحكومة الاسرائيلية تتجاهل ثلاثة امور رئيسية وردت في الوثيقة ، اولها ، ان الحكومة تتغاضى عن التجديد في موقف الولايات المتحدة ، الذي يضفي فجأة نوايا معتدلة على جماعات كبيرة من م.ت.ف . والمقصود من ذلك احداث تغيير في صيغة قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، وثانيها انه لا يوجد في الوثيقة احتجاج على قرار مؤتمر الرباط بشأن التمثيل الوحيد للفلسطينيين من قبل م.ت.ف ، وثالثها ان الولايات المتحدة تعطي الاولوية لمعالجة الموضوع الفلسطيني . ويخلص الى القول انه سواء كانت الوثيقة « دفعة اولى » لانور السادات ، كما يميل للاعتقاد عدد من المستشرقين في واشنطن ، ام انها اعدت فقط للتسهيل على السوريين ببدء المفاوضات فمن الواضح انها تشكل مؤشرا جديدا . وان الوثيقة ستظهر بعد مدة طويلة بعد تحقيق تسوية جزئية في هضبة الجولان، او بعد ان تتنازل الاطراف عن المحاولة بالوصول الى تفاهم اسرائيلي – سوري كهذا.

وانتقد مرغليت الذين يستهينون بساوندرز ، حيث انه ليس فقط موظفا كبيرا او خبيرا مرموقا يعتبره الكثير من الاسرائيليين المدافع المثقف جدا المؤيد للعرب داخل الادارة ، وانما هو ايضا خبيرا حظي بتقدير من شخص لا يكثر من تقدير الاخرين الا وهو هنري كيسنجر . وذكر ان احد الموظفين في وزارة الخارجية الاميركية ، قد حدث احد الصحافيين البريطانيين بمعالجة وثيقة ساوندرز بتوسع ، حيث انها تمثل « تحركا ذا معنى » في موقف واشنطن في الموضوع الفلسطيني (هآرتس ١٩٧٥/١١/١٧).

وتحدث معلق اخر حول هذه المشكلة ، فأشار الى ان هناك تنسيقا اميركيا – مصريا حول الموضوع الفلسطيني ، وانه تم الاتفاق بينهما على عدم ابقاء هذا الموضوع بأيدي

السوريين ، وانه يجب اثارة الامل لدى الجهات الفلسطينية المعتدلة بان مصر والولايات المتحدة لن تتخليا عن قضيتهم . وتستند المصادر في ذلك ، الى ان السادات قد اختار ابراز الموضوع الفلسطيني خلال زيارته الاخيرة للولايات المتحدة وانه لم يكتف بالمطالبة باتفاقية اسرائيلية - سورية فقط ، كما فعل قبل توقيع الاتفاقية مع اسرائيل . وخلص الى ان وثيقة ساوندرز، هي نتيجة لفشل الاعلام الاسرائيلي حول القضية المذكورة . حيث ان التصريحات المتكررة لكل من رئيس الحكومة ووزير الخارجية وغيرهم ، بشأن اعترافنا بوجود هوية فلسطينية ، فقط للعناصر البناءة وليس في م.ت.ف. ، كان ذلك من المحتم ان يؤدي ان عاجلا ام آجلا الى هذه النتيجة (جفاي ايشد ، دافار ١٩٧٥/١١/١٦) .

الوثيقة ليست جديدة والخلاف مع واشنطن ليس بجديد

كانت الوثيقة بالنسبة لغالبية الاسرائيليين بمثابة مفاجئة ، ولكن البعض منهم لم تكن بالنسبة اليه كذلك ، كما ان الخلاف مع واشنطن والهوة بين موقفها وموقف تل ابيب بالنسبة للشرق الاوسط لم يكن كذلك بجديد . فقد اشار الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان ، الى ان وثيقة ساوندرز قد نشرت قبل سنوات ليست بقليلة ، وذلك في اطار بحث اجراه لحساب « مؤسسة راند » . وانه يمكن الحصول على هذا البحث من كل مكتبة في اي جامعة في العالم ، وسيصدر هذا البحث في كتاب خلال الايام القريبة . واشار كينان ،الى ان كل واحد يعرف منذ بضعة اشهر بان ساوندرز، تحت اشراف المسؤولين عنه في وزارة الخارجية الاميركية ، يعد الوثيقة المذكورة من اجل الاثبات لاعضاء الكونغرس ، الذين يضغطون بقوة في هذه المسألة بان وزارة الخارجية ليست جامدة ، وانها تعد افكارا سياسية جديدة من اجل احلال السلام في المنطقة . وهاجم كينان السياسة الاسرائيلية والقائمين عليها ، وقال « انهم لا يفهمون الا ما ينسجم مع مفاهيمهم ، اما غير ذلك فلا يفهمونه ، كما انهم لا يدركون المتغيرات » (يديعوت احرونوت ٧٥/١١/٢١) .

واشار البعض الى ان من سنحت له فرصة الاتصال مع ساوندرز ، او من تعقب في الصحافة الاميركية ، التصريحات الاميركية الاخيرة بالنسبة للمسألة الفلسطينية ، فانه لن يستطيع ان يجد في التقرير الذي قدم للجنة الفرعية التابعة للكونغرس اي امر جديد او يثير الفضيحة . وبناء على ذلك ، فقد مر ممثلو الصحافة الاميركية على الوثيقة تقريبا بصمت تام ، لانهم لم يجدوا فيها اي جديد . فقد انتقد اريئيل غيناي ، الموقف الذي اتخذته حكومة اسرائيل ، من هذه الوثيقة ومبالغتها في تضخيمها . وطالب بعدم اعطاء هذه الوثيقة نشرا لا تستحقه وكذلك اعلام الادارة الاميركية بالطرق السياسية العادية عن التحفظات التي لها عليها : وان نسجل امامنا البيانات الاميركية حول موقف الولايات المتحدة تجاه م.ت.ف .

ويستطرد غيناي قائلا ، قبل ان نفحص مضمون الوثيقة بصورة جدية ، فقد اعلنت « اوساط سياسية في القدس » عن « قلقها البالغ » واعلنت بان الوثيقة اثارت المخاوف في القدس . كما ان الصحافة قد ضخمت المسألة ، وان الحكومة اذاعت بيانا ، صيغ بلهجة عنيفة ونادرة - بالرغم من ان كيسنجر قد اعلن انه لم يطرأ اي تغيير على السياسة الاميركية . (يديعوت احرونوت ١٩٧٥/١١/٢١).

واما شموئيل سيغف ، احد كبار المعلقين في صحيفة « معاريف » ، فقد تطرق في تعليقه الى هذه الوثيقة ، فاشار الى ان رد الفعل العنيف في اسرائيل هو في وضع معكوس ، مع الهدوء الذي استقبلت به الوثيقة في واشنطن . فبالرغم من ان ساوندرز قد القى بشهادته منذ حوالي اسبوع ، فانه حتى الآن لم ينشر مضمونها - لا بكاملها ولا جزءا منها - في اي صحيفة اميركية . واشار سيغف ، الى ان شهادة ساوندرز ورد الفعل الاسرائيلي عليها قد خلقت الآن وضعا جديدا يتطلب التعقب الشديد لاتجاهات الادارة الاميركية في الموضوع الفلسطيني . وانه ليس سرا ، كما

في مسألة الحدود كذلك في هذا الموضوع فان هناك اختلافات واضحة في الرأي بين اسرائيل والولايات المتحدة · ولكن الدولتين تغطيان على هذه الاختلافات بسبب ارتباط عرفات الكامل بموسكو وكذلك لان الولايات المتحدة لم تتنازل عن « الخيار الاردني » ·

واضاف ان هناك تمسكا في الموقف الاميركي بالموقف القائل انه طالما لم تعترف م·ت·ف بحق اسرائيل في الوجود فان الولايات المتحدة لن تعترف بالفلسطينيين · وما عدا هذه المرحلة فانه لا يوجد اتفاق بين اسرائيل وواشنطن في الموضوع الفلسطيني ، بحد ذاته وليس في اطار الحل الفلسطيني · وعندما يحين الوقت فستجد اسرائيل والولايات المتحدة نفسها امام خلاف حاد ·

ويخلص الى القول : حسب كافة الدلائل ، فان الموضوع الفلسطيني لا يحتل قمة سلم الافضليات السياسية الاميركية · فالولايات المتحدة تريد في البداية الوصول الى حل وسط آخر في الجولان ، ثم بعد ذلك محاولة التعسس بمسألة مؤتمر جنيف وابقاء الموضوع الفلسطيني الى ما بعد انتخابات الرئاسة الاميركية · ولمزيد من السخرية ، فان اميركا هي التي تقول لاسرائيل ، بان رد فعلها العنيف يمكن ان يؤدي بالذات الى نتيجة معكوسة - اي تقديم معالجة الموضوع الفلسطيني على مواضيع اخرى - وهذا يخالف تماما المصالح الاميركية والاسرائيلية على السواء (معاريف ٧٥/١١/١٨) ·

حمدان بدر

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

الجولة الاخيرة في لبنان اوضحت بشكل لا يرقى اليه شك ، موقف الانعزاليين من الوجود الفلسطيني بكل ما يعنيه من بشر وقضية ومقاومة • فهذا الوجود هو المستهدف وهو المعني في الصراع • ولم يكن هذا الموقف، الذي سنورد شواهده بعد قليل ، احد نتائج الصراع المسلح الاخير ، بمعنى ان موقف الانعزاليين اللبنانيين من الوجود الفلسطيني لم يتقرر من خلال معطيات الصراع نفسه ونتائجه ، وانما هو موقف يكمن في خلفية الصراع وتحكمه دواع اقتصادية وسياسية وايديولوجية صنعت السبب او الحافز الذي بدوافعه خاضت القوى الانعزالية معركتها الطويلة • واذا كانت هذه المعركة قد اتخذت لها اكثر من بعد ، بعضه اجتماعي ـ اقتصادي وبعضه لبس لبوسا طائفيا ، فان الوجود الفلسطيني ، او بتعبير اكثر دقة الحضور الفلسطيني في لبنان كان يشكل الهدف الرئيسي الذي ترتبط به الاهداف الاخرى اقتران السبب بالنتيجة ، والذي باصابته تتحقق اصابة جملة اهداف دفعة واحدة • والحضور الفلسطيني الذي نعني هنا هو ما يمثله الفلسطينيون كمجموعة سكانية ، وكقضية ، وكمقاومة ، من تأثير في تقرير ملامح الصورة اللبنانية ، وباعتبارهم احد مكونات ميزان القوى السياسية ـ الاجتماعية في لبنان ، ليس من خلال وجودهم افرادا ، وانما من خلال ما يمثلون من حالة سياسية مستقطبة ، فاعلة فيما حولها ، وقادرة على اثبات ذاتها •

وقد ظهرت هذه الحالة مع دخول الثورة الى المخيمات واصبح بعدها لـ «الفلسطينية» معنى محدد توحد فيه الوجود الفلسطيني من حيث هو مجموعة سكانية مع الهوية النضالية للشعب ، بحيث اصبح تعبير « الفلسطيني » مرادفا لكل ما هو نضالي بحركيته وتأثيره فيما عداه •

وموضوع المخيمات الفلسطينية في لبنان شاهد ماثل على هذه الحقيقة • ذلك بأننا نرى ان الوجود الفلسطيني لم يكن من حيث هو وجود موضع رفض مطلق في لبنان عندما كانت « الفلسطينية » مقترنة بهوية اللاجيء• فسكان المخيمات الفقراء كانوا مشتلا يمنح منه الرأسمالي الوف العمال مهضومي الحقوق الذين يرضون بأجر اقل وبشروط عمل اقسى• والبرجوازية الفلسطينية التي لجأت الى لبنان وتمكنت من نقل ثرواتها اليه اسهمت في ازدهار الاقتصاد اللبناني واضافت لبنة اليه واصبحت جزءا منه • حتى الشباب الذين انخرطوا في الاحزاب والحركات الوطنية (ذات الافق القومي) لم يمثلوا حالة تهدد المؤسسة اللبنانية ما دامت قادرة على القمع من جهة ، ومتمكنة من الهيمنة على موارد عيش هؤلاء الشباب من جهة ثانية •

غير ان الحال تبدلت مع دخول المقاومة

لبنان وبقدرتها على تثوير المخيم • فالمخيم لم يعد مجرد مجموعة سكانية تفرز عمالا فقراء وبوابي عمارات وعمالا زراعيين موسميين، وانما تحول الى حالة سياسية ـ عسكرية ميزاتها الاساسية كما يلي :

١ ـ بعث من جديد لدى هذه المجموعات السكانية في المخيمات الاحساس بانتمائها الى وحدة الشعب ، واصبحت المخيمات جميعا ، من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، يسلكها ناظم واحد هو وحدة القضية ، وبالتالي وحدة التحرك ووحدة القيادة بالاضافة الى وحدة الانتماء للحركة السياسية التي وان تعددت فصائلها فانما يؤطرها اطار واحد هو انها حركة الشعب الفلسطيني •

٢ ـ اصبح المخيم قادرا على الدفاع عن نفسه دفاعا ذاتيا مما منع اجهزة القمع التابعة للمؤسسة اللبنانية من ان تمارس اجراءاتها الاضطهادية داخل المخيم •

٣ ـ مع دخول افواج عديدة من سكان المخيمات ضمن تنظيمات حركة المقاومة وتفرغهم للعمل في صفوفها ، تمكن هؤلاء من فك ارتباطهم بالبنية الاقتصادية اللبنانية ، مما جعل قدرة المؤسسة اللبنانية مع التأثير على حركتهم اليومية وسلوكياتهم المعيشية معدوما ، وبالتالي افقد هذه المؤسسة سلاحا مهما استعملته بكفاءة ضد من انتمى من الفلسطينيين الى الحركة الوطنية اللبنانية قبل قيام الثورة •

٤ ـ اصبح المخيم القاعدة البشرية لحركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، وهو يمثل لها الظهير الاشد قدرة على حمايتها والدفاع عن وجودها ، وبذلك فان استمرارها على البقاء في لبنان مرهون ، مع جملة شروط اخرى وان كان هذا اكثرها اهمية ، ببقاء المخيم ملتحما مع حركتها •

وهكذا فان المخيم بمعناه الجديد يدخل ضمن الهدف الانعزالي ، وهو ما جرى التعبير عنه بشعار « عودة السيادة اللبنانية الى جميع الاراضي اللبنانية » • فالسيادة هنا لها معنى محدد هو القدرة على القمع ،

والشعار بمجمله يعني اعادة المخيمات الى حالتها السابقة التي كانت فيها المؤسسة اللبنانية قادرة على ممارسة اشكال من الاضطهاد على سكان المخيمات وفرض عزل سياسي عليهم يمنعهم من التأثير في محيطهم • ويترافق هذا الشعار عن السيادة مع موضوعين اثيرا منذ زمن يسبق الاحداث الاخيرة : الاول الحديث عن « جيش الاحتلال الفلسطيني » الذي ابتدأه رئيس لجمهورية في احداث ايار ١٩٧٣ ، والثاني عن ان المخيمات الفلسطينية هي ملاذ المجرمين وملجأ الخارجين على القانون ، وهي النغمة المحببة لرئيس حزب الكتائب • وكلا الموضوعين يصب في طاحونة الحديث عن السيادة ويخلق مبررات رفع الشعار •

في الجولة الاخيرة توضحت هذه الحقيقة كأسطع ما يكون الوضوح • فالحصار التمويني لمخيم تل الزعتر ثم اقتحام مخيم الضبية وما رافق هذين الحدثين من مواقف سياسية كشف عن هدف الانعزاليين الاساسي • ففي اثناء حصار مخيم الضبية (الصغير المنعزل بعيدا عن تجمعات الفلسطينيين الرئيسية) اصدرت « القمة المارونية » التي اجتمعت بدعوة من رئيس الجمهورية (١/١٣) بيانا حددت فيه شكل الصراع الذي تريده : « ان الطائفة المارونية تعتبر ان النزاع الحالي انما هو نزاع بين اللبنانيين خاصة المسيحيين منهم، وبين الفلسطينيين من مسلمين ومسحيين » • فحسب منطوق هذا البيان فان الفلسطينيين من حيث هم فلسطينيون مستهدفون ، وقد اقتضى الحال ان يلفت البيان الانظار الى ان المسيحيين الفلسطينيين مستهدفون ايضا فقد كان الحصار آنذاك موجها لمخيم ضبية حيث فيه المسيحيون اغلبية • وتكشف الشروط التي قدمها الكتائبيون لفك الحصار عن المخيم المذكور جانبا مما يريده الانعزاليون من صورة للمخيم الفلسطيني • فقد جاء في هذه الشروط « ١ ـ تسليم السلاح الموجود في المخيم واخراج الاسلحة الثقيلة منه • ٢ ـ اخراج الغرباء عن المنطقة من المخيم • ٣ ـ قبول اشراف الدولة على الامن » أي بكلمة

واحدة تسليم المخيم الفلسطيني بأن تمارس ضده حرية القمع .

رافق ذلك الدعوة الى نقل المخيمات الى خارج لبنان . وعلى الرغم من ان هذه الدعوة ليست غير « تفكير رغائبي » لدى اصحابها ولن يتوفر لها مقومات التجسيد لعملي ، فأنها تدل على النظرة التي تعامل بها القوى الانعزالية مسألة المخيمات الفلسطينية في صيغتها الراهنة . وقد ابتدأت النغمة في اليوم نفسه التي اقتحم فيه الكتائبيون وحلفاؤهم مخيم ضبية في ١/١٤ . عندما وزعت الرهبانيات المارونية على الصحافيين الاجانب بيانا جاء فيه ان من اجل وقف القتال لا بد من (١) « ـ طرد الاجانب الذين يعتدون على لبنان وخاصة الفلسطينيين الذين وصل عددهم الى ٦٠٠ الف واحتلوا غدرا بقواهم العسكرية ٦٠ في المئة من ارضنا . ٢ ـ نقل المخيمات الفلسطينية من لبنان وتوزيع الفلسطينيين في صورة متناسبة على جميع البلدان العربية وفقا لمساحاتها . وهذا الحل المشترك هو الحل العادل الوحيد ، وهو لا يشكل تهجيرا بالقوة وانما تنظيم طبيعي للمخيمات الفلسطينية على امتداد جميع البلدان العربية في المنطقة » (« السفير » ١/١٥). واذا كانت نشوة النصر الذي تحقق على المخيم الصغير سببا مباشرا في إطلاق هذه الدعوة، فانها يجب ان تفهم بمجملها ضمن النظرة العامة الى المخيمات . كذلك فاننا لن نهمل هنا جانبا اخر من المسألة هو جانب اقتصادي بحت . فمن المعروف ان الاديرة والمؤسسات الدينية تعتبر من اكبر ملاكي الاراضي في لبنان . ولا نستطيع ان نفصل هذه الحقيقة عن حقيقة اخرى وهي ان اشرس المعارك التي دارت كانت على اراض تملكها الرهبانيات . فجزء من اراضي الكرنتينا ملك للرهبانية المارونية كما اكد الاباتي شربل قسيس ، رئيس الرهبانيات المارونية اللبنانية للصحافيين (« السفير » ٢/٣) كذلك « ليعلم الجميع [كما قال] ان ارض مخيم الضبية هي ملك للرهبانية [المارونية] ولا يزال ، واراضي مخيم تل الزعتر ملك للرهبانية الانطونية » .

ولم تكن الدعوة الى نقل المخيمات من لبنان مطلب الرهبانيات فحسب وانما اشترك في الجوقة رموز الانعزالية اللبنانية جميعا . فأثر اجتماع لـ « جبهة الحرية والانسان » (التي تشكلت من الكتائب والوطنيين الاحرار والرابطة المارونية وسعيد عقل ، الشاعر الزحلي ، وشارك مالك) ادلى عقل للصحافيين بتصريح طالب فيه بـ « ان تتوزع الدول العربية الفلسطينيين الموجودين في لبنان فتكون حصة كل منها بنسبة قدرتها على استيعاب السكان » (« السفير » ٢/٧) ، كذلك كرر الشيخ بيار الجميل هذه الدعوة في اكثر من مناسبة وابلغ الصحافيين (٢/٩) بضرورة توزيع الفلسطينيين على الدول العربية . حسب عدد سكان كل دولة وقال انه اطلق اقتراحه « عن حسن نية وبصدق واخلاص سواء من الناحية السياسية ام من الناحية الاجتماعية » ، وبرر اقتراحه بالقول ان الفلسطينيين اذا انتقلوا الى دولة عربية اخرى « فينتقلون من مناخ اجتماعي سيء الى مناخ افضل ، ويتمكنون بذلك من ان يخدموا قضيتهم على وجه احسن واكمل ...

ربما تكون هذه الدعوة في مرحلة لاحقة هدفا ملحا من اهداف الانعزاليين ، وبذلك فأن التصدي لها يستوجب تعزيز الشروط المادية القادرة على مواجهتها ووأدها ، ونعني بتلك الشروط المزيد من تجذير الثورة في المخيم الفلسطيني وتأكيد تلاحمه التام مع حركة المقاومة الفلسطينية .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

[I]

لا ريب ان اهم تطور دولي شهدته القضية الفلسطينية في الفترة الاخيرة هو انعقاد مجلس الامن الدولي لمناقشة القضية الفلسطينية ومشكلة الشرق الاوسط بشكل عام ٠ والسمة البارزة لهذا الاجتماع كونه جاء نتيجة انتصار سابق للدبلوماسية السورية - الفلسطينية عندما رفضت سوريا التمديد لقوات الطوارىء في الجولان ما لم يوافق مجلس الامن على اجراء مناقشة عامة للقضية الفلسطينية في تاريخ محدد ٠ وتميزت جلسات مجلس الامن بحضور منظمة التحرير الفلسطينية للمناقشات وغياب اسرائيل عنها للمرة الاولى احتجاجا على هذا الحضور ٠

قبل بدء المناقشات اجرت كافة الاطراف المعنية من عربية واجنبية اتصالات دبلوماسية واسعة وتحركات سياسية هامة بغية الاعداد للمناقشات وبلورة المواقف منها وحولها ، ولا بد من استعراض مواقف الاطراف الرئيسية وتحركاتها باعتبارها شكلت الخلفية السياسية والدبلوماسية لاجتماعات مجلس الامن نفسه ٠ ونبدأ بسوريا على اعتبار ان مناقشات المجلس جاءت نتيجة تحركاتها ومواقفها السياسية السابقة ٠

اجرى المسؤولون السوريون سلسلة من الاتصالات العربية والدولية بهدف تنسيق المواقف التي سيجري التعبير عنها في مجلس الامن ودراستها ٠ ومن اهم هذه الاتصالات المشاورات التي جرت مع الاردن والوفود العربية عموما في هيئة الامم بالاضافة الى الجولة التي قام بها وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام في عدد من اقطار الخليج العربي والسعودية لهذا الغرض حيث بحث الخطوط العريضة لورقة العمل السورية التي سيستند اليها مشروع القرار المقدم للمجلس ٠ وتركزت هذه الاتصالات السورية حول النقاط التالية : (أ) مطالبة المجلس بضرورة تطبيق توصيات الجمعية العمومية المؤيدة لحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم دون تدخل والعودة الى منازلهم واراضيهم الاصلية ، (ب) انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة من اجل اقامة سلام عادل ودائم في المنطقة ٠

اما منظمة التحرير فقد تبلور موقفها بعد سلسلة من الاجتماعات والمشاورات والاتصالات كانت حصيلتها ضرورة التركيز على النقاط التالية في مجلس الامن : (ا) حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة بما فيها حقه في تقرير مصيره على ارضه، (ب) حق الشعب الفلسطيني في اقامة سلطته الوطنية المستقلة ، (ج) حق الفلسطينيين كافة في العودة الى اراضيهم التي طردوا منها ٠ (د) انسحاب اسرائيل من كافة الاراضي العربية المحتلة ٠

لم يكن موقف نظام السادات - كما تبلور قبل بدء مناقشات مجلس الامن - منسجما مع التنسيق السوري - الفلسطيني بسبب خضوع السلطات المصرية لشروط اتفاقية سيناء والتزاماتها ومتطلباتها ٠ في الواقع عمل كبار المسؤولين المصريين على التشويش على مناقشات مجلس الامن قبل بدئها والتقليل من اهميتها ٠ فعلى سبيل المثال صرح وزير الخارجية المصري اسماعيل فهمي في اوائل شهر كانون الثاني بأنه واثق من ان مؤتمر جنيف سيستأنف اعماله في النصف الاول من ١٩٧٦ بحضور منظمة التحرير على الرغم من ان كافة الدلائل كانت وما زالت تشير الى تعذر مثل هذا الحدث والى انتقال وزن الثقل الدولي في مناقشة القضية الفلسطينية من مؤتمر جنيف (الذي يبدو دوما انه سينعقد في المستقبل القريب ولا ينعقد ابدا) الى مجلس الامن الدولي ٠ وعلى اثر هذا التصريح خرج فهمي على الامة العربية ببيان هام حدد خطوط السياسة الخارجية المصرية عشية انعقاد مجلس الامن ٠ وكان اهم ما جاء في هذا البيان ما يلي : (أ) الدعوة الى انعقاد مؤتمر جنيف في اقرب وقت ممكن وقبل انقضاء النصف الاول من العام الحالي لان المناخ اصبح مواتيا لاشتراك منظمة التحرير فيه على قدم المساواة

مع الاطراف الاخرى . وجدير بالاشارة الى ان هذه الدعــــوة كانت في حقيقتها نوعا مـن التهرب ، ومحاولة لابعاد الانتباه عن جلسات مجلس الامن ، خاصة وان اسرائيل كانت قـد اصدرت بيانا مماثلا يطالب بانعقاد مؤتمـر جنيف تهربا من مناقشات مجلس الامن ،علما بان اسرائيــــل غير قادرة على منع منظمـة التحرير من المشاركة الكاملة في هذه المناقشات في حين انها قادرة على التصدي بنجاح لايـة مشاركة يمكن ان تقدم عليها منظمة التحرير في مؤتمـر جنيف (ب) الهجوم على سوريـا واتهامها باعاقة انعقاد مؤتمر جنيف والسير نحو السلام في المنطقة (ج) التأكيد على ان مصر ستشـــارك بمناقشات مجلس الامـــن ومداولاته لكن ليس على اساس كونه بديلا لمؤتمر جنيف ، (د) معارضة مصر لاتخاذ مجلس الامن اية قرارات تؤدي الى تعديل القراريـن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ ، (هـ) كيل المديح للسياسـة الامريكية في المنطقة . وقبل بدء مناقشـات مجلس الامن بايام قليلة اكد الرئيس السادات بتصريح له ما جاء في بيان فهمي حول معارضة مصر لتعديل قراري مجلس الامن ٢٤٢ ، ٣٣٨ معتبرا المناقشات مجرد اعداد لانعقاد مؤتمـر جنيف . وتمنى السادات على الولايات المتحدة الا تستخدم حق النقض خلال هذه المناقشات .

بالنسبة للموقف الاسرائيلي فقد تلخـص اولا في قرار مجلس الوزراء الداعي لمقاطعـة اجتماعات مجلس الامن بسبب وجود منظمـة التحرير في داخله . في الواقع قررت الحكومة الاسرائيلية عدم الاجتماع مع المنظمة في اي محفل من المحافل « لان المنظمة لا تعتـرف باسرائيل وتهدف الى القضاء عليها » . وثانيا في تصريحات رابين ودايان القائلة : (أ) بـان الشعب الفلسطيني لا يشكل جوهر قضيـة الشرق الاوسط (ب) بان اسرائيل ترفـض التعاون مع منظمة التحرير باي امر من الامور المتعلقة بازمة المنطقة (ج) بان اسرائيل لاتمانع بانضمام بعض الفلسطينيين الى الوفد الاردني الذي سيجري مفاوضات التسوية مع اسرائيل (د) بان اسرائيل لا يمكن ان تقبل باي عمـل او اجراء قد يؤدي الى قيام دولة فلسطينيـة « بين اسرائيل والاردن » (هـ) بان اتخـاذ مجلس الامن لاية قرارات تساعد على قيـام دولة فلسطينية جديدة يعني غياب كل امـل للسلام في المنطقة وقذف المنطقة بأكملها فـي فوضى سياسية شاملـة « ستخلـق امورا لا يعلمها احد » (و) بأن اسرائيل مستعدة لخوض حرب اخرى لمنع حدوث انسحاب اسرائيلي الى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ كما انه على اسرائيل ان تطالـب بانهاء حالة الحرب مع الـدول العربية المعنية مقابل اية انسحابات جزئية قد تقوم بها . (ز) بان حكومة الولايات المتحـدة لا تريد قيام دولة ثالثة في الضفة الغربيـة (ح) بان هناك اتفاقا واقعيا مؤقتا بين اسرائيل والاردن يتمثـــل بسياسة الجسور المفتوحـة ومحافظة الاردن على بعض المصالح في الضفة الغربية . ثالثا في ايفاد وزير الخارجية ألون الى واشنطن للتنسيق مع الحكومة الامريكيـة بكل ما يتعلق بالموقف الامريكي – الاسرائيلي خلال مناقشات مجلس الامن . واطلق آلـون عددا من التصريحات اثناء زيارته وبعد مقابلته لكبار المسؤولين الامريكيين كان اهم ما جـاء فيها : (أ) تأكيد كيسنجر لآلون موقف حكومته الثابت في رفض التعامل مع منظمة التحريـر الى ان تعترف الاخيرة بشرعية دولة اسرائيل وحقها في البقاء . (ب) ان اسرائيل لن تسمح « لعناصر متطرفة مثل سوريا ومنظمة التحرير وحتى الاتحاد السوفياتي » بتحويل مجلـس الامن الى مؤتمر سلام (ب) ان اية محاولـة لادخال اية تعديلات على صياغة قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ او روحهما ستؤدي الى طريق مسدودة تماما في المنطقة . (ج) ان قرار الجمعية العامة رقم ٣٧١ لا يمكن ان يشكـل اساسا لاية مباحثات مع اسرائيل لان الاخيرة ترفضه ولا تنوي التقيد به . (د) ان رفـض اسرائيل الاشتراك مع منظمة التحرير فـي مناقشات مجلس الامن يجب ان يكون تحذيرا للذين يريدون اشراك المنظمة في مؤتمر جنيف.

اما موقف الولايات المتحدة كما تبلور عشية بدء مناقشات مجلس الامن فقد جرى التعبير عنه عـــلى لسان عدد مــن كبار المسؤولين الامريكيين . وتتمثل اهم عناصر هذا الموقـف بالنقاط التالية : (أ) البيان الذي اصدرتـــه الحكومة الامريكية واعلنت فيه بانها ستستخدم

حق النقض لايقاف اي اجراء او قرار في مجلس الامن « لا يشجع على استمرار عملية التسوية في الشرق الاوسط » • وحدد الناطق الرسمي بلسان وزارة الخارجية الامريكية الاسس الوحيدة التي تقوم عليها عملية التسوية المذكورة بانها قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ • (٢) تصريح كيسنجر الذي اكد فيه : (أ) ما جاء في بيان وزارة الخارجية المذكور (ب) تعهد الولايات المتحدة باخذ وجهة النظر الاسرائيلية بغاية الجدية في مناقشات مجلس الامن وتأكيده على ان « نتائج هذه المناقشات ستكون متمشية مع امن اسرائيل » (٣) تصريح الناطق بلسان بعثة تقصي الحقائق التابعة للكونغرس الامريكي (اثناء زيارتها لعدد من دول المنطقة) بأنه على الدول العربية تمثيل الفلسطينيين في اية مفاوضات تجري لتسوية المشكلة الفلسطينية وان الكونغرس يعارض بشدة اي ضغط امريكي على اسرائيل للتفاوض مع منظمة التحرير •

تحدد الموقف السوفياتي منمناقشات مجلس الامن عبر الاقنية الرئيسية التالية • اولا التصريح الذي ادلى به الكسي كوسيغين اثناء زيارته الاخيرة لتركيا حيث اكد مجددا رفض بلاده للفكرة التي كان قد طرحها كيسنجر بعقد مؤتمر آخر مواز لمؤتمر جنيف لمعالجة مشكلة الشرق الاوسط كما اكد الموقف السوفياتي القائل بان السبيل الافضل لتحقيق السلام الدائم في المنطقة هو انعقاد مؤتمر جنيف بمشاركة منظمة التحرير مشاركة كاملة في اعماله • واعتبر العقبة الاساسية في وجه تحقيق السلام موقف اسرائيل الرافض للانسحاب التام من الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في انشاء دولة مستقلة ذات سيادة • ثانيا البيان السياسي الذي اصدرته الحكومة السوفياتية عشية بدء مناقشات مجلس الامن والذي اكد على ثلاث مسائل اساسية بصفتها شروط لا مفر منها لاحلال السلام العادل والدائم في المنطقة وهي انسحاب القوات الاسرائيلية من كافة الاراضي العربية المحتلة ، ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في اقامة دولة خاصة به ، ضمان امن كافة دول المنطقة وحقها في الوجود والنمو بصورة مستقلة كما اكد البيان رأي الحكومة السوفياتية القائل بانه كي يتوصل مجلس الامن الى اية نتائج هامة عليه ان يوجد الظروف الملائمة لاستئناف مؤتمر جنيف باشتراك جميع الاطراف المعنية بما في ذلك منظمة التحرير •

علق امين عام هيئة الامم على المناقشات التي سيجريها مجلس الامن حول القضية الفلسطينية بقوله ان هذه المناقشات ستكشف ميلا متزايدا للاعتراف بالكيان السياسي للفلسطينيين وان المسؤولين الامريكيين اخذوا يدركونبان الحقوق الفلسطينية تشكل مفتاح الحل لمشكلة الشرق الاوسط • واعتبر فالدهايم ان التقدم الذي يمكن ان يحرزه مجلس الامن في هذا الصدد هو مناقشة غياب اية اشارة في القرار رقم ٢٤٢الى الفلسطينيين الا بصفتهم كلاجئين • ولم يستبعد فالدهايم استئناف مؤتمر جنيف لاعماله في مرحلة لاحقة كما اكد ان الامانة العامة لهيئة الامم تدرس طبيعة الخطوات التي يجب اتخاذها نتيجة قرار الجمعية العامة الذي اعتبر الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية • ولا بد من الاشارة هنا الى تعليقات اللورد كارادون - اثناء زيارته للاردن - عشية بدء مناقشات مجلس الامن باعتباره مسؤولا عن الصياغة الشهيرة لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ • شدد اللورد كارادون على ان الهدف الاساسي لاجتماعات مجلس الامن يجب ان يكون فتح الطريق الى مؤتمر جنيف بدلا من اغلاقه مما يعني ، حسب قوله، بان مناقشات مجلس الامن يجب ان تتمخض عن الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في وطنه بالاضافة الى تطبيق القرار رقم ٢٤٢ • واوضح اللورد كلامه بقوله انه من الضروري اضافة بند الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ • ودعا كارادون الى ايجاد مدينتين في قدس غير مجزأة ضمن اطار التسوية السلمية المقبلة بحيث تخضع احداهما للسيادة والادارة العربية والثانية للسيادة والادارة الاسرائيلية • وبالاضافة الى ذلك اعلنت وزارة الخارجية البريطانية اثناء

الزيارة التي قام بها ايغال آلون - وزيـر خارجية اسرائيل - الى لندن بأن اي اساس للتسوية السلمية بالشرق الاوسط يجـب ان يكون قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ على ان تنص هذه التسوية على الانسحاب مـن الاراضـي المحتلة « والحقوق الانسانيـة للفلسطينيين » وحق اسرائيل في الوجود داخل حدود سياسية آمنة ٠

في ١٢ كانون الثاني افتتح مجلس الامـن مناقشته للقضية الفلسطينية ومشكلة الشرق الاوسط بحضور منظمة التحرير بناء على ارادة اغلبية الاعضاء ومعارضة الولايات المتحـدة لمشاركة المنظمة في مناقشات المجلس ٠ وكان اول المتكلمين رئيس وفد منظمة التحرير - فاروق القدومي - الذي قدم عرضا اجماليـا شاملا لوجهة نظر المنظمة فيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني ونضاله وآماله ٠ وركـز القدومي كلامه على النقاط الجوهرية التالية : (أ) كون القضية الفلسطينية تمثل لب ازمـة الشرق الاوسط وجوهرها ٠ (ب) كون قـرار مجلس الامن بدعوة المنظمة للاشتراك فـي المناقشات يشكل اثباتا على التفهم الدولـي العميق والواسع الذي اخذت تحظى به القضية الفلسطينية واهتمام غالبية دول العالم فـي تحقيق العدل بالنسبة للشعب الفلسطينـي والاستجابة لحقوقه الوطنية بالاضافة الـى اعترافها بهذه الحقوق ٠ (جـ) كون القرارات الاخيرة التي اتخذتها الجمعية العمومية حـول قضية فلسطين قد زاد احتمالات ايجاد حـل عادل للمشكلة عن طريق المنظمة الدولية ممـا يضع مجلـس الامن امام فرصة تاريخيـة لتصحيح الاخطاء السابقة ورفع الظلم الواقـع على الشعب الفلسطيني (د) كون الشعـب الفلسطيني قد لجأ الى النضال المسلح لسبب واحد هو استعادة حقوقه الوطنية واحقاقهـا مع تأكيد عزمه على مواصلة نضاله عسكريـا وسياسيا حتى يتم له استعادة ترابه الوطني وممارسة حقه في تقرير المصير وانشاء دولتـه المستقلة ٠ (هـ) كون منظمة التحرير مستعدة للاشتراك في جميع الجهود الدولية المستنـدة الى قرارات الجمعيـة العمومية رقم ٣٢٣٦ و٣٣٧٥ و٣٣٧٦ من اجل اقرار السلام في المنطقة٠

(و) كون المنظمة تريد السـلام في فلسطين للشعب الفلسطيني واليهود مع الرفض الشديد للمزاعـم الصهيونية القائلة ان الشعـب الفلسطيني يريـد القاء اليهـود في البحر ٠ (ز) كون السلام العادل والدائم مستحيلا فـي الشرق الاوسط ما لم يسترد الشعب الفلسطيني ارضه المغتصبة ويقيم فوقها دولته المستقلـة الديمقراطية وفي حال فشل المجلس في اتخـاذ قرار فعال في هذا الشأن فان الشعب الفلسطيني قد « عقد العزم على مواصلة النضال عسكريا وسياسيـا حتى تحريـر كامل التـراب الفلسطيني » ؛

الكلمة البارزة الاخرى في مجلس الامن كانت كلمة المندوب السوري الذي شدد في خطابه على الامور الجوهرية التالية : (أ) ان سوريا لا تعتبر النزاع في الشرق الاوسط نتيجة للحرب ١٩٦٧ بل للاعتداء الصهيوني الاصلـي على ارض فلسطين وشعبها (ب) ان اي حل يجب ان يكون قائما على قرارات الامم المتحدة كلها وليـس على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وحـده اذ لا يتمتع هذا القرار باي ميزة تفرده عن بقيـة قرارات مجلس الامن والجمعيـة العمومية ٠ (ج) ان الانسحاب من كافة الاراضي العربيـة المحتلة وضمان حقوق شعب فلسطين يشكـلان الشرطان المسبقان الضروريان لتحقيق السلام في المنطقة ، والمطالبة بانهاء حالة الحرب قبل تحقيق هذين الشرطين هو بمثابة وضع العربة امام الحصان (د) ان سوريا تريد من مجلـس الامن ان يكون مستعدا للانعقاد مرة اخـرى خلال فترة محددة لمتابعة الخطوات التنفيذية لاية قرارات يتخذها ، كما ينبغي على المجلس ان يطلـب من الامين العام فالدهايم اتخـاذ الاجراءات اللازمة لضمان تنفيذ قرارات المجلس خلال الفترة المحددة ٠ وجدير بالاشارة ان كلمة المندوب السوري خلت من اية اشارة الى مؤتمر جنيـف ٠

اما المندوب السوفياتي فقد دعا الى تنفيـذ قرارات الجمعية العمومية التي تنص علـى عودة ابناء الشعب الفلسطيني الى اراضيهـم ووطنهم ٠ ورفض سياسة الخطوة خطـوة الامريكية الشهيرة كما اكد مجددا الموقـف

السوفياتي المعروف والمطالب بالانسحاب الاسرائيلي غير المشروط والكامل من الاراضي العربية المحتلة • كذلك دعا للاسراع في عقد مؤتمر جنيف وتوجيه الدعوة الى منظمة التحرير لحضوره •• ووزعت الجهات المختصة في هيئة الامم رسالة من غروميكو ـ بصفتها وثيقة رسمية ـ دعا فيها الى استئناف مؤتمر جنيف في وقت قريب بحضورمنظمةالتحرير • بالنسبة للمندوب الفرنسي فقد اعتبر ان اهم عناصر المناقشة هي انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق السياسية والشرعية للشعب الفلسطيني والاعتراف بحقه في وطن مستقل مع تأكيد حق جميع الدول في المنطقة بالعيش داخل حدود مضمونة ومعترف بها • اما المندوب الامريكي فقد اعلن معارضة بلاده لاي قرار يؤدي الى تعديل القرارين رقم ٢٤٢ و٣٣٨ ولاشراك منظمة التحرير في مؤتمر جنيف معتبرا ان مثل هذه التغييرات لا يمكن ان تتم الا بموافقة الاعضاء الحاليين في مؤتمر جنيف •وعاد مندوب الولايات المتحدة في كلمته الى طرح فكرة كيسنجر بعقد مؤتمر تمهيدي موازي لمؤتمر جنيف كما اصر على الكلام عن « المصالح المشروعة » للشعب الفلسطيني بدلا من حقوقه •

وجدير بالاشارة هنا انه اثناء مناقشات مجلس الامن ادلى الرئيس السادات بتصريح قال فيه بان حكومته مستعدة لحضور مؤتمر جنيف حتى لو لم تدع منظمة التحرير للمشاركة في المؤتمر • ورحب رابين ترحيبا كبيرا بهذا الموقف معتبرا اياه مفيدا جدا « للاتفاقات المؤقتة » بين البلدين • وبهذه المناسبة قال رابين ان جوهر مشكلة الشرق الاوسط وابها ليس المسألة الفلسطينية بل الاعتراف العربي باسرائيل شريطة ان يتم حل المشكلة الفلسطينية ضمن اطار المباحثات مع الاردن •

تقدمت سوريا بورقة عمل لدراستها من جانب الدول العربية والصديقة من اجل صياغة مشروع القرار استنادا اليها • وفي الواقع تم تقديم مشروع قرار يتبنى النقاط الاساسية والمبدئية في ورقة العمل السورية مع ما يكفي من المرونة لاجتذاب اكبر عدد من الاصوات (خاصة الاوروبية الغربية منها) لصالح القرار • ونص مشروع القرار على النقاط التالية : (أ) اقتناع مجلس الامن بان المشكلة الفلسطينية هي جوهر النزاع في الشرق الاوسط • (ب) اعتبار المجلس بسبب التدهور المستمر في الموقف في المنطقة هو استمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية ورفض اسرائيل تنفيذ قرارات الامم المتحدة المتعلقة في هذا الموضوع (ج) تأكيد المجلس من جديد مبدأ عدم جواز السيطرة على اية اراض عن طريق استخدام القوة او التهديد باستخدامها • (د) تأكيده من جديد على ضرورة اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط يرتكز الى الاحترام الكامل لميثاق الامم المتحدة ولقراراتها المتعلقة في الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية (هـ) التأكيد على وجوب تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقه الوطني الثابت في تقرير المصير بما في ذلك حق اقامة دولة مستقلة في فلسطين وفقا لميثاق الامم المتحدة • (و) تأكيد حق اللاجئين الفلسطينيين الذين يرغبون في العودة الى بيوتهم والعيش بسلام مع جيرانهم في ان يفعلوا ذلك ، وتأكيد حق من يرغب منهم بعدم العودة في تلقي التعويضات عن ممتلكاته (ز) التأكيد على واجب اسرائيل الانسحاب من جميع الاراضي المحتلة منذ حزيران ١٩٦٧ • (ح) اتخاذ الترتيبات المناسبة لضمان السيادة والوحدة الاقليمية والاستقلال السياسي لجميع دول المنطقة ضمن حدود آمنة ومعترف بها وفقا لميثاق الامم المتحدة (ط) التأكيد على ضرورة الاخذ بعين الاعتبار النصوص الواردة في هذا القرار في جميع الجهود الدولية والمؤتمرات التي يجري تنظيمها ضمن نطاق هيئة الامم بهدف اقامة سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط • (ي) طلب المجلس الى الامين العام اتخاذ الخطوات اللازمة في اقرب وقت ممكن لتنفيذ القرار ورفع تقرير الى المجلس حول التقدم الحاصل على هذا الصعيد• (ك) يجتمع المجلس في غضون ستة اشهر للنظر في تقرير الامين العام المتعلق بتنفيذ هذا القرار ولمتابعة مسؤولياته فيما يتعلق بهذا التنفيذ • وجاءت نتيجة التصويت على هذا المشروع كما يلي : فاز القرار بأغلبية الاصوات غير ان الفيتو الامريكي عطل مفعوله كما كان متوقعا •

في النصف الثاني من شهر كانون الاول اختتمت الجمعية العمومية للامم المتحدة دورة من اهم الدورات في تاريخها بالنسبة لقضايا التحرر الوطني عامة والقضية الفلسطينية على وجه التخصيص • فبالاضافة الى قرار ادانة الصهيونية بصفتها نوعا من انواع العنصرية ومجموعة اخرى من القرارات (راجع العدد السابق من « شؤون فلسطينية » وافقت الجمعية العمومية على اربع قرارات جديدة تدين اسرائيل في مجالات متعددة وكانت المناسبة لذلك رفع تقرير لجنة هيئة الامم المنتدبة للتحقيق في التصرفات الاسرائيلية ازاء سكان الارض المحتلة وحقوق الانسان الى الجمعية العمومية • وقد ادان القرار الاول اسرائيل على ضمها لاجزاء من الارض المحتلة واقامة مستعمرات استيطانية فيها ونقل سكان غرباء اليها وهدم المنازل العربية ومصادرة املاك عربية ونزع ملكيتها واعتقال بعض سكان الاراضي المحتلة وطردهم وتغيير اماكن اقامتهم وتعطيل حقهم في العودة الى اماكن اقامتهم • كذلك ادان القرار اسرائيل لنهبها التراث الثقافي العربي ومسها بالحريات والطقوس الدينية وممارستها الاستغلال غير المشروع لثروات الاراضي المحتلة ومواردها وسكانها • واعتبر القرار جميع الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لتعديل الطابع المادي والسكاني والتنظيمي للاراضي المحتلة لاغية وبدون اي مفعول شرعي معتبرة كافة هذه الممارسات والسياسات انتهاكا خطيرا لميثاق الامم المتحدة ومعاهدات جنيف المتعلقة بالحروب • اما القرار الثاني فقد اكد مرة اخرى انطباق معاهدات جنيف المذكورة على جميع الاراضي العربية المحتلة بما فيها القدس مع مطالبة اسرائيل بالاعتراف باحكام هذه المعاهدات وتطبيقها • ودعا القرار الثالث اللجنة المذكورة الى توسيع جهودها لتشمل عمليات التدمير التي تعرضت لها مدينة القنيطرة • كما نص القرار الرابع على اعتبار كافة الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية والتي تمس الحرم الابراهيمي وشعائر العبادة فيه لاغية وغير مشروعة مع مطالبة اسرائيل بالكف فورا عن تطبيقها •

انهت الجمعية العمومية دورتها المذكورة بمشهد درامي شن فيه رئيس الوفد الامريكي هجوما عنيفا على انظمة الحكم في دول العالم الثالث وكتلة الدول الاشتراكية مما ادى بالتالي الى انسحاب بعض ممثلي الدول المعنية احتجاجا على السلوك الامريكي (كان بين المنسحبين رئيس الوفد السوفياتي) اما مندوب اسرائيل فقد عبر عن شعوره « بالالم العميق » بسبب ما انحطت اليه الدورة الاخيرة للجمعية العمومية التي « وقعت في ايدي مجموعة من المتطرفين المعارضين للمبدأ الرئيسي في ميثاق الامم المتحدة » • واكد بهذه المناسبة ان بلاده لن تتفاوض مع منظمة التحرير لانها لا تمثل الشعب الفلسطيني • ومن ناحية اخرى ترددت انباء صحفية موثوقة ان الحكومة الامريكية تعتزم تخفيض المساعدات التي تقدمها الى عدد من الدول بسبب استيائها من الطريقة التي صوتت فيها هذه الدول في الامم المتحدة •• اخيرا نذكر ان منظمة اليونسكو ايدت وتبنت قرار الجمعية العمومية الذي ادان الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية مما اثار احتجاجات امريكية عنيفة وحدا بعدد من الدول المؤيدة بقوة لاسرائيل (دول السوق الاوروبية المشتركة ، الولايات المتحدة ، استراليا ، كندا) للانسحاب من المؤتمر المخصص للبحث في استخدام وسائل الاعلام لتعزيز السلام والتفاهم الدوليين ومكافحة التمييز العنصري •

[١١]

لا بد من ان نبدأ بالاشارة الى ردود الفعل الرئيسية التي صدرت على استخدام الولايات المتحدة حق الفيتو في مجلس الامن لتعطيل مفعول القرار الاخير الذي اعترف بحقوق الشعب الفلسطيني السياسية والوطنية • وصف رئيس الوفد الفلسطيني الذي حضر

مناقشات مجلس الامن بان الفيتو لم يكن الا استمرارا للسياسة الامريكية المعادية ابدا للحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ونضاله العادل من اجل نيلها • كما ندد رئيس الوفد بموقف بريطانيا السلبي مطالبا الدول العربية التعامل مع المصالح البريطانية في منطقتنا على ضوء مواقفها من القضية الفلسطينية • اما بالنسبة لسوريا فقد اذاع وزير اعلامها بيانا مسهبا ندد فيه بالموقف الامريكي واستنكره معتبرا اياه تعطيلا لفرص السلام في المنطقة وتكريسا للاحتلال الصهيوني للاراضي العربية • واكد البيان السوري النقاط الهامة التالية :

أ ـ ان هدف سوريا من ايصال قضية الشعب الفلسطيني الى مجلس الامن كان تثبيت حق هذا الشعب في تقرير مصيره واستصدار قرار يؤكد هذا المبدأ ويدين ضم اية اراض بالقوة كما يدعو الى تحرير الاراضي العربية المحتلة •

ب ـ ان غالبية الدول الاعضاء في مجلس الامن ايدت حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ونادت بانهاء الاحتلال الاسرائيلي ومالت الى تثبيت الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وهذه كلها تشكل مكاسب اضافية على الرغم من الفيتو الامريكي •

ج ـ ان غالبية الدول الاعضاء في هيئة الامم عامة ومجلس الامن خاصة قد رحبت بمشاركة منظمة التحرير في مناقشات المجلس •

د ـ ان سوريا تعرب عن شكرها وتقديرها لمواقف الدول الصديقة والمؤيدة على الرغم من الضغوط الامريكية التي تعرضت لها هذه الدول • ولم تتأخر سوريا عن ابلاغ حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وايطاليا عن استياء سوريا الشديد من مواقف هذه الدول السلبية خلال مناقشات مجلس الامن ، في حين شكرت سوريا لفرنسا موقفها المؤيد ، كما شكرت غيرها من الدول الصديقة • على صعيد هيئة الامم نفسها ابدى الامين العام فالدهايم عدم ارتياحه للفيتو الامريكي بقوله انه لولا استخدام الولايات المتحدة لحق النقض لتوفرت الفرصة لانشاء دولة مستقلة للفلسطينيين في الضفة الغربية بعد انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة • كما اكد فالدهايم استياءه للنتيجة التي وصلت اليها المناقشات اذ اعتبر ان جهود هيئة الامم قد وصلت الى طريق مسدود بعد الفيتو الامريكي فاعرب عن « قلق المجتمع الدولي العميق » ازاء المشكلات الكبيرة التي تعرقل التقدم نحو التسوية العادلة والدائمة لازمة الشرق الاوسط • وناشد جميع الاطراف المعنية مواصلة البحث عن تسوية سلمية عادلة ودائمة في المنطقة • ولم تفت فالدهايم الإشارة الى ان مناقشات مجلس الامن قد ابرزت البعد الفلسطيني لهذه الازمة واكدته • اما فرنسا فقد شرحت موقفها المؤيد لمشروع القرار بقولها ان القرار ينسجم مع المبادىء الاساسية التي تهتدي بها السياسة الفرنسية في الشرق الاوسط • فالقرار يؤكد ضرورة الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة ويعترف بحق جميع الدول في المنطقة بالعيش في سلام داخل حدود امنة ومضمونة ومعترف بها ، كما انه يؤكد حق الشعب الفلسطيني في اقامة وطن مستقل له • وذكرت الاوساط الفرنسية الدبلوماسية بأنه على الرغم من استخدام امريكا لحق النقض فان مناقشات المجلس وتأييد غالبية الدول الاعضاء لمشروع القرار تركت اثرا ايجابيا على صعيد التقدم نحو تحقيق تسوية للنزاع في المنطقة • من ناحية اخرى هاجمت الاجهزة الاعلامية السوفياتية الفيتو الامريكي فقارنته بالاعمال الارهابية التي قام بها البعض ضد مبنى الامم المتحدة نفسه معتبرة السلوك الامريكي دليلا على افلاس موقف حكومة الولايات المتحدة وضعفه وافتقاره الى الحجج السياسية المقبولة • واشارت هذه الاجهزة الى ان الفيتو الامريكي ادى في النهاية الى تفهم دولي اوسع لجوهر مشكلة الشرق الاوسط من ناحية ، والى ازدياد عزلة اسرائيل والولايات المتحدة في هيئة الامم من الناحية الثانية • كما ذكرت ايضا ان هذا الموقف يبين بوضوح ان الولايات المتحدة تمسك بمفتاح الحرب في الشرق الاوسط وليس بمفتاح السلام كما يشاع • يضاف الى ذلك

اهمية مناقشات مجلس الامن لجهة ابرازها الشعب الفلسطيني بصفته طرفا رئيسيا في اية تسوية للنزاع في المنطقة وابراز منظمة التحرير بصفتها الممثلة الشرعية الوحيدة لهذا الشعب . اما اسرائيل فقد رحبت بالفيتو الامريكي معتبرة اياه مساهمة هامة في المحافظة على السلام في المنطقة وفي تهيئة الاجواء المناسبة لمواصلة مفاوضات السلام . واعتبرت الاوساط الرسمية الاسرائيلية مشروع القرار محاولة لتقويض قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ باعتبارهما الاساس الوحيد لاية تسوية سلمية في المنطقة وفقا للمنطق الاسرائيلي .

التطور الدولي الهام الاخر الذي يستدعي الانتباه هو زيارة رابين الاخيرة الى وشنطن حيث قابل الرئيس فورد والدكتور كيسنجر وزعماء الكونغرس الامريكي بهدف بحث العلاقات الاسرائيلية الامريكية عسكريا واقتصاديا وسياسيا . وقد مهد رابين وغيره من كبار المسؤولين الاسرائيليين لهذه الزيارة بسلسلة من التصريحات التي حددت بشكل عام الاطار الذي دارت فيه محادثاته مع السلطات الامريكية . وكان اهم ما ذكره رابين في تصريحاته التمهيدية النقاط التالية :

أ) التأكيد مجددا على ان اسرائيل لن تجري اي حوار مع منظمة التحرير .

ب) انه لا مانع لدى اسرائيل من اجراء مفاوضات مع وفد اردني يضم عناصر فلسطينية .

ج) ان اسرائيل لن تتنازل بأي شكل من الاشكال عن مرتفعات الجولان على الا يعني هذا بقاء خط الحدود على حاله عند رسم الحدود الامنة النهائية .

د) ان اسرائيل مستعدة لتقديم تنازلات لمصر ولكنها غير مستعدة على الاطلاق للعودة الى خط الحدود الدولي السابق مع مصر كما انها ستحتفظ بوجود لها في شرم الشيخ .

هـ) ان اسرائيل على استعداد للتفاوض مع الاردن حول الضفة الغربية على ان يجري طرح المشاريع المتفاوض حولها في استفتاء شعبي اسرائيلي .

و) ان اسرائيل متأكدة تماما من ان الولايات المتحدة لن تجري اية اتصالات ديبلوماسية او مفاوضات مع منظمة التحرير ما دامت الاخيرة لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ .

ز) ان اسرائيل لا تنكر حقوق الفلسطينيين بل تعتقد بأنه لا يمكن تأمينها الا من خلال اطار تسوية سلمية مع الاردن . اما «اللاجئون الفلسطينيون في لبنان وسوريا فيجب ايجاد حل لمشكلاتهم على اساس انهم لاجئون لا أكثر » . واقترح وزير الدفاع الاسرائيلي بيريز انشاء حكومة فدرالية في الاراضي الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي كحل للقضية الفلسطينية خاصة وان اسرائيل ترفض الدخول في اية محادثات مع منظمة التحرير . لذلك دعا بيريز الحكومة الاسرائيلية لاجراء محادثات مع « الزعماء الفلسطينيين المحليين » في الضفة الغربية وغزة لاعطاء هذه المناطق حكما ذاتيا محليا اكبر . كما دعى الوزير الاسرائيلي ، الى انشاء « سوق مشتركة مفتوحة » وتشكيل نظام حكم على ثلاث مستويات بلدي واقليمي وحكومي .

بينت التصريحات والتلميحات الاسرائيلية خلال زيارة رابين لواشنطن وبعدها ان محادثاته مع المسؤولين الاميركيين تناولت معظم النقاط المشار اليها اعلاه وخاصة احياء الدور الاردني كبديل عن منظمة التحرير . فبعد الاستنزاف الذي تعرضت له المقاومة الفلسطينية في الحرب الاهلية اللبنانية واغلاق الولايات المتحدة الباب نهائيا في وجه اي اعتراف بالحقوق السياسية والوطنية للشعب الفلسطيني وتفكك التضامن العربي تفككا كليا على اثر اتفاقية سيناء اخذت السياسة الامريكية ـ الاسرائيلية تعمل على تنشيط النظام الاردني من جديد كطرف مفاوض مقبول من جانب اسرائيل . وكان هذا واضحا ايضا من تحركات الملك حسين الاخيرة (استدعاء

المجلس النيابي وحله ، تبديلات وزارية الخ ...) . وتبين كافة المؤشرات ان الاتفاق بين رابين والمسؤولين الاميركيين قد تم بالنسبة للاتجاه السياسي المذكور اعلاه . فقد صرح رئيس الوزراء الاسرائيلي في واشنطن بأنه مرتاح الى المحادثات التي اجراها مع الرئيس فورد ووزير خارجيته خاصة وانه « لم يجد اي اختلاف في وجهات النظر حول الخطوات الواجب اتخاذها لايجاد تسوية في الشرق الاوسط » ، واكد بأنه لم يتعرض لاية ضغوط امريكية لتحديد موقف اكثر ليونة من منظمة التحرير كما عاد ليؤكد مجددا - والتكرار هنا ملفت للنظر - بأن الاردن وحده باستطاعته التفاوض باسم الفلسطينيين . ومن اهم النقاط التي برزت في تصريحات رابين بعد عودته الى تل ابيب ما يلي :

أ) الاتفاق مع الولايات المتحدة على عدم ضرورة اتخاذ اية قرارات فورية في ما يتعلق بالتسوية السلمية المقبلة في المنطقة .

ب) الاتفاق على ان فرص الدعوة لانعقاد مؤتمر جنيف ضعيفة جدا .

ج) التفاهم على ان سوريا غير مستعدة لابرام اي اتفاق مؤقت مع اسرائيل .

د) الاتفاق مع الولايات المتحدة على اطلاق مبادرة سلام جديدة تشمل كلا من مصر وسوريا والاردن لتحقيق اتفاقات انتقالية اهم من اتفاقية سيناء على ان يتم حل المشكلة الفلسطينية داخل اطار المفاوضات مع الاردن لانه من المستحيل اقامة دولة جديدة بين الاردن واسرائيل . وجدير بالاشارة هنا ان المصادر الديبلوماسية والصحفية العالمية ذكرت بأن الحكومة الاسرائيلية تعمل على تعزيز النفوذ الاردني في الضفة الغربية، وقد تصل الامور الى حد السماح للبنوك الاردنية بفتح فروع لها في الضفة الغربية هذا مع تشدد السلطات الاسرائيلية في ملاحقة مؤيدي منظمة التحرير . اما وزير الدفاع بيريز فقد امتدح في تصريح له ما اسماه « بالتعاون الاردني - الاسرائيلي في الضفة الغربية » كما هدد سوريا بالمواجهة العسكرية اذا لم تجدد لقوات الطوارىء الدولية في الجولان في نهاية شهر ايار المقبل . اما الجانب الامريكي فقد اكد على اثر انتهاء زيارة رابين بأن الاتفاق ، كان كاملا مع اسرائيل حول عدم اشراك منظمة التحرير في مؤتمر جنيف هذا اذا استأنف المؤتمر اعماله، كما اشار الى احتمال قيام الرئيس فورد بجولة في الشرق الاوسط في الربيع القادم تشمل بالاضافة الى اسرائيل مصر وسوريا ولبنان والعربية السعودية .

(٣) المناطق المحتلة

تواصل الانتفاضة السياسية في الضفة الغربية

صحيح ان تصاعد الاحداث اللبنانية في الفترة الاخيرة جعل الازمة اللبنانية محل الاهتمام الرئيسي من قبل الرأي العام العربي ومختلف وسائل الاعلام، الا ان النضال البطولي الذي ظلت تشهده المناطق المحتلة خلال الفترة نفسها وما زالت ، استطاع ان يستقطب ذلك الاهتمام وان لم يكن قد استطاع ان يحتجز لنفسه من وسائل الاعلام ما يليق به من تغطية ونشر .

ففي فترة الاشهر الاخيرة يمكن القول بثقة

كبيرة ، ان النضال الوطني الفلسطيني في الارض المحتلة . على الصعيدين السياسي والعسكري ، ظل متواصلا ومتصاعدا بالرغم من سخونة الاحداث اللبنانية واشغالها لقدر كبير من طاقات الثورة الفلسطينية .

الا ان الذي يمكن تسجيله كظاهرة تستحق التوقف والدرس مليا ، هو رسوخ النضال الجماهيري المعبر عنه بالتظاهرة والاعتصام ، كاحد اهم وابرز اشكال النضال السياسي لجماهير الارض المحتلة ، خاصة في الضفة الغربية منها .

لقد شهدت المناطق المحتلة خلال السنوات الماضية عدة انتفاضات جماهيرية . غير ان هـذه الانتفاضات كانت متباعدة واحيانـا مقطوعة الصلة بالاحداث السياسية الكبرى التي مرت بها القضية الفلسطينية ويستثنى من ذلك الانتفاضة الجماهيرية التي حدثت في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٧٤ بمناسبة عرض القضية الفلسطينية كبند مستقل على جدول اعمال الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة وذلك للمرة الاولى .

والتحول الهام الذي حدث في الضفة الغربية ، وثيق الصلة بالتحول الهام الذي جرى في تحرك الثورة الفلسطينية . ففي الفترة السابقة على حرب العام ١٩٧٣ تحديدا ، كان الكفاح المسلح هو الشكل الوحيد تقريبا من اشكال الكفاح الوطني الذي تأخذ به الثورة الفلسطينية وتحله محل غيره من اشكال النضال الاخرى . وقد ادى هذا الفهم للعمل الوطني الى شل قدرات كوادر الثورة في الارض المحتلة عن استنباط ادوات كفاحية اخرى تستوعب اعرض القطاعات الجماهيرية وتجند الشعب كله في صراع شامل ومتواصل مع العدو وسلطاته المحتلة .

ومن خلال التجربة ، اكتشفت الثـورة الفلسطينية اهمية النضال السياسي المستوعب لاوسـع الجماهير في صراعها ضد المحتلين ومخططاتهم في الارض المحتلة وهكذا يمكن القول ان الانتفاضة الشعبية الاولى التي حدثت في الضفة الغربية في اواخر العام ١٩٧٤ ، كانت البداية الحقيقية في تعميد الكفاح الجماهيري المنظم على اوسع الاطر الشعبية كشكل كفاحي مواز للكفاح المسلح الذي تأخذ به الثورة الفلسطينية منذ احد عشر عاما تقريبا .

لذلك كله يمكن القول ان فجرا جديدا قد انبثق في الضفة الغربية على وجه التحديد منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ . فمنذ ذلك التاريخ الذي صادف الذكرى الثانية للانتفاضة التي واكبت عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة ، مازالت الضفة الغربية تشهد نضالا جماهيريا عارما ومنظما . وبالرغم من التعتيم الاعلامي الذي تشارك فيه اساسا وسائل اعلام العدو ، فان الانتفاضة الجماهيرية هذه ما زالت متواصلة بشكل او بآخر . فبعد حوالي اسبوعين من التظاهرات والاحتجاجات التي عمت مختلف مدن ومناطق الضفة الغربية خلال شهر تشرين الثاني الماضي ، استطاعت سلطات الاحتلال بوسائل قمعها المتعددة ان تحد من تصاعد واستمرار التظاهرات التي كادت ان تتحول الى عصيان مدني كما ذكرت العديد من التقارير المختلفة . الا ان جماهير الضفة الغربية مـا كادت ان تهدأ ، حتى اقدم المستوطنون الصهيونيون على محاولتهم الشهيرة لاقامة مستوطنة في سبسطية قرب نابلس ، الامر الذي شحذ همم الجماهير الفلسطينية مجددا واطلق طاقاتها الهائلة في سلسلة اخرى من التظاهرات سادها العنف والعنف المضاد . ولقد اثبتت مظاهرات الاحتجاج هذه على اقامة مستوطنة في الضفة الغربية مدى التحسس الواسع من قبل الجماهير الفلسطينية تحت الاحتلال لمسؤولياتها الوطنية الخاصة في مقاومة مخططات المحتلين ومشاريعهم المشبوهة . وكانت قد اشتعلت المظاهرات في الضفة الغربية في مناسبة سابقة حينما اقدمت سلطات الاحتلال على تقسيم الحرم الابراهيمي في الخليل ، مثبتة الجماهير بذلك صدق تحسسها لمهماتها الخاصة في مقارعة المحتلين وهزيمة مخططاتهم الاحتلالية .

وانطلاقا من هذا الفهم المؤسس على صلات وثيقة ومنظمة مع القيادة السياسية للشعب الفلسطيني ، عادت جماهير الضفة الغربية الـى تظاهراتها الصاخبة بمناسبة اقتراع

الولايات المتحدة ضد مشروع القرار الذي عرض على مجلس الامن الدولي خلال كانون الثاني (يناير) الماضي • ومن خلال الشعارات التي حملت خلال تظاهرات هذه المناسبة والهتافات التي اطلقت فيها نستطيع ان نسجل الملاحظتين التاليتين :

١ ـ تأكيد الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت الاحتلال على اهلية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية لها دون منازع • واذا كانت هذه الحقيقة قد تأكدت في مناسبات عديدة سابقة، فان اعادة تأكيدها مجددا عقب الفيتو الاميركي لهو من قبيل الشد على يدي المنظمة لمواصلة كفاحها الوطني وصولا الى التطلعات الفلسطينية المشروعة نحو غد حر ومستقل •

٢ ـ تأييد المعاني التي تضمنها مشروع القرار المقدم الى مجلس الامن بموافقة ممثلي منظمة التحرير والتي تتضمن حق الشعب الفلسطيني باقامة دولته الوطنية المستقلة وحقه بالعودة الى وطنه وانسحاب المحتلين من اراضيه المحتلة •

وبتلاحق التطورات السياسية تلاحقت مظاهرات الضفة الغربية لتشكل حالة سياسية هامة وبارزة • فغداة دعوة مجلس النواب الاردني الى الانعقاد في مطلع شباط (فبراير) الماضي ، تجددت مظاهرات الضفة الغربية مرة اخرى للاحتجاج على هذه الخطوة التي فهمت على انها محاولة من الحكومة الاردنية للارتداد على قرارات مؤتمر قمة الرباط • وهنا تكمن اهمية مزدوجة لانطلاق مظاهرات الضفة الغربية مجددا بهذه المناسبة التي تتصل اتصالا وثيقا بالمستقبل السياسي للضفة الغربية ذاتها •فهي اولا جاءت مترافقة مع استنكار منظمة التحرير الفلسطينية لها وتنديدا بما تضمنته الخطوة الاردنية من نوايا مبيتة • وثانيا انطلاقها من بين صفوف جماهير الضفة الغربية المخاطبة اساسا بالاجراء الاردني ومحل مخططه •

واذا كانت جماهير الضفة الغربية قد اثبتت عبر مخاضها السياسي هذا على قدراتها الخلاقة في بلورة واقع سياسي جماهيري خاص بها عبر مواكبتها للتطورات السياسية المتصلة بالقضية الفلسطينية ، فانها لم تتلكأ كذلك عن الاضطلاع بمسؤولياتها الخاصة في دحر مخططات العدو الجارية في الضفة الغربية ؛ فعندما اقدمت محكمة الصلح بالقدس على الترخيص لليهود بالصلاة في باحة المسجد الاقصى تفجرت المظاهرات حاملة الشعارات المنددة بهذه الخطوة الاسرائيلية جنبا الى جنب مظاهراتها المستمرة ضد اجراءات اعدائها فوق الارض المحتلة وخارجها • واذا كانت سلطات الاحتلال لم تجد امام هذا التفجر الجماهيري سوى القمع وتصعيد اجراءاتها التعسفية ، فان الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية كانت مدركة سلفا لتبعات هذا النضال وما يستلزمه من تضحيات ومعاناة كبيرة • وهي لهذا كله تواصل نضالها الجماهيري غير عابئة بكل ما اقدمت وتقدم عليه السلطات المحتلة من اجراء قمع وقهر وتعسف •

اراء صريحة حول الادارة المدنية

نقلت مجلة « فلسطين المحتلة » التي تصدر عن مكتب الارض المحتلة في عددها الثامن والثلاثين ، مجموعة اراء لعدد من الشخصيات الوطنية في مشروع الادارة المدنية • كانت قد نشرت في صحف الضفة الغربية • ولعيد نشرها هنا لما نعتقد لما تضمنته هذه الاراء من اهمية : الشيخ حلمي المحتسب رئيس الهيئة العلمية الاسلامية بالقدس قال : لا للادارة المحلية • « وانني اشجب هذا المشروع المشبوه كليا • وهناك ممثلين شرعيين للبلاد ومعترف بهم دوليا » •

الشيخ سعد الدين العلمي مفتي القدس وقاضيها الشرعي : « ما المقصود بالادارة المدنية • هل هو الاعتراف بما احتلته اسرائيل سنة ١٩٦٧ ؟ فهذا يجب ان يعود للعرب • واما اذا كان المقصود ايجاد بعض العملاء في المناطق المحتلة فذلك مبدأ يرفضه الفلسطينيون من اساسه » •

حلمي حنون رئيس بلدية طولكرم : « نحن ضد هذه الفكرة على طول الخط لان الادارة المدنية في ظل الاحتلال ليست في مصلحتنا وان رأينا في السابق والحاضر المعارضة للادارة المدنية ونطالب بالانسحاب التام من الاراضي العربية » •

كريم خلف رئيس بلدية رام الله : « نرفض مشروع الادارة المدنية لان هذا يحول الانظار عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ».

عادل الشكعة نائب رئيس بلدية نابلس : « ان عرض هذا الموضوع لا يخص اهالي الضفة الغربية وحدهم ، بل انه يخص التنظيمات وجميع الفلسطينيين في الداخل والخارج . واننا في الارض المحتلة نعتبر انفسنا جزءا من الامة العربية ومنظماتنا » .

حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس السابق: « اننا جميعا نرفض التعاون في مجال الادارة المدنية » .

الدكتور جمال عبد القادر الخياط : « اننا نتقيد بمواقف الاجماع العربي وبقراراته ولقد اعترفت الدول العربية والعالم بممثلي الشعب الفلسطيني وهم اصحاب هذا الحق واولى بهذا التمثيل لانهم الشرعيون » .

الحاج مصطفى الطاهر : « الادارة المدنية هي اسلوب ايقاع بين الفلسطينيين في الضفة والقطاع واخوانهم في الخارج » .

فرح الاعرج رئيس بلدية بيت جالا . « اننا لا يمكن ان نتخذ هذا القرار لانه يتعلق بنا وبالدول العربية وبالفلسطينيين في الخارج » .

المحامي محمد اليحيى : « التلويح بالادارة المدنية هو عمل سيء ضد الارادة الفلسطينية وما هو الا حيلة لتفكيك الجهد الفلسطيني » .

الشيخ كامل القاضي التميمي واعظ بالمسجد الاقصى : « المهم اخذ رأي الشعب ولا قيمة للادارة المحلية طالما لم يؤخذ رأي الشعب » . وقال ان هناك علاقة بين الادارة المحلية وتعيين مجلس بلدي في غزة وتصريحات بيرس .

حسن طهبوب مدير الاوقاف الاسلامية : « الادارة المدنية ما هي الا محاولة تحاولها السلطات لايجاد بديل يعطي صفة التمثيل للشعب الفلسطيني لتأتي المرحلة التالية وهي مرحلة البحث في مستقبل المناطق المحتلة » .

الاستاذ يوسف النجار : « اننا نرفض الادارة المدنية ونطالب بزوال الاحتلال » .

جلال السلفيتي – مهندس : « ان هناك شكوكا في الانتخابات البلدية ولكن اذا كان هناك خيار فالمنظمة (منظمة تحرير فلسطين) هي الوحيد التي تمثلنا » .

خليل ابو نخلة – مهندس : « ان التفكير بالادارة المدنية هو خروج عن الاجماع الفلسطيني » .

محمد خضر – صاحب مخبز : « نرفض هذا الاجراء ولا يمكن تجاوز الممثل الحقيقي للشعب الفلسطيني المعترف به دوليا » .

حكمت المصري رئيس مجلس النواب الاردني السابق : « ان مجرد التفكير باقامة حكم ذاتي في المناطق المحتلة هو اهانة لكرامة الانسان الفلسطيني » .

مصطفى نزال رئيس بلدية قلقيلية : « نرفض الادارة المدنية » .

ظافر المصري رئيس الغرفة التجارية بنابلس « انني ضد مبدأ الادارة المطروح » .

هاشم الصالح رئيس بلدية طوباس : « ما هي الادارة التي لا يستطيع اي مواطن فيها ان يتمتع بابسط مبادىء الحق والقانون وهي حرية التصرف بارضه » .

عبد الحليم ذياب عضو الغرفة التجارية بطولكرم : « ان افضل شيء هو عدم وجود الاحتلال وليس المجيء بالادارة المدنية » .

حرب حرب عضو مجلس بلدية رام الله : « نرفض مشروع الادارة المدنية لانه لا يعبر عن امانينا القومية والوطنية » .

فتحي القمحاوي رئيس الغرفة التجارية في جنين : « نحن جزء من الشعب الفلسطيني والامة العربية ونرفض المشروع » .

حسين السوقي عضو مجلس بلدية جنين ورئيس المجلس البلدي السابق : « اية ادارة هذه ؟ انه لا يقبل بها الا الانسان الذي لا يوجد في وجهه دم » .

محمود نمر – طالب جامعي : « ان هذا

المشروع يستهدف الغاء المكتسبات التي حققها شعبنا واقرها العالم باسره ولذا فان رفض الادارة المدنية ضرورة » .

اسماعيل احمد صبيح ـ عامل كهرباء : « في رأينا ان المصلحة الوطنية تحتم رفض مشروع الادارة المدنية رفضا قاطعا والتمسك بالموقف الاساسي الرافض للاحتلال والمطالب بانسحاب القوات الاسرائيلية وبحل عادل يكفل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » .

فايز ابو رحمة ـ محامي من قطاع غزة : « ان اية محاولة لايجاد حكم ذاتي او ادارة مدنية للمناطق المحتلة لا يخدم قضية السلام وهو الاستمرار في تجاهل القضية الفلسطينية وتجاهل الفلسطينيين وحقوقهم ولا يمكن لاي شخص من سكان المناطق المحتلة ان يمتلك الصفة او الصلاحية لتمثيل الفلسطينيين بعد قرار مؤتمر الرباط » .

هاني راغب العلمي ـ رجل اعمال : « هناك ممثلون للشعب الفلسطيني معترف بهم عربيا ودوليا ، ولا شك ان لديهم الخبرة والخبرة الكافية . واذا كان هناك رأي يؤخذ فيجب ان يؤخذ رأيهم . واليوم نتحدث عن الادارة المدنية ونتناسى القضية الاساسية وهي قضية فلسطين » .

امال صالح ـ طالبة : « كانت نتيجة الذين تعاونوا مع فرنسا في الجزائر مخيمات في فرنسا ، واليوم جاعلة فرنسا حياتهم مثل القطران لان مهمتهم انتهت والجزائر رافضة ان تستقبلهم ولا هم عندهم الشجاعة للعودة ان سمح لهم . وعندما يدور الزمن سيجتمع هؤلاء في بيت عار لانهم معدودون على الاصابع ومن غير الممكن ان يشكلوا مخيما .... الخ » .

اعادة فتح ملف صاحب « الفجر »

بانقضاء الاسبوع الاول من شهر شباط (فبراير) الماضي ، كان قد مر عام على اختطاف الصحافي يوسف نصر صاحب جريدة الفجر التي تصدر في القدس باللغة العربية . ومنذ ذلك التاريخ لم يحسم المصير الذي آل اليه نصر نظرا لعدم العثور على جثة له . كما ان التحقيق « لم يتوصل » الى الجناة الحقيقيين والمحرضين الاساسيين على اختطافه بالرغم من الاسماء الكثيرة التي تداولها التحقيق ورجال الشرطة والصحافة العربية في الضفة الغربية . ولم يعاقب واحد من الذين اختطفوه او حرضوا على اختطافه سوى شخص واحد هو ياسر الكركي المعروف بعلاقاته الوثيقة بالشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل . وكان هذا الشخص قد حكم بالسجن لمدة ست سنوات .

وقد اوردت الاذاعة الاسرائيلية في برنامجها العبري (نشرة رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٦/٢/٤) ان المحامية فيليسيا لانغر التي وكلت بقضية يوسف نصر في حينه تود اعادة التحقيق في هذه القضية لان لديها مادة جديدة تستحق التحقيق . وقالت المحامية في رسالتها الى وزير الشرطة التي تضمنت طلب اعادة التحقيق ، انها قبل عشرة ايام زارت سجن الرملة وتحدثت الى ياسر الكركي المسجون هناك . وقالت ان الكركي صرح امامها بانه مستعد الان للاعتراف لان لديه معلومات كثيرة يعرفها وهو على استعداد للافضاء بذلك للشرطة .

وبما ان الكركي هو الشخصية الاولى في هذه القضية ويعد المتهم الوحيد فان لانغر تطلب اعادة فتح التحقيق خاصة وان القضية طابعا عاما . وتضيف الاذاعة الاسرائيلية ان يوسف نصر الذي اختطف ليلة ١٩٧٤/١/٦ ، جيء به الى منزل جميل حمد الذي كان كبير محرري الجريدة ويعد صديقا له . ومن هناك اخذ نصر ولم يعرف مكان وجوده حتى الان . ويقول الكركي في افادته للشرطة ان جميل حمد هو الذي عرض عليه خطف يوسف نصر وان لابناء اسرة الجعبري في الخليل ضلعا في القضية . وكان الكركي قد غير كلامه في المحكمة وادعى في شهادته انه لم يشترك في الخطف .

وفي حينه ذكرت المحكمة في قرارها ان شهادة الكركي كاذبة وان اعترافه في الشرطة هو الحقيقة . وذكرت المحكمة ان جميل حمد قد كذب في شهادته امام المحكمة عندما حاول ان يعطي انطباعا بان معرفته بالكركي معرفة

سطحية . كذلك بدت للمحكمة ان شهادات باقي الشهود الذين قال عنهم الكركي بـان لهم ضلعا كانت شهادات كاذبة . لذلك كله اتهم الكركي بعملية الخطف وحكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات، ولم تصدر احكام على باقي الاشخاص الذين اتهموا في القضية وغادر جميل حمد بعد ذلك بفترة قصيرة القدس الى المانيا الغربية ، الا انه عاد اليها قبل ثلاثة اشهر من هذا التاريخ (اوائل فبراير) .

ويطرح مراسل الاذاعة الاسرائيلية في ختام تحقيقه حول هـذه المسألة السؤال التالي :

لماذا اصبح الكركي الان مستعدا للتصريح وتقديم شهادة جديدة ؟ ويقول ان لهـذا احتمالين :

الاول - الرغبة بالانتقام ، اذ انه الوحيد الذي يدفع ثمن عملية الخطف ، بينما باقي الشركاء احرار .

الثاني - الجائزة المالية التي عرضتها اسرة يوسف نصر لكل من يقدم معلومات عن عملية الخطف او عن مكان وجود الجثة .

عيسى الشعيبي

(٤) القضية الفلسطينية عسكريا

العمليات الفدائية ونشاطات المقاومة الشعبية في داخل الارض المحتلة والرد الاسرائيلي عليها

على الرغم من المؤامرة التي حيكت ضـد الفلسطينيين والقوى الوطنية في لبنـان ، استطاعت حركة المقاومة الفلسطينية ان تخرج من الصراع اقوى واصلب عودا واكثر تماسكا وحركية في داخل الارض المحتلة وفي لبنـان حيث اكسبها ذلك احترام وتقدير الجميـع عربيا ودوليا.

فقد تمكنت بفضل وعي وتماسك جماهيرها العربية في لبنان ودعم الحركة الوطنية اللبنانية لها على اختلاف طوائفها واحزابها وكتلها وصحفها وتنظيماتها السياسية والعسكرية وتفهم الامة العربية والمجتمع الدولي لطبيعة في مهدها وتثبت للعالم عن قدرتها وتصميمها الصراع في لبنان ، ان تفشل المؤامرة وتقبرها في المحافظة على خط سيرهـا الاستراتيجي ، متجاوزة المعارك المفتعلة التي حيكت ضدها في الارض العربية في لبنان من قبل الاحـزاب والقوى الانعزالية التي تدعمهـا وتغذيهـا الصهيونية والامبريالية العالمية . وعلى الرغم من كل ذلك فقد شددت الثورة الفلسطينية ضرباتها في الداخل وصعدت عملياتها مثبتة للجميع ان ميدان عملياتها الحقيقي يظل في بطاح وجبال الوطن الفلسطيني المحتل . وتأكيدا مـن جهـة اخرى على ان الثورة الفلسطينية ليست طرفا في الاحداث الجارية في لبنان وردا على مزاعم غولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة ومحاولاتها ايهام الرأي العام العالمي بان حركة المقاومة الفلسطينية طرف في هذه الاحداث .

فقد صرح الاخ ابو اللطف رئيس الدائـرة السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية بقوله « ان السلطات الاسرائيلية تحاول باستمرار تصعيد الازمة اللبنانية بهدف خدمة اطماعهـا التوسعية وما الغارات الجوية التي تشنها على مخيمات النازحين في لبنان وعلى القـرى اللبنانية الا دليلا على ان اسرائيل تبيت

عدوانا جديدا على الاراضي اللبنانية وهي تخلق الاسباب والمبررات لتجعل عدوانها وكأنه دفاع عن امنها • علما بأن هناك مخططات اسرائيلية ـ اميركية تهدف الى افشال كل الجهود العربية والدولية والداخلية الخاصة بالتهدئة وانهاء الصراع في لبنان » • (المحرر ١٨ / ١٢ / ١٩٧٥) • ومما يثبت هذه النوايا العدوانية التصريحات التي صدرت عن رئيس الاركان الاسرائيلي الجنرال مردخاي غور الذي هدد بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٩٧٥ بقوله « ان الصراع الداخلي في لبنان قد يسفر عن عدة نتائج » ثم اضاف « اذا سيطر المسيحيون او المسلمون او كلاهما معا وبشكل او بآخر فهذا مما لا شك فيه قضية لبنانية داخلية قد تكون لها مضاعفات بالنسبة لنا ، ولكن لا حاجة تستدعي تدخلنا » ولكنه استطرد قائلا « ولكن هذه الثورة قد تكون لها نتيجة اخرى في حال تدخل دولة عربية وهو ما قد يفقد لبنان ليس فقط توازنهالداخلي ولكن مركزه في العالمالعربي وبصورة خاصة توازن القوى بيننا وبين العالم العربي » (المحرر ١٩ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي هذه الاثناء تواردت المعلومات من الارض المحتلة مشيرة الى ازدياد المقاومة والاضرابات الشعبية ضد الاحتلال الاسرائيلي • فقد ذكرت الانباء الواردة من نابلس ان المدينة شهدت اضرابات ومظاهرات قام بها اصحاب المحلات التجارية وطلبة المدارس احتجاجا على سلطات الاحتلال لسماحها لثلاثين اسرة اسرائيلية بالاقامة في احد المعسكرات قرب المدينة • هذا وازدادت المعلومات نفسها ان السلطات العسكرية عززت دورياتها في شوارع المدينة للحيلولة دون قيام مزيد من المظاهرات • (المحرر ١٩٧٥/١٢/٢٠) • وفي غمرة هذه الاحداث الامنية المقلقة وازدياد التعاطف مع حركة المقاومة في الداخل طالب النائب الصهيوني امنون لين في جلسة الكنيست الاسرائيلي بتاريخ ١٩ / ١٢ / ١٩٧٥ باتخاذ اجراءات امنية اشد بحق العرب المقيمين في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وذلك بطردهم من البلاد وحرمان الطلاب من الدراسات الجامعية ثم قال « ان عدد العرب الذين يبدون استعدادهم للتعاون مع السلطات الاسرائيلية يتضاءل بسرعة مذهلة ، في الوقت الذي تزداد فيه مظاهر العداء وبشكل خاص في مدينة الناصرة » (المصدر نفسه) •

ففي ٢٣ / ١٢ / ١٩٧٥ نفذ الثوار الفلسطينيون ثلاث عمليات بطولية قرب تل ابيب ومدينة ايلات في الجنوب ومستوطنة يفتاح في شمال فلسطين المحتلة • فقد صرح ناطق عسكري باسم القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية ان احد افراد المجموعات العاملة في الارض المحتلة قد قتل ضابط مخابرات للعدو في الشارع الرئيسي بمستوطنة « ريشون ليتسيون » قرب تل ابيب • وفي حادث اخر وقع في مدينة ايلات في جنوب فلسطين المحتلة ، هاجم رجال المقاومة الفلسطينية في داخل الارض المحتلة احد الاندية التي يرتادها ضباط العدو في المدينة وتمكنوا خلال دقائق من قتل وجرح عدة افراد من العدو• وفي عملية ثالثة نصب الثوار كمينا لدورية عسكرية اسرائيلية على الطريق الرئيسي المؤدي الى مستوطنة «يفتاح » في الجليل الاعلى انتهى بتدمير سيارة عسكرية محملة بجنود العدو وبالقذائف الصاروخية والاسلحة الاخرى • (المحرر ٢٤ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي ٢٨ / ١٢ / ١٩٧٥ اصيب (١٦) شرطيا اسرائيليا بجروح خطيرة في مشادة وقعت بينهم وبين سكان قرية عربية تقع بالقرب من مستعمرة « نهاريا » في الجليل الغربي • فقد تصدى سكان القرية لرجال الشرطة حينما حاولوا هدم منزل لاحد ابناء القرية • وافادت مصادر الشرطة انه تم القبض على (١٦) مواطنا عربيا من سكان القرية حينما تمكن رجال الشرطة بعد اربع ساعات من اعادة النظام والهدوء الى القرية مرة اخرى (المحرر ٢٩ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي ٢٩ / ١٢ / ١٩٧٥ دمر الفدائيون الفلسطينيون سيارتي دورية ونسفوا واحرقوا مصنعا اسرائيليا للاثاث • فقد اعلن ناطق عسكري فلسطيني ، ان الثوار في الارض المحتلة نصبوا كمينا لدورية عسكرية في الجليل الاعلى وتمكنوا من تدمير سيارة عسكرية بمن فيها من جنود واسلحة • وفي مكان اخر احرق الثوار مصنعا للاثاث يقع في شارع هرتزل بتل

ابيب بفعل عبوة ناسفة ، واضاف الناطق ان الفدائيين تمكنوا من تدمير الية عسكرية بمن فيها من جنود وأسلحة في نقطة تقع قرب مستعمرة « المنارة » وذكر الناطق ان العدو حاول تطويق المجموعة الفدائية الا انها استطاعت الافلات من محاولة التطويق • وفي تل ابيب اعترف ناطق عسكري اسرائيلي ان النار اطلقت على دورية عسكرية اسرائيلية في الجليل الاعلى من وراء الحدود كما اعترف بنشوب حريق في مصنع الاثاث المذكور (المحرر ٣٠ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي هذه الاثناء ذكرت مصادر المقاومة الفلسطينية في بيروت ان (١٢) زورقا بحريا معاديا ترافقها طائرات هليوكبتر شوهدت في عرض البحر في اتجاه ساحل صور متجهة شمالا • وقد افاد الناطق ان حالة تأهب قصوى اعلنت في جميع المخيمات الفلسطينية تحسبا لاي طارىء ، كما افاد الناطق نفسه انه شوهدت حشودات عسكرية اسرائيلية بعد ظهر ٣٠ / ١٢ / ١٩٧٥ قرب الحدود الجنوبية للبنان (المحرر ٣١ / ١٢ / ١٩٧٥) •

وفي ١ / ١ / ١٩٧٦ احتفل الثوار الفلسطينيون بالانطلاقة الحادية عشر للثورة الفلسطينية حيث شددوا من ضرباتهم وكثفوا من عملياتهم ضد الاحتلال الاسرائيلي في داخل الارض المحتلة • فقد صرح ناطق عسكري فلسطيني ان الثوار تمكنوا من زرع عبوة ناسفة حارقة داخل احد الكاراجات العسكرية في منطقة كريات يوفيل في قلب مدينة القدس وانفجرت العبوة الساعة (١٤،٠٠) من ظهر يوم ١ / ١ / ١٩٧٦ وادى الانفجار الى تدمير عدد من السيارات العسكرية واصابة الورش بالكاراج باضرار بالغة وفي مكان اخر زرع الثوار لغما ارضيا مسيطر عليه فنيا على الطريق الجنوبي المؤدي الى مدينة العريش وجرى تفجيره في الساعة (١١،٣٠) من صباح يوم ١ / ١ / ١٩٧٦ اثناء مرور سيارة عسكرية محملة بجنود العدو ، مما ادى الى تدمير السيارة وقتل وجرح من فيها • وفي حادثة ثالثة قصف الثوار في الساعة (٢٠،٤٥) من مساء ١ / ١ / ١٩٧٦ بالصواريخ الثقيلة عددا من الاهداف العسكرية والحيوية داخل مدينة نهاريا واصابت الصواريخ اهدافها • كما قام الثوار بهجوم رابع نجم عنه تدمير عدد من الاهداف الحيوية للعدو داخل مدينة تل ابيب وعلى امتداد شارع شوكيد في منطقة كريات ملاخا احدى الضواحي الحيوية في المدينة • فقد زرع الثوار عدة عبوات ناسفة حارقة داخل الاهداف المحددة وانفجرت العبوات على التوالي منذ الساعة (٢٤،١٥) من منتصف ليل ١٩٧٦/١/١ ملحقة اضرار جسيمة في احد اكبر مستودعات الورق في المدينة وفي احد المتاجر ومستودع للاغذية • وفي هجوم خامس هاجم الثوار في الساعة (٠،٥٠) من صباح ٢ / ١ / ١٩٧٦ ناديا للشرطة في المنطقة الشمالية من تل ابيب واستطاعوا في هذا الهجوم قتل وجرح عدد من الحراس واصابة النادي باضرار بالغة •

وفي تل ابيب اعترف ناطق عسكري اسرائيلي بقصف مدينة نهاريا الا انه كعادته ادعى ان القصف لم يسفر عن وقوع اية اضرار • كما اعترف عن وقوع حريق في مخازن مطابع صحيفة (هارتس) في تل ابيب (المحرر ٣ / ٢ / ١٩٧٦) • وفي هذه الاثناء قالت وكالة رويتر ان الحريق الذي شب فجر ١ / ١ / ١٩٧٦ يعتبر اضخم حريق شهدته تل ابيب في تاريخها • وقدرت الوكالة الخسائر التي نجمت عن الحريق بأكثر من مليون جنيه استرليني وقالت الوكالة ان اعمدة الدخان الكثيفة سدت الانفاق تحت الارض واندفعت من النوافذ المعدة للتهوية وان رجال الاطفاء استخدموا (٤٠) سيارة لاطفائه • هذا وقامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقالات ضد المواطنين العرب المتواجدين في المدينة اثر هذه العملية • (المحرر ٤ / ٢ / ١٩٧٦) • غير ان سلطات الامن الاسرائيلية حاولت التخفيف من التأثير النفسي السيء الذي خلفه الحريق في نفوس المواطنين اليهود بأدعائها ان الفاعلين هم اربعة يهود معروفين لاجهزة الامن • (المحرر ٥ / ١ / ١٩٧٦) •

وفي ١٩٧٦/١/٩ انفجرت قنبلة في مخزن كبير للبقالة في احدى ضواحي مدينة القدس المحتلة واصيب نتيجة للحادث سبعة اشخاص يهود بجروح • وعلى الاثر قامت سلطات الامن

باعتقال (١٥) شخصا من العرب وبـذات التحقيق معهم . وعلى صعيد اخر ذكـرت مصادر الجيش الاسرائيلي انه تم اعتقال (٦) من الفلسطينيين للاشتباه بأن لهم علاقـة بخلية تابعة لمنظمة فتح في نابلس . وادعـى الناطـق انه عثر مع الرجال الستة على اسلحة ومواد ناسفة (المحرر ١٠/١/١٩٧٦) . وفـي مدينة حيفا اصدرت محكمة اسرائيلية امرا بالقبض على شاب عربي من سكان المدينـة بتهمـة محاولة حيازة قنبلة يدوية . (المصدر نفسه) .

وفي القدس حذر شمعون بيريز وزيـر الدفاع الاسرائيلي من ان اسرائيل لا تستطيع ان تظل مكتوفة الايدي ازاء التطـورات الجارية في لبنان ومما قاله في هذا الصدد « ان اسرائيل ما زالت تتابع باهتمام تطورات الموقف في لبنان ، وتعتبر اي تعديـل في هيكل هذا البلد يهدد امن اسرائيل وان اسرائيل تعتبر ذلـك في منتهى الخطورة » واضاف قائلا « ان اسرائيل لن تظل مكتوفة الايـدي في حالة تدخل سوريا في لبنان » . (المصدر نفسه) .

وعلى الرغم من اشتداد هجمات القـوى الانعزالية في لبنان ضد المخيمات الفلسطينية، فقد شدد الثوار الفلسطينيون من هجماتهم ضد الاهداف الحيوية في الارض المحتلة . ففي ١٣/١/١٩٧٦ قام الفدائيون بعملية بطولية ، اذ اقتحمت مجموعة منهم مستعمرة مرجيلوت (هونين) وقامت باحتجاز عدد كبير من الرهائن داخل احد المباني في المستعمرة ، مطالبة باطلاق سراح عدد من السجناء العرب مقابل اطـلاق الرهائن . غير ان سلطات العدو كعادتهـا رفضت العرض وشنـت قواتها هجوما من مختلـف الاتجاهات على مكان تمركز المجموعة مع الرهائن . وخاضت المجموعة الانتحارية معركة ضارية مع القوات الاسرائيلية المهاجمة الى ان نفدت ذخيرتها عنها فجرت المجموعة نفسها مع الرهائن . وقد استشهد نتيجـة لذلـك افراد المجموعة البالغ عددهم اربعـة فدائيين . وفي تل ابيب اعترف ناطق عسكري اسرائيلي بالعملية ولكنه كعادته ادعى انـه لم تقع خسائر بين الاسرائيليـين وان سلطات الامن تمكنـت من انقاذ الرهائن (المحرر ١٤/١/١٩٧٦) . ومن جهة ثانية اعترف ناطـق عسكري اسرائيلي بقصـف مدينة صفـد بصواريـخ كاتيوشا مساء ١٣/١/١٩٧٦ ووقوع اربعة قتلى من اعضاء حرس الحدود . وفي بيروت اعترف ناطـق عسكري فلسطينـي بقصـف مدينة صفد بالصواريخ الثقيلة لمدة عشر دقائق . وقال الناطـق ان القصـف استهدف منشآت عسكرية حيوية في المدينة . (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى جرصت القيادة العسكرية في اسرائيـل على ان تظل عيونها مفتوحـة على ما يجري من تطورات في لبنان بواسطة طيران استطلاعها . فقد انتهكت المجال الجوي اللبناني فوق العاصمة والجنوب والبقاع بتاريخ ٢٧/١/١٩٧٦ ٤ طائرات اسرائيلية بغـرض الاستطلاع والتصوير الجوي . فقد حلقـت الطائرات على ارتفاع (٤٠) الف قدم واخترقت الاجواء اللبنانية فوق منطقة مرجعيون وجبيل والبقاع فوق قاعدة رياق الجوية ثم عـادت باتجاه الجنوب فوق صيدا الى الارض المحتلة (المحرر ٢٨/١/١٩٧٦) . كما ذكرت صحيفـة الدستور الاردنية عن وجود حشود عسكريـة اسرائيلية آلية ومحمولة كبيرة على خـط المواجهة مع سوريا . وقالت الصحيفة أن أعدادا كبيرة من الاليات والقوات المحمولة برا شوهدت تسير متجهة الى مناطـق الحشود التي تركزت في شكـل كثيف في المنطقتين الشمالية والوسطى ومنطقة الحمة السورية ومرتفعات الجولان . (النهار ٢٩/١/١٩٧٦) وتأتي هذه الحشود في اعقاب وقـف القتال في لبنان وازدياد نفوذ القوى الوطنية فيـه والنكسات السياسية والعسكرية التي تعرضت لها القوى الطائفية الانعزالية .

وفي ٢٨/١/١٩٧٦ فجر الثوار الفلسطينيون لغما قرب مستوطنة نيوت هاكيكار بوادي عربة جنوبي البحر الميت فادى الانفجـار الى تدمير سيارة عسكرية اسرائيلية (المحرر ٢٩/١/١٩٧٦) .

وعلى صعيد اشتداد المقاومة للاحتـلال الاسرائيلي في الارض المحتلة فقد ذكرت الانباء

الواردة من قطاع غـزة ان قوات الامـن الاسرائيلية اعتقلت ٣٥ شخصا زعمت انهـم اعضاء في منظمة فتـح العربية الفلسطينيـة الفدائية . وذكرت اوساط الامن انه وجدت مع الاشخاص الموقوفـين اسلحة ومتفجـرات (المحرر ١٩٧٦/٢/٤) وفي ١٩٧٦/٢/٥ اتخـذت السلطات الاسرائيلية اجراءات امنية مشددة ضد السكان العرب في الجليل الاعلى بدعـوى ان المناطـق التي يقيمون فيها تقع بالقرب من المناطـق التي تجري فيها تدريبات الجيـش الاسرائيلي . فقد اعلن شمعون بيريز وزيـر الدفاع الاسرائيلي ان من المقرر ان تنشيء اسرائيـل قرية تضم ١٥٠٠ من افراد اليهود الذين يقيمون في مناطق مغلقة مخصصـة لتدريـب الجيش في الجليـل الاعلى . وقـال في الكنيست الاسرائيلي « ان البدو الذين يقيمون في مئات من المباني الصغيرة في المنطقة دون تصريح سيتـم ترحيلهم الى منطقـة تقـع الى الشرق من منطقة التدريـب » (المحرر ١٩٧٦/٢/٦) . وفي ١٩٧٦/٢/١١ اعلنت مصادر الشرطة الاسرائيلية في القدس المحتلة عن اعتقال ٤٦ شابا من اصـل ٤٠٠ تظاهروا في البلدة القديمة احتجاجا على قرار اصدرته احدى المحاكـم الاسرائيلية مؤخـرا بالسماح لليهود بالصلاة في منطقة الحرم القدسي وتضم المنطقة المسجد الاقصى الشريف ومسجـد الصخرة المشرفة . وقد اثار القرار اضطرابات في اماكن عدة من الضفـة الغربية وقطـاع غزة مما حمل المدعي العام الاسرائيلي على طلب الاستئناف (النهار ١٩٧٦/٢/١٢) . وفي وقت لاحـق افادت التقارير الواردة مـن الضفـة الغربية ان المظاهرات والاضطرابات تعم مدن الضفة والقطاع في شكل انتفاضـة شعبية عارمة ضد القرار الانف الذكر . وذكرت هذه المعلومات ان قوات الاحتلال الصهيونـي اعتقلت مئات المواطنين خلال الايام الاخيرة في تحركاتها لقمع المظاهرات والحد مـن خطرها . وفي هذه الاثنـاء تواصل مختلـف الاوساط الرسمية والدينية والشعبية في الاردن ادانتها لقرار المحكمة الاسرائيلية باباحـة اقامة الصلوات اليهودية في المسجد الاقصى . هذا ومن المتوقع ان تتفاقم الامور الامنية فـي اسرائيـل وتشتد الانتفاضة الشعبية في الايام القليلة القادمة احتجاجا على هذا القرار الذي يظهر النوايا العدوانية الصهيونية ضد اقدس مقدسات المسلمين في العالم .

الرائد الطيار حسين عويضة

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١/١٦ ــ ١٩٧٦/٢/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	١/٢٠	٩,٠٠	وادي عربة / جنوب البحر الميت	تفجير	ألغام	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٦/١٣	١/٢١
٢	١/١٧	٧,٠٠	الناصرة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اعطاب آلات النسيج في مصنع النسيج واشتعال النيران في المواد الخام	—	—	—	٧٦/١٤	١/٢١
٣	١/١٦	٢١,٠٠	عكا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اصابة محطة الكهرباء المركزية بأضرار وانقطاع التيار الكهربائي	—	—	—	٧٦/١٥	١/٢١
٤	١/١٦	٢,٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من مبنى مركز الشرطة واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٦/١٦	١/٢١
٥	١/٢٤	—	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير واحراق جميع مستودعات أحد المنشآت الحيوية بحي هتكفا واحراق محتويات مبنى الادارة واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	٧٦/١٧	١/٢٤

٦	١/٢٥	٨,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		وعثر ايضا على عبوة أخرى بالقرب من بوابة يافا وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٦/١٨	١/٢٦
٧	١/٢٨	١,٠٠	نؤوت هكيكار/جنوب البحر الميت	تفجير	لغم أرضي	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٦/١٩	١/٢٨
٨	١/٢٨	٤,٠٠	بين ديمونة وبئر السبع	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		اعطاب باص عسكري واصابة من فيه	—	—	—	٧٦/٢٠	١/٢٨
٩	١/٣١	٢٢,٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اندلاع النيران في فندق بيل وكاراجه وتحطم زجاج المباني المجاورة	—	—	—	٧٦/٢١	٢/١
١٠	٢/٤	٧,١٥	القدس(١)	قصف	صواريخ	—	—	تم اكتشاف الصواريخ وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٦/٢٢	٢/٤
١١	٢/٨	٢,٠٠	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اشعال النيران في عدة محلات تجارية داخل السوق التجاري وتصدع مبنى تجاري واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	٧٦/٢٣	٢/٩
١٢	٢/٨	٢٠,٠٠	القدس(٢)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارتين لحرس ما يسمى برئيس دولة اسرائيل	—	—	—	٧٦/٢٤	٢/٩
١٣	٢/٩	١,٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اشعال النيران في محل تجاري ومكتبة بحي القطمون	—	—	—	٧٦/٢٥	٢/٩
١٤	١/١٦	—	حيفا	تصفية	أسلحة فردية	١	—	تم قتل ضابط برتبة لفتنانت كولونيل	—	—	—	٧٦/٢٦	٢/٩

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١٥	٢/٩	٦,٣٠	جنين	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية وصواريخ	غير محدد		تم تدمير باص عسكري وقتل وجرح من فيه وتم بنفس الوقت مهاجمة باصين آخرين لشركة ايجد	—	—	—	٧٦/٢٧	٢/١٠
١٦	٢/٩	١٩,٣٥	معسكر الشاطىء/غزة(٣)	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٦/٢٨	٢/١٠

١ — اعترف العدو بالعملية مدعيا بأنه وجد قنبلتين ضد الدبابات عيار ١٠٥ ملم وتذيفة بازوكا . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٨٣ ، صفحة ٥٩ ، بتاريخ ١٩٧٦/٢/٤) .

٢ — ادعى العدو بأن زجاجات تحتوي على مواد حارقة وضعت تحت سيارتين في حي تلبيوت تسببت في إشعـــال النيران حيث تمكن رجـــال المطافىء من اخمادها قبل ان يحدث ضرر كبير . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٨٦ ، صفحة ١٥٠ ، بتاريخ ١٩٧٦/٢/٩) .

٣ — ادعى العدو بأن عيارات نارية من أسلحة خفيفة أطلقت على دورية دون أن تقع أية اصابات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٨٧ ، صفحة ١٧٩ ، بتاريخ ١٩٧٦/٢/١٠) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية من الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

غازي خورشيد

تتمة مقال طلال شاهين

وما يهم الامبريالية الامريكية سياسيا ، الآن ، هو تصفية هذا الوضع الاستثنائي الخطر حتى لو ادى ذلك الى تدمير اقتصاد الكومبرادور اللبناني لفترة طويلة من الوقت . فالامبريالية تنظر الى مصالحها في المنطقة بصورة مترابطة وشاملة ، كما هي في الواقع . فهناك من يبني افتراضاته ، انطلاقا من مفهوم « اقتصادي » « طبقي» فظ وضيق الافق للصراع ، بالقول ان التدمير الهائل الذي لحق بالاقتصاد اللبناني سيجبر الكومبرادور (خاصة جناحه الماروني المهيمن) عن التخلي عن الاستمرار في مخطط التفجير والعنف والعودة الى اسلوب « الحوار » الديمقراطي حفاظا على مصالحه الاقتصادية التي تضررت كثيرا. ولكن استمرار المصالح الطبقية الكومبرادورية والامبريالية هو **مسألة سياسية** اولا واخيرا . فمن هنا لا يهم الامبريالية مدى التدمير الذي لحق وسيلحق بالاقتصاد اللبناني التابع بمقدار ما يهمه تصفية وضرب الخطر السياسي المتأتي من النضال الثوري للشعبين الفلسطيني واللبناني . فتنامي نضال الشعوب هو الخطر الحقيقي الذي يتهدد المصالح الامبريالية . والمصلحة السياسية والاقتصادية الفعلية للنظام الكومبرادوري اللبناني هي في تصفية وضرب هذا النضال باشكال مختلفة .

وسوف نعالج في القسم الثاني من هذا المقال مواقف كل من النظام والحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية من الازمة الراهنة والوضع الثوري الجديد . كما سنناقش الآفاق المطروحة المختلفة والشعارات الملائمة للمرحلة القادمة .

سخافة منطقها على منطق منظر حزب العمل سابقا « المعتدل » اريه الياف . فالكاتب اراد من خلال بحث قصير القول بأن العرب أخذوا منذ مدة وخاصة خلال القرن التاسع عشر يهاجرون الى فلسطين من كل حدب وصوب وان هذا « الخليط من الناطقين بالعربية » اخذ يتكاثر بواسطة الهجرات المتتالية ليدعي فيما بعد بأن له حقوقا تاريخية على فلسطين . اي انه أراد قلب الواقع تماما ، فألبس العربي الثوب الصهيوني ، وخلع على الصهيوني البز العربي .

ففي مقالة نشرت في ملحق دافار ١٩٧٤/٣/١٥ تحت عنوان « ميراث الآباء » يتحدث الكاتب عن عدد العرب الذين يعيشون غربي النهر،ويقول ان هنالك حوالي مليون ونصف المليون عربي ، وبدقة أكثر «الناطقين بالعربية بما في ذلك المسيحيين والدروز» ويذكر ان مجموع « الناطقين بالعربية » الذين ينسبون انفسهم الى « أرض اسرائيل » يتراوح ما بين مليونين ومليونين ونصف ، يتساءل بعد ذلك ، كيف تكون هذا العدد ؟ يقرر الكاتب ان « ارض اسرائيل » كانت بمثابة مقاطعة نائية للامبراطورية العثمانية وان « سكانها الدائمين خف بشكل متواصل وان الاماكن الخالية كانت تعبأ بين الفينة والاخرى باخرين » وان عدد سكان فلسطين في اواسط القرن التاسع عشر كان يتراوح بين ربع المليون وال ٤٠٠ الف نسمة ، كما وان هذا العدد هو « ثمرة تجمع ابناء بلدان مختلفة خلال فترة تقارب المئتي عام » . ويعتقد الكاتب ان الهجرات العربية هي السبب الرئيسي في تزايد السكان العرب ، وليس التكاثر الطبيعي ، ثم يغوص في مصادر الهجرة حتى عام ١٩٤٨ . ويمكن تقسيم هذه المصادر كالتالي شمال افريقيا : يذكر الكاتب ان كثيرا من العائدات المغربية التي كانت تأتي لاداء فريضة الحج قد استوطنت في فلسطين خلال فترات مختلفة ، ويضيف بان الهجرة من دول المغرب قد ازدادت عند منتصف القرن التاسع عشر عقب وضع الفرنسيين حدا لثورة عبد القادر الجزائري ، حيث وجدت « جماهير مغربية ملجأ لها » في فلسطين .

مصر والسودان : يرى الكاتب ان الهجرة من مصر الى فلسطين كانت قائمة وازدادت ابان حملات ابراهيم باشا على سوريا حيث « قدمت الموجة الكبيرة من المصريين والسودانيين » وان موجة الهجرة من مصر لم تنقطع واشتدت ابان الحرب العالمية الاولى حين جلبت القوات البريطانية عمالا مصريين بغرض استخدامهم ، الا ان هؤلاء « استوطنوا هنا » ، ويذهب الكاتب في التدليل على صحة اقواله بالقول بان هنالك عائلات ما زالت تحمل لقب « المصريين » او « المصاروه » اما بالنسبة للسودانيين « انهم حتى اليوم يعرفون من خلال منظر وجوههم » . بالاضافة الى ذلك يرى ان طوائف معينة مثل العرب الدروز قد قدمت في القرن السابع عشر من الشمال « واستوطنت في ثماني عشرة قرية معظمها خالية في الجليل والكرمل » .

موجات الهجرة غير العربية : يرى الكاتب ان « أرض اسرائيل الغربية » قد شهدت موجات من المهاجرين المسلمين غير العرب ، حين قدمت اليها موجات من المسلمين ، مثل اليوغسلافيين والشركس والتركمان وغيرهم .

وفيما يتعلق بالهجرة اليهودية ، فان الكاتب يرغب في الاعتقاد بأن « الاستيطان اليهودي في البلاد لم ينقطع في يوم من الايام » وان هجرة اليهود المتدينين في اواخر القرن الثامن عشر عززت اليشوف اليهودي « على الرغم من الهزة الارضية الفظيعة عام ١٨٣٤ التي هدمت المدينة (صفد) ونجم عنها مقتل ٢٠٠٠ يهودي في يوم واحد » لينتقل بعد ذلك الى القول ان الهجرة العربية الاساسية « لارض اسرائيل » قد حدثت في نفس الفترة التي بدأت فيها الهجرة اليهودية بالتعاظم ، وان الهجرة العربية كانت تجد ابوابا مفتوحة بعكس الهجرة اليهودية . ثم يأخذ يتحدث عن الاستيطان الصهيوني الذي « بفضله » غدا العرب يمتلكون حقوقا في البلاد : « الاستيطان لم يسلب ، بل بالعكس فتح بوابة امام الجماهير العربية التي أصبحت بواسطة ذلك تمتلك « حق الاباء » على البلاد بالرغم من كونهم مهاجرين قدموا من بلدان مختلفة ». ثم يأخذ الكاتب بنفي حق العرب في « أرض اسرائيل » (فلسطين) ويقرر بأنه « اذا كان الحديث يدور حول ميراث الاباء، فان ارض اسرائيل ليست ميراثا لاباء المصريين والسوريين والحورانيين والسودانيين والتركمان وسائر المهاجرين عربا كانوا او غير عرب وصلوا الى البلاد مع الهجرات

اليهودية او بعدها » بل تخص اليهود فقط ، الا انه يبدي في آخر مقالته تشككه في امكانية تحقيق المشروع الصهيوني على كل اجزاء « خريطة ارض اسرائيل» لاسباب تتعلق بالظروف المحلية والدولية، وفي نفس الوقت يبدي استعداده بأن يكون للعرب الذين يعيشون فيها نصيب الى جانب اليهود في هذه البلاد « انني لا ازال ارى من حقي الكامل ان اردد ما قاله بلنسون : « لمن هذه الارض ؟ للشعب اليهودي وللعرب الذين يعيشون فيها » وليس بالذات لاولئك الذين هاجروا اليها ، وبالتأكيد ليس لاسيادهم » .

اذا تجاوزنا المغالطات التاريخية ، ووقفنا حول الاستنتاج الذي خرج به الكاتب بان هذه الارض (حدودها غير معروفة) « للشعب اليهودي والعرب الذين يعيشون فيها ، وليس بالذات لاولئك الذين هاجروا اليها ...» فان السؤال هو من هم العرب الذين يغدق عليهم الكاتب صفة المهاجرين والمستوطنين ؟ واذا استثنينا السودانيين « الذين يعرفون حتى اليوم من خلال منظر وجوههم » فكيف يميز الكاتب بين وجوه المهاجرين العرب الاخرين وبين العرب « الاصليين » خاصة وان وشائج الزواج والقربى تربط بين « الطرفين » ؟

وقبل ان ننتقل الى اقتراح كاتب آخر لحل القضية الفلسطينية تجدر الاشارة هنا ، انه يبدو ان عزريا ألون ، كتب مقالته الانفة الذكر تحت وطأة النقاش الدائر بين التيارات المختلفة في اسرائيل ، وربما تكون المقالة قد ظهرت بعد حوار مع مجموعة من اوساط الجيل الجديد هناك شككت في الحق التاريخي الذي تدعيه الصهيونية لليهود على فلسطين، وسخفت من خريطة ارض اسرائيل، فهو يقول في مطلع المقال ساخطا : « ان اصطلاح كلمتي « ميراث الاباء » يحمل معنى مزدوجا : عندما يقال بالنسبة لليهود فانه يعبر عن شيء غيبي ديني شوفيني ، وعلى كل شخص مستنير وتقدمي ان يخلعه من جذوره ، وعندما يقال بالنسبة للعرب فانه يعتبر واقعيا تماما وعلى كل واحد ان يرتب افكاره واعماله بمقتضاه » .

مجموعة دول ارض اسرائيل : على خلاف عزريا الون ، يرى الصحفي الاسرائيلي أ. شفايتسر بأن هنالك ثلاثة شعوب تقطن « ارض اسرائيل » : الاسرائيليون والفلسطينيون والاردنيون ، وبما ان الامر كذلك ، ووسط البحث عن حل للقضية الاساسية للصراع ، تفتقت مخيلة الكاتب عن حل ، يعتبر حتى الان فريدا من نوعه، آخذا بعين الاعتبار المصالح الاقتصادية الاسرائيلية ، وفاتحا الباب أمام « الروابط التاريخية لليهود في الضفتين الغربية والشرقية ، وحريصا في الوقت نفسه على السيادة الشكلية لكل من الفلسطينيين والاردنيين».

يعتقد شفايتسر بأن القضية الفلسطينية هي أساس النزاع في المنطقة وان الزعماء الاسرائيليين يتميزون بالسلبية تجاه هذه القضية ، بينما «تسعى منظمات التخريب الى احلال السيادة الفلسطينية على جميع ارض اسرائيل » الامر الذي لا يمكن لاسرائيل قبوله . ثم يأخذ بانتقاد النظرتين الرئيسيتين في اسرائيل ، النظرة « التقليدية اللاعقلانية » لفئة المتطرفين ، والنظرة المجتزأة والغير مدروسة لفئة المعتدلين ، وكذلك انتقاد النظرة العربية حيث « يختلط في البحث حرارة مطلب الوحدة مع مزيج من مقاطع فكرية مناهضة للكولونيالية ليست ذات صلة بالموضوع » ، وبعد نقد منظور الفريقين ، لكي يجد مبررا لاقتراحه ، يبدأ بمعالجة القضية الاساسية ، ويرى انه اذا ما أعيد القطاع والضفة تحت سيادة دولة فلسطينية مستقلة ، فان الفلسطينيين سيكونون بمثابة « ... بؤرة للقيام باعمال ارهابية ، ولمؤامرات دولية ... » وان كلا من الاردن واسرائيل لن يستطيعا العيش بهدوء الى جانب مثل هذا الجار . يقول في هذا الخصوص : بما انه لا توجد سيادة بدون شعب ، كذلك لا يوجد شعب بدون منطقة ، والمنطقة الوحيدة التي يقطنها شعب يمكن ان ينسب اليه احساس فلسطيني ولديه وجود حاسم عليها ، هي المنطقة الواقعة بين الخط الاخضر ونهر الاردن وكذلك قطاع غزة . هنا يمكن اذن ، خلق سيادة لعرب ارض اسرائيل من ناحية الشعب والمنطقة معا . ولكن من المشكوك فيه ان تكون هذه بحد ذاتها لصالح اصحابها وجيرانها ايضا . وبما ان هذين القطاعين معا لا يمكن لهما ان يوفرا كيانا اقتصاديا للسكان الحاليين (فكم بالحري بانهما لا يستطيعان توفير كيان اقتصادي للسكان الذين سيزدادون عقب عودة لاجئي الحروب القديمة) فانهما سيكونان بمثابة عامل لحالة مستديمة من عدم الاستقرار ، وبؤرة للقيامباعمال ارهابية ، ولمؤامرات دولية ، وعدم الهدوء .

ان اسرائيل وكذلك الاردن شرقي النهر لن يستطيعا العيش بهدوء الى جانب جار كهذا ولن يرغبا بتكوينه ، واذا ما خلق ، فانهما سيرغبان في اختفائه » (هآرتس ٧٤/٣/١٨) .

ولكي يكون الجاران راضيين ، ولا يرغبان في اختفاء الوليد الجديد ، فانه من الضروري ردم التناقض القائم بين قيام دولة فلسطينية « والجو الهادىء » الذي يريده كل من اسرائيل والنظام الاردني ، وهذا لن يتأتى الا بخلق صيغة جديدة ، اطار سياسي جديد ، ليس اتحادا فدراليا بين الدول الثلاث لان ذلك من شأنه كما يقول الكاتب ان يحد من استقلال وسيادة هذه الدول ، بل اطار سياسي يتشكل من « مجموعة دول ارض اسرائيل » شبيه الى حد ما بالاطار السياسي لمجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة . واذا كانت مجموعة الدول الاوروبية قد سعت قبل كل شيء الى وحدة التعرفة الجمركية فانه ينبغي على « مجموعة دول ارض اسرائيل » ان تضع نصب عينيها خلال المراحل الاولى حرية الحركة والتنقل، **والاستقرار السياسي في الضفة والقطاع** . بعد ذلك يدعو الكاتب الى خلق سوق مشتركة لهذه الدول ، وايجاد حلول لقضايا العمل والسياحة والطاقة ، كما « ان مؤسسات مجموعة الدول التي ينبغي ان تقام وفق النمط الاوروبي ستعالج قضايا لا تؤثر على السيادة وستقوم بالانهماك في برمجة وتنفيذ ترميم اللاجئين سواء الموجودين في يهودا والسامرة وغزه او الاردن اولئك الذين ان ينضموا اليهم مع تأسيس الدولة الفلسطينية ضمن اطار المنظومة » .

اما على الصعيد السياسي فيرى ضرورة المحافظة واحترام نظم الحكم في كل من تلك الاقطار ، ويطالب بان تلتزم كل دولة بعدم الاعتداء على أي من الدولتين الاخريين . حول ذلك يقول : « من الواجب الموافقة على موضوع واحد فقط : تلتزم بلدان المنظومة بأن لا تهاجم او تعطي قاعدة لمن يود مهاجمة الدول الاعضاء . وباستثناء ذلك ، وعلى الاقل بشكل مبدأي فان كل دولة ستعيش وفق بنيتها النظامية وعلاقاتها الخارجية ، ان التعاون الملزم يصب في مجالات الاقتصاد ، الا ان الحقيقة هي ان التعاون الاقتصادي لا يمكن ان يجيء بدون مقدار من التعاون السياسي ، فترميم اللاجئين على مستوى المنظومة يعتبر عملا سياسيا من الدرجة الاولى .. » .

يسعى الكاتب من وراء اقتراحه الى الامور التالية : ١ ـ حل قضية اللاجئين الفلسطينيين ضمن اطار الدولة الفلسطينية والدولة الاردنية في نطاق « منظومة دول ارض اسرائيل » . ٢ ـ المحافظة على النظام الهاشمي في نطاق دول المنظومة وحمايته . ٣ ـ منح الشعب الفلسطيني من خلال الاطار الآنف الذكر صفة الدولة . ٤ ـ منح اسرائيل من خلال السوق المشتركة ، دورا رئيسيا في بناء اقتصاد دول المنظومة وربطه بالاقتصاد الاسرائيلي النامي ، والاطلال بعد ذلك ومن خلال دول السوق العتيدة الى بقية الاقطار العربية . ٥ ـ اشباع رغبات ومطامح الاسرائيليين في التواجد على جميع ارجاء « أرض اسرائيل ».

الى جانب هذين التصورين لكاتبين اسرائيليين ، التصور الاول يمنح السكان العرب « الاصليين » وليس العرب « المهاجرين » حق العيش في « ارض اسرائيل » فلسطين والتصور الاخر يرى ان الحل يكمن في اقامة « منظومة دول ارض اسرائيل » هنالك تصور اخر تجاه الدولة الفلسطينية ، ويعالجها من منظور اقتصادي سياسي ولا يرى امكانية لقيام دولة فلسطينية « عادية مستقلة » فحول التساؤل هل يمكن قيام دولة فلسطينية عادية ومستقلة ؟ اجاب كاتب اسرائيلي بثقة بالنفي ، في مقالة تحت عنوان « فلسطين في الضفة دولة او معسكر عمل كبير » (دافار ٧٤/٤/١٢) حين توصل تيدي برويس الى تلك النتيجة . في مطلع تلك المقالة يعترف الكاتب بأن الظروف قد فرضت القضية الفلسطينية على المجتمع الاسرائيلي بعد تجاهل استمر لمدة طويلة « على الرغم من ان رئيسة الحكومة اكثرت في السابق ـ الان اقل ـ من السؤال ، في كل مناسبة ذكروا امامها الفلسطينيين ، « من هم » فان احتمال ـ خطر ـ قيام دولة كهذه اكثر من عدم قيامها . والكل يتساءل اذا ما كانت دولة كهذه تشكل تهديدا لكيان اسرائيل بالذات او اذا كان من المستحسن ان تقوم الىالشرق من اسرائيل؟ وبعد ان يتطرق الكاتب الى اقتصاد الضفة الغربية والقطاع يرى كزميله شفايتسر بأن الدولة المقترحة لا يمكن ان تكفي نفسها اقتصاديا ، ولذا فان

امامها خيارين ، الاول الارتباط باسرائيل وبهذا تصبح بمثابة « سوق عمل كبير لاسرائيل » ويحمل هذا الخيار بثناياه السلام ، والثاني الاعتماد اقتصاديا على عناصر خارجية ، وهذا الخيار يحمل بين طياته نسفا للسلام ! يقول في هذا الخصوص: تكفي نظرة بسيطة لكي نــدرك بان المستقبل الاقتصادي لفلسطين ليس اقتصاد بلد من القشطة والعسل ... ان هذه الدولة ستكــون فقيرة ، وتشير المعطيات الى امكانيتـين فقـط : الاولى استمرار الروابط الاقتصادية مع اسرائيل ،الثانية الاعتماد على استيراد الاموال التي ستتدفق كمــا يبدو باحجام كبيرة الى الدولة الجديدة . ان عملية الحسم بين هذين البديلين ترتهن بالقـــرارات السياسية التي ستتخذها الزعامة الفلسطينية والمؤسسة العربية العالمية ، فاذا ما تقرر العودة الى وضع اللاحرب واللاسلم مثلما كان الوضــع عليه حتى يونيو ١٩٦٧ فسيرتسم البديل الثانــي (ارتباط اقتصادي بالاوساط الاجنبية) واذا مــا ابقوا الحدود مفتوحة مع اسرائيل — على افتراض ان اسرائيل لا تعارض ذلك ، سيستمر بشكل عام الوضع الذي تطور في غزة والضفة الغربية منذ يونيو ١٩٦٧ . ان الخيار الثاني سيبقي فلسطين كمعسكر عمل كبير يعيش على تصدير خدماتــه ، ولكنه يجلب معه السلام الى المنطقة ، اما الخيار الاول فانه يحمل بين طياته براعم حروب أخرى وازمات اجتماعية خطرة في الدولة الجديدة » .

الدعوات المطالبة بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية : نعود الان لالقاء الضوء عــلى الدعوات المطالبة بشكل ضمني او علني للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وتجدر الاشارة هنا ان قضية التفاوض مع الفلسطينيين او منظمة التحرير بالذات لم تعد القضية التي يفرز مــن خلالها اليمين الصهيوني او اليسار الصهيوني ، فهنالك اصبح عدد من كلا الطرفين يدعو للتفاوض مع « الفلسطينيين » وفي بعض الاحيان وبصراحة اكثر مع منظمة التحرير الفلسطينية مثل يهوشفاط هركابي يمين وسط صهيوني ونفتالي بن موشيه ونتان يلين مور من اليسار الصهيوني .

يعتقد نفتالي بن موشيه (مبام) في مقالة نشرت له تحت عنوان « القضية الفلسطينيــة تغلي » (عل همشمار ٧٤/٣/١٠) ان القضية الفلسطينية هي اساس الصراع في المنطقة ثم يأخذ في انتقاد المسؤولــين الاسرائيليــين لموقفهم من الكيسان الفلسطيني وتجاهلهم للشعب الفلسطيني ، وكذلك انتقاد السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، ليقرر بعد ذلك انه « عقب حرب اوكتوبر انهارت كثير من المفاهيم ، ومن بينها المفهــوم الســائد والقائل بانه من الممكن تجاوز العامل الفلسطيني » ليصل الى القول بان ذهاب منظمة التحرير الـــى جنيف وتفاوضها مع اسرائيل على اساس قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ يعتبر نصرا سياسيا لاسرائيل ، ولذا فانه يطلق تساؤلا : « هل يمكن ان يكون هنالك نصر اكبر بالنسبة لاسرائيــل والصهيونية مــن استعداد منظمــة التحريــر الفلسطينية لاجــراء مفاوضات مع اسرائيل على اساس قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ؟ الا ينطوي ذلك بعد حدوثه على اعتراف في اسرائيل وحدود الهدنة ، وتنصل من سراب قيام «فلسطين» على انقاض اسرائيل؟» .

ومن هنا فان الكاتب يرى بان « النصر الاكبر » لاسرائيل الناجم عن ذهاب منظمة التحرير الـــى جنيف هو من بين الاسباب الرئيسية التي « تدعــو الى الاعتقاد بان منظمات التخريب المتصارعة فيما بينها سترفض الذهاب الى مؤتمر جنيف » واذا ما حدث ذلك فانه يدعو السلطات الاسرائيلية بان لا تجلس مكتوفة اليدين ، بل تعمل بشكل فعال لخلق معتمدين فلسطينيين جــدد من صفوف « عــرب المناطق » ومع ذلك فانه لا يستبعد احتمال قيــام منظمة التحرير في « نهاية المطاف » بالموافقــة على حضور مؤتمر جنيف ، ويتمنى على اسرائيل ان لا تدير ظهر المجن لهذه الموافقة « هنالك احتمــال معقول اخر ، بان تحسم في نهاية المطاف الاغلبية الاكثر تساهلا بين المنظمات الفلسطينية الامــر ، وتنضم الى مباحثات جنيف ، وفي هذه الحالة فان رفض اسرائيل الجلوس معها والاعتراف بتمثيلهــا قد يخلق حالة حبلى بالكوارث بالنسبة لاحتمالات السلام بشكل عام ، ونكون نحن قد اخذنا علــى كاهلنا مسؤولية نسف المباحثات مع كل الاحتمالات المتعلقة بذلك — مقابل رأي عالمي يوجه الينــا اصبع الاتهام » . ليخلص الى دعوة الاسرائيليين للتخلي عن سياسة « الرفض المطلق » لقيام دولة فلسطينية في الضفة والقطاع و « ان نستمر في قوة وفهم لتأمين تحقيق مطالبنا الملحة : تعديلات امنية على الحدود ، تجريد من السلاح ، حدود مفتوحة

وتعاون اقتصادي » ويعود مرة اخرى وينصح حكومة اسرائيل « بان تدرك بانه لا يمكن التغاضي بعد الان عن العامل الفلسطيني وتجاوزه ، ذلك انه عامل ديناميكي في كل مفاوضات وفي كل تجسيد لترتيبات السلام مع العرب . وهذا الواقع يتطلب منا الانفصال عن الماضي وبلورة سياسة جديدة ديناميكية فعالة للقضايا المركبة الملحة الماثلة امامنا » .

واذا كان نفتالي بن موشيه قد ركز على «النصر الاكبر » لاسرائيل اذا ما ذهبت منظمة التحرير الى جنيف ، فان نتان يلين مور لم يركز في مقالته « تبدل فلسطين » (هآرتس ٧٤/٣/١٨) على ذلك وانما تعداه وركز على الزعم القائل بان الروح السائدة في منظمة التحرير وليس تصريحاتها المعلنة لا تتنافى ووجود الكيان الاسرائيلي ، في محاولة لاقناع القراء وكذلك دفع السياسة الاسرائيلية الى الوقوف على الفوائد الكامنة من وراء حضور منظمة التحرير الفلسطينية مؤتمر جنيف .

لقد صور الكاتب في مقالته بان هنالك تبدلا في موقف منظمة التحرير واستشهد على ذلك بظهور وفد عن المنظمة في شباط الماضي في روما للاشتراك في الاجتماع التحضيري للمؤتمر الدولي من اجل السلام والعدل ، الى جانب وفد اسرائيلي. ويبدو ان يلين مور لم يقتنع بان الاستشهاد الذي اورده يشير الى « التبدلات العميقة الجارية في المنظمة » ذلك انه يمكن ان يكون هنالك من بين الاسرائيليين من يرى بان ظهور وفد عن منظمة التحرير في المؤتمر الدولي يدل قبل كل شيء على مدى النجاح الذي احرزته منظمة التحرير بين الاوساط المستنيرة والتقدمية في العالم ، خاصة وان المؤتمر استثنى حضور الحزب الحاكم الاسرائيلي وكذلك الاحزاب اليمينية واقتصر الحضور الاسرائيلي على الاحزاب والاجنحة المعارضة للسياسة الرسمية تجاه المناطق المحتلة . لذا فانه قفز الى موضوع اخر لاثبات بان هنالك تبدلات عميقة تجري داخل منظمة التحرير ، واخذ يركز وبشكل مسهب على الاحاديث والاتصالات الشخصية التي ذكر بانها قد جرت بينه وبين اعضاء الوفد الفلسطيني ، ليخرج باستنتاج بان هنالك تبدلات حقيقية تدور بين اوساط المنظمة ، ومن هنا فانه يدعو اسرائيل الى التوجه نحو منظمة التحرير لحل القضية الفلسطينية قبل ان يفوتها القطار خشية ان يحدث معها ما حدث لفرنسا في الجزائر حين كانت تصر على البحث عن زعامات جزائرية تقليدية بدل الاتصال مع « المعتدل فرحات عباس » . يقول نتان يلين مور حول ذلك : « ان هذه التبدلات تحمل البشائر لكل من يسعى الى حل سلام للصراع مع اسرائيل وجاراتها ، والذي يعتبر فيه الفلسطينيون طرفا اساسيا وهذا الامر يتعلق بشكل كبير على قرار اسرائيل . لن يكون هنالك تقدم اذا ما تعلقت اسرائيل باحلام التجزئة في العالم العربي حيث يترك الفلسطينيون لوحدهم ، كذلك فان الركض وراء الوجهاء في الضفة والقطاع في اقتراح لحكم محلي لا ينطوي على شيء في عام ١٩٧٤ . انهم سيرفضون الاقتراح ولن يستجيبوا للتوسلات ولا حتى للتحذيرات . كذلك فان حكومة فرنسا كانت هي ايضا على استعداد لتدفع الى سدة الحكم العناصر الجزائرية المعتدلة بغرض ردع ثورة دعاة الاستقلال ، لقد اقدمت على ذلك متأخرة ، عندما كان الصيدلي فرحات عباس المعتدل رئيسا لجبهة التحرير الجزائرية. فهل تتأخر اسرائيل عن الموعد هذه المرة ايضا ؟ بعد قليل ستبقى وحيدة في عدم اعترافها بالفلسطينيين وفي موقفها الذي سينهار عاجلا وليس اجلا » .

اما الكاتب الاخر الدكتور يهوشفاط هركابي ، وهو من عداد الفئات الصهيونية اليمينية ، خبير في شؤون الشرق الاوسط ، وله يد طولى في بلورة مفاهيم الجناح اليميني من حزب العمل تجاه القضايا العربية ، فقد غدا هو الاخر يرتأي ضرورة « التفاوض مع الفلسطينيين وعلى رأسهم منظمة التحرير الفلسطينية » لثلاثة اسباب يوردها في مقالة له تحت عنوان « حساب النفس القومي » (٧٤/٤/١٩ معاريف) .

١ ــ لاعتقاده بان السير على منوال الموقف المعلن لاسرائيل تجاه الفلسطينيين عمل خاطىء . يقول في هذا المجال : « يبدو لي ان الموقف الاسرائيلي المعلن والمتمثل في عدم الاستعداد لاجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية هو خاسر ، فقد اعترفت حوالي مئة دولة في منظمة التحرير وينبغي علينا ان لا نلعب تجاه هذه القضية لعبة النعامة. ان اشتراكها في المفاوضات لا ينطوي على اعترافنا بها كممثلة وحيدة للفلسطينيين » .

٢ ــ لاعتقاده بان موقف منظمة التحرير غدا

اكثر اعتدالا ومرونة ويتسم بالغموض تجاه الكيان الاسرائيلي . ويذكر ان منظمة التحرير درجت على اتباع « الحيل » المتمثلة في قيام احد المتحدثين بالادلاء بتصريح بروح معينة ليقوم متحدث اخر اخر بتكذيبه ، من اجل خلق انطباع في العالم يبدو معه وكأن منظمة التحرير قد غيرت من موقفها تجاه الكيان الاسرائيلي . ويذهب هركابي أكثر من ذلك ، حيث يدعي « بأن الفلسطينيين يستمتعون بايراد استشهادات من اقوال الاسرائيليين تؤيد ان الفلسطينيين قد غيروا من موقفهم وهم على استعداد لتسوية سلام مع اسرائيل » ولم يوضح لنا الدكتور الذي انقلب فجأة وغدا يطالببالتفاوض مع منظمة التحرير من هم هؤلاء الفلسطينيون الذين يستمتعون بـ ... ليطالب بعد ذلك لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست دراسة الاقوال الصادرة من قبل اسرائيليين والتي من شأنها افادة العرب ! (أنظر البند ١٥ من المقال آنف الذكر الذي كتب على شكل مذكرة) .

٣ ــ لاعتقاده بان ذلك من شأنه ان يمنح اسرائيل ورقة يمكن من خلالها ان تساوم بها الفلسطينيين والنظام الاردني معا . حول ذلك يقول : «ان الشروع في مفاوضات مع الفلسطينيين ينطوي على قيمة بالنسبة لموقفنا تجاه الاردن ، ذلك ان امكانية المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ستمنحنا ورقة ضد الاردن الذي لم يتخوف حتى الان من منافس . يوجد لدينا هنا امكانية للعب بين الاردن والفلسطينيين ، ليست متوفرة بالنسبة للعلاقات مع دول عربية اخرى » .

للاسباب الانفة الذكر وبالاضافة الى موقفه المعروف والذي ثبته في مقالته والقائل بأن احتمال قيام سلام حقيقي بين الدول العربية واسرائيل ضئيل جدا ويكاد يكون معدوما بسبب الهوة الشاسعة بين المواقف ، يرى هركابي انه « يبدو لي اننا نتصرف بتعقل اذا ما اعربنا عن موافقة مبدأية للتباحث حتى مع الفلسطينيين ، وعلى رأسهم منظمة التحرير الفلسطينية ، من خلال عرض مطلب بان يثبت في الاتفاق بشكل واضح ان السلام هو نهاية الصراع (اي نوع من السلام هذا اذا ما استمر الصراع بعده ؟) وان الاتفاق يشكل اعترافا في العيش سوية مع اسرائيل » .

وجهة نظر المسؤولين الاسرائيليين : اذا كان هركابي يتصور ان أعتراف اسرائيل بمنظمة التحرير ينم عن « مسلك متعقل » فاننا لا نعرف الصفة التي يضيفها الى كلمة « مسلك .. » بالنسبة للمسؤولين في اسرائيل الذين يصرون على عدم الاعتراف بها . فرئيس الحكومة الجديد يتسحاق رابين يرى في برنامج حكومته « ان اسرائيل لن تذهب الى التفاوض في جنيف مع منظمات ارهابية بصفتهم مشتركين او كمراقبين » كما وانه يرفض مجرد دعوة المنظمات الفلسطينية الى جنيف « ان اسرائيل ترفض دعوة ممثلين عن المنظمات التخريبية والارهابية كمشتركين او مراقبين » ، كما وان الرجل الثاني في الحكومة يجال الون لا يزال متمسكا في مشروعه الذي يحمل اسمه ويرى ان اي حل لقضية الشعب الفلسطيني يجب ان يكون من خلال المفاوضات مع الملك حسين . واكثر شيء وصل اليه المسؤولون حتى الان تجاه التمثيل الفلسطيني هو ان يرتدي المسؤولون في المقاومة الفلسطينية الزي الملكي الاردني ومن ثم التوجه الى جنيف من قصر رغدان او بسمان بتوجيهات من جلالته ، كما يريد او ــ لا يعارض ــ وزير الشرطة شلومو هليل .

بالرغم من كون القضية الفلسطينية تشكل الحلقة المركزية للصراع في المنطقة الا ان رابين يرى بان مفتاح السلام او الحرب في يد الانظمة العربية وان قضية السلام والحرب هي رهن « العلاقات الاسرائيلية العربية وليست رهن العلاقات مع الفلسطينيين » كما ويرى ان مصر هي الدولة العربية الرئيسية التي يمكن لها ان تقطع شوطا بعيد المدى في قضية السلام والحرب، ويتحكم في هذا الفهم لرئيسة الحكومة الاسرائيلية الجديد تصور ومحاولة ، تصور بان الصراع مع الدول العربية يدور حول حدود ، بينما يدور الصراع مع المقاومة الفلسطينية حول كيان ، ومحاولة لانهاء وطمس الصراع الثاني من خلال ايجاد حل للصراع الاول ومع ذلك يبقى التصور والمحاولة مرتهنين بانحسار عاملين اساسيين (١) انحسار ووهن حركة التحرر داخل مصر وسائر المناطق العربية بما في ذلك المقاومة الفلسطينية (٢) زوال شهوة التوسع الاسرائيلي في الاراضي العربية غير الفلسطينية .

اما فيما يتعلق بمصير الشعب الفلسطيني ، فانه يرى ضرورة ايجاد حل له ضمن الاطار

الاردني ، ويعارض اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة « لان اقامة دولة فلسطينية منفصلة عن الاردن لن تكون الا بمثابة قنبلة زمنية مؤقتة تؤدي الى اندلاع حرب عربية اسرائيلية جديدة ». واذا كان رابين يرى ان مفتاح الحل بين الانظمة العربية وليس بيد الفلسطينيين ، فانه يرى أن من مصلحة اسرائيل استمرار قيام نظام الملك حسين للدور الذي يقوم به « ذلك لان النظام الهاشمي لا يمكن عناصر الارهاب الفلسطينية من استخدام الاردن كقاعدة عمل ضد اسرائيل ، ويحول دون تواجد سوفييتي في المنطقة » (دافار ٧٤/٥/١٧) .

اما الرجل الثاني في جهاز الحكم الاسرائيلي يجال الون فلا يختلف كثيرا عن رابين من حيث المنظور العام تجاه القضية الفلسطينية ، فهو يرى كما ورد في مقالة له نشرت في مجلة « بمفنيم » الناطقة باسم الكيبوتس الموحد عند مطلع ايار الماضي : « ان السابقة التي نجمت في اعقاب المفاوضات مع مصر ستسهل على الاردنيين الشروع في مفاوضات علنية مع اسرائيل . ويمكن التوصل حتى ولو تحت نفس العنوان « فصل القوات » الى حلول متعددة ومختلفة » واشترط ان تكفل التسوية مع الاردن الامور التالية : « ١ — منع تحشد قوات نظامية ، والحيلولة دون خطر اندلاع حرب جديدة . ٢ — خلق اتصال تليفوني مباشر ودائم بين القادة في المناطق المختلفة وتحديد ترتيبات مراقبة مشتركة ومتبادلة لضمان حرمة الاتفاق . ٣ — منع تجدد الاعمال الارهابية والتخريبية على ضفتي الاردن ٤ — العمل على تقليص تأثير الدعاية المتطرفة لمنظمات الارهاب وانصارها على الرأي العام الفلسطيني في الضفة الغربية » .

واذا استثنينا البند الاول من اتفاق « فصل القوات » مع الاردن الذي يقترحه الون نجد انه اقرب الى الاتفاق العسكري بين النظام الاردني واسرائيل بغرض مواصلة قهر الشعب الفلسطيني، منه الى اتفاق فصل للقوات ، خاصة وانه ليس هنالك ما يستدعي فصلها ! وعلى الرغم من ذلك فان الون لا يستبعد ان يخلق ظرف معين تتكون فيه مصلحة مشتركة لاسرائيل والاردن و «للجمهور الفلسطيني البناء» حيث يصل الجميع الى اتفاق ، ولكن من خلال خريطته المشهورة . ولكيلا يعتري القارىء شك بانه في هذه المبادىء قد تخلى عن مشروعه ، يقرر الون : « يبدو لي انه يتوجب علي ان اضيف بانه من الناحية المبدأية لا يوجد تناقض بين ما هو مقترح هنا ، وبين المشروع الذي لم انسحب منه ولا زلت اتمسك به ، بل العكس ، ان كل ما هو مقترح هنا يجيء ضمن اطاره » .

أما وزير الداخلية والشرطة شلومو هليل فيعتقد، كزميله ، بان حل القضية الفلسطينية ينبغي ان يكون داخل الاطار الاردني ومن خلال اتفاق مع النظام الهاشمي لاعتقاده بان اية تسوية « ينبغي ان تكون بيننا وبين صاحب السيادة الرسمي للمناطق ، واذا لم تكن التسوية كذلك فانها لن تكون عملية » (أنظر المقابلة الصحفية للوزير مع معاريف ٧٤/٤/٢٨) . وبخصوص الحل النهائي لقضية الفلسطينيين فيرى انه ينبغي ان يتم في المناطق التي ستنسحب منها اسرائيل في الضفة الغربية وعلى جميع الضفة الشرقية لاعتقاده بأن حقوق الشعب الفلسطيني على الضفة الشرقية لا تقل عن حقوقهم على يافا وتل ابيب ! « اننا نقول بان حل قضية الشعب الفلسطيني يمكن ان يتأتى في نفس الجزء من الضفة الغربية الذي لن يكون في ايدينا وفي جميع الضفة الشرقية التي تعتبر حقوق الفلسطينيين عليها لا تقل عن حقوقهم على يافا وتل ابيب . وعليه ، ستكون الاردن دولة تجمع بالفعل ثلثي الشعب الفلسطيني ، وهكذا يكون ثلثا شعب الاردن من الفلسطينيين ... »

ومع ان هليل يصر على ان يكون الاتفاق مع النظام الاردني الا انه لا يعارض اذا ما ارتأى النظام ارسال احد قادة المقاومة حتى ولو كان ياسر عرفات للتفاوض في جنيف مع اسرائيل ، بحجة انه لا يملك ان يفرض على الملك من يرسل للتفاوض ، ولكنه يصر على ان لا يأتي تحت « عنوان منظمة الارهاب » او كما يقول : « اننا على استعداد للجلوس ايضا مع ياسر عرفات على مائدة المفاوضات في جنيف ، ولكن فقط اذا جاء الى هناك كممثل للاردن . اننا لا نملي على الاردن من يمثلها ، ومن ناحية اخرى اننا لسنا على استعداد للتباحث مع اي فلسطيني اذا جاء تحت عنوان منظمة الارهاب » .

شهريات

(١) القضية الفلسطينية دوليا

كان الشهر الماضي شهر الدبلوماسية الاميركية في الشرق الاوسط بلا منازع . اذ بعد ٣٣ يوما امضاها كيسنجر بالتنقل المستمر والسريع بين تل ابيب ودمشق توصلت وساطته الى اتفاق حول فصل القوات في الجولان بين الدولتين المعنيتين . وللتأكيد على اهمية هذا الحدث قام الرئيس الاميركي نيكسون باعلان نبأ التوصل الى الاتفاق بنفسه في بيان اذاعه مساء ٢٩ ايار ١٩٧٤ معلنا ان المثلين العسكريين لسوريا واسرائيلسيوقعون الاتفاق في جنيف يوم الجمعة ٣١ ايار ضمن اطار فريق العمل العسكري المصري — الاسرائيلي في مؤتمر جنيف والذي انضمت اليه سوريا على اثر نجاح مهمة كيسنجر . واعتبر الرئيس نيكسون الاتفاق انتصارا دبلوماسيا بالغ الاهمية ووجه تحيته وتهنئته الى كل من الحكومتين السورية والاسرائيلية ، وعبر عن أمله في ان يكون الاتفاق خطوة على طريق ايجاد تسوية سلمية دائمة في المنطقة مشيرا الى ان عقبة كبيرة امام التسوية الدائمة قد ازيلت الان ووصفها بقوله « انها كانت اصعب عقبة » بسبب « الخلافات التي كانت قائمة لفترة طويلة بين سوريا واسرائيل » . واكد ان بلاده ستتابع مبادراتها الدبلوماسية وستعمل مع كل حكومات المنطقة لتحقيق التسوية الدائمة والسلام الدائم .

ويدعو الاتفاق الى اقامة منطقة عازلة مجردة من السلاح بين الجيشين تمتد من جبل الشيخ عبر مدينة القنيطرة الى المنطقة الجنوبية الشرقية حول الرفيد . وستتمركز القوات الدولية لمراقبة اتفاق فصل القوات فيها والتي سيبلغ عددها حوالي ١٢٠٠ عنصر . وتم الاتفاق على اقامة مناطق محدودة التسليح على جانبي المنطقةالعازلة بالاضافة الى ترتيبات لتبادل الاسرى . ولم يتضمن الاتفاق اية اشارة الى خطر العملالفدائي من منطقة الجولان ضد اسرائيل وهي مسألة كانت تصر اسرائيل على انتزاع اعتراف بها من سوريا اثناء المفاوضات . الا ان الولايات المتحدة قدمت تأكيدات لاسرائيل بانها ستعتبر اية عمليات فدائية عبر الجولان بمثابة خرق لوقف اطلاق النار وستقدم كل الدعم السياسي الكامل لاسرائيل في اية عمليات تقوم بها للرد على الغارات الفدائية المحتملة . ويعني الاتفاق عمليا على ما يبدو : ١ — انسحاب اسرائيل من الجيب الذي احتلته في حرب تشرين الاخيرة . ٢) الانسحاب من منطقة القنيطرة بحيث تستعيد سوريا هذه المدينة المحتلة تحت ادارة مدنية وبدون حق ادخال اية قوات اليها باعتبارها جزءا من المنطقة العازلة . ٣) باستطاعة السكان الذين نزحوا عن هذه المناطق العودة اليها . ٤) انسحاب اسرائيل من مدينة الرفيد وبعض القرى في تلك المنطقة . ٥) تخلي اسرائيل عن اثنين من المواقع الاربعة التي تحتلها في جبل الشيخ لمصلحة الامم المتحدة. ٦) بقاء التلال الاستراتيجية المشرفة على القنيطرة بيد القوات الاسرائيلية مع الاخذ بعين الاعتبار وقوعها ضمن اطار المنطقة المحتلة المحدودة التسليح . ٧) قيام طائرات الاستطلاع الاميركية برحلات فوق منطقة الجولان للتحقق من تقيد كل من الطرفين ببنود اتفاقية الفصل وتنفيذ نصوصها . ٨) ذكرت مصادر اميركية بأنه لا يحق لاي من الطرفين الاحتفاظ باكثر من ستة الاف جندي في المنطقة المتقدمة من الجبهة وان وجود المدفعية الثقيلة محظور على عمق ١٢ ميلا ووجود صواريخ ارض — جو محظور على عمق ١٥ ميلا. ٩) اشارت هذه المصادر الى ان الولايات المتحدة

ارتبطت بتعهدات سرية مع كل من الجانبين . وقد اكدت جولدا مائير وجود بروتوكولات سرية بين اسرائيل والولايات المتحدة تتعلق باتفاق فصل القوات .

وجدير بالذكر انه في الوقت الذي تم فيه الاعلان من اتفاق فصل القوات كان الوزير السوفياتي جروميكو موجودا في دمشق . وقد صدر بيان صحافي عن زيارته تطرق الى الاتفاق المذكور محددا وجهة النظر السورية — السوفياتية في فهمها لمعنى الاتفاق وتفسيره ومغزاه . أكد البيان : ١) ان مسألة فصل القوات في الجبهة السورية ليست الا خطوة اولى وجزءا لا يتجزأ من الحل الشامل للنزاع في المنطقة . ٢) تطابق مواقف الجانبين السوري والسوفياتي وخاصة بالنسبة الى اعتبار الانسحاب الاسرائيلي التام من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني الاساس الذي لا بديل عنه لاي حل عادل لمشكلة الشرق الاوسط والذي لا يمكن بدونه تحقيق مثل هذا الحل . ٣) ان التوصل الى اتفاق فصل القوات يعني ضرورة المبادرة فورا الى اتخاذ الاجراءات اللازمة من اجل التوصل الى الحل الشامل والعادل الذي يؤمن تنفيذ قرارات الامم المتحدة. ٤) تأكيد الجانب السوري ضرورة اشتراك الاتحاد السوفياتي في كل مراحل الحل وميادينه . وتأكيد الجانب السوفياتي ثبات تأييدهم الشامل لسوريا في نضالها من اجل ازالة اثار العدوان الاسرائيلي وتأكيد الجانبين معا لعلاقات الصداقة المتينة القائمة بين البلدين وبين شعبيهما وعزمهما على عدم السماح لاي جهة بالنيل من العلاقات الوطيدة والصداقة المتينة بين البلدين .

وفي ١٣ ايار تم توقيع الاتفاق* بالاحرف الاولى في جنيف في اجتماع رأسه قائد قوات الامم المتحدة في منطقة الشرق الاوسط وحضره رئيس الوفد الاميركي ورئيس الوفد السوفياتي الى مؤتمر السلام في جنيف . هذا بالاضافة الى ممثل مصر في فريق العمل العسكري المصري — الاسرائيلي والممثل الشخصي للامين العام لهيئة الامم . وعلى اثر الانتهاء من التوقيع بدأ عمل مجموعة العمل العسكرية المصرية — السورية — الاسرائيلية برئاسة الجنرال سيلاسفيو للبحث في الجوانب العسكرية المحض والتفاصيل الفنية لتنفيذ اتفاق فصل القوات . ويشمل عملها تحديد المراكز الاسرائيلية الجديدة بعد الانسحاب من المناطق المعنية ، وتحديد مراكز قوات الامم المتحدة ، ومراكز تقدم القوات السورية الى الاماكن التي ستتسلمها ، بالاضافة الى موضوع البحث من جثث القتلى التي ما زالت متروكة على ارض المعركة . وقد حضر الاجتماعات مراقبون من قبل الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على خلاف ما حدث بالنسبة للاجتماعات المشابهة التي جرت عند تنفيذ فصل القوات في جبهة قناة السويس . وفي ٥ حزيران أنهت مجموعة العمل هذه اعمالها وتم التوقيع على الوثائق المتفق عليها لتنفيذ اجراءات فصل القوات .

على اثر انتهاء مهمته في دمشق انتقل كيسينجر الى القاهرة حيث قابل الرئيس السادات الذي أعلن على اثر اجتماعه بالوزير الاميركي انه مهما كانت المقاييس فلا شك ان الدكتور كيسنجر قد حقق معجزة مرة اخرى ، واضاف السادات قائلا « انا فخور بما قام به لانه صديقي واخي » . كما أشاد الوزير الاميركي بدور الرئيس السادات في تمهيد الطريق امام نجاح فصل القوات في الجولان. وقد أكد كلاهما بأن ما جرى حتى الان ليس سوى خطوة على طريق السلام العادل في المنطقة . بالاضافة الى ذلك تم الاتفاق على تشكيل لجنة مصرية — اميركية مشتركة لدرس كل مجالات التعاون بين البلدين . وستكون اللجنة برئاسة كيسنجر نفسه ووزير خارجية مصر اسماعيل فهمي. وستشمل مجالات التعاون الميادين الاقتصادية والعلمية والثقافية . وقد صدر بيان مشترك حول هذا الاتفاق ذكر بأن هذه اللجنة المشتركة ستمكن البلدين من وضع برامج بعيدة المدى لخدمة المصالح المتبادلة بينهما .

ومن ناحية اخرى ذكرت مصادر دبلوماسية اميركية مطلعة (« النيويورك تايمس » ، ٨ حزيران ١٩٧٣) ان الحكومة الاميركية تعهدت لاسرائيل بتطبيق سياسة جديدة تجاهها في مجالات التسليح توامها بالا تخضع شحنات الاسلحة الاميركية

---

* نص الاتفاق الحرفي موجود في مقال المقدم الهيثم الايوبي صفحة ١٣ من هذا العدد .

المخصصة لاسرائيل لقرارات سنوية بل ان يمتد الالتزام بذلك لفترة خمس او عشر سنوات . وقد أكد كيسينجر هذه المعلومات في المقابلة التي اجراها مع لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ . وبين كيسينجر ان بلاده ستضع في تصرف دول الشرق الاوسط مبلغ مليار دولار ضمن اطـــار برنامج المساعدات الاميركية الخارجية تحصل منها اسرائيل على ٣٥٠ مليون دولار والاردن على ٢٠٧ ملايين دولار ومصر على ٣٥٠ مليون دولار وسوريا ١٠٠ مليون دولار . ويفترض في بعض هـــذه المساعدات ان يتم انفاقه على اعادة تعمير مدينة القنيطرة ومدن قناة السويس . وكان من النتائج الاخرى لاتفاق فصل القوات البحث في اعـــادة العلاقات الدبلوماسية بين سوريا والولايات المتحدة في المستقبل القريب وقيام نيكسون بزيارة دمشق اثناء جولته القادمة في المنطقة .

وقد علق الرئيس الاسد على اتفاق فصل القوات في مقابلة اجرتها معه مجلة « نيوزويك » الاميركية في الاسبوع الاول من حزيران قائلا ان ســـوريا واسرائيل لم تقدما أية تنازلات اذ ان الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية جاء وفقا لقراري مجلس الامن رقم ٣٣٨ و٢٤٢ وهذا لا يشكل تنازلا بل يعني « ان اسرائيل بدأت تتيقن من ان الاحتلال لا يوفر لها الامن » . واشار الرئيس السوري الى ان بلاده تنظر الى الاتفاق على انه جزء من الحل الدائم وكخطوة نحو التطبيق الكلي لقرارات الامم المتحدة الذي يعني الانسحاب الاسرائيلي الكامل وضمان الحقوق الفلسطينية . وقد اثنى على جهود كيسينجر الضخمة ، على حد تعبيره ، بقوله انه « لم يكن من الممكن تحقيق ما تم بدونه » . واشار الى ان محادثاته مع كيسينجر لم تتركز بصورة كثيفة على العناصر الضرورية لاقامة سلام حقيقي في المنطقة ، بل تركزت على موضوع فصل القوات ولذلك من المتوقع اجراء المزيد من المحادثـــات بالنسبة للمستقبل .

ومن ناحية اخرى عقد كيسينجر مؤتمرا صحافيا في آخر الاسبوع الاول من حزيران كرسه بصورة رئيسية لمشكلة الشرق الاوسط والسياسة الاميركية ازاءها . وكان أهم ما جاء في مؤتمره ما يلي :

(١) ايضاح العبارة الشهيرة التي كان قـــد تفوه بها في مؤتمر صحافي سابق حول « طـــرد السوفيات من مصر » ، قال كيسينجر موضحا بأن قصده كان « طرد الجنود السوفيات من مصر » اذ من الواضح ان للاتحاد السوفياتي كدولة كبرى مصالح عالمية وخاصة في الشرق الاوسط . لذلك اكد ان بلاده لا تنوي كما انها غير قادرة على اقصاء النفوذ السوفياتي عن الشرق الاوســط . واكد الدور الذي سيقوم به الاتحاد الســـوفياتي في مؤتمر جنيف للسلام باعتباره الرئيس الاخــر للمؤتمر .

(٢) أوضح ما تردد حول تقديم مســـاعدات اميركية الى سوريا بمقدار ١٠٠ مليون دولار قائلا ان سوريا لم تطلب مثل هذه المساعدة كما ان الحكومة الاميركية لم تلتزم بتقديمها خلال مفاوضات فصل القوات . وكل ما في الامر هو « ان سوريا أصبحت مؤهلة مع دول اخرى لتلقي المساعدات الاميركية من صندوق المتطلبات الخاصة » .

(٣) أكد ما قالته جولدا مائير امام الكنيست حول الضمانات الاميركية بالنسبة « للاعمـــال الارهابية » في مقابل قبول اسرائيل بمطلب سوريا في اعتبار اتفاق فصل القوات شيئا لا علاقة له بالعمل الفدائي . وقال كيسينجر ان بلاده تعتبر « تحرك الارهابيين والهجمات المسلحة عبر خــط وقف اطلاق النار خرقا للاتفاق » كما أكد بأنه ناقش هذا الموضوع مع المسؤولين السوريين .

(٤) ان مفاوضاته لم تتناول قضية الفلسطينيين بعد وان موقف بلاده الراهن هو ان الوفود الى مؤتمر جنيف قد تقررت في الجلسة الافتتاحية تاركا الباب مفتوحا الى حد ما أمام تبديل في هذه الوفود، أي امكانية اشتراك وفد فلسطيني في المؤتمر . ونفى بهذه المناسبة ان تكون أية اتصالات قد تمت بين بلاده والفلسطينيين ، كما قال ان مســـألة تمثيلهم في مؤتمر جنيف لم تبرز بعد .

(٥) بين ان اهتمام حكومته بالمنطقة يتركز بالاضافة الى احراز التقدم في مفاوضات السلام العربية — الاسرائيلية على اقامة علاقة جديدة مع الدول في المنطقة ، على ان تكون علاقة طويلة الامد وعلى اساس جديد . وأكد بهذا الصـــدد ان اميركا ما زالت ملتزمة بأمن اسرائيل الا انه بالامكان ضمان هذا الامن على أفضل وجه اذا

كانت الولايات المتحدة تتمتع بثقة الطرفين . كما أكد ان صداقة الولايات المتحدة لاسرائيل لم تتضاءل ولن تتضاءل نتيجة لصداقتها مع الدول العربية . لذلك ترى حكومته ان افضل اطار لضمان أمن اسرائيل هو الوصول الى تسوية سلمية للنزاع في الشرق الاوسط .

(٦) ان النصوص العسكرية للاتفاق ستظل سرية بطلب من الفريقين .

وكان جوزيف سيسكو مساعد كيسينجر قد عقد مؤتمرا صحافيا في الاسبوع الاول من شهر حزيران كرسه ايضا لمشاكل منطقتنا وكان أهم ما فيه النقاط التالية :

(١) بين ان بلاده اعتبرت حرب تشرين فرصة فريدة لم تتوفر من قبل للتدخل باتجاه تحقيق السلام . وان اتفاق الفصل قد تحقق بفضل التدخل الاميركي من ناحية وتحرك « القوى المعتدلة » في العالم العربي باتجاه السعي الى تحقيق تسوية سلمية من ناحية ثانية معتبرا ذلك « نقطة تحول مهمة جدا في المنطقة » .

(٢) نفى ما كانت قد ذكرته صحيفة «النيويورك تايمز» ، (٢ حزيران) من انه اجتمع الى ياسر عرفات .

(٣) اكد ان مهمة كيسينجر تركزت بصورة رئيسية على موضوع فصل القوات ولم تتطرق بشكل محدد الى موضوع الحدود العربية — الاسرائيلية النهائية . واعترف بأنه على جميع الاطراف مواجهة هذه المسألة في الاشهر القليلة المقبلة .

(٣) أكد ان الجانبين السوري والاسرائيلي اعطيا تاكيدات حول موضوعات معينة وحساسة الى الولايات المتحدة مباشرة عوضا من اعطائها الى الجانب الاخر . كما ان حكومته بادلت هذه التعهدات الثنائية بتعهدات من عندها . وواضح ان الاشارة هنا هي الى موضوع العمل الفدائي او « قضية الارهاب » كما يسميها سيسكو والتي رفض التوسع في الكلام عنها باستثناء القول بأن بلاده تعتبرها « قضية خطيرة جدا يمكن ان تعرض الاتفاق للخطر اذا استمرت » .

(٤) نفى سيسكو ان تكون الولايات المتحدة هي الضامنة للاتفاق لكنه قال بأنها منغمسة فيه مباشرة خاصة وانها الدولة الوحيدة التي تعرف وجهتي نظر الطرفين وتعرف المراحل التي مر بها الاتفاق وتاريخه معرفة كاملة . وأكد انه اذا شعر أحد الفريقين بأن بعض نواحي الاتفاق مبهمة او قد تم خرقها فستكون امركا منغمسة مباشرة في هذه المشكلة .

(٥) أشار سيسكو الى انه لا يمكن ان تتم التسوية الدائمة بدون تلبية « الاهتمامات الرئيسية للدول العربية والمصالح المشروعة للفلسطينيين ». كما أشار الى ان حكومته لم تحدد موقفا نهائيا من موضوع اشتراك وفد فلسطيني في مؤتمر جنيف قائلا ان هذه المسألة راجعة بالدرجة الاولى الى قرار الدول العربية والفلسطينيين .

(٦) نفى أن يكون الاتحاد السوفياتي قد حاول عرقلة الوصول الى اتفاق فصل القوات مبينا ان بلاده هي التي قامت بالدور الاول والاساسي في المفاوضات .

استكمالا للدور الطاغي الذي تقوم به السياسة الاميركية في الشرق الاوسط أعلن البيت الابيض برنامج زيارة الرئيس نيكسون للمنطقة التي بدأت في١٢ حزيران والتي شملت كلا من مصر والسعودية وسوريا والاردن واسرائيل .

صادق جلال العظم

(٢) المناطق المحتلة

في تحليله للاوضاع السياسية الراهنة فـي المناطق المحتلة ، كتب يهود ليطاني في جريـدة هآرتس الاسرائيلية يقول : ان العناصر الوطنية والراديكالية المؤيدة لمنظمات المقاومة فـي المناطق المحتلة « تخشى من مؤامرة بين اسرائيل والاردن والولايات المتحدة... تضع حدا نهائيا للحلم القديم باقامة دولة فلسطينية . وتأييد هؤلاء ممنوح الان لسوريا . وكون سوريا صامدة ومستمرة في القتال، تحولت الى رمز للنضال العربي ضد اسرائيل في نظر تلك الاوساط » . أما عن العناصر المؤيـدة للحكم الاردني فقد وصفها الصحفي الاسرائيلي بأنها تتطلع الى نجاح جهود كيسنجر لتحقيق نصـل القوات . وقال ان الاردن من جانبه يبذل جهودا حثيثة لتوثيق علاقاته بمؤيديه في الضفة الغربيـة « واجتذاب المعارضين بواسطة الاموال والقروض للبلديات والغاء قيود عبور الجسور ... ».

وبالرغم من ان التحليل لا يصيب كبد الحقيقة بدقة ولا يقترب من عناصر الموقف الداخلي فـي المناطق المحتلة بدقة وشمولية ، الا انه يعطي صورة سريعة عن الاهتمام الذي يبذله المواطنون في الضفة الغربية للتعرف على مواقف مختلف الاطراف من المستقبل السياسي لهم .

والى جانب ذلك ، فقد شهدت المناطق المحتلة خلال الفترة القليلة الماضية عددا من الاحداث السياسية والعسكرية ذات الطـابع السـياسي الخاص ، سنحاول رصدها ومتابعتها فيما يلي :

عملية معلوت

بالرغم من أن العملية التي تمت في شمالـي فلسطين يوم الخامس عشر من ايار (مايو) الماضي تقع خارج الضفة الغربية ، الا ان ردود الفعـل الاسرائيلية عليها شملت الضفة الغربية ومختلف مناطق فلسطين المحتلة . وايضا فلقد حدثت ردود فعل عربية في الضفة الغربية ذاتها على اثر النتائج التي أسفرت عنها العملية . واذا كانت صحـف الضفة الغربية لا تستطيع نقل ردود الفعل هذه ، فانها بالتأكيد تحاول الاشارة اليها من خلال حديثها عن ردة الفعل الانتقامية الاسرائيلية ضد مخيمات اللاجئين في لبنان . فقـد كتبت صحيفـة الشعب افتتاحية يوم ٥/٢٢ قالت فيها ، ان تهديدات جولدا مائير بتصعيد الحرب ضد الفدائيين «وتنويـع الاساليب في مواصلة ضرب المنظمات في كل مكان »، انما يكشف عن حقيقة ان الاسرائيليين ، في كل حادث على هذا النحو ، يبحثون عن « نقطة الحدث او الحادث ساعة وقوعه ، بحثا عـن ظواهره القائمة فقط ، اي من سطح الاحداث ، دون التوغل او التغلغل في اعماقه وجذوره لمعرفة الاسباب التي وقع الامر او الحادث او القضية على اساسها ومن جرائها » . وتدعو الافتتاحية في نهايتها الاسرائيليين الى « استخلاص العبرة في استيعـاب متغيرات الواقع الجديد » . وفي عددها التالي تبرز الصحيفة في صفحتها الاولى مقالا لكاتب اسرائيلي يدعو الى الاعتراف بالشخصية الفلسطينية ، وذلك على اثر عملية معلوت . فكأن الصحيفة العربية تقول هنا : ان هذا هو الطريق لمنع تكرار عمليات اخرى على غرار معلوت . فقد نقلت الصحيفة قول الكـاتب الاسرائيلي جدعون جيلات : « يبدو لي انه قد حان الوقت ان تعرف الخطر الكبير الكامن فـي المجابهة مع منظمات غير رسمية وليست لهـا مسؤولية سياسية وعامة » . ويعرب جيلات عن قلقه من « التقدم المستمر في مستوى التنفيذ لدى المنظمات» لعملياتها . ويحدد الكاتب مكمن الخطورة قائلا : « ان نسبة التصعيد التقنـي والبشري لعمليات المنظمات سيتطور ومن الصعب تخمين اية امكانيات ستكون امامها بعد ١٠ — ١٥ سنة . وسجل هذا التوقع المرعب الذي ذكر مؤخرا في الصحف والذي بموجبه سيكون بالامكان لمنظمـات كهذه شراء او صنع قنابل ذرية بدائية وتفجيرهـا في مراكز سكانية » . ثم يطالب على أثر ذلـك « تخفيف حدة المجابهة بيننا وبين الفلسطينيين » ، واجراء الحوار معهم . ولاجراء الحوار يطـالب حكومة اسرائيل :

« ١ — الاعتراف بالشخصية الفلسطينية .

٢ — طلب اعتراف المنظمات باسرائيل .

٣ — دعوة لحوار فلسطيني — اسرائيلي » .

وتنقل صحف الضفة الغربية كذلك بعض ردود الفعل الاسرائيلية على صعيد الضفة الغربية .

فتبرز صحيفة الشعب بعنوان رئيسي « العودة للعمل بنظام منع التجول ليلا » وتقول ان منع التجول فرض في منطقة ابو ديس والعيزرية وطريق القدس — اريحا من الساعة السادسة والنصف مساء وحتى الساعة السادسة صباحا . « كما علم ان نظام حظر التجول قد فرض على طريق القدس — بيت لحم من الساعة العاشرة مساء وحتى الثالثة صباحا » .

وكان الحاكم العسكري لرام الله والبيره قد أبلغ جميع رؤساء بلديات متصرفية اللواء الامر التالي :

« ١ — يمنع التجول والسير ما بين مدن المتصرفية ومدينة القدس اعتبارا من الساعة العاشرة مساء وحتى الساعة الثالثة صباحا .

٢ — يمنع التجول والسير بين هذه المدن وجميع الطرق في اللواء ، كما يمنع كذلك بالنسبة لها مع مدن الضفة الغربية على نفس التوقيت في البند الاول .

٣ — يمنع التجول والسير على طريق اريحا اعتبارا من الساعة السادسة والنصف مساء وحتى السادسة والنصف صباحا » .

ومنع التجول على طريق بيت لحم — الخليل ايضا واستمرت عمليات التفتيش الى بدء منع التجول (الشعب ٧٤/٥/٢٣) .

وفي موضع اخر قالت الشعب انه قد اقيمت على جميع مداخل القدس حواجز التفتيش المشتركة بين الجيش وحرس الحدود ، حيث تصطف السيارات في طوابير لتفتيشها والتحري عن هويات ركابها . (الشعب ٧٤/٥/٢٣) . وذكرت صحيفة القدس انه قد ضوعفت حالة الطوارىء القصوى التي اعلنت في مختلف انحاء فلسطين المحتلة بعد اقتحام معلوت . « وقد لوحظت مضاعفة القوات الاسرائيلية بشكل خاص في مدينة القدس ، حيث كانت الدوريات المسلحة تسير في شوارع البلدة القديمة ، بينما كان عدد من السياح الزائرين للمدينة يصورون الجنود الاسرائيليين وهم يضعون أصابعهم على زناد رشاشاتهم الاميركية بتأهب غير اعتيادي بشكل لفت انظار الجميع » (القدس ٧٤/٥/٢٣) .

فصل القوات

تلقى المواطنون وصحف الضفة الغربية اتفاقية فصل القوات على الجبهة الشمالية ، بمشاعر وتعليقات مختلفة ، قالت « الفجر » في افتتاحيتها الرئيسية : « فلنرحب بفصل القوات فهو خطوة على طريق السلام » . وقالت ان اتفاقية الفصل لم تكن لصالح اسرائيل . وذكرت بخطاب لجولدا مائير قبل اسبوعين من ذلك التاريخ قالت فيه انها لن تنسحب « قيد انملة » من هضبة الجولان. ثم تستشهد في معرض تأييدها للاتفاقية بموقف الفئات الصهيونية المتطرفة منه. وشددت الصحيفة على ترحيبها بالاتفاق لانه « سيعيد وحدة الصف العربي التي كادت ان تتزعزع ، كما انه يعتبر انتصارا حقيقيا للحق العربي والسلام العادل وللقوى الديمقراطية داخل الشعب الاسرائيلي . نرحب به لاننا نرى فيه بداية « انفراط » حبات مسبحة الاحتلال ، وبداية التحام حبات حقوقنا الوطنية الفلسطينية . نرحب به لانه سيحرج كل قوى التوسع في اسرائيل ... ولانه سيزيل لبنة من لبنات نظريات التوسع ، ويهدم حلما من احلام الاباطرة الذين يعتبرون لحم شعبنا الفلسطيني مشاعا لمن يريد أن يأكل » (الفجر ٧٤/٦/١) .

أما صحيفة البشير التي نوهت بدورها بالاتفاقية. فقد قالت ان اتفاق الجولان واتفاقية الفصل في سيناء يعتبران من الامور « الثانوية » ومتفرعتان عن القضية الاصل ، الا وهي القضية الفلسطينية التي تمثل القدس جوهرها الاساسي (البشير ٧٤/٦/١) .

أما صحيفة القدس فقد تساءلت معلقة على اتفاقية الفصل في الجولان : « ماذا بعد فصل القوات ؟ » . وقالت الصحيفة : « ان المستوطنات التي انشأتها اسرائيل في هضبة الجولان والضفة الغربية وسيناء ، والاعمال الانشائية التي اقامتها اسرائيل في القدس ... تمت خلافا لنصوص القوانين الدولية ومواثيق جنيف التي سبق لاسرائيل ان وقعتها وتعهدت بالالتزام بها ومراعاة احكامها. ان سياسة الامر الواقع التي مارستها اسرائيل منذ انشاء الدولة اليهودية يجب ان لا يكون لها مكان بعد حرب رمضان ١٩٧٣ ، واسرائيل وحدها يجب ان تتحمل عواقب ونتائج ما قامت به من مخالفات وانتهاكات » (القدس ٧٤/٦/٢) .

وكانت القدس قد علقت على الانباء الاولى التي تسربت عن التوصل الى الاتفاق حول الانسحاب من الجولان بقولها : « ان المعجزة الحقيقية لا تتمثل في فصل على جبهة السويس ولا تتمثل في فصل على جبهة الجولان ، وانما تتمثل في فصل بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة بشكل عام ، وبالنسبة للمدينة المقدسة بشكل خاص » . وقالت ان عقبات الفصل بالنسبة للضفة والقطاع ستكون اكبر نظرا لتباين وجهات النظر بين الاردن ومنظمات المقاومة واسرائيل « والذي يزداد حدة وعمقا بسبب تجاهل اتباع الوسائل الديمقراطية في اجراء استفتاء يكشف فيه الشعب الفلسطيني بمجموعه عن رأي الاغلبية الذي ينبغي ان يكون ملزما لجميع الاطراف العربية والاسرائيلية والفلسطينية والدولية » . وتذكر « القدس » الدكتور كيسنجر بثلاثة امور يجب عدم تجاهلها وهي : « ان التجارب المريرة التي مرت بها القضية الفلسطينية ، قد أكدت ضرورة الاخذ بثلاثة امور رئيسية هي : رغبة الشعب الفلسطيني في أن يكون له وجود ، وان يرتبط هذا الوجود ارتباطا ديمقراطيا متكافئا مع اخوته العرب ، وان يتم ذلك بواسطة قيادة تتمتع بالاعتدال والمرونة بحيث تكون قادرة على قيادة السفينة وسط المحيط التي تتصارع فيه تيارات مختلفة ومتناقضة الى حد التصارع » . (القدس ٧٤/٥/٣٠) .

أما ردود الفعل الشعبية على اتفاق الفصل فقد نقلتها جريدة الشعب على النحو التالي :

١ ــ فوجىء الكثيرون باذاعة النبأ ، بعد أن تأكد الناس من أن مهمة كيسنجر قد وصلت الطريق المسدود . وقد شعرنا بأن لدى الكثيرين مرارة من جراء ذلك على أساس : ان الاهتمام بقضية الفصل يبتعد عن القضية بادخالها في متاهات تائهة ، وان اي نجاح لاميركا لا بد وأن يكون فيه خسارة للقضية الاساسية .

٢ ــ اذا كانت الهزيمة الاسرائيلية في حرب تشرين الاول ، حققت لاول مرة انتصارا جزئيا للامة العربية ، فان هؤلاء العرب بدأوا يخسرون المعركة بطريق الالتفاف السياسي .

٣ ــ بدأ اهل الوطن المحتل يشعرون ان هنالك مخططا كان يهدف الى تحريك القضية على المستوى الدولي اكثر منه تحريرا للوطن المحتل ، وان المستفيد من هذا التحريك هو الرجعية العربية والامبريالية الاميركية .

٤ ــ اذا كانت عمليات الفصل هذه قد استغرقت قرابة العام ، فما هو الزمن اللازم للوصول الى حل للقضية الاساسية .

٥ ــ ان انصراف مصر في هذه الاونة الى الاعمار يتم قبل نهاية المعركة . (الشعب ٧٤/٥/٣١) .

وعلى هامش فصل القوات في الجولان ، وفي الوقت الذي كان فيه المجلس الوطني الفلسطيني يعقد دورته الثانية عشرة في القاهرة ، نشرت « القدس » تصريحات للشيخ محمد علي الجعبري يطالب فيها بادارة مدينة دولية للضفة والقطاع . فقال الجعبري « وانا ارى حسما للخلاف ولعدم وقوع ما لا يحمد عقباه ، ان تبقى الاراضي التي تجلو عنها القوات ، تحت ادارة مدنية دولية حتى اذا تم الجلاء عن الضفة الغربية والقطاع ، يتسنى للشعب الفلسطيني في الداخل والخارج ليقرر مصيره . ونحن في الضفة الغربية نرجو ان لا يقع نزاع ولا شقاق بين الدول العربية والمنظمات ، لان مثل هذه الخلافات تكون ذريعة في بقائنا على ما نحن فيه . واعتقد ان الضفة الغربية والقطاع تواقة لتتولى حكم نفسها بنفسها، هذا اذا رغب العرب في حل مشاكلهم ، واذا رغبوا في بقائنا على ما نحن عليه فاننا نشكوهم الى خالقهم » . وطالب الجعبري ان تمثل الدول العربية في مؤتمر جنيف بما فيها الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وان يمثل فيه الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع (القدس ٧٤/٦/٣) .

المجلس الوطني الفلسطيني

بترقب واهتمام بالغين تابع الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة اعمال الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني . وقد انعكس هذا الاهتمام بوضوح في صحف الضفة الغربية . فعشية انعقاد المجلس ، كتبت « الشعب » في افتتاحيتها الرئيسية « ملاحظات » الى المجلس تقول فيها : « **لا جدال ولا خلاف على صحة التمثيل الشرعي الوحيد لشعبنا من قبل ثورته وانطلاقته**

العظيمة ، واذا كانت بعض الدول العربية والاردن اقربها ،تتعرف على الصورة او تتلمسها عبر الصور المهزوزة التي تصلها ، فان الصورة الكاملة والصحيحة ، معروفة لدى القيادات الفلسطينية والمجلس الوطني ، بل تدرك من دقائقها وخفاياها ما لا يدركه الكثيرون في الوطن المحتل نفسه ، وعند الاخوة المبعدين الخبر اليقين » . ثم تقول الصحيفة حول تأجيل المجلس الى ما بعد اتفاقية الفصل بالجولان : « اننا في هذا الموضوع بالذات وكما يعلم الاخوة في الثورة والمجلس ، لا نرى في فك الارتباط والفصل قضية مهما كان وزنها ». ثم تضيف « ان وضع الاردن كورقة تهديد او مساومة باسم البديل ... مثار للريبة والشكوك . فقضيتنا ليست كيان الاردن ولا في اوراقه ... **وسيظل ما سمي بشرق الاردن جزءا شرقيا من القطر الفلسطيني ، وهما معا جزء واحد من دولة الشام الكبرى ،** فهذه حتمية التاريخ وارادة الأمة » . وتختم الصحيفة تعليقها بالقول : « وليعلم الاخوة ان اهلهم رغم وجودهم في الاسر والاحتلال ، ما زالوا اقوى من اي وقت مضى ، أشد رفضا وامنع جانبا ، فاما ان نحقق ما نريد في حل عادل او نقضي دونه ، والمستقبل لشعبنا الذي ما اذعن يوما ولا استسلم ساعة ، ولا بد ان يستجيب القدر . (الشعب ٧٤/٥/٣١) .

أما صحيفة القدس فقد كتبت بدورها عشية انعقاد المجلس تقول : « لا شك ان اعضاء المجلس يدركون أن اولى واجباتهم الان ان يخرجوا بقرار موحد بشأن قضيتين هامتين هما : موقفهم من مؤتمر جنيف ، وموقفهم من انشاء سلطة وطنية فلسطينية . ومن الضروري عند اتخاذ هذين القرارين ، ان يأخذوا بعين الاعتبار **اهمية التنسيق مع الدول العربية** . فبدون ذلك التنسيق تظل تلك القرارات تفتقر الى الدعم والمساندة . ولا بد ان نذكر ان القيادات الفلسطينية الرئيسية ، قد أظهرت في الاونة الاخيرة مرونة وايجابية ، وبالاخص بعد حرب رمضان . فاذا ما استطاعت هذه القيادات ان تقنع زملاءهم من دعاة السلبية بالموافقة على سياستهم ، فان الفلسطينيين يكونون قد قطعوا شوطا كبيرا في مسيرتهم نحو السلام ». (القدس ٧٤/٥/٣١) .

وخلال الايام الاولى من انعقاد المؤتمر توجهت « الشعب » عبر افتتاحيتها الرئيسية بـ « **حديث** صريح للاشقاء الفلسطينيين » قالت فيه «...واذ نحيي الاخوة في المجلس الوطني ونبارك خطواتهم على درب **مواقف الشرف والبطولة** ، واذ نترحم معهم على رجال الثورة الثلاثة الذين قضوا نحبهم في **بيروت** ... [مسح من الرقابة] ، فظلت مقاعدهم خالية تملأها بكل اجلال واكرام عزيمة شعبهم الجبار ، واذ **نرحب بالزعماء الشعبيين الثمانية الذين ابعدوا من الوطن المحتل** ، وتم اختيارهم لعضوية المجلس في تقدير وتكريم لاخوانهم في الوطن المحتل ، فاننا نمضي مع الاخوة في المجلس في احاديث لا تنتهي حول ملاحظات ، مجرد ملاحظات ، نرى من الضروري طرحها تنويرا واجتهادا واسهاما . نحن مع الاخوة في أن المعركة لم تنته ، وانها ربما لامر او لاخر تأخذ أشكالا نضالية جديدة ، عبر المتغيرات الطارئة ، لكنها ومهما تكن طبيعة هذه المتغيرات والملابسات ، لا يصح لها ، او لاي كان من ورائها ، ان تجعل التيارات الدولية ، وبعض الاتجاهات العربية ، تلقي بأثقالها على دربنا » . ثم تسوق «الشعب» التساؤل الاستنكاري التالي : « اليس غريبا من سادة الخرطوم الثوريين بالامس ، ان يقوموا في اليوم الذي يفتتح فيه المجلس الوطني الفلسطيني جلساته الهامة والمصرية ، بتقديم (التحية) بمحاكمة الفلسطينيين في الخرطوم ، مع انه كان بوسعهم محاكمتهم قبل عام او تأجيلها الى عام اخر او اخلاء سبيلهم حتى تكون تحية فعلا » . (الشعب ٧٤/٦/٢) .

وعلقت « الشعب » على ورقة العمل التي طرحت في المجلس الوطني بقولها انها « وثيقة التزام فلسطينية ومنهاج عمل للسير وفقها وعلى هديها ، الى ان يتم انتزاع كامل الحق الفلسطيني على أرضه وتقرير مصيره » . وركزت الصحيفة على رفض ورقة العمل هذه لقرار مجلس الامن ٢٤٢ وقالت انه ابرز ما في تلك الورقة ـ الوثيقة. واشادت بما تضمنته الورقة من نص على اقامة « سلطة الشعب الفلسطيني المستقلة على كل جزء يتم تحريره من التراب الفلسطيني كحلقة من استراتيجية اقامة الدولة الديمقراطية » (الشعب ٧٤/٦/٣) .

ذكرى الخامس من حزيران

في ذكرى هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، اختلفت تعليقات الصحف العربية في الضفة الغربية ، عن تعليقاتها على هذه المناسبة في العام الماضي والاعوام التي سبقته . ويرجع ذلك الى الحالة النفسية والمعنوية المرتفعة لجماهير الارض المحتلة، المنبثقة من روح حرب تشرين الاول (اكتوبر) . فقد كتبت صحيفة الفجر حول هذه المناسبة تقول : « اليوم ندخل السنة الحزيرانية الثامنة . كانت السنوات السبع الماضية متشابهة في لونها ... وكانت هموم الذكريات تتراكم ذكرى بعد ذكرى ، ومع انها هموم ثقيلة ككابوس رهيب ، الا انها لم تنل او تقلل من ايمان جماهيرنا العربية والفلسطينية ، بأن المستقبل لا بد وأن يكون أفضل . وحس الجماهير لا يخيب ، وها هو الخامس من حزيران يجيء في ذكراه الثامنة مختلفا عن كل الخوامس السابقة . يجيء وامتنا العربية قد حققت انتصار اكتوبر المجيد ، وشعبنا الفلسطيني البطل وقد بدأ يأخذ مكانه على خارطة العالم ، بعد نضال امتد اكثر من خمسين عاما كانت السنوات السبع الماضية ذروتها وقمتها . تأتي هذه الذكرى ونحن نرى المستقبل امام شعبنا مشرقا ، ومطلبه في اقامة سلطته الوطنية على ارضه قريب من التحقيق » (الفجر ٧٤/٦/٥) .

أما صحيفة القدس فقد تناولت ذكرى الخامس من حزيران ، كيوم من الايام السوداء الكثيرة التي مرت بالشعب الفلسطيني منذ الانتداب البريطاني. واضافت « القدس » ان هناك اياما « تتفاوت في شدة سوادها وتتباعد في مآسيها . فيوم اعلان وعد بلفور يوم أسود ، ويوم قرار التقسيم يوم اسود ... ويأتي يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧ ليفوق كل شيء في سواده ومآسيه » وعللت ذلك بسبب ضياع كامل فلسطين وأراضي عربية اخرى ، وبسبب احتلال مدينة القدس بما فيها من مقدسات . الا انها بعد هذا العرض للايام السوداء ومنها يوم اعلان اسرائيل عن ضم مدينة القدس في ١٩٦٧/٦/٢٨ ، انتقلت القدس لتتحدث بنفس مختلف حين تناولت بالتعليق حرب تشرين الاول . فقالت : وأشرقت حرب رمضان . وأشرق معها النور والامل . وبزغ فجر جديد يشير الى محو الايام السود وعلى الاخص يشير الى محو آثار ٥ حزيران الاسود . اننا نستذكر هذا اليوم للمرة السابعة ونجتر معه آلامنا ونتطلع بحسرة الى ما وقع في المناطق المحتلة من تدمير وتخريب ومصادرة. ونستذكر الجرافات وأعمالها في قرى اللطرون والقدس القديمة . وآخرها في بيت الملاعبي في شعفاط . سنتذكر كل هذا ، ولكن يدعونا الصبر والايمان الى الاعتقاد بأن تذكرنا اليوم بهذا اليوم سيكون آخر تذكير . وسوف لن يأتي حزيران القادم الا ونحن ننعم بالحرية والسلام والاطمئنان » . (القدس ٧٤/٦/٥) .

والى جانب افتتاحية القدس هذه ، كتبت الصحيفة نقلا عن مراسلها الخاص ، ان مدير شرطة القدس القديمة استدعى ليلة الخامس من حزيران رئيس وأعضاء مجلس ادارة الغرفة التجارية ، وحذرهم من النتائج الخطيرة التي سوف تترتب على القيام بأي اضراب بمناسبة الذكرى السنوية ليوم ٥ حزيران . وأوضح انه سيكون من بين هذه الاجراءات ، اغلاق ومصادرة المحلات التجارية التي لا تتقيد بهذه التعليمات . كما استدعى قائد الشرطة اصحاب شركات الباصات وحذرهم من توقف العمل بسياراتهم صباح يوم الخامس من حزيران . وقالت « القدس » انه « فهم ان الحكام العسكريين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، قد وجهوا تحذيرات مماثلة الى البلديات والمؤسسات التجارية » (القدس ٦/٥/ ٧٤) .

ع.ش.

(٣) اسرائيليات

الوزارة الاسرائيلية :
تشكيلة ((حمائم)) ونهج ((صقور))

بعد فشل المفاوضات الائتلافيـة مع المفدال ، أصبح الاتجاه في حزب العمل ، كما أشرنا في العدد السابق في هذا الباب ، يسير نحو اقامة حكومة مقلصة يشارك فيها كل من الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن . لكن الى جانب ذلك ، كانت هناك اتجاهات اخرى داخل حزب العمل ، بعضها كان قائما ، قبل استقالة حكومة مئير (الدعوة الى اقامة حكومة تكتل وطني) ، وبعضها الاخر استجد بعد الاستقالة . وقد وجدت جميع هذه الاتجاهات تعبيرا لها بشكل اقتراحات قدمت في اجتماع اللجنة المركزية لحزب العمل الذي خصص لمناقشة واقرار الاتفاق الائتلافي الذي تم التوصل اليه مع الاحرار المستقلين وحركة حقـوق المواطن . وفي نهـاية المناقشات التي استمرت ثلاث ساعات ونصف قدم الى اللجنة المركزية لحزب العمل اربعة اقتراحات:

● اقترح بيرل رفطور التحفظ من القرار السابق (أي القرار الذي دعا الى تشكيل حكومة جديدة)، ودعا الى اجراء انتخابات بالسرعة الممكنة ، مع استمرار الحكومة الحاليـة في عملها كحكومـة انتقالية . وقد حصل هذا الاقتراح على اصوات قليلة ، وبشكل اساسي من جماعة « رافي » .

● وسقط اقتراح مشترك تقدم بـه عضـوا الكنيست مردخاي سوركيس ومردخاي بن بورات . ويدعو هذا الاقتراح الى اقامة حكومة تكتل وطني. وقد صوت الى جانب هذا الاقتراح ٤٨ عضوا وعارضه ٢٦٢ عضوا وامتنع ثمانية عن التصويت . وكان اعضاء « رافي » ايضا وراء هذا الاقتراح بشكل اساسي .

● وسقط اقتراح آخر تقدم به موشي نيتسر وبني مهرشاك لاقامة حكومة على غرار الحكومة السابقة (المعراخ — المفدال — الاحرار المستقلين) .

● اما اقتراح لجنة المفاوضات فقد قدمه سكرتير عام الحزب اهرون يادلين : وقد حظي هذا الاقتراح باغلبية كبيرة ، اذ أيده ٣٠٢ وعارضه ٣٦ وامتنع ستة عن التصويت . ويقضي هذا الاقتراح باقامة حكومة مع الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن.

وقد ساهم بشكل رئيسي في التوصل الى هذا القرار تنازل حركة حقوق المواطن عن شروطها التي وضعتها في السابق لدخول الائتلاف ومنها تعديل الخطوط الاساسية للحكومة ، وعدم ابقاء حقائب شاغرة للمفدال . وترك الباب مفتوحا للمفدال لمدة ثلاثة اشهر ، يصار بعدها الى اعادة النظر في البنود المتعلقة في الدين في الاتفاق الائتلافي . وقد سد تحرك هذين الحزبين كهيئة واحدة، الباب أمام القوى التي كانت تسعى في حزب العمل لاستبعاد حركة حقوق المواطن من الحكومة .

وعلق وزير الداخلية السابق يوسف بورج على قرار اللجنة المركزية لحزب العمل بتشكيل حكومة مقلصة فقال : « سأقترح على حزبي أن يقترع ضد الحكومة التي تعتمد على ٦١ مقعدا في الكنيست . وأنا أعتبر هذه الحكومة هزيلة لسببين : اولا ، ان هذه الحكومة تعتمد على اغلبية ضئيلة ، حصلت عليها بفضل اصوات النـواب العرب . وثانيـا اشتراك حركات تجعل منها حكومة حمائمية وحكومة غير دينية » (ر.١٠١٠ — ٧٤/٥/٢٠ ، عدد ٥٣٧ ، ص ٤٦٧) .

أما صحيفة يديعوت احرونوت (٧٤/٥/١٩) فقد اعتبرت « ان القرار يشكل تحديـا للشعب ورغبته » ، بينما رأت معاريف : « انه قدر للحكومة الجديدة منذ البداية ان تكون حكومة مؤقتة . وتشك الصحيفة في أن يكون تأليف الحكومة الجديدة هو الكلمة الاخيرة في الازمة السياسية » .

وقد حظي خروج المفدال من الائتلاف الحكومي باهتمام بعض الصحفيين الاسرائيليين ، حيث رأى البعض فيه نهاية للمشاركة التاريخية بين حركة العمل من جهة والمعسكر الصهيوني الديني من جهة اخرى . ولم يقتصر الاسف على هذا الامر على المراقبين من خارج حزب العمل ، بل ان العديد من الاعضاء البارزين في الحزب امثال مئير وايبان وحتى رابين نفسه قد اعربوا عن أسفهم لخطوة

المفدال هذه . واتهم بعضهم المفدال بأنه المسؤول عن قطع هذه المشاركة التاريخية ودعوا الى بذل الجهود لاعادته الى الحكومة، بالاضافة الى مطالبته بتغيير موقفه .

وفي هذا السياق طالب ابا ايبان في جلسة مكتب حزب العمل وكتلته في الكنيست بـ « عدم الكف عن بذل المحاولات لتوسيع قاعدة الائتلاف وضم المفدال، لكي لا يتوجه هذا الحزب نحو التجمع اليميني ». (ر.١٠١٠ — ٧٤/٥/٢٨ ، عدد ٥٤٥ ، ص ٧٢٥) .

اما رابين فقال بهذا الخصوص في اجتماع اللجنة المركزية للحزب : « آمل ان تصمد هذه الحكومة ، وآمل ان يقوم المفدال بتغيير موقفه وينضم اليها ». (ر.١٠١٠ — ٧٤/٥/١٩ ، عدد ٥٣٧ ، ص ٤٦٦) .

أما يورام كانيوك فقد اعرب في مقال في (دافار ٧٤/٥/٣٠) عن ارتياحه لخروج المفدال من الحكم، مطالبا رجالات حزب العمل بالكف عن الاسف لانقطاع المشاركة التاريخية ومبينا ان هذه المشاركة لم تكن خيارا بل فرضت فرضا على حركة العمل وعلى المباي بالذات ، نظرا للظروف . وتطرق الكاتب في سياق مقاله الى الازمات التي افتعلها المعسكر الديني منذ قيام الدولة ، مشيرا الى مدى انتهازية زعمائه وتغليبهم للمصالح الذاتية والحزبية الضيقة على المصالح العامة . ويخلص كانيوك في مقاله المذكور الى القول : « لم تكن هناك اية مشاركة تاريخية . لقد كان قلب حركة العمل ينبض بايمان اسرائيلي يهودي حقيقي لا يؤمن ولم يؤمن بالمساومة الدينية ... لكنها اضطرت ان تخضع طوال تلك الفترة ، ويبدو انه برز خلالها في حركة العمل زعماء لم يفهموا ان هذه المشاركة كانت عملية ارغام منكرة وليست طريقا مشتركا » .

اما نويمان فكتب في دافار (٧٤/٥/٢٦) حول الاستقطاب الحاصل في الحياة السياسية في اسرائيل فقال : « ان الاستقطاب الذي نشأ ، بالرغم من أسفنا لذلك ، هو أمر لا محالة منه . ان الافتراض بأنه من الممكن العيش ولوقت طويل تحت سقف الاجماع القومي المبني على المصالحة بين الاتجاه القومي المتعصب وبين الصهيونية الليبرالية الاشتراكية كان خطأ في أساسه » .

لكن نظرة أعمق الى ما يجري داخل الاطر السياسية في اسرائيل والى الاتجاهات السياسية والحزبية العامة ، تكشف ان هذا الاستقطاب الذي يتحدث عنه البعض الان ، لم تكتمل صورته النهائية بعد ، سواء داخل المعارضة او داخل التجمع العمالي الحاكم والشركاء الائتلافيين . فالاطار الفكري الفضفاض وحسابات الربح والخسارة لدى بعض زعماء وأجنحة حركة العمل ، بالاضافة الى الجنوح الدائم داخل حركة العمل نحو اليمين على كافة الاصعدة ، وسيطرة الاتجاه البراجماتي داخل المباي بالذات ، كل هذه الامور تفسر عدم استكمال هذا الاستقطاب لشكله النهائي ، من جهة ، وتحول دونه من جهة اخرى .

وتشير يديعوت احرونوت في عددها الصادر في ٧٤/٦/٧ الى أن محاولة لبلورة هذا الاستقطاب باقامة حكومة بديلة لسلطة التجمع العمالي الحاكم، يكون قوامها التجمع اليميني « ليكود » والمفدال والجبهة التوراتية بالاضافة الى أعضاء « رافي » في حزب العمل ، وبعض الشخصيات الاخرى داخل المباي وأحدوت هعفودا ، قد فشلت رغم ان المبادرة قد لاقت ترحيبا من دايان وحماسا من المفدال وقبولا متحفظا من الجبهة التوراتية التي شككت في امكانية اقدام « رافي » وبيرس بالذات ، رغم ان المبادرين اقترحوا عليه تشكيل الحكومة ، على مثل هذه الخطوة . وبالفعل فقد رفض بيرس الفكرة ، بينما انقسم بقية اعضاء « رافي » بين مؤيد ومتحفظ ورافض .

توزيع الحقائب

ما ان تجاوز رابين العقبة الاولى التي تمثلت في شكل وتركيبة الائتلاف حتى وجد نفسه امام عقبة اكبر تمثلت في كيفية توزيع الحقائب على الكتل داخل حزب العمل من ناحية وفي محاولة اقناع بعض الوزراء السابقين مثل سابير وايبان بقبول مناصب وزارية في حكومته . ويمكن تلخيص هذه العقبات التي واجهته بالنقاط الاربع التالية :

● تنافس بيرس وألون على وزارة الدفاع ومن ورائهما كتلتا « رافي » و« أحدوت هعفودا » وقد حل رابين هذه العقبة بتعيين بيرس وزيرا للدفاع وتعيين ألون وزيرا للخارجية بالاضافة الى نيابة رئاسة الوزارة .

● العقبة الثانية ، تمثلت في استياء ابا ايبان ورفضه المشاركة في الوزارة في أي منصب آخر عدا وزارة الخارجية ، وتضامن بعض اعضاء

مجموعة المباي معه مثل سابير ورابينوفيتش .

● العقبة الثالثة ، تمثلت في رفض رجل الحزب (المباي) القوي بنحاس سابسير الاشتراك في الحكومة الجديدة بحجة رغبته في التفرغ للعمل في مجال الهجرة في الوكالة اليهودية .

وقد اضطر رابين للاستغناء عن خدمات كليهما ، وتهديد الحزب بالاعتذار عـــن تشكيل الحكومـــة الجديدة اذا لم يوافق مكتب الحزب وكتلته في الكنيست على التشكيلة التي سيقدمها . وبالفعل فقد حصل رابين علـــى الموافقة نتيجة لجهـــود المستوزرين الجدد من رجالات الصف الثاني في المباي .

● اما العقبة الرابعـــة ، فتمثلت في مطالبة شلومو هيلل (ممثل الطوائف الشرقية) بمنصب وزاري أهم من وزارة الشرطة ، او باضافة وزير ثان من ابناء الطوائف الشرقية للحكومة . وقد حل رابين هذه العقبة بأن وعد هيلل بتعيينه رئيسا للجنة الوزارية للانعاش الاجتماعي وبتعيين عدد من أعضاء الطوائف الشرقية في الكنيست نوابا للوزراء في وزارات مهمة .

وأهم هذه العقبات ، وهي التي تمثلت في الصراع على وزارتي الدفاع والخارجية كان يكمن وراءها مواقف كتلوية متشددة لم يكن لرابين خيار سوى الرضوخ لها . ومن هنا ينبع الضعف الاساسي لحكومة رابين ، فهي لا تشكل طاقما اختاره رئيس الوزراء على اساس المؤهلات والمتطلبات ، بقدر ما ان هذا الطاقم كان نتيجة وتلبية لمطالب كتلوية فرضت على رابين . فكتلة رافي هي التي اختارت ممثليها في الوزارة وهي التي قررت نوعية الوزارتين او بشكل أدق نوعية احداهما . وكذلك الامر ، مع كتلة احدوت هعفودا ، فهي بالاضافة الى فرضها ألون في وزارة الخارجية ، كانت الكتلة الوحيدة التي لم تؤد عملية تشكيل الحكومة الجديدة الى احداث تغيير في مرشحيها للوزارة . فقد فرضت هذه الكتلة نفس الوزيرين اللذين كانا يمثلانها في الحكومة السابقة ، واللذين لاحدهما على الاقل — جاليلي — قسط كبير في المفاهيم والمسؤولية عما سمي بالتقصير في حرب يوم الغفران على المستوى السياسي .

ان المتتبع لكل ما جرى من صفقات اثناء عملية توزيع الحقائب وما رافقها من اتهامات متبادلة بين الكتل والشخصيـــات البارزة المختلفـــة ، تلك الاتهامات التي لم تخل من تعابير لاذعة ، يرى ان ما رآه او اعتبره البعض ، على اثر المنافسة بين رابين وبيرس على رئاسة الوزارة ، وما اعتبر من انه ظاهرة صحية ودليلا على بدء غروب شمس الكتل وشمس الالهة ، لم يكن كذلك . فغروب شمس الالهة لم يكن سوى غروب لقوة المباي المهيمنة كحزب ولقوة مرشحيه لرئاسة الوزارة .

وفي هذا السياق خلصت معاريف (٧٤/٥/٢٣) من مسألة توزيع الحقائب الوزارية بقولها : « أن من آمن في الايام التي اعقبت تعيين رابين كمرشح لرئاسة الوزارة ، بأن انتخابه يشير الى نهاية نظام الكتل في حزب العمل ، مرغم الان ان يتوصل الى استنتاج بأن سعادته كانت سابقة لاوانها . فنظام الكتل ما زال حيا يرزق ، ولم يبرز في اي وقت مضى كما هو الحال في هذه الايام » .

وبعد ان أشارت معـــاريف الى شروط الكتل والاجنحة المختلفة في الحـــزب في فرض الوزراء والحقائب على رابين قالت : « ان لهذا التفكك دلالات تتعدى مسألة تقليص صلاحيات رئيس الوزارة المقبل . لان الحكومة في نهاية الامر ستؤلف من ممثلي ست كتل وليس اربع » .

اما ايبان فقال في خطابه أمام مجموعة المباي ومكتب حزب العمل « ... ان الافتراض بأن نظام الكتل قد زال — كان مجرد وهم » . وأضاف ايبان في خطابه المذكور : « اما انه لا توجد كتل بتاتا — وعندها كيف يصوتون في « رافي » و« احدوت هعفودا » حول الانضمام او عدم الانضمام للحكومة وحول شروط الانضمام والمرشحين الذين لا مهرب من تتويجهم ؟ واما ان هناك نظاما كتلويا وفي هذه الحالة لماذا يسمح بابعاد العمود الفقري للحركة ، عن جميع المواقع الاساسية ؟ » (يديعوت احرونوت ٧٤/٥/٢٨) .

ونظرة على التركيبة الوزارية (انظر الملحق) — رغم ان المباي يحتفـــظ فيها بأكبر عدد مـــن الحقائب — تظهر ان الخاسر الوحيد كان كتلـــة المباي ، فقد فقدت السيطرة على اكثر المجالات حيوية وهما مجال السياسة الخارجية والامن ، واضطرت ان تدفع لوحدها تقريبا ثمـــن المطالبة بالتغيير . وقد وصف يوئيل ماركوس (هآرتس ٢٩/

٧٤/٥) وضع كتلة الماباي داخل حزب العمل بقوله : « انها ترقد عاجزة على فراش الاحتضار » و« وتجد نفسها الان على هامش السلطة » بعد ان كانت سيطرتها على الدولة غير محدودة . واضاف ماركوس محللا اسباب هذا الوضع : « ان الماباي لم يصل مصادفة الى ما وصل اليه . فالجهاز الحزبي يدفع اليوم ثمن نظرة زعمائه الضيقة وانانيتهم على مر السنين . هذا هو ثمن كل السنوات التي حارب فيها الجهاز كل قوة شابة برزت ، وثمن انانية الزعماء المتعصبين الذين خشوا الرجال الموهوبين ، ولم يرعوا جيلا منهم يستحق الاستمرار في الحكم بعدهم » . (نشرة م.د.ف. السنة الرابعة ، العدد ١١ ، ٧٤/٦/١) .

اما دانييل بلوخ فقد تناول الوضع من زاوية أوسع حيث أشار الى وضع ومكانة رابين نفسه داخل الوضع الجديد الذي استجد فقال : « نشأ في حزب العمل وضع فريد في نوعه . سيصبح الان مجالا الخارجية والامن بأيدي « رافي » و« أحدوت همفودا » . وستسيطر كتلة الماباي على المجال الاقتصادي والهستدروتي والحزبي . وسيصبح اهم شخص في الماباي (سابير) رئيسا لادارة الوكالة اليهودية ، وهو منصب ذو اهمية اقتصادية ـ اجتماعية . وسيكون رجال بطانته : وزيرا المال والاسكان (الاشارة الى رابينوفيتش وعوفر) ورؤساء هيئة العاملين [في الهستدروت] ورجل الماباي بروحام ميشل هو ايضا سكرتير الهستدروت . ويجب الافتراض ان سكرتير حزب العمل سيكون مباثيا بارزا . وسينشىء كل هؤلاء مراكز قوى . وسيكون يتسحاق رابين رئيسا للحكومة وليس زعيما للحزب . وستواجهه ، اضافة الى مراكز القوى في الهستدروت والوكالة اليهودية والحزب ، معارضة خارج البرلمان بزعامة جولدا مئير ووزراء كبار سابقين . ويقول البعض ساخرا انه ستصبح في اسرائيل حكومتان : حكومة رابين وحكومة منفى » . (نفس المصدر اعلاه) .

التشكيلة الوزارية

تشكلت الوزارة الاسرائيلية الجديدة من ١٩ وزيرا بمن فيهم رئيس الوزارة نفسه . وهناك أربع وزارات ما زالت شاغرة وأسندت مهامها الى وزراء آخرين بالوكالة ، وهي : وزارة البرق والبريد ، وقد تولاها رئيس الوزارة نفسه ، ووزارة الاديان وقد تولاها وزير العدل ، ووزارة الداخلية وقد تولاها وزير الشرطة ، ووزارة الشؤون الاجتماعية وقد تولاها وزير الصحة . والوزارات الثلاث الاخيرة ابقيت شاغرة خصيصا للمفدال على امل حدوث تغيير في موقفه والعودة الى المشاركة في الحكم . اما الوزارة الرابعة فقد بقيت شاغرة بشكل مؤقت لعدم وجود شخص مناسب لها ولاضطرار رابين لتقديم حكومته لرئيس الدولة ومن ثم للكنيست لطرح الثقة بها . ومن المنتظر في حالة عدم عودة المفدال ثانية الى الحكم ، اعادة توزيع الحقائب الوزارية بشكل دمج بعض الوزارات او اسناد الوظائف الشاغرة الى وزراء الدولة بعد اجراء تعديل في المناصب على الارجح . كما وتضم التشكيلة الوزارية ثلاثة وزراء دولة هم : يسرائيل جليلي (احدوت همفودا) جدعون هاوزنر (احرار مستقلون) وشولميت الوني (حركة حقوق المواطن).

وتتوزع المناصب الوزارية الحالية بين الكتل المشاركة في الائتلاف على النحو التالي : وزيران لكل من : رافي ، احدوت همفودا ، الاحرار المستقلين والمابام . ووزير واحد لحركة حقوق المواطن . اما الوزراء العشرة الاخرون فانهم من كتلة الماباي في حزب العمل ، ومن المحتمل ان يصبح عدد هؤلاء احد عشر بعد ايجاد وزير أصيل لوزارة البرق والبريد . وحسب هيكل الوزارة الحالية فان هناك ثلاث وزارات مخصصة للمتدينين (المفدال) .

وهناك في الوزارة الحالية ستة وزراء يدخلون الوزارة لاول مرة ، من بينهم اربعة من حزب العمل ، وواحد من « رافي » وواحد من حركة حقوق المواطن .

وتضاربت الآراء حول تقييم حكومة رابين فبينما رأى فيها البعض دليلا واستجابة لارادة التغيير التي عبرت عنها حركات الاحتجاج داخل الاحزاب وخارجها اعتبرها البعض الاخر عاجزة وغير قادرة على التصدي للمهام المطروحة حاليا . فقد كتبت صحيفة جيروزاليم بوست (٧٤/٥/٢٩) حول ذلك تقول : « ... ان كل شيء يتعلق بمدى نجاح رابين بازالة الخلافات العديدة التي رافقت عملية تشكيل حكومته ، لكي يستطيع الوزراء الجدد والقدامى العمل سويا » . وذكرت الصحيفة ان رؤساء الحكومات السابقة ، ابتداء من بن جوريون ولغاية

جولدا مئير ، كان لهم نفوذ قوي علــى نشاط الوزراء ، واستطاعوا بقوتهم الشخصية التغلب على الخلافات بين الوزراء . اما رابين فلم ينجح حتى الان بمنع وقوع خلافات بين اعضاء الفريق المشترك في حكومته الجديدة » .

اما صحيفة هاتسوفيه (٧٤/٥/٢٩) التابعة للمفدال فانها هاجمت رابين وعبرت عن خيبة املها بتركيب الحكومة . وقالت الصحيفة انها كانت تفضل أن يعيد رابين التكليف لرئيس الدولة .

وعن مدى ما تمثله او لا تمثله هذه الحكومة من تغيير ، كتب دانييل بلوخ (ملحق دافار ٥/٣١/ ٧٤) يقول : « تحدث يتسحاق رابين عن حقبة جديدة ، ولكن مع تشكيل حكومته ، اتضــح ان « النظام القديم » لا يزال هو الحاكم . ففــي الحكومة الجديدة القليل فقط من القوى الجديدة تماما : رابين نفسه ، والى حد ما ياريف وبارليف. ان برعام ويادلين وعوفر هم وزراء جدد حقا ، ولكنهم قدماء بما فيه الكفاية في ميدان العمل العام والتجديد الحقيقي الوحيد ، والمفاجيء ، يتمثل في وزير المالية الجديد (يعقوب ليفنسون*) فهو يافع في حدود الاربعين ، ووجه جديد تماما في المجال السياسي » .

أما شبتاي طيفت فقد اعرب في مقال له في صحيفة هآرتس (٧٤/٥/٣١) عن خيبة امله وأمل جميع الذين كانوا ينادون بالتغيير حيث قال : « وامــا بالنسبة لحركات الاحتجاج التي زودت الدافع للتغيير بالوقود ، فما الذي حققته ؟ ان استبدال جولدا مئير ودايان ادى قبل كل شيء الى تجميدها وشلها. والان لا يصدر عنها سوى صوت خافت . وبعد قليل لن يبقى ما يذكر بها سوى الاعضاء الثلاثة لحركة حقوق المواطن في الكنيست ، وحقيبة وزير بلا وزارة التي تشغلها شولميت الوني . فهل كل ما أراد مؤيدو تلك الحركات من تحقيقه هو ان تصبح السيدة الوني وزيرة ؟ يبدو ، ان « الجبل قد ولد فأرا » !

ويضيف طيفت قائلا : « بكلمات اخرى ، فان الحكومة الجديدة اقل شأنا من الحكومة السابقة في كل شيء . . . ولا حاجة للبرهان ان هذه الحكومة اقل شأنا من سابقتها بالنسبة لتركيبتها . ولكنها اقل شأنا ايضا من ناحية تأييد الجمهور لها » .

أما يوئيل ماركوس فقد اعرب في نفس العدد من الصحيفة (هآرتس ٧٤/٥/٣١) عن رأى مغاير . فبعد أن عدد التحفظات والمخاوف والصعوبات التي تواجهها حكومة رابين قال : « وعلى الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من الشكوك ، وعلى الرغم من شعور الكثيرين بأننا « سقطنا الى المجموعة «ب» » (التعبير مستعار من لعبة كرة القدم) فانني اعتقد بأن هذا الامر هو خطوة تاريخية مهمة . فاذا كان الاشخاص الجدد صالحين أو سيئين فهذا يمكن رؤيته في المستقبل — لكن مجرد التحرك هو أمر طالما توخيناه . فأخيرا حدث تغير في الاشخاص واسع النطاق واخيرا سقط المبدأ الذي كان يعطي لبعض الوزراء « كوشان » (حق) علــى بعض الوزارات . واخيرا استؤصل من الحكومة وزراء احتلوا مناصب في الوزارة لمدة ١٥ — ٢٠ سنة » .

البيان السياسي

قال رابين عندما قدم اسمــاء وزارته لرئيس الدولة : « ان هذه الحكومة التي آمل أن ارئسها، بعد أن تحظى بثقة الكنيست ، هي حكومة استمرار وحكومة تغيير في آن واحد » . (ر. ١٠١ — ٥/٩/ ٧٤ ، عدد ٥٤٥ ، ص ٧١٧) . وبالفعل فهي كذلك. واذا كانت حكومــة تغيير مــن حيث تركيبتهــا الشخصية ، فانها حكومة استمرار من حيث خطها السياسي . وأجمل رابين المهام التي تسعــى حكومته لتحقيقها بست نقاط :

١ — ضمان امن اسرائيل ، وتنمية وتقوية جيش الدفاع الاسرائيلي والسعي المثابر والدائم نحــو السلام الحقيقي .

٢ — بناء مجتمع حديث ، عادل حر ومستقل. . . في نطاق نظام ديمقراطي قوي، من خلال بذل الجهود لاشراك الجيل الشاب بصورة اكثر في اتخــاذ القرارات وتحمل المسؤوليات .

٣ — تأمين الازدهار الاجتماعي ، وذلك بتوجيه جهود خاصة من الجميع من اجل رفع مستوى وتقدم

---

* يعقوب ليفنسون رئيس مجلس ادارة بنك هبوعلم (بنك العمال) ، وكان اسمه قد طرح لخلافة سابير في وزارة المالية ، لكنه اعتذر عن ذلك ، مما اضطر رابين الى اجراء تعديل في وزارته وذلك باسناد وزارة الماليــة الى رابينوفيتش وادخال عوفر مكانه في وزارة الاسكان .

الفئات التي ما تزال تعيش حالة ضيق .

٤ — زيادة الهجرة وتحسين وسائل الاستيعاب، وذلك لدفع عشرات الالوف من اليهود للهجرة الى البلاد ، والمحافظة ودعم الصلات مع يهود العالم.

٥ — السعي دون كلل من اجل تعزيز وتنمية الاقتصاد .

٦ — تعزيز مكانتنا السياسية ، وتوثيق علاقاتنا مع دول العالم وقبل كل شيء مع الولايات المتحدة.

التسوية على مراحل

حمل رابين الدول العربية مسؤولية عدم التوصل الى تسوية وحل للنزاع حتى الان ، لكونها وضعت شروطا لم تكن اسرائيل مستعدة للموافقة عليها ، ومنها :

١ — المطالبة بالتعهد الاسرائيلي بالانسحاب الشامل الى خطوط الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كشرط مسبق لاي حوار .

٢ — لكونها عارضت المفاوضات المباشرة بين الاطراف في كل مرحلة من مراحل المفاوضات .

وزعم رابين في بيانه (معاريف ، ٧٤/٦/٤) : « ان اسرائيل ستستمر في السعي من أجل سلام حقيقي يكون بمثابة سلام بين الشعوب ويجد تعبيره يوميا ، بحدود مفتوحة يمكن بواسطتها اجراء اتصالات متبادلة في جميع مجالات الحياة » . لكنه مع ذلك ، دعا الى رؤية الواقع كما هو مشيرا « الى انه من الصعب التوصل الى ذلك في الظروف الحالية » .

ولذلك دعا للتفتيش عن طريق للتقدم نحو السلام على مراحل : اي للتقدم نحو السلام بواسطة اتفاقات جزئية تضمن استتباب الهدوء وتوقف الاعمال العسكرية بواسطة وقف اطلاق النار وتخفيض حجم القوات ، الذي بدوره يقلص خطر اشتعال الحرب وحدوث هجوم مفاجيء . واضاف رابين : « علينا ان نسعى لتسويات تخلق ظروفا نستطيع بواسطتها امتحان نوايا كل دولة عربية : هل تتجه بالفعل نحو السلام أم لا .

ودعا رابين الى النظر الى اتفاقيات فصل القوات مع سوريا من هذا المنظار . اما كيفية اختبار نوايا الدول العربية فيراها رابين من خلال:

أ — بالنسبة للناحية العسكرية ، المحافظة على وقف اطلاق النار في البر والبحر والجو محافظة تامة ، ثم من خلال تخفيض حجم القوات على الجانب السوري ، كما تحقق الامر على الجانب المصري .

٢ — على الصعيد المدني ، يربط رابين نوايا مصر للسلام باعادة ترميم مدن القناة واسكانها وبفتح قناة السويس للملاحة الدولية ، اما سوريا فيدعو الى تعقب خطواتها بالنسبة لاعادة سكان القرى في الجيب والقنيطرة الى اماكنهم للعيش بسلام الى جانب المستوطنات الاسرائيلية في هضبة الجولان .

وبينما يرى رابين امكانية لمرحلة متوسطة اخرى في الطريق نحو السلام مع مصر فانه لا يرى ذلك بالنسبة لسوريا ، حيث يقول : « أما بالنسبة لسوريا فبعد التوصل الى اتفاق فصل القوات وتنفيذه بحذافيره . فليس هناك مكان لمرحلة متوسطة . وبعد ان نتوصل الى تقدم آخر في التسوية مع مصر فان السؤال التالي سيطرح : هل سوريا بالفعل مستعدة لتوقيع اتفاق سلام تعاقدي مع اسرائيل » ؟ ويضيف رابين مؤكدا على موقف اسرائيل الاساسي من الحدود فيقول : « ومن الضروري ان يفهم زعماء الدول المجاورة بأن اسرائيل لها الحق بحدود يمكن الدفاع عنها . وان اسرائيل لن تعود ، حتى في نطاق سلام تعاقدي الى خطوط الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، فهذه الخطوط ليست حدودا يمكن الدفاع عنها ، وهي تشكل اغراء للعدوان كما ثبت في الماضي » .

أما بالنسبة للبنان فقال رابين انه لا توجد بين اسرائيل ولبنان قضايا اقليمية مختلف عليها . وان كل ما في الامر انه يتوجب على لبنان ان يضع حدا « للنشاط الارهابي الموجه ضد اسرائيل » في اراضيه ، وان اسرائيل تعتبر لبنان مسؤولا عن هذا النشاط .

وأعرب رابين ايضا عن استعداد حكومته للبحث مع حكومة الاردن في القضايا المعلقة بينهما ، ولم يأت هنا بجديد ، ولم يشر الى اية مراحل حيث قال : « نحن مهتمون باجراء مفاوضات مع الاردن حول السلام . نحن نسعى الى عقد اتفاق سلام تعاقدي معه ، يرتكز على اساس وجود دولتين

مستقلتين اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة ، ودولة عربية الى الشرق منها . ويمكن للشخصية او الذات المستقلة للعرب الفلسطينيين والاردنيين ان تجد تعبيرا لها في الدولة الاردنية ــ الفلسطينية المجاورة ، على اساس السلام وعلاقات الجوار الحسنة مع اسرائيل . ان اسرائيل تعارض اقامة دولة عربية منفردة اخرى غرب النهر » .

تجاهل الفلسطينيين

وفي حديثه عن مؤتمر جنيف قال رابين : « ان موافقة اسرائيل على الاشتراك في مؤتمر جنيف للسلام كانت تستند الى الافتراض بانه سيرسى في هذا المؤتمر الاساس للتسويات بين اسرائيل وبين كل من جاراتها . وان القضايا المختلف عليها بين اسرائيل وبين كل واحدة من جاراتها هي قضايا تختلف الواحدة عن الاخرى . فكل تسوية يجب أن تكون مبنيــة علــى أساس الالتزامات المتبادلة الواضحة بين مصر واسرائيل ، بين ســوريا واسرائيل ، بين الاردن واسرائيل ، وبين لبنان واسرائيل . ولا مكان لاية جهة اخرى لتكون طرفا في مفاوضات السلام » . واضاف رابين : « ان اسرائيل ترفض دعوة مندوبين من قبل منظمات « المخربين » و « الارهاب » للاشتراك او ليحملوا صفة المراقبين في مؤتمر السلام في جنيف ، فان حكومة اسرائيل لن تتفاوض مطلقا مع منظمات « الارهاب » **التي تعلن هدفها ابادة اسرائيل** » .

وبعد ان انتهى رابين من القاء بيان الحكومة السياسي جرت مناقشة هذا البيان من قبل اعضاء الكنيست وكان اول المتكلمين زعيم المعارضة مناحيم بيجن حيث قال : « انتبهوا لما تقولون ، ان اعداءنا يقولون انه لن يكون هناك اتفاق سلام اذا لم نعد الى خطوط الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وهذا يعني اننا بناء على ما ذكرتم ، لسنا متجهين نحو السلام ، فبعد ما قلتم صباح اليوم ، لن يكون بامكانكم الادعاء ان الرغبة في اسرائيل هي احلال السلام . ومن واقع بيانكم هذا ، فانه لا يمكن احلال السلام . اننا تلتقون جدا في هذا اليوم الذي نشترك فيه بمناقشة منح الثقة لهذه الحكومة ونقترح ما يلي : زيادة الاستيطان دون تأخير في هضبة الجولان والضفة الغربية وجميع انحــاء البلاد . فهل ستقوم هذه الحكومة بهذه الاعمال ؟ ثانيا ، استئناف النضال من أجل السماح ليهود الاتحاد السوفياتي بالهجرة الى البلاد ، فقد طرأ في الاونة الاخيرة انخفاض كبير في عدد المهاجرين الذين يصلون من روسيا وينبغي علينا دون أي تأخير ان نستأنف الحملة التاريخية من أجل السماح لهم بالهجرة » . (ر.ا.١٠٠١٠ ٧٤/٦/٣ ، عدد ٥٤٨، ص ٦) .

وفي ٧٤/٦/٣ مثلت حكومة رابين امام الكنيست لنيل الثقة ، وعلى اساس هذا البيان ، وعلى اساس هذه التركيبة منحت الكنيست ثقتها لوزارة رابين بأغلبية ٦١ : ٥١ صوتا . وقد صوت الى جانب الحكومة بالاضافة الى أصوات التجمــع العمالي الحاكم كل من كتل النواب العرب والاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن وقائمة موكيد . وقد امتنع عن التصويت عضو الكنيست مردخاي بن بورات (العمل ــ رافي) بالاضافة الى نواب « راكاح » الاربعة . اما المعارضة التي ضمت كلا من كتلة ليكود ، وكتلتي المفدال والجبهــة التوراتية ، فيبدو ان ثلاثة من اعضائها لم يحضروا الجلسة .

اسم الوزير	الوزارة	الحزب		الكتلة
١ ــ يتسحاق رابين ــ رئيس الوزارة ووزير البرق والبريد بالوكالة		العمل ــ التجمع		المابــاي
٢ ــ شمعون بيريس ــ وزير الدفاع		«	«	رافي
٣ ــ ييجال الون ــ وزير الخارجية ونائب رئيس الوزارة		«	«	أحدوت هعفودا
٤ ــ يهوشواع رابينوفيتش*ــ وزير المالية		«	«	المابــاي
٥ ــ حاييم بارليف ــ وزير التجارة والصناعة والتنمية		«	«	«
٦ ــ حاييم تسادوك** ــ وزير العدل ووزير الاديان بالوكالة		«	«	«
٧ ــ أهرون ياريف**ــ وزير الاعلام		«	«	«
٨ ــ موشي بارعام*ــ وزير العمل		«	«	«
٩ ــ شلومو هيلل ــ وزير الشرطة ووزير الداخلية بالوكالة		«	«	«
١٠ــ أهرون أوزان*ــ وزير الزراعة		«	«	«
١١ــ ابراهام عوفر*ــ وزير الاسكان		«	«	«
١٢ــ أهرون يادلين*ــ وزير التربية والتعليم		«	«	«
١٣ــ جاد يعقوبي*ــ وزير المواصلات		«	«	رافي
١٤ــ دكتور شيمطوف ــ وزير الصحة والشؤون الاجتماعية بالوكالة		«	«	المابسام
١٥ــ شلومو روزين**ــ وزير الاستيعاب		«	«	المابــام
١٦ــ يسرائيل جليلي ــ وزير بلا وزارة		«	«	أحدوت هعفودا
١٧ــ جدعون هاوزنر**ــ وزير بلا وزارة		الاحرار المستقلين		
١٨ــ موشي كول ــ وزير السياحة		الاحرار المستقلين		
١٩ــ شولميت الوني*ــ وزيرة بلا وزارة		حركة حقوق المواطن		

* وزراء لاول مرة .

** وزراء منذ حكومة مئير السابقة (بعد الانتخابات) .

ــ البقية قدماء وتتفاوت مدة اقدميتهم .

ــ الوزراء الخارجين : جولدا ، دايان ، ايبن ، جفاتي .

هاني عبدالله

(٤) القضية الفلسطينية عسكريا

شهد الشهر الماضي حدثا من أهم احداث الصراع العربي — الاسرائيلي ، وهو فصل القوات على الجبهة السورية وانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي السورية التي احتلتها في عام ١٩٧٣ وجزء من الاراضي السورية المحتلة في حرب ١٩٦٧ . كما شهد عددا من الاحداث العسكرية الاخرى ، وستضم الشهريات العسكرية (القضية الفلسطينية عسكريا) لهذا العدد مجموعة من الانباء العسكرية أعدها محمود عزمي وهشام عبدالله من القسم العسكري في المركز ، بعد ان افردنا لفصل القوات على الجبهة السورية مقالا خاصا في هذا العدد .

١ — تطور المدفعية الاسرائيلية

في ١٩٧٤/٥/٨ قال الجنرال مردخاي جور رئيس الاركان الاسرائيلي اثناء حفلة تخريج دورة ضباط مدفعية ان « احدى عبر الحرب الواضحة ، اننا منذ حرب يوم الغفران ، نحاول ان نبني منكم جبهة دفاع قوية ، سواء من الناحية الكمية او النوعية ... فالنيران التي تقذفونها هي النيران التي تمكن من استمرار الحركة الى الامام . اننا نريد مدافع بعيدة المدى ، وقذائفها ثقيلة جدا . وينبغي ان تكون رغبتكم وهدفكم ، هو التحرك مع بقية الاسلحة الى الامام بقدر الامكان ، وباختصار ، ان تكونوا اول من يصل الى كل هدف في ارض العدو ... ان هذا هو الهجوم الحقيقي في الحرب الحديثة » (ر.١٠.١٠ ، عدد ٥٢٨) .

والواقع ان احد الدروس الهامة والبارزة لحرب ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، على المستوى التكتيكي ، ان الاعتماد بصورة شبه مطلقة على القوة النارية لسلاح الطيران ، في شكل الدعم القريب « Close air support » الذي يقصف أهدافا محددة داخل ميدان المعركة المباشر ، وبناء على طلب قائد القوة البرية المقاتلة في المكان نفسه ، كبديل رئيسي لدعم المدفعية الميدانية والمتوسطة بالنيران للقوات المدرعة او المشاة الميكانيكية والمترجلة ، وهو الاعتماد الذي غالت فيه العقيدة القتالية الاسرائيلية نتيجة لخبرتها خلال حرب ١٩٦٧ الخاطفة ، قد ثبت خطؤه بصورة عملية واضحة خلال حرب ١٩٧٣ خاصة خلال مرحلتها الاولى ، حين حيدت شبكة الدفاع العربي المتطورة القدرة الفعالة للقاذفات المقاتلة الاسرائيلية « سكاي هوك » و « فانتوم » فوق ساحات المعارك المباشرة ، وجعلت عمليات الدعم الجوي القريب او الدعم الجوي المباشر « Direct air support » الذي يستهدف قواعد القوات العربية، باهظة الثمن بالنسبة الى الطيران الاسرائيلي المحدود الحجم نسبيا ، والمعد للحرب القصيرة التي تعطي مردودا كبيرا على المستوى التكتيكي والاستراتيجي بأفضل اقتصاد ممكن للقوى .

وتمتد الجذور التاريخية للعقيدة العسكرية الاسرائيلية المذكورة الى نظرية الحرب الخاطفة الالمانية « بليتزكريج » التي نفذت بنجاح في سنوات ١٩٣٩ — ١٩٤١، وقد تبنت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية نظرية الحرب القصيرة الخاطفة بحسم ووضوح كاملين خلال فترة ما بين حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ ، واعدت جهازها العسكري على اساس هذه النظرية ، ولذلك أعطيت الاولوية لسلاح الطيران يليه سلاح المدرعات واعتبرا سلاحا الحسم الاساسيان ، ولذلك اختلت النسبة في التسليح كما ونوعا ، وكذلك في المهام القتالية ، بين سلاحي الطيران والمدرعات من جهة وبين المشاة والمدفعية من جهة اخرى عشية حرب ١٩٦٧ ، وجاءت نتائج الحرب بحجمها الكبير غير المتوقع (حتى من جانب القادة الاسرائيليين) لترسيخ صحة اختيار القيادة العسكرية الاسرائيلية لعقيدتها القتالية ، ولترتيب اولويات التسليح والتنظيم في الجيش الاسرائيلي ، ولذلك قال « آلون » عقب حرب ١٩٦٧ « ويبدو لي انه في تنظيم القوات البرية يجب اعطاء افضلية اخرى للمدرعات كقوة رئيسية بين القوات البرية ». (الستار الرملي) . وقال «موشي ديان» أيضا: « ان العنصر الاساسي في قوتنا هو اولا سلاح الطيران الذي يعتمد على الاعين الالكترونية » (معاريف ٧٣/٦/٨) .

ولم تشر المصادر الاسرائيلية المختلفة الى أي دور هام لعبته المدفعية خلال حرب ١٩٦٧ سوى في القصف التمهيدي لمواقع « أم قطف » الدفاعي عند « ابو عجيلة » حيث قام نحو ١٠٠ مدفع ميدان ومتوسط بقصف مركز استمر نحو ٢٠ دقيقة سبق هجوم المشاة الليلي ، والقصف التمهيدي الشديد الذي وجهته المدفعية الاسرائيلية لمواقع مدينة غزة يوم ٦٧/٦/٦ بعد سقوط تل « علي المنطار » في أيدي المظليين خلال الليلة السابقة .

وكانت المدفعية الاسرائيلية المشتركة في هذه الحرب ، هي أقل أسلحة الجيش الاسرائيلي تطورا وقتئذ (بالاضافة لسلاح البحرية) ومؤلفة من خليط من انواع مختلفة من المدافع المقطورة عيار ٢٥ رطل الانجليزي و١٥٥ مم الامريكي والمدافع ذاتية الحركة عيار ١٠٥ مم الفرنسية الطراز (مركبة على شاسيهات ا ماكس ١٣) ويقدر عدد قطعها بنحو ١٨٠ مدفعا . وعيار ١٥٥ مم الفرنسية الطراز ايضا (مركبة على شاسيهات شيرمان م — ٥٠) .

وكان الدرس الاساسي الذي استخلصته القيادة الاسرائيلية من حرب ١٩٦٧ بالنسبة لسلاح المدفعية ، هو ضرورة تحويل معظم قطعها الى مدفعية ذاتية الحركة حتى تستطيع ان تواكب حركة المدرعات والمشاة الميكانيكية ، وتكون قادرة على المناورة واجتياز الاراضي الوعرة ، وتأمين الدعم بالنيران للقوات المدرعة والميكانيكية بغية تسهيل مهامها الهجومية او الدفاعية .

وتسارعت خطى تدعيم سلاح المدفعية الاسرائيلي في هذا الاتجاه عقب نشوب معارك حرب الاستنزاف المصرية عام ١٩٦٩ و١٩٧٠ ، التي لعبت فيهما المدفعية المصرية القوية كما ونوعا الدور الرئيسي ، وقامت الولايات المتحدة الامريكية بامداد الجيش الاسرائيلي خلال هذه الحرب وبعدها بعدد من المدافع « م — ١٠٩ » عيار ١٥٥ مم ذاتية الحركة ، و « م — ١٠٧ » عيار ١٧٥ مم ذاتية الحركة ، و « م — ١١٠ » عيار ٢٠٣ مم ذاتية الحركة ايضا . وتتميز هذه المدافع كلها بالقدرة على المناورة مع المدرعات وبقوة النيران (بدرجات متزايدة القوة ابتداء من المدفع ١٥٥ مم الذي تزن قذيفته ٤٤ كلغ الى المدفع ٢٠٣ مم الذي تزن قذيفته ٩٠٫٧ كلغ مرورا بالمدفع ١٧٥ مم الذي تزن قذيفته ٦٦٫٦ كلغ) وببعد مداها بدرجات متفاوتة (المدفع ١٥٥ مم مداه الاقصى ١٤٦٠٠ متر والمدفع ٢٠٣ مم مداه ١٧٦٠٠ متر والمدفع ١٧٥ مم مداه ٣٢٧٠٠ متر) الا ان اعدادها كانت محدودة نسبيا .

واعتقدت اسرائيل انها بذلك قد طورت مدفعيتها بالدرجة الملائمة وبالصورة المناسبة لعقيدتها القتالية ، وفي مواجهة مشكلة قلة عدد المدافع ذاتية الحركة النسبية اقامت القيادة الجنوبية وراء خط بارليف طريقا موازيا للخط لتسير عليه بطاريات المدفعية ذاتية الحركة مقدمة الدعم الناري الى كل نقطة في الخط تطلب دعم المدفعية ، التي اعتبرت جزءا من الاحتياطي المتحرك وراء الخط الدفاعي الثابت يؤدي دوره بالتعاون مع الطيران الذي سيقدم الدعم القريب بشكل رئيسي . وعندما واجه الطيران الاسرائيلي مفاجأة الدفاع الجوي العربي، خاصة في جبهة القناة ، شعرت وحدات المشاة المتخندقة في خط بارليف ، وكذلك وحدات الاحتياطي المدرع المكلفة بتوجيه الضربات المعاكسة الاولى ، بضعف الدعم الناري الذي قدمته المدفعية لها في مواجهة الدعم القوي بالنيران الذي كانت تقدمه مئات المدافع المصرية والهاونات الثقيلة وقواذف صواريخ كاتيوشا لوحدات مشاتها المهاجمة . وأثر ذلك على انعدام التوازن بين قوة النيران المصرية والاسرائيلية .

ولذلك اخذت القيادة الاسرائيلية تدفع الى ساحة القتال ، خاصة في الجولان ، باعداد كبيرة من المدافع المقطورة التي غنمتها من العرب في حرب ١٩٦٧ من الهاوتزر عيار ١٢٢ مم و١٣٠ مم والمدفعية الصاروخية عيار ٢٤٠ مم ذات الاثنتي عشرة سبطانة، واستخدمت هذه المدافع بكثرة ايضا خلال حرب الاستنزاف السورية الاخيرة التي وقع العبء الاساسي فيها من الجانبين على سلاح المدفعية .

ولذا فان من المتوقع ، على ضوء تصريحات الجنرال جور الاخيرة ، زيادة قوة المدفعية الاسرائيلية ، خاصة من حيث الكم ، خلال مرحلة اعادة بناء وتنظيم الجيش الاسرائيلي الجارية حاليا ، حتى لا تتكرر ظروف حرب ١٩٧٣ بالنسبة الى وحدات المشاة والمدرعات من حيث ضعف وسائل الدعم بالنيران البرية . وغالبا ما ستزيد نسبة عدد المدافع المقطورة عما كانت عليه من قبل (بالاضافة لزيادة عدد المدافع ذاتية الحركة) ،

نظرا لان الاقتصار على جعل القوة الرئيسيـــة للمدفعية من المدافع ذاتية الحركة يكلف الجيوش تكاليف باهظة ، ويفترض استخداما محدودا للذخيرة ضد اهداف محددة خلال معارك حرب متحركة ، مع استخدام الذخيرة النووية التكتيكية وهذا هو الاساس التكتيكي لاعتماد الجيش الامريكي وجيوش حلف الاطلنطي على المدفعية ذاتية الحركة بدلا من المدفعية المقطورة . ولما كان هذا الافتراض لا يناسب ظروف اسرائيل والصـــراع العربي — الاسرائيلي المسلح ، فان الاعتماد المطلق على المدفعية ذاتية الحركة لتوفير قوة الدعم الناري البري بفاعلية لا يناسب هذه الظروف القتالية . هذا فضلا عن ان التكلفة الاقتصادية للمدافـــع المقطورة أقل من تكلفة المدافع ذاتية الحركة وسيبقى حجم المدفعية المقطورة الاسرائيلية محدود نسبيا ضمن حدود الطاقة البشرية للجيش الاسرائيلي ، خاصة الجيش العامل الذي نتوقع أن يظل اعتماده الاساسي على المدافع ذاتية الحركة ، على حين سيتركز الجزء الاكبر من المدافع المقطورة في القوات الاحتياطية التي تشكل معظم الجيش الاسرائيلي .

٢ — أسلحة فرنسية للعرب

نشطت حملات التسليح في الاونة الاخيرة في معظم الدول العربية سواء منها المحاذية لاسرائيل، او في دول الخليج العربي والسعودية والعراق ، او في ليبيا . وابرزت هذه الحملات اتجاهـــات جديدة في نوعيات الاسلحة والمصادر التي قصدتها بعض الدول للحصول عليها . وكانت فرنسا هي الفائز الاكبر حيث نازعت بريطانيا والولايات المتحدة اسواق السلاح في منطقة الخليج خاصة . وقد سلطت اجهزة الدعاية أضواء ساطعة على الصفقات الكبيرة مثل صفقات الميراج « ف — ١ » للسعودية والكويت و« الميراج — ٥ » لابو ظبي . ودبابات أ.م. اكس — ٣٠ للسعودية . الا ان القليل جدا ذكر عن بعض الصفقات الصغيرة والهامة الى عدد لا بأس به من الدول العربية .

فقد أعلنت فرنسا انها ستزود كل من الكويت وابوظبي ، والسعودية ، والعراق ، بما مجموعه ٨٠٠٠ صـــاروخ من طراز « س.س — ١١ » و « هاربون » . ويمكن استخدام هذه الصواريخ ضد الدبابات ، ويمكنها في هذه الحالة ضرب أهداف ثابتة او متحركة وخرق درع سماكته ٦٠٠ ملم . او ضد السفن وتستطيع في هذه الحالة خرق درع من الفولاذ سماكته ١٠ ملم فقط ، وينفجر الصاروخ على بعد ٢٠١ م من نقطة الاصطدام . او يستخدم ضد الافراد ، وفي هذه الحالة يحمل رأسا حربيا متشظيا . ولصاروخ « هاربون » المواصفات ذاتها التي لصاروخ « س.س — ١١ » ويختلف عنه بأنه مزود بنظام توجيه اوتوماتيكي متطور جدا ، يجعل بالامكان اطلاقه من الطائرات المقاتلة العاديـــة بالاضافة الى العربات البرية ، والسفن ، وطائرات الهليكوبتر .

وحصلت ابوظبي على انواع اخرى من المعدات هي أجهزة لاطلاق صواريخ « أس — ٣٧ » زودت بها طائرات « الميراج — ٥ » التي اشترتها من فرنسا . والصاروخ « أس — ٣٧ » هو صاروخ ضخم مضاد للرادار طوله ٤٢٠ سم ، ويطلق من الجو للارض ولم تحدد المصادر الفرنسية مداه ، واكتفت بالقول بانه يصل الى بضعة عشرات من الكيلومترات . ومن المرجح ان يكون في حدود ٦٠ كيلومترا . ويوجه هذا الصاروخ بطريقة سلبية بتتبع الموجات الكهرمغناطيسية التي تطلقها أجهزة الرادار .

أما ليبيا فقد اشترت ٧٠ مدفع هاون من عيار ١٢٠ ملم . والمدافع المذكورة من أحدث ما انتجت المصانع الفرنسية . فهو مركب على عجلات وله سبطانة محلزنة خلافا لسبطانات مدافع الهاون الملساء العادية . وهذا يجعله أقرب الى مدافع الميدان العادية منه الى مدافع الهاون حيث يصل مداه الاقصى الى ١٥ كيلومترا . يضاف الى ذلك ان دقة اصابته اكبر، ووزنه أخف، وحركته أسهل، ويمكن اسقاطه من الطائرات .

وحصلت العراق على مدافع هاون من عيار ٦٠ ملم . وتشمل الصفقة ١٠٠٠ مدفع من العيار المذكور ، وهذه المدافع تطلق النار بشكل آلي او يدوي ، مع ٥٥٥ الف قذيفة مختلفة . وستستخدم هذه المدافع لدعم وحدات المشاة في القتال المتحم، وتستطيع هذه المدافع اطلاق النار على أهداف يقل بعدها عن ٥٠ مترا ، ولا يزيد عن ٢٠٠٠ متر. ولا يزيد وزن المدفع بكامله عن ١٥ كلغ ، وبالتالي فان بامكان جندي مشاة واحد ان يحمله ، ويحمل جندي آخر جعبة ظهر تتسع لثماني قذائف لها جميعها الوزن ذاته .

وأهم الصفقات التي عقدتها العراق او التي تخطط لعقدها هي : اولا ، تركيب مدافع من عيار ٢٠ ملم على ٤٠ طائرة هليكوبتر فرنسية الصنع من طراز « الويت ٣ » . والعراق هو الدولة العربية الاولى التي تركز على استخدام طائرات الهليكوبتر المسلحة . ويمكن تسليحها ايضـــــا بصواريخ « س‌س ـــ ١١ » او « هاربون » . وهذه الاسلحة مجتمعة تجعل من الهليكوبتر مواقع رمي طائرة مثالية في العمليات الهجومية والدفاعية ايضا . والصفقة الثانية تتعلق بأنظمة توجيــه تعمل بأشعة لايزر وتشمل الصفقة ١٥٠ جهازا سيتم تركيبها على مصفحات « بانهارد » المسلحة بمدافع من عيار ٩٠ ملم . وهذه الاجهزة قادرة على التقاط اهداف تبعد مسافة ١٠ كيلومترات .

يضاف الى ما تقدم كميات كبيرة من مختلف انواع الذخيرة ، وقطع الغيار وقنابل المدفعية والهاون ، والقنابل الخارقة للدروع . وتبلغ قيمة كل هذه الصفقات حوالي ٧٥٠ مليون فرنـــك فرنســي . والجدير بالذكر ان فرنسا تحاشت في كل هذه الصفقات ان تبيع أسلحة الى الدول المتورطــة بشكل مباشر في نزاع الشرق الاوسط . كما انها تشترط عدم أعادة تصدير هذه الاسلحة الى طرف ثالث دون موافقة فرنسا . ولكن ذلك لا يعني بأن هذه الاسلحة لن تستخدم في أي صراع مقبل مع اسرائيل . فمن المستبعد جدا ان يقف العراق مكتوف الايدي تجاه أي قتال على الجبهة الاردنية او السورية ، او ان لا يشارك فيه بكل قوته ويستخدم كل اسلحته بما في ذلك الاسلحة الفرنسية الصنع .

٣ ـــ أسلحة جديدة في العرض العسكري الاردني

جرى يوم السبت ١٩٧٤/٥/٢٥ عرض عسكري اردني بمناسبة عيد الاستقلال ويوم الجيش . وظهر في العرض عدد من الاسلحة الحديثة اهمها طائرات ف ـــ ٥ ي ، وصواريخ مضادة للدروع طراز تاو ، ودبابات م ـــ ٦٠ ، وطائرات نقل مختلفة من ضمنها طائرة من طراز هيركوليز ، ومدافع رباعية مضادة للطائرات محمولة على سيارات عيار ٢٠ مم . ومن الواضح ان الجيش الاردني تطور تطورا كبيرا خلال الاعوام التي تلت حرب ١٩٦٧ . وازدادت اهميـــة هذا الجيش بعد حرب تشرين ١٩٧٣ واندحـــــار اسرائيل التي كانت تشكـــل الضمانة الرئيسيـــة للمصالح الغربية في المنطقة . الا انه من الملاحظ افتقار الجيش الاردني الى وحدات رئيسية فـــي الحروب الحديثة ، مثـــل الصواريخ المضـــــادة للطائرات ، كما ان مدفعيته المضادة للطـــائرات ضعيفة بشكل ملحوظ . فالجيش الاردني يمتلــك اعدادا لا بأس بها من المدافع الثنائية ذاتية الحركة المضادة للطائرات من طراز م ـــ ٤٢ عيار ٤٠ ملم، الا ان هذه المدافع غير مزودة بأجهزة انذار وتوجيه رادارية مثل باقي المدافع الحديثة . وهذا يقلل فاعليتها ضد المقاتلات النفاثة المتطورة .

وقد اشار اللواء زيد بن شاكر رئيس الاركان الاردني ، الى ان قوام الجيش سيصل الـــى ٨٠ الف رجل عام ١٩٧٥ وسيكون محمـــولا بكامله ، وسيتسلح بمئة طائرة من طراز « نورثروب فـــ٥ » و« ستار فايتر » و« هوكر هنتر » . ولا شك ان زيادة قوة الجيش الاردني الى المستوى المذكور ستزيد من وزن الاردن السياسي ، وهذا سيمكنه من لعب دور أكبر على صعيد منطقة الشرق الاوسط، وربما على أصعدة اخرى ، خاصة في منطقـــة الخليج . ويجدر الذكر ان الولايات المتحدة خصت الاردن بمساعدات مقدارها ٢٥٠ مليون دولار ، وهذا يؤكد الاهمية التي اصبحت للاردن خاصة بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

٤ ـــ الاسلحة التي تطلبها اسرائيل

في أعقاب حرب تشرين الاول واختلال التوازن في القوى بين العرب واسرائيل ، نشطت الصحف الغربية التي تسيطر عليها الصهيونية ، والصحف الاسرائيلية كذلك في الحديث عن أسلحة قالت بـــأن اسرائيل تطلبها لردم الهوة التي أحدثتها الحرب ، ولاعادة المعنويات الاسرائيلية المنهارة الى حالتها، واعادة الثقة في قدرة الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بأسلحة قادرة علـــى قهـــر الاسلحـــة السوفياتية .

وقد تركزت الجهود الصحفية هذه على ابـــراز الاسلحة القادرة على تدمير بطاريات صواريخ سام السوفياتية التي تشكل العقدة التي لم تستطـــع القوات الاسرائيلية تجاوزها . فذكرت صـــاروخ كوندور كسلاح قادر على تدمير بطاريات الصواريخ العربية عن بعد يزيد عن مدى هذه الصواريخ . والصاروخ كوندور يطلق من الجـــو الى الارض ويستخدم لقصف المراكز الهامة جدا ، والثمينة ،

مثل مراكز القيادة ، او السفن ، ولا يمكن استخدامه ضد الوحدات العادية نظرا لكلفته العالية جدا ، اذ يصل ثمن الصاروخ الواحد الى ٢٥٠ الف دولار . ولا يمكن اطلاقه من جميع انواع الطائرات ، وقد صمم ليطلق من طائرات أ — ٦ انترودر ، وكورسير أ — ٧ ، وف — ١٤ . ولا تملك اسرائيل اي من هذه الطائرات .

والحل الاخر الذي اكتشفته الصحافة الغربية لتعطيل عمل شبكة صواريخ سام — ٦ ، كان الحصول على طائرة من طراز ي آ — ٦ براولر ، وهي طائرة تشويش الكتروني تحمل اربعة ملاحين، وتعتبر احدث ما انتج في الولايات المتحدة في هذا المجال . وتقول المصادر الامريكية انها جربت أجهزة هذه الطائرة ضد اجهزة رادار تابعة لصواريخ سام ٢ وسام ٣ ، كانت قد استولت عليهما ، ونجحت في تعطيل عملها تماما الا أنها لم تجرب فعالية اجهزتها ضد رادارات صواريخ سام ٦ ، وبالتالي فان قدرتها في هذا المجال تبقى غير معروفة .

وذكر كذلك صاروخ يطلق من الجو الى الارض ويحمل رأسا نوويا من طراز سرام كحل للتغلب على شبكات الصواريخ ، الا ان كون هذا الصاروخ نوويا يجعل من الصعب جدا تزويد اسرائيل به ، ولهذا فقد أشارت الصحف الاسرائيلية الى امكانية تزويده برأس تقليدي شديد الانفجار . الا ان ذلك لا يغير من حقيقة بسيطة وهي أن هذا الصاروخ مرتفع الثمن جدا ، ولا يمكن اطلاقه الا من قاذفات القنابل الاستراتيجية من طراز « ب — ٥٢ » و« ف ب — ١١١ » .

وأشارت الصحف الى صاروخ من طراز لانس سيستخدم كحامل لعدد من الصواريخ الصغيرة المضادة للدبابات ، تنفصل عن الصاروخ الام فوق الهدف . وهذا الصاروخ الذي هو حسب قول الصحف ، تطوير لصاروخ لانس العادي الذي يطلق من الارض الى الارض . وليست هناك انباء حقيقية حول صاروخ من الطراز المذكور ، ويحتمل ان يكون هناك نماذج ما زالت قيد التطوير، لا يمكن التنبؤ بمدى ما ستحرزه من نجاح ، أو ما اذا كانت ستدخل مجال الخدمة الفعلية ام لا . اما القول بأنه سيكون بالامكان ، في حالة اطلاقها على ملعب لكرة القدم ، تحديد الصف ورقم المقعد الذي سيسقط فوقه كل صاروخ من الصواريخ الصغيرة التي ستنفصل عن الصاروخ الام ، فانها مجرد اضغاث احلام . تتجاهل ان في الحرب طرف اخر له ارادته ووسائله وجهوده .

٥ — عرض القوة العسكرية المصرية

بمناسبة ذكرى ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ السابعة قام الجيش المصري الثالث باجراء عرض عسكري ضخم في الصحراء القريبة من مدينة السويس على الضفة الغربية من القناة ، كما قام الجيش المصري الثاني بعرض مماثل قرب مدينة الاسماعيلية ، وحضر الرئيس السادات والمشير احمد اسماعيل كل من العرضين العسكريين اللذين لم يسبق لهما مثيل منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، واللذين عمد الى نشر صورهما عالميا بشكل يعطي مدى ضخامة حجم القوات المعروضة ونوعية أسلحتها وكميتها . فقد أظهرت هذه الصور مثلا في عرض الجيش الثاني نحو ٥٤٦ دبابة « ت ٥٤ » و« ت ٥٥ » مصطفة في ٦ تشكيلات كبيرة ووراءها نحو ٣٦٠ ناقلة جنود مجنزرة طراز « ب ت ر — ٥٠ ب » ، فضلا عن مئات من المدافع الهاوتزر عيار ١٣٠ مم التي يبلغ مدى رميها نحو ٢٥ كلم ، وعيار ١٢٢ مم « م — ٣٨ »، و١٢٢ مم « د — ٣٠ » التي يبلغ مدى رميها نحو ٢٢ كلم . وظهرت في عرض الجيش الثالث ٣٢ مجنزرة تحمل كل منها ٣ صواريخ « سام — ٦ » وعشرات من الصواريخ « سام — ٣ » و« سام — ٢ » فضلا عن بعض الصواريخ « فروغ ٧ » (وكذلك ظهرت اعداد من مختلف الصواريخ المذكورة في عرض الجيش الثاني)، وفي الوقت نفسه كانت اسراب طائرات الميج — ٢١ وسوخوي ٧ — تحلق فوق القوات البرية اثناء العرضين . وهذان العرضان هما وسيلة ضغط غير مباشرة لتعزيز موقف مصر في مفاوضات جنيف ، وتذكير اسرائيل بأن الجيش المصري عوض خسائره في حرب ١٩٧٣ ، رغم خلافاته الجزئية مع الاتحاد السوفياتي ، وان هذه الخلافات لم تؤثر على قدرته القتالية .

محمود عزمي وهشام عبدالله

ملحق القضية الفلسطينية عسكريا

تقرير عن عملية أم العقارب « كفارشامير »

في نيسان من هذا العام كانت ملحمة الخالصة وكانت ترشيحا في ايار ، وها هي أم العقارب في حزيران ، وغدا ... كل فلسطين . هكذا وعد الشهداء من ابطالنا جماهير امتهم ، فها هو الشهيد البطل منير المغربي يقول « يا والدتي العظيمة ، لكي لا تلدي في العراء اطفالا مشوهين ، أصنع لك بيتا لا تقتحمه الوحوش ، تنمو فيه أمانيك ، ويكبر أطفالك ، وانت يا والدي حدثتني كثيرا عن الارض التي كبرت فيها وكنت معطاء مثلها ، شاهدتك تحلم بالعودة ، فمن اجلك ، ولاحقق حلمك ، امضي في هذا الطريق » (الى الامام ، عدد ٤٥٦) .

جاءت عملية القائد الشهيد « أبو علي اياد » والتي نفذها ابطال الخالصة ، بتوقيتها ، ودقة تخطيطها وطريقة تنفيذها ، انفجارا مدويا في مستنقع السكون التام المريب الذي بدأ يسود المنطقة ، في ظل حملة غسل الدماغ العربي لاعادة الاعتبار الى السياسة الاميركية لدى جماهير أمتنا . جاءت هذه العملية لتغطي بدويها الدامي تسجيلات الترحيب « برسول السلام » نيكسون ، ولتؤكد بالدم ان الحقوق القومية للشعب الفلسطيني على ارضه ، هي حيث تصل أقدام المقاتلين . وان المشكلة الفلسطينية هي اساس الصراع ، ولن يكون هناك سلام الا بحلها .

ففي تمام الساعة الثامنة والنصف بتوقيت فلسطين (التاسعة والنصف بتوقيت بيروت) ، من صباح الجمعة ١٩٧٤/٦/١٤ ، قامت مجموعة أبطال الخالصة بتنفيذ عملية القائد الشهيد « أبو علي أياد » ، فاقتحمت قرية أم العقارب التي تعرف باسم مستعمرة « كفارشامير » ، وفي الوقت نفسه كانت مجموعة الحماية تأخذ مواقعها لمشاغلة العدو وضرب نجداته . وقد تمكنت مجموعة التنفيذ من اقتحام الهدف ، واحتجاز ٣٢ رهينة في مطعم الكيبوتس ، وارسلت مع احدى النساء انذارا الى قادة العدو باللغتين العربية والعبرية تطالبه باطلاق سراح مئة فدائي يكون من بينهم كوزو اوكوموتو والمناضلات المعتقلات والمناضلين الجرحى والمرضى ، والمناضلين حسب أقدميتهم في الاسر . وأعطته مهلة ست ساعات غير قابلة للتمديد لتنفيذ المطالب ، والا فان المجموعة ستفجر نفسها والرهائن بعد انتهاء مدة الانذار ، وحذرت العدو من المماطلة والخداع وعدم الاستجابة لمطالب الثوار العادلة .

وقامت الجبهة بالاتصال بالصليب الاحمر الدولي ليتولى عملية تامين نقل الاسرى المئة من ثوارنا في حالة استجابة العدو للطلب . كما جرى ابلاغ سفارتي فرنسا ورومانيا بانهما ستبلغان كلمة السر التي سيفرج على ضوئها ثوارنا عن الرهائن من أسرى العدو بعد وصول ثوارنا الى دمشق .

انطلاقا من الاستراتيجية المعدة مسبقا لمواجهة مثل هذه العمليات والتي عبر عنها دايان بقوله « ينبغي علينا ان نقتلهم ، والا نستجيب لمطالبهم ، والاسلوب الوحيد — حسب اعتقادي — لمواجهة الارهاب هو الا يحصلوا على مطالبهم، والا يخرجوا من هنا أحياء ، وينبغي ان نحقق ذلك بأفضل ما عندنا من وسائل » (ر.أ.ف. ، ٧٤/٥/٢١) ، انطلاقا من هذه الاستراتيجية كانت « مجزرة » الخالصة وكان هجوم القوات الاسرائيلية على مدرسة معالوت قبل نصف ساعة من انتهاء موعد الانذار . وفعلت اسرائيل كذلك الشيء نفسه في هذه المعركة استخفافا بأرواح الرهائن ، فقام العدو بزج قواته منذ اللحظات الاولى للمعركة ، ففاجأته قذائف المجموعة الثانية وأعطبت له احدى آلياته العسكرية وسيارة للشرطة قتل او جرح جميع من فيهما ، وقد استمرت الاشتباكات حتى الساعة الثانية عشرة ظهرا حيث استشهد المناضلان أبو انتصار وابو الفدا وحاول العدو بعدها اقتحام المطعم الذي يحتجز فيه ثوارنا الرهائن فتصدى له مقاتلونا بالقنابل البندقية ومنعوه من تحقيق اهدافه ، واستمرت المعركة العنيفة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر حيث نفذ ثوارنا انذارهم بتفجير أنفسهم والرهائن بالاحزمة الناسفة . كانت خسائر العدو على النحو التالي :

١ — مقتل واحد وثلاثين رهينة كانوا محتجزين في مطعم المستعمرة . ٢ — مقتل واصابة

أكثر من ١٥ خمسة عشر جنديا صهيونيا . ٣ — مقتل اربع نساء بينهن مجندة صهيونية في شوارع المستعمرة . ٤ — مقتل خمسة صهاينة في شوارع المستعمرة . ٥ — تدمير سيارة عسكرية وسيارة شرطة .

أما شهداؤنا الابطال فهم : ١ — الشهيد البطل سامي ابو زكي ، ابو الشمس ، لبناني الجنسية ، من مواليد سنة ١٩٥٥ وهو قائد المجموعتين . ٢ — الشهيد البطل فاخر باقر الساعدي ، ابو انتصار ، عراقي الجنسية من مواليد سنة ١٩٥١ . ٣ — الشهيد البطل زكريا عرفات صحراوي ، ابو ابراهيم ، فلسطيني الجنسية من مواليد سنة ١٩٥٦ . ٤ — الشهيد البطل صلاح عبد الحميد المظفر ، ابو الفدا ، عراقي الجنسية من مواليد سنة ١٩٥٢ .

فلسطين حبهم الكبير ، فمن اجلها وفي سبيلها كان عطاؤهم الكبير ، فها هم يضيفون الى البناء اربعة مداميك جديدة من أجسادهم ليكتمل البيت الذي يحلمون به .

ففي الخالصة امتزجت الدماء العراقيـــة والفلسطينية والسورية لتؤكد وحدة الامة العربية ووحدة نضالها ، واليوم في قرية أم العقارب انضم الدم اللبناني الى معانقة تلك الدماء في مأثرة الشرف والبطولة ليؤكد وحدة الموقف ووحدة المصير . وليؤكد بأن طريق العودة لن يكون الا سباحة في نهر من الدم .

حول كيبوتز كفار شامير :

أسس كيبوتز كفار شامير في عام ١٩٤٤ شمال شرق فلسطين، بمقاطعة صفد قرب الحدود السورية في موقع أم العقارب بسهل الحولة ، على طريق كريات شمونة — عامير ، يبعد عن كريات شمونة ١٢ كلم . يتبع كيبوتز كفار شامير الكيبوتز الوطني، وسكانه يهود معظمهم من رومانيا ، يشتهر بزراعة الحبوب واشجار التفاح ، كان عدد سكانه في عام ١٩٥٠ (٤٣٤) نسمة ، انخفض نتيجة تعرضه لقصف المدفعية السورية في تلك الفترة الى ٣٠٠ نسمة في عام ١٩٦١ . ثم شهد الكيبوتز نموا سريعا ومتعاظما في أعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧ حيث أصبح يعتبر من الكيبوتزات البعيدة عن خطوط المواجهة . وتزايد عدد سكانه الى ١٢٠٠ — ١٥٠٠ نسمة تقريبا في عام ١٩٧٣ .

يعتبر كيبوتز كفارشامير من أكثر كيبوتزات العدو تحصينا ومناعة . وهو أكبر كيبوتز في منطقـــة الحولة ، ويعتبره العدو مفخرة منجزاته الاستيطانية في شمال شرق فلسطين ، وهو نقطة الوصـــل لكيبوتزات تلك المنطقة .

ولكن ماذا عن رواية العدو الذي يحاول التستر على هذه العملية ، ومحاولة التقليل من حجمها .

الرواية الاسرائيلية : أعلنت الاذاعة العبرية في اسرائيل في نشرة اخبارها في الحادية عشرة صباحا نقلا عن مراسليها في مستعمرة شامير (ر.٠أ.٠ ، ٧٤/٦/١٣) انه في نحو الساعة الثامنة والنصف صباحا ، شاهد اثنان من اعضاء الكيبوتس غير مسلحين ، أشخاصا مشبوهين قرب بركة السباحة الواقعة غربي مباني الكيبوتز . وطلب هـــذان العضوان النجدة ، فوصل الى المكان أحد اعضاء الكيبوتز المسلحين وأطلق النار على أحد «المخربين» وقتله . ودخل « المخربان » الاخران الى المنحلة الواقعة على بعد حوالي مئتي متر من الكيبوتز . وقام أعضاء الكيبوتز بتطويق المنحلة واطلقوا النار على من فيها . وفي هذه الثناء حضرت قوات الامن، بقيادة قائد المنطقة الشمالية العميد رفائيل ايتان . وخلال تبادل اطلاق النار ، أصيبت المواد المتفجرة التي كانت في حوزة « المخربين » وسمعت أصوات انفجارات داخل المنحلة ، وعندما اقتحمت قوات الامن المبنى وجدت جثث « المخربين » . وعندها اتضح ان « المخربين » كانوا قد قتلوا قبل ذلك ، النساء الثلاث اللواتي كن داخل المنحلة .

وفي رواية اخرى نقلا عن لسان يحزقيل همئيري (ر.٠أ.٠ ، ٧٤/٦/١٣) ، ان عاملا المنحلة في الكيبوتز شاهدا لدى اقترابهما من المنحلة شخصين على كتفيهما حقائب ، واثارت خطواتهما المترددة ، ومنظرهما الخارجي شكوكهما ، فتراجعا الى الوراء في محاولة للتستر خلف مبنى قريب ، فشاهدهما « المخربون » واطلقوا عليهما النار من الاسلحة التي كانت مخبأة تحت ثيابهما. واصيب أحد العاملين في صدره ويديه ، واستطاع هذا العامل الجريح ان يزحف لغاية المبنى القريب لطلب النجدة . ولكن قبل ان يستطيع الاتصال مع رجـــال الامـــن في الكيبوتز ، وصل الى المكان في سيارة جيب ، عدد من اعضاء الكيبوتز المسلحين . وقد أسرعوا الى

المنطقة عند سماعهم الطلقات النارية . ورد اعضاء الكيبوتز على نيران « المخربين » ، وعندها اقتحم « المخربون » الذين كانوا في طريقهم على ما يبدو الى الكيبوتز ، اقتحموا « المنحلة » القريبة منهم . ويعتقد ان نية « المخربين » كانت اقتحام الكيبوتز والاستيلاء على رهائن في مبنى غرفة الطعام . وقد تعرقلت عمليتهم بعد ان شاهدهم عاملا « المنحلة » وهما في طريقهما من غرفة الطعام الى « المنحلة » .

بينما يذكر قائد المنطقة الشمالية العميد رفائيل ايتان في نشرة اخبار الساعة ١٣٠٠٠ من اليوم نفسه ، « ان « المخربين » كانوا أربعة ، ودخلوا الكيبوتز ، وهناك اصطدموا بمتطوعة ولم يقتلوها ، وعند سماع أصوات الرصاص ، هرع بعض اعضاء الكيبوتز ، وفر « المخربون » باتجاه مبنى المنحلة ، بينما أخذ عضو الكيبوتز عوزي تسور موقعا له بالقرب من كوخ ، وفتح النيران واصاب اثنين ، قتل احدهما بينما زحف الاخر باتجاه هذه السيارة المحروقة . وجرى بعد ذلك تبادل اطلاق النار ، وفي غضون ذلك انضم اعضاء كيبوتز آخرون مع أسلحتهم ، وحينذاك فجر الشخص الذي زحف باتجاه السيارة نفسه » .

ولكن الاذاعة العبرية تعود في الساعة ١٤٠٠٠ لتذكر ان مجموعة « المخربين » تتكون من ثلاثة اشخاص . أحدهم فجر نفسه بالقرب من سيارة والاخر فجر نفسه داخل المنحلة والثالث قتله أحد اعضاء الكيبوتز . على حين يذكر مراسل الاذاعة في نشرة الساعة ١٥٠٠٠ ان اعضاء الكيبوتز قضوا على « مخربين » اثنين ، اما الثالث فقد فر جريحا نحو مستودع المنحلة حيث لقي مصرعه هناك من جراء انفجار شحنة من المواد المتفجرة كان يحملها كما يبدو .

ويستمر الاعلام الاسرائيلي بتناقضاته حين يتحدث وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيرس قائلا ان ثلاثة مخربين دخلوا الى المنطقة ، أطلق أحدهم النار على امرأة شاهدها في طريقه دون أية اثارة . وان القضاء على « المخرب » الثالث كان قد تم بعد وصول قوات الجيش الى الكيبوتز بعد وقت قصير من وقوع الحادث (ر.أ.ا. ، ٧٤/٦/١٤) ، وتنكشف بعض ملامح التعتيم المتعمد على هذه العملية الفذة ، حين يقول شبيجلمان مراسل الاذاعة (ر.أ.ا. ٧٤/٦/١٤) ان ثلاثة او اربعة « مخربين » وصلوا الى المنحلة شرقي الكيبوتز ، وتمركز هناك واحد او اثنان ، واتجه اثنان آخران نحو منازل الكيبوتز . قتل احدهما عوزي تسور عضو الكيبوتز وجرح الاخر الذي فجر نفسه قرب سيارة عسكرية . بينما انفجر « المخربان » الاولان المتمركزان داخل المنحلة كما يقول شبيجلمان . الا ان الناطق الرسمي بلسان جيش العدو يقول ، انه اتضح نتيجة للفحص الذي اجري في كيبوتز شامير ، ان اربعة « مخربين » اشتركوا في عملية القتل ، اثنان قتلا نتيجة لانفجار مواد متفجرة كانا يحملانها على جسميهما ، واثنان قتلا نتيجة لتبادل اطلاق النار (ر.أ.ا. ، ٧٤/٦/١٤) . ثم يبلغ التناقض ذروته حين يتحدث اللواء مردخاي جور رئيس الاركان في الجيش الاسرائيلي قائلا : بان «المخربين» دخلوا الكيبوتز، وتجولوا داخله وكأنهم في منازلهم، واطلقوا النار ، ومن تلك اللحظة ، انتظم الوضع في الكيبوتز ، وحمل اعضاء الكيبوتز أسلحتهم وركضوا الى مكان الحادث ، واصابوا «المخربين» واشتبكوا معهم وقتلوهم . والى جانب ذلك ، عندما تسلمنا النبأ أصدرت اوامر الى قوات الجيش باقتحام المكان وقتل « المخربين » (ر.ا.ا. ٧٤/٦/١٤) .

يتضح مما سبق من الروايات الاسرائيلية ان هناك خطا جديدا في الاعلام الاسرائيلي في تعامله مع مثل هذه العمليات ، يعتمد على التعتيم والتضليل منعا لردود الفعل العنيفة داخل اسرائيل ، ويبدو ذلك جليا من منع السلطات الاسرائيلية كل المراسلين أو مندوبي الصليب الاحمر الدولي من الوصول الى مكان الحادث ، ومن التناقضات الواضحة في أقوال الرسميين الاسرائيليين التي اوردت عينة منها .

وكالعادة ، ادعت اسرائيل بان « المخربين » تسللوا من منطقة « فتح لاند » في الاراضي اللبنانية، وسلكوا سفوح جبل الشيخ الغربية وعبروا طريقا جبلية طويلة ووعرة يزيد طولها على ١٥ كيلومترا لغاية كيبوتز شامير . وكالعادة ايضا تدفقت تهديدات الاسرائيليين بعد كل عملية ضد لبنان وضد الفدائيين ، فها هو جور ، رئيس الاركان الاسرائيلي يقول « بأننا نملك أساليب عدة لضربهم، وقد اتبعنا بعضها ، والبعض الاخر سننفذه ، ولا

فائدة من التحدث عنه ، وهذا النشاط كما هو معلوم متعلق بعدة عوامل ، سياسية وعسكرية ، وبناء على الاعتبارات الفورية ، وفي لحظة معينة تتخذ قرارات حول ماذا ينبغي ان نفعل (ر.أ.ف.، ٧٤/٦/١٤) . ويطالب هرتسوج بخوض حرب اكثر فعالية ضد منظمات « المخربين » اينما وجدت وفي كل زمان . ولم تتخلف الصحف الاسرائيلية عن اداء دورها في هذه الجوقة ، فكتبت داعية الى ضرب « المخربين » دون شفقة عبر الحدود لان الوضع كما تقول لم يعد محتملا ، حيث اتضح ان سلطات لبنان ليس من شأنها منع نشاطهم ، وتساءلت صحيفة هآرتس (٧٤/٦/١٤) عما اذا كان الجيش الاسرائيلي قد استنفد جميع الامكانات والوسائل لحماية المستوطنات القريبة من الحدود .

وقد نفى « ابو العباس » الناطق باسم الجبهة الشعبية — القيادة العامة في مؤتمر صحفي ان يكون الفدائيون الذين اقتحموا مستعمرة شامير قد انطلقوا من لبنان . وقدم توضيحات عسكرية كذب فيها مزاعم العدو . فأكد ان موقع العملية أقرب الى الحدود السورية الفلسطينية ، وان العبور اليه من خارج الارض المحتلة يفرض اجباريا المرور في هضبة الجولان المحتلة . وتحدى العدو اثبات مقدرة أي عنصر من عناصره مهما كانت طاقته على اجتياز الطريق الى المستعمرة من الحدود اللبنانية خلال ليلة واحدة . وقال ان العدو بمزاعمه يمنحنا وسام شرف لاعطائه لنا قدرة هائلة على اجتياز مواقعه وتحصيناته ونقاط مراقبته التي عززها على الحدود اللبنانية بشكل كثيف مؤخرا . وأكد « أبو العباس » ان العملية هي احباط لكل تدابير الامن الاسرائيلية وتأكيد جديد على مقدرة الفدائيين في الوصول الى أعتى مواقع العدو .

س.أ.

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٥/١٥ — ١٩٧٤/٦/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٥/١٥	٦٤٠٠	ميناء كيشون/حيفا(١)	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران في خزانات النفط	—	—	—	رقم ٧٤/١٠٣	٥/١٥
٢	٥/١٤	٢١٤٣٠	القدس	قصف	صواريخمتوسطة وثقيلة	غيرمحدد	اصابة منطقة مشيرم مقابل حي مصرارة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/١٠٤	٥/١٥
٣	٥/١٥	٤٤٠٠	معلوت/الجليل الاعلى	اقتحام واحتلال	أسلحة مختلفة	عشرات القتلى والجرحى	اصابة مبنى المدرسة بأضرار	٣	—	—	رقم١٠٥— ٧٤/١٢٣	٥/١٥
٤	٥/١٧	—	رمات جان(٢)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران في مصنع للبلاستيك والاسفنج وامتداد النيران الى مخازن المواد الاوليـة	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٥	٥/١٨
٥	٥/١٩	٤٤٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير معظم جسر بار يهودا وتعطيل حركة السير فوقه	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٦	٥/١٩
٦	٥/١٧	٢٠٤٣٠	بين القدس واريحا	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	اعطاب سيارة عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٨	٥/٢١
٧	٥/٢١	٢١٤٠٠	بين نهاريا والكابري	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٢٩	٥/٢١
٨	٥/٢١	—	ادميت	اشتباك	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	قتل مجموعة من الجنود	١	—	—	رقم ٧٤/١٢٩	٥/٢٤
٩	٥/٢٤	—	بين عين غيف وهاؤون/طبريا	اشتباك	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	—	٦	٢	—	رقم ٧٤/١٣٠	٥/٢٤
١٠	٥/ ٧	—	الشيخ زويد	تفجير	ألغـــام	غيرمحدد	تدمير سيارة باور واجن	—	—	—	رقم ٧٤/١٣١	٥/٢٥
١١	٥/١٢	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣١	٥/٢٥

١٢ — ٥/٢٦	١٤٠٢٠	كرمئيل/مجد الكروم	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران في مصنع للبلاستيك أتت على الماكنات والمواد الاولية وامتداد النيران الى مصنع الاسفلت	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٢ ٥/٢٦
١٣ — ٥/٢٦	—	مرج بن عامر(٢)	اقتحام وتفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير اجزاء كبيرة من مصنع سولنيم لصناعة رشاشات العوزي وقذائف الهاون عيار ١٦٠ ملم وامتداد النيران الى المباني المجاورة	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٣ ٥/٢٦
١٤ — ٥/٢٣	—	بئر السبع	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران في سينما اورون واتلاف جميع محتوياتها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٤ ٥/٣٠
١٥ — ٥/١٩	—	بئر السبع	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اعطاب سيارة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٥ ٥/٣٠
١٦ — ٥/٢٥	—	بين بيت كاما وبئر السبع	تفجير	ألغام	غيرمحدد	اعطاب سيارة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٥ ٥/٣٠
١٧ — ٥/٢٧	—	بين بئر السبع وقرية القين	تفجير	ألغام	غيرمحدد	تدمير باص واصابة عدد من ركابه	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٥ ٥/٣٠
١٨ — ٥/١٠	—	تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران في ماكنات صحيفة « هتسوفيه » ومستودعات الورق	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٦ ٥/٣١
١٩ — ٥/٣٠	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اتلاف محتويات نادي كلفيم الليلي	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٧ ٥/٣١
٢٠ — ٥/٢٠	٢٢٤٠٠	بين برقة وجنين	كمين	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٨ ٥/٣١
٢١ — ٥/٢٠	—	معسكر صانور/جنين	هجوم	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٨ ٥/٣١
٢٢ — ٥/٢٨	—	سجن ابو كبير	—	—	١ —	نفذ حكم الاعدام بالصهيوني اريه صوفري الذي يعمل مع المخابرات الصهيونية	—	—	—	رقم ٧٤/١٣٩ ٦/١

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
٢٣	٥/١٨	—	رمات غان	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في مصنع « شنير » للنسيج وامتداد النيران الى ماكنات النسيج	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٠	٦/١
٢٤	٥/٢٨	—	مدينة روشبينا	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		اعطاب باص وقتل وجرح جميع ركابه	—	—	—	رقم ٧٤/١٤١	٦/١
٢٥	٥/٢٧	—	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد		اندلاع النيران في غرف الغاز وامتدادها الى الورش الرئيسية لتصليح السفن في ميناء حيفا واتلاف محتوياتها	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٢	٦/٢
٢٦	٦/ ٢	٢١٠٠٠	ادميت	اشتباك	رشاشاتوقنابل وقذائف صاروخية	غيرمحدد		اصابة المستوطنة بأضرار	٢	—	—	رقم ٧٤/١٤٣	٦/٢
٢٧	٦/ ٣	—	صفد	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة مبنى مدرسة أغودات يسرائيل بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٤	٦/٣
٢٨	٥/٢١	—	جباليا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٥	٦/٥
٢٩	٦/ ٤	—	بتاح تكفا	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مصنع اطارات كاتشوك السيارات سامسيون	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٦	٦/٥
٣٠	٦/ ٣	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	تحطيم سيارة	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٧	٦/٦
٣١	٦/ ٥	—	تل ابيب(٤)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		تدمير واتلاف محتويات مستودع الالبسة العسكرية الرئيسي في الحي الصناعي واشعال النيران في المصنع المجاور والورش الصناعية وانقطاع التيار الكهربائي واخلاء المنطقة ٢٤ ساعة	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٨	٦/٦

٣٢ — ٦/ ٥	—	على طريق بيت ليد	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران في سيارتين	—	—	—	رقم ٧٤/١٤٩	٦/٨
٣٣ — ٦/ ٨	٥٤٠٠	ادميت	كمين	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غيرمحدد	تدمير آلية وقتل معظم افراد الدورية	٤	—	—	رقم ٧٤/١٥٠	٦/٨
٣٤ — ٦/ ٩	—	بين اوره وعمنداف/ القدس	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح افراد دورية	—	—	—	رقم ٧٤/١٥١	٦/٩
٣٥ — ٦/١١	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء من مبنى الادارة المدنية واتلاف ما فيه من اثاث	—	—	—	رقم ٧٤/١٥٢	٦/١٢
٣٦ — ٦/١٢	—	طبريا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير الخزان الرئيسي ومحطة ضخ المياه	—	—	—	رقم ٧٤/١٥٣	٦/١٢
٣٧ — ٦/١٣	٨٤٣٠	شامير	اقتحام	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	غيرمحدد	اصابة المستوطنة بخسائر جسيمة	٤	—	—	رقم ٧٤/١٥٤	٦/١٣
٣٨ — ٦/١٢	—	بين عنبتا ونورشمس /نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	١ —	انفجار عبوة في ضابط اثناء عملية تفكيكها في مصنع خلط الاسفلت	—	—	—	رقم ٧٤/١٥٦	٦/١٥

١ — اعترف العدو بالعملية ، راجع نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** ، عدد ٥٣٣ تاريخ ٧٤/٥/١٥ ، ص ٣٤٤ .

٢ — اعترف العدو بالعملية ، راجع نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** ، عدد ٥٣٦ تاريخ ٧٤/٥/١٨ ، ص ٤٣٩ .

٣ — راجع نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** ، عدد ٥٤٣ تاريخ ٧٤/٥/٢٧ ، ص ٦٧٢ .

٤ — راجع نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** ، عدد ٥٤٩ تاريخ ٧٤/٦/٧ ، ص ٤٣ .

ملاحظة : ١ — تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

٢ — قامت سلطات العدو باعتقال عدد من المواطنين خلال هذه الفترة ، وبعد العمليات العسكرية ، كما يبين الجدول المرفق من مكتب الارض المحتلة :

البلد	عدد المعتقلين
١ — نابلس	٩
٢ — الخليل	١١
٣ — عـكا	٢
٤ — رام الله	٦
٥ — غزة	١١
٦ — القدس	١١
المجموع	٥٠

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٥/٥—١٥/٦/١٩٧٤

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	٥/١٥	—	معلوت	كمين	أسلحة رشاشة	١	٨	اصابة سيارة «بيك اب» بأضرار	—	—	—	ن٠عدد٥٣٣ ص٣٤٥	٥/١٥
٢	٥/١٥	٤٠٠٠	معلوت	اقتحام	أسلحة مختلفة	١٩	٧٠	اصابة مبنى مدرسة معلوت بأضرار	٣	—	—	ن٠عدد٥٣٣وعدد٥٣٤	١٥—٥/١٦
٣	٥/١٧	—	المطلة	قصف	قذائف هاون	—	—	—	—	—	—	ن٠عدد٥٣٥ ص٤٣٠	٥/١٧
٤	٥/٢١	٢٠٠٠٠	ادميت	اشتباك	أسلحة رشاشة	—	—	—	١	—	—	ن٠عدد٥٤٠ ص٥٩٢	٥/٢٣
٥	٥/٢٢	—	رمات مجشيم	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	٦	—	٢	ن٠عدد٥٤١ ص٦٢٠	٥/٢٤
٦	٥/٣١	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن٠عدد٥٤٧ ص٨٢٤	٥/٣١
٧	٦/٨	—	ادميت	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	٤	—	—	ن٠عدد ٥٥٠ ص٦٧	٦/٨
٨	٦/١٣	—	شامير	هجوم	أسلحة مختلفة	٢	١	—	٣	—	—	ن٠عدد٥٥٥ ص١٩٦	٦/١٤

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد


١٩٥٤




الكويتية
٢٠
عامًا